الذّكاء الاصطناعيّ

الجُمْهُورِيَّة الجَزَائِريَّة الدِّيمُقْراطِيَّة الشَّعْبِيَّة

رئاسة الجمهوريّة

المجلس الأعلى للغة العربيّة

وزارة الشؤون الدينيّة والأوقاف

الملتقى الوطنيّ حول:

القرآن الكريم واللغة العربيّة

الجزء الثّالث

منشورات المجلس

2020

الملتقى الوطنيّ حول: القرآن الكريم واللّغة العربيّة

ج3







المجلس الأعلى للغة العربيّة

52، شارع فرانكلين روزفلت

ص.ب 575 ، ديدوش مراد، الجزائر

الهاتف : +213 21 23 07 16/17

النّاسوخ : +213 21 23 07 07

الموقع الإلكتروني : www.hcla.dz

الذّكاء الاصطناعيّ

الجُمْهُورِيَّة الجَزَائرِيَّة الدِّيمقْرَاطِيَّة الشَّعْبِيَّة

رئاسة الجمهوريّة





وزارة الشؤون
الدينيّة والأوقاف

الملتقى الوطنيّ حول:

القرآن الكريم واللغة العربيّة

الجزء الثالث

كـتاب: القرآن الكريم واللّغة العربيّة
(الجزء الثّالث)

- **إعداد : المجلس الأعلى للّغة العربيّة**
- **قياس الصفحة:** 23/15.5
- **عدد الصفحات:** 816

الإيداع القانوني: السّداسيّ الأوّل 2020
ردمك:

المجلس الأعلى للّغة العربيّة
العنوان: 52، شارع فرانكلين روزفلت
ص.ب 575، ديدوش مراد، الجزائر.
الهاتف: 16/17 07 23 21 213+
النّاسوخ: 07 07 23 21 213+
الموقع الإلكتروني: www.hcla.dz




الفهرس

"دلالة الظاهر عند الإمام الشاطبي وأثرها في تفسير القرآن الكريم"

داه. فريدة حايد
جامعة محمد الصديق بن يحيى، جيجل.

مقدمة: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على من أرسله الله بالآيات البيّنات في ألفاظ عربية؛ وبأساليب غنية ومقاصد سامية عالية؛ وعلى آله وصحبه الذين اهتدوا بهديه ووقفوا عند حده وبعد:

فإن الله قد خاطبنا في كتابه العزيز بلغة العرب والتي تعتبر مفتاح تفسيره ومدخل تحديد معناه، وقد اعتنى علماء الشريعة أيما اعتناء بالدلالة اللغوية لما لها من أثر في تفسير النص القرآني وتحديد مقصوده، ولكن هذه الدلالة لا تتعدى المعنى المتبادر من الألفاظ ومعناه الأولي، وهو ما يسمى بالدلالة الظاهرة عند علماء الأصول، وهو المعنى الذي تحدث عنه الإمام الشاطبي وحدد درجته في بيان المقصود الشرعي بضبط هذا المعنى ووضع قواعد الوقوف عنده وشروط تجاوزه؛ لذلك أردت معالجة هذه الجزئية وأثرها في تفسير القرآن الكريم بعنوان: "**دلالة الظاهر عند الإمام الشاطبي وأثرها في تفسير القرآن الكريم:**" لتميّز الإمام الشاطبي من بين علماء الأصول في التنظير لهذه الجزئية وربطها بالدلالة المقاصدية، مما كان لهذا التنظير أثره الواضح في استنباط الأحكام وتفسير القرآن الكريم وتأويل ظاهره بما يحقق مقاصده ويحافظ على لفظه، وهو المعنى الوسطي الذي يحفظ اللفظ بدون تفريط ويحقق المقصود من دون إفراط؛ **فما حقيقة الظاهر وما مدى اعتباره في فهم القرآن وتفسيره عند الإمام الشاطبي؟** هذا ما أردت معالجته في هذه المداخلة والله الموفق.

مدخل: في التعريف بالإمام الشاطبي: في التعريف بالشاطبي سأتجاوز أبجديات الترجمة المعروفة وأركز على أهم إضافات الشاطبي العلمية مما له دور في بيان منهجه في التأصيل والتفريع كالآتي:

فالشاطبي هو أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي المعروف بالشاطبي[1] من كبار علماء مالكية الأندلس في عصره، والشاطبي نسبة إلى شاطبة موطن آبائه، وقد لجأت أسرته إلى غرناطة بعد سقوط شاطبة بيد النصارى، ولد سنة 730 هـ وتوفي سنة 790ه[2]، وكانت غرناطة آنذاك موطن علم وثقافة تقاوم داء الانحطاط الذي بدأ يدب في الأندلس، فقد كانت الأندلس وغرناطة في عهده في حالة اضطراب سياسي وفتور علمي بحيث لم يتعد الاهتمام بالعلم مرحلة التقليد بعد الازدهار الذي عرفه في القرنين الرابع والخامس الهجري، لذلك ظهر علماء من أجل الذود عن الإسلام وتجديده، ونبذ التقليد ومنهم أبو إسحاق الشاطبي قال أبو الأجفان: "ولقد كان لمفكري الأندلس وعلمائه في هذا العهد المضطرب محاولات للإصلاح ورأب الصدع"[3] فقد بدأ سلطان المسلمين يزول ولذلك يلاحظ أن هذه الحالة العلمية والثقافية المتقدمة مقتصرة على بيان وحفظ ما هو موجود من العلوم بدليل أن المؤلفات الجديدة لم تكن سوى شروح واختصارات لما سبقها، ومما يؤكد هذه الأوضاع عدم وجود أي مذهب في غرناطة سوى المذهب المالكي قال الشاطبي: "إذ كتب الحنفية كالمعدومة في بلاد المغرب، وكذلك كتب الشافعية وغيرهم من أهل المذاهب"[4].

هذا الوضع هو الذي أدى إلى ما نبه إليه الشاطبي من انتشار البدع والانغلاق بحيث لا يقبل الرأي المخالف ولو نهضت له الأدلة الشرعية، ومن إصدار الفتاوى بناءً على تقليد أعمى، وتطبيق لأقوال الفقهاء من غير الغوص إلى أصولها، ولذلك يصور الشاطبي ما آلت إليه الأمور من خلال قوله: "رأى المقلدة لمذهب إمام يزعمون أن إمامهم هو الشريعة بحيث يأنفون أن تنسب إلى أحد من العلماء فضيلة دون إمامهم حتى إذا جاءهم من بلغ درجة الاجتهاد وتكلم في المسائل ولم يرتبط إلى

إمامهم رموه بالنكير وفوقوا إليه سهام النقد وعدوه من الخارجين على الجادة والمفارقين للجماعة من غير استدلال منهم بدليل"[5] وقال في الموافقات: "صار كثير من مقلدة الفقهاء يفتي قريبه أو صديقه بما لا يفتي به غيره من الأقوال إتباعا لغرضه وشهوته أو لغرض ذلك القريب وذلك الصديق"[6]. وقد كانت بين الشاطبي وبين هؤلاء الفقهاء مصادمات عنيفة، فكان إذا أفتى بالجواز في مسألة أفتوا هم بالمنع، وإذا أفتى بالمنع أفتوا هم بالجواز.[7]

إذن هذا هو المناخ الذي نشأ فيه الشاطبي وقد كان له أثر كبير على فكره فحاول النهوض بالوضع فكان كتابه الاعتصام بياناً لهذه الأفكار وأمثالها ورداً عليها، وكان الموافقات كتاب في ضبط أصول التفكير والاستنباط؛ فقد ضمنه أصولا لضبط منهجية التفكير والاستنباط وسمّاه "عنوان التعريف بأسرار التكليف" ثم عدل عن هذا الاسم إلى اسم "الموافقات"[8] حاول من خلاله وضع منهج لتقرير الأصول واستنباط الفروع لذلك فهو كتاب في الأصول وفي تصويبها ليأتي بأصول جديدة قادرة على تجديد الدين وتطويره.

ولذلك كان الشاطبي أحد العلماء المبرزين في عصره تميّز برفض التعصب والجمود والتقليد، والدعوة للاجتهاد من أجل المشي بالدين قدما، وهذا ما جلب له عداء الجامدين وأثار عليه الحفظة المقلدين ترجم له أحمد بابا التنبكتي فقال: "الإمام العلامة المحقق القدوة الحافظ الجليل المجتهد"[9]، والقارئ للموافقات يجد كتابه دفاعا عن صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان يحارب فيه التطرف بكل أنواعه، ويدعو إلى التوسط والاعتدال وترك البدع بالتقليد المحض أو بترك الدليل كليا، ولذلك تعتبر قضية الظاهر والباطن إحدى القضايا التي شغلته صاغ من أجلها نظرية المقاصد فهو الكتاب فعلا الذي حاول فيه صاحبه النظر في النص الديني والتنظير لأصول فهمه والاجتهاد فيه، وقد برع أيما براعة في التنبيه على قضية فهم النصوص في إطار كليها وهو منهج فريد له أثره في فهم النص الشرعي وكيفية تطبيقه.

وبهذا نقول إن الشاطبي قد صاغ نظرية منهجية في الفهم لها أثرها في فهم الظاهر واستثمار الباطن، وبذلك يعتبر رائد الفهم والتجديد الفقهي في كل زمان فبهذه المنهجية استطاع أن يخرج بالفكر الاجتهادي وبالتشريع الفقهي من الجمود والتقليد إلى الاجتهاد والتجديد والفعالية الواقعية، وبذلك يكون كتابه الموافقات دعوة للاجتهاد وإن كان قد أفرد له بابه الخاص؛ ففيه قاوم التقليد بشدة وعض على النصوص معتصما بها، في حين سادت فكرة كل تجديد بدعة فقاومها مبتكرا فكرة المقاصد الشرعية وأثرها في الفهم وتحديد التجديد من التبديع، وهكذا رسم نظرية جديدة في الفهم تعنى باللفظ كما تعنى بالمعنى منظرا لوسطية عمادها النص والمعنى، الظاهر والباطن وهكذا فقد جدد أصول الفهم كلها وليس أصول الفقه كما يفهم البعض يقول عبد الله دراز: "بقي علم الأصول فاقدا قسما عظيما هو شطر هذا العلم الباحث عن أحد ركنيه حتى هيأ الله سبحانه وتعالى أبا اسحاق الشاطبي في القرن الثامن الهجري لتدارك هذا النقص، وأنشأ هذه العمارة الكبرى في هذا الفراغ المترامي الأطراف في نواحي هذا العلم الجليل"[10]. وقال محمد الفاضل بن عاشور: "لقد بنى الإمام الشَّاطبي حقًّا بهذا التأليف هرمًا شامخًا للثقافة الإسلامية، استطاع أن يشرف منه على مسالك وطرق لتحقيق خلود الدين وعصمته، قل من اهتدى إليها قبله، فأصبح الخائضون في معاني الشريعة وأسرارها عالةً عليه"[11].

ويبدو من السابق أن سبب تدوين الموافقات هو نقد التطرف الذي كان سائدا في عصره وارتسم في منهجي الأخذ بالظاهر والتعصب له، والأخذ بالباطن والتعصب له فدعا إلى ضرورة فهم الظاهر حتى لا يتخذ ذريعة لترك الدين كلية لأنه منهج قاصر عن إدراك حكم التشريع وفلسفته، ودافع عن كيفية الفهم واعتبار الباطن من دون غلو، ونقد أنصاره ونبه إليهم، فابتكر منهجا في الفهم يقوم على التوسط والاعتدال وهذا المنهج فسره الشيخ محمد الفاضل بن عاشور بقوله: "إن الشاطبي لما شاهد المجتمع الإسلامي من انحلال نهضت في نفسه همة الإصلاح، لكنه بقي حائرا في اختيار المنهج الذي يتوخاه في إصلاحه، وكانت حركة بين مذهبين مذهب يفصل

الفكر عن العمل ويصلح الظاهر والباطن، فكانت الشريعة بمقاصدها منطلقة إلى الإصلاح، إصلاح ميولات النفس وجنوحها إلى ما لا يحل، وإرسالها بمقدار الاعتدال فيما يحل، فالدين الحق دين الفطرة هو التزام بمنهج الوسطية التي لا تقوم مصلحة الناس إلا عليها، والخروج عنها إلى أحد الطرفين من الشدة واللين يعد خروجا عن قصد الشارع"[12]. وهذه أهم أسس فهم الظاهر عند الشاطبي.

المطلب الأول: حقيقة الظاهر في الشريعة الإسلامية وحجيته في الفهم: تفسير ظاهر القرآن الكريم من القضايا المهمة التي لها أثرها في فهم النص الشرعي لتعلقها بالتأويل ودرجته، ففي هذا السياق برزت اتجاهات في التفسير والاجتهاد منها من وقف عند الظاهر رافضا تجاوزه، ومنها من تركته لمعان أخر ولكن تأصيل هذه القضية بقي غامضا فزادت أهميتها في هذا العصر لما لها من أثر في الفهم والتفسير. **فما حقيقته وحجيته في الفهم؟**

أولا: تعريف الظاهر.

1- **لغة:** الظاهر لغة من ظهر الشيء إذا تبين، وظهر على فلان غلبهن وأظهر الشيء إذا بينه، والظهر ضد البطن والظاهر ضد الباطن والظهارة ضد البطانة[13] إذن الظاهر لغة هو البين الواضح.

2- **اصطلاحا:** الظاهر في الاصطلاح الأصولي هو الواضح في دلالته؛ يندرج ضمن اللفظ الواضح الدلالة في تقسيمات الألفاظ على حسب درجة دلالته، ومعناه واضح في الدلالة على مقصد الشارع وحكمته بحيث يعتبر كل معنى آخر مخالف له بغير دليل مرفوض لهدمه مقصد الشارع[14].

وهذا المبحث مما برع فيه علماء الأصول وتفوقوا فيه، فبرز إبداعهم في تقسيم اللفظ الواضح إلى ظاهر ونص عند الجمهور، وظاهر ونص ومفسر ومحكم عند الحنفية، وهما المنهجان المشهوران في تقسيم اللفظ الواضح، ومثله اللفظ غير الواضح وسأعرض لمنهج الجمهور باختصار.

أ- **منهج الجمهور (أو منهج المتكلمين):** يقسم الأصوليون من المتكلمين اللفظ من حيث الوضوح وعدمه إلى قسمين اثنين: المحكم والمتشابه، فالمحكم جنس لنوعين: النص والظاهر، والمتشابه جنس لنوعين: المجمل والمؤول؛ فمن حيث الوضوح يقسم إلى قسمين أساسيين: النص والظاهر[15] ويعتبر الظاهر أدنى مرتبة من النص من حيث قوة الوضوح قال الغزالي: "اعلم أن اللفظ إما أن يتعين معناه بحيث لا يحتمل غيره فيسمى مبينا ونصا، وإما أن يتردد بين معنيين فصاعدا من غير ترجيح فيسمى مجملا، وإما أن يظهر في أحدهما ولا يظهر في الثاني فيسمى ظاهرا"[16].

وعليه فالظاهر هو اللفظ الواضح حتى قيل "لفظه يغني عن تفسيره"[17] وعرفه الباقلاني بأنه: "لفظة معقولة المعنى لها حقيقة ومجاز، فإذا أجريت على حقيقتها كانت ظاهرا وإن عدلت إلى جهة المجاز كانت مؤولة".[18] إذن فهو اللفظ الموضوع للدلالة على معناه دلالة ظنية راجحة ويحتمل غيره احتمالا مرجوحا، ومن أمثلة الظاهر الواردة في كلام الله ورسوله مطلق صيغة الأمر لأنها ظاهرة في الوجوب مؤولة في الندب والإباحة، وكذلك مطلق صيغة النهي كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ ﴾ البقرة[281]، فالأمر بالكتابة عند المداينة والأمر بالإشهاد عند البيع ظاهره الوجوب ولكنه عند الجمهور للندب[19]، وإذا انعدم الاحتمال يكون اللفظ نصا فهو اللفظ الصريح في معناه لأنه أكثر وضوحا من الظاهر وبالتالي لا يحتمل التأويل[20] وعليه فالنص هو ما انعدم فيه الاحتمال كلية ويدل على مقصوده دلالة قطعية كأسماء الأعداد[21]، وهكذا يفترق النص عن الظاهر بقوة الدلالة؛

ب- منهج الشاطبي: يبدو اختلاف طفيف بين منهج الشاطبي ومنهج الجمهور وكذلك الحنفية في تقسيم الألفاظ بحيث قسم اللفظ كذلك قسمين: محكم ومتشابه، ولكن يشمل المحكم عنده كل ما هو واضح الدلالة بحيث أدخل فيه الشاطبي النص والمبيَّن

بعد الإجمال، والمؤول من الظاهر والمخصص من العام والمقيد من المطلق، ويشمل المتشابه غير الواضح في دلالته بحيث أدخل تحته الظاهر والعام والمطلق والمجمل فهو كل لفظ محتمل؛ وعليه جعل الشاطبي الظاهر تحت مسمى المتشابه في حين جعله الجمهور تحت مسمى المحكم لوضوحه.

وعليه فالظاهر هو أحد أقسام اللفظ الواضح الدلالة ومعناه كل لفظ محتمل معنيين وهو في أحدهما أظهر، كالأمر والنهي وغير ذلك من أنواع الخطاب الموضوعة لمعاني خاصة وتحتمل غيرها دلالته ظنية، وحكمه لزوم العمل بموجبه حتى يأتي ما يدل على أن غير مراد[22] لأنه يحتاج إلى بيان بالقرائن ودلالة السياق العام والخاص كما سيأتي، وعليه أعالج نقطة مهمة وهي دلالته على الأحكام في الشريعة عموما:

ثانيا: حجية الظاهر في الفهم: تعتبر هذه القضية من أهم إشكالات الفهم وأهم قضايا العصر عالجها الشاطبي في ضوء التيارات السائدة وبرع فيها وسأبدأ بحجيته عموما:

1- حجية الظاهر في الفهم عموما: إذا كان الظاهر هو اللفظ الواضح في دلالته فالمعتبر فيه ما استفيد معناه من مجرد الصيغة دون اشتراط سوق الكلام من أجله قال عنه الحنفية "بأنه ما يعرف المراد منه بنفس السماع من غير تأمل وهو الذي يسبق إلى العقول والأفهام لظهوره موضوعا فيما هو المراد ولكنه يقبل التأويل والتخصيص والنسخ في عهد الرسالة"[23] ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ البقرة[275] فإنه ظاهر في إحلال البيع وتحريم الربا فُهم ذلك من مجرد سماع الصيغة مع أن السياق لا يقتضيه أصالة؛ لأن الآية سيقت لبيان نفي المماثلة بين البيع والربا ردا على الذين قالوا ﴿ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾البقرة[274].

إذن: فالظاهر هو اللفظ الذي يتبادر معناه اللغوي بمجرد قراءة الصيغة أو سماعها دون اعتماد على دليل خارجي في فهمه، فكل عارف باللغة بوسعه أن يفهم معناه، ولكن يعتبر هذا المعنى غير مقصود أصالة من سياق النص؛ فعلى الرغم من

وضوح دلالته من ذات الصيغة فإن المعنى المستفاد منه غير مقصود أصالة من سياق الخطاب، ويعرف المعنى المقصود أصالة من سياق الخطاب بسبب نزول الآية الكريمة أو سبب ورود السنة[24]؛ أي من الظروف التاريخية المحتفَّة بالنص فضلا عن سياق النص ذاته أي النظر في السياق اللغوي والمقامي يقول الغزالي: "إنّ اللفظ إن كان لا يحتمل إلاّ معنى واحدا كفى في معرفته العلم باللسان، وإن تطرّق إليه الاحتمال فلا يعرف المراد منه إلاّ بانضمام قرينة إلى اللفظ، والقرينة إما لفظ مكشوف وإما إحالة على دليل العقل، وإما قرائن أحوال من إشارات ورموز وحركات وسوابق ولواحق لا تدخل تحت الحصر والتخمين يختص بدركها المشاهد لها"[25] وهذا يعني أن الكلام الواحد بعينه يجوز أن يكون ظاهرا في معنى ونص في معنى آخر وذلك حسب قصد المتكلم من الخطاب والقصد يحدده سياق النص.

ومن هنا كان معيار قصد المتكلم من الخطاب وسياقه من مقومات الدلالة عند الأصوليين إذ لا بد من اعتبار النية والمقاصد في الألفاظ، وأن العبرة بالقصد وليس باللفظ يقول ابن تيمية: "ولم يقل أحد من العقلاء إن اللفظ يدل على المعنى بنفسه من غير قصد أحد"[26] كما إن السياق له دوره الواضح في تحديد القصد ودرجته، فاللفظ العام مثلا ظاهر في العموم ولكنه يحتمل التخصيص، والمطلق ظاهر في الإطلاق ولكنه يحتمل التقييد، والخاص ظاهر في الخصوص لكنه يحتمل المجاز، ولذلك جاء الإمام الشاطبي بفكرة المقصود أصالة والمقصود تبعا يقول ابن القيم: "العبرة بالإرادة لا باللفظ...فاللفظ الخاص قد ينتقل إلى معنى العموم بالإرادة، والعام قد ينتقل إلى الخصوص بالإرادة".[27]

وطبيعي أن يشدد العلماء على ضرورة اعتماد الظاهر في الاستنباط وعدم تخطيه لأنه يمثل المقصود الأول من الخطاب؛ إلا أنه إذا قام دليل على صرفه (تأويله) فيجب أن يصرف لأنه مما يقتضيه اللفظ ويكون التمسك بالمعنى اللغوي الظاهر إهمال لقصد المشرّع من اللفظ [28] وهذا يمثل عين الاعتدال والتوسط في فهم النص

القرآني فلا تعصب للظاهر مطلقا ولا تعصب للباطن مطلقا فالأمر مضبوط بوجود أدلة وقرائن دالة وقد أصل الشاطبي لكيفية فهم الظاهر كالآتي:

2- حجيته الظاهر عند الشاطبي: يبدو من السابق أن معنى الأخذ بالظاهر هو الالتزام بالوضع اللغوي في تفسير اللفظ الشرعي ودليل ذلك أن الخطاب الشرعي نزل بلغة العرب فلا يفسر إلا في ضوء عربيته فبالعربية خاطبنا الله تعالى فلا يفسر لفظه إلا بما خاطبنا به وذلك بالرجوع إلى مفاهيم ألفاظها ودلالة تراكيبها(29) ولأنّ اللغة إنما رتّبها الله عزّ وجلّ ليقع بها البيان(30) كما -قال ابن حزم الظاهري- عندما نصر القول بالظاهر، والشاطبي يذكر أن "كل ما كان من المعاني العربية التي لا ينبني فهم القرآن إلا عليها فهو داخل تحت الظاهر"(31)، "وإذا حصل فهم ذلك كله على ترتيبه في اللسان العربي فقد حصل ظاهر القرآن(32) يقول الشاطبي: "فالمسائل البيانية والمنازع البلاغية لا معدل بها عن ظاهر القرآن، فإذا فهم الفرق بين ضيق في قوله تعالى: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ الأنعام[125] وبين ضائق في قوله: ﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ هود[120] وبين النداء "**يا أيها الناس**" أو "**يا بني آدم**"، والفرق بين الرفع في قوله ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ هود[29] والنصب من قوله: ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ "هود[69] فإذا حصل فهم ذلك كله فقد حصل فهم ظاهر القرآن"(33)، وهو ما اعتنى به علماء الأصول أيما اعتناء وكذلك الشاطبي؛ فالعلم بكتاب الله يتوقف على العلم باللغة العربية لفظا ومعنى، فألفاظ الشارع كما تحتمل الوجوب تحتمل الإباحة والندب والعموم والخصوص وغيرها، ولا يفهم أحد مقاصد هذه الألفاظ دون فهمه للغة العرب ولسانهم يقول العلامة ابن عاشور مبينا دور اللغة العربية في الفهم "إن أدلة القرآن الواضحة الدلالة لا يراد منها إلا ظاهرها بحسب الاستعمال العربي، بحيث لا يشك في المراد منها إلا من شاء أن يدخل على نفسه شكا لا يعتد به ألا ترى أن نجزم بأن معنى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ البقرة[183] أن الله أوجبه، ولو قال أحد إن ظاهر هذا اللفظ أن الصيام مكتوب في الورق لجاء خطأ من

القول"[34]. وبهذا يتبين وجوب اعتماد الظاهر والأخذ به في استنباط الأحكام الشرعية، وقد دافع الشاطبي عن عربية القرآن وعن الآلية اللغوية في فهمه وكونه هو الظاهر ويجب اعتباره لأن:

أ- به تعرف مقاصد الشريعة بناء على أن "لسان العرب هو المترجم عن مقاصده"، ولأن النص يعدم أو ينذر فيه لم يبق إلا الركون إلى الظاهر؛[35]

ب- أن تجويز الاعتراض عليه من جهة احتماليته يؤدي إلى توهين الاستمساك بالأدلة الشرعية إذ يقول الشاطبي: "لو جاز الاعتراض على المحتملات لم يبق في الشريعة دليل يعتمد لورود الاحتمالات وإن ضعفت فيؤدي إلى القول بضعف جميع أدلة الشرع وليس كذلك باتفاق...فلا يصح الاعتراض على الظواهر بوجوه الاحتمالات المرجوحة إلا أن يدل دليل على الخروج عنها فيكون ذلك داخلا في باب التعارض والترجيح أو في باب البيان"[36]؛

ت- لو اعتبرنا مجرد الاحتمال لم يكن من فائدة لإنزال الكتب وإرسال الرسل إذ يلزم أن لا تقوم الحجة على الخلق بالأوامر والنواهي والإخبارات إذ ليست في الأكثر نصوصا لا تحتمل غير ما قصد بها، لكن ذلك باطل بالإجماع والمعقول فما يلزم عنه كذلك[37]؛

ث- أن ترك العمل بالظواهر بشائبة الاحتمال يفتح باب السفسطة وجحد العلوم واتباع ما تشابه من الكتاب وهذا يوقع في الشك واتباع الهوى والكفر، وهو مردود؛[38]

ج-عدم الاعتداد به يفتح الباب للاعتراض على الأدلة كما فعل أهل المذاهب فلا يبقى دليل من كتاب أو سنة يستند إليه، وهذا مردود حيث تركوا الأدلة وذهبوا إلى الاستدلالات العقلية فدخلوا في أشد مما فروا منه، ونشأت مباحث لا عهد للعرب بها وهم المخاطبون أولا بالشريعة فخالطوا الفلاسفة في أنظارهم وباحثوهم في مطالبهم وأصل ذلك كله الاعراض عن مجاري العادات في العبارات ومعانيها الجارية في الوجود.[39]

وفي سياق ذلك وضع الشاطبي كذلك شروطا لاعتباره، فلا يعني ذلك التمسك بالظاهر في جميع الأحوال، بل يجوز تركه إذا دل دليل على الترك، فلا يعمل به على الإطلاق حتى يقال إن مقصود الشارع في الظاهر كما هو قول الظاهرية وما ذلك إلا لأسباب عديدة أهمها طبيعة اللغة العربية ذاتها التي تأبى تقاليدها التعبيرية وعاداتها الاستعمالية أن يقبل ظاهرها الاقتصار على الظاهر لقبولها المجاز والاستعارة والكناية...[(40)] فإذا ما أخذت حرفيا فقد تؤدي إلى خلاف المقصود من التعبير بها ذاتها.

وهكذا فالتمسك بظاهر النص الشرعي عند الشاطبي هو تمسك بمستوى من الدلالة وهي الدلالة السطحية والتي لا تكفي لإدراك الدلالة الشرعية إلا إذا دل دليل على ذلك، فالتمسك بالدلالة الظاهرة إهدار لدلائل النص وخصائصه الأسلوبية[(41)] وقد بين امتعاضه من الالتزام بالظاهر ونقد الظاهرية بقوله: "نقل عياض عن بعض العلماء أن مذهب داود بدعة ظهرت بعد المائتين، وهذا وإنْ كان تغاليا في الأخذ والعمل بالظاهر، فالعمل بالظواهر أيضا على تتبُّع وتغال بعيد عن مقصود الشارع كما أنّ إهمالها إسرافُ أيضاً..."[(42)].

وعليه فالشاطبي كما يدافع على اعتبار الظاهر فهو أيضا يمقت الوقوف عنده كليا لأنه إهدار لمقصود الخطاب الشرعي ودلالته الباطنة والخفية ذاته، وقد وضع لفهمه قاعدتين أو أصلين هما الأخذ بمقتضيات الأحوال؛ ومعرفة معهود العرب وعاداتهم في التخاطب كالآتي:

ثالثا: قواعد فهم الظاهر عند الشاطبي: أبدع الشاطبي أيما إبداع في هذه النقطة الدقيقة استطاع بعمله إزالة أوهام عرضت للعلماء وهي:

1- الأخذ بمقتضيات الأحوال: ومعناه مراعاة ما يحف بالنص من مقتضيات والتي تشمل عنده حال الخطاب من جهة نفس الخطاب، أو المخاطَب أو المخاطب أو الكل إذ يقول: "معرفة مقاصد كلام العرب إنما مداره معرفة مقتضيات الأحوال، حال الخطاب من جهة نفس الخطاب أو المخاطب، أو المخاطب أو الجميع"[(43)] ويفسر

ذلك: "...إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين وبحسب مخاطبين وبحسب غير ذلك، كالاستفهام لفظ واحد ويدخله معانٍ أخر من تقرير وتوبيخ وغير ذلك، وكـالأمر يدخله معنى الإباحة والتهديد والتعجيز وأشباهها ولا يدل على معناها المـراد إلا الأمور الخارجة، وعمدتها مقتضيات الأحوال"[44] وقال: "ومعرفة الأسباب رافعة لكل مشكل في هذا النمط، فهي من المهمات في فهم الكتاب بلا بد، ومعنى معرفة السبب هو معنى معرفة مقتضى الحال"[45].

وقد مثل بما حدث في عهد عمر أن قدامة بن مظعون وهو من الصحابة رضـي الله عنهم شرب الخمر فسكر وقامت عليه البينة فجادل عمر في إقامـة الحـد عليـه مستدلا بقوله تعالى: ﴿**لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ جُنَـاحٌ فِيمَـا طَعِمُوا**﴾المائدة[93] فقال عمر إنك أخطأت التأويل يا قدامة إذا اتقيت الله اجتنبت مـا حرم الله[46]، وذكر الشاطبي حادثة مماثلة ثم قال: "ففي الحديثين بيان أن الغفلة عـن أسباب التنزيل تؤدي إلى الخروج عن المقصود من الآيات"[47].

أي مقتضيات الأحوال هي النظر فيما يحف باللفظ مما يقتضيه المقام أو الوقت أو الحال وإن كان الوضع على خلاف ذلك.

2- معرفة معهود العرب وعاداتهم في التخاطب: أما معرفـة معهـود العـرب وعاداتهم في التخاطبُ فمعناه معرفة عادات العرب في أقوالها وأفعالهـا ومجـاري أحوالها حال التنزيل؛ فهي ضرورية لرفع الإشكال في فهم الظاهر وتفسيره وتحديـد المعنى منه ويضرب الشاطبي عدة أمثلة موضحة منها قول الله تعـالى: ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ البقرة[192] فإنما أمر الله تعالى بالإتمام دون الأمر بأصل الحـج لأنهـم كانوا قبل الإسلام آخذين به لكن على تغيير بعض الشعائر كالوقوف بعرفـة فجـاء الأمر بالإتمام لذلك، وقوله تعـالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ وقولـه ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ الملك[16] وأشباه ذلك، إنما جرى على معتادهم في اتخاذ الآلهة في الأرض فجاءت الآيات بتعيين الفوق وتخصيصه تنبيهاً على نفي ما ادّعوه في الأرض، وقوله

تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ﴾ النجم[49] فعين هذا الكوكب لكون العرب عبدته، ولــم تعبد العرب من الكواكب غيرها.[48]

وهنا يقرر الشاطبي أن اللّغة العربية من حيث هي ألفاظ وعبــارات دالــة علــى معاني لها جهتان في الدلالة؛ دلالة أصلية تنتهي إليها مقاصد المــتكلم دون ملاحظــة مقتضيات الأحوال، وهي الدلالة المعجمية بتعبير المعاصرين ودلالة تابعة وخادمــة للأولى وهي التي يقتضيها المقام أو الوقت أو الحال؛ إذ مقتضى الحال هو الذي جعل العبارات تختلف وجعل أقاصيص القرآن تأتي على أوجه مختلفة، وبعبارة أخــرى إن فهم النص الشرعي بحسب الظاهر لا بد فيه من نظرين؛ أحدهما باعتبار ما تدل عليه الصيغة في أصل وضعها على الإطلاق، والثاني بحسب المقاصد الاســتعمالية التــي تفضي العوائد إليها وإن كان أصل الوضع على خلاف ذلك.[49]

وقد بيّن الإمام الشاطبي ذلك حين قال: "...وأن من فطرتها أن تخاطــب بالعــام مريدة به العام، وبالعام مريدة به الخاص، وبالعام مريدة به العام في وجه والخــاص في وجه...وتتكلم بالشيء يعرف بالمعنى كما يعرف بالإشارة، وتسمي الشيء الواحد بأسماء كثيرة، والأشياء الكثيرة باسم واحدة، وكل ذلك معروف عندها لا يرتاب فــي شيء منه هي ولا من يتعلق بكلامها"[50] ثم ذكر لكل صنف مثالا بين كيــف تــتحكم العوائد الاستعمالية في دلالة ألفاظ الخطاب؛ وهي من مقتضيات اللغة العربية[51] وأن اللغة العربية بحيث هي ألفاظ دالة على معان من جهتين أحدهما مــن جهــة كونهــا ألفاظا وعبارات مطلقة دالة على معان مطلقة وهي الدلالة الأصلية، والثاني من جهة كونها ألفاظا وعبارت مفيدة دالة على معان خادمة وهي الدلالة التابعة، والجهة الثانية هي التي يختص بها لسان العرب في تلك الحكاية وذلك الإخبــار، فــإن كــل خبــر يقتضي في هذه الجهة أمورا خادمة لذلك الإخبار بحســب المخبــر والمخبــر عنــه والمخبر به ونفس الإخبار في الحال والمساق، ونوع الأسلوب من الإيضاح والإخفاء والإيجاز والإطناب وغير ذلك..."[52] وهكذا فقد جعل الشاطبي السياق قرينة يستعان

بها على معرفة مقصود الكلام وقد سبق المعاصرين في التنبيه على دلالة السياق وضرورة اعتباره في فهم النصوص حين قال: "فلا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف".[53]

وقد عرف الأصوليون السياق بأنه "ما يدل عل خصوص المقصود من سابق الكلام المسوق لذلك أو لاحقه"[54] فالسياق هو قرينة تدل على مقصود الشارع من اللفظ، وحقيقته مراعاة سابق الكلام ولاحقه، ويمكن استنتاج تعريف للإمام الشاطبي للسياق من قوله: "هو رد آخر الكلام على أوله وأوله على آخره، ليحصل مقصود الشارع في فهم المكلف"[55] أي إعمال أجزاء الكلام كله والنظر فيما سبق ولحق لكي يتحقق مقصود الشارع، أي هو مجموع الظروف والملابسات التي تحيط بالنص والخطاب مع علاقته الترابطية الداخلية[56] لتدل على معنى واحد قصده المتكلم من كلامه.

وهو منهج المعاصرين في فهم النصوص ظهرت ضرورته في فهم أي كلام فكيف بتفسير كلام الله تعالى وسنة نبيه، فقد استقرت مناهج النظر اللغوي المعاصر على مبدأ التعامل مع النص كلا واحدا لا يتجزأ؛ وذلك بملاحظة كل ما يحف بالكلام من ظروف وملابسات.[57] يقول عالم اللسانيات (فيرث firth): "المعنى لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية، أي وضعها في سياقات مختلفة"[58] وهذه الحقيقة المنهجية كانت واضحة لدى الإمام الشاطبي الذي تأكدت لديه أهمية الوعي بالظروف والملابسات المحيطة بالنص فضلا عمّا توحي به الدلالات اللغوية لمفرداته ومكوناته العامة، وانتهى به ذلك إلى القول بأن: "المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل، وهو ما يقرره بوضوح علم المعاني والبيان...ومن هنا لا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف فإن فرق النظر في أجزائه فلا يتوصل به إلى مراده".[59]

وبهذا فالسياق له دوره في فهم الظاهر، وأن تفسيره لا يتوقف على الوضع اللغوي فقط بمعرفة الصرف والنحو والمعاني والبيان والبديع فما ذلك إلا مرحلة سابقة من مراحل دراسة المعنى واستنباطه، بل يجب مراعاة ما يحف بالنص من ظروف وملابسات أو مراعاة سياق الحال، من معرفة أسباب النزول وأسباب الورود والزمان والمكان...[60] وأول قاعدة وضعها الشاطبي فيما يخص اعتبار السياق قوله: "كلام العرب على الإطلاق لا بد فيه من اعتبار المساق في دلالة الصيغ وإلا صار ضحكة وهزأة ألا ترى إلى قولهم فلان أسد أو حمار أو عظيم الرماد، أو فلانة بعيدةٌ مهوى القرط، وما لا ينحصر من الأمثلة لو اعتبر اللفظ بمجرده لم يكن له معنى معقول، فما ظنك بكلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم"[61] وذلك ليكون قرينة ضابطة لغرض المتكلم وصارفة له إلى حيث يريد وإن لم يكن هو المعنى الأصلي[62]، وهو ما أضافه الشاطبي وقسم الدلالة بناء على ذلك إلى دلالة أصلية ودلالة تبعية كما سبق.

ومن تمام دلالة السياق ينبه الشاطبي إلى سياق آخر أوسع خاص بالشريعة وهو السياق المقاصدي، أي الاحتكام إلى مقاصد الشريعة لتحديد المقصود من الألفاظ، فهو مساق يختص بمعرفته العارفون بمقاصد الشارع يقول الشاطبي: "إذ بموجبه يتعين النظر في العلل وتفاريق الأمارات، وأوجه الحكم الجزئية والمصالح الكلية التي تتجسد معانيها في مقاصد الشرع السامية والمعبر عنه بسياق المقاصد"[63]. وهو أهم ما يحدد معنى الظاهر إذ به تعرف أوجه المصالح الجزئية والكلية وعلل الشرع ومراميه السامية حتى يوسع معنى النص أو يبقى على ظاهره؛ فإن دل القصد على التوقف فهو المطلوب وإن دل على غيره فغير مقصود فالمتكلم لا يكون مفيدا بكلامه ما وضع له من الفائدة إلا بالقصد[64] ويظهر ذلك في كلام العرب فكيف بكلام الشارع الحكيم فلو قال مثلا: زيد قائم وضارب فإن مثل هذا الكلام "ليس خبرا لذاته بل يصير خبرا بقصد القاصد إلى التّعبير به عمّا في النفس، ولهذا إذا صدر من نائم أو مغلوب لم يكن خبرا"[65] ثم من جهة أخرى لو "تحقق قصد مطلق اللفظ إلى

استعماله في معناه الموضوع له فلا يتصور وراء ذلك انحراف اللفظ وانصرافه عن معناه الذي وضع له".[66]

وعليه فللسياق دور عظيم في تحديد معنى النص وإذا وسعنا معناه وجدناه يدل على مقاصد الشريعة، وبالتالي فالبحث عن سياق النص أمر ضروري لتحديد المعنى منه فالقصد والمواضعة ضروريان لتحديد المعنى المقصود؛ وعليه فالوقوف على معرفة مراد الشارع من ظاهر الخطاب بحسب اللسان العربي غير كاف، فلا بد من تجاوز ذلك إلى معرفة مراده ليأتي تطبيق هذا الحكم.

ولا يمنع ذلك من وجود حالات يجب التوقف فيها عند الظاهر كما سبق وهو الظاهر المقصود؛ فلا يجوز أن يحمل الكلام على خلاف ظاهره إلا بمعونة الأدلة وإن لم توجد حصل القطع بأن الظاهر مراد وفي هذا يقول ابن القيم: "إذا ظهر قصد المتكلم لمعنى الكلام أو لم يظهر قصد يخالف كلامه، وجب حمل كلامه على ظاهره وهذا حق لا ينازع فيه عالم والنزاع إنما هو في غيره، إذا عرف هذا فالواجب حمل كلام الله تعالى ورسوله وحمل كلام المكلف على ظاهره الذي هو ظاهره وهو الذي يقصد من اللفظ عند التخاطب ولا يتم التفهيم والفهم إلا بذلك".[67] وتتجلى أهمية الاحتكام إلى معهود العرب في درء الانحرافات العقدية والفكرية ودرء التجاوزات الخطيرة في فهم هذا الخطاب، وهنا ظهر تجاوز الصوفية والشيعة معهود الخطاب الظاهر، وكذلك المعتزلة، ولو وقفوا عند معهود العرب من الخطاب لما وقع هذا الانحراف.

وعليه نستنتج أن الشاطبي ينكر ترك الظاهر كليا ويسميه غلوا وإسرافا، كما ينكر ويشجب العمل بالظاهر والتغالي في الأخذ به ويسميه غلوا، وما ذلك إلا لأنه يبعد عن مقصود الشارع؛ وهنا أدرك الشاطبي هذه القاعدة الذهبية وهي الغلو في العمل بالظاهر والغلو في تركه فبالغلو فيه خالف الظاهرية جمهور العلماء ونَفوا أن يكون الظاهر غير مراد لله تعالى وبذلك توقفوا عند الظاهر واعتمدوه في استنباطاتهم وبالغلو في تركه خالف الروافض جمهور العلماء ونفوا الظاهر كليا وكذلك بعض

الصوفية حتى سموا بالباطنية، وعليه فكما ذم التوقف عند الظاهر كلية ذم تركه كلية بحيث نتج الابتداع في الأخذ بالظاهر والابتداع في تركه وفيما يلي عرض لبعض أقوال أهل الغلو في الظاهر:

رابعا: الابتداع والغلو في الأخذ بالظاهر: ظهر الغلو في الأخذ بالظاهر فقها والابتداع عقيدة وقد حارب الشاطبي هذا الغلو وأشار إليه في كتابه الموافقات والاعتصام؛ ففي العقيدة ظهر المشبهة وفي الفقه ظهر الظاهرية وقد شن على منهجهم حملة وانتقد منهجهم كالآتي:

1- **الظاهرية:** معنى الظاهر عند الظاهرية حمل الخطاب الشرعي على ما تقتضيه اللغة العربية في جميع الأحوال وأنّ كل تفسير للفظ الشرعي بغير ما تدل عليه اللغة العربية في وضعها فهو مردود، وهذا مقبول عند العلماء كلهم ولكن التعصب له مذموم؛ فالظاهر محتمل كما مر وقابل للتأويل إذا دل دليل على تركه والعدول عنه ففهمه لا يكون إلا في ضوء وضعه اللغوي بل وفي ضوء ما يحُفُّ به من قرائن أحوال ومقتضيات المقام؛ فهذه القرائن لها دورها في تحديد مقصود الشارع من ذلك اللفظ ولذلك ردّ العلماء هذا المذهب وحاربوه وأحرقوا كتبه.

فالأصل عند الظاهرية حمل الألفاظ على ظاهرها؛ فالأمر للوجوب والنهي للتحريم مطلقا ولا اعتبار لمقصد الشارع إلا إذا دل دليل على ذلك ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿**فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ**﴾النساء[03] قال ابن حزم النكاح واجب وتمسك بظاهر الآية لأنّ الأمر للوجوب قال الرازي: "قال أصحاب الظاهر النكاح واجب وتمسكوا بهذه الآية، وذلك لأن قوله "فانكحوا" أمر وظاهر الأمر للوجوب، وتمسك الشافعي في بيان أنه ليس بواجب بأدلة أخرى...تدل على أنه غير بمندوب فضلا عن يقال إنه واجب".(68)

وقد حمل هذا الفقه اسم "الفقه الظاهري" لأنه لا يعتمد في استنباطه إلا ظاهر الكتاب والسنة في تقرير الأحكام ولم ينظر إلى سياقها الذي يحدد مقاصدها ومصالحها ولذلك رفض القياس والتعليل وهو من الأمور البديهية كما يقرر الفقهاء

الأربعة قال في ذلك: "ولا يحل القول بالقياس في الدين ولا بالرأي..."[69] ومعنى ذلك الألفاظ لا تدل إلا فيما وضعت لها لغة ولا تتجاوزها بالنظر في علتها ومصلحتها ومقصدها، ومقتضى هذا أن جميع الأحكام منصوص عليها، وأن النصوص الشرعية باستطاعتها أن تحل جميع المشاكل والمستجدات في جميع الأعصار، ولذلك رد ابن حزم الكثير من المصادر التشريعية التي اعتمدها الأئمة الأربعة تحت مسمى الرأي فرد القياس والاستحسان والعرف والمصلحة واكتفى بما يدل عليه لفظ الكتاب والسنة وإجماع الصحابة رضوان الله عليهم، وكل ما عدا ذلك فهو زيادة في الدين ونقض لكماليته[70]، وبهذا فقد نَفى عن الشريعة صلاحيتها لكل زمان ومكان.

والجدير بالذكر أن هذا المنهج في الاستنباط أو هذا المذهب قد رده الكثير من العلماء ممن عاصروا داود الظاهري وابن حزم وردت أقوالهما وأقوال أتباعهما حيث أورثت دعوته إلى الجواز لكل متكلم للعربية وفاهم لها أن يتكلم في الدين بظاهر القرآن والسنة، وبذلك تجرأ على الفقه من لا يحسن الفقه تمسكا بظواهر النصوص، فكانوا كالخوارج الذين تعلّقوا بظواهر الألفاظ من غير تأمل ولا تفكير[71]، ومن ذلك ما ورد عنه في حكم البول في الماء الراكد حيث ورد عن الظاهرية قولهم:" لو بال رجل في ماء راكد لم يجز ويجوز لغيره لأنه ليس نجس عنده، ولو بال في إناء ثم صبه في ماء، جاز الماء أن يتوضأ منه، ولو تغوط جاز الوضوء به لأنه تغوط ولم يبل".[72] وهذا لا يقبله أي عاقل فضلا عن مجتهد يعلم من أدلة الشريعة ما يعلم. قال الشاطبي: "ومن هنا ذم بعض العلماء رأي داود الظاهري وقال إنها بدعة ظهرت بعد المائتين".[73]

وبهذا فإن ابن حزم يقف عند المستوى الأول من المعنى وهو المعنى اللغوي المجرد عن القرائن والسياق وهو نوع من الغلو في فهم النص الشرعي، ومثله في الفهم ما جاء به المشبهة في العقيدة.

2- المشبهة: أو الابتداع في الأخذ بالظاهر وهو ما وقف عنده بعض المبتدعة أخذا بظاهر القرآن الكريم وهم الذين يتبعون ما تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ومنهم الخوارج الذين قالوا بتكفير علي عندما حكّم الخلق في دين الله والله يقول: "**إن الحكمُ إلاّ للهِ**"يوسف[40].

وما زعم أهل التشبيه في تفسير صفات الباري حين أخذوا بظاهرها مثل **قوله:** ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾القمر[14] ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾يس[71] ففسروا ألفاظها بمقتضى الظاهر فأسرفوا ما شاؤوا يقول الشاطبي: "فلو نظر الخوارج أن الله تعالى قد حكم الخلق في دينه في قوله ﴿يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ المائدة[95] وقوله ﴿فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾النساء[35] لعلموا أن قوله "إن الحكم إلا لله" غير مناف لما فعله عليّ وأنه من جملة حكم الله؛ فإن تحكيم الرجال يرجع به الحكم لله وحده وهكذا المشبهة لو حققت معنى قوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ الشورى[11] في الآيات المذكورة لفهموا بواطنها، وأن الرب منزه عن سمات المخلوقين"(74) ولذلك يقول الشاطبي: "وعلى الجملة فكل من زاغ ومال عن الصراط المستقيم فبمقدار ما فاته من باطن القرآن فهماً وعلماً وكل من أصاب الحق وصادف الصواب فعلى مقدار ما حصل له من فهم باطنه"(75). ولهذا لجأ الشاطبي للتأويل لمعرفة معاني النص وسماه الباطن. **فما هو الباطن وحجيته؟**

المطلب الثاني: حقيقة الباطن وحجيته: من السابق يبدو أن الشاطبي من أنصار الباطن فما حقيقته عنده؟

أولا: فهم الظاهر بتأويله عند الشاطبي: يذم الشاطبي بشدة الوقوف على الظاهر وتحكيمه مطلقا في الفهم ويدعو إلى عبوره يقول: "...ألا ترى أن من جرى على مجرد الظاهر تناقضت عليه السور والآيات وتعارضت في يديه الأدلة على الإطلاق والعموم"(76)؛ وعليه دعا إلى الاستعانة بالمعنى الباطني وجعله عاصما من التناقض والاضطراب في الأحكام ودعا إلى ضرورة تأويل الظاهر إذا قام دليل على ذلك:

1- **حقيقة التأويل:** استعان الشاطبي بآلية التأويل لفهم الظاهر والعبور منه إلى الباطن، ويلاحظ تطور تعريف التأويل تاريخيا وأن الأصوليين هم الذين دققوا في تعريفه وضبطوا معناه فهو في حقيقته "صرف اللفظ عن ظاهره بدليل خارج يعضده حتى لا يكون تركا للظاهر بغير معارض"[77] فاشترطوا وجود دليل للعدول وهو الضبط الذي تحدّث عنه ابن تيمية حين قال: "التأويل في عرف المتأخرين من المتفقهة والمتكلمة والمحدّثة والمتصوّفة ونحوهم، هو صرف اللفظ من المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به"[78] ويبدو أنه يريد الرد على من انتحل التأويل وجعله أداة لزرع عقائده فضبطه بضرورة وجود دليل؛ فحقيقة التأويل إذن العدول عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح تماشيا مع المقصود من اللفظ ولكن بدليل يعضّده[79].

وعليه فالتأويل لا يتطرق إلى النص بالمعنى الأصولي الخاص لقطعيته، ولا إلى المجمل لأنه يحتاج إلى البيان من الشريعة بل يتطرق إلى الظاهر فقط فيصير المعنى المراد منه مؤولا، وعليه فاللفظ المؤول بهذا المعنى هو ما يقابل الظاهر، وضابطه أن اللفظ إن كان مراده لا يحتمل الصرف لظهوره في معناه سمي ظاهرا، وإن احتمله بدليل سمي مؤولا، والأصل العمل بالظاهر إذا ثبت رجحانه فإذا ثبت مرجوحيته بالنسبة لمؤوله تعين العمل به[80]؛ والمعروف من كلام الشاطبي أن الأصل اتباع الظواهر ولا يجوز العدول عنها إلا بموجب شرعي واشترط لترك الظاهر وتأويله ثلاثة شروط هي:

أ- أن يرجع إلى معنى صحيح في الاعتبار وأن يكون اللفظ المؤول قابلا له[81] وإلا وجب التمسك بالظاهر لأنه في حق المجتهد هو الدليل.

ب- أن يكون الخروج عن مقتضى الظاهر لدليل أقوى، وإلا أدى إلى الأخذ بالمرجوح دون مرجح، فهو من باب من "أراد تصحيح الدليل بأمر باطل"؛[82]

ت- أن يكون هذا العدول مما يصح معه اعتبار المؤول دليلا ف "تأويل الـدليل معناه أن يحمل على وجه يصح كونه دليلا في الجملة فرده إلى ما لا يصح رجـوع إلى أنه دليل لا يصح على وجه وهو جمع بين النقيضين".[83]

وعليه تنحصر تقسيمات التأويل عند الأصوليين في ثلاثة أنواع:

1- تأويل قريب: وهو ما يمكن الوصول إليه بأقل مرجح؛

2- تأويل بعيد: وهو ما يحتاج إلى مرجح قوي حتى يمكن التـوازن بـين بعـد الاحتمال وقوة الدليل؛

3- تأويل متعذر: وهو ما لا يحتمله اللفظ ويتعذر ترجيحه، وهو غير مقبـول[84] ولكن ما معنى الباطن عند الشاطبي؟

ثانيا: حجية الباطن عند الشاطبي.

1- تعريف الباطن:

أ- **لغة:** الباطن لغة من بطن أي خفي، والبطن ضد الظهر وهـو دخلـه فـبطن الوادي دخله، وبطنان الجنة وسطها، وبطانة الثوب ضد ظاهرته[85].

إذن فالباطن هو الخفي وهو ضد الظاهر الواضح.

ب- **اصطلاحا:** يقول الشاطبي: "ومن الناس من زعم أن للقرآن ظـاهراً وباطنـاً مستدلين بما ورد عن الحسن مما أرسله عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "**مـا أنزل الله آية إلا ولها ظهر وبطن بمعنى ظاهر وباطن وكل حرف حـد وكـل حـدٍّ مطلـعٌ**"[86] وقد قبل ذلك على أساس أن الظهر والظاهر هو ظاهر التلاوة، والبـاطن هو الفهم عن الله لمراده؛ جاء في تاج العروس في تفسير الحديث: "قـال بعضـهم: الظهر لفظ القرآن والبطن تأويله، وقيل: الظهر الحديث والخبر والبطن ما فيـه مـن الوعظ والتحذير والتنبيه،...وقيل: ظهرها لفظها وبطنها معناها..."[87]، إذن البـاطن عند الشاطبي هو مراد الله تعالى من نصوصه، فالشاطبي وافق وجود الباطن مستدلا بعدة آيات في القرآن الكريم منها:

2- أدلة اعتبار الباطن عند الشاطبي: استدل الشاطبي بعدة آيات من القرآن الكريم منها:

أ- **قوله تعالى:** ﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ﴾**النساء[87].**

ووجه الاستدلال أي لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب، ولم يرد أنهم لا يفهمون نفس الكلام لأنه منزل بلسانهم.

ب- **قوله تعالى:** ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢ ﴾**النساء[82].** ووجه الاستدلال أن ظاهر المعنى شيء وهم عارفون به لأنهم عرب والمراد شيء آخر، وهو الذي لا شك فيه أنه من عند الله، وهو الباطن المشار إليه الذي يزيح الاختلاف.

ت- **قوله تعالى:** ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾**محمد[24].**

فالتدبر إنما يكون لمن التفت إلى المقاصد وذلك ظاهر في أنهم أعرضوا عن مقاصد القرآن فلم يحصل منهم تدبر.

فالشاطبي إذن يقبل الباطن وهو من أنصاره على أنه مراد الله من كلامه وإذا كان غيره فهو مردود قال: "وعليه يصح قول من قال إن للقرآن ظاهرا وباطنا على معنى أن الظاهر ظاهر التلاوة أو الكلام نفسه ومعنى ألفاظه، والباطن هو مراد الله تعالى من الخطاب"[88] وقال: "المراد بالظاهر هو المفهوم العربي، والباطن هو مراد الله تعالى من كلامه وخطابه فإن كان مراد من أطلق هذه العبارة ما فسر فصحيح ولا نزاع فيه، وإن أرادوا غير ذلك فهو إثبات أمر زائد على ما كان معلوماً عند الصحابة ومن بعدهم، فلابد من دليل قطعي يثبت هذه الدعوى لأنها أصل يحكم به على تفسير الكتاب، فلا يكون ظنياً"[89].

لذلك فإن تفسير القرآن وفهم معاني نصوصه إنما هو بفهم الباطن بالمعنى المذكور وليس بالوقوف عند ظواهر النصوص لأن فهم الظاهر ميسور ويوضح الشاطبي مقصوده بأمثلة كثيرة منها ما قاله الكفار في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ

ﵟٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِﵞالعنكبوت[41] "ما بال العنكبوت والذباب يذكر في القرآن ما هذا كلام الإله؟ فنزل قوله تعالى: ﵟإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚﵞ البقرة[26] فأخذوا بمجرد الظاهر ولم ينظروا في المراد، ومن ذلك أنه لما نزل: ﵟمَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚﵞ البقرة[245] قال أبو الدحداح إن الله كريم استقرض منا ما أعطانا بينما قالت اليهود ﵟإِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘﵞآل عمران[181] ففهمُ أبي الدحداح هو الفقه وهو الباطن،[90] وفهم اليهود لم يرد على مجرد القول العربي الظاهر.

فهذا هو عدم الاعتبار لباطن ما أنزل الله وقد نفى الفقه عن القوم الذين لا يدركون الباطن فقال: "فاعلم أن الله تعالى إذا نفى الفقه أو العلم عن قوم فذلك لوقوفهم مع ظاهر الأمر، وعدم اعتبارها للمراد منه، وإذا أثبت ذلك فهو لفهمهم مراد الله من خطابه وهو باطنه"[91]

وبعد استدلاله على الباطن يبيّن الشاطبي مراده بالباطن المقبول بأمثلة منها تفسير ابن عباس لقوله تعالى: ﵟإِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُﵞالنصر[01] بقرب أجل رسول الله ﷺ[92] قال الشاطبي: "فظاهر هذه السورة أن الله أمر نبيه ﷺ أن يسبّح بحمد ربه ويستغفره إذ نصره الله وفتح عليه وباطنها أن الله نعى إليه نفسه"[93]

ومنها "لما نزل قوله تعالى: ﵟٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡﵞ المائدة[03] فرح الصحابة وبكى عمر وقال: ما بعد الكمال إلا النقصان مستشعراً نعيه عليه الصلاة والسلام فما عاش بعدها إلا أحداً وثمانين يوماً"[94] ثم قال: "وعلى الجملة فكل من زاغ ومال عن الصراط المستقيم فبمقدار ما فاته من باطن القرآن فهماً وعلماً، وكل من أصاب الحق وصادف الصواب فعلى مقدار ما حصل له من فهم باطنه"[95].

ففهم باطن القرآن هو فهم المعنى المراد ولا يكون إلا بعد فهم الظاهر ومـــراد الله من الخطاب، وإن كان غير قطعي عند المفسر إلا أنه لا بد أن يكون ممـــا يحتملـــه الظاهر أو يقتضيه ولكن وضع كذلك شروطا لاعتباره هي:

ثالثا: شروط اعتبار الباطن عند الشاطبي: فالشاطبي رغم كونـــه مـــن أنصـــار الباطن إلا أنه ضبطه بشروط إذا توفرت حصل الفهم المقبول قال: "ولكن يشترط فيه شرطان أحدهما أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر في لسان العرب ويجري على المقاصد العربية، وأما الثاني أن يكون له شاهد نصا أو ظاهراً في محل آخر يشـــهد لصحته من غير معارض وإلا صار من جملة الدعاوى التي تدعى على القـــرآن"[(96)] أي أن يكون الباطن موافقا للظاهر المقرر في لسان العرب، جاريا علـــى المقاصـــد العربية، ومعهود العرب في التخاطب وهو الشرط الأول الذي مـــرَّ الحـــديث عنـــه بالحديث عن كيفية فهم الظاهر، وهو يعني الاحتكام إلى أساليب العربية ومقاصـــدها في التعامل مع بواطن النصوص، وذلك انطلاقا من عربية القرآن.

وأما الثاني فيقصد به انتفاء المعارض بأن يشهد له دليل شرعي قد يكـــون ظنيـــا وقد يكون قطعيا أي يكون جاريا على مقاصد الشرع القطعية أو الظنية أي الاحتكـــام إلى أساليب الشرع وعاداته في التخاطب وهو الفقه المقصود يقول: "فالفقهاء لم يبلغوا ذلك المبلغ إلا بفهمهم لباطن النص القرآني"[(97)] بمعنـــى تجـــاوز الظـــاهر وإنمـــا ذمّ الشاطئ تماديهم أي من سلب منهم صفة الفقه والتعمق في الصيغة النصية للخطـــاب لوقفهم عند حرفية النص وتمثلهم بصيغته الكتابية[(98)] ولذلك ذم نوعين مـــن النـــاس مفرط في الظاهر ومفرط في الباطن[(99)]، ومدح أهل الفهم الصـــحيح القـــائم علـــى الاعتدال والوسطية من غير إفراط ولا تفريط يقول: "ربما أخذ تفسير القـــرآن علـــى التوسط والاعتدال، وعليه أكثر السلف المتقدمين بل ذلك شأنهم، وبه كانوا أفقه الناس فيه وأعلم العلماء بمقاصده وبواطنه، وربما أخذ على أحد الطرفين الخـــارجين عـــن الاعتدال إماّ على الإفراط وإماّ على التفريط، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم، فالـــذين أخذوه على التفريط قصروا في فهم اللسان الذي به جاء وهو العربية، فما قاموا فـــي

تفهم معانيه ولا قعدوا، كما تقدم عند الباطنية وغيرها ولا إشكال في إطراح التعويل على هؤلاء، والذين أخذوه على الإفراط أيضاً قصروا في فهم معانيه من جهة أخرى، وقد تقدم في كتاب المقاصد بيان أن الشريعة أمية، وأن ما لم يكن معهودا عند العرب فلا يعتبر فيها... ولا تعتبر ألفاظها كل الاعتبار إلا من جهة ما تؤدي المعاني المركبة، فما وراء ذلك إنْ كان مقصودا لها فبالقصد الثاني(100).

وعليه فالتوغل في التمسك بحرفية النص يؤدي إلى ضياع المقصود منه كما أن الاعتراض على الظاهر لا يجوز إلا بدليل يجيز الخروج عنه؛ وعليه فالمعنى الباطن مطلوب إذا اقتضاه الظاهر "لأن من فهم باطن ما خوطب به لم يحتل على أحكام الله حتى ينال منها بالتبديل والتغيير، ومن وقف مع مجرد الظاهر غير ملتفت إلى المعنى المقصود اقتحم هذه المتاهات البعيدة"(101) فالاستعانة بالمعنى الباطني هو العاصم من التناقض والاضطراب.

وعليه فالشاطبي من أنصار الظاهر والباطن معا ولا تغليب لأحدهما على الآخر ولذلك نخرج برأيه في أنه يدعو إلى إعمال الظاهر دون غلو وإلى إعمال الباطن دون غلو؛ ولذلك شجب عن المتوغلين في الباطن حتى تركوا الظاهر كلية وهم الباطنية، وشجب الوقوف عند الظاهر وهم الظاهرية والمشبهة، وعليه فإدراك الباطن من تمام إدراك مقاصد الشارع وهي دعوة صريحة لإعمال النظر والتدبر في النصوص الشرعية وأن الباطن المقصود هو مقاصد الشارع، وبتجاوز هذه الشروط ظهر الابتداع في الأخذ بالباطن كالآتي:

رابعا: الابتداع في الأخذ بالباطن: هناك عدة فرق دافعت عن الباطن دون ضوابط وظهر ذلك في أقوالها منها:

1- **الروافض (الشيعة):** بتجاوز الروافض للظاهر وقولهم بالباطن مطلقا خالفوا الأمة في عدة تفسيرات وجاءوا بتأويلات غريبة منها تفسيرهم للجنابة بمبادرة المستجيب بإفشاء السر إليه، والغسل بتجديد العهد، والتيمم بالأخذ من المأذون

والصيام بالإمساك عن كشف السر، وليلة القدر بالسيدة فاطمة ...إلى غير ذلك من التفسيرات[102].

ومن أمثلة هذا كذلك ما ادّعاه (بيان بن سمعان) زعيم فرقة البيانية[103]، أنه مسمى في القرآن حيث زعم أنه المراد بقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ﴾آل عمران[138] ومثله في الفحش من تسمّى (بالكسف) ثم زعم أنه المراد بقوله تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا ﴾الطور[44]، والكِسف هو أبو منصور الذي تنسب إليه المنصورية، كذلك ما حكى بعض العلماء أن عبيد الله الشيعي حين ملك إفريقية فسر قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ النصر[01] بصاحبيه من كتامة أحدهما يسمى نصر الله والآخر بالفتح، كما كان يقول كتامة خير أمة أخرجت للناس مؤولا بها قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾آل عمران[110].

2- الصوفية: كذلك ما نقل عن الصوفية من تفسيرات باطنية منها تفسيرهم لفظة فرعون الواردة في قوله تعالى:﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ طه[24] بالقلب ولفظة "بقرة" في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ﴾ البقرة[67]. بالنفس.[104] واستشكل الشاطبي الكثير من تفسيرات الصوفية منها ما نقل عن سهل في قوله تعالى:﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ البقرة[35] عندما قال لم يرد الله معنى الأكل في الحقيقة، وإنما أراد معنى مساكنة الهمة، مخالفا ما ذكره الناس من أن المراد النهي عن نفس الأكل لا عن سكون الهمة لغير الله وإن كان ذلك منهيا عنه أيضا.

ومنه تفسيره لقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾النساء[51] بأن رأس الطواغيت النفس الأمارة بالسوء، ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾النساء[32] باطنها فهو القلب، ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ النساء[32] النفس،﴿ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ ﴾ النساء[32]

العقل المقتدي بعمل الشرع، ﴿ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ النساء[36] الجوارح المطيعة لله عز وجل.

وهو من المواضع المشكلة في كلامه وذلك أن الجاري على مفهوم كلام العرب في هذا الخطاب، أن المراد بالجار ذي القربى وما ذكر معه ما يفهم منه ابتداء وغير ذلك لا يعرفه العرب، والدليل على ذلك أنه لم ينقل عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين للقرآن يماثله أو يقاربه...ثم لا دليل يدل على صحة هذا التفسير لا من مساق الآية فإنه ينافيه، ولا من خارج إذ لا دليل عليه كذلك، بل مثل هذا أقرب من كلام الباطنية ومن أشبههم؛ ولذلك فضل التوقف في هذه المعاني إن لم يدل عليها دليل من اللغة أو الشرع فقال: "فالتوقف عن اعتباره في فهم باطن القرآن لازم وأخذه على إطلاقه فيه ممتنع...فلا يصح إطلاق القول باعتباره في فهم القرآن"(105).

3- **المتكلمة:** وهم أرباب الكلام فمنهم من ادعى جواز نكاح الرجل تسع نسوة مستدلاً بقوله تعالى: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ ﴾ النساء[03] مخالفا ما تدل عليه الألفاظ مثنى وثلاث ورباع في أصل وضعها، ومنهم من أحل شحم الخنزير وجلده لأن الله قال: ﴿ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ ﴾ المائدة[03] فلم يحرم شيئا غير لحمه ولفظ اللحم يتناول الشحم وغيره بخلاف العكس؛ وهؤلاء من أهل الكلام هم النابذون للمنقولات إتباعا للرأي، وقد أداهم ذلك إلى تحريف كلام الله بما لا يشهد للفظه عربي ولا لمعناه برهان.(106) وهناك أمثلة كثيرة يصعب سردها ولذلك دعا إلى التفسير الوسطي للقرآن الكريم:

خامسا: ضرورة التفسير الوسطي للقرآن: ولذلك دعا الشاطبي إلى ضرورة تفسير القرآن تفسيرا وسطيا لا شطط ولا غلو فيه وهو الفقه الصحيح؛ فيه تتحقق مقاصد الشارع على الحقيقة فقال: "ربما أخذ تفسير القرآن على التوسط والاعتدال وعليه أكثر السلف المتقدمين بل ذلك شأنهم وبه كانوا أفقه الناس فيه، وأعلم العلماء بمقاصد وبواطنه، وربما أخذ على أحد الطرفين الخارجين عن الاعتدال إما على

الإفراط، وإما على التفريط وكلا طرفي قصد الأمور ذميم"[107]، وبذلك ذم أهل الظاهر وسماهم مفرطين وأهل الباطن وسماهم أهل إفراط يقول: "فالذين أخذوه على التفريط قصروا في فهم اللسان الذي به جاء وهو العربية فما قاموا في تفهم معانيه ولا قعدوا، كما تقدم عن الباطنية وغيرها ولا إشكال في إطراح التعويل على هؤلاء والذين أخذوه على الإفراط أيضا قصّروا في فهم معانيه من جهة أخرى وقد تقدم في كتاب المقاصد بيان أن الشريعة أمية، وأن ما لم يكن معهودا عند العرب فلا يعتبر فيها"[108].

كما كان يقول أن الفقه هو إدراك مقصد الشارع، وأن إدراك "مقصود الخطاب ليس هو التفقه في العبارة، بل التفقه في المعبر عنه والمراد به، ولا يصح أن يقال إن التمكن في التفقه في الألفاظ والعبارات وسيلة إلى التفقه في المعاني بإجماع العلماء فكيف يصبح إنكار ما لا يمكن إنكاره؟ ولأن الاشتغال بالوسيلة والقيام بالفرض الواجب فيها دون الاشتغال بالمعنى المقصود لا ينكر في الجملة، وإلا لزم ذم علم العربية بجميع أصنافه، وليس كذلك باتفاق العلماء"[109] ثم يبين كيفية التوسط وهو إعمال اللسان العربي:" كيف وبالعربية فهمنا عن الله تعالى مراده من كتابه وإنما المنكر الخروج في ذلك إلى حد الإفراط، الذي يشك في كونه مراد المتكلم، أو يظن أنه غير مراد أو يقطع به فيه" إلى أن قال "فالحاصل أن لكل علم عدلاً وطرفاً إفراط وتفريط والطرفان هما المذمومان والوسط هو المحمود"[110]. فإعمال العربية مطلوب ولكن دون شطط، وإعمال قصد المتكلم مطلوب ولكن دون توغل.

ومأخذ الوسط هو النظر في مساقات الكلام من أسباب النزول والناسخ والمنسوخ والمكي والمدني، واعتبار علم القراءات وعلم الأصول، وقد أشار إلى بعض ذلك بقوله: "وقد يعينه على هذا المقصد النظر في أسباب التنزيل" "وعليك بالتأمل في المقام لتعرف هل لابد للفهم الوسط من ملاحظة غير هذين الأمرين من الأمور الستة المشار إليها أي النظر في السياق والمقصود"[111]، وهو ما تقدم في كيفية فهم الظاهر للعبور إلى الباطن أي استثمار فقه النص بالنظر في سياقه المحيط به لا في صيغته

فقط ويقول: "فإذا صح له الظاهر على العربية رجع إلى نفس الكلام فعمّ قريب يبدو له منه المعنى المراد فعليه بالتعبد به، وقد يعينه على هذا المقصد النظر في أسباب التنزيل؛ فإنها تبين كثيرا من المواضع التي يختلف مغزاها على الناظر"[112].

وعليه فالمعنى الوسطي هو إعمال الطرفين المبنى والمعنى اللغة والقصد بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر بحيث لا يؤدي اعتبار أي من الطرفين إلى إهمال الطرف الآخر، وهذا ما قرره الشاطبي في الموافقات حين وضع قاعدة ذهبية في التعامل مع اللفظ الشرعي وهي "العمل بالظواهر على تتبع وتغال بعيد عن مقصود الشارع وإهمالها إسراف أيضا"[113] ويقول أيضا: "... أن يقال باعتبار الأمرين جميعا على وجه لا يخل فيه المعنى بالنص، ولا بالعكس لتجري الشريعة على نظام واحد لا اختلاف فيه ولا تناقض، وهو الذي أمه أكثر العلماء الراسخين، فعليه الاعتماد في الضابط الذي يعرف به مقصد الشارع".[114] وبهذا يحدد مقصود الشارع بانضباط وحذر.

أي إن الوقوف على مقصد الشارع من الحكم يحتم اعتبار مبنى النص ومعناه الشرعي، بحيث لا تغلب أي من الجهتين على الأخرى وقوله: "وهو الذي أمه أكثر العلماء الراسخين" إشارة إلى أنه المنهج السديد في طريقة الاجتهاد وفهم النصوص والوقوف على الأحكام والمقاصد.

ولذلك دعا من خلال المقاصد إلى إعمال المعنى معا دون تفريط في واحد منهما وهي: الجمع بين الكلي والجزئي وقد دعا في غير ما مرة إلى اعتبار الجزئيات عند النظر في الكليات، واعتبار الكليات والجزئيات، وهو المعنى المقاصدي الذي يكون طريقه القياس على كليات الشريعة ومقاصدها العامة، فالنصوص الشرعية قد تفيد أحكاما كلية مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ المائدة[01] وقول الرسول (ﷺ): "لا ضرر ولا ضرار"[115] والفقهاء ينتزعون من كل ذلك فروعا إما بطريق تحقيق المناط[116] في الأحكام الكلية لأن المنتزعات جزئيات لتلك القضايا

الكلية، أو بطريق القياس في الأحكام الجزئية لأن المنتزعات مشابهة لتلك الجزئيات[117]؛ بحيث يجب على المجتهد النظر المتعمق إلى معاني الأحكام بعد استكناه عللها لتكون الأحكام التي يتوصل إليها محققة لمقصده بإقامة ما يحقق المصلحة ويدفع المفسدة، وإقامة المصلحة ودفع المفسدة هو المقصد العام للتشريع الإسلامي، فكل ما يحقق المصلحة فهو مقصود، وكل ما يحقق المفسدة فهو مدفوع.

وقد نتجت هذه المعاني –كما سبق– من استقراء معاني وأدلة جزئية كثيرة يتضمن كل منها معنى الأصل العام الذي يندرج فيه والأصل المعنوي العام؛ كأصل "رفع الحرج" الوارد في قوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾ وأصل "اعتبار الضرورة" في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾، وهذه توجه المجتهد إلى تفريع أحكام الوقائع على أساسها بمقتضى حالة الضرورة أو الحاجة، وكليات أخرى في التشريع لا تحصى تمثل معاني عامة ثابتة بالاستقراء[118].

بهذه الطريقة بين الشاطبي أسس العلاقة بين الظاهر والباطن أي المعنى المقاصدي والنص، لذلك حق على المجتهد أن يأخذ بهما عند تعامله مع النص الشرعي لأن المعول عليه في نظرية المقاصد هو المعاني لا المباني، وهنا تكمن أهمية الباطن في استخراج الأحكام الشرعية.

وعليه نقول إن الشاطبي قد صاغ نظرية منهجية في علم الأصول تعتبر جديدة نظرية تحرر ظاهرية ابن حزم من سجن اللغة لتربطها بعالم المقاصد والمصالح وبالتالي لتفتح أمام العقل والاجتهاد مجالا أوسع وأرحب، ولذلك لا يجب الاهتمام بالألفاظ على حساب المقاصد والعكس، لأن إمكانات اللغة إمكانات محدودة فالمواضعة لا يمكن أن تلم بكل جديد وهذا ما اهتم به الأصوليون فاهتموا باللفظ أكثر دون المقاصد وهو ما كمله الشاطبي بنظرية المقاصد، فالمقاصد هي الأولى بالاعتبار

كونها قيما عالمية خالدة متجددة لا تخضع لمواضعة لغوية تكبلها وتكبح جماحها[119] وبه يتجدد الفهم والتطبيق لهذا الدين العظيم.

إذن فاعتبار الظاهر ضروري في الشريعة الإسلامية كما أن اعتبار الباطن كذلك وبذلك يكون الشاطبي قد وضع منهجا وسطا لتفسير النصوص الشرعية بين منهج الظاهرية الذين بالغوا في الاحتكام إلى الظاهر دون الالتفات إلى علل الأحكام ومقاصدها، وبين منهج الباطنية الذين بالغوا في الاحتكام إلى المقاصد والمعاني دون اعتبار للظاهر وفي ذلك قال ابن القيم "وأصحاب الرأي والقياس حملوا معاني النصوص فوق ما حملها الشارع، وأصحاب الألفاظ والظواهر قصروا بمعانيها عن مراده فأولئك قالوا إذا وقعت قطرة من دم في البحر فالقياس أنه ينجس، ونجسوا بها الماء الكثير...وهؤلاء قالوا إذا بال جرة من بول وصبها في الماء لم ينجسه، وإذا بال في الماء نفسه ولو أدنى شيء نجسه".[120]

وبهذا المنهج يمكننا رد بعض الاجتهادات المعاصرة لأن أصحابها إما وقفوا عند ظواهر النصوص ولم يعملوا معانيها وإما تركوا الظاهر كلية وهم أهل الباطن المعاصرين من دعاة الحداثة؛ ومنها ما ذهب إليه بعض المعاصرين من حرمة التصوير الفوتوغرافي والتشدد في حكمه مستندين إلى النصوص العامة الواردة في وعيد المصورين فحملوا هذه الألفاظ على عمومها اللغوي دون بحث عن معناها الشرعي، وما ذهب إليه غيرهم من تغيير لأحكام قطعية بحجة الحداثة كإباحتهم للربا وتغيير أنصبة الميراث... فهكذا يجب أن يضبط تفسير النص الشرعي فلا شطط في إعمال المعنى ولا شطط في إعمال اللفظ؛ فالنظر يكون إليهما جميعا وقد برع الشاطبي في توجيه قضية الظاهر والباطن في القرآن من منطلق مقاصدي، حتى لا يكون الباطن ذريعة وثغرة تتسلل منها طوائف نسبت نفسها لأهل الفهم الباطني ومقصدها نقض الشريعة لذلك قرر الشاطبي أسوة بغيره من العلماء أن يكون القول بالباطن منضبطا حتى لا يتخذ تأويل النص القرآني مدخلا للتأويل الفاسد ومسرحا للتحرر من قيود القراءة الشرعية التي تضمن مصلحة الإنسان في كل زمان.

خاتمة: بعد العرض السابق لقضية الظاهر عند الإمام الشاطبي، بدت براعته في ربط القضية بالباطن وبيان درجة التوغل فيه، وما ذلك إلا دفاعا عن الدين الإسلامي وقابليته للتجدد والتجديد بإزالة اللبس في فهمه ووضع منهجية في فهم النص القرآني باعتباره ظاهرا وباطنا، لغة ومقصدا، وبذلك يعتبر بحق مكتشف قواعد الفهم في تحليل رائع فاق كل محاولات الأصوليين السابقين وهذا تلخيص لأهم النتائج المتوصل إليها:

1- الظاهر عند الشاطبي هو المعنى اللغوي، وهو مطلوب في الفهم ولكن التوقف عنده لا يعطي إلا الدلالة الحرفية للنص، وقد أدرجه ضمن المتشابه لحاجته إلى البيان مخالفا جمهور العلماء في اعتباره من واضح الدلالة؛

2- كون الدلالة اللغوية مطلوبة فإن دلالتها على المعنى عند الشاطبي تكون من جهتين: دلالة أصلية تنتهي إليها مقاصد المتكلم وهي دلالة الصيغة في أصل وضعها العربي على الإطلاق دون ملاحظة السياق، ودلالة تابعة خادمة للأولى وهي التي يقتضيها المقام والوقت والحال، أي بحسب المقاصد الاستعمالية وإن كان الوضع على خلاف ذلك؛

3- وضع الشاطبي قاعدتين لفهم الظاهر هما اعتبار مقتضيات الأحوال ومعهود العرب في التخاطب، ومعنى مقتضيات الأحوال؛ مراعاة ما يحيط بالنص من عناصر غير لفظية من معرفة أسباب التنزيل وحال المخاطبين والمكان والزمان... ومعنى معهود العرب؛ مراعاة عادات العرب وأساليب استعمالاتها في التخاطب حال التنزيل فبه يتميز عام الكلام وخاصه، وحقيقته ومجازه؛...

4- لاحتمال الظاهر لمعاني غير ظاهرة دعا الشاطبي إلى ضرورة تفسيره للوصول إلى ما يحتويه باطنه من دلالات عميقة ومقاصد خفية شرعية.

5- اعترف الشاطبي بالباطن واستدل لاعتباره بأدلة تدعو إلى التدبر في المنصوص وعدم الوقوف على دلالته الظاهرة وسماه مراد الله من الخطاب؛ وقد وضع بذلك حدودا بيم الباطن المراد والباطن غير المراد؛

6- كما عد الشاطبي الاعتصام بالظاهر درءا للانحرافات العقدية والفقهية، عــد كذلك اعتبار الباطن درء للاختلال في الفهم والانحرافات العقدية؛ لذلك دعا الشاطبي إلى الجمع بينهما في اعتدال وتوسط وهو الفقه الصحيح الذي بــه تتحقــق مقاصــد الشارع على الحقيقة، فترك الظاهر مذموم كما إن التعصب له مذموم كذلك، وتــرك الباطن مذموم كما إن التعصب له مذموم كذلك؛ والحل في اعتبار كل منهمــا علــى اعتدال وتوسط وهو مذهب السلف الصالحين والأئمة المعتدلين.

7- بتطبيق هذه القاعدة الذهبية والتأصيل لها أكثر نستطيع تجديد أصول التفســير في عصرنا مما له أثر في تجديده بشكل مضبوط وهو ما دعا إليــه الشــاطبي فــي الأخير؛ وهو ما أوصي به في نهاية هذه الورقة لإعــادة ضــبط أصــول التفســير والاستنباط من دون تضييع للفظ أو تضييع للمعنى.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الاحالات:

(1) أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، إشراف وتقديم: عبد الحميد الهرامة، ج(1) ط1، كلية الدعوة الإسلامية، 398 من وفاة الرسول، 1989م، طرابلس، ص(48،52)، وانظر: الترجمة مفصلة في حمادي العبيدي، الشاطبي ومقاصد الشريعة، ط1، دار قتيبة، 1412هـ = 1992م، بيروت، ص43 فما بعدها.

(2) حمادي العبيدي، المرجع نفسه، ص 12.

(3) انظر: محمد أبو الأجفان، مقدمة تحقيقه للإفادات والإنشادات للشاطبي، ط3، مؤسسة الرسالة، 1403ه=1983م، بيروت، ص (15،16).

(4) الشاطبي، الموافقات، ج02، الموافقات، ط1، دار الكتب العلمية، 1425ه=2004م، بيروت ص273.

(5) الشاطبي، الاعتصام، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، ج(02)، ط2 1418هـ - 1998م، بيروت، ص (538-542).

(6) الشاطبي، الموافقات، المصدر السابق، ج04، ص73.

(7) حمادي العبيدي، المرجع السابق، ص 38.

(8) انظر: الموافقات، ج01 ص24، وأحمد الريسوني، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي ط4، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1416ه=1995م، ص (107-124).

(9) التنبكتي، المصدر السابق، ص46.

(10) عبد الله دراز، مقدمة تحقيق الموافقات، المصدر السابق، ص07.

(11) انظر: محمد أبو الأجفان، فتاوي الإمام الشاطبي، ط2، 1406د.د، ه=1985م، تونس ص(46-47) نقلا عن: محمد الفاضل ابن عاشور، أعلام الفكر الإسلامي، ص76.

(12) المصدر نفسه، ص 47.

(13) أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ط1، مطبعة الكتبي، 1429ه، مصر، مادة ظهر ص184.

(14) انظر: فتحي الدريني، المناهج الأصولية في الاجتهاد بالرأي في التشريع الإسلامي، ط3 مؤسسة الرسالة، 1429ه=2008م، بيروت، ص (07- 09).

(15) انظر: الغزالي، المستصفى من علم الأصول ومعه فواتح الرحموت، ج(01)، ط1، المطبعة الأميرية،1334ه=1914م، مصر، ج(03)، ص37، وبدر الدين الزركشي، البحر المحيط في

أصول الفقه، مراجعة: عمر سليمان الأشقر، ج (01)، ط2، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية 1413هـ= 1992 م، الكويت، ص462، والرازي، المحصول، ،ج03، تحقيق: طه جابر العلواني، مؤسسة الرسالة، دط، دت، ص(151-153)، ومحمد أديب صالح، تفسير النصوص في الفقه الإسلامي، ج (01)، ط4، المكتب الإسلامي،1413ه=1993م،بيروت، ص 140.

(16) الغزالي، المصدر السابق، ص37.

(17) الزركشي، المصدر السابق، ج(03)، ص436.

(18) أبو المعالي الجويني، البرهان، ج(01)، تحقيق: عبد العظيم الديب، ط1، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ،1399ه= 1978م، قطر، ص417.

(19) انظر: أديب صالح، المرجع السابق، ص 217.

(20) نجم الدين الطوفي، شرح مختصر الروضة، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي ج(01)، ط1، مؤسسة الرسالة،1407ه=1987م، بيروت، ص 553، وأبو الوليد الباجي، المنهاج في ترتيب الحجاج، تحقيق: عبد المجيد تركي، ط3، دار الغرب الإسلامي، دت، ص12. والغزالي، المصدر السابق، ج (1)، ص (384-386).

(21) محمد الأمين الشنقيطي، مذكرة في أصول الفقه، دط، مكتبة العلوم والحكم، دت، المدينة المنورة، ص 211.

(22) انظر: عبد الحميد العلمي، منهج الدرس اللغوي عند الإمام الشاطبي، دط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية،1422ه=2001م، المغرب، ص269.

(23) أحمد بن أبي سهل السرخسي، أصول السرخسي، تحقيق: أبو الوفا الأفغاني، ط1، دار الكتب العلمية،1414ه=1993م، بيروت، ج(01)، ص163.

(24) فتحي الدربني، المرجع السابق، ص 48.

(25) الغزالي، المصدر السابق، ج(01)، ص 399-400.

(26) أحمد ابن تيمية، مجموع الفتاوي، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، د ط، ج (20)، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، 1425ه=2004م، المدينة المنورة، ص417.

(27) ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: محمد عز الدين خطاب، ط1 دار إحياء التراث العربي، 1422ه=2001م، بيروت، ج(01)، ص197.

(28) نفسه، ص47.

(29) ابن حزم الظاهري، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: الشيخ أحمد محمد شـــاكر، ج(04) دط، دار الآفاق الجديدة، 1979ه=1397م، بيروت، ص08، وابن حزم،المحلى المحلى بالآثـــار تحقيق: أحمد محمد شاكر،ج1، دط، مطبعة النهضة، دت، مصر، ص56.

(30) نفسه، ج(03)، ص39.

(31) الشاطبي، الموافقات، المصدر السابق، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل ســـلمان، دار ابن عفان – جمهورية مصر العربية، ط1، 1421هـــ.ج (03)، ص 386. وانظر: ســـالم بـــن نصيرة، الشاطبي يمثل نقلة نوعية في منهجية علم أصول الفقه والشريعة الإسلامية، موقع: جريدة الاتحاد https://www.alittihad.ae/tag .يوم:05-05-2019م.

(32) المصدر نفسه، ص 388.

(33) المصدر نفسه.

(34) ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية – دط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، دت، ص21.

(35) انظر: الشاطبي، الموافقات، المصدر السابق، ج(05)، ص401.

(36) نفسه، ص401.

(37) انظر: الشاطبي، المصدر السابق، ص (401-402).

(38) نفسه، ص402.

(39) نفسه، ص (403-405).

(40) محمد مفتاح، مجهول البيان، ط1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1990م، ص 93.

(41) عزيز عدمان، إشكالات التأويل بين التراث العربي الإسلامي والنظريات الحديثة، رســـالة دكتوراه، كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر، 200-2001م، ص 226.

(42) الشاطبي، الموافقات، المصدر السابق، ج (03)، ص 116.

(43) المصدر نفسه، ص (675-676). (طبعة دار الكتب العلمية).

(44) نفسه، ص 676.

(45) الموضع نفسه.

(46) نفسه، ص676.

(47) نفسه، ص (676-677).

(48) الشاطبي، المصدر، ص 693. (بتحقيق آل مشهور).

(49) المصدر نفسه، ج03، ص (268-269).

(50) نفسه، ص (65-66).

(51) نفسه، ج (02)، ص 64.

(52) نفسه، ص (66-67).

(53) نفسه، ص266.

(54) عبد الرحمن البناني، حاشية البناني على شرح الجلال المحلى جمع الجوامع، ج1، دط، دار الفكر، دت، د. م، ص20.

(55) الشاطبي، المصدر السابق، ج03، ص413.

(56) محمد التونجي، المعجم المفصل في الأدب، ج(2)، ط2، دار الكتب العلمية، 1419هـ= 1999م، بيروت، ص 535، وج(01)، ص (349-350).

(57) انظر: ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، ترجمة: كمال محمد بشير، دط، مكتبة الشباب،1393ه= 1972م، دم، ص 62.

(58) انظر: أحمد مختار عمر، علم الدلالة بين النظرية والتطبيق، ط1، مكتبة دار العروبة 1402هـ = 1982م، الكويت، ص 69.

(59) الشاطبي، المصدر السابق، ج (03)، ص 413.

(60) انظر: طاهر سليمان حمودة، دراسة المعنى عند الأصوليين، دط، الدار الجامعية للطباعة والنشر،1403هـ = 1983م، الإسكندرية، ص (222- 223).

(61) الشاطبي، المصدر السابق، ص 288.

(62) عبد الله دراز، هامش الموافقات، المصدر نفسه، ص 153.

(63) نفسه، ص 276.

(64) القاضي عبد الجبار المعتزلي، المغني في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق بإشراف طه حسين، ج15، (دط، مطبعة عيسى الحلبي، 1385ه=1965م، مصر). ج (17)، ص 17.

(65) الغزالي، المصدر السابق، ص (85). تحقيق: عبد العظيم الديب، ط1، مطبعة الحلبي، دار الأنصار،1356هـ= 1937م، القاهرة.

(66) الجويني، البرهان، المصدر السابق، ج (01)، ص 329.

(67) ابن قيم الجوزيّة، إعلام الموقّعين،المصدر السابق، ج (03)، ص (94-95).

(68) فخر الدين الرازي، التفسير الكبير المشهور بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيـب، ج (09)، ط1 دار الفكر،1401ه=1981م، بيروت، ص (178-179).
(69) ابن حزم، المحلى، المصدر السابق، ص (56).
(70) انظر تفصيل ذلك في: الإحكام في أصول الأحكام، المصـدر السـابق، ج (01)، ص 10. والمحلى، المصدر السابق، ج(03)، ص363.
(71) انظر: محمد أبو زهرة، ابن حزم (حياته وعصره، آراؤه وفقهه)، د ط، دار الفكر العربـي 1420ه = 1997 م، القاهرة، ص 229.
(72) انظر: ابن حزم، المحلى، المصدر السابق، ج01، ص(135-140).
(73) الشاطبي، المصدر السابق، ج04، ص29.
(74) نفسه، ج04، ص29.
(75) الشاطبي، المصدر السابق، ج04، ص29.
(76) المصدرنفسه، ص 129.
(77) الزركشي، البحر المحيط، المصدر السابق، ج3، ص438، [طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية،تحرير: عمر سليمان الأشقر وعبد الستار أبـو غـدة ومحمـد سـليمان الأشـقر، ط 1413ه=1992م، الكويت].
(78) تقي الدين أحمد ابن تيمية، الإكليل في المتشابه والتأويل، تحقيق: محمد الشيمي شحاتة، دط دار الإيمان، دت، دم، ص 27.
(79) فتحي الدريني، المرجع السابق، ص 189.
(80) العلمي، المرجع السابق، ص 273.
(81) نفسه، ص330.
(82) نفسه، ص (331-332).
(83) نفسه، ص332.
(84) سـيد أحمـد عبـد الغفـار، التصـور اللغـوي عنـد علمـاء أصـول الفقـه، دار المعرفة،1417ه=1996م، الاسكندرية، ص 122.
(85) الرازي، مختار الصحاح، المصدر السابق، مادة بطن، ص (518-519).

(86) الشاطبي، المصدر السابق، ص (403-405). وانظر الحديث في صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تأليف: الأمير علاء الدين ابن بلبان الفرسي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط2، مؤسسة الرسالة، 1414ه=1993م، بيروت.

(87) مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، دط، ج12، مطبعة حكومة دبي 1393ه=1973م، الكويت، مادةط ظهر"، ص481.

(88) الشاطبي، المصدر السابق، ص 704.

(89) المصدر نفسه، ص (704-706).

(90) المصدر نفسه.

(91) الشاطبي، المصدر السابق، ص (704-706).

(92) نفسه، ص705.

(93) المصدر نفسه.

(94) نفسه.

(95) المصدر نفسه.

(96) نفسه.

(97) المصدر نفسه.

(98) المصدر نفسه.

(99) نفسه ص 704 فما بعدها.

(100) المصدر نفسه.

(101) المصدر نفسه.

(102)المصدر السابق، ص703. وللاستزادة انظر: تفسير شيعي باطني لمؤلف مجهول عنوانه: مسائل مجموعة من الحقائق العالية والدقائق والأسرار السامية، موجود ضمن أربعة كتب اسماعيلية، في مكتبة أمبروسيانة، ميلانو، صححه الدكتور تشروطمان، ص(14-15).

(103) من الرافضة وقد قتله خالد بن الوليد وأراح العباد من شره.

(104) انظر: محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، ط7، مكتبة وهبة،1421 ه=2000م القاهرة.، ج02، ص288 فما بعدها.

(105) الشاطبي، المصدر السابق، ص704 فما بعدها.

(106) المصدر نفسه.

(107) المصدر نفسه، ص714.

(108) المصدر نفسه، ص714.

(109) المصدر نفسه، 715.

(110) المصدر السابق، ص715.

(111) نفسه، ص717.

(112) نفسه، ص717.

(113) نفسه.

(114) نفسه.

(115) أخرجه الإمام مالك في الموطأ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دط، دار إحياء التراث العربي،1406ه= 1985م، بيروت ج2، ص 745، كتاب الأقضية، باب: القضاء في المرفق، عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه، وصححه الألباني في إرواء الغليل، ج(02)، ط2، المكتب الإسلامي، 1405هـ،1985م، بيروت، ص408، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دط، دار إحياء التراث العربي،1406ه= 1985م، بيروت

(116) تحقيق المناط هو" أن يثبت الحكم بمدركه الشرعي لكن يبقى النظر في تعيين محله" الموافقات، المصدر السابق، ج4، ص90.

(117) انظر: ابن عاشور، مقاصد الشريعة، المرجع السابق، ص 44.

(118) الدريني، المرجع السابق، ص (14-16).

(119) انظر: محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، ط5، 1996م، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، (105-106).

(120) ابن القيم، إعلام الموقعين، المصدر السابق، ج (01)، ص 200.

موقع اللغة العربية من الممارسة التفسيرية
ـ قراءة في مدونة التفسير الأولى ـ

داه. فضيلة جوهري

كلية العلوم الإسلامية جامعة الجزائر 1.

مقدمة: بسم الله مُنزل القرآن ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ [النحل:89]، وله الحمد أن هدى به الناسَ إلى فُسَح النور بعدما طال تيههم في دياجير العمى والظلمة والصلاة والسلام على من اختاره الله مبعوثا به إلينا فأضاءت برسالته الدنيا وتم به الفضل وكملت به النعمة، وعلى آله وأصحابه وأتباعه الذين حملوه إلينا على أحسن وجه وأكمله، واضطلعوا بحفظه وتناقله كابرا عن كابر وأمة بعد أمة، وارضَ اللهم عن كل من أخلص نفسه لخدمة هذا الكتاب وبذل عمره في استخراج نفائسه من الصُّلحاء والعلماء والفقهاء والأئمة، وتقبل علمه والعمل به من المسلمين كلهم واحشرهم معه في جناتك بفضلك ورحمتك يا واسع الفضل والرحمة، أما بعد.

فقد أنعم الله تعالى على خلقه بنعمة القرآن، وزاد من فضله عليهم فعلمهم البيان ومنحهم العقل والقلب واللسان، هم على تدبر كتابه والتفكر فيه فقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ **[ص:29]**، وهيأ لهم لبلوغ تلك الغاية وتحقيق ذلك المقصد أن جعل خطابه للبشر من جنس ما منحهم إياه من أدوات التواصل، ولا يمكن أن يُفسَّر ذلك إلا على أنه يمنحهم الأداة التي يتوصلون عبرها إلى فهم رسالته، ومن ثَمَّ فهو ينشئ نوعا من العلاقة بين كلامه وبين عقول البشر ولأن **الله** ليس موضوعا للتحليل أو الدرس، فإن الوصول إلى رسالته يكون عبر تحليل كلامه، ولا يمكن أن يكون كلامه **عزّ وجلّ** بكل اللغات بل بلغة بعينها، وقد

اختار لها أن تكون العربية، غير أنه طبعها بطابعه وصبها في قالبه وكأنما جعلها خلقا آخر.. وذلك هو الإعجاز.

ذلك هو القرآن الكريم: نص لغوي عربي معجز، فهل تستطيع اللغة أن تحيط بمعانيه؟ إنه خاتم الكتب السماوية وهو موجَّه لكل البشرية على اختلاف الأجناس واللغات والثقافات، فكيف يمكن له الوفاء بتوجهه ذاك مع احتباسه في بوتقة لغة بعينها؟ ثم إن اللغة ليست حيادية بل تحمل ثقافة الناطقين بها وأفكارهم وعاداتهم فهي ذات هوية محددة، ألا يعني ذلك أن هويته من هويتها؟ ألا يطعن ذلك في عالمية القرآن؟ فإن لم يطعن فيها، فعلى أي أساس يتمكن النص القرآني من الجمع بين طبيعة لغته النسبية وطبيعة رسالته المطلقة؟ هنا تقف هذه الورقة لتبين موقع اللغة من الممارسة التفسيرية وكيفية استثمارها للوفاء بإطلاقية القرآن الكريم.

أولا: معرفة الألفاظ المفردة رأس تفسير القرآن الكريم.

1- **ليس لغير العالم باللغة تفسير شيء من الكتاب العزيز:** كانت العربية أول الأمر في ألسنة العرب سليقة، فلم تكن بهم حاجة كبيرة للوقوف عند كل تفصيلاتها ودقائق جزئياتها، ولا احتاجوا إلى جهد أو تعليم لتذوق بيان القرآن، ثم تقادم العهد وبعُد الزمن، وفسَد اللسان، فلما كان ذلك، «وكثرت العجم، ودخل في دين الإسلام أنواع الأمم المختلف والألسنة والناقصو الإدراك، احتاج المتأخرون إلى إظهار ما انطوى عليه كتاب الله من غرائب التركيب، وانتزاع المعاني وإبراز النكت البيانية حتى يدرك ذلك من لم تكن في طبعه، ويكتسبها من لم تكن نشأتُه عليها، ولا عنصره يحركه إليها، بخلاف الصحابة والتابعين من العرب، لأن ذلك كان مركوزا في طباعهم»(1).

وهكذا أصبح تعلم اللغة العربية لطالب التفسير ضرورة إذ «ليس لغير العالم بحقائق اللغة ومفهوماتها تفسير شيء من الكتاب العزيز ولا يكفي في حقه تعلم

اليسير منها فقد يكون اللفظ مشتركا وهو يعلم أحد المعنيين والمراد المعنى الآخر»[2]، بل عليه أن يقف عند **الألفاظ والتراكيب والأساليب.**

والمستقرئ لمدونة التفسير الأولى يجد دراسة المفسرين لها توقفت عند تلك المفاصل، وفي ذلك إشارة إلى أن اللغة ليست مجرد أوعية فارغة، لكنها أولا تسير داخل نظام كلامي متكامل أوجده استعمال أهلها لها، ثم إن القرآن الكريم قد جعلها خلقا آخر مادام استخدامه لها قد أبهر أهلها أنفسهم، فعجزوا عن مجاراته وهم من هم فصاحة وبلاغة وإعرابا، فتَمَثُّلُ كلِّ هذه النقاط لابد يسير بالمفسر إلى التعامل مع المعنى القرآني من خلال لغته تعاملا حذرا، محفوفا بالضوابط.

2- **تحصيل الألفاظ المفردة هو المنطلق لفهم التركيب:** إن أول ما ينبغي تحصيله هو معاني الألفاظ المفردة، فقد استوقفت الصحابةَ **رضوان الله عليهم** - وهم من هم في خلوص العربية وعلوِّ الكعب في الفصاحة- عدةُ مفردات، فلم يعلموها، وقصة **عمر بن الخطاب رضي الله عنه** من الشهرة بمكان، فقد قرأ: «﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ [عبس:1]، حتى أتى على هذه الآية: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ ، [عبس:31]؛ قال: قد علمنا ما الفاكهة، فما **الأبّ**؟»[3]، وسأل الناسَ مرة «على المنبر عن معنى "التَّخَوُّف" في قوله تعالى: ﴿ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ ، [النحل:47]؛ فأجابه الرجل الهذلي بأن التخوُّف في لغتهم التنقُّص»[4].

وهذا حبر الأمة وترجمان القرآن **عبد الله بن عباس رضي الله عنه** يقول: «كنت لا أدري ما ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾، [الأنعام:14]، حتى أتاني أعرابيّان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: "أنا فَطَرتها"، يقول: أنا ابتدأتها»[5]، ومثل هذه الآثار تَرِد على من قال: إن «القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم

فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه»[6]، وإنما المقصود هنا أن مجموعهم يعرفه حتى تقوم به الحجة.

أخرج **البيهقي**(ت458هـ) من حديث **أبي هريرة رضي الله عنه** مرفوعاً: **{أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه}**[7]، والمراد "بإعرابه" هنا «معرفة معاني ألفاظه»[8]، مما يدل على أن الدعوة إلى العناية بالألفاظ المفردة قد نشأت بنشوء الرغبة في فهم القرآن منذ نزوله، وعليه فقد «احتلت الدراسةُ المعجمية لألفاظ القرآن الكريم –باعتبارها مدخلا أساسيا ومرحلةً منهجيةً ضروريةً لأي محاولة لاحقة في التفسير– عنايةً كبرى في تاريخ الثقافة اللغوية الإسلامية»[9]، ولعل نظرة على تاريخ التأليف في التفسير تُظهر أن الدراسات المعجمية التي تمثلها كتب الغريب، والأشباه والنظائر، والمشكل، والإعراب، كانت هي البداية؛ وهي القضايا التي ظلت محور الاهتمام لفترة طويلة، والمؤلفات فيها أكثر من أن تُعد*، فليس من المستغرب إذًا أن يذهب الباحثون إلى أن «الدراسة المعجمية لم تنفصل في نشأتها عن الدراسات القرآنية بصفة عامة، بل إن هذه الدراسات هي التي كانت سببا فعالا ومباشرا في نشأة المعجم العربي والتأليف فيه»[10].

قد يبدو الحديث عن أسباب العناية بالألفاظ المفردة بديهيا من جهة، لأن تحصيلها وفهمها هو المنطلق لفهم التركيب ومن ثم النص كله، غير أن التدقيق في الخلفيات التي جعلت اهتمام المفسرين القدامى بالمفردات يبدو في بعض الأحيان مبالغا فيه يكشف عن أسباب أعمق، ويمكن التركيز على اثنين منها يعتبران الأهم:

أولهما مواجهة تيار الباطن الذي ربما غالى أصحابه في الاعتداد بالإشارات واللمحات إلى حد يلغون معه الأرضية الصلبة التي تضمن للنص بقاءه وتحميه من التحريف والتأويلات الشاذة، فتغلق الباب في وجه العابثين بمعناه الساعين لجعله مطية يركبها كل ذي هوى فيقودها وفق هواه.

أما **ثانيهما** فهو المتعارف من تطور دلالات الألفاظ والذي شهد في العقود القليلة التي تلت نزول القرآن سرعة كبيرة يمكن إعادتها إلى الاختلاط العميق بين الشعوب على اختلاف ألسنتها ولهجاتها، وهو الأمر الذي ترك أثره واضحا في شيوع اللحن وفساد المنطق، مما أشعر القدماء بالخوف عل لغة القرآن من أن يَدرُس علمُها فشمروا لتدوين اللغة وجمع شواهدها، حفاظا عليها خدمة للغة القرآن الكريم فالابتعاد عن اللغة الأصيلة أورث البعد عن الفهم الصحيح للقرآن الكريم، فلابد إذاً من التصدي لشرح المفردات القرآنية ووضعها في مكانها الذي يصلح أن يكون منارة للفهم، إذ على فهم المراد منها يتوقف فهم دلالات القرآن وأحكامه، وتتوقف التكاليف على مثل ذلك، فإن التكليف بغير فهم ضرب من العبث.

أدرك المفسرون الأوائل الأهمية التي تكتسيها دراسة مفردات القرآن الكريم، وبأسبقيتها على غيرها، فذهبوا إلى «أن أول ما يُحتاج أن يُشتغل به من علوم القرآن العلوم اللفظية، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه، كتحصيل اللَّبِن في كونه من أول المعاون في بناء ما يريد أن يبنيه»[(11)].

ولهذا فقد كان الاهتمام بدراسة الألفاظ المفردة في تفاسير القدماء سمة مشتركة ولم يكن هنالك اختلاف في دراستها إلا من حيث الاختصار والتوسع، الأمر الذي يتبع مسلك المفسر في كتابه أو طبيعة ثقافته والعلم الغالب عليه من جهة كما تتحكم فيه أسباب عامة سيأتي ذكرها.

ولم يكن عمل المفسرين عملا معجميا، يقصد إلى الجمع والتصنيف بل كان يهتم باللفظة داخل الجملة محاولا بيان معناها من جهة وإظهار جمالها في سياقها من جهة أخرى كما سيأتي، ولهذا غلب الجانب البياني البلاغي في دراسة الألفاظ على جل المفسرين، عكس ما كان عليه علماء اللغة والمعاني **كالفرّاء** (ت207هـ) **وأبي عبيدة**، فإن اهتمامهما بألفاظ القرآن لم يخرجهما إلى زمرة المفسرين رغم عمق

دراساتهما وشمولها، لأنهما «كانا مشغولين بتوضيح النص القرآني وشرحه وجعله مفهوما»[(12)].

وكمثال على هذا الحكم يمكن المقارنة بين صنيع **الطبري** (ت310هـ) في تفسيره وطريقة **أبي جعفر النحاس** (ت338هـ) في **معاني القرآن**؛ فقد كان **الطبري** يحرص على بيان أن «للكلمة معنى معينا في الآية هو أولى بها من غيره من المعاني المتعددة التي لها في حقل المعجم»[(13)]، ولنأخذ لفظة "**مخمصة**" من قوله **عز وجل:**

﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، (المائدة:3)؛ يقول الإمام **الطبري**: «**فِي** "**مَخْمَصَةٍ**" يعني في مجاعة، وهي "مفعلة"[...] من "خَمَصِ البطنِ"، وهو اضطماره، وأظنه هو في هذا الموضع معنيٌّ به: اضطماره من الجوع وشدة السَّغَب؛ وقد يكون في غير هذا الموضع اضطمارا من غير الجوع والسَّغب ولكن من خِلقة»[(14)]؛ وفي المقابل يقول **أبو جعفر النحاس**: «المخمصة ضمور البطن من الجوع»[(15)]، ولا يزيد على ذلك شيئا.

3- **العناية بالغريب باعتباره إجراءً تفسيريا لا يمكن أن يُتجاوز:** لا يخلو إذًا كتابُ تفسيرٍ من كتب القدامى من البدء بشرح الألفاظ خاصة ما تعلق منها بما يُسمى **غريب اللفظ**، بل أصبحت العناية بالغريب إجراءً تفسيريا لا يمكن أن يُتجاوز، وقبل ذلك «تتابعت المؤلّفات في **غريب القرآن** منذ النصف الأول من القرن الأول للهجرة إلى يومنا هذا، فلم يخل قرن -تقريبا- من وجود مؤلَّف أو أكثر يُعنى باللفظ القرآني الغريب ويشرح المراد منه»[(16)]، حتى قال الإمام **السيوطي**: «أفرده بالتصنيف خلائق لا يحصون»[(17)].

وقد أحصى غير واحد من الباحثين ما صُنِّف في **غريب القرآن** وقاموا بجهود كبيرة في حصر هذه المؤلفات واستقرائها*؛ ولم يكن يعني مصطلح **الغريب** عندهم الساقطَ أو الحوشيَّ أو ما لا يُستعمل من الألفاظ، كما قد يتبادر إلى ذهن السامع، فإن

القرآن قد نزل بخير ما في العربية وأجمله وأحلاه على السمع، «وإنما يراد بوصف الغرابة أن تكون [اللفظة] حسنة مستغربة في التأويل، بحيث لا يتساوى في العلم بها أهلها وسائر الناس»[18]، فقد «رأى بعض من فسر الغريب أن كثيرا منه غريب عن الأفهام؛ لأنه ليس من لغة قريش، وإنما جاء في القرآن من لغات القبائل الأخرى فأشار إلى ذلك، وسمع بعضهم الآخر ممن اختلط بهم من أهل الكتاب، ومن أهل البلاد القريبة من الحجاز، ومن أهل الأقطار المتاخمة لبلاد العرب، والتي دخلت تحت سيطرة الإسلام، أن بعض هذه الألفاظ موجود في لغات أخرى، فأشاروا إلى ذلك»[19]. ولهذا فلم يستقل بتفسير الغريب إلا العارف باللغة المتضلع بمتنها، الحافظ لشواهدها، يقول الإمام **السيوطي:** «وعلى الخائض في ذلك [يقصد تفسير الغريب] التثبت والرجوع إلى كتب أهل الفن وعدم الخوض بالظن؛ فهذه الصحابة وهم العرب العرباء وأصحاب اللغة الفصحى ومن نزل القرآن عليهم وبلغتهم توقفوا في ألفاظ لم يعرفوا معناها»[20]، فمعرفة معاني الألفاظ سبيله النقل الصحيح عن العرب الخلَّص ولا مجال فيه للاجتهاد.

ولهذا نجد المفسرين فيما بعد قد اعتمدوا اعتمادا كبيرا على مرويات أصحاب كتب **الغريب**، أما «ما يؤثر عن **أحمد بن حنبل** رحمه الله، أنه سئل عن تمثُّل الرجل ببيت شعرٍ لبيان معنى في القرآن، فقال: "ما يعجبني"، فهو عجيب، وإن صح عنه فلعله يريد كراهة أن يذكر الشعر لإثبات صحة ألفاظ القرآن، كما يقع من بعض الملاحدة؛ فقد رُوي أن **ابن الراوندي** (وكان يزِنُّ بالإلحاد)، قال **لابن الأعرابي:** "أتقول العرب لباس التقوى؟"، فقال **ابن الأعرابي:** لا باس لا باس، وإذا أنجى الله الناس فلا نجَّى ذاك الراس، هبك يا **ابن الراوندي** تنكر أن يكون **محمد** نبيا، أفتنكر أن يكون فصيحا عربيا؟"»[21].

وهنا إشارة لطيفة توحي بما كان يحرص عليه المفسرون من خلال شرحهم للغريب، وهو بيان القرآن الكريم بما يتيح فهم الدين وتطبيق أحكامه، ولم يكن شرحهم مقصودا بذاته صناعةً، ولذلك كرهوا تتبّع الألفاظ والمبالغة في استقصاء

دلالاتها بما يُخرج الشرح عن الغاية منه؛ يقول **الشـــاطبي** (ت790هـــ): «فـــاللازم الاعتناء بفهم معنى الخطاب، لأنه المقصود والمراد، وعليه ينبني الخطــاب ابتــداء وكثيرا ما يُغفَل هذا النظر بالنسبة للكتاب والسنة فتُلتَمَس غرائبه ومعانيه على غيــر الوجه الذي ينبغي فتستبْهمُ على الملتمس، وتستعجم على من لم يفهم مقاصد العـــرب فيكون عمله في غير معمل»[22].

4- **الترادف والاشتراك واستصحاب سياق الجملة:** وبالإضافة إلى الغريب تعامل المفسرون بوعي مع ما يسمى في الدراسات اللغوية الحديثة بتعدد الدلالة، وفي ذلـــك الأثر الوارد عن **أبي الدرداء رضي الله عنه**؛ وهو قوله: **{لا يكون الرجل فقيهاً كـــل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيـــرة}**[23]، وهي الفكرة التي ينبني عليها فرع مـــن فروع التفسير اللغوي يسمى **الوجوه والنظائر**، ويقصد بالوجه: «اللفظ المشترك الذي يستعمل في عدة معان»[24]، كلفظ الهدى الذي له سبعة عشر معنى في القـــرآن أمـــا النظائر فهي «الألفاظ المتواطئة»[25]، أي التي تستعمل بمعنى واحـــد، مثـــل جـــواد وكريم؛ فكأن الأول من باب المشترك اللفظي، والثاني من باب الترادف، وهي مـــن المسائل المتعلقة بمباحث الألفاظ، والتي تعتبر دراسات اللغويين فيهـــا ســـندا مهمـــا للمفسرين.

أما مشاكل **الترادف والاشتراك** فكان حلها يعتمد غالبا علـــى **استصـــحاب ســـياق الجملة** والاستعانة بمختلف القرائن، فهذه المشاكل ليست موجودة إلا حـــال الحـــديث عن اللفظ المنفرد، أما واللفظ داخل جملته وسياقه فإنهما كفيلان بتحديد معناه[26] ومن ذلك قول **العز بن عبد السلام:** «وإذا كان للاسم الواحد معاني [...]، حُمل فـــي كـــل موضع على ما يقتضيه السياق، كيلا يتبتَّر الكلام ويتخرَّم النظام»[27].

ولإثبات ذلك يمكن تتبع واحد من الألفاظ التي تعد من المشترك والنظر في معناه داخل سياقاته المتعددة، ولنأخذ: الصلاة، فإنها «تأتي على أوجه: الصلوات الخمـــس: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴾ [المائـــدة: 55]

[...]؛ وصلاة الجمعة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، [الجمعة:09]، والجنازة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة:84] والدعاء: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، [التوبة:103]، والدين: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود:87] والقراءة: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:110]»[28].

ويمكن أن يتضح المعنى المختار للفظة الصلاة في كل من الآيات السابقة إذا استُحضِرَ سياقُه؛ ففي الأولى حملت على الصلوات الخمس لارتباطها بالإقامة، وفي الثانية حملت على صلاة الجمعة لتخصيصها بقوله: ﴿**مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ**﴾، وفي الثالثة حملت على الجنازة لأن السياق في الحديث عن الصلاة على الميت، وفي الرابعة حملت على الدعاء لأنه أصل المعنى اللغوي لكلمة صلاة، ولا يمكن حملها على الصلاة بالمعنى الشرعي، وفي الخامسة حملت على الدين لأنه سياق محاجة القوم لنبيهم عن صدق ما جاء به من الدين، وفي السادسة حملت على القراءة لأن الجهر والسر من متعلقاتها.

وأما تعدد الدلالة الناشئ عن الاحتمال فيحُلُّه ما يمكن تسميته بقانون ترجيح المعنى، وهو الذي نجده متبعا في تفاسير القدامى، وإن كان ذلك الاتباع متفاوتا في التفاصيل، فإنه يكاد يتفق في الإطار العام، يقول الإمام **الزركشي:** «ومعلوم أن تفسيره يكون بعضه من قبيل بسط الألفاظ الوجيزة وكشف معانيها، وبعضه من قبيل

ترجيح بعض الاحتمالات على بعض، لبلاغته ولطف معانيه ولهذا لا يستغنى عن **قانون عام** يعول في تفسيره عليه ويرجع في تفسيره إليه»(29).

وهو الأمر المتعلق بما يسمى **أقسامَ الحقيقة**؛ وهي عندهم ثلاث: لغوية وضعية وعرفية، وشرعية، فالحقيقة اللغوية في اللفظ هي استعماله «فيما وضع له أولا في اللغة، كالأسد المستعمل في الحيوان الشجاع العريض الأعالي، والإنسان في الحيوان الناطق»(30)، أما العرفية فهي «أن يكون الاسم في أصل اللغة بمعنى، ثم يشتهر في عرف استعمالهم بالمجاز الخارج عن الموضوع اللغوي، بحيث إنه لا يفهم من اللفظ عند إطلاقه غيره، كاسم الغائط، فإنه، وإن كان في أصل اللغة للموضع المطمئن من الأرض، غير أنه قد اشتهر في عرفهم بالخارج المستقذر من الإنسان، حتى إنه لا يفهم من ذلك اللفظ، عند إطلاقه غيره»(31)، وأما الشرعية فهي التي وضعها الشرع معنًى للفظةٍ كانت موجودة في اللغة من قبل كالصلاة والتيمم والتوحيد ونحو ذلك(32).

5- **العبرة بعموم اللفظ مع التمكين لمقصد المتكلم:** وتطفو هنا إلى السطح -حال الحديث عن تعدد الدلالة وانفتاح الاحتمالات- ثنائيةُ **اللفظ والمعنى** التي تحيلنا على سؤال الذي مفاده: هل العبرة في الكلام بالمعنى المفهوم من اللفظ المجرد، أم هي بقصد المتكلم ومراده؟ إن استصحاب هذا السؤال أثناء شرح الألفاظ وتحديد معانيها يُظهر له من الأهمية قدرا كبيرا، لأن اعتبار القصد قد يحول المعنى تحويلا تاما «ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ،[البقرة:115]، فإنا لو تُرِكنا ومدلولَ اللفظ، لاقتضى أن المصلي لا يجب عليه استقبال القبلة سفراً ولا حضراً، وهو خلاف الإجماع»(33)، وذلك لأن القصد من الآية إنما هو التعقيب على من أنكروا على الله تغيير القبلة من بيت المقدس إلى البيت العتيق، وبيان أن القبلة قبلة الله أينما توجه المصلي شرقًا أو غربًا(34).

ولهذا جاءت القاعدة المهمة، والتي تتعلق بالمعنى أو الدلالة المعتبرة في عبارة المتكلم، وهي أن «دلالات الألفاظ ليست لذواتها، بل هي تابعة لقصد المتكلِّم وإرادته»[35]، إذ «لابدَّ من اعتِبارِ النيِّةِ والمقَاصدِ في الألفاظ»[36]، وبالجملة، «فأهل العربية يشترطون القصد في الدلالة، فما يُفهم من غير قصد المتكلم لا يكون مدلولا للفظ عندهم، فإن الدلالة عندهم هي فهم المراد لا فهم المعنى مطلقا، بخلاف المنطقيين فإنها عندهم فهم المعنى مطلقا، سواء أراده المتكلم أم لا»[37].

ومثال ثان عن ذلك في قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (المائدة:93)، فلا نجد أحدا من المفسرين يذهب إلى أن كل مأكل ومشرب حلال كما هو واضح من ظاهر الآية، بل يفسرها الجميع على أنها أُنزلت «عذرا لمن غبر وحجة على الناس»[38]، أي أنها جاءت لبيان أن من مات مسلما وقد شرب الخمر قبل أن تُحرَّم فلا إثم عليه، فيتضح إذًا، كيف يؤثر اعتبار القصد في تحديد المعنى.

والحاصل مما سبق أن التعامل مع الألفاظ المفردة يتوقف عند أمور ثلاثة؛ **أولها:** بيان معاني الألفاظ المفردة وشرحها بما يحقق للقرآن وصف البيان، و**الثاني** هو وضع اللفظة في إطارها داخل النص، ومنحها الدلالة الملائمة لسياقها، أما **الثالث** فهو اعتبار القصد في الألفاظ، لا مجرد ما يمكن أن تدل عليه في أصل وضعها وهي فكرة مهمة جدا، تحد من تجريد اللغة، وتضبط المعنى بغايات النص ومصدره.

ثانيا: التركيب اللغوي من مراعاة معهود العرب إلى تعاهد النظم القرآني.

1- **القرآن الكريم نظام لغوي متفرد:** تعد اللغة ممثلا أصيلا للمتكلم بها والمستعمل لها، فهي نظام دلالي محكم، وعادات أسلوبية مكينة، وعلى هذا فالمستعمل ليس خارجا عن هذا النظام وتلك العادات، ولقد جاء القرآن الكريم فصنع نظاما داخل نظام العربية، إلا أنه يبقى داخلا تحت هذا الحكم العام، وهو الأمر الذي ينبغي أخذه بعين الاعتبار وجعله وسيلة من وسائل تعيين المعنى عند إشكاله، وهو ما

يُصطلح عليه **بمعهود العرب**، أي طرقهم في التعبير، و«إذا قلنا إن القرآن نزل بلسان العرب، وإنه عربي، وإنه لا عُجمة فيه، فبمعنى أنه أُنزل على لسان معهود العرب في ألفاظها الخاصة وأساليب معانيها»[39]، ولا بد في فهمه «من اتباع معهود الأميين، وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم، فإن كان للعرب في لسانهم عرف مستمر فلا يصح العدول عنه في فهم الشريعة، وإن لم يكن ثمة عرف فلا يصح أن يجري في فهمها على ما لا تعرفه، وهذا جارٍ في الألفاظ والمعاني والأساليب»[40].

وهذا هو الأصل الذي سبق إلى وضعه الإمام **الشافعي** (ت204هـ) للتعامل مع لغة القرآن فهما وتفسيرا؛ يقول في **الرسالة:** «إنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها، وكان مما تعرف من معانيها اتساع لسانها وأن فطرته أن يخاطب بالشيء منه عاما ظاهرا يراد به العام الظاهر، ويستغني بأول هذا منه عن آخره، وعاما ظاهرا يراد به العام، ويدخله الخاص، فيستدل على هذا ببعض ما خوطب به فيه، وعاما ظاهرا يراد به الخاص، وظاهر يعرف في سياقه أنه يراد به غير ظاهره؛ فكل هذا موجود علمه في أول الكلام أو وسطه أو آخره؛ وتبتدئ الشيء من كلامها يُبين أولُ لفظها فيه عن آخره، وتبتدئ الشيء يُبين آخرُ لفظِها منه عن أولِه، وتكلم بالشيء تعرفه بالمعنى دون الإيضاح باللفظ، كما تعرف الإشارة، ثم يكون هذا عندها من أعلى كلامها، لانفراد أهل علمها به دون أهل جهالتها، وتسمي الشيء الواحد بالأسماء الكثيرة وتسمي بالاسم الواحد المعاني الكثيرة»[41]، «وكل هذا معروف عندها لا ترتاب في شيء منه، هي ولا مَن تعلَّق بكلامها»[42].

وانطلاقا من هذه القاعدة توصل **أبو عبيدة** إلى السبب الذي جعل السلف قليلي السؤال في شأن الأساليب والتراكيب العربية، إذ يقول: «فلم يحتج السلف ولا الذين أدركوا وحيه إلى النبي ﷺأن يسألوا عن معانيه لأنهم كانوا عرب الألسُن، فاستغنوا بعلمهم به عن المسألة عن معانيه، وعما فيه مما في كلام العرب مثله من الوجوه

والتلخيص؛ وفي القرآن مثل ما في الكلام العربي من وجوه الإعراب، ومن الغريب والمعاني»[43].

وقد ظهر أثر هذه القاعدة واضحا في التعامل مع الكثير من القضايا، وأهمها مسألة المجاز، وترجيح القراءات، كما يظهر أثرها أيضا عند ترجيح معنى على آخر، فما جاء من ذلك على غير معهود العرب مردود، فإن صح فلابد من إيجاد تخريج له. وهذا ما يمكن لمسه في تفسير قوله تعالى: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ ،(المطففين:26)؛ إذ يشهد بعض المفسرين على اختلاف أهل التأويل في معنى "الختام" هنا بين النهاية وبين الخلط[44]، ويتوقف عن الترجيح، ثم يذهب البعض إلى تعيين المراد بأنه النهاية فقط لأن العرب لا تعرفه بمعنى الخلط[45].

2- **تعهد النظم وبيان امتياز البلاغة القرآنية:** هذا وحرص المفسرون على الحفاظ على البلاغة القرآنية وإظهار تفردها وامتيازها، بالموازاة مع الحرص على العناية بمعهود العرب لأنه «من حق مفسر كتاب الله الباهر وكلامه المعجز، أن يتعاهد في مذاهبه بقاء النظم على حسنه والبلاغة على كمالها وما وقع به التحدّي سليماً من القادح، فإذا لم يتعاهد أوضاع اللغة فهو من تعاهد النظم والبلاغة على مراحل»[46].

وفي ذلك وعي شديد بخصوصية عربية القرآن، وأنه ليس لأيٍّ كان القدرة على التعامل معها، «فالفقيه وإن بُرِّز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بزّ أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرِّية أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بلحييه، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علما البيان والمعاني»[47]، فبهما تعرف مواضع الجمال في القرآن وبهما يُتوصل إلى الكثير من المعاني الجليلة الخفية.

والمفسر مضطر إلى أن يتعلم البيان إن لم يكن عربيا سليقة، لأن الذوق في فهم القرآن أساس، ويحصل تعلم ذلك «بتتبع استعمال البلغاء[...]، والتدبر في الكلام المقطوع ببلوغه غاية البلاغة،[...]، وهو الكلام المشهود له بالبلاغة بين أهل الشأن نحو المعلقات والحماسة، ونحو نهج البلاغة، ومقامات الحريري،...»(48).

وتجدر الإشارة إلى أن مذهب عموم المفسرين هو أن «في القرآن الأفصح والفصيح، [...]، لأنه لو جاء القرآن على ذلك لكان على غير النمط المعتاد في كلام العرب من الجمع بين الأفصح والفصيح فلا تتم الحجة في الإعجاز، فجاء على نمط كلامهم المعتاد ليتم ظهور العجز عن معارضته»(49). ولكن القاعدة عند التفسير هي أن «توجيه كتاب الله إلى الأفصح من الكلام، أولى من توجيهه إلى غيره، ما وجد إليه السبيل»(50)، خاصة فيما يتعلق بالغريب وأوجه النحو والأداء.. وهذا دليل قوي على أن القرآن سار في توظيفه للغة على سنن أهلها من العرب غير أنه تخلق داخلها خلقا آخر بما سكه من مفردات وما ابتدأه من طرائق في البيان.

3- **القرآن الكريم يدعو المتلقي إلى الغوص وراء كنوزه:** غير أن الدعوة إلى العناية بمعهود العرب لا تعني بحال الاكتفاء بما فهموا، أو الحجر على من فتح الباب للتدبر والاستزادة من بحر القرآن الزاخر، فالقرآن «بوصفه كلاما دالا على ذاته ودالا على مبدعه، يضع نفسه في قلب التواصل اللساني، ولذا نجده يحتوي بالإضافة إلى نفسه عنصرا آخر لا يتم التواصل اللساني إلا به، ولا يكون بلاغا إلا بوجوده هذا العنصر هو المتلقي، وهو عنصر متضمن في الخطاب نفسه»(51).

إن النّص القرآني في ذاته مُتاح للفهم سواء للعرب الذين عايشوا نزوله أم لمن جاء بعدهم؛ لأنه «غير جائز أن يخاطب جلّ ذكره أحدا مِن خلقه بما لا يفهمه عنه المخاطَب، ولا يرسل إلى أحد منهم رسولا برسالة إلا بلسان وبيان يفهمه المرسَل إليه؛ لأن المخاطب والمرسل إليه، إن لم يفهم ما خوطب به وأرسل به إليه؛ فحاله قبل الخطاب وقبل مجيء الرسالة وبعده سواء؛ إذ لم يفده الخطاب والرسالة شيئا كان

به قبل ذلك جاهلا، والله جلّ ذكره يتعالى عن أن يخاطب خطابا أو يرسل رسالة لا توجب فائدة لمن خوطب أو أرسلت إليه؛ لأن ذلك فينا من فعل أهل النقص والعبث»[52]، غير أن ثمة إجراءات ينبغي أن يلتزم بها المتلقِّي، لكيلا يتيه في غيابات اللغة وممكناتها؛ صحيح أن اللغة بُعد موضوعي نصِّي يوجد خارج الذات، لكن المتلقي قد يقع تحت رحمة "الذات" وتوجُّهاتها وأهوائها حتى من غير أن يشعر ربما؛ من هنا كان لزاما عليه أن يُسائل النّص، لا أن يسائل أهواءه، وأن يسدد ويقارب بين انفتاح النص الإلهي على الوجود واعتصامه بمعهود الأميين وطرائقهم في الكلام.

ثالثا: حُجِّية الدَّليل اللغوي في تفسير القرآن الكريم.

1- **اللغة هي الوسيلة الأولى لفهم القرآن الكريم:** القرآن الكريم خطاب "نصي" لا شك في ذلك، والمادة المشكِّلة للخطاب النصي هي الأبنية اللغوية، «الأمر الذي يقتضي من أية مُقاربة علمية له أن تتأسَّس على اللغة؛ باعتبارها أهم متغير مناسب لطبيعته»[53]، -أما خصوصية لغته فأمر آخر- وعلى هذا فإن الانطلاق من دراسة لغته كان وسيبقى خطوة أولى لا محيد عنها.

إن طبيعة القرآن اللغوية جعلت قيام تفسيره على اللغة أمرا لا جدال فيه، بل قد مر كيف أن اللغة كانت الوسيلة الأولى لفهم معانيه، حتى إن بعض العلماء يقسم طرق التفسير إلى قسمين: قسم يعتمد على الروايات والمنقول، وقسم يعتمد على اللغة؛ وهو ما نجده مثلا عند **الطبري** إذ يقول: «"القول في الوجوه التي من قبلها يُوصَل إلى معرفة تأويل القرآن":[...] مما أنزل الله من القرآن على نبيه ﷺ ما لا يُوصل إلى علم تأويله إلا ببيان الرسول ﷺ؛ وذلك تأويل جميع ما فيه: من وجوه أمره -واجبه ونَدْبِه وإرْشاده-، وصنوفِ نَهيه، ووظائف حقوقه وحدوده، ومبالغ فرائضه، ومقادير اللازم بعضَ خَلْقه لبعض، وما أشبه ذلك من أحكام آيه، التي لم يُدرَك علمُها إلا ببيان رسول الله ﷺ لأمَّته[...] وأنّ منه ما لا يعلم تأويله إلا الله

الواحد القهار؛ وذلك ما فيه من الخبر عن آجال حادثة، وأوقات آتيــة، كوقــت قيــام الساعة، والنفخ في الصور، ونزول عيسى بن مريم، وما أشبه ذلك[...]. وأن منه ما يعلم تأويلَه كلُّ ذي علم باللسان الذي نزل به القرآن، وذلك: إقامةُ إعرابه، ومعرفــةُ المسمَّيات بأسمائها اللازمة غيرِ المشترَك فيها، والموصوفات بصفاتها الخاصــة دون ما سواها، فإنّ ذلك لاَ يجهله أحدٌ منهم»(54).

ويذهب **ابن خلدون** إلى مثل ذلك، فيجعل التفسير على صــنفين: «تفســير نقلــي مستنِد إلى الآثار المنقولة عن السلف، وهي معرفة الناسخ والمنسوخ وأسباب النزول ومقاصد الآي؛[...]، والصنف الآخر من التفسير، هو ما يرجع إلى اللسان من معرفة اللغة والإعراب والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب»(55).

ومثل هذا التقسيم إن دل على شيء فإنما يدل على اعتبار اللغة طريقا قويــا فــي الوصول إلى المعنى، ووسيلة لا غنى لطالب التفسير عنها؛ لكن السؤال الذي يطــرح نفسه هنا هو: ما هي درجة اعتبار اللغة في العملية التفسيرية، أو ما محلها بين باقي الأدوات المستخدمة للكشف عن المعنى القرآني؟

2- **الإحاطة بالظاهر ضرورة واجبة:** يقول **السيوطي:** «ولا يجوز التهــاون فــي حفظ التفسير الظاهر بل لا بد منه أولاً، إذ لا يطمع في الوصول إلى البــاطن قبــل إحكام الظاهر»(56)، وهو الأمر الذي لم يختلف فيه القــدماء مــن المفســرين، -إذا استُثني من ذلك أهل الباطن-؛ والمعنى أن مشروعية اللغة أداةً للتفسير كــان قاســما مشتركا بينهم، إذ من الواضح أنه لا سبيل إلى فهم المعنى الكامن في القرآن من دون قدرة على التعامل مع أولى مفاتيحه، وذلك إذا أراد المفسر أن يحقق للــنص النفعيــة المتوخاة منه، أو يصبح النص مجرد رموز وإشارات اعتبارها وعدمه سواء والواقع أن الحرص على تحقيق صفة النفع للقرآن الكريم كــان شــغل المفســرين الشــاغل وبجانبه يتبدى واضحا تنزيه صاحب النص عن العبثية.

وبالإضافة إلى ذلك يعود تأكيد العلماء على العناية باللغة غالبا إلى الرد على دعاة الباطن ممن أبطلوا اللغة واحتكموا إلى مجرد ما يثيره القرآن في نفوسهم من إلهامات وأهواء.

وفي إطار الرد على دعاة الباطن الذين يتجاوزون اللغة يذهب الأولون إلى أن «حمل الكلام على ظاهره الذي وضع له في اللغة فرض لا يجوز تعديه إلا بنص أو إجماع لأن من فعل غير ذلك أفسد الحقائق كلها والشرائع كلها والمعقول كله»[57] وإلى جانب ذلك فإن تجاوز اللغة يترتب عنه «بطلان الثقة بالألفاظ وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ؛ فإن ما يسبق منه إلى الفهم لا يوثق به والباطن لا ضبط له، بل تتعارض فيه الخواطر ويمكن تنزيله على وجوه شتى؛ وهذا أيضاً من البدع الشائعة العظيمة الضرر»[58].

3- **لا يكفي الظاهر فِي فهم القرآن:** لكن يبدو أنه من الضروري عند الحديث عن شدة اهتمام المفسرين باللغة، التعريج على ذكر الوعي العميق الذي كان يملؤهم تجاه مكانة الدليل اللغوي في التفسير، فلا يوجد منهم من يعتقد في قدرة اللغة على الانفراد بالإفصاح عن دلالات النص القرآني مهما بلغت من الرقي والدقة، -إذا استُثنيَ أهل الظاهر-؛ و«معنى هذا أن تفسير النص القرآني على المستوى اللساني أو الدلالي المحض، ليس هو منتهى العملية التفسيرية، وإنما هو تمهيد ضروري وبداية أساسية ومنطلق منهجي لكل عملية تفسيرية، وتأتي بعده مناطق أخرى من الفهم، ومستويات من الشرح والتفسير، تعتبر امتدادا واستمرارا لازما له»[59].

وبعبارة أخرى، فإن منح ظاهر اللغة هذا القدر من العناية لا يجعل المفسر قادرا على الاكتفاء بالظاهر وإن حرص، فإن فعل فقد أضاع الكثير من علم القرآن وأسراره، ومما يُؤثر عن **ابن مسعود رضي الله عنه: {مَنْ أَرادَ عِلْمَ الأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فَلْيُثَوِّرِ الْقُرْآنَ}**[60]، ومعنى ذلك أن القرآن بحر زخار لا تفنى معانيه

وكنوزه، وهي مما تعبدنا الله بالتنقيب عنه، وإنما يشترط لذلك ألا تخرج عن ممكنات اللغة، وألا تقف عندها، لأن الوقوف عندها قد أورث مشاكل في المعنى.

وفي هذا السياق يقول **الطبــري**: «كان بعض من لا علم له بأقوال السلف من أهل التأويل، ممن يفسر القرآن برأيه على مَذهب كلام العرب، يوجه معنى قوله: ﴿ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴾، (يوسف:49)، إلى: وفيــه ينجــون مــن الجدب والقحط بالغيث، ويزعم أنه من"العَصَر" و"العُصْرَة" التي بمعنى المنجاة، من قول أبي زبيد الطائي:

صَـــادِيًا يَسْـــتَغِيثُ غَيْـــرَ مُغَـــاثٍ ولَقَـــدْ كَـــانَ عُصْـــرَةَ المَنْجُـــودِ

[...] وذلك تأويل يكفي من الشهادة على خطئه خلافُه قولَ جميعِ أهل العلم»[61] وهذا المثال يدل على أن لغة العرب وحدها ليست أداة كافية للوصول إلى المعنى.

4- **مرتبة اللغة بين أدوات التفسير**: إن المدرسة التفسيرية التــي ينتمــي إليهــا المفسر تجعل نظرته إلى الدليل اللغوي تختلف، فالاعتماد على اللغة كان متفقا عليــه لكن درجة حجيتها كانت محل خلاف.

أما **أهل المعاني** -إذا اعتُبر عملهم من التفسير- فقد كانت اللغة عندهم مقدَّمة فإذا صح في اللفظة أو التعبير شيء عن العرب لم يعدلوا به شيئا، بل صــارت قواعــد العربية أحيانا سببا يتأولون الآيات لأجله تأويلا بعيدا، وذلك عندما يخفى اتفاق الآيــة مع مقررات النحو، فيلجؤون إلى التقدير والتأويل، وقد أخذ التأويل النحوي فيما بعــد «شكلا أكثر تعقيدا وتخيُّلا، وقد سيطرت عليه في كثير من المواضع أصول النحويين وخلافاتهم، فكثر الاحتيال والتمحل لجعل النصوص الفصيحة تُذعن لهــذه الأصــول وتعزز مذاهب النحويين المختلفة»[62].

وقد ذم الشيخ **محمد عبده** هذا المسلك وشنع على أصحابه، إذ يقول: «إن تحكــيم مذاهبهم النحوية في القرآن، ومحاولة تطبيقها عليه وإن أخذ ذلــك ببلاغــة القــرآن جراءة كبيرة على الله تعالى، وإذا كان النحو وُجد لمثل ذلك فليته لم يوجد»[63]، بــل

ما يفتأ مبديا استغرابه الشديد من صنيع النحويين ذاك، فيضيف قائلا: «ويعجبني قول بعض الأئمة –وأظنه **أبو بكر بن العربي**–: من العجيب أن النحويين إذا ظفر أحدهم ببيت شعر لأحد أجلاف الأعراب يطير فرحا به ويجعله قاعدة، ثم يشكل عليه إعراب آية من القرآن فلا يتخذها قاعدة، بل يجتهد في إرجاعها إلى كلام أولئك الأجلاف وتصحيحها به، كأن كلامهم هو الأصل الثابت»[64]، ومن ذلك «أن "ما" النافية لا يصح أن يعمل ما بعدها فيما قبلها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ (النجم:51)، فيكون قوله: "وثمودَ" منصوبا بفعل مُضمر، والتقدير: "وأهلك ثمودا فما أبقى الفريقين، ولا يصح أن يعمل فيه "أبقى" عند النحويين لأن حرف النفي يمنع ذلك»[65]، مع أن المعنى واضح بأنه تعالى أهلك ثمودا فما أبقى منها أحدا[66].

«ويميل النحويون إل تلحين القارئ، أو رمي قراءته بالشذوذ عند استعصاء التأويل ومن ذلك **قراءة الحسن** و**أبي حيوه** وغيرهما الشاذة: ﴿قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَّـٰهَرَا﴾ (القصص:48)، بفتح التاء وتشديد الظاء، وهي عند **ابن خالويه** لحن، لأن الفعل ماض والتشديد في المضارع»[67].

ومثل ذلك يُقال على المستوى المفرداتي، فإن العلماء يحكمون على القراءة بالشذوذ عندما تخالف المعروف من اللغة، كما في قراءة **الأعرج:** "مَعَائِشَ" بالهمز ومثل هذه الأمثلة تظهر القيمة التي تكتسيها البحوث اللغوية والنحوية في تحقيق مقولة الحفظ للقرآن.

ويشبه هذا المنحى منحى أهل الظاهر الذين ينفون أن يدل القرآن على غير الظاهر منه، مما يمكن أن تدل عليه لغته، وهو تعطيل لطاقات النص الكبيرة وحصره في أفق ضيق.

ومثل هذا الاتجاه المتطرف في الاعتداد باللغة، وقواعد العربية، يقابله تطرف مثله في تفسيرات **الباطنية** الذين لا يعتدون باللغة ويقفزون على قواعدها ليقولوا في

النص بالهوى والرأي المجرد، وهو «ما تخيلته النفوس صوابا دون برهان، ولا يجوز الحكم به أصلا»(68).

وبين هؤلاء وأولئك يوجد الفريق الذي يمثل أغلب المفسرين، وهم أصحاب النظرة "المعتدلة" إلى اللغة؛ فلا تُحكَّم في النص تحكيما أعمى، كما لا تُتجاهل أهميتها، بل المفتاح الذي يعين على الولوج إلى عالم النص، وضمن الوصول الأمثل إلى معناه.

ويلخص هذا المنحى قول الإمام **الزركشي:** «لا يجوز التهاون بحفظ التفسير الظاهر أولاً، ولا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر، ومن ادَّعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن ادعى البلوغ إلى صدر البيت قبل تجاوز الباب. فظاهر التفسير يجري مجرى تعلم اللغة التي لا بد منها للفهم، وما لا بد فيها من استماعٍ كثيرٍ؛ لأن القرآن نزل بلغة العرب فما كان الرجوع فيه إلى لغتهم فلا بد من معرفتها أو معرفة أكثرها، إذ الغرض مما ذكرناه التنبيه على طريق الفهم ليفتح بابه ويستدل المريد بتلك المعاني التي ذكرناها من فهم باطن علم القرآن وظاهره[...] ومن أحاط بظاهر التفسير، وهو معنى الألفاظ في اللغة، لم يكفه ذلك في فهم حقائق المعاني، ومثاله قول الله **عز وجل:** ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، [الأنفال:17] فظاهر تفسيره واضح وحقيقة معناه غامضة؛ فإنه إثبات للرمي ونفي له، وهما متضادان في الظاهر ما لم يفهم أنه رمى من وجه ولم يرم من وجه، ومن الوجه الذي لم يرم ما رماه الله **عز وجل**، وكذلك قال: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:14]، فإذا كانوا هم القاتلين، كيف يكون الله تعالى هو المعذب وإن كان تعالى هو المعذب بتحريك أيديهم فما معنى أمرهم بالقتال؟ فحقيقة هذا تستمد من بحر عظيم من علوم المكاشفات فلا بد

أن يعلم وجه ارتباط الأفعال بالقدرة وتفهم وجه ارتباط القدرة بقدرة الله تعالى حتى تتكشف وتتضح، فمن هذا الوجه تفاوت الخلق في الفهم بعد الاشتراك في معرفة ظاهر التفسير»[69].

إذًا، فالعلم بالظاهر قدر مشترك بين البشر الذين حصّلوا الحد الأدنى من أدوات المفسر، أي معرفة العربية، لكن ذلك ليس كافيا للغوص وراء كنوز الكتاب العظيم.. صحيح أن القرآن الكريم جاء بلسان عربي مبين، وعلى طرائق العرب في البيان والتعبير، ليس فيه تعقيد ولا فلسفة ولا ألغاز، لكنه أيضا كلام معجز وفي الدرجة العليا من الفصاحة والبلاغة، وهو بعد ذلك كتاب الدهر كله، وكتاب البشر كلهم وهذه هي بوابته إلى الخلود والصمود في وجه النوازل.

خاتمة: بعد هذه الجولة السريعة في واحة القرآن الكريم ولغته وجوابا على سؤال الإشكالية المطروحة في المقدمة، يمكن الخلوص إلى أن:

– للقرآن ظاهرا وباطنا؛ أما **الظاهر** فقد تمت العناية به من خلال **دراسة الألفاظ** والتراكيب باعتبارها رأس التفسير في محاولة لمواجهة تيار الباطنية الذي غالى أصحابه في الاعتداد بالإشارات حتى كادوا يلغون الأرضية الصلبة التي تضمن للنص بقاءه وتحميه من التحريف والتأويلات الشاذة، ثم من أجل المتعارف عليه من تطور دلالات الألفاظ مما أشعر بالخوف على لغة القرآن من أن يَدرُس علمها.

– يجب التأكيد في **دراسة الألفاظ** على ثلاثة أمور **أولها:** بيان معاني الألفاظ المفردة وشرحها بما يحقق في للقرآن وصف البيان؛ والمرجع في ذلك النقل الموثوق؛ و**الثاني** هو وضع اللفظة في إطارها داخل النص، ومنحها الدلالة الملائمة لسياقها، أما **الثالث** فهو اعتبار القصد في الألفاظ، لا مجرد ما يمكن أن تدل عليه والغاية هي الحد من تجريد اللغة، وضبط المعنى بغايات النص ومصدره.

– القرآن الكريم عربي اللغة لذلك فحمله على سنن العرب **ومعهود لغتهم** هو الأصل، ولا يمكن العدول عن ذلك إلا لمرجح ثابت بالدليل، دون أن يكون ذلك حشرا للنص الإلهي في الزاوية، لأن كل آية في القرآن الكريم رسالة عامة هي

أوسع من ظاهر التنزيل، وفي باطنها من المعارف والعلوم أكثر من أن يطيق إنسان واحد، أو جيل واحد الانتهاء إليه، ولذلك فحق كل زمان أن يقول أهله في القرآن كلمتهم.

– وأما الباطن فهو دليل قدرةٍ في اللغة على التجريد والتعميم، وهو الطاقة الكامنة في النص والتي تؤهله لمواجهة النوازل، وهو أيضا دليل على تعدد إمكانيات التفسير، وهو مفتاح القول والاختلاف، ولهذا فقد ظل جانبه مهابا، واعتبر المفسرون أن تتبعه إن لم يكن مضبوطا فتح الباب للتخمين في تحديد المعنى.

– ولذلك فإن الخوف من الباطن لم يؤدِّ إلى إنكاره أو تجاهله، بقدر ما كان موجها لضبطه، حفاظا على اللغة باعتبارها الأرضية الصلبة لتمثيل المعنى، ثم لأنه يستحيل على المفسر الاكتفاء بالظاهر وإن حرص على ذلك، فإنه إن فعل فقد أضاع الكثير من علم القرآن وأسراره.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله.

الهوامش:

[1] أبو حيان النحوي، أثير الدين محمد بن يوسف الأندلسي (ت745هـ): **تفسير البحر المحيط** درا/ وتح/ وتع/: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، شارك في تحقيقه: د/ زكريا التوني، ود/ أحمد النجولي الجمل، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1413 هـ / 1993م (120/1).

[2] الزركشي، بدر الدين محمد بن بهادر (ت794هـ): **البرهان في علوم القرآن**، تح/: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، (د ت)، (165/2).

[3] الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت310هـ): **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تح/: أحمد محمد شاكر، ط1، مؤسسة الرسالة، 1420 هـ/2000 م، (229/24).

[4] الشاطبي، إبراهيم بن موسى الغرناطي(ت790هـ): **الموافقات في أصول الشريعة**، دار الكتب العلمية، بيروت، (د ت)، (36/1).

[5] الطبري: **جامع البيان**، (283/11).

[6] ابن خلدون، ولي الدين عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت808هـ): **المقدمة**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993م، ص 348.

[7] **البيهقي**، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (ت 458هـ): **شعب الإيمان**، تح/: محمد السعيد بسيوني زغلول، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1410هـ، (427/2)، رقم: 2291.

[8] **السيوطي**، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت911هـ): **الإتقان في علوم القرآن**، قدم له وعلق عليه: محمد شريف سكر، راجعه الأستاذ مصطفى القصاص، ط1، دار إحياء العلوم بيروت، 1987م، (523/2).

[9] محمد المالكي: **دراسة الطبري للمعنى من خلال تفسيره جامع البيان عن تأويل آي القرآن** طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1417هـ/1996م، ص39.

* منها: "الأشباه والنظائر" **لمقاتل بن سليمان** (ت150هـ)، و"ما اتفق لفظه واختلف معنـاه مـن القرآن المجيد"**لأبي العباس المبرد** (ت285هـ)، و"إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم" **لأبي عبد الله الحسين الدامغاني** (ت478 هـ)، و"غريب القرآن" و"تأويل مشكل القرآن" **لابـن قتيبـة** (ت276هـ)، "تفسير المشكل من غريب القرآن" **لمكي بـن أبـي طالـب القيسـي** (ت437هـ) و"المفردات في غريب القرآن" **للأصفهاني** (ت502هـ)، و"إعراب القـرآن" المنسـوب **للزجـاج** (ت311هـ)، **ولابن خالويه** (ت370هـ) "إعراب ثلاثين سورة من القرآن"، ومنها: "البيـان فـي إعراب غريب القرآن" **للكمال بن الأنباري** (ت577هـ)، **ولأبي البقاء العكبري** (ت616هـ) "التبيان في إعراب القرآن"، وغيرها.

[10] محمد المالكي: **دراسة الطبري للمعنى**، ص 232، 233.

[11] **الراغب الأصفهاني**، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل (ت502هـ): **المفـردات فـي غريب القرآن**، ضبطه وراجعه: محمد خليل عيتاني، ط1،دار المعرفـة، بيـروت، 1418 هـ/ 1999م، ص 6.

[12] نصر حامد أبو زيد: **الاتجاه العقلي في التفسير دراسة في قضية المجاز في القـرآن عنـد المعتزلة**، ط4، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، 1998م، ص 106.

[13] محمد المالكي: **دراسة الطبري للمعنى**، ص 225.

[14] الطبري: **جامع البيان**، (532/9).

[15] النحّاس، أبو جعفر أحمد بن محمد المصري: **معاني القرآن الكريم**، تح/: الشيخ محمد علـي الصابوني، مركز إحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، 1988م، (262/2).

[16] د/ عبد الرحمن بن محمد الحجيلي: **المعاجم المفهرسة لألفاظ القرآن الكريم**، بحث منشـور على موقع الإسلام على الإنترنت:http://www.al-islam.com

[17] السيوطي: **الإتقان**، (313/1).

* منهم: د/حسين نصار في المعجم العربي نشأته وتطوره، [دار مصر للطباعة، ط4، 1988م] وأحمد الشرقاوي في معجم المعاجم، [دار الغرب الإسلامي، بيروت 1987م]، ود/علي شواخ إسحاق في معجم مصنفات القرآن الكريم، [دار الرفاعي، الرياض، 1984م]، ود/ ابتسام الصفار في معجم الدراسات القرآنية، [مطابع جامعة الموصل، العراق، 1984م].

(18) الرافعي: **تاريخ آداب العرب**، (71/2).

(19) أ. د. سليمان العايد: **عناية المسلمين باللغة العربية خدمة للقرآن الكريم**، بحث منشور على موقع الإسلام على الإنترنت، عنوان الرابط: http://www.al-islam.com

(20) السيوطي: **الإتقان**، (313/1).

(21) **ابن عاشور**، محمد الطاهر (ت1393هـ): **تفسير التحرير والتنوير**، الدار التونسية للنشر/ المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، المقدمة الثانية، (23/1).

(22) الشاطبي: **الموافقات في أصول الشريعة**، (67/2).

(23) الأثر في مصنف **ابن أبي شيبة**: (187/7)، كما أخرجه **أبو نعيم** في الحلية: (211/1). [**ابن أبي شيبة**، عبد الله بن محمد الكوفي العبسي (ت235هـ): **مصنف ابن أبي شيبة في الأحاديث والآثار**، ضبطه وعلق عليه الأستاذ سعيد اللحام الإشراف الفني والمراجعة والتصحيح، مكتب الدراسات والبحوث، دار الفكر، بيروت، (د ت)، **أبو نعيم الأصفهاني**، أحمد بن عبد الله (ت430هـ): **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، دار الكتب العلمية، بيروت، (د ت).]

(24) الزركشي: **البرهان**، (102/1) .

(25) **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

(26) يُنظر: د/ طاهر سليمان حمودة: **دراسة المعنى عند الأصوليين**، الدار الجامعية للطباعة الإسكندرية، 1997م، ص 128 وما بعدها.

(27) الوهيبي: **العز بن عبد السلام: حياته وآثاره ومنهجه في التفسير**، ص 75.

(28) السيوطي: **الإتقان**، (383/1).

[29] الزركشي: **البرهان**، (15/1).

[30] الآمدي، أبو الحسن علي بن محمد: **الإحكام في أصول الأحكام**، تح/ وتع/: عبد الرزاق عفيفي ط1، المكتب الإسلامي، الرياض، 1387هـ، (27/1).

[31] **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

[32] يُنظر: **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

[33] السيوطي: **الإتقان**، (85/1).

[34] يُنظر مثلا: **ابن كثير**، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي (ت774هـ): **تفسير القرآن العظيم**، تح/: سامي بن محمد سلامة، ط2، دار طيبة للنشر والتوزيع، 1420هـ /1999م (391/1).

[35] الآمدي: **الإحكام في أصول الأحكام**، (14/1).

[36] ابن قيم الجوزية: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر (ت751هـ): **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، تح/، وتع/: عصام فارس الحورستاني، ط1، دار الجيل، بيروت، 1998م (83/3).

[37] **التهانوي**، محمد بن علي الفاروقي الحنفي (ت بعد1158هـ): **كشاف اصطلاحات الفنون** وضع حواشيه: أحمد حسين سبح، منشورات محمد علي بيضون، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1418 هـ/ 1998م، (492/2).

[38] يُنظر: القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد(ت671هـ): **الجامع لأحكام القرآن**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1985م، (299/6).

[39] الشاطبي: **الموافقات في أصول الشريعة**، (50/2).

[40] **المصدر نفسه**، (62/2).

[41] الشافعي، الإمام محمد بن إدريس المطّلبي (ت204هـ): **الرسالة**، عن أصل بخط الربيع بن سليمان كتبه في حياة الشافعي، تح/ وشر/: أحمد محمد شاكر، (دم)، (د ت)، (52/1، 53).

[42] الشاطبي: **الموافقات في أصول الشريعة**، (50/2).

[43] أبو عبيدة، معمر بن المثنى (ت209هـ): **مجاز القرآن**، تع/: محمد فؤاد سزكين، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1981م، (8/1).

[44] يُنظر: ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب الغرناطي(ت542هـ): **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تح/: المجلس العلمي بفاس، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1975م، (256/16 وما بعدها).

[45] يُنظر: الطبري: **جامع البيان**، (298/24).

[46] **الزمخشري**، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي (ت538هـ): **تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، تح/ وتع/: محمد مرسي عامر، مرا/: د/ شعبان محمد إسماعيل، ط2، دار المصحف، القاهرة، 1397هـ/1977م، (38/1).

[47] **المصدر نفسه**، مقدمة الكتاب، (8/1).

[48] ابن عاشور: **تفسير التحرير والتنوير**، المقدمة الثانية، (21/1).

[49] السيوطي: **الإتقان**، (242/2).

[50] الطبري: **جامع البيان**، (223/9).

[51] د/ منذر عياشي: **قراءة الذات للقرآن الكريم**، مقدمة ترجمته لكتاب جاك بيرك: **إعادة قراءة القرآن**، ط1، دار أمل الجديدة، دمشق، 2017، ص 24.

[52] الطبري: **جامع البيان**، 7/1.

[53] د/ صلاح فضل: **بلاغة الخطاب وعلم النص**، مكتبة لبنان ناشرون/ الشركة المصرية العالمية 1996م، ص 14.

[54] الطبري: **جامع البيان**، (73/1 وما بعدها).

[55] ابن خلدون: **المقدمة**، ص 348، 349.

[56] السيوطي: **الإتقان**، (313/1).

(57) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد الظاهري (ت456هـ): **الفصل في الملل والأهواء والنحل** تح/: د/محمد إبراهيم نصر، ود/ إبراهيم عميرة، دار الجيل، بيروت، (د ت)، (9/3).

(58) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي (ت505هـ): **إحياء علوم الدين**، دار المعرفة بيروت، 1982م، (37/1).

(59) محمد المالكي: **دراسة الطبري للمعنى**، ص 67، 68.

(60) رواه الطبراني في الكبير: (136/9)، رقم: 8666، بأسانيد وقال: رجال أحدها رجال الصحيح. (**الطبراني**، أبو القاسم سليمان بن أحمد اللخمي الشامي (ت360هـ): **المعجم الكبير**، تح/: حمدي عبد المجيد السلفي، ط2، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، العراق، 1404هـ/1983م).

(61) الطبري: **جامع البيان**، (131/16).

(62) عبد الفتاح أحمد الحموز: **التأويل النحوي في القرآن الكريم**، مكتبة الرشد، الرياض، 1984م (56/1).

(63) **رضا**، محمد رشيد (ت1354هـ): **تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار**، دار المعرفة بيروت، (د ت)، (48/3).

(64) **المصدر نفسه**: (235/2، 236).

(65) عبد الفتاح الحموز: **التأويل النحوي في القرآن الكريم**، (34/1).

(66) يُنظر مثلا: -الطبري: **جامع البيان**، (553/22) – ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**: (467/7) – البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود (ت516هـ): **معالم التنزيل**، تح/: مجموعة من العلماء، ط4 دار طيبة، 1997م، (420/7).

(67) عبد الفتاح الحموز: **التأويل النحوي في القرآن الكريم**، (34/1).

(68) ابن حزم: **الإحكام في أصول الأحكام**، (41/1).

(69) الزركشي: **البرهان**، (156/2، 155).

نظرات وتأمّلات
في علاقة النحو العربي بالدراسات القرآنية.

أ. لخضر روبحي
جامعة المسيلة

الملخص العام: أنزل المولى سبحانه القرآن الكريم على نبيه المصطفى ﷺ رسالة للعالمين، تحدّى به الإنس والجنّ والعرب على فصاحتهم أن يأتوا بسورة من مثله فكان معجزة أبدية خالدة. فسبحانه الذي أنزله بلسان عربي مبين، بلغة لها من الخصائص والأسرار ما ليس في غيرها، في أصواتها ونحوها وبلاغتها ودلالات ألفاظها ونظمها.

فحقّ لهذه اللغة أن تخصص بهذا الدرس منذ نزول الوحي، فبها يتم الفهم، ومن خلالها تستنبط الأحكام، ولا صلاة إلا بآيات القرآن التي نزل بها.

وما اختيار موضوع (القرآن الكريم واللغة العربية) في هذا الملتقى إلاّ عرفانا وتنويها وتتويجا لهذه اللغة. لأجل ذلك جاءت ورقتي البحثية في موضوع "نظرات وتأمّلات في علاقة النحو العربي بالدراسات القرآنية" ضمن إشكالية توضّح العلاقة الوطيدة بين النحو العربي والدراسات القرآنية، ووفق منهج وصفي نقف من خلاله على دراسة المباحث التالية:

1- نشأة النحو العربي وخدمته لكتاب الله تعالى وشريعة الإسلام.

2- حاجة القارئ والدارس لكتاب الله للعلوم اللغوية وفي طليعتها النحو العربي.

3- بيان قيمة النحو من خلال المؤلفات القديمة والحديثة (معاني القرآن للفراء إعراب القرآن للعكبري، النحو وكتب التفسير للدكتور إبراهيم رفيده..إلخ).

وفي الأخير نأتي إلى خاتمة وما تضمّنته من نتائج وتوصيات.

مقدمة: مما لا يُختلف فيه تلك الأهمية التي أولاها علماء اللغة العربية الأوائل وما بذلوه من جهود مضنية في سبيل تعلّمها، بما يمنع اللحن عنها، ويحفظها من الشوائب، حفظوها وحافظوا عليها من باب أنهم عرب ومسلمون أيضا، عرب تمنعهم عروبتهم أن ينتزعوها من ألسنتهم، أو ينزعوا إلى غيرها. ومسلمون يحفظون بها القرآن، ويحفظها القرآن لهم.

وإذا كان بحث أسلافنا في موضوع النحو ضرورة ملحة دعت إليه الحاجة، فإنّ عودتنا – نحن – اليوم إلى التراث للبحث فيه ليس ترفا علميا، إنّما لنميط اللثام عن دراسة غمرها الزمن وقتا طويلا، ليظهر لنا أسلافنا بجهودهم المخلصة، ودراستهم القيمة، ومساهمتهم الكثيرة والكبيرة في ميدان النحو وكافة فروع علم العربية.

في هذا الصدد أكّد الباحث عبد الجليل مرتاض في أكثر من موقف على ضرورة العودة إلى التراث، وظهر ذلك بشكل غير مباشر في الشق العملي من إنجازاته حيث يقول:" أعتقد أنّ الحاجة العلمية لبحث التراث العربي الإسلامي عامة والحركة اللغوية المبكرة خاصة، لا تزال ماسة وقائمة على الرغم من المجهودات العلمية الجادة التي بذلها في هذا المضمار علماء عرب وأجانب منذ وقت بعيد وحتى اليوم وليس استمرار البحث العلمي في هذا الحقل اللغوي عجبا بل العجب أن تتوقف عجلة البحث وحركة العمل، وما استمرار البحث الأكاديمي في هذا التراث اللساني العربي الأصيل إلا دلالة على قوته وعراقته وأصالته. مؤكدا أنّ البذور والجذور التي أسّسها له أولئك الفقلغويون (فقهاء اللغة) القدماء العباقرة تنمّ عن بنيات صحيحة، ومناهج سليمة لا يشوبها وهن ولا خطل"[1].

نشأة النحو العربي وخدمته لكتاب الله وشريعة الإسلام: ذكرت الروايات في نشأة النحو أنّ التسمية جاءت من قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه عندما عرض على أبي الأسود ما استنبطه من أسس هذا العلم، وقال له: (أنح هذا النحو)

ومن قوله حين عرض عليه أبو الأسود ما اهتدى إليه، فقال: "ما أحسن هـذا النحـو الذي نحوته"[2].

فيكون هذا المعنى مأخوذ من المعنى اللغوي للنحو الـذي هـو بمعنـى القصـد والطريق. قال ابن منظور: "النحو القصد والطريق، يكون ظرفا ويكون اسما، نحـاه ينحوه وينحاه نحوا وانتحاه، ونحو العربية منه"[3].

جاء في كتاب (تهذيب اللغة) لأبي منصور محمد بن أبي أحمد الأزهري (ت 370 هـ)،" النحو: القصد نحو الشيء"[4].

أما اصطلاحا فهو علم بأصول يعرف بها صحة الكلام وفساده، من خـلال تلـك القواعد التي وضعها النحاة لمعرفة أحوال التراكيب من الإعراب والبناء وغيرهمـا. قال ابن جني: "هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره... ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها، وإن لم يكن منهم، وإن شذّ بعضهم عنها، ردّ به إليها"[5].

وقد شاعت هذه التسمية وغلبت على مصطلح (العربية) و(علم الإعـراب) فـي كتب عديدة كـ (الأصول في النحو) لابن السراج (ت 316هـ) و(الإيضاح في علـل النحو) للزجاجي و(الأشباه والنظائر في النحو) للسيوطي (ت 911 هـ).

أسباب نشأة النحو: نجمل أسباب نشأته في عاملين أساسيين ألا وهما: – شـيوع اللحن. – المحافظة على القرآن الكريم.

ويمكننا أن نؤكد أنّ النحو نشأ في رحاب القرآن الكريم، عربيا محضـا، بعقـول عربية، ودوافع عربية إسلامية أملتها ظروف المجتمع الإسلامي. ذلك أنّ الانزعـاج من اللحن فيه كان العامل الأكبر في هذه النشأة، يدلّنا على مـدى اهتمـام المسـلمين بكتاب ربهم، ومبلغ حرصهم على سلامته، وغيرتهم الكبيرة عليه، فهم كلما حـافظوا

على توثيق نصه اتجهوا في هذا السبيل نفسه لحفظ العربية، حتى يحاط النص الكريم بصحة الرواية وكمال الدراية.

واضع علم النحو: تعددت الروايات عن القدامى في أوّل من كتب في علم النحو. وتكاد تنحصر في كتب الطبقات والنحو على النحو التالي:

1- طائفة تنسبه لأبي الأسود الدؤلي (ت 69 هـ)

2- وأخرى تنسبه إلى أبي الأسود بإشارة علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه.

3- وطائفة تنسبه لأبي الأسود بالإشتراك مع تلامذته.

4- وطائفة تنسبه إلى أبي الأسود بأمر من زياد بن أبيه.

5- وطائفة تنسبه إلى أبي الأسود بتشجيع عبد الله بن عباس.

6- وطائفة تنسبه إلى أبي الأسود بأمر من عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

7- وطائفة تنسبه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه وحده.

8- وطائفة تنسبه إلى أحد تلامذة أبي الأسود: نصر بن عاصم الليثي (ت 89هـ) أو عبد الرحمان بن هرمز (ت 117 هـ) أو يحي بن يعمر (ت 129هـ).

وهذا الاختلاف في النسبة أشار إليه ابن خلدون بقوله: "واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو، وأول من كتب فيها أبو الأسود الدؤلي من بني كنانة، ويقال بإشارة علي رضي الله عنه، لأنّه رأى تغير الملكة فأشار عليه بحفظها"(6).

مكان وضع النحو العربي: أشادت البصرة أولا صرح النحو ورفعت أركانه ووضعت قواعده بينما كانت الكوفة مشغولة عن ذلك كله "على الأقل حتى منتصف القرن الثاني للهجرة بقراءات الذكر الحكيم ورواية الشعر والأخبار، وقلّما نظرت في

قواعد النحو إلا ما سقط إلا بعض أساتذتها من نحاة البصرة، إذ كانوا يتتلمذون لهم ويختلفون إلى مجالس محاضراتهم وإملاءاتهم"[7].

وقد نبّه علماء على أقدمية البصرة في العناية باللغة العربية، من ذلك قول محمد بن سلام الجمحي (ت231هـ): "وكان لأهل البصرة في العربية قدمة وبالنحو ولغات العربية عناية"[8]. ويصرح أبو الفرج محمد بن إسحاق النديم (ت نحو385هـ) لأولوية البصرة في النحو بقوله: "وإنّما قدمت البصرة أولا، لأنّ علم العربية عنه أخذ"[9].

ولعلّ ذلك راجع إلى أسباب ثقافية بالدرجة الأولى، فلقد كانت البصرة مرفأ تجاريا على خليج العرب، نزلتها عناصر أجنبية كما اشتغلت أيضا بالترجمة ونقل العلوم، فهيأت بذلك الأرضية التي تصطبغ فيها اللغة بالصبغة العقلية. والظروف تحتم أن يكون العراق مركز تقدم هذا العلم، لأنه كان قبل الفتح الإسلامي موطن العجم، وبعد الفتح أقبل عليه المسلمون من كل حدب، حيث كان من أخصب البلاد الإسلامية، فاستوطنه العرب والعجم.

قيمة النحو العربي: أسس اللغويون العرب القدامى منهجهم على مبدأ التقصي في الواقع اللغوي انطلاقا من معاينة الحدث الكلامي، وتتبع الأداء الكلامي المنجز فعلا. وهذا واضح من خروج أئمة النحو الأوائل إلى البادية بجمع اللغة، وحرصهم على تسجيل الحدث الكلامي كما ينطق البدو الخلص، ومن ذلك ما اشتهر عن الكسائي أنّه خرج إلى البوادي لهذا الغرض، وأنفذ خمس عشرة قنينة حبرا في الكتابة عن العرب، عدا ما حفظه.[10] وظل هذا المنهج سائدا حتى القرن الرابع الهجري على نحو ما نجده عند ابن جني الذي كان حريصا على جمع مادته من أفواه العرب.[11]

هذا وإنّ الباحث المطلع على قواعد النحو العربي يتضح له أنّ أحكامه لم تكن جميعها تقديرا أو تأويلا أو تعليلا، وإنما كانت تتماشى وفق استخدام العرب المطرد

في أغلب القضايا النحوية. وتبدو حقيقة وضع النحو لبعض العلماء كالسيوطي الـذي يقول: "النحو بعضه مسموع مأخوذ من كلام العـرب، وبعضـه مسـتنبط بـالفكر والروية، وهو التعليلات، وبعضه يؤخذ من صناعات أخرى"[12] وقد أشار أيضا إلـى هذه المنهجية في قوله: "اعلم أنّ اللغوي شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب ولا يتعداه، وأما النحوي فشأنه أن يتصرف فيما ينقله ويقيس عليه"[13].

وقد نسبت كتب الطبقات إلى الكسائي أنّه كان يقول: "إنّما النحـو قيـاس يتّبـع"، ولأبي عثمان المازني –وهو من أصحاب سيبويه– أنّه يقول: "ما قيس علـى كـلام العرب فهو من كلام العرب، ألا ترى أنّك لم تسمع أنت ولا غيرك اسم كل فاعل ولا مفعول، وإنّما سمعت بعضها فقست عليه غريبها"[14]. علما أنّ النحاة كانوا على تفاوت في اصطناعهم للقياس، فمنهم من كان يتوسع فيه، ويقيس على كل ما وصـل إليـه، ومنهم من كان يتشدد ويتحرّج، فلا يقيس إلا على ما كان يرى أنّه كثير. وهذا مـن أهم ما ميز بين مدرستي البصرة والكوفة، فالبصرة تسلك نهج المتحـرج، والكوفـة تسلك مسلك المترخص في القياس.

جهود القدامى في تعليم النحو وتيسيره من خلال آرائهم ومؤلفاتهم: بدأت هـذه المرحلة –كما تقدم في نشأة النحو– على يد أبي الأسود، وأخذت تنمو على أيدي نحاة البصرة إلى أن تجمّعت في (كتاب سيبويه) الذي وصف بأنّه جامع لأصـول النحـو وفروعه، وقيل عنه: "وعمل كتابه الذي لم يسبقه إلى مثله أحـد قبلـه ولـم يلحـق به بعده"[15].

وقيل فيه الكثير، والنحويون يعتبرونه المرجع الأول، ويتلقونه، ويلتفـون حولـه ويخدمونه بإقرائه وقراءته وشرح أو شرح شواهده، مما يطول حصره. فسيبويه (ت 180هـ) صاحب الفضل في تنمية آراء أساتذته والتفريع عليها، كما يعد كتابه النـواة الأولى التي أرست قواعد التأليف في النحو، حتى اهتدى بهديه جميع النحـاة الـذين

جاءوا بعده. وقد امتاز بكثرة المسموع وبتناوله للنص القرآني لاعتباره الـــدليل الأول من أدلة النحو وحافل أيضا بآراء السابقين من النحويين واللغويين والأعراب. ولـــذلك يقول ابن جني في ثنائه على سيبويه: "صاحب هذا العلم الذي جمع شعاعه، وشـــرح أوضاعه، ورسم أشكاله، ووسم أغفاله، وخلج أشطانه، وبعج أحضانه، وزم شـــوراده وأفاء فوارده"[16]. ولا ريب في ذلك فقد تتلمذ على يد الخليل (ت 175هــ) المؤســـس الحقيقي للنحو، وموطد أركانه، كما قال ابن جني: "إنّه سيد قومـــه وكاشـــف قناعـــه القياس في علمه"[17]، وقد قيل فيه أيضا: "إنّه هو الذي بسط ومد أطنابه، وشبّب علله، وفتق معانيه، وأوضح الحجاج فيه حتى بلغ أقصـــى حـــدوده، وانتهـــى إلـــى أبعـــد غايته"[18].

وعن رجال مدرسة الكوفة، فقد كان أبو جعفر الرؤاسي أولهم، وقد ألّف كتبا فـــي النحو ثم جاء بعده أبو مسلم معاذ الهراء (ت 187هــ)، وقد اشتهر بعلم الصرف، ثـــم كان علي بن حمزة الكسائي (ت 189ه)، وهو أحد القراء السبعة، وأشهر من يعـــرّف وبعده تلميذه الفراء (ت 207هــ)، وهو إمام أهل الكوفـــة، وأعلمهـــم بـــالنحو بعـــد الكسائي، وصاحب الأثر الباقي للكوفيين وهو كتاب (معاني القرآن).

وبمقدورنا أن نقول أنّ النحو وجد في مرحلته الأولى لهدف تعليمي، كمـــا أشـــار إلى ذلك ابن جني في تعريفه للنحو، حيث كان أداة لاستقامة اللسان، وهذا ما دعا فئة من القدامى إلى تيسير النحو وتبسطيه. فصنفوا فيـــه مختصـــرات لإدراك أســـراره وخصائصه وصولا إلى إتقان العربية. ومن هؤلاء:

- أبو عمر صالح بن إسحاق الجرمي (ت 225هــ) في كتابه: (نحو المتعلمين).
- أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت 285هــ) في كتابه (المدخل في النحو).
- محمد بن كيسان (ت 299ه) في كتابه (مختصر النحو).

- أبو جعفر النحاس (ت 338هـ) في كتابه (التفاحة في النحو).
- أبو بكر الزبيدي (ت 379هـ) في كتابه (الواضح في علم العربية).
- ابن مضى القرطبي (ت 592هـ) في كتابه (الرد على النحاة).

وللإشارة فإنّ محتويات هذه المؤلفات لم تكن على درجة واحدة من البساطة، فهي مختصرات متعددة المستويات، مختلفة المناهج، تدل على اختلاف في المستوى وتنوع في المشارب العلمية. وقد كانوا يسعون من خلالها لتقريب النحو من المتعلمين، ولذلك كانوا ينتقون من مواضع النحو ما يناسب المستويات التعليمية والاستعانة على توضيح القواعد والأحكام بالشواهد البسيطة الواضحة.

ولهذا الغرض ظهرت كتب في الإعراب، نذكر منها: (إعراب القرآن) لأبي جعفر النحاس، قطرب أبي علي محمد بن المستنير، معمر بن المثنى، أبي العباس محمد بن يزيد المبرد، أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب، أبي عبد الله إبراهيم المعروف بنفطويه، أبي عبد الله الحسين بن محمد بن خالويه، عبد الله بن الحسين بن عبد الله أبي البقاء العكبري ... وغيرهم كثير.

وظهرت أيضا كتب في أصول النحو، نذكر منها:

- (الأصول في النحو) لأبي بكر محمد بن السري المعروف بابن السراج (ت316هـ)، وقد كان عالما ثقة، وأحد العلماء المذكورين، وأئمة النحو المشهورين من علماء البصرة الذين يخلطون بين المذهبين. وكان عمله النحوي تنظيما لمسائل سيبويه، وتبويبا لها، وتوضيحا لحدودها. يقول يقوت: "ثم رجع إلى كتاب سيبويه ونظر فيه دقائقه، وعوّل على مسائل الأخفش والكوفيين، وخالف أصول البصريين في مسائل كثيرة"[19]. فهذا الكتاب يجمع العلماء على الإشادة به حتى قيل في ابن السرج:" لا زال النحو مجنونا حتى عقله ابن السراج بأصوله"[20]، أي أنّ النحو كان

مبعثرا مفلت الزمام مشتت المسائل، حتى نسّقه ابن السراج وجمع مسائله مرتبة في كتابه الأصول.

- (الخصائص) لأبي الفتح عثمان بن جني (ت 392هـ)، وهو كتاب في خصائص العربي من جميع الجوانب، حوى مسائل النحو والصرف وفقه اللغة وأصول العربية ودقائق الحكمة وأسرار التعبير. يعجب به هو نفسه فيقول فيه مزهوا به: "واعتقادي فيه أنّه من أشرف ما صنّف في علم العرب، وأذهبه في طريق القياس والنظر، وأعوده عليه بالحيطة والصون"[21]. نجد في (الخصائص) من أبواب علم أصول النحو:

* علل العربية، أكلامية أم فقهية.
* مقاييس العربية (القياس).
* باب في جواز القياس على ما يقل.
* تعارض السماع والقياس.
* الاستحسان.
* تخصيص العلل.
* القول في إجماع أهل العربية متى يكون حجة.

- (لمع الأدلة)، (الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين) لأبي البركات الأنباري (ت 577هـ).

- (الإقتراح) لجلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي (ت 911هـ).

ومما له علاقة بالنحو أيضا كتب (معاني القرآن) وإعرابه كالكتاب المنسوب لأبي إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج (ت 311ه) وكذا كتاب الفراء السالف الذكر.

كذلك كتب إعجاز القرآن الكريم، فقد استنفرت النحويين، فغاصوا في لغة القــرآن يكتشفون منها درره ونفائسه، ويحددون أوجه إعجازه، وروعــة مناحيــه البلاغيــة والأسلوبية الجمالية والفنية، كتأليف الباقلاني وعبد القاهر الجرجاني

المؤلفات الصرفية: بغض النظر عن اختلاف العلماء في تحديد تاريخ نشأة علــم التصريف، فإنّ أقدم المصادر التي تناولت مصطلح الصرف هو كتاب (المقصود في علم الصرف) المنسوب لأبي حنيفة النعمان (ت 150هـــــــــ)، ومع اختلاف العلماء في نسبته له، إلا أنّه يبقى أول الكتب المستقلة المؤلفة في علــم التصــريف، والــذي استعمل فيه مصطلح الصرف.[22]

وفي القرن الثاني استعمل سيبويه مصطلح التصريف في قوله: "هذا باب ما بنــت العرب من الأسماء والصفات والأفعال غير المعتلة والمعتلة، وما قيس مــن المعتــل الذي لا يتكلمون به ولم يجيء في كلامهم إلا نظيره من غير بابه، وهو الذي يســميه النحويون التصريف والفعل"[23].

ومع بداية القرن الثالث الهجري ألّف أبو عثمان المازني (ت 247هـــــــــ) كتابــا (سماه التصريف).

ثم توالت حركة التأليف في هذا العلم حيث ألّف ابن جنــي (ت 392هــــ) كتابــه (المنصف) الذي شرح فيه تصريف المازني. وألّف ابن السراج النحوي (ت 316هــ) كتابه (الأصول في النحو) وتناول فيه مصطلح التصريف معللا سبب التسمية بالقول: "لتصريف الكلمة الواحدة بأبنية مختلفة"[24].

كما ألّف أبو علي الفارسي (ت 377هــــ) كتابه (التكملة) وجعل التصريف فيــه بابا من أبواب ذلك العلم. وألّف الميداني (ت518هــ) كتاب (نزهة الطرف فــي علــم الصرف) [25]. وكذلك الحال بالنسبة للزمخشري (ت 538هــ) في كتابه (المفصل).

وفي القرن السابع ألّف ابن الحاجب (ت 646هـ) مؤلفه الشهير (الشافية في علم التصريف) قال في متنها: "التصريف علم الأصول تعرف به أحوال أبنية الكلم التي ليست بإعراب"[26]. وأضاف ابن عصفور (ت 669هـ) كتابا بعنوان (الممتع في التصريف) وقد حققه فخر الدين قباوة.

وللإشارة فإنّ السيوطي ذكر أبا مسلم معاذ بن الهراء الكوفي (ت 187هـ) كأوّل كاتب في هذا العلم.

حاجة القارئ والدارس لكتاب الله للعلوم اللغوية وفي طليعتها النحو العربي:
يمثّل النحو خطوة كبيرة في العناية بالقرآن الكريم والمحافظة على سلامته. والروايات التي تثبت وقوع بعض الأخطاء اللغوية والإعرابية في قراءة القرآن كثيرة[27]. وكلها تجمع بأن اللحن وما ترتب عليه من الخطأ في النطق واختلال الألسنة كان سببا فعالا في نشأة النحو. فوظيفة هذا العلم لا تقتصر على ضبط الكلمات ومعرفة المرفوع والمنصوب والمجرور والمعنى والمعرب وإنما تتسع إلى توجيه النصوص والتحكم في دلالتها ومقاصدها. ففي قول الله تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [28]. يفرض المعنى رفع العلماء (فاعلا) ونصب اسم الجلالة (مفعولا به) لأن المراد هو حصر الخوف من الله في العلماء لا حصر الخوف من العلماء في الله.

فالنحو ليس علامات لفظية فحسب بل هو مناط إيضاح المعنى يقول ابن فارس (ت 395ه) "فأما الإعراب فبه تميز المعاني ويوقف على أغراض المتكلمين وذلك أن قائلا لو قال: (ما أحسن زيد) غير معرب أو (ضرب عمر زيد) غير معرب لم يوقف على مراده فإذا قال (ما أحسن زيدا) أو (ما أحسن زيد؟) أو (ما أحسن زيد) أبان بالإعراب عن المعنى الذي أراده".[29]

كما بين ابن جني (ت 392) قيمته أيضا في باب أفرده من كتاب الخصائص بعنوان: (باب القول على الإعراب) فقال: "هو الإبانة عن المعنى بالألفاظ ألا ترى أنك إذا سمعت: أكرم سعيد أباه علمت برفع أحدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول؟ ولو كان الكلام شرجا واحد لا ستبهم أحدهما على صاحبه".[30] فالرفع هو الذي حدد الفاعل ولو لا هذه العلامات الإعرابية لما أمكن تحديد أحدهما من صاحبه.

ويعد الاحتجاج بالشاهد النحوي من أبكر صور الدراسات اللغوية فكتب (معاني القرآن) جمعت المحاولات الأولى في تحليل الآيات تحليلا لغويا وذكر ما تعلق بهامن شواهد نحوية. وخير دليل على ذلك (معاني القرآن) للفراء الذي جمع بين التحليل اللغوي والتفسير الأثري لما يحتويه من: تفسير، ونحو، وصرف، وبلاغة. وقد دأب علماء عصره على دراسة القرآن حيث هو مصدر التشريع ومصدر حفظ اللغة العربية. فمن أساتذة الفراء: الرؤاسي (ت175هـ)، والكسائي (ت189هـ) ويونس بن حبيب (ت182هـ) الذين لهم كتب في معاني القرآن أيضا.

وكتب (إعراب القرآن الكريم) تعتبر فرعا عن (المعاني) بتناولها أحد مقاصدها أو اهتماماتها وهو الإعراب، عنى أصحابها بالشواهد النحوية ككتاب (إعراب القرآن) للزجاج (ت 310هـ) وأبي جعفر النحاس (ت 338).

وإذا عدنا إلى كتاب سيويه (ت 182هـ) فإننا نجده يجمع بين دفتيه شواهد كثيرة من القرآن الكريم ومن الشعر والنثر وبعض أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم.

فغدا سوق الشواهد أمرا تقليديا يمارسه المصنفون في كل ماله علاقة بالدرس النحوي على تفاوت واضح بين المصنفات في جمعها وعرضها مع تأثرهم بما حفظوا من القرآن الكريم ومن الشعر وبما وعوا من كتب السابقين. فبعضهم عنى

بالشواهد من القرآن الكريم وأولاها عناية ففاقت الشواهد الشعرية عددا كما فعل ابن هشام في (شرح شذ ور الذهب) إذ بلغ عدد الآيات ست مائة وتسعا وخمسين (359) آية، وعدد الأبيات ثلاث مائة وتسع وثلاثين (339) بيتا، وكما فعل ابن معطي في كتابه (الفصول الخمسون) إذ بالغ عدد الآيات مائة وثلاثا وعشرين (123) آية، وعدد الأبيات سبعة وستين (67) بيتا.

وبعضهم عنى بشواهد الشعر ففاقت في العدد الشواهد من القرآن الكريم كما فعل سيبويه في (الكتاب) إذ بلغ عد الآيات أربع مائة وسبعا وأربعين (447) آية، وبلغ عدد الأبيات ألفا وخمس مائة (1500) بيتا.

وتأتي كتب التفسير لتستفيد مما ورد من شواهد نحوية في تفسير الآيات، فكتاب (جامع البيان) لابن جرير الطبري مثلا لم ينطق إلا من أرضية خصبة زرعت فيها الآراء النحوية، حتى إذا ما نضجت واستوت أعمل علمه الواسع وفكره الثاقب فاستفاد وأفاد.

ومن خلال استقرائنا لهذا التفسير لمسنا عناية كبيرة بالشواهد النحوية، وقد أحصيت شواهد القرآن فوجدت عدتها ستة وعشرين ومائة (126) شاهد، وشواهد القراءات نحو خمسة وخمسين مائة (155) شاهد، وهي نسبة عالية تبرز اهتمامه بالقراءات واعتماده عليها، وعدد الشواهد الشعرية نحو ثلاثة وأربعين ومائة (143) شاهد، أما الشواهد النثرية فأكثرها أمثلة تعليمة.

فاعتماد الطبري على المأثور في تفسير آي الذكر الحكيم وعنايته الفائقة بالقراءات لم يصرفه عن الاهتمام البالغ بالمباحث النحوية وكثرة الاستشهاد عليها حتى أصبح الإعراب معلما أساسيا من معالم منهجه في التفسير. نجده يفسر الآية من القرآن الكريم ويربط بينها والإعراب فيعدد آراء النحاة، ويوازن، ويرجح بينها ثم

يذكر شاهدا أو أكثر على ما اختاره من توجه نحوي أو تفصيل مذهب من المـــذاهب. وكل ذلك وفق تمكن نحوي وقدرة في التحليل والاستنباط، جعلت من تفسيره اتجاهـــا جديدا "إذ تجاوز المأثور إلى غيره، وتخطى التفسير المحكي إلى موضوعات أخـــرى تدخله في جانب منه في كتب التفسير العقلي بالرأي والاجتهاد، وتجعله نقطة تحـــول في تاريخ التفسير وإلتقاء مع بعض الاتجاهات الأخرى في التفسير، كما تجعله معلما من معالم نشأة التفسير العقلي".[31]

وختاما نقول: إنّ للنحو العربي علاقة وطيدة بالدراسات القرآنية، وقد تبـــين مـــن خلال بحثنا أنّه كان لعلماء اللغة القدامى دور في تقعيده وتعليمه، وقد تكللت جهودهم بالاهتمام بهذا اللسان العربي المبين كمكون جوهري من مكونات الإســـلام، ذلـــك أنّ القاعدة الأصولية توضّح هذا المفهوم بالقول: ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

الهوامش

(1) د. عبد الجليل مرتاض: بوادر الحركة اللسانية الأولى عند العرب، مط، مؤسسة الأشرف للتجـــارة والطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1988، ص 05.

(2) ينظر الإيضاح في علل النحو للزجاجي، ص 89.

(3) ابن منظور: لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1999م، ج 14، ص76.

(4) تهذيب اللغة، مادة (نحو).

(5) ابن جني: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى بيروت (د.ت) ج1، ص34.

(6) ابن خلدون: المقدمة، دار الرائد العربي، بيروت، ط5، 1982، ص 1057.

(7) شوقي ضيف: المدارس النحوية، دار المعارف، مصر، ط2، ص 20.

(8) ابن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، شرح محمد شاكر، دار المعارف، 1952، ج 1، ص12.

(9) ابن النديم: الفهرست، دار المعرفة، بيروت، ص 102.

(10) ينظر: الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق محمد أبو الفضـــل إبـــراهيم، دار نهضـــة مصر، ص 25.

(11) ينظر: ابن جني، الخصائص، ج 1، ص 242.

(12) السيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء التراث، ج 1، ص37.

(13) المصدر نفسه، ج 1، ص 37.

(14) الزجاجي: الإيضاح في علل النحو، تحقيق مازن مبارك، بيروت، 1982، ص 24.

(15) ينظر: الفهرست ص 51.

(16) ينظر: الخصائص، ج 1، ص 308–309، وانظر أيضا الخصائص، ج 3، ص 185.

(17) المصدر نفسه، ج1، ص 361.

[18] السيوطي: المزهر، ج1، ص 41.

[19] يقوت الحموي: معجم الأدباء، ج18، ص 198.

[20] المصدر نفسه، ص 198.

[21] ابن جني: الخصائص، ج 1، ص 01.

[22] ينظر: المقصود في علم الصرف المنسوب لأبي حنيفة النعمان، تحقيق: عبد الله جاد الكريم حسن مكتبة الآداب، القاهرة، ص 46.

[23] سيبويه: الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، ج 4، ص 242.

[24] ابن السراج: الأصول في النحو، تحقيق عبد المحسن الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1996م ج3، ص 231.

[25] الميداني: نزهة الطرف في علم الصرف، تحقيق لجنة إحياء التراث، دار الآفاق الجديد، بيروت ط1، 1981، ص 4.

[26] ابن الحاجب: الشافي في علم التصريف، تحقيق حسن أحمد العثمان، دار البشائر الإسلامية بيروت، ط1، 1995، ص6.

[27] انظر مثلا: ابن خلدون: المقدمة، دار الرائد العربي بيروت، ط 5، 1402 ه – 1982 م، ص 546.
والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن، دار الفكر، ط 2، 1407 ه – 1987 م، ج 1، ص 24.

[28] فاطر: 28.

[29] ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تحقيق مصطفى الشويمي، بيروت 1964 م ص 309.

[30] ابن جني: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت (د . ت) ج 1، ص 35.

[31] عبد الله رفيده: النحو وكتب التفسير، دار الجامهرية للنشر والتوزيع، ط 3، ج 1، ص 547.

دور اللغة العربية في فهم القرآن الكريم

د. مسعود فشيت

جامعة الجزائر 1

مقدمـــة: لقد اختار الله سبحانه وتعالى اللغة العربية من بين لغات العالم فأنزل بهـا القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[2]، وقال عز وجل: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[3] فهذه الآيات المباركة وغيرها فيها دلالة واضحة على ربانية وعربية القرآن الكريم ولذلك لا سبيل إلى فهم مُراد الله تعالى حقيقة إلا بتعلم وإتقان اللغة العربية.

ولقد أدرك السلف الصالح من علمائنا هذه الحقيقة فانكبوا على تعلمها وتعليمها والتأليف فيها لأنهم أيقنوا أن خدمتها هي خدمة للقرآن الكريم، فعلوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة نشأت غِيرة على القرآن الكريم.

هذه الحقيقة ذكرها الإمام القرطبي في تفسيره إذ يروي «عن ابن أبي مليكة قال قدم أعرابي في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال من يقرئني مما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم قال فأقرأه رجل براءة فقال إن الله بريء من المشركين ورسوله بالجر فقال الأعرابي أو قد برئ الله من رسوله فإن يكن الله بريء من رسوله فأنا أبرأ منه فبلغ عمر مقالة الأعرابي فدعاه فقال يا أعرابي أتبرأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أمير المؤمنين إني قدمت المدينة ولا علم لي بالقرآن فسألت من يقرئني فأقرأني هذا سورة براءة فقال إن الله بريء من المشركين ورسوله فقلت أو قد برئ الله من رسوله إن يكن الله بريء من رسوله فأنا أبرأ منه فقال عمر ليس هكذا يا أعرابي قال فكيف هي يا أمير

المؤمنين قال إن الله بريء من المشركين ورسوله بالرفع فقال الأعرابي وأنا والله أبرأ مما برئ الله ورسوله منه فأمر عمر بن الخطاب ألا يقرئ الناس إلا عالم باللغة العربية، وعن علي بن الجعد قال سمعت شعبة يقول مثل صاحب الحديث الذي لا يعرف العربية مثل الحمار عليه مخلاة لا علف فيها، وقال حماد بن سلمة من طلب الحديث ولم يتعلم النحو أو قال العربية فهو كمثل الحمار تعلق عليه مخلاة ليس فيها شعير، وقال ابن عطية إعراب القرآن أصل في الشريعة لأن بذلك تقوم معانيه التي هي في الشرع، وقال ابن الأنبار وجاء عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وتابعيهم رضوان الله عليهم من الاحتجاج على غريب القرآن ومشكله باللغة والشعر»[4].

قال مجاهد: «لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالما بلغات العرب»[5].

وقال الإمام مالك: «لا أوتي برجل غير عالم بلغات العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالا»[6].

وجاء عن صاحب البرهان قوله: «ولا يجوز لغير العالم بحقائق اللغة وموضوعاتها تفسير شيء من كلام الله لاحتياج المفسر له إلى التبحر في معرفة لسان العرب، ولا يكفي في حقه تعلم اليسير منها فقد يكون اللفظ مشتركا وهو يعلم أحد المعنيين والمراد المعنى الآخر»[7].

مما سبق نخلص إلى أن المفسرين والفقهاء الأوائل كانت مقولاتهم في كتبهم تنبيها مسهبا إلى أهمية التعمق في دراسة اللغة العربية بعلومها المختلفة وسيلة لفهم كتاب الله تعالى، ومن أهم هذه العلوم علم النحو، وعلم الصرف، وعلم البلاغة والعلم بأشعار العرب ونثرهم، وبحثي هذا أزعم أنه جاء خادمًا لهذا المقصد، حيث بيَّنت من خلاله دور علوم اللغة العربية في فهم كتاب الله عز وجل.

أهمية الموضوع: إذا كان علماء السلف ينصحون جيلهم بأن يتعلموا اللغة العربية، بل ويتعمقوا في دراستها من أجل فهم كتاب الله تعالى، مع أنهم كانوا

معروفين بالفصاحة والبلاغة والشعر فمن باب أولى نحن في زماننا أن ننبّه إلى هذه المسألة المهمة، وخاصة وأن اللغة العربية تعرضت وتتعرض إلى حملات شرسة من أجل القضاء عليها وبالتالي القضاء على القرآن الكريم، بداية من حملات المغول إلى حملات نابليون إلى حملات الفرنسيين على دول المغرب العربي وعلى رأسهم الجزائر وما زالت هذه الحملات إلى يومنا هذا وحتى من بني جلدتنا، ولذلك فإن البحث في هذا الموضوع يحظى بأهمية كبيرة في نظري حيث يبين مدى التلازم بين العربية والقرآن، كما يبين دور اللغة العربية الكبير والمهم في فهم كتاب الله عز وجل.

المنهج المتبع: اعتمدت في دراسة هذا الموضوع على المنهج الوصفي التحليلي.

الإشكالية: ما هي نوع العلاقة الموجودة بين القرآن الكريم واللغة العربية؟ هل نستطيع أن نفهم كتاب الله عز وجل بغير فهم دقيق وعميق للغة العربية؟

وهل استعان العلماء باللغة العربية لتفسير القرآن الكريم أم اقتصروا في تفسيرهم على السنة النبوية وأقوال الصحابة فقط؟

وللإجابة على هذه الإشكالية قسّمت الموضوع إلى ثلاثة مطالب، فأما المطلب الأول فقد تكلمت فيه عن دور كلام العرب في فهم ألفاظ القرآن الكريم، وأما المطلب الثاني فتحدثت فيه عن دور النحو في تفسير كتاب الله تعالى، وأما المطلب الأخير فقد تطرقت فيه إلى دور البلاغة في تدبّر كلام الله عز وجل.

المطلب الأول: دور كلام العرب في فهم ألفاظ القرآن الكريم: إن من آليات فهم كتاب الله تعالى وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه علم اللغة، لأن اللغة يعرف بها شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع، قال عبد الله بن عباس ترجمان القرآن رضي الله عنه وعن أبيه: «الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه» (8).

وعنه أيضا قال: «إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه من الشعر ديــوان العرب»[9].

ولقد كان سيدنا ابن عباس يعتمد كثيرا في تفسيره على شعر العرب، فقــد روي أن الأزرق الخارجي حين رأى حبر الأمة عبد الله بن عباس يجلس في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم يفسر القرآن دخله الشك في قدرة هذا الغلام على تفسير كتاب الله، فجمع بعض الأسئلة التي رآها صعبة في مجال الكلمات الغريبة فــي القــرآن وبدأ يسأله عن معاني هذه الكلمات وحين يجيبه سيدنا عبد الله بالمعنى يسأله: وهل تعرف العرب ذلك في كلامهم؟ فيرد عليه ابن عباس ببيت من الشعر العربي يؤيــد ما قاله في تفسيره للكلمة، وذلك كله من منطلق أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، وسميت هذه الأسئلة واشتهرت بـــ "مسائل نافع بن الأزرق" وقــد تجــاوزت مائتي مسألة[10].

وهذه بعض مسائل نافع بن الأزرق التي أوردها الحافظ السيوطي، قال الراوي: بينما عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة قد اكتنفه الناس يســألونه عــن تفســير القرآن، فقال نافع بن الأزرق لنجده بن عويمر: قم بنا إلى هذا الذي يجترئ علــى تفسير القرآن بما لا علم له به، فقاما إليه فقالا: إنا نريد أن نسألك عن أشــياء مــن كتاب الله فتفسرها لنا وتأتينا بمصادقة من كلام العرب، فإن الله تعالى إنمــا أنــزل القرآن بلسان عربي مبين، فقال ابن عباس: سلاني عما بــدا لكمــا، فقــال نــافع: أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴾[11]، قال: العزون: حِلَــقُ الرِفاق، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول:

فجــاءوا يهرعــون إليــه حتــى يكونــوا حــول منبــره عزينــا[12]

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣٥﴾ [13]، قال: الوسيلة: الحاجة، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت عنترة وهو يقول:

إن الرجال لهم إليك الوسيلةُ   إنْ يأخذُوك تكَحّلي وتَخَضّبي[14]

قال أخبرني عن قوله: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾[15]، قال: الشرعة الدين والمنهاج والطريق، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وهو يقول:

لقد نطق المأمون بالصدق والهدى   وبيّن للإسلام دينا ومنهاجا[16]

قال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾[17] ، قال: نضجه وبلاغه قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت قول الشاعر:

إذا مشت وسط النساء تأودّت   كما اهتزّ غصن ناعم النبت يانع[18]

من خلال ما سبق نستنتج أن عبد الله بن عباس كان يعتمد كثيرا على الشعر العربي لتفسير ألفاظ القرآن، لأن القرآن أنزل بلغة هؤلاء العرب، وكان رضي الله عنه يعتمد أيضا على لهجات بعض القبائل العربية في تفسيره للقرآن، وإليك بعض الأمثلة على ذلك:

- توقف ابن عباس رضي الله عنه مع ما تواتر عنه من قوة الحافظة وإلمامه الواسع بالشعر العربي عن الإدلاء برأيه في معنى قول الله: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ [19]، فهو يقول: ما كنت أدري ما قول الله عز وجل ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ حتى سمعت ابنة ذي يزن وهي تقول لخصمها: تعال أفاتحك، فعلمت أن الفتح مستعمل عندهم بمعنى الحكم والقضاء[20].

وعلى هذا أيضًا نفهم قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٢٨ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [21]، ذلك أنه يوم الحكم والقضاء بين الناس، لا بمعنى فتح الأبواب ولا فتح الأمصار [22].

●توقف أيضا سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [23] حتى سمع رجلا يخاصم آخر على بئر، قال ابن عباس: ما كنت أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى اختصم أعرابيان في بئر فقال أحدهما أنا فطرتها، أي هو الذي بدأ حفرها دون سابق له [24].

●ورد اليأس في القرآن الكريم بمعنى الإحباط والقنوط وعدم الرجاء[25]، مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [26]، وقوله: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى ﴾ [27]، وقوله سبحانه: ﴿ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴾ [28]، لكن هناك آية وردت كلمة اليأس فيها بمعنى العلم على لهجة من لهجات العرب وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾[29]، ومعناها: أفلم يعلم ويتبين، قال الشاعر:

ألم ييأس الأقوام أني أنا ابنه

وإن كنت عن عرض العشيرة نائيا[30]

المطلب الثاني: دور النحو في تفسير كتاب الله تعالى

إن من أدوات فهم النص القرآني النحو، لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب، إذا الإعراب يبين المعنى وهو الذي يميز المعاني ويوقف على أغراض المتكلمين بدليل قولك: ما أحسن زيدًا، وما أحسن زيدٌ، ففي نصب زيد تكون (ما) تعجبية، وفي رفع زيد تكون (ما) نافية تنفي إحسان زيد [31].

قال ابن عطية: «إعراب القرآن أصل في الشريعة، لأن بذلك تقوم معانيه التي هي في الشرع»[32]، فإن تغيير الحركة قد يؤدي إلى الكفر والعياذ بالله، فلو غيرت

الحركات في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [33] من فتحة إلى ضمة ومن ضمة إلى فتحة فتقرأها (إنما يخشى اللهُ من عباده العلمـــاءَ) لفســـد المعنـــى وأصبح كفرا، وإذا كان لا يعلم الفرق في المعنى بين الحروف والأدوات فقد يؤدي ذلك في أحيان كثيرة إلى الإحالة في المعنى وربما إلى الكفر كما رأينا[34].

ولهذا طلب سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه من أبي الأسود الدؤلي أن يضع قواعد للنحو، فقال له: "انحُ هذا النحو"، وهذا مـــن أجـــل المحافظـــة علـــى الإعراب[35].

وحتى لا يكون الكلام نظريا يتوه في عالم العموميات نتعرض لبعض الأمثلـــة من النصوص القرآنية ليتبين حقيقة ما قلناه:

● إن حرف (بلى) موضوع لإيجاب الكلام المنفي وأصله (بل) وإنما زيدت عليهـــا الألف ليحسن السكوت عليها، و(أليس) رفعت حكم النفي وأحالت الكلام إلى الإثبـــات ولو وقع مكانها (نعم) لحققت النفي وصدّقت الجحد، ولهذا قال ابن عباس رضـــي الله عنه في تأويل قولـــه تعـــالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [36] «لو أنهم قالوا نعم لكفروا». وهو صحيح، لأن حكم نعم أن ترفع الاستفهام، فلو أنهم قالوا (نعم لكان تقدير قولهم (لست ربنا) وهو كفر، وإنما دلّ على إيمانهم (بلى) التي يـــدل معناها على رفع النفي، فكأنهم قالوا (أنت ربنا)، لأن أنت بمنزلة التاء التي في لست.

ويروى أن أبا بكر بن الأنباري حضر مع جماعة من العدول ليشـــهدوا علـــى إقرار رجل، فقال أحدهم للمشهود عليه: ألا نشهد عليك؟ فقال: نعم، فشهد الجماعة عليه وامتنع أبو بكر بن الأنباري، وقال: إن الرجل منع أن يشهد عليه بقوله (نعم) لأن تقدير جوابه بموجب ما بيناه لا تشهدون عليّ[37].

● في قولـــه تعـــالى: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ [38]، لو أخذنا بظاهر اللفظ فـــي هـــذه

الآية لكانت الكلاب المعلمة حلالاً أكلها، إذ أحل الله الطيبات وعطف عليها المعلّم من الكلاب، لكن النحو حين يتدخل بقاعدته المشهورة "قد يحذف المضاف فيقوم المضاف إليه مقامه" وبهذا يستقيم المعنى المقصود من الجملة وتفهم على الذي أُحِلّ هو صيد الكلاب المعلمة لا نفس الكلاب بدليل آخر الآية: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ وتقدير الآية على قاعدة النحاة: أحل لكم الطيبات وصيد ما علمتم من الجوارح [39].

●قوله تعالى: ﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ [40]، المعهود في اللغة أن فعل النصر يتعدى بحرف الجر (على) لكنه هنا لم يقل: (ونصرناه على القوم) وإنما قال: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ﴾ فما السر في ذلك؟ يجيب النحاة بأن الفعل إذا تضمن معنى فعل آخر تعدى تعديته، وهنا ضُمِّن فعل النصر معنى النجاة والانتقام فإن هؤلاء الذين كذبوا نوحاً عليه السلام بعد أن لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما وسخروا منه وهددوه بالرجم لا يستحقون من الله إلا الانتقام بالإغراق في الطوفان، أما هو ومن معه من المؤمنين فلهم النجاة، فانظر كيف أدى التضمين هنا معاني النصر والنجاة للمؤمنين والانتقام من الكافرين[41].

المطلب الثالث: دور البلاغة في تدبّر كلام الله عز وجل

إن من آليات فهم القرآن الكريم وبالتالي تدبّره علم البلاغة (المعاني والبيان والبديع)، لأنه يعرف بالأول خواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعنى وبالثاني خواصها من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها، وبالثالث وجوه تحسين الكلام، وهذه العلوم الثلاثة هي علوم البلاغة وهي من أهم أركان التفسير لأنه لا بد من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز، وإنما يدرك بهذه العلوم[42].

قال السكاكي: «اعلم أن شأن الإعجاز عجيب يدرك، ولا طريق إلى تحصيله لغير ذوي الفطر السليمة إلا التمرن على علمي المعاني والبيان»[43].

وقال الزمخشري: «من حق مفسر كتاب الله الباهر وكلامه المعجز أن يتعاهد بقاء النظم على حسنه، والبلاغة على كمالها، وما وقع به التحدي سليما من القادح»[44].

وقال الزركشي: «واعلم أن معرفة هذه الصناعة بأوضاعها هي عمدة التفسير المطلع على عجائب كلام الله تعالى، وهي قاعدة الفصاحة وواسطة عقد البلاغة ولو لم يجب الفصاحة إلا قول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴾[45] لكفى»[46].

وهذه بعض الأمثلة التي تبين وتوضح دور علم البلاغة في تذوق أسلوب كلام الله المعجز:

●لما جلس أبو عبيدة معمر بن المثنى لدروس العلم في المسجد جاءه رجل وقال له: إن العرب حين تستعمل التشبيه فإنها تشبه مجهولا بمعلوم حتى يتضح المجهول، فما بال القرآن يشبه مجهولا بمجهول في قوله تعالى عن شجرة الزقوم: ﴿ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾[47] فنحن لم نر طلع الشجرة فهي مجهولة لدينا ورؤوس الشياطين أيضا مجهولة لنا حيث لم نر شيطانا، فكيف وقع هذا في القرآن؟ فرد عليه معمر بأن العرب تكتفي بالصورة الذهنية عن الصورة المشاهدة ورأس الشيطان صورته في الذهن العربي صورة كريهة مخيفة مرعبة، فشبه به شجرة الزقوم، كما فعل العرب حين شبهوا الرماح بأنياب الغول وهم لم يروا الغول في مثل قول الشاعر:

أيقتُلُني والمشرَفيُّ مُضاجعي

ومَسنونةٌ زُرْقٌ كأنيابِ أَغْوالِ[48]

●في قوله تعالى: ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٤ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴾[49]، فقد ردّ إبراهيم عليه السلام التحية عليهم بخير من تحيتهم

لأنهم حيّوه بالنصب (سلاماً) وحياهم بالرفع (سلامٌ) فهم حيّوه بالجملة الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد، أي نسلم سلاما، وهو حيّاهم بالجملة الاسمية الدالـة علـى الثبوت، والاسم أقوى وأثبت من الفعل كما هو معلوم في اللغة، فهو حيّاهم بالسلام الشامل الدائم فيكون قد حيّاهم بخير من تحيتهم، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ﴾[50].

قال الرازي: «إن إبراهيم عليه السلام أراد أن يرد عليهم بالأحسن فأتى بالجملة الاسمية فإنها أدل على الدوام والاستمرار»[51].

●في قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [52]، معنى الهداية الدلالة والإرشـاد والتبيين. وفعل الهداية قد يُعدّى بنفسه نحو قولـه تعـالى: ﴿ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [53]، وقوله سبحانه: ﴿ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسۡتَقِيمًا ﴾ [54]، وقد يُعـدّى بـ (إلى) كقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ﴾ [55]، وقولـه: ﴿ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ﴾ [56]، وقد يُعدّى بـ (اللام) كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا ﴾ [57]، والفرق بين التعدية بالحرف والتعدية من غيـر حـرف أن التعديـة بالحرف تقال إذا لم يكن في الطريق فيصل بالهداية إليه، وأما التعديـة مـن دون حرف تقال لمن يكون في الطريق، فتقول: هديته إلى الطريق وهديته للطريق لمـن لا يكون في الطريق فتوصله إليه، وتقول: هديته الطريق لمن كان فيه فتبصره بـه وتنبه له، ففي قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ نطلب الهداية لمـن كـان فـي الطريق فيعرفه به ويبصره بشأنه، وكذلك لمن ضل وانحرف من المـؤمنين عـن الجادة فيرده إليها، ولما كان هؤلاء من الموحدين الحامدين لله كان المعنـى طلـب استمرار الهداية على الطريق المستقيم، والتثبيت والزيادة فيه كمـا قـال تعـالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡا۟ زَادَهُمۡ هُدًى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾[58] فإن العبد مفتقر في كل ساعة إلـى الله تعالى في تثبيته على الهدى ورسوخه فيها، وازدياده منها واستمراره عليها[59].

قال أبو حيان: «ومضمون هذه الجملة طلب استمرار الهداية إلى طريق من أنعم الله عليهم، لأن من صدر منه حمد الله وأخبر بأنه يعبده ويستعينه فقد حصلت له الهداية، لكن يسأل دوامها واستمرارها»[60].

الخاتمة: بعد هذه الرحلة التي طافت بنا بين بعض جوانب علوم اللغة العربية ودورها الكبير والضروري في فهم كتاب الله عز وجل نصل إلى الختام لنسجل جملة من النتائج الآتية:

1- نخلص أولا إلى أن القرآن الكريم هو الباعث الرئيس على نشأة علوم اللغة العربية ثم ازدهارها وتطورها؛

2- إن معرفة كلام العرب من شعر ونثر يعد آلة مهمة من آليات فهم كتاب الله وبيان معانيه، لأن لغة العرب يعرف بها شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع، لذلك لا يجوز لغير العالم بحقائق اللغة وموضوعاتها تفسير شيء من كلام الله تعالى؛

3- إن النحو يعد أداة أساسية من أدوات فهم القرآن، لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب، والإعراب يبين ويميز المعاني ويوقف على أغراض المتكلمين

4- يتميز كتاب الله تعالى بأنه كتاب محكم، فكل آية من آياته تتميز ببلاغة كلماتها ودقة معانيها وقوة أسلوبها، ولذلك لابد للمفسر من معرفة علوم البلاغة.

المصادر والمراجع:

1- ابن منظور (محمد بن مكرم)، لسان العرب، ط1، دار صادر، دت.

2- ابن هشام الأنصاري (أبو محمد عبد الله جمال الدين)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، ط6، دار الفكر، دمشق، 1985م.

3- أبو حيان (محمد بن يوسف الأندلسي)، تفسير البحر المحيط، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1422ه-2001م.

4- الألوسي (أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دت.

5- البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين)، شعب الإيمان، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1410ه.

6- خالد بن عبد الله الأزهري، موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب، تحقيق: عبد الكريم مجاهد، دط، عالم الكتب، بيروت، دت.

7- الرازي (فخر الدين محمد بن عمر التميمي)، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، ط1 دار الكتب العلمية، بيروت، 1421ه-2000م.

8- الزركشي (أبو عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دط، دار المعرفة، بيروت، 1391ه.

9- الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دت.

10- السامرائي (فاضل صالح)، على طريق التفسير البياني، دط، جامعة الشارقة الإمارات العربية، 1423ه-2002م.

11- السجستاني، (أبو بكر محمد بن عزيز)، غريب القرآن، تحقيق: محمد أديب عبد الواحد جمران، دط، دار قتيبة، 1416ه-1995م.

12- السمرقندي (أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد)، بحر العلوم، تحقيق: محمود مطرجي، دط، دار الفكر، بيروت، دت.

13- سيبويه (أبو البشر عمرو بن عثمان قنبر)، كتاب سبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط1، دار الجيل، بيروت، دت.

14- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال)، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: سعيد المندوب، ط1، دار الفكر، لبنان، 1416ه-1996م.

15- السيوطي، الدر المنثور، دط، دار الفكر، بيروت، 1993م.

16- الشنقيطي (محمد الأمين بن محمد بن المختار)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، دط، دار الفكر، بيروت، 1415ه-1995م.

17- العكبري (أبو البقاء عبد الله بن الحسين)، التبيان في إعراب القرآن، تحقيق: علي محمد البجاوي، دط، عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، دت.

18- علي بن برهان الدين الحلبي، السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، دط، دار المعرفة، بيروت، 1400ه.

19- القرآن الكريم.

20- القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجي)، الجامع لأحكام القرآن ط3، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1387ه-1967م.

21- محمد بن أحمد أبو منصور الأزهري، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2001م.

22- المرتضى (محمد الحسيني الزبيدي)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دط، دار الهداية، الكويت، دت.

23- النحاس (أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل)، معاني القرآن الكريم، تحقيق: محمد علي الصابوني، ط1، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1409ه.

التهميش:

1- سورة الشعراء، الآية: (192-195).

2- سورة يوسف، الآية: 2.

3- سورة فصلت، الآية: 3.

4- القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجي)، الجامع لأحكام القرآن، ط3 دار الكتاب العربي، القاهرة، 1387ه-1967م، 24/1.

5- الزركشي (أبو عبد الله محمد بن بهادر بن عبد الله)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دط، دار المعرفة، بيروت، 1391ه، 462/2.

6- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال)، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: سعيد المندوب، ط1، دار الفكر، لبنان، 1416ه-1996م، 462/2. الألوسي (أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دت، 5/1.

7- البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين)، شعب الإيمان، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1410ه، رقم: 2287، 425/2.

8- علي بن برهان الدين الحلبي، السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، دط، دار المعرفة بيروت، 1400ه، 260/2.

9- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، 24/1.

10- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مرجع سابق، 347/1-378.

11- سورة المعارج، الآية: 37.

12- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مرجع سابق، 348/1.

13- سورة المائدة، الآية: 35.

14- السيوطي، الدر المنثور، دط، دار الفكر، بيروت، 1993م، 71/3. الشنقيطي (محمد الأمين بن محمد بن المختار)، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، دط، دار الفكر، بيروت، 1415ه-1995م، 402/1.

15- سورة المائدة، الآية: 48.

16- السيوطي، الدر المنثور، مرجع سابق، 96/3.

17- سورة الأنعام، الآية: 99.

18- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مرجع سابق، 348/1.

19- سورة الأعراف، الآية: 89.

20- السمرقندي (أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد)، بحر العلوم، تحقيق: محمود مطرجي، دط دار الفكر، بيروت، دت، 548/1. المرتضى (محمد الحسيني الزبيدي)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دط، دار الهداية، الكويت، دت، 8/7.

21- سورة السجدة، الآية: (28-29).

22- محمد بن أحمد أبو منصور الأزهري، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2001م، 259/4.

23- سورة الأنعام، الآية: 14.

24- الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دط، دار إحياء التراث العربي، بيروت دت، 11/2.

25- ابن منظور (محمد بن مكرم)، لسان العرب، ط1، دار صادر، دت، 259/6.

26- سورة يوسف، الآية: 87.

27- سورة العنكبوت، الآية: 23.

28- سورة فصلت، الآية: 49.

29- سورة الرعد، الآية: 31.

30- السجستاني، (أبو بكر محمد بن عزيز)، غريب القرآن، تحقيق: محمد أديب عبد الواحد جمران، دط، دار قتيبة، 1416ه-1995م، 512/1.

31- سيبويه (أبو البشر عمرو بن عثمان قنبر)، كتاب سبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون ط1، دار الجيل، بيروت، دت، 42/3. ابن هشام الأنصاري (أبو محمد عبد الله جمال الدين)

مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، ط 6، دار الفكـر دمشق، 1985م، 470/1.

32- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، 301/1.

33- سورة فاطر، الآية: 28.

34- السامرائي (فاضل صالح)، على طريق التفسير البياني، دط، جامعة الشـارقة، الإمـارات العربية، 1423ه-2002م، 9/1.

35- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، 301/1.

36- سورة الأعراف، الآية: 172.

37- ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب، مرجع سابق، 154/1. خالد بـن عبـد الله الأزهـري موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب، تحقيق: عبد الكريم مجاهد، دط، عالم الكتب، بيـروت، دت 94/1.

38- سورة المائدة، الآية: 4.

39- العكبري (أبو البقاء عبد الله بن الحسين)، التبيان في إعراب القرآن، تحقيق: علـي محمـد البجاوي، دط، عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، دت، 419/1. االزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، 640/1.

40- سورة الأنبياء، الآية: 77.

41- الألوسي، روح المعاني، مرجع سابق، 73/17.

42- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مرجع سابق، 478/2.

43- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، 311/1.

44- الزمخشري، الكشاف، مرجع سابق، 106/1.

45- سورة الرحمن، الآية: (1-4).

46- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، 312/1.

47- سورة الصافات، الآية: 65.

48- النحاس (أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل)، معاني القرآن الكريم، تحقيق: محمد علـــي الصابوني، ط1، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1409ه، 33/6.
49- سورة الذاريات، الآية: (24-25).
50- سورة النساء، الآية: 86.
51- الرازي (فخر الدين محمد بن عمر التميمي)، التفسير الكبير أو مفــاتيح الغيــب، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1421ه-2000م، 182/28.
52- سورة الفاتحة، الآية: 6.
53- سورة الإنسان، الآية: 3.
54- سورة الفتح، الآية: 2.
55- سورة الشورى، الآية: 52.
56- سورة النازعات، الآية: 19.
57- سورة الأعراف، الآية: 43.
58- سورة محمد، الآية: 17.
59- ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، 355/15.
60- أبو حيان (محمد بن يوسف الأندلسي)، تفسير البحر المحيط، تحقيق: عــادل أحمــد عبــد الموجود وآخرون، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1422ه-2001م، 148/1.

النشاط التعليمي للمنشآت الدينية ودوره في خدمة القرآن واللغة العربية إبان الاحتلال الفرنسي (1830ـ1962)

أ. مباركة رحماني
جامعة العربي التبسي، تبسة
أ. الضاوية لسود
جامعة محمد خيضر، بسكرة

ملخص: يسعى هذا البحث لدراسة وجود المنشآت الدينية في عهد الاحتلال الفرنسي في الفترة الممتدة من سنة 1830 إلى غاية نيل الاستقلال سنة 1962، من خلال التطرق إلى نشاطها التربوي والتعليمي في المجتمع الجزائري في تلك الحقبة الزمنية التي شهدت شتى محاولات الاحتلال في طمس الكيان الجزائري بتغييب دور المنشآت الدينية الإسلامية وتهميش اللغة العربية.

الكلمات المفاتيح: القرآن الكريم، اللغة العربية، المنشآت الدينية الإسلامية الاحتلال الفرنسي.

Abstract : This research seeks to study the religious establishments during the French occupation in the period from 1830 until the attainment of independence in 1962, by touching on its educational activity in that era, which witnessed the various attempts of the occupation to obliterate the Algerian entity absent role Islamic religious and marginalization of the Arabic language.

Key words: The Holly Qur’an; The Arabic language; Islamic religious; the French occupation .

توطئة: يشهد التاريخ على حياة حضارات شيدت على أرض الجزائر كانت عنوانا للمجد والبطولة لم ترض الذل والهوان ولم ترضخ لأطماع الاحتلال منذ القدم، وبذلك صنعت الجزائر تاريخها وخطت الأنامل عنها أنها بلد الثوار، بلد الحرية، بلد الرجال، بلد الثروات، هذه الأخيرة التي أغرت فرنسا فقررت أن تستولي عليها واتخذت حادثة المروحة ذريعة وجهت بها أسطولها الحربي لموانئ الجزائر وكان ذلك في تاريخ 5 جويلية 1830م.



حادثة المروحة بين الداي حسين والقنصل الفرنسي في 30 أفريل 1827م

أولا: التجربة الاستعمارية في الجزائر؛ بين نشر الأيديولوجية الفرنسية والتستر بلحاف نشر الحضارة: عندما وطأت الأقدام الفرنسية أرض الجزائر تفاجأت بشعبها ذا هوية دينية ولغوية وحضارية لها جذورها الضاربة في عمق التاريخ؛ فهذا الشعب الجزائري "شعب عربي مسلم، ذو ميراث روحاني عريق وهو الإسلام وآدابه وأخلاقه، وذو ميراث مادي شاده أسلافه لحفظ ذلك التراث وهو المساجد بهياكلها وأوقافها، وذو نظام قضائي مصلحي لحفظ تكوينه العائلي والمصلحي، وذو منظومة من الفضائل العربية الشرقية[1]، فبأي حجة جاء المستعمر إلى هذه البلاد؟

قررت فرنسا خوض مغامرتها الاستعمارية في الجزائر بدعوى نشر الحضـــارة بعدما خططت لذلك جيدا وحتى تتمكن من امتصاص الحراك الشعبي الثوري الداخلي ضد السلطة الفرنسية الملكية الحاكمة آنذاك، وقد حاولت جاهدة تشييد حضارة زائفـــة في الجزائر المستعمرة من خلال تبنيها سياسات مدروسة تهدف إلى طمـــس الهويـــة الجزائرية الإسلامية ومحو اللغة العربية من الذاكرة الشعبية اعتمادا على آلية فرنسة وتمسيح الشعب الجزائري تدريجيا"، إذ "انتهج النظـــام الاســـتعماري فـــي الجزائـــر سياسيتين متمايزتين في إطار إرساء وبعث المدرسة الفرنسية، ونشر ثقافتـــه وقيمـــه وتمدنه المزعوم، السياسة الأولى سمّتها المواجهة غير المباشرة وكانت ترمـــي إلـــى احتواء وتدجين النظام التربوي التقليدي الجزائري ومنافسته؛ وقد قال الجنرال السفّاح الدوق **دي روفيغو Rovigo (1774- 1833م)**: "إني أنظر إلـــى نشـــر التعلـــيم وتدريس لغتنا بحسبانهما الأداة الناجعة المثلى لبسط نفوذنا في هذا البلد... والمعجـــزة الحقيقية الواجب القيام بها تكمن في إحلال الفرنسية محل العربية تدريجيا..."[2].

وتمثل نهاية الثمانينات حدّا فاصلا بين هذا النهج السياسي التربـــوي، أي نهايـــة المرحلة الأولى من التاريخ الفكري للاستعمار الفرنسي للجزائر، تبعتها مرحلة ثانيـــة تميزت بنهج سياسة المواجهة العلنية المتعددة الأشكال ضد الجهاز التربوي العربـــي الإسلامي، والتعليم العربي الحر للقضاء عليهما بالفرنسية والعلمانية والتبشير"[3]، يقينا منها أن هؤولاء البربر الذين تقدم على استعمارهم ليســـوا عـــدما، فلهـــم عـــاداتهم وتقاليدهم وتراثهم المحلي الخاص، وحضارة متجذرة في أعمـــاق التـــاريخ، وهـــم متعلمون ومثقفون لدرجة تمكنهم من الصمود ومواجهة أي غزو أو عـــدوان، وقـــد تفطنت الحكومة الفرنسية المستعمرة إلى أن أولى الخطوات وأنجعها لتحقيق المـــراد وهو: العبث بالتعليم.

ثانيا: واقع النشاط التعليمي للمنشآت الدينية* قبل الاحتلال الفرنســـي:وبمجرد أن عسكرت فرنسا مبدئيا في الجزائر حتى راحت تستقصي أوضـــاع الـــبلاد الثقافيـــة والتعليمية، وقد لاحظت أن أفراد الشعب الجزائري متعلمون ومثقفون إلى حـــد مـــا

وقد استنتجت الرابط القوي بين الفرد الجزائري والدين الإسلامي، وبين الشعب الجزائري واللغة العربية، كما لاحظت الدور البارز الذي تؤديه المساجد والجوامع بأئمتها وشيوخها؛ فـ"من المعلوم أن لمؤسسة المسجد دوا حضاريا راقيا جدا، حيث تمكنت من المحافظة على أصالة وهوية هذا الشعب، فإلى جانب العبادة والذكر، فهي منبر للعلم والمعرفة"[4] في المجتمع الجزائري بمختلف فئات شعبه.



كان التعليم منتشرا في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي: والأمر نفسه بالنسبة للزوايا* بمرابطيها وشيوخها في تعليم الناس وتوعيتهم؛ إذ أن "الرجال القائمين على العبادة هم أنفسهم المدرسون، فالمكلف بالتعليم هو المكلف كذلك بإمامة الناس"[5]، وقد بذلت السلطات المستعمرة أقصى البذل لتحريك المنظومة التعليمية في الجزائر وتوجيه دفتها لصالحها باعتبار أن الجزائر رقعة جغرافية خاضعة لحماية الأمة الفرنسية لذلك سعت بداية في خلخلة أسس المنظومة التعليمية من خلال عدة أساليب[6]:

- ✓ إهمال التعليم العربي الإسلامي، ومصادرة الأوقاف، ونفي العديد من العلماء وترهيب البقية؛

✓ إنشاء تعليم مزدوج خاص بالجزائريين، تدرس فيه اللغة العربية على أن تكون الفرنسية وعلومها هي السيدة؛

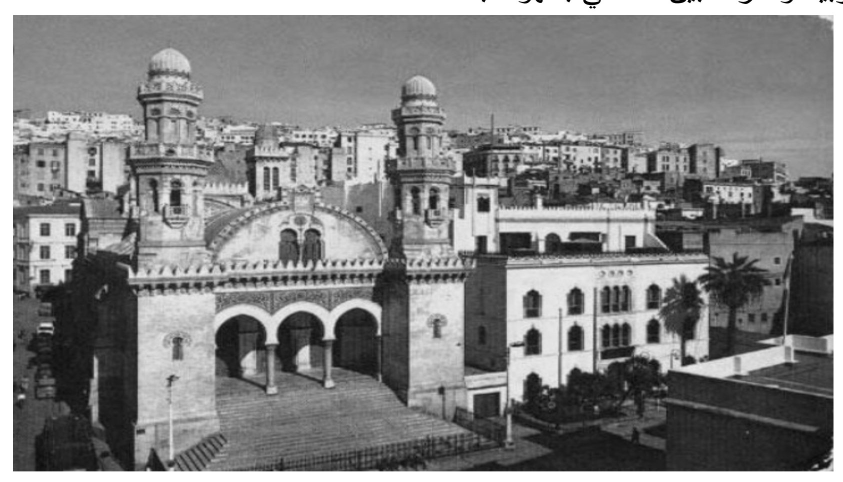
✓ ترك التعليم في الزوايا الريفية والمعمرات على ما هو عليه، مع مراقبة برنامجه ومعلميه حتى لا تكون الزوايا مراكز لمعاداة الفرنسيين؛

لكنها تفطنت لاحقا إلى الخطر الذي قد تشكله الزوايا والكتاتيب؛ فبعد أن كانت "الإدارة الاستعمارية تبدي نوعا من التسامح إزاء وجود الكتاتيب القرآنية لأن التعليم فيها لا يؤثر على المحيط، وبعدما شرع العلماء في تعليم اللغة العربية التي لابد منها لفهم الدين، قابلت السلطات الفرنسية ذلك باتخاذ مجموعة من الإجراءات والقوانين التعسفية الرامية كلها إلى تهميش لغة القرآن باعتبارها وسيلة أساسية للتبحر في الدين ولإحداث النهضة الفكرية التي تسبق كل ثورة، من خلال جعل اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر الأمر الذي ترتب عليه ملاحقة معلميها وتغريمهم وحبسهم بعد غلق مدارسها"[7]، وقد ترتب عن هذه القوانين والإجراءات الإدارية الفرنسية القمعية تراجع كبير في الدور الذي كانت تؤديه اللغة العربية في المجتمع الجزائري، فقد كانت مفتاحا لتجاوز الجهل والأمية وجسرا يعبر منه إلى تعاليم الدين الإسلامي السمحة.



اقتصر دور الكتّاب على تعليم القلة القليلة من أطفال القرى

ثالثا: السياسة الفرنسية المتبعة في محاربة نشاط المنشآت الدينية: وفي ظرف خمس عشرة سنة على الأكثر، (1830–1845م) انقلب حال التعليم في الجزائر المحتلة إلى أسوأ ما يمكن من خلال السياسة الفرنسية التي أريد بها تخطي وتهميش اللغة العربية؛ فالمعلمون قد هجروا أو قتلوا، وأبناء الجزائريين الذي احتوتهم الكتاتيب والمدارس صاروا مشردين في الشوارع تنهشهم الأمية والفقر والمساجد قد استغلت في غير ما شيدت له؛ "فقد حولت مساجد إلى كنائس **كجامع القصبة** و**جامع كتشاوة**، ومساجد حولت إلى ثكنات عسكرية **كمسجد سيدي عمار التنسي**، و**مسجد علي خوجة**، ومساجد حولت إلى مخازن للأسلحة ومستشفيات **كجامع محمد الكبير وسيدي الهواري**، و**جامع حسن باشا** بوهران..."[8] وكلها محاولات يظهر من خلالها مدى جدية الجهود الفرنسية في محاولة طمس الهوية الإسلامية قدر المستطاع لقوة العلاقة بين الجزائريين والدين الإسلامي وهو الأمر الذي لاحظه الاحتلال الفرنسي لذلك ركز على إلغاء الدور التربوي والتعليمي للمساجد كخطوة أولى باعتبارها منارة دينية تضيء عقول الناس وتحارب الجهل والأمية والبدع والمعتقدات الخرافية التي بدأت بالانتشار حينها في أوساط المجتمع الجزائري، كما أنها منبر رئيس لبث اللغة العربية ونشرها بين الأهالي بسهولة بالغة.

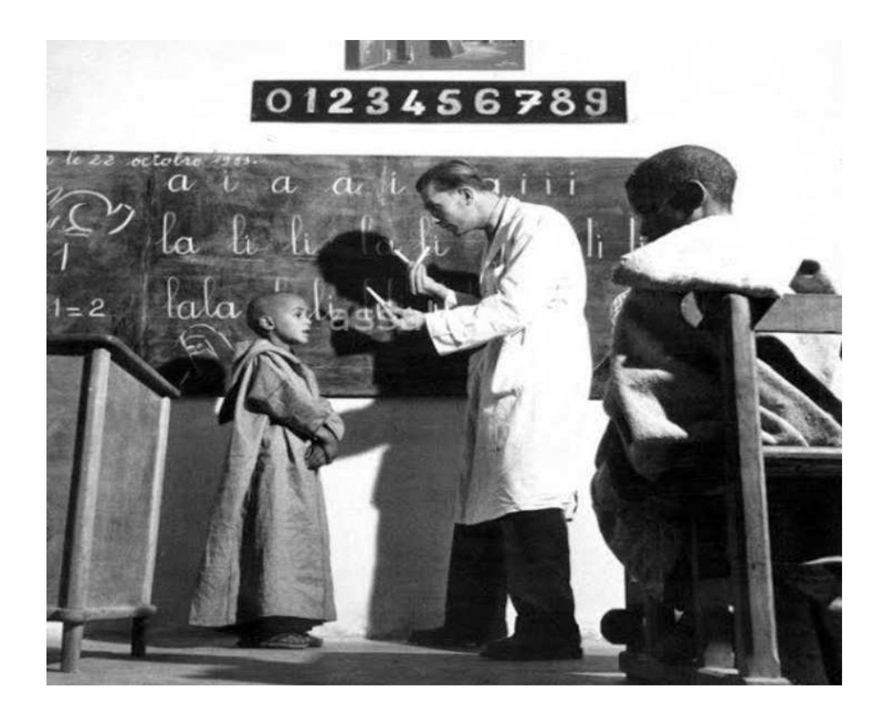


جامع كتشاوة بالعاصمة تم تحويله إلى كنيسة

وأما المدارس فقد أغلقت؛ "ففي العاصمة كان عدد المدارس حوالي مائة (100) مدرسة سنة 1830 لم يتبق منها سوى أربع عشرة مدرسة (14) سنة 1846، وأما قسنطينة فكاد يندثر منها التعليم بكل مستوياته عندما تضاءل عدد المدارس من تسعين (90) مدرسة إلى ثلاثين (30) سنة 1847، ولم يتجاوز عدد المتعلمين فيها الثلاثمائة وخمسين (350) بعدما كان يقارب الألف وأربعمائة (1.400)"[9].

والحقيقة التي يمكن أن تلخصها هذه الأرقام والإحصائيات لا تعبر إلا عن أيديولوجية المستعمر بعيدة النظر التي تتمثل في:

- ✓ الشعب الجزائري شعب متمسك بدينه لذلك يجب محاربة هذا الدين بعزل الشعب عن المؤسسات التي تحيي الدين وتنشره؛
- ✓ الشعب الجزائري متعلم ويظهر ذلك من خلال الإحصائيات التي أجرتها الحكومة الفرنسية، لذلك يجب محاربة المدارس والمعلمين والمؤطرين وتشريد التلاميذ؛
- ✓ تعويض اللغة العربية باللغة الفرنسية سواء كان ذلك بالتحايل على الشعب أم بفرضها عنوة في المدارس، وهو ما أشادوا به: "إن الشيء العجيب الذي يمكن القيام به هو تعويض العربية شيئا فشيئا بالفرنسية...والذي لا يفتأ ينتشر في أوساط الأهالي لاسيما إذا وفد الجيل الجديد بأعداد كبيرة للتعلم في مدارسنا"[10]؛
- ✓ فرض الثقافة الفرنسية في أوساط المجتمع الجزائري اعتمادا على العناصر التي سبق ذكرها –تهميش الدين واللغة وبالمقابل يفتح المجال لتعلم اللغة الفرنسية وتقديم الهدايا والهبات والعلاج المجاني لكل من يرغب باعتناق الدين المسيحي-.



التعليم لمن استطاع إليه سبيلا: في حين ضُمت الأوقاف إلى أملاك السلطة الفرنسية، وراحت الزوايا تنشط باستحياء متخفية عن أعين المستعمر، وشرعت في زرع مدارس بمواصفات فرنسية غايتها خلق مكانة للغة الفرنسية لإزاحة العربية من الاستعمال؛ فـ"في الفاتح من جوان 1833، تم فتح مدرسة عربية فرنسية في الجزائر بالذات، بأمر من أمين الصندوق المدني، كما تم التخطيط لأخرى في بونة (عنابة) وأخرى في مستغانم، وفي الفاتح من سبتمبر 1834، صدر مقرر يتم بموجبه إنشاء الثانوية العربية الفرنسية"[11]، وكانت كل الغاية حصار اللغة العربية ومحوها تدريجيا رغم مقاومة الشعب الجزائري لمختلف سياسات المستعمر التعليمية التي هدفت إلى تدجينه من خلال المدارس العرب–فرنسية التي كانت السلطات المستعمرة تزينها بلمسة إسلامية ظاهرها غير باطنها؛ إذ كانت "للمدرسة إمام ومصلى ومصحة، لترغيب الجزائريين وإزالة تخوفاتهم على أبنائهم"[12] من هذا الصنف الجديد من التعليم الذي لا يولي اهتماما بالدين والعقيدة الإسلامية.



حالة التعليم كانت مزرية أثناء فترة الاحتلال الفرنسي: وبالرغم من جهود الأمير عبد القادر (1808-1883) في بعث اللغة العربية وإحياء المنظومة التربوية في دولته الفتية (1832-1848) التي أسس لها باعتماده على المرجعية الإسلامية في تنشئة الفرد الجزائري وانتشاله من براثن الأمية من خلال سياسته التربوية التعليمية التي انتهجها؛ فقد "عمل على نشر التعليم الابتدائي، وحافظ على تعميمه كما حافظ على مجانيته مثله مثل التعليم في الزوايا والمساجد التي كانت تعطي تعليما عاليا"[13] إلا أن السلطات الفرنسية قد سجنته سنة 1848 ليختار منفاه في دمشق ما بين (1855-1883م) ويموت فيها بعد كل ما بذله من غال ونفيس في سبيل نيل الحرية.

وبعد سنة 1871 طغت الفرنسية على التعليم العربي ذي السمة الإسلامية باعتماد السلطات المستعمرة حيلة جديدة؛ حيث "لجأ الفرنسيون لجلب المسلمين إلى المدارس الفرنسية القليلة التي لم تكن تتجاوز الست وثلاثين (36) مدرسة وتحفيظهم القرآن للتغلب على الفكرة القائلة أن الفرنسيين سينصّرون أبناء المسلمين، وقد كان نوعا من التحايل المؤقت؛ ذلك أن المتعلم بعد مادة القرآن كان يتفرغ كلية للغة الفرنسية وموادها، وتاريخ فرنسا، وجغرافيتها، وعلومها"[14]، دون اهتمام بشرح أو تفسير ما

يتم تحفيظه للمتعلمين من القرآن؛ ذلك أن الغرض من هذه الحيلة هو امتصاص حماس الناس للتعليم بالعربية، ومحاربة التعليم التقليدي الذي كان يتأسس على القرآن بتجاهله وإهماله، وبالتالي وأد اللغة العربية بهدوء ليسود الجهل تدريجيا بين أبناء الشعب الجزائري وينشأ جيل خاضع، ممسوخ اللغة، والثقافة، والمعتقد.

رابعا: جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في إحياء نشاط المنشآت الدينية:وما لبثت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أن تبعث من رحم الصمود الجزائري سنة 1931م برئاسة العلامة عبد الحميد بن باديس، في حين تولى نيابة الرئاسة الشيخ البشير الإبراهيمي، وراحت الجمعية تعمل في نشاط لحماية اللغة العربية من المؤامرات التي حيكت ضدها كونها "لغة" الإسلام الرسمية، ومن ثم فهي لغة المسلمين الدينية الرسمية، ولهذه اللغة على الأمة الجزائرية حقان أكيدان كل منهما يقتضي وجوب تعلمها، فكيف إذا اجتمعا؛ حق من حيث أنها لغة دين الأمة بحكم أن الأمة مسلمة، وحق من حيث إنها لغة جنسها، بحكم أن الأمة عربية الجنس ففي المحافظة عليها محافظة على جنسية ودين معا، ومن هنا نشأ مانراه من حرص متأصل في هذه الأمة على تعلم العربية"[15]



إحدى صور أعضاء جمعية العلماء المسلمين

وقد رمت الجمعية إلى محاربة سياسة الإدماج والتنصير وطمس الهوية الجزائرية انطلاقا من العمل على "تصحيح العقيدة في قلوب الناس من خلال مواجهة البدع والخرافات والانحرافات والقيام بحملات تعليمية ودعوية واسعة النطاق لنشر الدين الصحيح وتعليم الأخلاق والفضائل، قصد الحفاظ على معالم الهوية العربية الأمازيغية الإسلامية فبنت نموذجها التربوي المتميز؛ إذ جندت المعلمين ووضعت نظاما مدرسيا متكاملا، وأنشأت لجنة عليا للتعليم والتفتيش، وأسست الكشافة الإسلامية، وحرصت على إعداد النخبة الواعية المثقفة التي حملت المشعل وواصلت الجهد لأجل النهوض والاستقلال ثم البناء والتشييد لذلك كان شعارها: **الإسلام ديننا العربية لغتنا، والجزائر وطننا**"[16]، ودعمت نشاطاتها السياسية، التعليمية، والدينية في جرائدها كـ: الشهاب، الصراط، والبصائر.

وراحت جمعية العلماء المسلمين تسعى سعيا حثيثا نحو النهوض بالمجتمع الجزائري في شتى الميادين التي أسستها على النهضة التربوية التعليمية بخلقها نظاما تربويا منافسا للنظام التربوي الفرنسي؛ إذ شجعت التعليم العربي الحر، ودعمت المدارس القرآنية، وفي سنة 1954 أعلنت الجمعية قائمة بمؤسساتها التعليمية التي شملت: "مائة وأربعة وعشرين (124) مدرسة، ومائتين وأربعة وسبعين (274) معلما، وأربعين ألف (40.000) متعلم، وما يقارب الثلاثمائة (300) مدرسة قرآنية"[17]، كانت تنشط جميعها رغم مضايقات المستعمر، ما يوحي بانتشار التعليم عشية الثورة التحريرية، الذي كان أساسا لجيل ثوري واع بذل الغالي والنفيس لنيل الاستقلال.



كما حاولت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين –قدر المستطاع– صد السياسات التعسفية التي تنتهجها سلطة الاحتلال من خلال المطالب الآتية[18]:

- إلغاء جميع الإجراءات والتدابير القمعية إدارية كانت أم وزارية؛
- إصدار نص يضمن حرية تعليم اللغة العربية في المدارس ويكون ذلك على النحو التالي:

➢ يحق لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ولسائر الجمعيات الدينية إنشاء المدارس حيث يكون لهم ذلك ممكنا ودون استرخاص الإدارة، يكفي فقط أن يقدم طلبا يكون متضمنا اسم المدرسة وعنوانها؛

➢ يتضمن النص المطلوب إصداره ضمانات تكفل للمدارس الحرة حماية من تعسف الإدارة، وللمعلمين الأحرار عدم الملاحقة والمتابعات القضائية الظالمة؛

➢ لا يكون للإدارة الاستعمارية حق لا في اختيار المعلمين، ولا في وضع برامج التعليم أو تعيين الكتاب المدرسي؛

➢ تخضع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وسائر الجمعيات الثقافية الأخرى إلى ما تتطلبه الرقابة الصحية وتقبل في جميع مدارسها التفتيش الرسمي الذي يقوم به موظفو التعليم العمومي.

وبالرغم من كل المساعي والسياسات الفرنسية على كافة الأصعدة السياسية الأيديولوجية، العسكرية التعليمية، وحتى سياسات التبشير المسيحي، وكلها سياسات

ذكية مخطط لها قامت على "الجندي، المعلم، الطبيب، والراهب، هي هيكل حيـوانـي يمشي على أربع، وقد قضى الاستعمار على ملايين البشر فرمى مواهبهم بالتعطيـل وعقولهم بالخمود، وأذهانهم بالركود، وأفكارهم بالعقم"[19] والتي رمت كلهـا لطمـس الهوية الجزائرية انطلاقا من تهجين اللغة العربية والتقليل من قيمتهـا سـواء علـى صعيد استعمالها أم تعليمها في المدارس والمساجد بغية الحد من تمسك الجزائـريين بها وجعلها – بمرور الوقت– طي النسيان، إلا أن هـذه المسـاعي والجهـود قـد اصطدمت بصلابة العلاقة والرباط بين اللغة العربية والشعب الجزائري في مواجهـة الاستعمار الغاشم؛ وهذا المستشرق الفرنسي جاك بيرك* يصف صمود اللغة العربيـة إبان الاحتلال الظالم في قوله: "إن أقوى القوى التي قاومت الاستعمار الفرنسي فـي المغرب هي اللغة العربية، بل اللغة العربية الكلاسيكية الفصحى بالذات، فهـي التـي حالت دون ذوبان المغرب في فرنسا، فالكلاسيكية العربية هي التي بلورت الأصـالة الجزائرية"[20]، واستمر الحال على ما هو عليه وأحيانا كان يفتر ليخبو مـرة أخـرى دون أن تيأس جمعية العلماء المسلمين مستمدة قوتها من مساندة الشـعب الجزائـري الأبي حتى أذن الله أن تنال الجزائر حريتها وتحتفظ بهويتها رغم ما طالها من عبـث فتنتصر بإسلامها وبلغتها العربية.

خاتمة: سعت المنشآت الدينية خلال العهد الاستعماري (1830–1962) لخدمـة القرآن الكريم واللغة العربية وكذلك بذلت جهدها لمقاومة الكيـان الثقـافي الفرنسـي بمختلف وجوهه رغم تنوع السياسات والحيل، وقد حافظت بالرغم من طـول مـدة الزمن (أزيد من قرن تحت وطأة الاحتلال الفرنسي) على ثوابت الأمـة الجزائريـة وهويتها فصدق عبد الحميد بن باديس عندما قال:

شـعب الجزائـر مسـلم — وإلـى العروبـة ينتسـب

مـن قـال حـاد عـن أصـله — أو قـال مـات فقـد كـذب

أو رام إدماجـا لـه — رام المحـال مـن الطلـب

الاحالات:

---

[1]– محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت (لبنان)، ط01، 1997، ص 46.

[2]– خولة طالب الإبراهيمي، الجزائريون والمسألة اللغوية "عناصر من أجل مقاربة اجتماعية لغوية للمجتمع الجزائري"، تر: محمد يحياتن، دار الحكمة، الجزائر، (طبعة خاصة)، 2007، ص 28.

[3]– ينظر: إبراهيم بوترعة، التربية والتعليم بين الأمس واليوم، خصائص التعليم في الجزائر وتطور الفكر التربوي، ص 209.

[*]– المقصود بـ "**المنشآت الدينية**" في هذا البحث هي المؤسسات الدينية الإسلامية التي كانت تسعى لزرع ثوابت الدين الإسلامي السمح وتعليم اللغة العربية ومحاربة الأمية والجهل والبدع، ما يعني أن "المنشآت الدينية" في هذا المقام نقصد بها المساجد والجوامع والزوايا والكتاتيب، وفي حال أجمعنا على أن الكتاتيب تخصص لتحفيظ القرآن، فإن "الزوايا" و"المساجد" و"الجوامع" قد يحدث بينها تداخل فلا يعرف الواحد منا الفرق بينها لتشابه أدوارها في تلك الفترة، "ذلك أن بعض الجوامع والمساجد كانت تابعة لزوايا معينة، كما أن بعض الزوايا كانت تابعة لجوامع ومساجد معينة، والتداخل ليس في الإسم فقط، بل في الوظيفة أحيانا؛ فالجوامع والمساجد كانت للعبادة والتعليم كما ان الزوايا كذلك أحيانا، ولكن هذه في الغالب كانت رباطا أو ملجأ أو مسكنا للطلبة والغرباء ومركزا لتلقين الأذكار واستقبال المريدين، كما أن حجم هذه المؤسسات له دخل في تحديد وظائفها؛ فالجامع اصطلاحا أكبر حجما من المسجد، فهو الذي تؤدى فيه صلاة الجامعة أو الجمعة والعيدين وهو ما يلاحظ في أغلب المدن الجزائرية...": أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، عالم المعرفة، الجزائر، طبعة خاصة 2011، ج01، ص 245، 246.

[4]– ينظر: قاصري محمد السعيد، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر (1962– 1830)، دار الإرشاد للنشر والتوزيع، الجزائر، طبعة خاصة في إطار« الجزائر عاصمة الثقافة العربية»، 2007، ص 289.

[*]– يطلق اسم **الزاوية** على " مدفن عائلة مرابطين أي عائلة تملك الأصالة الدينية الوراثية، وقد انعكس الأصل الروحي لهذه المؤسسة على جميع نشاطاتها فيما بعد، فقد كان الناس يأتون إليها من أجل الصلاة، ثم بعد ذلك من أجل التعلم والعلاج، وكانت تعليماتها السياسية تحظى بثقة

كبيرة": ايفون تيران، المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة، المدارس والممارسات الطبية والدين (1830–1880)، تر: محمد عبد الكريم أوزغلة، دار القصبة للنشر، الجزائر، (د ط) 2007، ص 132.

[5]– ايفون تيران، المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة، المدارس والممارسات الطبية والدين (1830–1880)، ص 14.

[6]– ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، عالم المعرفة، الجزائر، طبعة خاصة 2011، ج03، ص 21.

[7]– ينظر: محمد العربي الزبيري، تاريخ الجزائر المعاصر –دراسة، وزارة الثقافة، الجزائر 2007، ج01، ص 50، 51.

[8]– قاصري محمد السعيد، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر (1962–1830)، ص 293.

[9]– ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج03، ص 26، 27.

[10]– ايفون تيران، المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة، المدارس والممارسات الطبية والدين (1830–1880)، ص 47.

[11]– ايفون تيران، المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة، المدارس والممارسات الطبية والدين (1830–1880)، ص 19.

[12]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، عالم المعرفة، الجزائر، طبعة خاصة 2011 ج06، ص 211.

[13]– إبراهيم بوترعة، التربية والتعليم بين الأمس واليوم، خصائص التعليم في الجزائر وتطور الفكر التربوي، ص 233.

[14]– ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج03، ص 37.

[15]– محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 48.

[16]– ينظر: إبراهيم بوترعة، التربية والتعليم بين الأمس واليوم، خصائص التعليم في الجزائر وتطور الفكر التربوي، ص 276، 277.

[17]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، عالم المعرفة، الجزائر، طبعة خاصة 2011 ج10، ص 25.

[18]– محمد العربي الزبيري، تاريخ الجزائر المعاصر –دراسة، ص 51.

[19]– ينظر: محمد العربي الزبيري، تاريخ الجزائر المعاصر –دراسة، ص 207، نقلا عن جريدة البصائر العدد 103 الصادر سنة 1950.

[*]– **جاك بيرك** Jacques Berques (1910– 1995م) ولد المفكر الفرنسي المستشرق بولاية تيارت بالجزائر، زاول دراسته الثانوية بالعاصمة الجزائرية، لينتقل إلى باريس لاستكمال دراسته العليا، اهتم بالأدب العربي من خلال دراسة وترجمة المعلقات العشر وأعمال طه حسين ومحاولة الترجمة الكاملة للقرآن الكريم، وعرف بمواقفه السياسية والأدبية والفكرية التي تبنّت الدفاع عن القضايا العربية، كما عرف بحبه وتعلقه بالجزائر. ينظر: سعد علي زاير، سماء تركي داخل، اتجاهات حديثة في تدريس اللغة العربية، الدار المنهجية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن ط01، 2015، ص 51.

[20]– سعد علي زاير، سماء تركي داخل، اتجاهات حديثة في تدريس اللغة العربية، ص51.

القرآن الكريم وحياة اللغة العربية
ـبين جهل الأبناء ومكائد الأعداء ـ

داه. محمد مباركي
جامعة العربي التبسي، تبسة

مقدمة: أبدأ مقدمتي هذه بسؤال يطرحه المشككون في مصداقية اللغة العربية ما علاقة اللغة العربية بالقرآن؟ ولِمَ تربطون دائما اللغة العربية بالقرآن؟ فكأن الأمر أصبح يحرجهم من منظور تاريخي وثقافي وعرفاني. ونقول على بركة الله إن علاقة اللغة العربية بالقرآن هي علاقة ما بمنبعه، ولا شك لدى ذي كل لبيب وحلم أن القرآن هو المنهج الذي تدفقت منه العربية ولاسيما فيما بعد العصر الجاهلي؛ فلقد جاء القرآن بلغة ميسرة ملكت كل الألسنة وما فتئت هذه اللغة أن تنتقي مفرداتها من ركام المفردات التي جرت على الأفواه قبل القرآن، وحفل بها معجم الشعر الجاهلي ونثره، لكن في غياب التدوين اندثر كثير من الأشعار التي تلاشت لقصور الرواية والرواة، وتشتت القبائل، وضعف الاتصال بينها، وما بقي فهو راقد في بطون المعاجم؛ فلولا القرآن الذي أحدث نهضة لغوية في توسيع مفردات العربية وتطورها وازدهارها ما بقي من العربية إلا القليل، ولتشرذمت إلى عدة لغات بعدد لهجاتها كما جرى للاتينية، ولو سلمنا بمقولة (أبي عمرو بن العلاء): "ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير"، لو وقفنا عند هذا الحد ما بقيت عربية ولكن الله بعث قرآنا بث روحا وإكسير حياة لهاته اللغة فحماها ورشحها أن تنتشر الإسلام وأن تعرب الأقطار فلولا القرآن الذي حفظ في الصدور ودون في السطور ما بقي من العربية إلا القليل.

فالعربية التي نتكلمها ونكتبها هي بلا أدنى شك نبت القرآن وفصيله، كما أن ما عرفته العربية من تطور في مجال العلوم والمعارف المختلفة التي ابتكرها العرب وراجت في الآفاق قد تخلق فيها بفضل القرآن الذي ذخرت آياته بالكثير من الألفاظ المحددة الدلالة والتي أعدت بمثابة المصطلحات العلمية؛ فالذين يحفظون القرآن الكريم يظفرون في الواقع بميزة تحصيل ثروة لغوية، هي أكثر ما تعرفه لغتنا المعاصرة وهي أضخم ثروة يكتنزها حافظ القرآن والعامل به من أكثر ثروة يكتنزها غيره ولو كان حاملا أعلى الشهادات وأغزر الثقافات، فلقد أجمع العلماء على أن عدد كلمات القرآن (77439) وهي أكبر معجم للغة العربية على الإطلاق التي نزل بها القرآن، فأين لغتنا العربية التي نتكلمها ونكتب بها وتؤلف بها من هذا العدد الضحم؟! أليس هذا هو السر في علاقة اللغة العربية بالقرآن؟! أليس القرآن –إذا– هو منة منها الله على هاته اللغة لتمضي قدما إلى الأمام، وينزل القرآن موصوفا بها تكريما وإجلالا لها في قوله تعالى:﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ **الزمر28**، " وفي قوله تعالى:﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ **الشعراء195**. وفي قوله تعالى ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ **النحل**103، وفي قوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ **يوسف**2، وفي قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ **طه113**. وفي قوله تعالى ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾**فصلت3**. وفي قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ ﴾**الشورى7**. وفي قوله تعالى﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ **الزخرف3**. وفي قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾**الرعد 37**. وفي قوله تعالى﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ﴾ **الأحقاف12**.

أبعد هذه الأدلة والشواهد يمكن لأصحاب الأهواء والتحايل أن يفصلوا بين القرآن والعربية؟! والله قرر ذلك في عشر آيات من القرآن الكريم، إلا من أعمته

الضلالة واشترى الضلالة بالهدى، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

فمال القرآن الكريم مصطلحا وشرعا؟ وما اللغة العربية على امتداد أكثر من أربعة عشر قرنا؟

المبحث الأول: حد مصطلح "القرآن" بين المفاهيم المختلفة.

القرآن الكريم لغة: لقد ذهب العلماء في تعريف لفظ "قرآن" مذاهب شتى؛ فهو عند بعضهم غير مهموز "قُران" (تلفظه العامة هكذا تسهيلا) وذهب إلى هذا الرأي الإمام (الأشعري) والفراء أحد أئمة النحو المشهورين في الكوفة صاحب كتاب "معاني القرآن" والإمام (الشافعي)، وعند بعضهم فهو مهموز "قرآن" وذهب إلى هذا المذهب جماعة منهم الإمام (الزجاج) صاحب كتاب "معاني القرآن" و(اللحياني) وعليه جاء تعريف القرآن على خمسة أقوال:

القول الأول: وهو قول (اللحياني): كلمة القرآن مشتقة من الفعل " قرأ" بمعنى تلا، فكلمة القرآن مصدر للفعل "قرأ" المرادف للقراءة؛ أي قرأ قراءة، بمعنى تلا تلاوة، فالقرآن والقراءة مصدران بمعنى واحد وهو التلاوة واسم المفعول مقروء وذلك من باب جواز إطلاق المصدر على اسم المفعول، وهو على وزن "فُعْلَان" كالبرهان والغفران، واستدل القائلون بهذا الرأي بقول الله تعالى ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ **القيامة الآية16-17-18؛ 19.**

القول الثاني: وهو قول الإمام (الزجاج) إذ يقول: إن كلمة "القرآن" مشتقة من الفعل قرأ بمعنى جمع، تقول العرب: "قرأت الماء في الحوض أي جمعته"؛ فكلمة القرآن مصدر للفعل "قرأ" بمعنى جمع، فالقرآن والقرأ بمعنى الجمع فهما مصدران للفعل قرأ والقرآن هو جمع الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيب وقال بهذا (الإمام أبو عبيدة)، وقيل لأنه جمع كل ما جاء في الرسالات السابقة

وذهب إلى هذا الرأي الإمام الراغب، وقيل لأنه جمع العلوم كلها بمعانيها ونـــزولا عند قوله تعالى: "**مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِنْ شَيءْ**" **الأنعام38.** فالقرآن هنـــا مصـــدر على وزن فُعلان، بمعنى الجمع وليس التلاوة، وبهذين القولين يكون أصل القـــرآن مصدرا مهموزا لأنه مشتق من الفعل " قرأ"؛

القول الثالث: وهو رأي الإمام (الأشعري) مؤسس مـــذهب الأشـــاعرة، حيـــث يقول: "كلمة القرآن مشتقة من الفعل "قرن" بمعنى ضم، فكلمة القرآن مصدر الفعل "قرن" يرادف المصدر "قرنا" أي ضما؛ فالقرآن والقرن مصدران بمعنى واحـــد أي ضم الشيء إلى الشيء، ويستدل في هذا الرأي على أن السور والآيات تقرن إلـــى بعضها بعضا أي تضم إلى بعضها بعضا؛

القول الرابع: وذهب إليه الإمام (الفراء) وغيره من العلماء؛ إذ يقولون إن كلمة القرآن مشتقة من الفعل "قرن" ولكن بمعنى دل أو أشار إلى، وهو يرادف المصـــدر قرينة، وجمعها قرائن، وقد علل العلماء قولهم هذا بما يلي: "أن آيات القرآن قرائن على بعضها البعض؛ أي دالة على بعضها البعض ومشيرة إلى بعضها البعض؛

القول الخامس: وهو رأي الإمام (الشافعي) وغيره من العلماء، فهم يرون بـــأن كلمة القرآن أصل اشتقاقي فهي اسم خاص بكلام الله تعالى فوقع القـــول علـــى أن كلمة القرآن قد وقع الارتجال فيها بإطلاقها على كلام الله النازل مثل كلمة التـــوراة والإنجيل والزبور؛ فالقرآن كلمة نزل بها القرآن هكذا (مصطلح ربـــاني) وفهمهـــا العرب دون أن يجدوا لها أصلا اشتقاقيا. فالقرآن عند (الشافعي) لم يؤخذ من "قرأ" ولو أخذ من "قرأ" لكان كل ما قرئ قرآنا، ولكنه اسم للقرآن كالتوراة والإنجيل، ثم يعلل ما ذهب إليه بقوله بأن العرب في الجاهلية حين عرفوا لفظ القرآن من الفعـــل "قرأ" استخدموه بمعنى غير معنى التلاوة، فكانوا يقولون: هذه الناقة لم تقرأ ســـلًى بمعنى لم تحمل منقوحا قط، ولم تلد ولدا، ومنه قول الشاعر (عمرو بن كلثوم):

ذراعـــي عيطـــل أدمـــاء بكـــر هجـــان اللـــون لـــم تقـــرأ جنينـــا[1]

ويرجح (صبحي الصالح) قول (اللحياني) وهو أقوى الآراء وأرجحها، فـالقرآن في اللغة مصدر مرادف للقراءة. ويرى بعض المفسرين أن منه أيضا قوله تعالى: "**الرَّحْمَنْ عَلَّمَ القُرْآنْ**" أي علم القراءة، وقال بأن أصل هذه الكلمة "آرامي" أخـذها العرب وتداولوها نظرا لتأثير اللغات الآرامية والحبشية والفارسـية فـي العربيـة لأنها كانت لغات الأقوام المتمدينة المجاورة للعرب في القرون السابقة للهجرة، وأن هذه اللغات كانت منتشرة بكل بلاد فلسطين وسوريا وبين النهرين وبعض العـراق كما أن لليهود أثرا في العربية باعتبار أن لغتهم الدينية كانت الآرامية[2].

أما القرآن اصطلاحا: فهو كلام الله المعجز، المنزل على سـيدنا محمـد –ﷺ– المكتوب في المصاحف والمنقول عنه بالتواتر والمتعبد بتلاوته وعرفـه آخـرون بقولهم: هو كلام الله العربي الموحى به، المنزل على رسـول الله –ﷺ– المنقـول بالتواتر المتعبد بتلاوته المعجز المتحدى به وبأقصر سورة منه[3].

فتعريف القرآن على هذا الوجه متفق عليه بين الأصـوليين الفقهـاء وعلمـاء العربية ويشاركهم فيه المتكلمون أيضا؛ (فالكلام) جنس شامل لكل كلام، فإضـافته إلى (الله) تميزه عن كلام من سواه من الإنس والجن والملائكة، و(المنزّل) مخـرج للكلام الإلهي الذي استأثر الله به في نفسه، أو ألقاه إلى ملائكتـه ليعملـوا بـه لا لينزلوه على أحد من البشر؛ إذ ليس كل كلامه تعالى منزلا، بل الذي أنزل منه قليل من كثير، قال تعـالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ **الكهف109.**

وقوله تعالى ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ﴾ **لقمان27.** ويقيد المنزل (على محمد) لإخراج ما أنـزل علـى الأنبياء من قبله كالتوراة على موسى والإنجيل على عيسى والزبـور علـى داود، والصحف المنزلة على إبراهيم عليهم السلام جميعا. وخرج (بـالمنقول بـالتواتر) جميع ما سوى القرآن من منسوخ التلاوة والقراءات غير المتواترة سـواء أكانـت

مشهورة نحو قراءة (ابن مسعود) (متتابعات) عقب قوله تعالى "**فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامْ**"**المائدة89**، أم كانت أحادية كقراءة ابن مسعود أيضا لفظ (متتابعات) عقب قوله تعالى: "**وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَر**"**البقرة185**. فإن شيئا من هذا لا يسمى قرآنا ولا يؤخذ بحكمه وقيد (المتعبد بتلاوته) أي المأمور بقراءته في الصلاة وغيرها على وجه العبادة، لإخراج ما نؤمر بتلاوته من ذلك كالقراءات المنقولة بطريق الآحاد وكالأحاديث القدسية المسند إلى الله عز وجل إن قلنا إنها منزلة من عند الله بألفاظها[4].

المبحث الثاني: تاريخ القرآن الكريم واللغة العربية: إن أخطر أبعاد تاريخ اللغة العربية هو ما عبر عنه الشيخ البشير (الإبراهيمي) "لغة ممتدة الجذور في الماضي، مشتدة الأواصر في الحاضر، وطويلة الأفنان في المستقبل، ذلك هو البعد الزمني للقرآن الذي وجد فيه المرجفون والمبطلون والمشككون من الأدعياء الخائضين في آيات الله، وفي تاريخ القرآن وفي موضوعات الفكر الإسلامي، وفي الفكر الإسلامي نفسه، يحرصون -كلما حوصروا- على تأكيد أنهم مناصرون للإسلام، وأنهم أعمق إيمانا من دعاته، وأن العلمانية هي جوهر الدين، رغم أن حقائق الثقافة المعاصرة تؤكد أنهم دعاة إلحاد وأن العلمانية هي فقط وجه يتسترون به عن مروقهم وخروجهم عن العقيدة السليمة، يتظاهرون بمصطلح " العلمانية" خداعا وكذبا ونفاقا، لأنه مصطلح أقل خطرا من الإلحاد"[5].

إن أخطر أبعاد هذا التاريخ هو البعد النفسي للعناصر المختلفة التي تواردت على مسرحه؛ فالمؤمنون الذين حملوا راية العقيدة دفاعا عن دين الله، والملحدون الذين أنكروا عليهم حقهم في تحقيق غايتهم، والمنافقون الذين لعبوا على الحبلين فكانوا أضر على الدين من الملحدين...، وتقلب الزمن وتموجه بكثير من المبادئ والفلسفات، ثم العصر الحديث وما قذف فيه الاستدمار من تيارات يتربع على قمتها الاستشراق وأتباعه، وبأشكاله المختلفة مظهرا المتوافقة حقيقة وهدفا للقضاء على كلّ ما يمت بالإسلام صلة ومنهجا وعقيدة وسلوكا، ظلمات بعضها فوق بعض ترد

متتالية ومتناسقة ومنسجمة لتؤتي كثيرا من الكتاب الدارسين منها؛ ذلك هو شأن تاريخ القرآن، الذي أحجم عنه كثير من الكتاب الدارسين وأغمضوا أعينهم عن أسئلة كثيرة تثيرها دراسات الاستشراق، وآفة المستشرقين أنهم يسوقون مجرد الاحتمالات العقلية مساق الحقائق المُسلَّمة، ويسوقون الماضي، الذي لم يكن يوما جزءا من تاريخهم، بمقياس حاضرهم ويغضون الطرف عن الطابع الغيبي (الميتافيزيقي)، الذي نشأت في ظله أحداث التاريخ القرآني على عهد النبوة، فتضاربت آراؤهم وشذت أفكارهم عن طبيعة الأمور، فلو أن هؤلاء المستشرقين قيدوا محاولاتهم بمناهج النقد الإسلامية في انتقاء الأخبار والرواة لما خالفت أحكامهم أحكام علماء الإسلام، ولكتبوا القرآن تاريخا أنموذجا فيه الكثير من الصواب، والقليل من الزلل ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ **الصف 5**.[6]

هذا من حيث كون المشكلة دائرة جول تاريخ القرآن، فأما من الوجهة الفنية فهي مشكلة تاريخ اللغة العربية الفصحى، وللقيام بدراسة لغوية في القراءات الشاذة مثلا ينبغي أن تتوفر الأمثلة والشواهد والشوارد، مما ينتمي إلى اللغة الفصحى القرشية، وما ينتمي إلى اللهجات (اللغات) الأخرى المقاربة لها في الفصاحة فبالأمثلة الكثيرة الواردة يتضح الحال وينجلي الغبار عن كل المسائل المخفية أو الشائكة، فكثرة الأمثلة تمنح الباحث أو الدارس أو القارئ مزيدا من الطمأنينة في التفكير ومعرفة الحقيقة، كما يتسنى للبحث اللغوي الانتعاش، والقراءات هي صنو النحو، وهي أداء إلا أنها رواية، لكن توالي القرون عليها قد أحالها شيئا جامدا والبحث اللغوي الآن يتجه إلى المعامل والمخابر، فعزل جانبا كبيرا منها بتهمة الشذوذ، وهي محتواة لقضايا صوتية ولغوية ونحوية كثيرة، فهذه القراءات الشاذة وحسب رأي (شاهين) " هي سجل لكيفية النطق على مر العصور؛ فهو سجل للظواهر النطقية الحية، كما أنها محافظة على المأثور من طبائع اللسان العربي في الفصحى وفي لهجاتها[7] المستمرة إلى اليوم والمبثوثة في اللهجات المعاصرة، فمنها

ما هو باق محافظ على فصاحته، ومنه ما سرت عليه اللحون فتغيرت أصواته واضطربت أبنيته، ومنه ما تلاشى نهائيا، وبقي قابعا في بطون المعاجم، أو بازدحام ألفاظ الحضارة والتكنولوجيا، فلم تعد الحاجة إليه ملحة.

غير أن الدارسين للعربية اقتصروا على العمل المعجمي في حصر هذه الموارد وما اتصل بها من فوائد أدبية، ولم يتجاوزوا هنا إلى الإفادة من دلالة هذه المواد في الكشف عن صفحات مشرقة من تاريخ العربية، فأعظم حدث في تاريخ العربية هو **القرآن الكريم**؛ ذلك لأن هذه اللغة الشريفة قد أمدت العربية بنمط خاص موحد صار هو العربية، بحيث انحسرت عن هذه اللغة أنماط كثيرة، فانصرفت إلى الغريب والشاذ والنادر، وهذا يعني أن العربية في حقبة ما قبل الإسلام، وفي العصر الإسلامي، وقد تتجاوز إلى شيء غير قليل من عصر بني أمية كانت لغات عربية وليس بمعنى ما يدعى اليوم ب (اللهجات)[8]، ففرق شاسع بين لهجاتنا اليوم ولغاتهم ولو في بعض الاختلاف بين القبائل لأنها كلها حجة والقرآن نزل بها بصريح آياته.

ولعل الكثير –اليوم– يتساءل عن وجه الحاجة إلى دراسة القرآن في عصر طغت فيه التكنولوجيا وتقدمت العلوم أشواطا قياسية، والجواب أن لهذا الكتاب أهمية بالغة على البشرية قاطبة، وهو أول كتاب ظهر في تاريخ اللغة العربية وسلم من التحريف والتصحيف، فكان الراوي الوفي لحياة العقلية والفكرية والأدبية التي عاشها العرب من قبل وأصبح المنهج القويم لحياة البشرية قاطبة فيما بعد، فلم يستقم عود لغة بشرية على منهج سليم موحد مثل عود اللغة العربية بسر هذا الكتاب وتأثيره فضمن للغة العربية البقاء والحفظ؛ حيث كانت العربية قبل عصر القرآن أمشاجا من اللهجات المختلفة المتباعدة، وكلما امتد الزمن ازدادت هذه اللهجات نكارة وبعدا عن بعضها، ولم يكن هذا الاختلاف هينا يقتصر فقط على الأصوات (ترقيق، تفخيم، إمالة... إلخ) بل ازداد واشتد إلى الاختلاف في تركيب الكلمات ذاتها فقضاعة مثلا تقلب الياء جيما ـ وتسمى عجعجة وحمير كانت تنطق

ب "أم" بدل "أل" وتسمى طمطمانية، وهذيل كانت تقلب "الحـاء" في كثير من الظروف اللغوية "عينا" وطيء كانت تستعمل "ذو" اسم موصول بدل "الذي" وهكذا كانت كل قبيلة تختلف في النطق عن الأخرى بوجوه كثيرة حتى باعد ذلك بين ألسنة العرب وأوشك أن يحول اللغة الواحدة إلى لغات عدة متجافية مثلما حدث للاتينية التي تفككت إلى لهجات متباعدة تحولت بدورها إلى لغات لا يتفاهم أهلها ولا يتقارب أصلها، ولقد بلغ في تباعد هذه اللهجات العربية أن صار الرسول – صلى الله عليه وسلم– يترجم لأصحابه ما تقوله الوفود القادمة من أماكن مختلفة ولقد أوتي جوامع الكلم.

فلما نزل القرآن وتسامعت به العرب وائتلفت عليه قلوبهم، أخذت هذه اللهجات بالتقارب وبدأت تضمحل مظاهر الخلاف وتذوب حتى تلاقت هذه اللهجات كلها في لهجة عربية واحدة هي اللهجة القرشية التي نزل بها القرآن؛ فكان ذلك سر هذا السريان السحري في النفوس والقلوب والعقول، فأثر القرآن بذلك في شعر العرب وفي نثرهم، ولا تكاد بلاغتهم تنحط على معنى واضح متفق عليه وإنما بلاغة كل جماعة أو قبيلة ما تستسيغه وتتذوقه، ولذلك كانت المنافسات البلاغية تقوم فيما بينهم وتشتد ثم تهدأ وتتبدد، فكان القرآن إيذانا بميلاد مثلهم الأعلى وصيغتهم المثلى ونموذجهم الذي يُحتذى.[9]

المبحث الثالث: العلاقة بين القرآن واللغة العربية: بلغت اللغة العربية درجة راقية فأصبحت هي لغة الوحي والقرآن المنزل بخاتم الرسالات على خاتم أنبياء الله محمد –صلى الله عليه وسلم– وبلوغ العربية هذه الدرجة من الكمال حدث جليل تميزت به عربية القرآن في ألسنة قريش على أخواتها في الفصيلة السامية، فبقي القرآن بكمال لسانه وآيات بيانه في حين أصاب الكتب التي سبقته التحريف والتبديل.

لقد شاء الله أن يبقى القرآن الكريم محفوظا على مر الزمن بلسان عربي مبين هداية لكل عصر ورحمة للعالمين، فكان القرآن معجزة اللغة والفكر معا لكل

اللغات، وكل البشر، ولسوف يظل الآية البيانية الصوتية والكونية، والعقليـة بكمـه الوافر(114 سورة) و(6236) آية، و(77934) كلمة، ثم إن هذا الكـم القرآنـي قـد ارتبط بالعربية ارتباطا وثيقا يتجلى به كماله اللغـوي، علـى حـين أن التـوراة والإنجيل كانا بلهجتين من لهجات الفصيلة السامية هما العبرانية والآراميـة، وقـد يُطرح السؤال التالي: هل القرآن الكريم هو الذي يحفظ اللغة العربية أو أن اللغـة العربية هي التي تحفظ القرآن؟ إن هذا السؤال ينفتح علـى حقـائق كثيـرة مـن الضروري الإلمام بها.

فالجزيرة العربية كانت مهدا للناطقين بهذه اللغة (العربية)، وكانت محاطة مـن كل جانب بوجود لغوي هائل من الفرس ومن الروم ومن الأحباش ومـن الأنبـاط والعرب في ذلك الحين كان وجودهم قبائليا باستثناء حاضرتي مكة والمدينة، وكان العرب أمة مفتنة في بيانها ظاهر جلي في أشعارها، وكان أكثـر اعتمادهـا فـي الحفاظ على نتاج العقول وهو استخدام الحافظة فـي روايـة القصـص والأمثـال والأشعار، ولقد كان أفضل ما يميز هذا الإنسان العربي في جزيرته أنه كان إنسانا فطريا لم تستهلكه أساطير موضوعه ولا حضارات قاهرة، لقد كان إنسـانا يملـك إرادته وبقية دين إبراهيم، ولغته الكاملة وبيانه الناقد، وقابلياته التـي زوده الله بهـا ليزكيه بالكتاب، وليكمل له الدين، وليتم عليه النعمة بالإسلام.[10]

لقد كانت اللغة العربية الشغل الشاغل للعربي فهو يعكف عليها في مواسم الحج متفننا في تصريف القول بهاـ وانتقاء ألفاظها، وصقل أشعارها، وحفظ نصوصـها فصار بها عربيا مبينا، ولقد ضمنت هذه الظروف للغة العربية نقاء من الشـوائب وبعدا عن التأثير اللغوي الأجنبي؛ فلم يتسلل إليها إلا الألفاظ المعبرة عن منتجـات الحضارة كالإستبرق والسندس والزنجبيل والأساور والقيراط والفردوس وغيرهـا من الألفاظ التي وفدت (وتصرف فيها العربي بلطف الصيغة وحسن التأويل وقاسها على الميزان الصرفي لذلك غدت في القرآن وفي اللغة العربيـة عربيـة ناصـعة صوتيا وصرفيا وتركيبا).

هكذا سكن القرآن الكريم واللغة العربية كيان العربي في صحوه وحلمه، وفي منامه ويقظته لأن عكوف العربي على إبداع بيانه بالعربية بلغ درجة تقرب من التقديس للغة، وأتاح لها ذلك فرصة نضج فني متقدم يتميز بالأصالة والنقاء فاستحقت أن تكون وعاء لوحي الله وكلامه الحكيم، ومن ثم كانت المعجزة القرآنية التي تتنزل بها لتعبر عن أقصى وأحب ما يبلغه إدراكهم، وما تتدبره عقولهم فالألفاظ واحدة والمعاني واحدة، والأدوات واحدة، وأشكال التصريف واحدة، ولكن تشكيل الألفاظ والمعاني والتراكيب والإيقاع في الوحي الإلهي هو الآية العظمى فوق كل منال[11]. لذلك قال (الرافعي) "أوجد العرب اللغات مفردات فانية، وأوجدها القرآن تراكيب خالدة[12]

ولعل خير ما يُساق في هذا الصدد عن علاقة القرآن بالعربية ما ورد في كتاب (تحت راية القرآن) للمغفور له مصطفى صادق (الرافعي) حيث قال: "والقرآن الكريم ليس كتابا يجمع بين دفتيه ما يجمعه كتاب أو كتب فحسب، إذ لو كان هذا أكبر أمره لاستبان فيه مساغ للتحريف والتبديل من غال ومبطل، ولكانت عربيته الصريحة الخالصة عذرا للعوام والمستعجمين في إحالته إلى أوضاعهم.. إلى أن قال "إنما القرآن جنسية لغوية تجمع أطراف النسبة إلى العربية، فلا يزال أهله مستعربين به، متميزين بهذه الجنسية حقيقة أو حكما..، ولولا هذه العربية التي حفظها القرآن على الناس وردهم إليها وأحبها عليهم لما أطرد التاريخ الإسلامي ولتراخت به الأيام إلى ما شاء الله، ولما تماسكت أجزاء هذه الأمة، ولا استقلت بها الوحدة الإسلامية..، فلا تتبين من آثارهم في أنفسهم بعد ذلك إلا كما يثبت من طرائق الماء إذا انساب الجدول في المحيط"[13].

ويعلق (الرافعي) على حديثه هذا بأن معناه يؤدي بنا إلى تصور تأثير القرآن في هذه الأمة العربية، حين ألف الله به بين قلوب أبنائها، وهو يذهب عنها عيبة الجاهلية وتعظمها بالآباء، ثم هو بمحو ثارتها القبلية ويخلصها من الشرك ليحييها بالإيمان (لا بالعرقية ولا بالعصبية المنتنة)، وليزكيها ويطهرها بالكتاب والحكمة

وقد اجتباها الله لذلك، وأعدها لسانا وخلقا وقابلية.. فالقرآن الكريم هو الذي يحفظ اللغة العربيةـ وليست اللغة العربية هي التي تحفظ القرآن. ولقد سئل أحد الباحثين في جامعة أكسفورد ببريطانيا عن مستقبل اللغات فرد قائلا: لن تثبت في سنة 2050 إلا ثلاث لغات: الإنجليزية، الصينية، والعربية"، فالقرآن حافظها وناصرها فلا يمكن أن تتحقق نهضة جديدة في هذا الوطن العربي إلا على أساس العودة إلى لغة القرآن لفظا ومعنى وتلاوة وتدبرا ونصا وتطبيقا. خابت وخسرت أمة تنهض بلغة غيرها –هذا إذا نهضت– وتفتخر بلسان غير لسانها، وتتنكر لغة حباها الله واجتباها ورشحها لتحمل لواء الإسلام ويتلا بها القرآن آناء الليل وأطراف النهار خابت وانتكست وكبت، فما نهضت وإنما رضيت بالارتكاس؛ مما فتح المجال واسعا للنيل من القرآن الكريم والحط من اللغة العربية نتيجة جهل الأبناء وكيد الأعداء.

المبحث الرابع: موقف المستشرقين والمستغربين من نصوص القرآن الكريم.

هذا الموقف له جذور تاريخية عميقة؛ فمنذ منَّ الله على البشرية بهذا الكتاب المبين "**الَّذِي لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ**"**فصلت42**. وخصوم هذا الكتاب وأعداؤه يكيدون له (نصوصا وأحكاما وتشريعا وعقيدة ولغة..) ويفترون على الله الكذب يدرون أو لا يدرون، حسدا من عند أنفسهم، فسخروا أفكارهم وأقلامهم وتعالت أصواتهم لتعلو عن كل صوت قرآني وكشفوا من أبحاثهم واستعانوا ببعض صفحات التاريخ المكتسبة، ويعود سر ذلك إلى ما يلي:

1- أن القرآن قدم حقائق تخالف ما جاء في التوراة والإنجيل خاصة ما تعلق بالتوحيد ونبوة عيسى عليه السلام؛

2- أن القرآن أنكر وأبطل فكرة شعب الله المختار، وعقيدة الأقانيم الثلاثة وألوهية عيسى وقتله وصلبه، ومسألة الخطيئة والفداء؛

3- أن القرآن اتهم الأحبار والرهبان بتحريف التوراة والإنجيل عن أصولها (وجعلوا نصوصها نصوصا بشرية تتفق وأهواءهم ومصالحهم الدنيوية)؛

4- أن القرآن صحح بعض الظواهر الفاسدة في المجتمعات الإنسانية كالرق والإقطاع والربا والزنا وقذف المحصنات وشرب الخمر والقمار..؛

5- أن القرآن (نظام حياة ومنهج سلام وأمن وحياة كريمة لكافة البشرية أعطى حلولا شافية كافية لمشاكل ومسائل عجزت اليهودية والمسيحية عن إبداء الرأي فيها مخافة الحرج وكشف الزيف والتحريف). تقول المستشرقة الإيطالية (لورافيشيا فاغليري): "لقد أزال الإسلام السرية التي أضفاها الآخرون على دراسة الكتب المقدسة"[14]؛

6- إعجاز القرآن في مبناه ومعناه، وفي أسلوبه وهديه لجميع الثقلين على امتداد الزمان والمكان.

انطلاقا من هذا شمر المستشرقون والمستغربون على اختلاف مللهم ونحلهم ومشاربهم الفكرية على محاربة القرآن ولغته العربية، وذلك لتحقيق أهداف كثيرة منها:

أ- الحيلولة دون تسرب مبادئ القرآن وأفكاره إلى بني جلدتهم فتفقد التوراة والإنجيل مصداقيتها ومشروعيتها (مثلما يظنون)؛

ب- التقليل من قيمة القرآن والتوهين من شأنه عند المسلمين حتى يتمكنوا من تنفيذ مخططاتهم الصليبية الغربية، والصهيونية العالمية، ولقد أشار (جلادسون) إلى هذه الحقيقة في قولته المشهورة: "مادام هذا القرآن موجودا فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولا تكون في أمان"[15]

ج- والتقليل من قيمة القرآن بأنه كتاب حوى مفردات العربية كلها ومثل لما نطقت به العرب على سجيتها، فالربط بين القرآن ولغته عملة ذات وجهين، لذلك فحفظ اللغة العربية مرهون بحفظ القرآن، فحياتها بحياته، فهي تنمو به وتزدهر. وعلى هذا الأساس هم مرعوبون من هذه اللغة المستميتة والتي لا تزال تعيش معنا، ولخمسة عشر قرنا على الأقل بكل ألفاظها وأبنيتها وتراكيبها وبكل بلاغتها وفصاحتها وبكل معانيها حية ترزق آخرها يفهم أولها، فهي مستديمة حية بين

ظهرانينا عكس اللغات الأخرى التي عرفت ميلادا ليس هو بالطويل، ولغات أخرى قد اندثرت وتلاشت، ولغات أخرى لا تزال شفهية ليس لها أبجدية تؤطرها، فأعداء العربية وخصومها من الداخل والخارج يعرفون ذلك جليا؛

إن من أبناء جلدة العربية من يخاف من استعمال اللغة العربية فيسيء إلى سمعته، وذلك بإبعاده عن ثقافة الغرب العلمية التي هي أساس مستواهم ومرجع أبحاثهم، وهناك توجه آخر أن العربية لا يمكن أن تحيا بلا استعمال، ولا تبقى رهينة بطون الكتب، والشيء المعروف عالميا أن الإنسان يستطيع أن يستوعب بلغته الأم أضعاف ما يستوعبه باللغة الأجنبية مهما كانت درجة إتقانه لهاته اللغة؛

د- وإذا رجعنا إلى الوراء فإن العرب -في جاهليتهم- كانوا يسعدون بلغتهم العربية ولم يرضوا بها بديلا، فبنوا بها قوميتهم وجعلوها عاملا من أقوى عوامل القوة في حياتهم؛ فلغتهم هي عامل وجودهم وحياتهم لذلك أبدعوا فيها فكانت بها أشعارهم التي ضاقت بها جزيرتهم، ووسيلة تواصلهم بين الشمال والجنوب ووسيلة نقل أخبارهم، لذلك عندما نزل القرآن لم يجدوا مشكلا كبيرا في فهم ألفاظه ومعانيه إلا نظرا لبعض الخصوصيات اللغوية (اللهجية عندنا اليوم)[16].

فمن هذا المنطلق فالعربية تمثل هوية العربي عبر التاريخ، فهي وحدها الكفيلة بترجمة القرآن لفظا ومعنى.

المبحث الخامس: ترجمة القرآن الكريم إلى لغات أخر: تحدث العلماء -ومنذ عهد طويل- عن ترجمة القرآن، وقد تباينت آراؤهم؛ فمنهم من يجيز ذلك شرعا ومنهم من لا يجيزه، وبقي الأمر مفتوحا بما يتمشى ومقتضيات العصر، فضرورة العصر واحتكاك المسلمين بغيرهم ودعوة الآخر تحتم عليه أن يفهم القرآن بلغته الخاصة. وفي هذا الصدد يطرح الدكتور رمضان (البوطي) -رحمه الله- ثلاثة أسئلة مهمة:

أولا: هل في المستطاع ترجمة القرآن إلى لغة أخرى؟

ثانيا: إذا كان ذلك مستطاعا فهل يجوز الإقدام على ترجمته شرعا؟

ثالثا: وإذا جازت شرعا فهل تقوم الترجمة مقام القرآن الأصلي، في التعبد بتلاوتها، وفي صحة الصلاة بها؟

والإجابة عن هذه الأسئلة –يقول (البوطي)– إنما يتعلق بلغة القرآن نفسها وأسلوبه، وخصائصه التعبيرية والبلاغية، هذا من جهة، وفيما يتعلق بموضوع الترجمة والفرق بينها وبين التفسير فكثيرا ما يقع اللبس والوهم بين الكلمتين على الباحث، وهما مختلفتان مبنى ومعنى، وإن وقع التوسع والتسامح فيهما عند إرادة المعنى اللغوي العام.

فأما الترجمة: فهي نقل الكلام من لغة إلى أخرى عن طريق التدرج من الكلمات الجزئية إلى الجمل والمعاني الكلية؛ أي نقل معنى كل كلمة على حدة، والتعبير عنها بكلمة مقابلة ثم تركيب مجموع الكلمات وتأليفها حسب المعروف في اللغة المترجم لها، ويسمى هذا الترجمة الحرفية.

أما التفسير: فهو نقل المعنى القريب أو البعيد المقصود من الألفاظ إلى لغة أخرى مختلفة، دون النظر إلى الألفاظ الجزئية التي تألف منها المعنى واتضح بها المقصود.

وانطلاقا من هذه الحيثيات فإن ترجمة القرآن إلى لغة أخرى يصبح مستحيلا وإذا وقع ذلك –وهو واقع لا محالة– فهو تشويه لمعاني القرآن، وتلبيس للمقصود بغيره وتمزيق لأحكامه وحججه[17].

إن القرآن يتبع منهجا فريدا في التعبير عن المعاني، منهج تجسيد المعاني وتصويرها أمام مخيلة القارئ، منهجا مطردا في كل نصوصه، فمنهج تعبيري كهذا يستعصى على الترجمة، فإن تم نقل معاني الكلمات كما هي فهي تؤلف معنى غير مقصود ولا صحيح إطلاقا[18].

إن الترجمة مهما تحرى أصحابها الدقة والإجادة، عاجزة عجزا كليا عن استيفاء المدلولات الكاملة لآي الذكر الحكيم، فضلا عن نقل ما في كتاب الله من الروعة الجمال، وما فيه من قوة التأثير في القلوب والنفوذ إلى العقول، فقد عمد

المترجمون من غير المسلمين إلى تشويه جمال القرآن وتقويض دعـــائم الإســـلام كما أراد آخرون أن يجعلوا من ترجماتهم مطية لبيان عقائدهم الشاذة، وآرائهم التي ينفردون بها معارضين مما كان عليه السلف الصالح، وما عليه جمهور المســـلمين من أهل السنة والجماعة. إن طبيعة الترجمة تأبى أن تكون أمينة ومستوفية، حيـــث إن كل لغة تمتاز في صياغة ألفاظها وتراكيبها النحوية التي تلبس الكلمات حللا في المعاني والأساليب البيانية مما لا يمكن نقله إلى لغة أخرى على الإطـــلاق، فكـــان الحل أن يُدعى كل من يريد فهم معاني القرآن إلى تعلم اللغة العربية التي خصـــها الله بالوحي الصادق حتى يفهم القرآن الكريم مباشرة، دون وسائط الترجمات.

ونقدم بعض الأمثلة من القرآن مترجمة إلى الإنجليزية:

قوله تعالى:﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ﴾ إبراهيم4.

And we sent who messenger but with language of his people, so that he might explain to then .[19]

1- مما يلاحظ أنه لا يوجد تناسب حتى في عدد الكلمات، فكلمات القرآن عددها (10) أما كلمات اللغة الإنجليزية فعددها (18).

2- نرى هنا أن الترجمة حرفية لا تفي بالمعنى المقصود.

ونسوق أمثلة أخرى من القرآن الكريم، يقول تعـــالى: ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴾الإسراء29.

ونحن نرى أن الألفاظ هنا ليس شيء منها يدل على المعنى المقصود بطريـــق الدلالة اللغوية الأصلية، وإنما هي تكشف عن المعنى بواسطة التصوير والتخييـــل والأداة المستعملة لذلك جملة من المجازات والتشـــبيهات والاســـتعارات المختلفـــة فكيف يمكن أن نترجم الآية ترجمة سليمة لا تفسد المعنى، ولا يخرج عملك فيهـــا من الترجمة إلى التفسير؟!..

ويقول تعالى: ﴿ نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ ﴾الواقعة73.

(فالمقوين) هنا تعني: الجائعين المقيمين في البيداء، المستمتعين، فكيف تتم ترجمة المقوين هنا لتعطي المعنى المقصود؟!.

ويقول تعالى: ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ الواقعة19. وقد تفي بهاتين الكلمتين جميع عيوب الخمرة من ذهاب بالعقل وإذهاب للمال. ونفاد للشراب، وتقزز من طعمه وحرقته، فكيف ستفي الترجمة بهذه المعاني كلها وتسلم من الخطل والاعوجاج؟!.[20]

يقول (ابن قتيبة) في بيان هذا المعنى: "... وبكل هذه المذاهب نزل القرآن ولذلك لا يقدر أحد من المترجمين على أن ينقله إلى شيء من الألسنة كما نقل الإنجيل من السريانية إلى الحبشية والرومية، وترجمت التوراة والزبور، وسائر كتب الله بالعربية، لأن العجم لم تتسع في المجاز اتساع العرب" ألا ترى أنك لو أردت أن تنقل قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ الأنفال58.

لم تستطع أن نأتي بهذه الألفاظ مؤدية عين المعنى الذي أودعته حتى تبسط مجموعها وتصل مقطوعها وتظهر مستورها، فتقول إن كان بينك وبين قوم هدنة وعهد فخفت منهم خيانة ونقضا، فاعلم أنك قد نقضت ما شرطت لهم، وأذنهم بالحرب، لتكون أنت وهم في العلم بالنقض على استواء.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ الكهف11.

فإذا أردنا أن ننقله بلفظه لم يفهمه المنقول إليه، فإن قلت أنمناهم سنين عددا لكنت مترجما للمعنى اللفظ، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ الفرقان73.

إن ترجمته بمثل لفظة "استغلق"، وإن قلت: لم يتغافلوا، أديت المعنى بلفظ آخر[21].

ويواصل (ابن قتيبة) قائلا[22]: "فإذا أدركت أن ترجمة القرآن غير ممكنة بمعناها الصحيح، علمت الجواب؛ ذلك أن الشيء الذي لا يستطاع إنجازه يعد باطلا من حيث وجوده، ويعد محرما من حيث ممارسته لما فيه من الفساد والإفساد" ومن ثم لا يصح التعبد بالمترجم له، ولا تصح الصلاة به، لأن الصفة القرآنية تزول وتضمحل، ويبقى الجانب اللفظي المقابل لمبنى دون المعنى المقصود، فلا ريب أن ينطوي عليه القرآن من دلالات تراكيبه وعباراته وجمله وآياته، فهو في الحقيقة نابع من دلالة كلماته ومفرداته، وقد أشبع المفسرون -قدامى ومحدثون- تراكيب القرآن وصوره بحثا وتحليلا، ودرسوا تشبيهاته واستعاراته وكناياته ومجازاته، كما درسوا الصور الجزئية والصور الكلية والمشاهد التصويرية التي تستحضر أهوال القيامة قصدا إلى بيان إعجاز القرآن"[23]. فلماذا -إذا- تقاعس المسلمون عن خدمة دينهم والذود عن لغة قرآنهم.

المبحث السادس: واجب الأمة نحو قرآنها ولغة قرآنها: يستمد المسلم بناء شخصيته من كتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، ويظهر ذلك في "معنى انتمائه إلى الإسلام".

إن كثيرا من الناس مسلمون بالهوية، أو مسلمون لأنهم ولدوا من أبوين مسلمين، وهؤلاء وأولئك لا يدركون في الحقيقة معنى انتمائهم للإسلام، ولا يعرفون مستلزمات هذا الانتماء، ولذلك فهم في واد والإسلام في واد؛ إن ما تجدر إليه الإشارة في هذا المقام أن كل الأحداث التي تجري في العالم الإسلامي بوجه عام وفي المنطقة العربية بوجه خاص، تؤكد حقيقة كبرى وهي أن الأمة تعيش فراغا قاتلا في شتى نواحي حياتها:

أولا: في عقيدتها:

1- إن أول شرط من شروط الانتماء إلى الإسلام والانتساب لهذا الدين أن تكون عقيدة المسلم سليمة صحيحة، متوافقة مع ما ورد في الكتاب والسنة، (فلا تشوبها

عقائد أخرى دخيلة ولا أفكار معوجة ولا فلسفات تأتي من هنا ومن هنــاك تكــدر صفوة العقيدة الصافية).

وأن الإيمان بالخالق -جل شأنه- لــم يخلــق هــذا الكــون عبثــا ولا سُــدى ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾المؤمنون 115.

وأنه ما خلق الجن والإنس إلا للعبادة، يأتمرون بأوامره وينتهون عمــا يخفــى عنــــه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ الذاريات56.

وأن التشريع هو حق لله وحده لا ينازعه فيه أحد، وأنه يمكن للعلماء المســلمين أن يجتهدوا في استنباط الأحكام في إطار مــا شــرعه الله﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ الشورى10.

وأن العبادة لله وحده لا شريك له استجابة لدعوة الله علــى مــدار الرســالات والرســــــل: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ **النحــــل36**. ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾آل عمران85.

أي كل مقتضيات كلمة "دينا" فهو نظام حياة ومنهاج، وهو معاملة وسلوك، وهو أخلاق واستقامة وهو حمد وثناء، وهو ارتباط وثيق بين المسلمين ورحمة العالمين

ثانيا: في عبادتها: فالعبادة هي نهاية الخضوع وقمة الشعور بعظمــة المعبــود وهي مدارج الصلة بين المخلوق والخالق ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ ﴾البينة5؛[24]

ثالثا: في أخلاقها: الخلق الكريم هو الهدف الأساسي لرسالة الإسلام كما يعبــر عنه الرسول -ﷺ- "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" أخرجه أحمد وغيره.

فالخلق الكريم هو دليل الإيمان وثمرته، ولا قيمة لإيمان دون خلق حسن، سئل رسول الله –صلى الله عليه وسلم– "ما الدين؟ قال: حسن الخلق، وسئل ما الشؤم؟ قال سوء الخلق"، فالخلق أثقل ما في ميزان العبد يوم القيامة – فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم– قوله: "من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا" رواه الطبراني.

فمن أهم الصفات الأخلاقية: التورع عن الشبهات، وغض البصر، وصون اللسان والحياء، والحلم والصبر، والصدق، والتواضع، واجتناب الظن والغيبة وتتبع عورات المسلمين، والجود والكرم، فإذا اجتمعت هذه الصفات كلها تثمر الأخلاق القرآنية، لذلك سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق الرسول –صلى الله عليه وسلم– فقالت: "كان قرآنا يمشي على الأرض"[25]؛

رابعا: في معاملتها: الدين المعاملة كما ورد في حديث الرسول – ﷺ– والمعاملة تشمل كل جوانب حياة الإنسان مع والديه مع أسرته مع أبنائه، مع جيرانه، مع شركائه، مع مدرسته، مع طلابه، وكل من تربط بينه وبينهم مصلحة دينية ودنيوية، لذلك انتشرت دعوة الإسلام في كثير من بقاع الأرض بالمعاملة الحسنة مع أهل هذه البقاع، فلم يروا غشا في تجارة ولا تطفيفا في ميزان ولا كذبا في قول ولا نفاقا ولا زورا ولا بهتانا، فرأى أهل هذه البقاع إسلاما يتجسد في تحركات أصحابه وتعاملاتهم مع غيرهم كماليزيا وإندونيسيا، وبلدان جنوب شرق آسيا بصورة عامة.

فإن اكتملت العناصر الأربعة فتلك هي شخصية المسلم.

ومن مظاهر شخصية المسلم كذلك التحدث بلغة القرآن؛ وذلك لأسباب أجمع عليها أهل العقول السليمة:

أما السبب الأول: فهو وجوب التعلم والتحدث باللغة العربية فإنها لغة القرآن وما كان الله ليختارها لكتابة ولنبيه إلا أنها أم اللغات؛

والسبب الثاني: أنها لغة النبي -صلى الله عليه وسلم- وبها يُفهم الدين ويبلغ للعالمين؛

ويؤكد ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بقوله: "أنا أفصح العرب بيد أني من قريش وأني نشأت في بني سعد، وأنها اللغة التي انتشر بها الإسلام، وتعلم بها الناس شريعتهم وعقيدتهم وفهموا بها مقاصد قرآنهم؛

السبب الثالث: أنها لغة العلم والبيان والحضارة، فهي لغة الرياضيات والطبيعيات والفلك، والطب والصيدلة والزراعة وغير ذلك من العلوم التي ابتكرها العرب وأبدعوا فيها، فهذه اللغة هي أساس حضارة المسلمين وجمال ثقافتهم النقية وفكرهم الصافي الأصيل والناضج، فالتعلم بها ضمان المعرفة الجامعة بين علوم الصنائع والحرف والتقنيات، وبين علوم الإنسانيات والقيم والأدبيات، والتحدث بها برهان على الشخصية المتجملة بلسان الحبيب المصطفى -صلى الله عليه وسلم-.

فمن الظواهر السلبية المقيتة والمسيئة للشخصية الإسلامية، والمسيئة للعلم والدين، تلك الظاهرة التي طغت على سطح بعض أنحاء المجتمع العربي الإسلامي وهي: تخاطب المسلمين بالعامية المزيجة بكلمات أجنبية، مما نتج عنه لغة أمشاج مقطوعة الرحم، أو تخاطب، خاصة الفئة المثقفة بالفرنسية عندنا في بلاد المغرب العربي أو بالإنجليزية في بلدان المشرق العربي، مشافهة وكتابة؛ فالعامية لا تنتج ثقافة واللغات الأجنبية البديلة للعربية لا تنتج تقدما ولا ازدهارا ولا نموا.

فبهذه الغربة اللغوية يظل الناس بعيدين كل البعد عن فهم القرآن والدين والأعجب من ذلك أن المدرسين في مدارسهم أو في جامعاتهم يدرسون بالعامية ويتهربون من اللغة الفصحى ولغة القرآن، لغة الإعراب ولغة البيان.

إن بعض الأمهات يلقن أولادهن أول ما يبدأ النطق اللغة الأجنبية قبل أن يحفظ سورة الفاتحة، وهذا أمر عجيب فعلا، والفكرة السائدة عند هؤلاء أن اللغة الأجنبية هي لغة التقدم والحضارة، وأن هذا الأجنبي هو الأفضل والأرقى، ولقد صدق ابن خلدون في قولته المشهورة: "**المغلوب مولع بتقليد الغالب في كل شيء**" فلن

يستطيع المسلمون عامة والعرب خاصة استرجاع السيادة الكاملة إلا بفهم القــرآن والعمل به، وهذا لا يتم إلا باللغة العربية.

فمن الأخطاء التي تصيب المجتمع المسلم العربي في حال الإصرار على هجر لغة القرآن:

1- يظل التعليم بغير العربية تعليما معلوماتيا بعيدا عــن التحضــر والتحــدث المتلازم بين التكنولوجيا والقيم الإنسانية، وتبقى الأجيال غريبة عن القرآن وعــن لغة القرآن غرباء في قرآنهم وفي لغة قرآنهم؛

2- استعمال العامية أو أي لغة أجنبية يكرس بناء العصبيات الشعوبية والنعرات الهوياتية والنكوص إلى الوراء، والبحث في الجذور التي طواها الزمان بينما اللغة الفصحى نراها عبر التاريخ قد وحدت وجمعت فلهــج بهــا الفارســي والقبطــي والحبشي والبربري ..إلخ.

قال أحمد (شوقي):

ونحـــن فـــي الشـــرق والفصـــحى بنـــو رحـــم

ونحـــــن فـــــي الجـــــرح والآلام إخـــــوان

قال تعـــالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا ﴾آل عمران103.

ورد في كتاب "سياسة الائتلاف لإقامة وحدة المسلمين"ط2ــ (2014)، ص(334) وما بعدها: "لغة القرآن الكريم ثابت من ثوابت الأمة، ولا يتنكر لها إلا المنسلخ من شخصيته، والرافض لعزة نفسه ووطنه وأمته، وهي عامل من العوامــل الأساســة التي تجمع الشعوب والقبائل والعشائر والفصائل في رحاب الوحي وأنــوار العلــم والإيمـــان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ الحجرات13.

فالأفضلية هنا في التقوى والعمل الصالح التي يلتقي عليها الجميع، فــلا فــرق لعربي على أعجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى، والعمل الصالح وفي نفــس الكتاب المذكور ورد قول الشيخ إبراهيم (أبي اليقظان) رحمه الله "إن اللغة العربية ليست لغة قومية خاصة، ولا لسان فئة مميزة، بل هي لغة عالمية عامة لأنها لغــة دين عالمي عام ألا وهو الإسلام".

وقال "محمد علال (الفاسي) رحمه الله:"

إلــــى متــــى لغــــة القــــرآن تُضــــطهد

ويســــتبيح حماهــــا الأهــــل والولــــد

أمــــا دروا أنهــــا فــــي الــــدهر عــــدتهم

ومــــالهم دونهــــا فــــي الكــــون ملتحــــد

ولــــن تقــــوم لهــــم فــــي النــــاس قائمــــة

أو يســــتقيم لهــــم فــــي العــــيش مــــا نشــــدوا

إن لــــم تــــتم لهــــم فــــي الضــــاد معرفــــة

أو يكــــتم لهــــم بالضــــاد معتقــــد

إن العقيــــدة فــــي الأوطــــان ناقصــــة

مــــا لــــم تكــــن للســــان الضــــاد تســــتند

فأين نحن أهل الإيمان من لغة القرآن؟ هل نحن حريصون على تعليم أولادنــا لغة القرآن ولغة الدين، ولغة الحضارة، ولغة آدم عليه الســلام الــذي علمــه الله الأسماء كلها[26].

المبحث السابع: جهود علماء الجزائر في خدمة القرآن ولغتــه: عني أســلافنا باللغة العربية لغة القرآن عناية فائقة، واهتموا بدراستها اهتماما بالغا، فنشأت فــي

ظل محاضر تحفيظ القرآن للصغار والكبار والزوايا المنتشـرة فـي كـل ربـوع الوطن، ولاسيما جمعية العلماء التي تعد المؤسسة الشرعية والفعلية بجميع فروعها في أرجاء الوطن، تقوم بنهضة فكرية وعلمية وأدبية تصحح الأفكار النشاز وتنشر الوعي، وتحارب البدع والخرافات على يد علمائها الأجلاء الذين ملؤوا الدنيا، ولقد شارك أبناء الجزائر في تلك الحركة الدينية والأدبية واللغوية إسهام غيـرهم مـن المشارقة والمغاربة، فازدهرت في الجزائر عدة علوم لغوية، وبرز فيهـا عـدد لا يُحصى من العلماء أمثال: يحيى بن عبد المعطي (الزواوي) (ت628ه) صاحب أول ألفية في النحو والصرف، (ابـن آجـرُّوم) (ت723ه) نحـوي مشـهور صـاحب الآجرومية، ومحمد بن يوسف (أطفيش) صاحب التآليف اللغوية الكثيـرة، والشـيخ (ابن باديس) صاحب التفسير المشهور للقرآن، ومنهم محمد البشير (الإبراهيمـي) الفقيه اللغوي، ومنهم محمد الصالح (الصديق) صاحب كتاب مقاصد القرآن، الكتاب الذي ذاع صيته في الأوساط العربية الإسلامية، وموسى (الأحمـدي) العروضـي البارع وكتابه المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي الذي أعد مقـررا فـي كثير من الجامعات العربية، والشيخ عبد الرحمن (شيبان) الذي أجـاد وأفـاد فـي التربية والتعليم، والدكتور عبد الرحمن (الحاج صالح) عالم اللسانيات. وقـد تـرك منجزا عملاقا (الذخيرة العربية) وهو ينتظر من يجسده في الواقع.

قد ترك علماء الجزائر الذين لا يمكن يُحصوا عددا من المؤلفـات لا يسـتغني عنها طالب العلم في شتى العلوم الدينية واللغوية والأدبية، غير أن تلك الجهود لـم تنل بعد ما تستحق من تعريف وتقييم، ومن تحقيق ونشر، فمتـى يُـنفض الغبـار ويُكشف الستار عن أعمال هؤلاء القيمة وتقييمها التقييم الوافي وإدراج أصحابها في مصاف العلماء المعروفين وطنيا وإقليميا وعالميا؟!.

ويستطيع المطلع على أشغال ملتقيات الفكر الإسلامي في كل فترة السـبعينيات حتى نهاية الثمانينيات التي كان حضور العلماء والمستشرقين فيها قويا، مسـتميتين في طرح أفكارهم وعقائدهم، وفي نهاية المطاف حقق هؤلاء ما أرادوا وأوقفوا تلك

الملتقيات التي ملأت شهرتها الآفاق وكانت شامة في جبين الجزائر، ولا تزال الأقلية العلمائية ناقمة عليها إلى الآن؛ لأنها كانت محطات علمية وإيمانية ربطت الأمة بإسلامها ولغة قرآنها وأصالة شعبها وتراثه التليد؛ هذه الملتقيات مكنت الشباب من النهل من فحول العلماء والاحتكاك بهم ومحاورتهم والتعلم منهم.

ومن المعلوم أن اللغة العربية هي لغة عالمية استمدت عالميتها من عالمية الدين الإسلامي الرحمة للعالمين، واستمد شعاعها من نور القرآن الكريم؛ فهي اللغة الوحيدة للوحي الإلهي الباقي على ظهر الأرض، فتعلم اللغة العربية وتعليمها فرض على المدرسين العرب وعلى المجامع والمعاهد اللغوية التي خصصت لذلك لأن القرآن لا يسمى قرآنا إلا بها، والصلاة لا تكون صلاة إلا بها.

تتميز لغتنا العربية بأنها راسخة في الجبال تضرب بجذورها في عمق التاريخ العربي والإنساني، فهي المدخل المهم لفهم كتاب الله وسنة رسوله -ﷺ-. جاء في قوله تعالى ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾فصلت الآية3.

فمن المعلوم أن اللغة العربية هي التي حملت رسالة الإسلام إلى كل بقاع المعمورة، ومنها الشمال الإفريقي الذي انسالت على ألسنة سكانه لغة قرآنية سرعان ما ترسخت في التخاطبات اليومية، واندمج فيها قواد خاضوا معارك وفتحوا فتوحا أمثال القائد طارق بن زياد في خطبته المشهورة التي لا تزال محل نقاش عند الكثير من المشككين في أصله؛ ولو يعرفوا بأن للغة العربية سحرا وبيانا لا يوجد مثله في لغات أخر.

وشهد شاعر النيل (حافظ) إبراهيم بذلك في قصيدته الرائعة على لسان العربية قائلا:"

وسعت كتاب الله لفظا وغاية

وما ضقت عن آي به وعظات

فكيـــف أضـــيق اليـــوم عـــن وصـــف آلـــة

وتنســـــــيق أســـــــماء لمخترعـــــــات

أتـــــوا أهلهـــــم بـــــالمعجزات تفننـــــا

فيـــــا ليـــــتكم تـــــأتون بالكلمـــــات

أيهجرنــــــي قـــــومي عفـــــا الله عـــــنهم

إلـــــى لغـــــة لـــــم تتصـــــل بـــــرواة

لقد سبق وأن أشرت إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائـريين فـي الجزائـر وأهدافها المنشودة: "فلقد كتب الله لجهود ابن باديس في ميدان التعليم المسـجدي أن تثمر، لأنه لم يدخر جهدا في خدمته والدفاع عنه، فقد كان منذ السـنوات الأولـى بالجامع الأخضر يرسم أفقا بعيدا لهذا التعليم الذي تمثل في تفكيره بجعله نواة لكلية إسلامية في الجزائر على شاكلة الأزهر في مصر، والزيتونة في تونس، والقرويين في المغرب. يقول في هذا الشأن (ابن باديس): "لابد من كلية دينية يتخـرج منهـا رجال فقهاء بالدين يعلمون الأمة أمر دينها"، فقد كان ابن باديس ينظر إلى من كان معه من مدرسين في المساجد لما يملكون من كفاءة أن يكونوا معهدا علميا يكـون نواة لكلية إسلامية في الجزائر، ومن هذا التطور الفكري لابـن بـاديس أنشـئت مدارس في الثلاثينيات كمدرسة الحديث بتلمسان ومدرسة تهذيب البنـين والبنـات بتبسة، واستمرت الجمعية بعد وفاة مؤسسها على تأسـيس المـدارس والاعتنـاء بالتعليم المسجدي، وكان إقبال الطلبة عليها كبيرا.[27]

خاتمة: وعليه فإنه يطرح السؤال التالي: بم انتصر المسلمون؟ وبم حققوا مجدهم التليد؟

انتصروا لما تمسكوا بالقرآن وطبقوا مبادئه وأحكامه بعد أن فهموه فهما دقيقا فأنشأ منهم خلقا جديدا غير النفوس والقلوب والعقول وحررها من الوثنية ظاهرها وباطنها، وفتح أمامهم آفاق الإيمان والعمل فاندفعوا يحملون رسالة التوحيد إلى الإنسانية كلها فأقاموا أمة وأنشئوا دولة كبرى وأعلوا كلمة الله في الأرض حقا وصدقا، فمكن اللهم لهم وعمروا الأرض عدلا وإنصافا وصدق عليهم قوله تعالى: "**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونْ**"الأنبياء105، وانتصروا لما وعوا لغة قرآنهم، وعلّموهم لغير الناطقين بها ليفهموا معاني التنزيل، وشريعة الدين بلسان عربي مبين، فأصبح الجميع بنعمة الله إخوانا عقيدتهم واحدة، ولسانهم واحد، وإن تنوعت لهجاتهم فهي ثراء ونماء للغة القرآن، فصار الكل تحت حكم الواحد وانصهر الجميع تحت راية واحدة (الإسلام) يلهجون بلسان واحد لنشر الدين وخدمة العلوم والمعارف، فكانت الحضارة وكانت المدنية وكان التطور تباعا لهدي الكتاب وهدي السنة وهدي العلماء الأجلاء، وقد ترك هذا كله بصماته التي لا تمحى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ويطرح السؤال نفسه على الوجه المغاير: بم انهزم المسلمون؟

انهزموا لما بدأ الخط البياني ينحدر رويدا رويدا وتتحرف الدولة الإسلامية عن مسارها الصحيح، ويأخذ الفكر الارجائي بعده موازيا الفكر الصوفي الموغل في المغالاة، عندئذ وجد أعداء الإسلام –من الداخل والخارج– ثغرات كثيرة سمحت لهم بالولوج للاستعداد لضرب المسلمين في عقر دارهم، لأنهم فقدوا المناعة والقوة بعدم الثقة بنصوص قرآنهم التي قسّمتها الفرق والمذاهب وكل أول لصالحه ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾الأحزاب11. كما فقدوا الثقة في لغة

القرآن ورضوا بغيرها بديلا. والسؤال الآخر الذي يطرح: متى يستفيق المسلمون -حاكما ومحكوما- من هذه النكسة وهذا النكوص؟ وهذه الخيبة التاريخية التي توسعت هوتها؟

لذلك ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟!

نقدم في هذا البحث بعض النصائح:

1- برمجة حصص رسمية للقرآن الكريم حفظا وتلاوة وأحكاما وفهما وتدبرا في المدارس وفي الجامعات يراعى في هذا المستوى (العمري والتعليمي)؛

2- تزويد الطلاب بالثروة اللغوية المستمدة من القاموس القرآني الثري وروائع الشعر العربي؛

3- تكوين مدرسي اللغة العربية على الخطاب اللساني في الفصيح مع طلابهم (مشافهة وحوارا وكتابة)؛

4- كما يمكن إعادة النظر في سياسية القبول في الجامعات وذلك بوضع شروط للراغبين في الالتحاق بأقسام اللغة العربية حتى تتمكن القدرة اللغوية من الألسن وتوطينها على آداء الكلام العربي الفصيح؛

5- يجب اختيار مدرسي اللغة العربية حسب الكفاءات والمؤهلات العلمية والبيداغوجية والنفسية يجيز ذلك ويصادق عليه علماء أجلاء ذوو اليد الطولى

بهذا لعلنا إذا كنا جادين أن نضع العربة في سكتها الصحيحة.

الاحالات:

[1]- (الصالح) صبحي: مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، لبنان، بيروت، ط11، سنة 1979، ص18-19، و(ابن منظور)، لسان العرب، مادة (ق ر أ)، دار صادر، لبنان، بيروت ط1، سنة 2000، 50/12 وما بعدها.

[2]- نفسه ص19.

[3]- نفسه، ص21.

[4]- (عرفة) عبد العزيز عبد المعطي، قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة العربية عالم الكتب، لبنان، بيروت، ط1، سنة1985، ص26-27.

[5]- (شاهين) عبد الصبور، تاريخ القرآن، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، سنة 2007، ص5.

[6]- نفسه، ص7-8-9.

[7]- (شاهين) عبد الصبور، تاريخ القرآن، مرجع سابق، ص10.

[8]- (السامرائي) إبراهيم، في شعاب العربية، دار الفكر المعاصر، لبنان، بيروت، دار الفكر دمشق، سوريا. ط1، سنة 1990، ص163.

[9]- مداخلتي في المؤتمر القرآني الدولي السنوي (مقدس 5)، جامعة مالايا، ماليزيا، بعنوان: القرآن الكريم والتحديات العصرية، 5و6 ماي 2015، ص1.

[10]- (شاهين) عبد الصبور، عربية القرآن، مكتبة الشباب، مصر، القاهرة، (دط)، (دت)، ص67 .72،75

[11]- شاهين، عربية القرآن، مرجع سابق، ص76.

[12]- (الرافعي) مصطفى صادق: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، (دط)، سنة2005، ص46..

[13]- شاهين، عربية القرآن، مرجع سابق، ص78.

[14]- لورافيشيا: دفاع عن الإسلام، ترجمة: منير البعلبكي، ط5، سنة 1981، دار العلم للملايين بيروت، لبنان، ص47.

[15]- جلادسون: الإسلام على مفترق الطرق، نقلا عن محمد أسد، ترجمة: عمر فروخ، ص39.

[16]- مجموعة من الباحثين، اللغة العربية، أسئلة التطور الذاتي والمستقبل، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، سنة 2005، ص11،12.

[17]- (البوطي) محمد سعيد رمضان، من روائع القرآن، دار الفارابي للمعارف، (دط)، سنة 2007، سوريا، دمشق، ص260، 261.

[18]- نفسه، ص262.

[19]- (الندوي) عبد الله عباس، تعلم لغة القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1979، المقدمة ص1.

[20]- (البوطي)، من روائع القرآن، مرجع سابق، ص262-263.

[21]- (ابن قتيبة) أبو محمد عبد الله ابن مسلم، تأويل مشكل القرآن، تحقيق السيد أحمد سفر، مكتبة دار التراث، القاهرة، (دط)، سنة 2006، ص80،70.

[22]- نفسه، ص81.

[23]- (شاهين) عربية القرآن، مرجع سابق، ص84.

[24]- (يكن) فتحي، ماذا يعني انتمائي للإسلام، مؤسسة الرسالة، ط1، 1977، بيروت، ص17-27،18.

[25]- (يكن) فتحي، ماذا يعني انتمائي للإسلام، مرجع سابق، ص37-38.

[26]- (مكركب) محمد، شخصية المسلم بين لسان كتابه وحب نبيه واحترام أمته، جريدة البصائر العدد953، سنة 2019، ص15.

[27]- جريدة البصائر، التعليم الإسلامي الحر في شمال إفريقيا، العدد949، سنة 2019، ص20.

دور مجامع اللّغة العربية في بناء المصطلح

أ. نعيمة بوزيدي

جامعة البليدة 2، العفرون

مقدمـــة: يعدّ المصطلح أداة من أدوات التّفكير العلمي، ووسيلة من وسائله "وهــو لغة مشتركة بها يتمّ التّفاهم والتّواصل بين الناس عامة، أو على الأقل بين طبقــة أو فئة خاصة في مجال محدد من مجالات المعرفة والحياة"[1] فلا وجــود للعلــم بــدون مصطلحاته.

وللمصطلح دور أساسي في تكوين المعرفة، "وثقافة أية أمة من الأمــم تقــوض وتفك بالنظر لعدة أسباب أهمها اضطراب دلالة المصــطلح، وتكــاثر المصــطلحات وتعارض مفاهيمها، وعدم استقرارها، وعليه فللمصطلح دور كبير في حياة الناس"[2]. وقد بذل علماء العرب المتقدّمون جهودا محمودة في وضع المصطلح، وهذا ما جعله موجودا عندهم فكرة ومضــمونا؛ لأنّ الحقــول المعرفيــة تتحــدّد بتحديــد دلالات مصطلحاتها، واستقرار مفاهيمها، وبقدر رواج المصطلح وشيوعه، وتقبل البــاحثين والمهتمين لهذا المصطلح أو ذاك يحقق العلم أو "الحقل المعرفــي" ثبــات منهجيتــه، ويمكّن لوضوح اختصاصه، وصرامة أدواته الإجرائية، ومن خلال ذلــك يمكنــه أن يتناول موضوعه بالدرس والتّحليل وهو مطمئن إلى النّتائج التي يصل إليها[3].

والأساس في بناء المصطلح "أن يتّفق عليه اثنان أو أكثر، وأن يستعمل في علــم أو فن بعينه ليكون واضح الدلالة مؤديا المعنى الذي يريده الواضعون، ولم يروا بأسا في أن يضع المؤلف مصطلحه ثم يقذفه إلى حلبة الاستعمال؛ فشاعت نتيجــة لــذلك مصطلحات لوضوحها، وأهملت أخرى لغرابتها، يقول (القرطاجني): "ولا تشاح فــي الالفاظ كما أنّه لا حرج على من عدل عما تقتضيه تلك، أو الأسامي في المســميات اذا أراد الإفصاح عن جهات مشابهتها لما نقلت اليه منه التسمية والتمثيل الصحيح في

ذلك"[4]، ولقد زادت عناية العرب بالمصطلحات بعد أن تشعّبت العلوم، فكان لزاما أن يضعوا لما يستجد مصطلحات، ولا أحد ينكر فضل القرآن الكريم في نقل لغة العرب من مجال التّعبير عن معاني الصحراء، وحياة البداوة الى مجال أرحب وأوسع، فاكسب بعض الالفاظ معاني جديدة، وفتح باب التّوسع الدّلالي للألفاظ من ذلك الفاظ كالصلاة والزكاة. يقول (الجاحظ): وهم تخيّروا تلك الالفاظ لتلك المعاني وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم فصاروا في ذلك سلفا لكلّ خلف، وقدوة لكل تابع"[5].

ولم يكن وضع المصطلح من اختصاص اللغويين فقط، بل كان من الضروري أن يسهم فيه العالم بمفهومه ووظيفته، يقول في هذا (عبد الرحمن الحاج صالح): "هكذا توضع المصطلحات في البلدان التي بلغت مستوى عاليا من العلوم والتكنولوجيا فعامة الخبراء في علم أو فن مخصوص هم الذين يصوغون الألفاظ التي يحتاجون اليها عند ظهور الشيء المحدث لا اللغويون، إلا أنّ هؤلاء قد يوجهون الواضعين ويرشدونهم"[6].

وقد كثر الحديث في هذا العصر عن إشكالية المصطلح، وعن إشكالية تخلفه في الوطن العربي كما ذهب إلى ذلك (علي القاسمي) في كتابه (في علم المصطلح) موضحا أسباب التّخلف المصطلحي في الوطن العربي ومنها: عدم استخدام اللغة العربية، وعدم توفر هيئات لغوية تضطلع بوضع المصطلحات، ومشكلات تنظيمية كتعدد واضعي المصطلح في الوطن العربي، وإغفال التراث العلمي العربي، وعدم اختبار قبول الجمهور للمصطلح، فضلا عن ثراء العربية بالمترادفات. [7]

تعريف المصطلح: إنّ تعريف المصطلح ليس يسيرا كما يؤكد ذلك (علي بوخاتم) "لأنّ تعدّد الحدود يغيّب معالم الدقة والوضوح، فقد يلفي المرء نفسه قبالة تعريفات متشابهة ومختلفة لطائفة من الباحثين والدارسين"[8]، ويضيف أنّ معظم المعاجم فيها اختلال في تحديد كلمة مصطلح "وربّما حدث هذا الاختلال بخصوص الكلمة، وغابت الدّقة في التّحديد نتيجة تداخل بعض الحقول الدلالية تداخلا غريبا، وجدير بالذكر

والتّنويه أنّ سمة الخلط والاضطراب الكائنين في إشكالية المصطلح تفاعلت حتى أصبحت إشكالية من إشكاليات الثقافة الحديثة مرتبطة في الأصل بأسباب أهمها:

1ـ إشكاليه الأصالة المتجلية في الممارسات الثقافية، وذلك حين نقل المصطلح الذي أنتجته ثقافة معينة الى حقل معرفي دون مراعاة خصائصه التي اكتسبها ضمن حقله الأصلي؛

2ـ إشكالية المعاصرة المتجلية في الممارسات الثقافية الأكثر ترددا وتنوّعا على نقل المصطلح من ثقافة غربية إلى الثقافة العربية، من دون مراعاة الخصائص التي تتميّز بها[9].

وفي الوقت الذي يؤكد فيه (خالد الأشهب) "تجنب المعاجم والكتب القديمة استخدامها صيغة "مصطلح" وتعريفها بعدما أورد تعريفات لكلمة الاصطلاح عند كلّ من (الجاحظ، والجرجاني وفارس الشدياق)[10]، نعثر على تعريفات عدة لكلمة مصطلح، فهو مصدر ميمي للفعل اصطلح مشتق من المادة صلح أو صلح، ومنها الصلاح والصلوح؛ حيث ذكر (ابن فارس) في معجمه أنّ "الصاد واللام والحاء أصل واحد يدل على خلاف الفساد..."[11]، وجاء في لسان العرب أنّ الصلاح كلمة ضد الفساد؛ أي اصطلحوا وصالحوا وأصلحوا وتصلّحوا[12]، وجاء في معجم الوسيط وهناك حديث آخر عن المصدرين (اصطلاح ومصطلح)؛ بحيث وردت دلالة هذه الكلمة لتعني "الكلمات المتفق على استخدامها بين أصحاب التّخصص الواحد للتّعبير عن المفاهيم العلمية لذلك التخصص"،[13]، ويُجمع كثير من الباحثين المحدثين أنّ المصطلح أو الاصطلاح هو العرف الخاص، وهو اتّفاق طائفة خاصة على وضع شيء وتداوله في أدبيات الكتابة، مجال أولته العرب عناية كبيرة، واهتمت بوضع المصطلحات لما لها من تأثيرات على الجوانب الفكرية العامة؛ "لأن المصطلح صورة مكثّفة للعلاقة العضوية القائمة بين العقل واللغة، ويتصل أيضا بالظواهر المعرفية، والمصطلحات في كل ّعلم من العلوم هي بمنزلة النواة المركزية التي يمتد بها مجال الإشعاع المعرفي، ويترسخ بها الاستقطاب الفكري"[14]

فالمصطلح إذاً مرتبط بوضوح المفهوم الذي يدلّ عليه، كما أن ّالمصطلح الواحد تتحدّد دلالته بين مصطلحات التّخصص الدقيق نفسه؛ أي عن طريق مكانته وسط المصطلحات الأخرى، ثم إنّ المصطلح يخضع في تطوره _ بحسب التخصص_ وهو يتحدّد داخل النظام الذي يكوّنه هذا التخصص، كما أنّ المصطلحات ينبغي أن تكون دالة على نحو مباشر ودقيق[15].

والذين يميزون المصطلح عمّا عداه يعتبرون أنّ تحليل مضمون المصطلح يكشف عن درجة عالية من الدقة أو المضمون الخاص، الذي لا تعرفه لغة الأغراض العامة[16].

عرف المصطلح تطورا، وقد أصبح اليوم مع تأثير النظريات اللسانية الحديثة في النقد العربي يأخذ حيّزا بليغ المرتبة لدى الدارسين لما له من أهمية في عملية الاتّصال والتبليغ، الأمر الذي جعل النّقاد يأخذون بحظ وافر من هذه المصطلحات الوافدة من الغرب حتى أصبح لكل ناقد منهم رصيده اللغوي الذي يمكّنه من الكتابة والتأليف والنّقد بحسب الأغراض، وفي ضوء ذلك استهدى هؤلاء النقاد بوسائل كثيرة قصد صياغة المصطلح النقدي[17].

فالمصطلح وحدة لغوية أو تركيب لغوي وضع بالاتفاق للدلالة على مفهوم ما "فالاصطلاح يجعل للألفاظ مدلولات جديدة غير مدلولاتها اللغويّة أو الأصلية ...والمصطلحات لا توجد ارتجالا، ولا بدّ في كلّ مصطلح من وجود مناسبة أو مشاركة او مشابهة كبيرة كانت أو صغيرة بين مدلوله اللغوي ومدلوله الاصطلاحي"[18]، فهو عرف يتفق عليه الجماعة، ما شاع أصبح علامة على ما يدل عليه"[19]

ولقد جاء في كتاب التعريفات للجرجاني ما يلي: الاصطلاح «عبارة عن اتّفاق قوم على تسمية الشيء باسم ما ينقل عن موضعه الأول، وهو إخراج اللفظ من معنى لغوي الى معنى آخر لمناسبة بينهما، وهو اتفاق طائفة على وضع اللفظ بإزاء المعنى، وهو لفظ معيّن بين قوم معينين"[20]

ويوضّح التعريف سمتين من سمات المصطلح: فالمصطلح لا يكون الا عند اتفاق المتخصصين المعنيين على دلالته الدقيقة، وهو لا يختلف عن كلمات أخرى في اللغة العامة نتيجة تغيّر دلالي يطرأ على الكلمة العامة فيجعلها مصطلحا ذا دلالة خاصة ومحدّدة.

ومن التعريفات الحديثة ما ذكره (عبد الصبور شاهين) بأنّه "اللفظ والرمز اللغوي الذي يستخدم للدّلالة على مفهوم علمي أو عملي أو فني أو أي موضوع آخر ذي صبغة خاصة،"[21] وهذا ما يتّفق مع تعريف (أبي البقاء الكفوي) الذي يرى أنّ الاصطلاح اتّفاق قوم على وضع الشيء، وهو إخراج الشيء من المعنى اللغوي الى معنى آخر لبيان المعنى المراد[22]" وهو أداة البحث ووسيلة التواصل بين العلماء فهو لغة خاصة يستعملها المنتمون لحقل معرفي معين[23] فشرط التشابه في الانتماء الى حقول معرفية ضروري في بناء المصطلح في هذا الحقل أو ذاك.

فالمصطلح هو التعارف المخصوص أو الاتّفاق بين مجموعة متخصصة على وضع الفاظ تدل على مسميات مباشرة لما يتداولون، أو هو التّعبير عن معنى من المعاني العلمية يتفق عليه علماء ذلك العلم[24].

وللمصطلح دور في استيعاب علوم العصر وفنونه "فهو أداة البحوث العلمية وعن طريقه يتم التفاهم بين العلماء في شؤون المواد العلمية، وليس هناك علم بدون قوالب لفظية وهذه القوالب اللفظية هي التي نعني بها المصطلح"[25] فلا مجال بدون مصطلح

آليات وضع المصطلح عند العرب: إنّ التّطوّر السريع في المعارف الإنسانية أدى إلى صعوبة إيجاد مصطلحات كافية؛ إذ لا يوجد تناسب أو تطابق بين عدد المفاهيم العلمية، وعدد المصطلحات التي تعبّر عنها، وصناعة المصطلح؛ أي مصطلح تفرض وسائل لفظية وصرفية ودلالية تستخدمها اللغة من أجل توفير المصطلحات التي تعبّر عن المفاهيم العلمية والنّقدية الجديدة، ولكل وسيلة مجال معين تصلح فيه أكثر من غيرها وشروط تقتضي استعمالها دون غيرها[26]"فلكل مصطلح مرجعيته أو

ما يسمى بمرجع المصطلح[27]؛ أي الحقل المعرفي الذي يعبر المصطلح عــن بعــض جوانبه.

وليست مسألة وضع المصطلح بالمهمة اليسيرة؛ لأنّها "مهمة تتطلّب تمكنــا مــن المادة وفقها في اللغة والإحاطة بالتاريخ ووقوفا على النشاط العلمــي المعاصــر[28]. وتعدّ المصطلحات نتيجة خلق وإبداع واع عكس الكلمات التــي قلــيلا مــا يكــون مصدرها واضحا[29] ومن طرق ابداع المصطلح نذكر:

الاشتقاق: إن الاشتقاق أولى وسائل التّوليد اللغوي، وأكثرها استجابة لخصوصــية اللغة العربية[30]، وهو عملية استخراج لفظ جديد من لفظ آخر عــن مجموعــة مــن الضوابط التي استخرجها اللغويون العرب القدامى، ويعتبر الاشتقاق وســيلة مفضــلّة لدى واضعي الكلمات الجديدة بسبب وضوح قواعده التي يمكن الــتّحكم فيهــا، وقــد تحدّث (فارس الشدياق) عن الاشتقاق ودعا إلى استغلاله بــدل اســتعمال الكلمــات الدخيلة، أما (ابراهيم اليازجي) فقد عده الوسيلة الأولى التي يجــب أن تســتخدم فــي وضع كلمات جديدة،[31] ولقد أورد (السيوطي) في كتابه (المزهر) أنّ الاشــتقاق أخــذ صيغة من أخرى مع اتّفاقهما معنى ومادة أصلية وهيئة تركيب لها ليدل بالثانية علــى معنى الأصل بزيادة مفيدة[32]

ويطبق (عبد المالك مرتاض) آلية الاشتقاق على مصطلح سيميائي معــرب مــن أكثر المصطلحات تداولا وهو مصطلح icon فيقول: "أفلم يأن لنــا أن نقتــرح لــه ترجمة عربية تنفض عنه هذه العجمة التي ظل يشكو منها في كل الكتابات العربيــة المعاصرة؟[33] وكان الجواب البديل هو مصطلح (المماثل) الذي يحيل علــى علاقــة شبيهة بين السمة الأيقونية وأصلها الفاعل المؤثر، وهي علاقة تؤكدها جل الوحــدات الاشتقاقية التي تنتمي إلى هذه العائلة اللغوية (المثــل، المماثــل، التمثــل، التماثــل الامتثال، الممثل...) إذ تدل على أنها نسخ أيقونية لصورة أصلية ما[34]، وتكمن أهمية الاشتقاق في أنّه يحافظ على صفاء اللغة العربية فهو يحميها من الهجــين والــدخيل اللغويين.

التوليد: يدخل التوليد ضمن عملية إحياء التـــراث اللغـــوي وتوظيفـــه لمواجهـــة التّحديات اللغوية الحديثة، فله صلة وثيقة بتهيئة اللغة حتى تواكب متطلبـــات عصـــر النهضة الحديثة، واللغة العربية أقدر اللغات علـــى وضـــع المصـــطلحات وتوليـــدها واشتقاقها ونحتها وتطويرها، وذلك للعلاقة القائمة بين الصـــيغ الصـــرفية العربيـــة والمفاهيم العامة في الوجود[35].

إنّ التوليد باعتباره نشاطا لإبداع التسميات الجديدة يفرض نفسه فـــي المجـــالات المختصة ؛حيث يقتضي الظهور المستقر للمفاهيم الجديدة إبـــداعا معجميـــا دائمـــا[36] فالمصطلح الواحد يمكن أن يحمل دلالات متباينة بمجرد خضـــوعه لصـــيغ أخـــرى ويبدو هذا الاجتهاد مقدمة لفك الحصار على بعض المصطلحات من جهة، ومن جهة ثانية يدعم النزوع التجزيئي للتوليد، وتقوية المفاهيم النابعة من أصل ثابـــت اعتبـــارا للمتغيرات الدلالية كما حدث في المناهج الجديدة التي اتّســـمت بانفجـــار المصـــطلح وكعينة تمثيلية على ذلك نقدم مصطلحات شـــهدت توليـــدات ذات أهميـــة منهجيـــة ومفهومة غاية في الاحترافية

سرد (narration)، علم السرد (narratologie)، تسريد (narrativisation)، سارد (narrateur)، سردية (narrativité)...إلخ

فقد انفتح التوليد في السنوات الأخيرة على البحث التطبيقي، وأصبح مفهوم التوليد معقّدا جراء العلاقة بين ظاهرة الإبداع اللغوي والمعاجم وإبداع المصطلحات لتســـمية المفاهيم الجديدة في الأوساط التقنية والعلمية خصوصا، وكذا سياسة تطويع لغة ما[37]

المجاز: المجاز وسيلة أساسية يستعين بها اللغويون بغية إثـــراء اللغـــة نفســـها بنفسها؛ بحيث إن ّهذه المصطلحات تنحرف عن مدلولاتها الأساسية لتستوعب دلالات جديدة لا تربطها بالدلالات الأصلية سوى وشائج المناسبة والمشابهة ، كمـــا عرّفـــه البلاغيون باستعمال اللّفظ أو الترّكيب في غير المعنى الذي وضعته له العرب لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي كاستعمال الهيكلية كمصطلح بـــديل عـــن البنوية لدى (عبد السلام المسدي) ذلك أن الهيكلية مشتقة من الهيكل[38] وتزداد صـــور

المصطلح المجازي تداخلا واضطرابا وتعقيدا؛ لأن مدلولات الكلمـــات فـــي أثوابهـــا المجازية لا تعكس واقع المصطلح البتة، فاستعملوا السلم الصوتي (التفاوت اللغـــوي) والماء السحري (العناصر الأدبية) وغير ذلك؛

الإحياء: الإحياء وسيلة من الوسائل اللغوية الحديثة التي طالما انتهجها اللغويـــون والنقاد في إستراتيجية تولّد المصطلحات اللغوية، ومحاولة استيعاب ذلك الكم الهائـــل من المصطلحات الأجنبية الوافدة إلى ساحة النقد العربي المعاصـــر[39] وقـــد عرفـــه (المسدي): "بأنه ابتعاث اللفظ القديم ومحاكاة معناه العلمـــي بمعنـــى علمـــي حـــديث يضاهيه،[40] فقد أحيا المغاربة مثلا مصطلح العدول كمصطلح مقابـــل للانزيـــاح، أو إحياء دلالة الألفاظ القديمة وإعطائها معاني جديدة، وهي وسيلة لها مزايا كثيرة منهـــا ربط الماضي بالحاضر[41]، غير أنّه يمكن أن ينتج عن هذه الوسيلة كثـــرة الاشـــتراك في المعاني، ولا سيما إذا بقيت الدلالة القديمة حية ومتزامنة مـــع الدلالـــة الجديـــدة "واستعملت هذه الوسيلة بكثرة في عملية وضع الألفاظ الجديدة وهذا منذ بداية اتّصال العرب بالحضارة الغربية الحديثة[42]

فالإحياء محاولة مستحسنة، وإجراء فعال ولو قليلا يسهم في وضـــع المصـــطلح النقدي المخصص الذي نريده مصطلحا يعوّض النقص في مجال المصطلحية[43]؛

النحـــت: اهتم (ابن السّكّيت) "في كتابه (إصلاح المنطق) بالنحـــت، وكـــذا (ابـــن فارس) في كتابه (مقاييس اللغة) و(الثعالبي) في كتابه (فقـــه اللغـــة)، وغيـــرهم[44]" والنحت هو الاختزال والاختصار في الكلمات والعبارات،[45] وقد دعـــا بعـــض رواد النهضة إلى اعتبار النحت من الوسائل الناجعة في توليد الألفاظ الجديدة، فقـــد ذكـــر (أحمد فارس الشدياق) أنّ النّحت طريقة حسنة تكثر بها مواد اللغة، وتتّسع أســـاليبها ولها نظير في اللغة اليونانية وسائر اللغات الإفرنجية، وهـــي التـــي كثـــرت مـــواد لغتهم[46]، فهو ضرب من الاشتقاق له أكثر من جذر، ويظهر جليا أنّ سبب تحمـــس (الشدياق) إلى النحت هو كثرة هذه الظاهرة في اللغـــات الأوروبيـــة التـــي نتعامـــل معها[47]، ومن الذين دعوا إلى الأخذ بالنحت أيضا لمواجهة المفاهيم الحضارية الحديثة

(محمود شكري الألوسي)، الذي قال: وهناك وجه آخر في العربية لصوغ الألفاظ تسد مسد الألفاظ الأعجمية التي اضطررنا إليها وهو باب النحت[48] ومن المصطلحات المنحوتة "مثلا الزمكان" والهدبنة (الهدم والبناء)...إلخ؛

الاقتراض أو التعريب: هو عملية إدخال الكلمات الأجنبية إلى اللغة العربية سواء بقيت هذه الكلمات على حلتها الأصلية في العربية، أو حدث فيها تغيير حسب قواعد اللغة العربية ويظهر في مختلف النصوص التي تركها (أحمد فارس الشدياق) أنّ هذه الوسيلة غير ضرورية لتنمية الثروة الافرادية إلا إذا ندر في أصل اللغة العربية ما يرادفه ويرى (السعيد بوطاجين) "أنّ الدخيل أحيانا لا مسوغ له، ويحدث أن يغزو الحقل المصطلحي العربي بلا مبررات لغوية أو معجمية أو مفهومية"[49]؛

الترجمة: إنّ ترجمة المصطلحات ظهرت لدى العرب في عهد بني أمية، ولكن أفقها لم يتّسع إلا في عهد العباسيين، والملاحظ خلال هذه الفترة الزمنية أن دور المصطلح لم يكن منوطا بأية هيئة، وباعتماد الترجمة ينتقل المصطلح الأجنبي إلى العربية مرتين إحداهما بلفظه الأجنبي، والأخرى بمعناه، فيكون للمفهوم مصطلحان عربيان، أحدهما معرب والآخر مترجم، قد يعيشان جنبا إلى جنب فترة من الزمن تطول أو تقصر حتى يتغلب استعمال أحدهما على الآخر، أو يظلان كلفظين مترادفين[50].

وإذا كان هناك من يرى أن الترجمة وسيلة مساعدة على التمكّن من إشكاليات المصطلح، وأنها قدمت إضافات معتبرة للمصطلح ،فالحقيقة غير ذلك بدليل ما ذهب إليه بعض الباحثين في مجال ترجمة المصطلح فقد تحدّث مثلا (رشيد بن مالك) عن إشكالية ترجمة المصطلح النقدي في الخطاب السيميائي المعاصر وبيّن "اضطراب الترجمة التي لم ترق إلى بلورة نموذج منهجي مؤسس لخطاب علمي دقيق يضبط مفاهيمه وأدواته الخاصة به سلفا، إذ يكفي أن نقرأ بعض الدراسات لنتأكد من الاختلافات الكبيرة الموجودة بين الباحثين بخصوص ترجمة المصطلح[51] فترجمة المصطلح النقدي في الخطاب السيميائي مثلا تتسم بالاضطراب والتذبذب والفوضى

الاصطلاحية التي تحول دون بث واستقبال الرسالة العلمية، وتؤدي إلى نسف الأسس التي ينبغي أن ينبني عليها الاتصال العلمي بين النصوص وإحداث غموض في الخطاب النقدي،[52] فالاضطراب والفوضى هما الطابع الغالب على الفكر النقدي؛ إذ نجد الترجمات العديدة للمصطلح الواحد، فيقدم مثلا مصطلح الشفرة مقابل المصطلح الأجنبي code وهي الترجمة التي لا يعتمدها آخرون، ويقدم "عبد السلام المسدي" سمة النمط، ويقدم "ميشال زكريا" تنظيم رموز وقد ولدت عملية ترجمة المصطلح حساسية لدى النقاد العرب، وسيطر المصطلح النقدي الخاطئ بالإضافة إلى فوضى التأليف بسبب استقلالية الأفراد والمؤسسات التي تجتهد وفق رؤية خاصة، وقد ظهرت أكثر من ترجمة للمصطلح الواحد في بلدين مختلفين أو في البلد الواحد وحتى على مستوى المرجع الواحد.[53]

المجامع اللغوية العربية: (النشأة، الأهداف، المآخذ)

تمهيد: المجمع بمفهومه الحديث Academy ـــ مؤسسة تعنى بالنهوض باللغة العربية او العلوم او الفنون ونحوها، ومجامع اللغة العربية ضمن هذا الاطار من صنع التاريخ الحديث عرفته أوروبا في عصر النهضة ومن اقدمها مجمع (فلورنسة) للشعر في إيطاليا(1270م).

أما في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية فقد عُرفت الأسواق والمنتديات والمجالس الأدبية والفكرية "وعلى امتداد التاريخ الوسيط ازدهرت مؤسسات من هذا النوع في كلّ من البصرة والكوفة ودمشق وبغداد والقاهرة وتونس ومراكش، ويكفي أن نشير الى ما عرف في التاريخ ببيت الحكمة، وهي مؤسسة علمية أشبه ما تكون بمجمع العصر تعنى بالنتاج العلمي تأليفا وترجمة واستنساخا واطّلاعا[54].

وفي العصر الحديث عمد (محمد علي باشا) الى تعريب العلوم العصرية وقد استمرت التجربة حتى عام (1882)، وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر رأى نخبة من المفكرين ضرورة تشكيل مجامع لغوية" وقد كان للمجامع الأوروبية ولا

سيما الاكاديمية الفرنسية أثار واضحة في قوانين وأنظمة المجامع اللغوية العربية الحديثة

فقد كانت الحاجة الملحة الى توليد المصطلحات وتوحيدها وبيان وظائفها السبب الأهم في ظهور مجامع اللغة العربية.

1- **مجمع اللغة العربية بدمشق:** تأسس المجمع العلمي العربي بدمشق بعد صدور المرسوم القاضي بإنشائه عام (1960) رغم أنّ بداياته كانت عام (1919) وكان أول المجامع اللغوية العربية في عهد (فيصل بن الحسين)، وكان أول رئيس له (محمد كرد علي ت1903م)، وقد حدد أهدافه فيما يأتي:

_ وضع بعض المفردات والمصطلحات الإدارية والفنية لتحلّ محل الالفاظ الاعجمية، ولتطهير العربية من الدخيل وتهذيب ما سماه عجمة؛

_ أولى أهمية للتخصص فعمل على انشاء ثلاث لجان: لجنة تهتم بالآداب ولجنة تهتم بالعلوم ولجنة تهتم بعلوم الآثار؛

_اهتم بالنظر في اصلاح اللغة، ووضع ألفاظ المستحدثات، وتنقيح الكتب..،

– النظر في اللغة العربية واوضاعها العصرية ونشر آدابها وإحياء مخطوطاتها وتعريب ما ينقصها من كتب العلوم والصناعات والفنون، كما عني المجمع بجمع المخطوطات القديمة الشرقية؛

– اصدار مجلة تنشر فيها أعمال المجمع وافكاره لتكون رابطة بينه وبين المؤسسات الثقافية العامة[55]؛

بعض مآخذ المجمع: لقد تتبع بعض الدارسين سلبيات هذا المجمع ومنها:

– الاعتراف بأنّ المصطلحات الموضوعة هي مصطلحات مرحلية ما يؤكد هشاشة الأسس التي قعّدت لها؛

– فتح المجال للاجتهاد قصد وضع بدائل متفق عليها قد يؤدي الى تعدد المصطلحات التي تقابل مفهوما واحدا فيزداد الامر تعقيدا؛

_ السماح غير المبرر علميا بتعايش مصطلحين أو اكثر للتدليل على المفهوم ذاته، وهذا ما يؤكد فقدان الصرامة العلمية، يقول (محمد علي الزركان) معلّقا على مجهود المجمع: "نلاحظ أنّ كثيرا من هذه التسميات الجديدة التي اختارها المجمع ليست أفضل من التسميات القديمة، ولا اكثر دلالة منها، بل يمكن القول أنّ كثيرا من هذه التسميات التي يظنأنّها أصح من سابقاتها قد ماتت واندثرت، ولم يعد لها وجود في دواوين الدولة ومؤسساتها؛ لأنّ الناس ما ألفوا استعمالها بل استثقلوه؛[56]

_ إفراط المجمع في التنظير أكثر من التطبيق.

2 – **المجمع العلمي العراقي ببغداد:** كانت أول محاولة لتأسيس مجمع علمي سنة (1921)، والتأسيس كان عام (1925) ويبدو واضحا أنّه استفاد نظريا من التجارب السابقة، لأنه قام على خلفية عارفة أخذت في الحسبان بعض الزلات المفهومية والقياسية والتناقضات التي اربكت الباحثين، وقد وضع المجمع قواعد أهمها:

_ العناية بسلامة اللغة والسعي لجعلها وافية بمطالب شئون الحضارة الحاضرة

_ العناية بأدب العرب وتاريخهم وحضارتهم؛

_ حفظ المخطوطات والوثائق العربية النادرة واحياؤها بالنشر؛

_ تشجيع الترجمة والتأليف في الفنون الحديثة؛

_ النهوض بالدراسات والبحوث العلمية في العراق لمسايرة التقدم العلمي؛

_ المحافظة على سلامة اللغة والعمل على تنميتها؛

_ الاهتمام بالمصطلح العلمي، وقد اخرج مجموعة منها في دفاتر ركزت على القانون وعلوم الفضاء وغيرها بدأت عملية الجمع عام (1962)، واستمرت في الاثراء ففي 1984 قدمت 8020 مصطلح في علوم الاحياء والهندسة والفيزياء النووية والكيمياء التحليلية وغيرها.

فقد أصدر الكثير من المصطلحات العلمية التي اقترحتها لجانه، وكانت في علم الجراحة والتشريح وفي الصناعة والملاحة والطيران، واصدر معجم مصطلحات الفيزياء عام (1977) ومعجم مصطلحات الرياضيات (1979).

وما يلفت النظر هو إدراك المجمع للمصطلحات ذات الطابع الثابت والمتغيّر فميّز بين الصنفين، وتعامل معها تعاملا مختلفا نظريا على الأقل، يقول (ساطع الحصري): إنّ من المصطلحات ما يكون جامدا من حيث المعنى فلا يحتاج الى مشتقات فيجب علينا أن نلاحظ هذه النقطة أيضا، فلا نختار المصطلحات التي هي من الصنف الثاني الا ما يقبل التصريف، فعندما نبحث عن اصطلاح من الاصطلاحات يجب ان نلاحظ مشتقاته المستعملة في اللغات الأجنبية لكيما نضع ما يقابل جميعها صفقة واحدة مثال ذلك اننا عندما نحاول ان نوجد كلمة مقابل Idéal يجب ان نفكر في الوقت نفسه بمشتقاتها الضرورية مثل Idéaliste Idéalisme ولا نعتقد بكفاية التعبير (المثل الأعلى) الذي صار يستعمل في هذا المعنى؛ لأنّ هذا التّعبير عاجز عن توليد مشتقات تقابل تلك المعاني[57].

إذاً فقد أولى المجمع العراقي رعاية للتوليد، وبذلك يكون قد فكّر في أنّ المصطلح الواحد يمكن أن يحمل دلالات متباينة بمجرد خضوعه لصيغ أخرى، فالقرار الذي اتّخذه المجلس سيقدم خدمات جليلة للبحوث الأدبية واللغوية والعلمية ولولا هذه المبادرة لبقيت المصطلحات هذه عامة ورجراجة لا تفي بالغرض؛ لأنّها كانت ذات نزوع تعميمي بحاجة الى تمحيص وتدقيق تفاديا للاستعمال العام[58].

_ توحيد مصطلحات العلوم والآداب والفنون ووضع المعاجم؛

_ احياء التراث العربي والإسلامي في العلوم والآداب والفنون؛

_ تشجيع التأليف والترجمة؛

_ عقد المؤتمرات اللغوية؛

_ نشر المصطلحات الجديدة التي تمّ توحيدها في اللغة بمختلف وسائل الاعلام

_ تبني المجمع مشروع (قانون اللغة العربية).

3- مجمع اللغة العربية في القاهرة: أنشئ في (1892) المجمع اللغوي للوضع والتعريب برئاسة (توفيق البكري) ولكنّه عطل وبقي يتعثر في مسيرته، وفي سنة (1932) أنشئ المجمع اللغوي في القاهرة باسم (مجمع اللغة العربية الملكي)، وفي عام (1938) ابدل اسمه الى (مجمع فؤاد الأول للغة العربية)، ثمّ أصبح فيما بعد (مجمع اللغة العربية) وفي عام (1955) صدر قانون بشأن تنظيمه وتوسيعه[59] وكان من أهم أهدافه:

_المحافظة على سلامة اللغة العربية، وجعلها ملائمة لحاجات الحياة العصرية بتجديد المعاجم؛

_ وضع معجم تاريخي للغة العربية وتشجيع اجراء أبحاث دقيقة في تاريخ بعض الكلمات وتغيير مدلولاتها؛

_ وضع معجم الفاظ القران الكريم؛

_ المعجم الوسيط في جزئين لتبسيط مواد اللغة العربية وادخلت فيه المفردات اللغوية الجديدة التي اقرّها المجمع حتى تصير من متن اللغة العربية الفصيحة، ووقع الاكثار من ايراد الآيات القرآنية والاحاديث الشريفة للتّدليل على صحة التفسير اللغوي، وقد صدرت الطبعة الأولى منه عام (1961)، والطبعة الثانية المعدلة عام (1973)؛

المعجم الوجيز معجم مدرسي كتب بروح العصر ولغته صدرت الطبعة الأولى عام (1980)؛

المعجم الكبير معجم تاريخي يحتوي على الفاظ اللغة حقائقها ومجازاتها مع الاستئناس بالشواهد الشعرية والمأثورات الأدبية في الدلالات على المعاني وتتبع نسب الكلمات التي لها أصول سامية؛

_ مجموعة المصطلحات العلمية والفنية، وقد صدر منها حتى عام (1987) سبعة وعشرون جزءا متضمنة مصطلحات عدة في النفط، الفيزياء الصيدلة الحضارة الحديثة الطب وغيرها؛

_ معجم الفاظ الحضارة ومصطلحات الفنون صدر عام (1983) باللغات الثلاث الإنجليزية والفرنسية والعربية [60] بالإضافة الى معجم الكيمياء والصيدلة (1983) ومعجم الفيزياء (1984) ومعاجم أخرى ذات قيمة معتبرة.

4- مجمع اللغة الأردني: اتخذ قرار تأسيسه عام 1924 وأنشئ عام (1976) وقد اكتفى بنقل الأهداف التي سطرها المجمع السوري والمصري والعراقي مكتفيا ببعض الإضافات ومن أهدافه:

_ الحفاظ على سلامة اللغة العربية، وجعلها تواكب متطلبات الآداب والعلوم والفنون الحديثة؛

_ توحيد مصطلحات العلوم والآداب ووضع المعاجم؛

_ إحياء التراث العربي المتعلّق بالآداب والعلوم والفنون؛

_ الاهتمام بالدراسات الخاصة باللغة العربية؛

_ نشر المصطلحات الجديدة التي يتم توحيدها؛

_ العمل على أن يكون اللفظ العربي معادلا للمصطلح الأجنبي؛

_ أن يكون اللفظ العربي دالا على الوظيفة ان لم يكن التعريب قادرا على نقله بدقة مثل Avion طائرة Sous-marin غواصة[61]؛

_ تفضيل المصطلح التراثي على المستحدث؛

_ الحفاظ على المصطلح الأجنبي ببعض التعديل؛ بحيث تصبح له بنية صوتية تناسب العربية؛

_ اصدار المجمع لمجموعة من المصطلحات المعربة منها: مصطلحات الأرصاد والزراعة (1981)، مصطلحات التجارة والاقتصاد والمصرف (1982)، معجم مصطلحات الرياضيات الابتدائية (1987)، مصطلحات الأسلحة على تنوّعها (1984)... الخ.

بعض المآخذ على المجمع: الإبقاء على المصطلح الأجنبي إن كان شائعا

5_ المجمع الجزائري للغة العربية: أنشئ المجمـــع الجزائــري عـــام (1982) وكانت أهدافه:

_ إثراء اللغة العربية وتطويرها؛

_ إحياء استعمال المصطلحات الموجودة في التراث العربي الإسلامي؛

_اعتماد المصطلحات التي أفردها أحد المجامع وجرى العمل بها فـــي وطنـــه إن دعت الحاجة الى ذلك؛

_ نحت مصطلحات جديدة بالقياس أو الاشتقاق او بأية طريقة أخرى؛

_ ترجمة او تعريب المصطلحات المتداولة في جميع حقول المعرفة مع مراعـــاة الضبط والدقة في وظيفة الكلمة؛

_ تشجيع التأليف والنشر باللغة العربية في جميع الميادين.

بعض المآخذ على المجمع: اعتماد مصطلحات أحد المجامع دون المرور باتحـــاد المجامع تعرض وحدة المصطلح الى التنوع وتشتت المتلقي، ومن ثم ستسهم بشـــكل ما في بلبلة المعجم بدل ضبطه عربيا وإقليميا وهكذا ستبهم الدارس الذي لـــن يجـــد سبيلا لتفادي الابهام [62].

6ـ المجمع العلمي اللغوي السعودي: أنشئ المجمع العلمـــي اللغـــوي (1983) ويهدف الى:

_ المحافظة على سلامة اللغة وجعلها وافية بمطالب العلـــوم والفنـــون ملائمـــة لحاجات العصر بتوفير المصطلحات العلمية والالفاظ الحضارية وتشـــجيع الترجمـــة وتيسير اللغة متنا وقواعد وكتابة، وتهذيب المعجمات اللغوية؛

_ وضع معجم شامل يعرض لتطور اللغة العربية في عصورها المختلفة.

7_ اتحاد المجامع اللغوية العربية: تأسس هذا الاتحاد عام (1970) لكن الفكـــرة كانت عام (1956)، وله شخصية معنوية مستقلة ومقره القاهرة، يهدف الى:

_ تنظيم الاتصال بين المجامع اللغوية والعلمية العربية، وتوحيـــد المصـــطلحات العلمية والفنية ونشرها؛

_ العمل على تحسين طرق وضع المصطلح، وشرح بعض القرارات التي يعـود اليها واضعو المصطلح؛

واخراج المعاجم المتخصصة؛

_ العمل على أن يكون للاتحاد وحده سلطة التشريع اللغوي، وسلطة التعديل فـي الشؤون المتصلة باللغة على أن يكون للقرارات التي يصدرها سلطة الالـزام علـى كافة المستويات.

ويمكن للاتحاد ان يشرع في تنظيم المشاريع التالية:

المعجم اللغوي الحديث تضاف اليه الالفاظ المستجدة على غرار مـا نجـده عنـد الغربيين؛

_ وضع معجم للمترادفات ويحدد الفروق الدقيقة بينها.

بعض المآخذ على اتحاد المجامع اللغوية العربية: يقول (الحمزاوي): الملاحـظ أنّ المنظمات والهيئات العربية قد بذلت جهودا كبيرة في هذا الشأن دون أن توفر لنا واحدة منها منهجية شاملة جامعة تأخذ بعين الاعتبار ما يتطلبه وضع المصـطلحات ترجمة وتوحيدا من معايير ومناهج، فظلت كلّ هيئة تصدر ما تراه صالحا ومفيـدا ولو بإعادة ما سبق لغيرها أن أقرّته وجربته ونجحت فيه، فضلا عن أنّنا لـم نلحـظ الى اليوم مقاربة منظمة ومنسقة لعمليـات الجمـع والوضـع والترجمـة والتنمـيط والتخزين ووضع المعاجم حتى تضبط المسار الكامل لإقرار المصـطلحات واثباتهـا بالتأييد والموافقة والاجماع لتكون جاهزة للاستعمال والاستهلاك[63].

8_ مكتب تنسيق التعريب: كان من أهدافه:

_ توحيد المصطلحات العلمية والحضارية، وجمع المتداول منها والقضـاء علـى الفوضى التي تعمّ معظم المصطلحات، وتوحيد المصطلح العلمي العربي والعمل على الوصول باللغة العربية الى تأدية جميع أغراض التفكير والعلم الحديث[64]؛

_ دعم حركة التعريب؛

_ إعداد مشروع المعاجم؛

_ محاربة الدخيل؛

_ تلقي وتتبع ما وصلت اليه بحوث علماء المجـامع والعمـل علـى المقارنـة والتنسيق؛

_ توحيد الاجتهادات الحاصلة على مستوى التعامل مع المصطلحات؛

_ العمل على تدارك النقص الحاصل في المصطلحات العربية؛

_ تكوين فرق بحث في كل جامعة من المعنيين بالتراث لاستخلاص المصطلحات المستعملة في كتب الاقدمين؛

_ مراعاة اتفاق المصطلح العربي مع المدلول العلمي للمصطلح الأجنبي دون تقيد بالدلالة اللفظية للمصطلح الأجنبي؛

_ تفضيل الكلمة الشائعة على الكلمة النـادرة أو الغريبـة إلاّ إذا التـبس معنـى المصطلح العلمي بالمعنى الشائع المتداول لتلك الكلمة؛

عند وجود الفاظ مترادفة او متقاربة في مدلولها ينبغي تحديد الدلالة العلمية لكـل واحد منهما، وانتقاء اللفظ العلمي الذي يقابلها، ويحسن عند انتقاء مصطلحات من هذا النوع ان تجمع كل الالفاظ ذات المعاني القريبة او المتشابهة الدلالة للمقارنة؛

_ مراعاة ما اتفق المختصون على استعماله مـن مصـطلحات ودلالات علميـة خاصة بهم معربة كانت أم مترجمة؛

_ اعتبار المصطلح المعرب عربيا ويخضع لقواعد اللغة ويجوز فيـه الاشـتقاق والنحت وتستخدم فيه أدوات البدء والالحاق مع موافقته للصيغة العربية؛

_ ضبط المصطلحات العامة عامة والمعرب منها خاصة بالشكل حرصـا علـى صحة نطقها.

آليات توحيد المصطلح: لقد عملت هذه المجامع علـى اعتمـاد اليـات توحيـد المصطلح منها:

_ وضع مصطلح واحد للمفهوم العلمي الواحد، وتجنب تعدد الدلالات للمصـطلح الواحد في الحقل الواحد وتفضيل اللفظ المختص على المشترك؛

_ مراعاة التقريب بين المصطلحات العربية والعالمية لتسهيل المقابلة بينهما للمشتغلين بالعلم والدارسين؛

_ استخدام الوسائل اللغوية في توليد المصطلحات العلمية الجديدة؛

_ تفضيل الكلمات العربية الفصيحة على الكلمات المعربة؛

_ تفضيل اللفظة التي توحي جذورها بالمفهوم الأصلي، وتفضيل الكلمات الشائعة على الكلمات النادرة او الغريبة[65].

معوقات بناء المصطلح: إنّ محاولة المجامع العربية في بناء المصطلح واجهتها مجموعة من العوائق منها:

_ عدم نشر وتسويق المصطلح يقول (صالح بلعيد): "وجود تخمة من المصطلحات العلمية في كل اختصاص والمشكلة في هذه النقطة تعود الى شيئين اثنين أولهما سوء تنسيق المصطلح وثانيهما عدم تسويقه عربيا ودوليا"[66]؛

_ تعدد واضعي المصطلحات في الوطن العربي؛

_ الترادف في لغة المصدر يشكل عائقا آخر في طريق ترجمة ونقل المصطلحات العلمية الى العربية ففي حالة ترجمة المترادفات في لغة المصدر وتعدد المترجمين دون ادراكهم انها تشير الى نفس المفهوم فيؤدي ذلك الى ازدواج مصطلحي في اللغة العربية؛

_ ازدواجية المصطلح في لغة المصدر كثيرا ما تعود ازدواجية المصطلح الواحد في اللغة العربية الى ازدواجية المصطلح في لغة المصدر ففي اللغة الإنجليزية مثلا قد يستعمل الامريكيون مصطلحا يختلف عن المصطلح الذي يستخدمه البريطانيون لنفس المفهوم فيُولَد مصطلحان عربيان لمفهوم واحد في حالة ما إذا ترجم المصطلح عن هذين المصدرين؛

_ تعدّد مصادر المصطلحات إنّ استخدام أكثر من لغة اجنبية كمصدر للمصطلحات في الوطن العربي يؤدي الى ازدواجية في المصطلح فاستخدام الفرنسية

في المغرب العربي والانجليزية في المشرق كمرجع لترجمة المصطلحات أدى الـــى تلك الازدواجية[67]؛

_ غياب الموضوعية وغلبة الذاتية، وعدم اتفاق المصطلحيين حول ســبل تأديــة المصطلح؛

_عدم الاتفاق حول قضية توظيف المصطلحات التراثية فمنهم من يطالب بإحيائها وإعمالها، ومنهم من يطالب بالتوليد والابتعاد عن المصطلح القديم، أنّــه بعيــد عــن المفاهيم الجديدة؛

_ ثراء اللغة العربية بالمترادفات؛

_ التطور السريع في مجال العلوم والتكنولوجيا وكثرة المصطلحات صعب مــن استيعابها؛

_ عدم استخدام اللغة العربية في الحياة العلمية والحياة العامة.

الاستنتاج: تكاد تجمع هذه المجامع اللغوية العربية على الأهداف الكبيــرة التــي نصت عليها مراسيمها وقوانين انشائها على الحفاظ على اللغة العربية والعمل علـــى تنميتها لتعود الى ما كانت عليه، وفعالياتها تظهر في:

_ اغناء اللغة العربية وتطويرها وجعلها مواكبة لمتطلبات العصر؛

_ وضع المصطلحات وتوحيد المصطلح العلمي العربي، وتعميم اســتعماله فــي جميع المجالات؛

_ دعم الترجمة والتعريب؛

_ وضع المعجمات وتوحيد المواد العلمية؛

_ تيسير تعليم اللغة العربية؛

_ احياء التراث.

الخاتمة: أما خاتمة البحث فأردناها مجموعة من التوصيات تسعى جاهدة لخدمة وتطوير المصطلح عموما منها:

_ عدم الاختلاف في صياغة المصطلح فاستخدام عدة ألفاظ عربية للتعبير عن لفظ أعجمي واحد يسبب الفوضى والبلبلة؛

_ وأن لا يلهث واضعو المصطلح وراء الأعمال العشوائية في وضع المصطلح فلا بد من وضع خطة ومنهج للعمل في سبيل ذلك؛

_ التركيز على الاشتقاق عند الحاجة وتشجيع آلياته آخذين بعين الاعتبار القواعد التي سار عليها العرب؛

_ أن تكون جهة أو جهات مكلفة بتتبع المصطلحات؛

_ ضرورة التنسيق بين جهود الباحثين في مجال المصطلحية؛

_ الاهتمام بالهيئات والمنظمات المتخصصة في مجال المصطلح؛

_ توحيد أليات ومنهجيات صياغة المصطلح؛

_ التعامل الموضوعي والضبط المنهجي؛

_ المصطلح لا يؤخذ برؤية فردية وإنما يخضع لفعل معرفي جماعي؛

_ الرجوع إلى التراث والإفادة من جهود القدامى؛

_ تنظيم ندوات متخصصة للتمحيص والدراسة، والتحقق من مطابقة المفهوم العربي للمفهوم الأجنبي واختيار مقابل عربي واحد للمصطلح الأجنبي؛

_ وجود مجمع واحد للغة العربية ترفده جميع الاقطار العربية بحصيلة جهود علمائها ولغوييها.

الإحالات:

[1]ـــ الناقوري (ادريس)، المصطلح النقدي في نقد الشعر لقدامة بن جعفر، المنشأة العامـــة للنشـــر والتوزيع، طرابلس، ط2، 1984، ص7

[2]ـــ بوخاتم (مولاي على)، مصطلحات النقد العربي السيماءوي، الإشكالية والأصـــول والامتـــداد منشورات اتحاد الكتاب العرب،2005، ص30

[3]ـــ ينظرالسد (نور الدين)، الأسلوبية وتحليل الخطاب، دراسة في النقد العربي الحديث، ج1، دار هومة للطباعة (دـــ ت)، ص11

[4]ـــ القرطاجني (حازم أبو الحسن)، منهاج البلغاء وسراج الادباء، تح محمد الحبيب بن الخوجـــة دار الغرب الإسلامي، ص124 ـــ ينظر الناقوري(ادريس)، المصطلح النقدي في نقد الشعر لقدامة بن جعفر، مرجع سابق، ص7

[5]ـــ الجاحظ (أبو عمرو بن بحر)، الحيوان، تحق عبد السلام هارون، ط الحلبي، القاهرة، 1958 ج1، ص 327

[6]ـــ الذخيرة اللغوية العربية، اللسان العربي _ ج 27مكتب تنسيق التعريب الربـــاط 1986، ص 47

[7]ـــ ينظر القاسمي(علي)، في علم المصطلح، الموسوعة الصغيرة، 1985، ص 65ـــى66

[8]ـــ بوخاتم (مولاي علي)، مصطلحات النقد العربي السيماءوي، الإشكالية والأصـــول والامتـــداد منشورات اتحاد الكتاب العرب 2005، ص26

[9]ـــ المرجع نفسه، ص28

[10]ـــ ينظر الأشهب(خالد)، المصطلح العربي البنية والتمثيل، عالم الكتب الحـــديث، إربـــد الأردن 2011، ص16

[11]ـــ ابن فارس، مقاييس اللغة، تحق عبد السلام هارون، ج 3، دار الفكر (د–ت)،303

[12]ـــ ابن منظور لسان العرب، ج2، إعداد يوسف الخياط، دار لسان العرب، بيروت، م3(د ـــ ت) ماده صلح،

[13]ـــ حجازي (محود فهمي)، الأسس اللغوية لعلم المصطلح، دار غريب للطباعة والنشر، (د–ت) ص 8

[14]ـــ المسدي (عبد السلام)، الازدواج والمماثلة في المصطلح النقدي، المجلـــة العربيـــة الثقافيـــة ع24، 1993، ص54

[15]ــ بوخاتم (مولاي على) مصطلحات النقد العربي السيماءوي، الإشكالية والأصــول والامتــداد مرجع سابق، ص25

[16]ــ المرجع، ص26

[17]ــ ينظر المرجع نفسه، ص18

[18]ــ الشهابي (مصطفى)، المصطلحات العلمية في اللغة العربية (في القــديم والحــديث)، معهــد الدراسات العالية، جامعة الدول العربية، 1955، ص3، 4

[19]_ مطلوب(احمد)، بحوث مصطلحية، منشورات المجمع العلمي العراقي، 2006، ص7

[20]ــ الجرجاني (علي بن محمد بن علي)، التعريفات مكتبة القرآن، القــاهرة، ط 1، 2003، ص 34

[21]ــ عبد الصبور(شاهين)، اللغة العربية لغة العلوم والتقنية، مطبعة دار الإصـــلاح، ط1، 1983 ص 119

[22]ــ الكفوي (أبو البقاء)، الكليات معجم في المصطلحات والفــروق الفرديــة مؤسســة الرســالة بيروت لبنان، ط2، 1998، ص 129

[23]ــ او كان (عمر)، اللغة والخطاب، افريقيا الشرق، (د ــ ط)، 2011، ص57

[24]ت ينظر الشمري (مهدي صالح سلطان)، في المصطلح ولغة العلــم، جامعــة بغــداد، 2012 ص59

[25]ــ الموسوي (مناف مهدي محمد)، مباحث لغوية من حياة اللغة العربية، دار البلاغة، بيــروت ،1993، ص110

[26]ــ ينظر المرجع نفسه، ص37

[27]ــ ينظر بوحسن(أحمد)، مدخل علم المصطلح، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد60، 1983 ص72

[28]ــ المسدي (عبد السلام)، الازدواج والمماثلة في المصطلح النقدي، مرجع سابق، ص31

[29]ــ الأشهب (خالد)، المصطلح العربي البنية والتمثيل، مرجع سابق، ص90

[30]ــ يوسف (وغليسي) فقه المصــطلح النقــدي الجديــد، مجلــة علامــات م14، ج55، 2005 ص316

[31]ــ للاستزادة ينظر ميلة(الطاهر)، الألفاظ الحضارية الحديثة في العربية بين الوضع والاستعمال رسالة ماجستير، جامعة الجزائر،2002، ص43

33_ الأشهب (خالد)، المصطلح العربي البنية والتمثيل، مرجع سابق، ص104

[33]ـــ مرتاض (عبد المالك)، شعرية القصيدة قصيدة القراءة، دار المنتخب العربي، بيروت 1994 ص234

[34]ـــ يوسف (وغليسي،) فقه المصطلح النقدي الجديد، مرجع سابق، ص136

[35]ـــ القاسمي (علي)، في علم المصطلح، مرجع سابق، ص36

[36]ـــ ينظر الأشهب (خالد)، المصطلح العربي البنية والتمثيل، مرجع سابق، ص95

[37]ـــ المرجع نفسه، ص96

[38]ـــ ينظر مولاي (على بوخاتم،) مصطلحات النقد العربي السيماءوي، الإشكالية والأصول مرجع سابق، ص81

[39]ـــ المرجع نفسه، ص82

[40]ـــ المسدي (عبد السلام)، الازدواج والمماثلة في المصطلح النقدي، مرجع سابق، ص44

[41]ـــ للاستزادة ينظر ميلة (الطاهر) الألفاظ الحضارية الحديثة في العربية، بين الوضع والاستعمال، مرجع سابق، ص42

[42]ـــ المرجع نفسه، ص43

[43]ـــ ينظر المسدي (عبد السلام)، الازدواج والمماثلة في المصطلح النقدي، مرجع سابق، ص84

[44]ـــ للاستزادة ينظر الأشهب (خالد)، المصطلح العربي البنية والتمثيل، مرجع سابق، 107

[45]ـــ أنيس(إبراهيم)، من أسرار اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط7، (د _ ت)، ص 86

[46]ـــ ميلة (الطاهر)، الألفاظ الحضارية الحديثة في العربية، بين الوضع والاستعمال، مرجع سابق ص43

[47]ـــ رياض (قاسم)، اتجاهات البحث اللغوي الحديث، مؤسسة نوفل 1982 ص175

[48]ـــ الأثري (بهجت)، محمود شكري الألوسي وآراؤه اللغوية، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية، 1958، ص141

[49]ـــ للاستزادة ينظر بوطاجين (السعيد)، إشكالية ترجمة المصطلح النقدي الجديد، مرجع سابق ص101

[50]ـــ القاسمي (علي)، في علم المصطلح، الموسوعة الصغيرة، مرجع سابق، ص101ـــ 102

[51]ـــ ينظر بن مالك (رشيد)، إشكالية ترجمة المصطلح في الخطاب السيميائي المعاصر، ملتقى الخطاب النقدي والمصطلح العلمي، الجاحظية، 1996، ص1

[52]ــ بن مالك (رشيد)، إشكالية ترجمة المصطلح في الخطاب السيميائي المعاصر، مرجع سابق ص3

[53]ــ بركة (بسام)، قاموس اللسانية مع مسرد ألفبائي، جاروس بريس، لبنان (دـ ت)، ص234

[54]ــ بنظرقنيبي (حامد صادق)، علم الدلالة والمصطلح، دار الجوزي، الأردن، عمان، ط1 2005، ص203

[55]ــ المرجع نفسه، ص 207

[56]ــ الجهود اللغوية في المصطلح العلمي الحديث، نقلا عن بوطاجين (السعيد)، إشكالية ترجمة المصطلح النقدي الجديد، ص120

[57]ــ المرجع نفسه، ص19

[58]ــ ينظر بوطاجين (السعيد)، إشكالية ترجمة المصطلح النقدي الجديد، مرجع سابق، ص19

[59]ــ للاستزادة ينظر قنيبي (حامد صادق)، علم الدلالة والمصطلح، مرجع سابق، ص209

[60]ــ ينظر المرجع نفسه، ص 211

[61]ــ ينظر بوطاجين (السعيد)، إشكالية ترجمة المصطلح النقدي الجديد، مرجع سابق، ص32

[62]- ينظر المرجع نفسه، ص39

[63]ــ الحمزاوي (محمد رشاد)، المنهجية العامة لترجمة المصطلحات وتوحيدها وتنميطها، دار الفكر الإسلامي، بيروت، ط1، 1986، ص 9

[64]- الجهود اللغوية في المصطلح العلمي الحديث، نقلا عن بوطاجين (السعيد)، إشكالية ترجمة المصطلح النقدي الجديد، ص400

[65]_ بن عزوز (حليمة) وبن حدو (وهيبة)، مأزق المصطلح اللساني في علاقته باللغة المتخصصة اعمال الملتقى الثاني في اللسانيات نوفمبر 2017، ص 147

[66]ــ بلعيد (صالح)، اللغة العربية والتعريب العلمي آراء وحلول، مجلة اللغة العربية، ع1 الجزائر، ص 136

[67]ــ ينظر علي (القاسمي) مقدمة في علم المصطلح، مكتبة النهضة المصرية، ط2، 1987 القاهرة، ص81

أثر القرآن الكريم في بناء صرح علم النحو العربي

داه. نعمان بوطهرة

جامعة باتنة 01

ملخص: تطمح الدراسة إلى الوقوف على أثر القرآن الكريم في بناء علم النحو العربي في مرحلتي النشأة والبناء، وتهيكلت ضمن خطة مكونة من ثلاثة مطالب مسبوقة بمقدمة ومتبوعة بخاتمة:

حيث تناول المطلب الأول "**النحو العربي مفهوما**" تعريف النحو لغة واصطلاحا، مع بيان ارتباط التعريف باللحن.

وركز المطلب الثاني "**أثر القرآن الكريم في نشأة علم النحو العربي**" على الروايات المتعددة التي تناولت نشأة النحو العربي بسبب اللحن الذي ارتبط بتلاوة القرآن الكريم.

واهتم المطلب الثالث "**أهمية الاحتجاج بالقرآن الكريم وقراءاته في بناء قواعد النحو العربي**" بمكانة الاحتجاج بالقرآن الكريم وقراءاته مقارنة مع المصادر الأخرى، وهذا من خلال استقراء وتحليل ما صنف في هذا المجال قديما وحديثا.

وتتوخى الدراسة المنهج الوصفي من خلال آليتي التحليل والاستقراء، مع الاستعانة بالإحصاء في بيان أهمية الاحتجاج بالقرآن الكريم بالنسبة لمصادر السماع الأخرى.

والله الموفق للصواب والمعين عليه

مقدمة: بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وصحبه ومن والاه؛ أما بعد:

فلا يمكن لعاقل أن ينكر الأهمية البالغة التي تكتسيها اللغة في حياة الأفراد والمجتمعات، فهي أحد أركان الحياة الكبرى نظرا للوظائف المتعددة والهامة المنوطة بها، ولعل هذا ما جعل فندريس **(Vendryes)** يقول: "اليد واللغة فيهما تنحصر البشرية"[1].

ولا شك في أن العربية أشرف اللغات وأوسعها على الإطلاق، وهذا بفضل ارتباطها بالقرآن الكريم الذي ورد ذكرها فيه في سياقات الثناء عليها والتنويه بفضلها وعلوٍّ منزلتها في مواضع كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل/103]، وقوله تعالى في موضع آخر: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء/193-195].

ولقد كان القرآن الكريم محفزا هاما للعقل العربي الذي أنكبَّ على تدارس العربية حرصا منه على صونها من اللحن منذ عصور مبكرة، حيث ظهرت في البيئة الفكرية العربية علوم لم يعرفها العرب من قبل، وهي علوم اللسان العربي ويأتي على رأسها علم النحو الذي يختص بدراسة الجملة العربية لبيان خصائصها التركيبية اعتمادا على استقراء الفصيح من كلام العرب.

من هنا جاءت هذه المداخلة العلمية الموسومة بـ: "**أثر القرآن الكريم في بناء صرح علم النحو العربي**" لتميط اللثام عن الدور الرئيس والفعال الذي لعبه القرآن الكريم في نشأة هذا العلم -من جهة- وإسهامه البالغ في بناء صرحه الشامخ -من جهة ثانية-، وهذا من خلال استقراء النصوص التاريخية لنشأته، وتمحيص آراء الدارسين في الأصول التي بنى عليها النحاة قواعدهم، وهي دراسة تنبثق من إشكالية تتمحور حول التساؤل التالي: هل كان القرآن الكريم -مقارنة بالعوامل

الأخرى- عاملا حاسما ورئيسا في نشأة علم النحو العربي؟ وإلى أي مدى كان إسهامه في بناء قواعد هذا العلم مقارنة بمصادر الاحتجاج الأخرى؟

وللإجابة عن هذا التساؤل اتكأت الدراسة على المنهج الوصفي من خلال آليتي الاستقراء والتحليل، مع الاستعانة بإحصاء الشواهد النحوية الموظفة في كتاب سيبويه (ت 180 هـ)؛ كونه أهم المصنفات التي أسَّست لعلم النحو العربي.

وجاءت ضمن خطة مُكوَّنة من ثلاثة مطالب مسبوقة بمقدمة ومتبوعة بخاتمة حيث تضمن المطلب الأول "**النحو العربي مفهوما** "تعريف النحو لغة واصطلاحا وركز المطلب الثاني "**أثر القرآن الكريم في نشأة علم النحو العربي**" على روايات نشأة النحو العربي بسبب اللحن الذي تسرب إلى تلاوة القرآن الكريم.

أما المطلب الثالث "**أهمية الاحتجاج بالقرآن الكريم وقراءاته في بناء قواعد النحو العربي**" فعُنِيَ بمكانة الاحتجاج بالقرآن الكريم وقراءاته مقارنةً مع مصادر الاحتجاج الأخرى، وهذا من خلال استقراء وتحليل ما صُنِّف في هذا المجال قديما وحديثا.

وفي الأخير اللهَ أسأل أن يكون هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وهو الموفق للصواب والمعين عليه.

المطلب الأول: النحو العربي مفهوما:

1- **لغة:** تكاد معاجم اللغة العربية تجمع على معاني كلمة النحو، ومنها ما ورد في مقاييس اللغة أن: "النون والحاء والواو كلمة تدل على قصد، ونحوت نحوه ولذلك سمي نحو الكلام، لأنه يقصد أصول الكلام فيتكلم على حسب ما كانت العرب تتكلم به"[2].

وقال ابن منظور (ت711هـ): "والنحو القصد والطريق يكون ظرفا ويكون اسما، نحاه ينحوه وينحاه نحوا، وانتحاه، ونحو العربية منه ... وهو في الأصل مصدر شائع؛ أي: نحوت نحوا؛ كقولك قصدت قصدا، ثم خص به انتحاء هذا القبيل من العلم"[3].

وذهب الزَّبيدي (ت1205ه) إلى هذه المعاني في قوله: "النحو: الطريق، وأيضا: الجهة، يقال: نحوت نحو فلان؛ أي: جهته، ج: أنحاء ونُحُوّ ... والنحو: القصد يكون ظرفا، ويكون اسما"[4].

ومنه فإن كلمة النحو تدور حول معان عدة منها القصد والطريق والجهة أو الناحية والصلة بين هذه المعاني واضحة؛ فالقصد لا يكون إلاّ لجهة ما عبر طريق ما.

2- **اصطلاحا:** من التعريفات القديمة لمصطلح النحو تعريف ابن السرَّاج في قوله (ت316هـ): "النحو إنما أريد به أن ينحو المتكلم إذا تعلمه كلام العرب، وهو علم استخرجه المتقدمون فيه من استقراء كلام العرب، حتى وقفوا منه على الغرض الذي قصده المبتدئون بهذه اللغة"[5]. وهو تعريف لا يركز على المعنى الاصطلاحي للنحو بقدر تركيزه على مصادره، والغاية التي وضع لأجلها.

ومن أشهر تعريفات النحو ما ذكره ابن جني (ت392ه) في قوله: "هو انتحاء سمت كلام العربي في تصرفه، من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقي والتكسير والإضافة والنسب والتركيب وغير ذلك، ليلحق من ليس من أهل العربية بأهلها في الفصاحة، فينطق بها وإن لم يكن منهم، وإن شذ بعضهم عنها رد به إليها"[6]، وما يلاحظ على هذا التعريف أنه يركز هو الآخر على الغاية من النحو وهي اتباع طرق كلام العربي، ولم يركز على ماهية النحو علما من علوم اللسان العربي.

وقد لامس ابن يعيش (ت643ه) حقيقة النحو؛ فهو عنده "قانون يُتوصل به إلى كلام العرب"[7].

وأما ابن عصفور (ت 669ه) فكان أكثر إحاطة لمفهوم النحو حين قال: "هو علم مستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب، الموصلة إلى معرفة أحكام أجزائه التي تأتلف منها، فيحتاج من أجل ذلك إلى تبيين حقيقة الكلام، وتبيين أجزائه التي يأتلف منها وتبيين أحكامها"[8].

والذي نخلص إليه من هذه التعريفات هو العلاقة الوثيقة بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي لكلمة النحو، وقد لخصها الشاطبي (ت790ه) في قوله: "وأصل النحو في اللغة القصد، وهو ضد اللحن الذي هو عدول عن القصد والصواب والنحو قصد إليه، وهو في الاصطلاح علم بالأحوال والأشكال التي بها تدل ألفاظ العرب على المعاني، ويعنى بالأحوال وضع الألفاظ بعضها مع بعض في تركيبها للدلالة على المعاني المركبة، ويعنى بالأشكال ما يعرض في أحد طرفي اللفظ أو وسطه أو جملته من الآثار والتغييرات التي بها تدل ألفاظ العرب على المعاني"[9].

ومنه فإن النحو مصطلح أطلقه النحاة القدامى على دراسة بنية اللغة العربية من جوانبها الصوتية والصرفية والنحوية، وظل المصطلح بهذا المفهوم منذ نشأة النحو العربي في القرن الثاني الهجري، إلى أن ألف ابن الحاجب(ت 646هـ) كتاب الكافية في النحو، وتناول فيه القضايا الخاصة بالإعراب وبناء الجملة العربية وخصص لبنية الكلمة المفردة كتاب الشافية في التصريف، ومنذ ذلك الحين أخذت الدراسات النحوية طريقها إلى الاستقلال عن مباحث علم الصرف، وأصبحت تعنى بدراسة نظام الجملة وعلاقاتها التركيبية، وقد عمق هذا التصور جمال الدين ابن هشام(ت761هـ) في كتابه مغني اللبيب عن كتب الأعاريب الذي خصّص جزءا هاما منه لدراسة الجملة وأنواعها، وحذا حذوه ابن عصفور الأشبيلي الأندلسي(ت669ه) الذي ألف كتابيه المقرب في النحو، والممتع في التصريف.

وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن هناك مصطلحا آخر عرف به هذا العلم وهو "**العربية**" وقد ذكره ابن سلام الجمحي(ت231هـ) في قوله: "وكان أول من استن العربية، وفتح بابها، وأنهج سبيلها، ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلي"[10].

كما يدل عليه بما روي عن عمر بن دينار (ت125ه) قال: "اجتمعت أنا والزهري (ت124ه) ونصر بن عاصم (ت89ه)، فتكلم نصر، فقال الزهري: إنه ليفلق بالعربية تفليقا"[11].

وقال الزُّبيدي (ت379ه) ناسبا نشأة النحو لأبي الأسود الدؤلي: "وهو أول من أسس العربية، ونهج سبلها، ووضع قياسها، وذلك حين اضطرب كلام العرب وصار سراة الناس ووجوههم يلحنون، فوضع باب الفاعل، والمفعول به والمضاف، وحروف النصب والرفع والجر والجزم"[12].

ونص عليه ابن فارس في قوله (ت395ه): "وكذلك الحاجة إلى علم العربية فإن الإعراب هو الفارق بين المعاني"[13]، وقال أبو النضر وهو ينسب نشأة النحو لعبد الرحمن بن هرمز: "كان عبد الرحمن بن هرمز أول من وضع العربية، وكان من أعلم الناس بالنحو، وأنساب قريش[14]،

بالإضافة إلى عديد من المؤلفات التي حملت هذا المصطلح نذكر منها:

- ✔ الواضح في علم العربية للزبيدي(ت379ه)؛
- ✔ اللمع في علم العربية لابن جني(ت392ه)؛
- ✔ المفصل في علم العربية للزمخشري(ت538ه)؛
- ✔ أسرار العربية لابن الأنباري(ت577ه)؛
- ✔ اللمحة البدرية في علم العربية لأبي حيان (ت745ه).

وختاما يمكن القول إن تسمية النحو بعلم العربية قد يوحي بمكانة هذا العلم بين علوم اللسان العربي وارتباطه الوثيق بها، فهو تلك القوانين والقواعد المستنبطة من استقراء كلام العرب، وتمكن متعلمها من تأليف الكلام العربي الصحيح من جهة النظر في العلاقات التركيبية التي تربط كل مفردات الجملة بعضها ببعض لتؤدي من خلالها وظائفها من خلال التأثير في بعضها البعض، وبهذا المفهوم فإن النحو لا يستغني عن الأصوات والصرف والدلالة والمعجم وغيرها من مستويات اللغة.

المطلب الثاني: أثر القرآن الكريم في نشأة علم النحو العربي: نشأ النحو العربي في البصرة في القرن الثاني الهجري، وتكاد تجمع الروايات أن واضعه هو أبو الأسود الدؤلي(ت 69هـ) بإيعاز من الإمام علي -رضي الله عنه-، والمتتبع لروايات نشأته يجد روايات كثيرة وحوادث مختلفة أدت إلى نشأته، والحقيقة أنه لا

يمكن لعاقل أن يتصور أن هذا الصرح العلمي العظيم قد نشأ استجابة لحادثة بسيطة، أو حوادث متفرقة، فمن غير المعقول "أن ينهض العلماء ويستفرغوا مجهودا جبارا يؤرقون فيه عيونهم ولا يطبقون جفونهم الليالي الطويلة لتأسيس فن خطير خالد الأثر في اللغة العربية وأبناء العروبة من جراء حادثة فردية كان يكفي في درئها إصلاحها وكفى"[15].

فاللحن هو العامل الرئيس في نشأته، قال سعيد الأفغاني: "يعتبر اللحن الباعث الأول على تدوين اللغة وجمعها وعلى استنباط قواعد النحو وتصنيفها؛ فقد كانت حوادثه المتتابعة نذير الخطر الذي هب على صوته أولو الغيرة على العربية والإسلام"[16].

وإذا أمعنا النظر في روايات نشأة النحو العربي نجد أن اللحن الذي كان عاملا رئيسا في نشأة النحو قد ارتبط بالإعراب، قال أبو الطيب اللغوي (ت351هـ): "واعلم أن أول ما اختل من كلام العرب وأحوج إلى التعلم: الإعراب، لأن اللحن ظهر في كلام الموالي والمتعربين من عهد النبي –صلى الله عليه وسلم–، فقد روي أن رجلا لحن بحضرته فقال: "أرشدوا أخاكم فقد ضل"، وقال أبو بكر: لأن أقرأ فأسقط أحب إلي من أن أقرأ فألحن"[17]

ومن تعريف ابن جني (ت392ه) للنحو نستطيع أن نستنتج أن اللحن لم يقتصر على الأعاجم فقط بل امتد إلى العرب ممن يسكنون الحواضر كذلك، وهذا من خلال قوله: "ليلحق من ليس من أهل العربية بأهلها في الفصاحة، فينطق بها وإن لم يكن منهم، وإن شذ بعضهم عنها رد به إليها"[18]، فالنحو علم موجه لغير العرب كما أنه موجه للعرب الذين شذوا عن العربية باللحن نتيجة اختلاطهم بالأعاجم فبغياب السليقة التي حكمت لسان العرب ردحا من الزمن يضطلع علم النحو بصون لسان العرب، ولولاه لما بقي ليوم الناس هذا.

قال أحد الدارسين: "إن اللغة العربية تسرب إليها اللحن، ووهنت الملاحظة الدقيقة التي تمتاز بها، وهي اختلاف المعاني طوعا لاختلاف شكل آخر الكلمة، فإن

هذه الميزة كانت موفورة لديهم وهم بعيدون عن مخالطة سواهم من ذوي اللغـــات الأخرى التي خلت منها، ولقد كان هذا النوع أول اختلاط طرأ على اللغة العربيـــة منذ كان الإسلام وكان الموالي والمتعربين، وطفق يزداد رويدا رويـــدا مـــا طـــال الزمن وتفسحت رقعة الإسلام"[19]

ولا شك أن الدين الإسلامي هو السبب الرئيس والعامل المهم في اختلاط العرب بغيرهم من الأمم المجاورة حيث "اختلط العرب بغيرهم اختلاطا مستمرا في البيوت والأسواق والمناسك والمساجد، وتصاهروا واندمج بعضهم في بعض، حتى تكـــون منهم شعب واحد، اجتمع فيه الصريح والهجين والمقرف والعبد ...وبطـــول هـــذا الامتزاج تسرب الضعف إلى نحيزة العربي وسليقته"[20].

وقد أشار الكسائي (ت189هـ) إلى العلاقة الوثيقة بين النحو واللحن في تلاوة القرآن الكريم في عينيته الشهيرة التي قال فيها[21]:

وإذاَ لـــــم يُبصـــــرِ النَّحـــــوَ الفتَـــــى

هـــــاب أن ينطِـــــق جبنـــــاً فـــــانقطَع

فتـــــراه يَنْصِـــــبُ الرفـــــعَ ومـــــا

كـــانَ مِـــنْ نصـــبٍ ومـــن خفـــضٍ رَفَـــع

يقـــــرأُ القـــــرآن لا يعـــــرفُ مـــــا

صَـــرَفَ الإعـــرابُ فيـــه وصـــنَع

والـــــــذِّي يعْرفـــــه يَقْـــــرَؤُه

وإذاَ مَـــا شـــكَّ فـــي حـــرفٍ رجـــع

وتؤكد بعض تعريفات النحو -لا سيما في بداياته- ارتباط اللحن بالإعراب ودوره في نشأة علم النحو؛ فهي ترى أنه "علم يعرف به أحوال أواخر الكلم إعرابا وبناء"[22].

ولقد كان لارتباط اللحن بالإعراب تأثيرا مباشرا على أداء المعاني بشكل صحيح، ناهيك عن تفشيه وتسربه إلى قراءة القرآن وما ينجم عنه من نتائج وخيمة في الإخلال بالمعاني والأحكام الواردة فيه، وهذا تهديد واضح لكيان الأمة وتقويض لدستورها ودعامتها الرئيسة، قال ابن خلدون (ت 808هـ): "تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمستعربين من العجم، والسمع أبو الملكات اللسانية، ففسدت بما ألقي إليها مما يغايرها، لجنوحها إليه باعتياد السمع وخشي أهل الحُلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأسا، ويطول العهد فينغلق القرآن والحديث عن الفهوم، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة... واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو"[23].

ولعل هذا ما يعلل تدخل أعلى هيئة للدولة الإسلامية آنذاك والمتمثلة في خليفة المسلمين والرجل الأول فيها وهو الإمام علي -رضي الله عنه-، يقول مصطفى إبراهيم: "فلما وقع اللحن في القرآن كان أثره عليهم أشد، وكان إليهم أبغض فبادروا إلى إعراب القرآن وضبط كلماته بنقط يكتبونها عند آخر الكلمات تدل على حركاتها، وكان ذلك عمل أبي الأسود في النحو، وعمل طبقتين من النحاة بعده يعربون المصحف، أي يضبطون أواخر كلماته بالنقط، ويرسلون المصاحف في الناس يهتدون في القراءة بها وتكون لهم إماما"[24].

ولقد كان عمل أبي الأسود الدُّؤلي في ضبط النص القرآني بالشكل للمحافظة على المعاني المنبجسة عن صور الإعراب أول خطوة في مسيرة بناء علم النحو العربي؛ إذ قال لكاتبه: "إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه، فإن ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف، فإن أتبعت شيئا من ذلك غنة فاجعل مكان النقطة نقطتين"[25]

وهو عمل يعكس حقيقتين لا مناص من إغفالهما؛ تتمثل الأولى في أن هذا الصنيع يدخل في سياق العناية بالقرآن الكريم والحفاظ على معانيه، وأما الثانية فتتجسد في أن هذا الاهتمام نابع من استشعار الخطر من تسرب اللحن إلى القرآن الكريم، وهذا ما يوضح بجلاء الأثر البالغ للقرآن الكريم في نشأة هذا العلم، وهو أثر يمكن أن يجزأ في شقين:

* أثر غير مباشر يتمثل في دور القرآن الكريم في تحقيق تفاعل العرب واحتكاكهم بالأمم المجاورة من الأعاجم، مما أدى إلى ضمور السليقة العربية وظهور اللحن.

* أثر مباشر يتمثل في تسرب اللحن إلى قراءة القرآن الكريم مما استدعى استشعار كبيرا بالخطر والحرص على صونه من هذا الخطر.

فقرار علي –رضي الله عنه– ما هو إلا امتداد وتطور طبيعي لقرار كان قد اتخذه الخليفة عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– لما استشعر هذا الخطر، وهذا ما نصت عليه إحدى الروايات والتي نراها عاملا حاسما في نشأة النحو العربي، فقد روي أنه قدم أعرابي في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال من يقرئني شيئا مما أنزل الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم؟ فأقرأه رجل سورة براءة، فقال إن الله بريء من المشركين ورسوله بالجر، فقال الأعرابي: أو قد برئ الله من رسوله؟ إن يكن الله تعالى بريء من رسوله فأنا أبرأ منه، فبلغ عمر رضي الله عنه مقولة الأعرابي فدعاه، فقال يا أعرابي: أتبرأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقص عيه الحادثة، فقال عمر –رضي الله عنه–: ليس هكذا يا أعرابي، فقال: كيف هي يا أمير المؤمنين؟ فقال: إن الله بريء من المشركين ورسوله، فقال الأعرابي: وأنا والله أبرأ ممن بريء الله ورسوله منهم فأمر عمر رضي الله عنه ألا يقرأ القرآن إلا عالم باللغة[26].

فأمر عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– هو الخطوة الأولى في اتجـــاه بنـــاء صرح النحو العربي، فتسرب اللحن إلى القرآن الكريم قد يؤدي إلى انغلاق الفهـــم والكفر.

وتتمشى مع رواية عمر بن الخطاب رضي الله عنه إحدى الروايات فـــي هـــذا السياق إلى أن اللحن في قراءة القرآن الكريم هو الذي أدى بعلي إلى التفكيـــر فـــي إنشاء علم النحو، فقد روي أنه سمع –رضي الله عنه– أعرابيا يقرأ (لا يأكلـــه إلا الخاطئين) فوضع النحو[27].

وقد امتد هذا الموقف من اللحن إلى الخلفاء وأصحاب الرأي في عهـــد الدولـــة الأموية؛ ومنها ما روي عن عبد الملك ابن مروان (ت 86هـــ) أنه قال وقد قيل له (أسرع إليك الشيب): "شيبني ارتقاء المنابر مخافة اللحن"[28]، وقال عمر بـــن عبـــد العزيز (ت101هـــ): "إن الرجل ليكلمني في الحاجة يستوجبها فيلحن فأرده عنهـــا وكأني أقضم حب الرمان الحامض لبغضي استماع اللحن، ويكلمني آخر في الحاجة لا يستوجبها فيعرب فأجيبه إليها التذاذا لما أسمع من كلامه"[29].

إن اهتمام أهل السلطان والرأي بظاهرة اللحن يعكس خطرها الشديد ويتجلى في تسربه إلى كتاب الله تعالى الذي فرض على الحكام أن يشقوا طريقهم نحـــو هـــذا العلم، قال أحمد سليمان ياقوت: "إن اللحن في قراءة القرآن –إعرابا– هو الذي دعا إلى نشأة النحو"[30].

والذي يجلو في هذا المطلب هو الأثر البالغ للقرآن الكريم في اللغة العربيـــة –بعامة–، وفي نشأة علومها وعلى رأسها علم النحو –بخاصة–، فلـــولاه لانـــدثرت العربية وزالت قبل أن تنشأ هذه العلوم، وهذا ما يؤكده الواقع السائد للعربيـــة قبـــل نزوله، فلقد كان العرب قبائل متشرذمة في صحراء الجزيرة العربيـــة "محـــاطين بوجود لغوي هائل من الفرس في فارس والعراق، ومن الروم في الشـــام، ومـــن الأنباط العرب في مصر، وهذه الشعوب حتى ذلك الحين كانت مساوقة للحضـــارة الإنسانية على قدر ما بلغت من مستوى ... وو ضع كهذا لا يتصور أن يـــؤول إلا

إلى الانقراض الاجتماعي واللغوي، وهو في أفضل توقعاته قد ينتهي إلى حركة هجرة من نوع الهجرات التي سبقت في تاريخ الجزيرة العربية على طول التاريخ"[31].

المطلب الثالث: أهمية الاحتجاج بالقرآن الكريم وقراءاته في بناء قواعد النحو العربي: من المعلوم أن النحاة قد بنوا قواعد النحو العربي على منهج علمي يقوم على أصول تتمثل في السماع أو النقل[32]، والقياس، والإجماع، واستصحاب حال الأصل، وغيرها.

والسماع هو أول هذه الأصول وأهمها فقد شُيدت على أساسه قواعد النحو العربي، لأن العمل الرئيس للنحاة يكمن في استقراء كلام العرب الفصحاء، وفي هذا الصدد تقول خديجة الحديثي: "السماع هو الذي دونت بموجبه اللغة لأنه الطريق الطبيعي إلى تعرف كنه اللغة وتبين خصائصها، وهو أقرب سبيل إلى ضبط العربية ومعرفة المستعمل منها، لأن اللغات في أصلها نقلية وأساس معرفتها ومعرفة خصائصها السماع"[33] ويقصد به: "الكلام العربي الفصيح (المنقول بالنقل الصحيح) الخارج عن حد القلة إلى حد الكثرة"[34]، والمقصود بأن يكون الكلام خارجا من حد القلة إلى حد الكثرة "ما جاء في كلام غير العرب من المولدين، وما شذ من كلامهم"[35].

وعرفه السيوطي (ت911هـ) في قوله: "ما ثبت في كلام من يوثق بفصاحته فشمل كلام الله تعالى وهو القرآن، وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم، وكلام العرب قبل بعثته وفي زمنه وبعده إلى أن فسدت الألسنة بكثرة المولدين نظما ونثرا، عن مسلم أو كافر"[36].

وقد قسم المسموع "إلى تواتر وآحاد، فأما التواتر: فلغة القرآن وما تواتر من السنة وكلام العرب، وهذا القسم دليل قطعي من أدلة النحو يفيد العلم"[37].

فالسماع هو المصدر الأول في بناء النحو العربي، والقرآن الكريم هو المصدر الأول الذي يقوم عليه السماع، وذكر سعيد الأفغاني أنه "لم يتوفر لنص ما توفر

للقرآن الكريم من تواتر رواياته، وعناية العلماء بضبطها وتحريرها متنا وسندا وتدوينها وضبطها بالمشاهدة عن أفواه العلماء الأثبات الفصحاء الأبيناء من التابعين عن الصحابة عن الرسول -ﷺ- فهو النص العربي الصحيح المتواتر المجمع على تلاوته بالطرق التي وصل إلينا بها في الآداء والحركات والسكنات، ولم تُعنَ أمة بنص ما اعتنى المسلمون بنص قرآنهم.

وعلى هذا يكون هو النص الصحيح المجمع على الاحتجاج به في اللغة والنحو والصرف وعلوم البلاغة، وقراءاته جميعا الواصلة إلينا بالسند الصحيح حجة لا تضاهيها حجة"[38].

تقول خديجة الحديثي: "أما القرآن الكريم فليس هناك من مخالف في الاحتجاج بألفاظه جميعها"[39]، ولقد ظهر الاستشهاد به في كتب النحو منذ بداياته الأولى.

ولم يكتف النحاة بالاستشهاد بالنص القرآني بل استشهدوا بالقراءات القرآنية "وفي جواز الاحتجاج بقراءاته المتواترة جميعها، حتى أن بعض متأخري النحاة أجازوا الاحتجاج بالقراءات الشاذة منه على الرغم من أن بعض المتقدمين منعوا الاحتجاج بها"[40]، يقول محمود أحمد نحلة: "وقد أحصيت شواهد القرآن الكريم في كتاب سيبويه من خلال فهرس كتاب سيبويه الذي وضعه الأستاذ أحمد راتب النفاخ، فوجدت عدتها ستة وتسعين وثلاثمائة شاهد، وشواهد القراءات منها نحو سبعة وخمسين ومائة شاهد، أي أن نسبتها تصل تقريبا إلى (40%) من مجموع الشواهد القرآنية، وهي نسبة عالية تبرز اهتمامه بالقراءات واعتماده عليها"[41].

ولا يمكن لأي دارس إغفال إسهام القراء البالغ في بناء النحو العربي منذ بداياته الأولى، "فلقد كان معظم النحاة من القراء، وكان كل منهم يقعد لقراءته"[42]، ومنهم عبد الله بن إسحاق الحضرم (ت118هـ) وهو كان أول من بعج (فتق) النحو ومد القياس وشرح العلل"[43]، بالإضافة إلى تلاميذه البصريين؛ عيسى بن عمر الثقفي (ت149هـ)، وأبو عمرو بن العلاء (ت154هـ)، وتلميذا عيسى بن عمر، وهما الخليل بن أحمد (ت173هـ)، ويونس بن حبيب (ت182هـ) وكلهم من القراء.

وينص شوقي ضيف على دور القراءات القرآنية والاختلافات الإعرابية بينها في بناء هذا الصرح في قوله: "ويكثر سيبويه في كتابه من التعرض للقراءات وكأن ما كان بينها من خلافات في الإعراب هو الذي أضرم الرغبة في نفوس قراء البصرة كي يضعوا النحو وقواعده وأصوله، حتى يتبين القارئ مواقع الكلم في آي الذكر الحكيم من الإعراب المضبوط الدقيق"[44].

وبينت خديجة الحديثي أنه "لم يكن في النص القرآني اختلاف لأنه من لدن عزيز حكيم، وإنما كان الاختلاف في قراءاته[45]، ومن هنا وقف النحاة مواقف مختلفة منها، لأن حقيقتها تغاير حقيقة القرآن،" فالاستشهاد بالقراءات المتواترة غير المخالفة للقياس سار عليه البصريون كما سار عليه الكوفيون، أما الاحتجاج بالقراءات الشاذة والقياس عليها، واعتبارها أصلا من أصول الاستشهاد، فهو ليس من منهج البصريين، لأنهم لم يكونوا يعتبرون من القراءات حجة إلا ما كان موافقا لقواعدهم وأقيستهم وأصولهم المقررة فإن خالفتها ردوها"[46].

والحقيقة أن رفض الاستشهاد بالقراءات القرآنية لم يكن منهج البصريين كلهم فلم تصلنا منه إلا شواهد قليلة تتحصر في القرن الثالث الهجري لا غير، ومن هذه الشواهد رفض الاحتجاج بقراءة ابن عامر الدمشقي(ت245ه) قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ﴾[الأنعام/137] بنصب ﴿أَوۡلَادِهِمۡ﴾ وجر ﴿شُرَكَاؤُهُمۡ﴾ وخطئوها، لعدم جواز الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول في غير ضرورة الشعر، أما الكوفيون فقد أخذوا بها وقاسوا عليها جواز الفصل بين المضاف والمضاف إليه بغير الظرف والجار والمجرور[47].

ومن ذلك أيضا ردهم لقراءة نافع قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ [الأعراف/10]، هذه القراءة تواترت عن نافع بن نعيم وابن عامر الدمشقي، وهما من القراء الثقاة، لأن الياء في ﴿مَعَايِشَ﴾ أصلية

ولا يجوز قلبها في الجمع، فالقلب في الحرف الثالث يكون في الزائد وليس في الأصلي، ووصف المازني نافعا بأنه لم يكن يدري ما العربية[48].

والنحاة الذين أنكروا بعض القراءات وعدوا لغتها لحنا أو شذوذا هم أبو عثمان المازني(ت249ه)، وأبو العباس المبرد(ت286هـ)، وأبو إسحاق الزجاج(ت311ه)[49].

ولعل هذه الملاحظات هي التي بنى عليها بعض الدارسين انتقادا لاذعا لنحاة البصرة واتهاما خطيرا باهتمامهم بالشعر أكثر من اهتمامهم بالقرآن الكريم وقراءاته، غير أن الحقيقة عكس ذلك تماما، يقول شوقي ضيف: "فقد كان القرآن الكريم وقراءاته مددا لا ينضب لقواعدهم، وتوقف نفر منهم إزاء أحرف قليلة في القراءات لا تكاد تتجاوز أصابع اليد الواحدة، وجدوها لا تطرد مع قواعدهم بينما تطرد معها قراءات أخرى آثروها، وتوسع في وصف ذلك بعض المعاصرين فقالوا إنهم كانوا يردون بعض القراءات ويضعفونها، كأن ذلك كان ظاهرة عامة عند نحاة البصرة مع أنه لا يوجد في كتاب سيبويه نصوص صريحة مختلفة تشهد لهذه التهمة الكبيرة"[50].

وأما النحاة المتأخرون فقد آثروا الاحتجاج بالقراءات ودافعوا عنها حتى ولو خالفت مجاري العربية، ومنهم أبو حيان(ت414ه) الذي أبدى حماسة واضحة في الدفاع عن الاحتجاج بالقراءات في قوله: "وكثير من هؤلاء النحاة يسيئون الظن بالقرأة، ولا يجوز لهم ذلك"[51]، وقد أجاز كل القراءات التي ردها المازني والزجاج والمبرد[52]، وقد هاجم الزمخشري (ت 538ه) من رد قراءة ابن عامر مقرئ أهل الشام فقال: "وأعجب لأعجمي ضعيف في النحو يرد على عربي صريح محض قراءة متواترة موجودا نظيرها في لسان العرب"[53]، واحتج ابن مالك (672هـ)" على جواز العطف على الضمير المجرور من غير إرادة الجار بقراءة حمزة(ت156ه): ﴿ تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ ﴾ [النساء/01]، وعلى جواز الفصل بين

المضاف والمضاف إليه بمفعول بقراءة ابـن عـامر(ت245ه): ﴿قَتْلَ أَوْلَـٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾[الأنعام/137]، وعلى جواز سكون لام الأمر بعد ثم بقراءة حمزة(ت156هـ): ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾[الحج/15][54]

فلو قمنا بإحصاء علمي للشواهد النحوية في كتاب سيبوية (ت180هـ) باعتباره النموذج الأرقى للمصنفات الأولى التي أسَّست للمعرفة النحوية، لوجدنا أن عدد الشواهد فيه –اعتمادا على طبعة بولاق– قد بلغ ألفا وستة وخمسين شاهدا شعريا **(1056)**[55]، في مقابل ستة وتسعين وثلاثمائة آية قرآنية **(396)**[56]، حيث يبدو من الوهلة الأولى أن نسبة الاستشهاد بالشعر العربي التي تمثل **(62.5%)** أكثر بكثير من نسبة الاستشهاد بالقرآن الكريم التي تمثل **(37.5%)**، والجدول التالي يوضح هذه النسب:

مصادر الاحتجاج	العدد	النسبة المئوية
القرآن الكريم	**396**	**%37.5**
الشعر العربي	**1056**	**%62.5**

لكن لو أنعمنا النظر في هذه الشواهد مع شيء من التأمل لمنهج سيبويه (ت 180هـ) في كتابه الذي يقوم على التفريق "بين اللغة العربية واللهجات، وأورد في كتابه عدة ظواهر من اللهجات استشهد لها بشواهد من الشعر"[57]، لوجدنا أن هذا العدد من الأبيات الشعرية موزع على "مائتي وواحد وثلاثين شاعرا، يرجعون إلى ست وعشرين قبيلة، ويرجع أولئك الشعراء إلى عصر الجاهلية أو صدر الإسلام"[58]، وعليه فإن عدد الأبيات الشعرية المستشهد بها لكل شاعر لا تكاد تبلغ الخمسة أبيات، ولا تفوق الأربعين بيتا شعريا بالنسبة لكل قبيلة، بنسبة لا تتجاوز **(3.78%)** لكل قبيلة، وهي نسبة ضئيلة جدا إذا قورنت بامتداد البيئة الجغرافية وعدد القبائل المحتج بكلامها، بالإضافة إلى الامتداد الزمني لعصور الاحتجاج ويمكن ترجمة هذه النسب في الجدول التالي:

العدد الاجمالي للابيات الشعرية	عدد القبائل	عدد الشعراء
1056	**26**	**231**
النسب المئوية	**%3.78**	**%2.17**

ويضاف إلى النسبة المعتبرة لاستشهاده بالقرآن الكريم استشهاده بالقراءات القرآنية المتواترة، فقد بلغ سبعة وخمسين ومائة شاهد (**157**)، أي أن نسبتها تصل تقريبا إلى (**40%**) من مجموع الشواهد القرآنية، وهي نسبة عالية تبرز اهتمامه بالقراءات واعتماده عليها"[59].

والذي يجلو من كل هذا أن القرآن الكريم وقراءاته قد كانا المصدر الرئيس والأهم في بناء قواعد النحو العربي، وأن منهج النحاة في اعتمادهم عليه كان سليما وعلميا إلى حد بعيد، والانتقادات الموجهة إليهم في عدم اهتمامهم بالقرآن الكريم والقراءات القرآنية لا تستند إلى التحليل العلمي المعمق، فمن غير المنطقي أن يكون هو العامل الرئيس وقطب الرحى في نشأة هذا العلم ثم لا يعتمد عليه فيما بعد.

الخاتمـــــة: حاولت الدراسة أن تميط اللثام عن أثر القرآن الكريم في نشأة علم النحو العربي –من جهة–، وإسهامه البالغ في نموه وتطوره، من خـــلال تمحـــيص الروايات التي تنص على أسباب نشأة النحو العربي، وتحليل آراء بعض الدارســـين التي فحواها أن النحاة قد قدموا كلام العرب وعلى رأسه الشعر على القرآن الكريم وقراءاته –من جهة ثانية–، واتكأت على الإحصـــاء العلمـــي للشـــواهد الشـــعرية والقرآنية في كتاب سيبويه كونه أهم المصنفات المؤسسة لهذا العلم، وقد توصـــلت إلى النتائج التالية:

* ليس من المنطق أن يكون النحو العربي بهذا النضج وهذا الحجـــم قـــد نشـــأ نتيجة حوادث متفرقة وبسيطة كتلك التي بين أبي الأسود وابنتـــه، حيـــث عـــنَّ أن اللحن في تلاوة القرآن الكريم هو العامل الرئيس في نشأة النحو العربي؛ فظـــاهرة اللحن قد نشأت جراء اختلاط العرب بغيرهم من الأمم، وسبب هذا الاختلاط دينـــي محض لعب القرآن فيه العامل الرئيس –هذا من جهة– ومن جهة أخرى فقد ارتبط اللحن بخاصية من أهم خصائص العربية وهي الإعراب الذي يلعب دورا هاما في الإبانة عن المعاني، وتبين أن هذا اللحن من شأنه أن يؤدي إلى تحريف في كـــلام الله تعالى عن مواضعه، وهذا ما يفسر الخطوة الأولى في بنائه التـــي كانـــت فـــي محاولة نقط القرآن الكريم التي قام بها أبو الأسود الدؤلي (ت 69هـــ)، كما يعلـــل تدخل أصحاب الشأن والرأي في أعلى هرم السلطة آنذاك، فقد نشأ النحو بأمر مـــن خليفة المسلمين علي رضي الله عنه، وقد سبقه في هذا الاهتمام عمر بن الخطـــاب رضي الله عنه الذي أمر أن لا يقرأ القرآن إلا عالم باللغة، وهـــذان الأمـــران قـــد يعودان إلى موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من اللحن إذ قال لما ســـمعه مـــن أحدهم: "أرشدوا أخاكم فقد ضل" فاللحن في نظر الدين هو الضلال والتحريف؛

* القرآن الكريم هو المصدر الأول الذي اعتمده النحاة في بناء قواعـــد النحـــو العربي، وهذا عكس ما تصوره بعض الدارسين الذين عابوا على النحـــاة تقـــديمهم كلام العرب على القرآن وقراءاته، فقد كانت نظرتهم غير فاحصة، وبنوا انتقـــادهم

على قراءات سطحية، فبعد تفحص الشواهد في كتاب سيبويه تبين أنه استشهد بالقرآن الكريم (**37.5 %**) من مجموع النصوص المحتج بها، وبالقراءات القرآنية بنسبة (**40 %**) من مجموع الشواهد القرآنية، هذا في مقابل نسب ضئيلة جدا للشعر العربي خاصة إذا راعينا اضطرار النحاة للاستشهاد به لظواهر لهجية في مواضع كثيرة، بالإضافة إلى مراعاة امتداده الزمني والجغرافي الواسع، فقد بين الإحصاء أن نسبة الاستشهاد بكلام العرب لكل قبيلة لا تتجاوز (**3.78 %**) من مجموع المستشهد به في كتاب سيبويه، أما نسبة الاستشهاد لكل شاعر فقد بلغت (**2.17 %**) من مجموع الأبيات المستشهد بها، **و**هي نسب ضئيلة إذا قورنت بنسبة الاحتجاج بالشواهد القرآنية والقرءات في الكتاب.

والذي نخلص إليه في نهاية المطاف أن النحو العربي مظهر من مظاهر النصر التي حققها القرآنُ للعربية الخالدة بخلوده، ولولاه لما ظل كتاب الله مفهوما ليوم الناس هذا، وقد تعدى هدفه الحفاظ على هذا اللسان إلى العمل على خروجه من جزيرة العرب إلى شتى بقاع الأرض، ولعل هذا ما عناه ابن جني (ت392ه) من قوله: "ليلحق من ليس من أهل العربية بأهلها وإن لم يكن منهم"، والله الموفق للصواب والمعين عليه.

الهوامش والإحالات:

[1]- اللغة. جوزيف فندريس. ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص. مكتبة الأنجلو المصرية. مطبعة لجنة البيان العربي. 1950 م. ص 01.

[2]- مقاييس اللغة. أحمد بن فارس. تح: د/عبد السلام محمد هارون. دار الفكر .1399 ه – 1979م. 403/5.

[3]- لسان العرب. ابن منظور. مج213/13.

[4]- تاج العروس. المرتضى الزبيدي. 41/04.

[5]- الأصول في النحو. ابن السَّراج. تح: عبد الحسين الفتلي. مؤسسة الرسالة. بيروت 36/01.

[6]- الخصائص. أبو الفتح عثمان بن جني. تح: محمد علي النجار. دار الكتب المصرية. القاهرة. ط02. 34/1952.01.

[7]- شرح المفصل. موفق الدين أبو البقاء بن يعيش. تح: د/ إيميل بديع يعقوب. دار الكتب العلمية . بيروت. ط01. 1422ه-2001م. 66/01.

[8]- المُقَـرَّب. علي بن مؤمن ابن عصفور. تح: د/ أحمد عبد الستار الجواري وعبد الله الجبوري. ط01. 1392ه- 1972م. 45/01

[9]- المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية. إبراهيم بن موسى الشاطبي. تح: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين. جامعة أم القرى. ط01. 1428ه- 2007م. 17/01-18.

[10] – طبقات فحول الشعراء. محمد ابن سلام. دار الكتب العلمية. بيروت. د ط. 1422ه – 2001م. ص 29.

[11]- أخبار النحويين البصريين. القاضي أبو سعيد الحسن السيرافي. تح: د/ طه محمد الزيتي ومحمد عبد المنعم خفاجي .مطبعة مصطفى البابي الحلبي . مصر. ط01. 1374ه- 1955م. ص16.

[12]- المرجع نفسه ص21.

[13]- الصَّاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها. ابن فارس. تح: د/ أحمد حسن بسج. دار الكتب العلمية. بيروت. ط01. 1418ه- 1997م. ص 35.

[14]- طبقات النحويين واللغويين. محمد بن الحسن الزبيدي أبو بكر. تح: د/ محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف. القاهرة. ط02. 1984. ص26.

[15]– نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة. الشيخ محمد الطنطاوي. دار المعـارف. القـاهرة. ط 02. 1995م. ص 18.

[16] – من تاريخ النحو. سعيد الأفغاني. دار الفكر. دمشق. ص08.

[17]– معجم الأدباء82/01.

[18]– الخصائص. ابن جني (مصدر سابق) 01/34.

[19]– نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة. الشيخ محمد الطنطاوي (مرجع سابق). ص 15-16.

[20] – المرجع نفسه. ص 15.

[21]– أصول التفكير النحوي. د/ علي أبو المكارم. دار غريب. القاهرة. 2007م. ص 29.

[22]– شرح كتاب الحدود في النحو. عبد الله بن أحمد الفاكهاني. تح: د/ المتولي رمضـان أحمـد الدميري. ط01. 1408ه – 1988م. ص 52- 53.

[23]– مقدمة ابن خلدون. عبد الرحمن بن خلدون. تح: عبد الله محمـد الـدرويش . دار يعـرب. دمشق. ط01. 1425ه-2004م. 02/ 368- 369.

[24]– إحياء النحو. د/ مصطفى إبراهيم. مؤسسة هنـداوي للتعلـيم والثقافـة. القـاهرة. 2012م. ص21.

[25] –أخبار النحويين البصريين. أبو سعيد السيرافي. تح: طه محمد الزيتي. محمـد عبـد المـنعم خفاجي. مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده. مصر. ط 1. 1374ه – 1955م. ص 12.

[26]– نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة. الشيخ محمد الطنطاوي (مرجع سابق). ص25.

[27]– المرجع نفسه. 25.

[28]– من تاريخ النحو. سعيد الأفغاني (مرجع سابق). ص11-12.

[29]– المرجع نفسه. ص 26.

[30]– ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقها في القرآن الكريم. د/ أحمد سليمان يـاقوت. دار المعرفة الجامعية. إسكندرية. 1994 م. ص 187

[31]– في علم اللغة العام. د/ عبد الصبور شاهين. مؤسسة الرسالة. بيـروت. ط 06. 1413 ه – 1993 م. ص247.

[32]– أطلق عليه ابن الأنباري مصطلح النقل. ينظر: الإغراب في جدل الإعراب ولُمَع الأدلة فـي أصول النحو. أبو البركات بن الأنباري. تح: سعيد الأفغـاني. دار الفكـر. بيـروت. 1391ه – 1981م. ص81.

[33] – الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه. د/ خديجة الحديثي. مطبوعات جامعة الكويت. 1394ه – 1974م. ص 134.

[34]– الإغراب في جدل الإعراب ولمع الأدلة. أبو البركات بن الأنباري (مصدر سابق). ص81.

[35]– المصدر نفسه. ص81.

[36]– الاقتراح في أصول النحو. جلال الدين السيوطي. تح: عبد الحكيم عطية. دار البيروني. ط 02. 1427ه – 2006م. ص39.

[37]– الإغراب في جدل الإعراب ولمع الأدلة. أبو البركات بن الأنباري (مصدر سابق). ص83.

[38]– في أصول النحو. سعيد الأفغاني. المكتب الإسلامي. دمشق. 1407ه –1987م. ص28.

[39]– الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه. د/ خديجة الحديثي (مرجع سابق) ص136.

[40]– المرجع نفسه. ص136

[41]– أصول النحو العربي. د/ محمود أحمد نحلة. دار العلوم العربية. بيروت. ط01. 1407ه– 1987م. ص34.

[42]– ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقها في القرآن الكريم. د/ أحمد سليمان ياقوت (مرجع سابق). ص 187.

[43]– طبقات النحويين واللغويين. أبو بكر الزبيدي. (مصدر سابق). ص 31. والمدارس النحوية. د/ شوقي ضيف. دار المعارف. القاهرة. ط07. ص 23.

[44]– المدارس النحوية. د/شوقي ضيف (مرجع سابق). ص 18.

[45]– القراءات القرآنية " هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتبة الحروف أو كيفيتها؛ من تخفيف وتثقيل وغيرها" ينظر: البرهان في علوم القرآن ن. بدر الدين الزركشي. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية. مصر. ط01. 1376ه– 1957م. 318/01.

[46]– الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه. د/ خديجة الحديثي (مرجع سابق). ص47

[47]– ينظر: المرجع نفسه ص48.

[48]– ينظر: تفسير البحر المحيط. محمد بن يوسف أبو حيان أثير الدين. تحقيق: الشيخ عادل أحمد والشيخ علي معوض. دار الكتب العلمية بيروت. ط01. 1413ه– 1993م.271/04.

[49]– ينظر: أصول النحو العربي. د/ محمد خير الحلواني. أفريقيا الشرق. الدار البيضاء. المغرب. ط02. 2010. ص38.

[50]– المدارس النحوية. د/ شوقي ضيف (مرجع سابق). ص 19.

[51]– تفسير البحر المحيط. محمد بن يوسف أبو حيان أثير الدين (مصدر سابق) 172/04.

[52]– أصول النحو العربي. د/ محمد خير الحلواني (مرجع سابق). ص38.

[53]– تفسير البحر المحيط. محمد بن يوسف أبو حيان أثير الدين (مصدر سابق). 32/04.

[54]– الاقتراح في أصول النحو. جلال الدين السيوطي (مرجع سابق). ص40

[55]– ينظر: شواهد الشعر في كتاب سيبويه. د / خالد عبد الكريم جمعة. الدار الشرقية. مصر الجديدة. ط 02. 1409هـ – 1989م. ص 502.

[56]– ينظر: أصول النحو العربي. د / محمود أحمد نحلة (مرجع سابق). 34.

[57]– شواهد الشعر في كتاب سيبويه. د. خالد عبد الكريم جمعة (مرجع سابق). ص 504

[58]– المرجع نفسه. ص 504.

[59]– أصول النحو العربي. د/ محمود أحمد نحلة (مرجع سابق). ص34.

"الآليات التداولية في تعزيز التفاعل بين القرآن الكريم واللغة العربية عند المتعلمين في مرحلة التعليم المتوسط وفق مناهج الجيل الثاني".

وسيلة داودي

جامعة محمد لمين دباغين، سطيف2

كانت معجزة الرسول ﷺ معجزة من نوع خاص: معجزة لغوية، وكونها كذلك لا يعني أنّها مقصورة على جانب الشكل الخارجي، أو الظاهري. فاللغة تجمع بين الشكل والمضمون، بين اللفظ والفكرة، بين الأداء والمحتوى.[1]، فمستقبل العلاقة بين القرآن الكريم واللغة العربية لا يختلف كثيرا عن مستقبل الإسلام ولغته الحيّة بل هو داخل فيها مشتبك بها اشتباك الماء بالعود الرطب.[2]

وعليه فالاهتمام باللغة من بين انشغالات الأمم، شعوبا وأفرادا، فأيُّ لغة تشكل مدخلا رئيسا للتطور والإنتاج الاقتصادي فوجود لغة مشتركة أهم من وجود عملة مشتركة.[3] ولذلك يسعى العالم العربي إلى ضرورة الإسهام في تطوير اللغة العربية، ذلك أنّ «أهمية اللغة العربية لا تكمن في كونها لغة تراثنا وديننا وحضارتنا فقط، بل في كونها اللغة التي يفترض أنّنا بها نتعلم ونتثقف ونقرأ ونفكر ونحب ونناقش، وعليه فإنّ أيّ قصور في اللغة سيؤدي إلى تعطيل تلك الوظائف وإلى إسقاط الفكر العربي والموقف العربي من مفكرة المحافل الدولية السياسية والاقتصادية والثقافية ذات الشأن»[4].

إنّ علاقة اللغة العربية بالقرآن الكريم هي علاقة الماء بمنبعه، ولا ريب في أنّ القرآن هو النبع الّذي تدفّقت منه العربية[5]، فبقدر تهذيبه كانت، وبقدر وضوح قصده بلغت، وبقدر أجود أساليبه اتّصفت، لقد أضاف القرآن الكريم معاني جديدة وأساليب بلاغية لم يعهدها أصحابها، وتراكيب غير مألوفة على سمعهم إلى غير ذلك ممّا أكسب اللغة العربية ثراء ودقّة وجمالا.[6]

وانطلاقا من حرص القرآن الكريم على التعليم والتعلم باعتبارهما وسيلتين مهمّتين في نماء الذّهن وتوسيع الفكر، وترسيخ العقيدة، واكتساب الملكة اللسانية والكفاءة اللغوية، عزمنا العقد على بحث في المنهج الملائم لتعزيز التفاعل بين القرآن الكريم واللغة العربية للمتعلم، «فهذا بحث في المنهج، وأيضا بحث عن منهج»[7]، فنحن أحوج ما نكون إلى البحث في المنهج، وبخاصة عند الحديث عن العلاقة بين القرآن الكريم واللغة العربية. ومحاولة منّا للإجابة على عديد التساؤلات والّتي يخص منها عبد السلام المسدي بالذكر ما يأتي:[8] كيف نتحدّث عن التخطيط المستقبلي الشامل ونحن نعيش انفصاما بين أدوات المنظومة التربوية وشروط النهضة الحضارية؟ كيف نرقى إلى آليات الاستثمار في حقل التواصل؟ وكيف نمسك بأساسيات اقتصاد المعرفة ومجتمعنا العربي هو المجتمع الوحيد الّذي يفتقر لمشروع لغوي واضح السمات متناسق الغايات ومنسجم الرؤى؟.

وسعيا وراء تأسيس هذا المشروع وتعزيز التفاعل والتواصل بين القرآن الكريم واللغة العربية، سنخطو خطوات حذرة نحو ذلك، بالاعتماد على الأبحاث العلمية وانطلاقا من هذا التصور سنعمل على دراسة اللغة العربية في ضوء القرآن الكريم وفق ما يناسب ذلك من مجانسة لمنهج يحقق وظيفتي التواصل والتفاعل معا.

1- **التداولية وأبعادها في التعليمية:** لا مراء في أنّ المعرفة في تجدد مستمر فقد أفرزت معارف ومفاهيم متباينة، من بينها التيار التداولي، «وهو مذهب لساني يدرس علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه، وطرائق وكيفيات استخدام العلامات اللغوية بنجاح، والسياقات والطبقات المقامية المختلفة التي ينجز ضمنها الخطاب والبحث عن العوامل التي تجعل من الخطاب رسالة تواصلية واضحة وناجحة والبحث في أسباب الفشل في التواصل باللغات الطبيعية».[9]

وعليه، فإنّ الدرس اللغوي التداولي «يدرس المنجز اللغوي في إطار التواصل وليس بمعزل عنه، لأنّ اللغة لا تؤدي وظائفها إلاّ فيه، فليست وظائف مجردة.

وبما أنّ الكلام يحدث في سياقات اجتماعية، فمن المهم معرفة تأثير هذه السـياقات على نظام الخطاب المنجز».[10]

ولذلك يُعنى المنهج التداولي بدراسة مقاصد المرسل، وكيف يستطيع أن يبلغها في مستوى يتجاوز مستوى دلالة المقول الحرفية، وكيفية توظيف المرسل للمستويات اللغوية المختلفة في سياق معين.[11] فمن الصعب الاكتفاء بمستوى واحد، والقول بالاستقلال، فبالرغم من إمكان دراستها مستقلة إجرائيا، إلا أنّه يتعذر مثل هذا عند إرادة إجرائها على الخطاب؛ وإلا أمكن إنتاج ما لا معنى له مع توفر صحته النحوية، أو إنتاج خطابات ذات صحة دلالية تكتفي بصدق أو كذب، وعليه فإنّ التكامل بين هذه المستويات الثلاثة بات ضروريا.[12]

فالمنهج التداولي هو حل لبعض المشكلات، من وجهة نظر المرسل ببحثه عن أفضل طريقة لينتج خطابا يؤثّر به في المرسل إليه، والمرسل إليه يبحث عن أفضل طريق للوصول إلى مقاصد المرسل.[13]

فالمعنى كقيمة للملفوظ لا تتحكم فيه اللغة بقدر ما يتحكم فيه مستعملها، ووفقا لهذا المنهج تتكئ عملية الفهم والإفهام على معرفة السياق، الذي يوفر للمرسل توظيف كل هذه المستويات[14].

1-1. **علاقة التداولية باللسانيات التعليمية:** انطلاقا من أنّ التفكير اللساني جزء من الإستراتيجية الديداكتيكية لأنّه يمدّها بحقل من المفاهيم وبمنهج التحليل ومنظور التفكير ويستمد منها بعضا من فرضياته ومواضيع اشتغاله، كما أنّ أسئلة المهتم بديداكتيك اللغات هي أسئلة في عمقها تستند إلى الأسس الإبستمولوجية للسانيات: [15]

- ككيفية اكتساب التعلم للنسق اللغوي.
- علاقة النسق اللغوي بالمحيط الاجتماعي.
- كيفية تعلم اللغة: الجملة، النص، الكلمة...

أثّرت التداولية في ميدان التعليم من خلال تركيزها على فكرة مفادها أنّ التعليم لا ينحصر على تعليم التركيب كبنية لغوية دون الممارسة الميدانية التي تعمل على معرفة مضمون الأقوال وأقدار الكلام، ومعانيها، وأغراض المعلم التي يعتني فيها بالمتعلم، والمنجز اللغوي، والسياق الذي تحدث فيه العملية التعليمية، لتحقيق التواصل والتفاعل، وعدّت البعد التداولي للغة من بين أهداف العملية التعليمية.[16]

1-2. العناصر التداولية في العملية التعليمية: لا يقوم الناس بالحديث لمجرد تحريك أعضاء النطق، ولكن ليؤدوا وظيفتين اثنتين: وظيفة تواصلية ووظيفة تفاعلية، فالوظيفة التواصلية هي ما تقوم به اللغة من نقل ناجح للمعلومات، أمّا الوظيفة التفاعلية فهي التي يقيم الناس بها غايات لأنفسهم، تحقق اللغة فيها وظيفة تداولية تتفاوت بحسب القصد أو الهدف للمتكلم، حيث تتبني هاتان الوظيفتان من وجهة نظر تداولية، على كون أي خطاب، قائم على جملة من العناصر.[17] ولعلّ الخطاب التعليمي هو مجال من مجالات تعدد الخطاب، يعنى فيه أطراف عدة، وعناصره كالآتي:

_ المرسل (المعلم)، فبدونه لا يكون خطاب؛ فهو الطرف الأول الذي يتجه به إلى الطرف الثاني ليكمل العملية التعليمية، بقصد إفهامه مقاصده أو التأثير فيه، فهو يختار ما يناسبه ويناسب المرسل (المتعلم)، ويناسب المقام التخاطبي.

– المرسل إليه (المتعلم)، وهو طرف الخطاب الثاني، يمارس دورا في توجيه المرسل عند اختيار أدواته وصياغة خطابه، يعمل على تفكيك الخطاب وتأويله لمعرفة أهداف المرسل والخطاب.

– السياق، وهو المجال العام الذي يتضمن الأدوات والآليات المناسبة لعملية الفهم والإفهام، عناصره تسهم في عملية التعبير عن المقاصد.

– الخطاب، (المنجز اللغوي) وهو خلاصة العناصر السابقة، تتجلى فيه الآليات والأدوات اللغوية المناسبة، تبرز فيه العناية بأطراف عديدة، يعمل المرسل (المعلم) على العناية بها، من بينها:

العناية بالمتعلم، كيف عامل المعلم المتعلم، هل حاول إقناعه، أم فرض سلطته عليه بما يريده من خطاب؟، هل حاول أن يقرّبه من خطابه التعليمي؟ هل نزل إلى مستوى المتعلم وحاول معرفة قدراته، أم بقي متعاليا عليه يحشو رأسه بمادة علمية كثيفة؟ هل اعتنى بالسياق الذي يلقي فيه خطابه، أم أنّه أهمله ولم يكترث به؟ هل اهتم بالمنجز اللغوي محور الخطاب التعليمي، أم أنّ كل منجز صالح لأيّ متعلم؟ كل هذه الاعتبارات يكتنزها الخطاب، ويحاول المعلم بوصفه مرسلا العناية بها.

2- أبعاد التداولية في تعزيز التفاعل بين القرآن الكريم واللغة العربية:
سنحاول في هذه المساحة أن نستفيد، من المنهج التداولي في تعزيز التفاعل بين القرآن الكريم واللغة العربية، من خلال مبادئ تداولية، نعمل فيه على التركيز على الأعمال التي اكْتَسَتْ «رؤيةً يقظةً وثاقبةً للتراث ووعي موضوعي بالمناهج القديمة والحديثة يجمع بين إعمال النظر في التراث قصد تجديده واستنهاضه»[18]، ومن بين هذه الأعمال المشروع الفكري لـ**طه عبد الرحمن** في المجال التداولي، حيث ينقسم هذا الأخير إلى ثلاثة أصول: عقدية، لغوية، معرفية، انطلاقا من تعريفه للتداوليات بصيغة الجمع «وهي الدراسات التي تختص بوصف -وإن أمكن بتفسير- العلاقات التي تجمع بين الدوال الطبيعية ومدلولاتها وبين الدّالين بها»[19] كما يميّز بين أنواع من التداوليات، كالتداوليات الصورية، والتداوليات الدلالية والتداوليات الحوارية.[20]

حيث كانت أكثر استفادته من قسم التداوليات في أبوابه الثلاثة: باب "أغراض الكلام "وباب "مقاصد المتكلمين" وباب "قواعد التخاطب".[21] فإنّ **طه** بانفتاحه على التيار التداولي يعطي الأولوية للجانب التفاعلي في اللغة، وخصوصية ذلك تكمن في كونه يؤمن بأنّ اللغة مؤسسة اجتماعية، تشحن داخلها خزانا ثقافيا وقيميا يشكل مجالها التداولي الذي تتفاعل بواسطته مع العالم الخارجي.[22] إذ إنّه رام إلى

مشروع علمي تلفّه نظرية تكاملية بين ركنين أساسيين هما: المجال التداولي والتقريب التداولي.

2-1. **المجال التداولي:** يطرح **طه عبد الرحمن** مصطلح "**المجال التداولي**" الذي يتردد كثيرا في مؤلفاته، فوضع له تعريفات مخصوصة وقواعد محددة. فالفيلسوف بنظر **طه** كغيره ممّن يجعلون للتداول مكانا في إنتاجهم قصدوا إلى ذلك أم لم يقصدوا يعوّل على ما سبقت معرفته من لدن خصوص أو عموم، فتجده لا يفتأ يسند مفاهيمه إلى ما استقر في مجاله التداولي، جاعلا فيها أسبابا قوية للترسيخ.[23]

توصّل **طه عبد الرحمن** إلى إبداع المجال التداولي من خلال ممارسته لدراسة التراث وهو مشروع يستقرئ في إثره قواعد الممارسة الإسلامية العربية، ليصبح المجال التداولي الحجر الأساس في المشروع العلمي للمفكر من خلال استثمار آليات لغوية، تجمع بين الاشتغال التداولي والتقريبي، بالتركيز على المنهج الذي أنتج التراث.

يقتنع **طه** أشد الاقتناع بوصل المفاهيم بمعناها اللغوي، لما يُضْفيه هذا الوصل من إضافة للفهم والتطبيق، ولأنّ التداول يجمع بين **التواصل والتفاعل**، ليكون القول في فكر **طه** موصولا بالفعل، «فالتداول -عندنا- متى تعلق بالممارسة التراثية، هو وصف لكل ما كان مظهرا من مظاهر التواصل والتفاعل بين صانعي التراث من عامة الناس وخاصتهم كما أنّ المجال، في سياق هذه الممارسة، هو وصف لكل ما كان مكانيا وزمانيا لحصول التواصل والتفاعل».[24]

ويُقصَد من المجال التداولي «كل المقتضيات العقدية والمعرفية واللغوية -القريب منها والبعيد- المشتركة بين المتكلم والمخاطب والمقوّمة لاستعمال المتكلم لقول من الأقوال بوجه من الوجوه».[25] ليكون مجال التداول محل التواصل والتفاعل بين صانعي التراث من خلال أسباب عقدية ولغوية ومعرفية.

وانطلاقا من دعوى التداول الأصلي التي اقترحها **طه** ومضمونها هو الآتي: «لا سبيل إلى تقويم الممارسة التراثية ما لم يحصل الاستناد إلى مجال تداولي متميز عن غيره من المجالات بأوصاف خاصة ومنضبط بقواعد محددة يؤدي الإخلال بها إلى آفات تضر بهذه الممارسة»[26]. وتتبني هذه الدعوى على الأركان الثلاثة الآتية: [27]

- تميز المجال التداولي عن غيره من المجالات الثقافية.
- أصناف القواعد التي ينضبط بها هذا المجال في الممارسة التراثية.
- أنواع الآفات المترتبة عن الإخلال بقواعد هذا المجال.

ليقف على أسباب التواصل والتفاعل فيه، وهي تنقسم إلى أقسام كبرى ثلاثة: الأسباب اللغوية، والأسباب العقدية، والأسباب المعرفية.

2-1-1. **خصائص المجال التداولي:** من أهم خصائص المجال التداولي عند **طه عبد الرحمن**، أنّه يحقق درجات نافعة من التداخل بين عناصره، من خلال **آلية الاستعمال وآلية الاستكمال**، ذلك أنّ الوظيفة التداولية لكل قسم لا تتم إلا عبر الاستعمال؛ استعمال تواصل واستعمال تفاعل، فاستعمال اللغة أن تكون **مبيّنة** تحمل المخاطَب على الحركة، واستعمال العقيدة أن تكون **راسخة** تنهض بالمخاطَب على الاستعمال، واستعمال المعرفة أن تكون **نافعة** تنفعل بها الذات ويفعل بها الغير لتنفيذها، أمّا بالنسبة للاستكمال، بالنسبة للغة والعقيدة والمعرفة يكون على التوالي: **بالتبليغ والتقويم والتحقيق**، ليجتمع وصفان في كل عنصر.[28]

2-1-2. **قواعد المجال التداولي:** لابدّ أن يتكون كل قسم من أقسام المجال التداولي من جملة من القواعد التداولية تستند إلى معايير ثلاثة هي: معيار التسليم ومعيار التمييز، ومعيار التفضيل.[29]

- يتكون الأصل العقدي من قواعد: الاختيار والائتمار والاعتبار.[30]
- يتكون الأصل اللغوي من قواعد: الإنجاز والإيجاز.[31]

- يتكون الأصل المعرفي من قواعد: الاتساع والانتفاع والإتباع.[32]

2-2. **التقريب التداولي:** يطرح **طه عبد الرحمن** دعوى التقريب التداولي كمعالجة تكميلية للركن الأول، وهو المجال التداولي، حيث يرى بأنّه مسلك معرفة الممارسة التراثية إذ يسلم بأنّه «لا سبيل إلى معرفة الممارسة التراثية بغير الوقوف على التقريب التداولي الذي يتميز عن غيره من طرق معالجة المنقول باستناده إلى شرائط مخصوصة يُفضي عدم استيفائها إلى الإضرار بوظائف المجال التداولي فضلا عن استناده إلى آليات صورية محددة».[33]

ميّز **طه** التقريب عن مفاهيم متاخمة مثل التوفيق والتسهيل والمقاربة؛ حيث يراه يختلف عن التوفيق في عدم اشتراطه التعارض، ويختلف عن التسهيل في عدم اقتصاره طلب السهولة في العبارة بل التصحيح في جميع أصول المجال، ويختلف عن المقاربة في قربه إلى درجة المطابقة واستناده إلى اليقين عكس المقاربة التي تحصل مع بقاء البعد ولو جزئيا، لنخلص إلى أنّ التقريب عملية تداولية تصحيحية يقينية.[34]

وعليه فإنّ نقيض التقريب وهو التبعيد الذي يسبب **تطويل*** العبارة في الأصل اللغوي، فالتقريب التداولي **اختصار** في العبارة، بجعلها صحيحة الدلالة وسليمة التركيب، كما ينفع المخاطَب في **اليسر** في استعمالها و**اليقين** في مضمونها.[35]

وإذا كان التبعيد **تهويلا**** في المعرفة، فالتقريب التداولي **تهوين للمعرفة** يفيد المضمون إلى **المألوف** من المعاني، كما يفيد المخاطَب **بمقدرته** على الإفادة العملية.[36] وإذا كان التبعيد **تعطيلا***** في العقيدة، فالتقريب التداولي **تشغيل للاعتقاد،** إذ ينفع المحتوى العقدي **بتفعيله** عن طريق تأسيس المدلول الاصطلاحي على المدلول اللغوي، كما يفيد المخاطَب بأن ينهض **بتأصيله** إذ إنّ المعاني العقدية توسع نطاق الأفعال لديه في مجاله التداولي.[37]

ليشمل التقريب أصنافا كبرى ثلاثة وهي: الاختصار والتهـوين والتشـغيل.[38] ويكون الاختصار عملية تختص بتقريب التعبير، والتهوين عملية تختص بتقريـب الفكر، والتشغيل عملية تختص بتقريب الاعتقاد.

فكما أنّ التقريب عملية متعلقة بمجال التداول، فكذلك التبعيد عملية متعلقة بـه، فإذا كان التبعيد تطويلا في العبارة، يتجلّى الإخلال التبليغي المتعلق بالصيغة فـي آفتين اثنتين: آفة الحشو وآفة الركاكة، أما في المخاطَب، يتجلّى الإخلال التبليغـي في آفتين هما: آفة الإتعاب وآفة التشكيك.[39]

وإذا كان التبعيد تهويلا، أضرّ بالمعرفة من جانب المضمون فأفضى إلى الوقوع في آفة الإغراب، أما أثرها في المخاطَب تورث آفة التعجيز، أمّـا كـون التبعيـد تعطيل، أضرّ بالاعتقاد من جانب محتواه الدلالي للفظ، فأفضى إلى الوقوع في آفة التضمين، ومن جهة أثره في المخاطَب، أدّى إلى ارتكاب آفة الاستئصال.[40]

3- أثر المنهج التداولي في تعزيز التفاعل بين اللغة العربية والقرآن الكريم:

انطلاقا من دعوته إلى تأسيس "فلسفة تداولية" تأخذ بالأسـباب اللغويـة للأمّـة العربية وتمكنها من الحق في الإبداع الفلسفي، اشتغل **طه عبد الرحمن** على اللغـة يصنع بذلك منعطفا لغويا يتّخذ صورة فريدة، فمع اعترافه بدورها في توجيه الفكر فإنّه لم يلغ إمكانية الحضور الفكري المجاوز لما تضمره المدلولات اللغوية، ومـا ينطوي فيها من إشارات دلالية، فالفكر قد يجترح سبلا تبدع في اللغة وتتعدى بهـا زمان الماضي عندما تقترن بحاضرها لتحضر فيه أو تستشرق أفقها لتدل عليه.[41] فهو يشرك بنية اللغة العربية في بناء مضامين فلسفة إسلامية عربية، بالإضافة إلى المضامين الفكرية والعلمية العامة.[42]

ولذلك فقد عملنا على الأخذ من هذا الكنز المعرفي والـذي يمثـل إرهاصـات لتداولية عربية تتلاءم مع البناء المجتمعي بكل ثقافاته واعتقاداته، لنكون قد اسـتفدنا من مبادئ تداولية مستنسخة من فكر عربي، فالمعلم في تواصـله مـع المـتعلم

يحتاج إلى استعمال أكثر من آلية في خطابه التعليمي، لاختلاف قدرات المتعلمين ودرجة استيعاب كل منهم، ولتحقيق هذه الوظيفة التواصلية والتفاعلية لابد من أن لا تكتفي اللغة بمرجعيتها الدلالية والنحوية، بل أيضا بوظيفة تداولية بحسب قصد المتكلم، ومن هنا فإنّنا نرى العديد من الآليات التداولية في تعزيز التفاعل بين القرآن الكريم واللغة العربية، من بينها وضع المتعلم في مجال تداولي مخصوص لتقريب تداولي نافع راسخ.

من المعروف أنّ معلم اللغة العربية في مؤسساتنا التعليمية يدرّس التربية الإسلامية إلى جانب اللغة العربية، وهو الأمر الّذي من شأنه أن يساعده في دمج المعارف بين المادّتين بشكل يعمل فيه المعلم على تقديم المعرفة متوسلا بالتداولية كمبحث لساني ينتهج فيه العملية التعليمية، وسنركز على تعليمية اللغة العربية والقرآن الكريم، ولنبدأ بالمجال التداولي كأوّل مبحث لساني.

3-1. **المجال التداولي:** يمكن أن نستغل هذا المشروع لمفكره المغربي **طه عبد الرحمن**، من خلال ركنيه الأساسيين وهما: المجال التداولي، والتقريب التداولي لاعتبارات رأيناها تدعّم مسعانا، ذلك لما وجده الباحث من تقريب لعلم المنطق وعلم الأخلاق وهما علمان تجريديان في محاولات لكثير من الفلاسفة، مثل **أرسطو (ت322 ق م)**، فجاءت ألفاظه مألوفة متداولة في زمانها واكتست صفة الغرابة والتعقيد في غير زمانها، وهو ما جعل الفلاسفة العرب يقرّبون هذه المادّة العلمية باستعمال نفس المنهج من تداولية العبارة، وهو ما نجده عند **الفارابي (ت339ه)** و**الغزالي (ت505ه)** إضافةً إلى أنّ الباحث استنبط مشروعه من خلال الممارسة التراثية الإسلامية، و توظيف التقريب التداولي كآلية لتقريب المنطق مثلما نحاول تقريب مباحث اللغة العربية كممارسة تراثية مستندين في ذلك إلى القرآن الكريم.

وانطلاقا من أنّ المجال التداولي متى تعلّق بالممارسة التراثية، هو وصف لكل ما كان مظهراً من مظاهر التواصل والتفاعل بين صانعي التراث من عامة الناس وخاصتهم، ووصف لكل ما كان نطاقا مكانيا و زمانيا لحصول التواصل والتفاعل فإننّا نصف العملية التعليمية بهذا الوصف، خاصة عند خلق هذا المجال التداولي في القسم بين أطراف تداولية طرفاها المعلم، والمتعلم، يحكمهما مجال تداولي مخصوص، أسبابه تحقق التواصل والتفاعل فيه، وتأتي مشروعية ومسوغات هذا التصور انطلاقا من صنيع علماء العربية أنفسهم، إذ ارتبط عملهم المعرفي والمنهجي بمجال زمني وحدث ثقافي لفّ نظرهم المعرفي وألقى بظلاله على وصفهم لعلوم العربية وطرائق عرضهم لها، ونحن في عرضنا لها وآليات فهمها لابدّ لنا من أدوات منهجية تربطنا بمجالنا التداولي مكانيا وزمانيا تعكس لغتنا وعقيدتنا ومعرفتنا، ولأجل ذلك فهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسة:

- الأسباب اللغوية
- الأسباب العقدية
- الأسباب المعرفية

أ. **الأسباب اللغوية:** يستخدم المعلّم لتبليغ مقاصده للمتعلم أقوى الأدوات، ولا جدال في أنّ اللغة أقواها، وبقدر ما كانت هذه الأسباب مألوفة ومشتركة بينهما يتحقق التواصل ليكون التبليغ قد وصل هدفه ومبتغاه، وهذا ما فعله المفكرون القدامى حينما أرادوا تبليغ مقاصدهم فبلغوا بذلك مرادهم وحاجتهم، وحينما نسأل أنفسنا لماذا حقق النحو العربي غايته قديما ولم يحققها الآن؟ بالرغم من صعوبة الأمثلة والاستشهاد بلغة أشدّ تعقيدا، لا يفقهها إلا المختص، أو من كان يعيش في تلك الفترة، حتّى احتلّ النحو في صعوبة ألفاظه وتجريد مفاهيمه ما كان عليه علم المنطق قديما.

يقول **الفارابي** في مطلع كتابه "**القياس الصغير على طريقة المتكلمين**" «ونتحرّى أن تكون العبارة عنها في أكثر ذلك بألفاظ مشهورة عند أهل اللسان

العربي، ونستعمل في إيضاح تلك القوانين أمثلة مشهورة عند أهل زماننا. فإنّ **أرسطو طاليس** لما أثبت تلك الأشياء في كتبه، جعل العبارة عنها بالألفاظ المعتادة عند أهل لسانه، فاستعمل أمثلة كانت مشهورة **متداولة**[...]، ولمّا قصدنا نحن إلى إيضاح تلك القوانين استعملنا في بيانها الأمثلة المتداولة بين النظّار من أهل زماننا».[43]

وبعد **الفارابي** ذهب **الغزالي** إلى ما ذهب إليه **أرسطو** من خلق تلك الأسباب اللغوية في التواصل والتفاعل يدل عليه ما قاله في "**محك النظر**"، حيث عمل على اختراع مصطلحات متداولة بين علوم ثلاثة، علم الكلام وعلم الفقه وعلم المنطق فاستعمل منها ما كان متداولا بينها جميعا، ولم يختص بعلم معيّن حيث يقول «فإن أردتَ الحقيقة فعليك بالمنهج الذي ذلّلته لك فلم أكرره بالامتحان مرّة بعد أخرى إلا لتألف هذا المسلك البعيد وهو أن تحصل الألفاظ **المشهورة** وتضعها في جانب من ذهنك[...] وتنظر في المعاني **المعقولة** التي تدل هذه العبارات عليها».[44]

وانطلاقا من هذا التّصور، على المعلم أن يرى ما هو متداول بين تقديمه لدروس اللغة العربية، ودروس التربية الإسلامية، واستخدام ما هو متداول بينها من الألفاظ المشهورة، والمعاني المعقولة.

ب. الأسباب العقدية: لا تقلُّ الأسباب العقدية نهوضا بمستويات التواصل والتفاعل عن الأسباب اللغوية، فلولا الصبغة العقدية الدينية لعلوم العربية لما تمتعت الممارسة التراثية بهذا الاتساع والثراء، فكيف نستفيد من البعد التداولي للعقيدة في عملية التقريب، وانطلاقا ممّا ذهب إليه صاحب المشروع العلمي بالعودة إلى التراث بما هو متداول من الشريعة، والّتي تمثلها مادة التربية الإسلامية في مرحلة التعليم المتوسط، حيث يستغل ما يتداول عند المتعلم من حفظه لقصار الصور، واستغلاله لها أيضا في تأديته للصلاة ممّا يزيد ألفتها عنده وتصبح ضمن مجاله التداولي، ولعلّ تدرجات مرحلة التعليم المتوسط تستغل هذا التداول لقصار الصور عبر السنوات الأربع بداية من الأولى متوسط والّتي يطالب فيها المتعلم في

كل فصل بحفظ سورة معينة، إضافة إلى بعض الآيات التي تعد دلائل شرعية في موضوع معين، والملاحظ عليها تداولها أيضا والتدرجات الآتية تظهر ذلك في ميدان القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف:

تدرج مادة التربية الإسلامية في ميدان القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف لمرحلة التعليم المتوسط			
السنة الأولى[45]	**السنة الثانية**	**السنة الثالثة**[46]	**السنة الرابعة**[47]
سورة الطارق سورة البروج سورة الانشقاق مجموعة من الآيات والأحاديث.	سورة التكوير سورة الانفطار سورة المطففين مجموعة من الآيات والأحاديث.	سورة عبس سورة النازعات مجموعة من الآيات والأحاديث.	سورة النبأ سورة الإسراء23/24 مجموعة من الآيات والأحاديث.

– جدول يمثل تدرجات التربية الإسلامية في ميدان القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف لمرحلة التعليم المتوسط–

ولكنّ الملاحظ في الجدول قلّة السور المطلوب حفظها، وعلى الرغم من قلّتها فنتائج مادة التربية الإسلامية ليست بالجيّدة، وتعبر عن عزوف المتعلمين عن الحفظ، مقارنة لو أنّنا وظفناها في مادة اللغة العربية والّذي من شأنه أن يجعلها أكثر تداولا في العام الدراسي فتدخل ضمن المجال التداولي للمتعلم، بمجرد ذكرها يستعيدها المتعلم بكل يسر وسهولة.

ج. الأسباب المعرفية: وتوسلا بما يذكره **طه:** لا تواصل ولا تفاعل في التراث إلا بالمعرفة المتوسلة باللغة والمبنيّة على العقيدة، فإنّ الأسباب المعرفية تعمل على تقريب الفكر شرط أن يكون نافعا.

3–2. **التقريب التداولي:** يرى **طه** أنّ أفضل من اشتغل بالتقريب الاختصاري اللغوي* هو **ابن حزم (ت456ه)**، من خلال كتابه الفريد "**التقريب لحد المنطق**

والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية"، وأفضل مــن اشــتغل بالتقريــب العقدي هو **الغزالي** في كتبه: "**معيار العلم** و**محك النظــر** و**القســطاس المســتقيم** و**المنقذ من الضلال** و**أساس القياس** و**المستصفى**"، وأفضل من اشــتغل بالتقريــب المعرفي هو **ابن تيمية (ت728ه)** في كتبه: "**الرد على المنطقيين** و**نقــض المنطــق** و**الفتاوى**".[48]

يقدم المعلم حصة الظواهر اللغوية أو البلاغية، عن طريق تقديم أمثلة يشــترك المتعلم في إنجازها، وغالبا ما تكون مرتبطة بالمقطع التعلمــي، وحصــة القــراءة المشروحة للسنوات الأولى والثانية متوسط، وقراءة ودراسة نص للسنوات الثالثــة والرابعة متوسط بما اصطلح عليه وجدّ في الجيل الثاني، فإنّ هذا الارتبــاط مــن شأنه أن يسهّل التواصل مع المتعلم، على أساس المعرفة المشــتركة بــين المعلــم والمتعلم، وتطبيقا لمقولة المتعلم محور العملية التعليمية التعلميّة.

يدعو نموذج الاختصار اللغوي إلى تطبيق قاعدة الإنجاز التداولية والتي تــنص على إلزامية إنشاء الكلام وفق أساليب العرب في التعبير وعاداتهم في التبليغ، حيث نجد الأمر مطبقا في العملية التعليمية، إذ إنّ المتعلم هو الذي ينجز أمثلــة حصــة الظواهر اللغوية بمساعدة المعلم أو ينبهه إليها فــي حصــة الظــواهر البلاغيــة. ولتحقيق ذلك كلّه يتبع المعلم آلية **ترسيخ الأمثلة** ويسلك الطرائق الآتية:

– ترتيب الأمثلة بما يوافق المألوف عند المتعلم، أي احترام ترتيــب عناصــر الجملة الفعلية أو الاسمية إلا إذا دعت الضرورة إلى التقديم أو التأخير، أو الحــذف أو الإضمار، حتى نضمن أنّ المتعلم أدرك القاعدة النحوية أو البلاغيــة، فاختيــار الأمثلة لابدّ أن يكون واضحا بيّنا يتضمن الظاهرة المدروسة، وفق مثال تلفه معان ومفاهيم تَطرّق إليها من قبل، وهكذا نكون قد حافظنا على قاعدة الإنجاز.

وعلى المعلم أن يتّبع قاعدة تداولية ثانية وفق الأصل اللغوي وهي قاعدة الإيجاز، سواء بالنسبة للأمثلة أو القاعدة النحوية ذاتها، وفق آلية ترسيخ الأمثلة لترسيخ القواعد السليمة للغة العربية:

– استخدام أمثلة تسلك الاختصار في التعبير، فتحقق التبليغ من جهة الصيغة ومن جهة المتعلم معاً، فالاختصار يمد الصيغة التبليغية وصف الاقتصار والسلامة حيث يقتصر المعلم (المقرّب التداولي) في كلامه على إيراد ما يوافق حاجة المتعلم، كأن لا يتطرّق إلى مواضيع نحوية لم يدرسها بعد، والسلامة حيث لا يستعمل المعلم ألفاظا غير معتادة، أو عبارات لم يراع فيها التقديم والتأخير، ولا يورد المعاني إلا ما ناسب موضعه، ولا يجادل أحد في أنّ القرآن الكريم هو أبلغ الكلام بأوجز العبارات.

ولا يتأتّى ذلك إلا بالاختيار الصائب والمتقن للأمثلة المقدّمة، وهنا يكمن مربط الفرس، فبإمكان المعلم تقديم أمثلته في الدرس اللغوي أو البلاغي وفق ما درّسه في مادة التربية الإسلامية، فدروس هذه المادة أصبحت ضمن المجال التداولي للمتعلم بما يكفي أن تكون متداولة ومشهورة الألفاظ ومعقولة المعاني، فأركان الإسلام مثلا في المجال التداولي للمتعلم منذ المرحلة الابتدائية، ناهيك عن إعادة تحيينها في مرحلة المتوسط لزيادة ترسيخها والتمكن من معرفتها، الأمر الّذي يمكنه تقريبها إلى المتعلم، وزيادة يسرها.

بالإضافة إلى أثر الاختصار اللغوي في المتعلم بوصفين هما: التيسير والاستيقان، فإن سلمت العبارة المقرّبة من فضل الكلام ومن فاسد الصياغة، تخف على اللسان ويسهل على العقل إدراكها؛ فتظهر أسباب وصلها بالبنية العملية لمجال التداول؛ فالعبارة المقربة هي مقصود ميسّر أصلا للمتعلم حتى يعمل به أو وفقه لتصبح بذلك العبارة المقربة هي ثمرة اليقين، على حد تعبير **طه** تحمل المتعلم على التصديق بما يسبق إلى فهمه.

وحسب ما جاء عند صاحب **تجديد المنهج في تقويم التراث**، فإنّنا نتجنب آفات بتطبيق الاختصار اللغوي بقاعدتيه الإنجاز والإيجاز، وما يقابله من تطويل في ذكر ألفاظ وتراكيب تزيد عن حاجة المخاطَب، فتطويل الصيغة يسبب آفتين لغويتين: الحشو والركاكة، فإذا زادت العبارة عن قدر الحاجة التبليغية، وعن حد الكفاية الإفهامية، فهي حشوٌ، وكل حشو لا يجيء منه إلا الضرر للخطاب، كما تصاب عباراته بالركاكة، فيضعف حبل التواصل بينه وبين المخاطَب، أمّا أثرها في المتعلم، فتوقعه في آفة الإتعاب والتشكيك، حيث يجد مشقة كبيرة في تحصيل المقصود، من العبارة المطوّلة ولا يستطيع أن يحدد المراد بدقة، ويتملكه الشك في أنّ ما هو زائد في العبارة قصد منه المعلم هدفا، وبذلك يصرف تركيزه هنا وهناك و تتشتتُ أفكاره ممّا شَوّشَتْهُ طولُ العبارة.

وإن عملنا حقيقة على إدراج مفاهيم ومعان قريبة إلى عقل المتعلم فقد توسّلنا بالتهوين المعرفي من حيث هو آلية تقريبيّة ناجعة، فالتهوين يمدّ المعرفة بوصفين تداوليين؛ هما: الألفة والإقدار، فلا يستعمل إلا ما كان مألوفا كما أدرجنا ذلك سابقا غير متوعر، خطاب يألفه المستمع ولا يحس بخروجه عن مجاله التداولي والمعاني أيضا فهي مضامين ألفاظها، لتكون أوعية لها، مما يجعله يعتز بمعرفته القريبة منه التي تكسبه الثقة في نفسه، هذه المعرفة التي حافظت قدر ما تستطيع عن قواعد ثلاث هي: الاتساع، والانتفاع، والإتباع.

وحسب **طه عبد الرحمن** فإنّنا ابتعدنا عن التهويل بعدم إيراد معان ومفاهيم يستعظمها المخاطَب، ونتجنب بذلك آفة الإغراب والتعجيز، وما تسببانه من أثر على المخاطَب، والتي لا يبالي فيها المخاطِب (المعلم) إن كان ما يقدمه قريبا من فهم المخاطَب أو بعيدا عنه، ولا يبالي إن توسّل بما يعينه على وصل مقصوده أو لا، بسبب عدم اكتراثه بالحيثيات التداولية للمخاطَب.[49] كأن يستغرب المتعلم لمعان غير مألوفة لديه، فيحسّ بالعجز على الإتيان بمثلها، فيحمله على التشكك في قدراته على الفهم والتحصيل والإنشاء، ومثال ذلك كثير كأن يورد المعلم تراكيب معقدة

ويطلب من المتعلم إعرابها، وعندما يعربها المعلم طبعـــا، يقتنـــع المـــتعلم أنّـــه لا يستطيع إعرابها، فتورثه العجز بما لديه من معرفة نحوية لم تؤهله لذلك، فيكتفـــي بنسج أمثلة وفق ما ورد في درس القواعد.

ومن الصفات الملازمة لتقريب التشغيل العقدي، والذي نعمل قدر الإمكان مـــن الاستفادة منه، بدعوى تكامل العلوم، حيث تمد المضمون العقـــدي بالتفعيـــل، إثـــر استعمالنا بأمثلة تستفيد من العقيدة قصد تحسين السلوك والأخلاق، لمتعلم هو بحاجة إلى التغذية اللغوية والروحية بنفس القدر، وبذلك تكون العقيدة واللغة ضـــمن مـــا يرسخ في عقل المتعلم، ليتفاعل معها، فتكسبه صفة التأصيل بهما، ليعمل على بعث الحيوية والتجديد فيهما. وإن لم نعمل على التشغيل العقدي، فنقع في صفة معاكســـة له وهي التعطيل، والتي تستند إلى آليات لغوية، مما يسبب آفتـــي التضـــمين فـــي المحتوى الدلالي والاستئصال من جهة الضرر على المخاطَب، تضمين الأمثلة مـــا هو بعيد عن عقيدتنا فتسبب الضرر في الأصل التداولي العقدي، ومحاولة استئصال سلوكات إسلامية ترتبط باللغة كالتحية، والدعاء وقواعد وســـلوكات لابـــدّ لمـــتعلم سنوات المتوسط من تعلّمها.

– وصل الصيغة الصرفية بالمدلول الاصطلاحي بناء علـــى القـــانون اللغـــوي المعروف "لكل صيغة صرفية مدلول مخصوص"، مثل صيغة المفعول التـــي تـــدل على موضوع وقع عليه فعل الفاعل، «فالمخاطَب العادي (المتعلم) كلما أُلقي إليـــه بمصطلح إلا وانصرف ذهنه إلى مدلوله الأصـــلي يلـــتمس فيـــه ســـندا لمدلولـــه الاصطلاحي، حتى يسهل عليه تداوله واستثماره».[50]

فالمطلع على موضوعات اللغة العربية في مرحلة التعليم المتوسط، يجد مـــادة كثيفة خاصة بالنسبة للسنوات الأولى، وهذا ما يتنافى مع القدرات الذهنية للمـــتعلم والذي يزال لا يدرك القواعد المجردة، إدراكا تامّا. وهذا مثـــال علـــى ذلـــك مـــن الدروس المقدمة للسنة الأولى متوسط وفق ما جاء في إصلاحات الجيل الثاني:

القاعدة النحوية	الأمثلة
القاعدة: [51] الاسم الموصول نوع من المعارف، لا يتّضح معناه، ولا يتعيّن إلا بجملة من تأتي بعده، وهو أنواع: - الّذي: للمفرد المذكر. الّتي: للمفرد المؤنّث - الّذين: لجماعة الذكور. اللّاتي، اللّائي، اللّواتي: لجماعة الإناث. - من: للعاقل، ما: لغير العاقل.	- قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾[52] - قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾[53] - قال تعالى:﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٦﴾

ليس من البراعة أن يذكر كلّ شيء عن الظاهرة اللغوية أو البلاغية حتى وإن ذُكرت في المقرر، ويجب على المعلم أن يقدم الدرس بشكل بسيط لخلق ألفة بين الطالب والدّرس، فنجده سعيدا بفهم القاعدة ولا يجد فيها أيّ إشكال، وفي درس مقبل أو مرحلة أخرى يعمل المعلم على التطرق إلى باقي معلومات الظاهرة اللغوية بتفاصيلها، فنحن بهذه الطريقة عملنا على تثبيت المعلومة الرئيسة، وسيتقبل المتعلم حينئذ المعلومة الفرعية، فالموقف ليس موقف تفكير أكثر منه موقف عاطفي يصنع الأُلفة والثقة بين المتعلم والقواعد النحوية.

- استخدام الأمثلة المتداولة والمألوفة لتبليغ مقاصد القواعد النحوية أو الظواهر البلاغية؛ لها ارتباط وثيق بالمجال التداولي العربي الإسلامي، سواء في العقيدة أو اللغة أو المعرفة، وقد بينّا دليله سلفا في ما قاله **الفارابي** و**الغزالي**، أمثلة كثيرة الاستعمال سواء كانت أمثلة مشهورة، أو آيات قرآنية، أو أحاديث نبوية، ونبرّر

استعمالها من خلال تكامل المعارف بين العلوم والمواد الدراسية، فإنّ معلم العربية يُدَرّسُ اللغة العربية وقواعدها، بالإضافة إلى تدريسه التربية الإسلامية حسب التعليم في الجزائر، ممّا يسهّل عمله في استغلال وتوظيف دروس التربية الإسلامية في القواعد النحوية، من آيات قرآنية، وأحاديث نبوية، وأمثلة وحكم ومواعظ دينية.
ومثالنا هذا يبيّن ذلك:

يسبق تقديم درس الأسماء الموصولة في اللغة العربية للسنة الأولى متوسط درس (من دلائل قدرة الله تعالى)[54] في مادة التربية الإسلامية، حيث تتضمّن الخلاصة الواجب تعليمها للمتعلم مايلي:

الخلاصة	الدليل
1- دليل خلق النّجوم: خلق الله النّجوم وجعلها علامات لنا للاهتداء بها ومعرفة الطريق في البرّ والبحر.	1- لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأَيَٰتِ لِقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾[55]
2- دليل خلق الإنسان: الإنسان مخلوق بقدرة الله تعالى من نفس واحدة-آدم عليه السلام- ثمّ تناسل وتكاثر وتفرّق في الأرض فكانت البشرية، وهذا دليل على قدرة الله.	2- لقوله تعالى:﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسۡتَقَرٌّ وَمُسۡتَوۡدَعٌۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأَيَٰتِ لِقَوۡمٍ يَفۡقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾[56]

تقديم درس الأسماء الموصولة انطلاقا من ترسيخ عقيدة دلائل قدرة الله تعالى من شأنه ترسيخ الدرسين معا، والأهم من ذلك تواجدهما في مجال تداولي واحد فقد ألف المتعلم درس الأسماء الموصولة بربطه مباشرة بدرس التربية الإسلامية بدليل

شرعي من القرآن الكريم، حيث يطالب المتعلم بحفظ هذه الآيات من سورة الأنعام من الآية 95 إلى الآية 99، فمن شأن حفظ الآيات حفظ القاعدة النحوية المتعلقة بالأسماء الموصولة، وبالتالي تركيب سليم للغة العربية.

وبذلك نكون قد احترمنا القواعد التداولية للأصل العقدي من تسليم كامل للإرادة الإلهية، وتفرّد الله بالتقديس والتنزيه، وإتباع النّبي في أقواله وأفعاله، وأنّ كل شيء بمشيئة الله وحده، وعملنا على تثبيت العقيدة الإسلامية الصحيحة قولا وعملا ويظهر ذلك جليا في كتب التربية الإسلامية، إن توسلنا بها ووظفناها كأمثلة لدرس الظواهر اللغوية أو البلاغية، حيث يحتوي كتاب التربية الإسلامية لمرحلة التعليم المتوسط على ميادين متنوعة: نصوص شرعية، أسس العقيدة الإسلامية، العبادات الأخلاق والآداب الإسلامية، السيرة النبوية الشريفة.(57)

وإن ثَبُتَ هذا الأمر أدرك المتعلم أفضلية العقيدة الإسلامية، فتكسبه وظيفة الإنهاض بدينه ولغته، فيزداد ارتباطه بلغته ويَقْوَى إنتاجه ويتحسّن استعماله لها بمقتضى العقيدة المختارة. فتكسبه الاعتزاز والانتساب، ويثق ثقة تامة بما يتسع به العقل العربي فينتفع به، غير أنّ الإخلال بقواعد الأصل المعرفي من اتساع المعرفة الإسلامية وانتفاعها و إتباعها، من شأنه أن يورثه التقليد بغيره، والدخول في مجال تداولي لا ينتمي إليه فيُبهرُ بلغة غيره ويستعملها، وعقيدة غيره فيبتعد عن عقيدته، ومعرفة غيره فيطرح ممارساته التراثية ويراها بلا جدوى، ولعلّ النحو العربي من بينها، (والواقع خير دليل على ذلك بالعودة إلى محاولات التيسير والدعوة إلى الإقلاع عن تعليم العربية وتعلّمها) فهو بهذا العمل لا يرى في أفضلية العقل الإسلامي انتفاعا، ولا يمكن أن ينهض بما يخدم الأصل المعرفي وهي لغته، لتصبيه بالتكاسل، لتَصَوُّره الجديد عن معرفته العقيمة، التي أصبحت في نظره مجرد تأليفات تجريدية، ويورثه اللهو كأن يطلب المعرفة لا لذاتها بوصفها تحمل قيما تعلو بهمة الإنسان، وإنّما من أجل ما توفره من مقاصد كامنة في ذاته فرضها وصنعها تصوره ذاك، ويتلهّى بذلك عن المقاصد الحقيقية.

وعملنا على استخراج بعض الأمثلة التي احترمنا فيها قواعد الأصل اللغوي من إنجاز وإيجاز، وتوسلنا بما نستطيعه من قواعد الأصل العقدي، وقواعد الأصل المعرفي، من كتب القراءة والتربية الإسلامية لسنوات التعليم المتوسط، متّخذين بعين الاعتبار أنّ دروس التربية الإسلامية سبق للتلميذ دراستها خلال الموسم الدراسي، لتُصبح من بين ما تداوله، وألفه، وحفظه. السنة الأولى متوسط (الجيل الثاني) في الجدول (1):

درس التربية الإسلامية	الظاهرة اللغوية	الأمثلة
*من دلائل قدرة الله	إنّ وأخواتها	*قال الله تعالى:﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ﴾.(58)
*مكانة القرآن الكريم		*قوله تعالى:﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧﴾(59)
*الطهارة		*قال الله تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾.(60)

أمثلة للسنة الثالثة متوسط في الجدول (2):

درس التربية الإسلامية	الظاهرة اللغوية	الأمثلة
*أتعرف على الصوم في الإسلام.	*النداء بـ: أيّ	* قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ

* اسم الفاعل وعمله		مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾[61] * قوله تعالى: ﴿ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٣٩﴾﴾[62]

أمثلة للسنة الرابعة متوسط في الجدول (3):

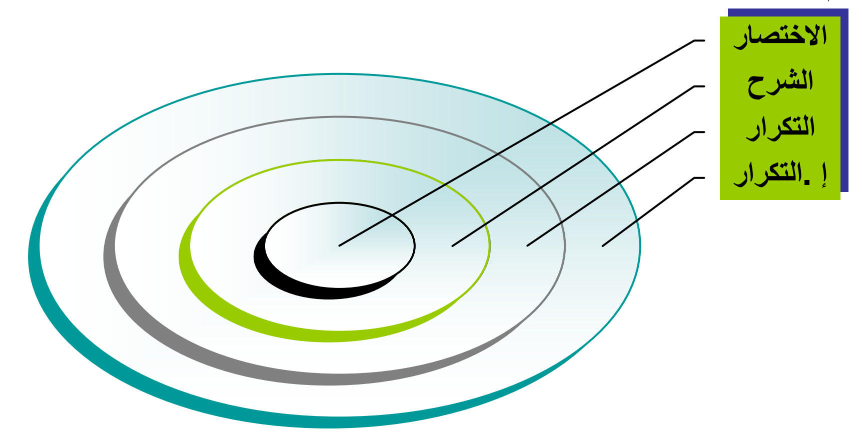
درس التربية الإسلامية	**الظاهرة اللغوية**	**الأمثلة**
*من آدابي وأخلاقي في أسرتي *مواقف وعبر من حياة أولي العزم من الرسل	الاستثناء جواب الشرط الجازم	* قال تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ ﴿٢٣﴾﴾.[63] *قال تعالى: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾[64]

ولعلّ قول **ابن حزم** يؤكد ما ذهبنا إليه من تصور حيث يقول في كتابه "**التقريب لحد المنطق**" في باب كيفية أخذ المقدّمات من العلوم الظاهرة عند الناس بإيجاز فـ«قرب على المخاطَب به فهمه، لوضوحه وتقريبه ما بَعُد، وكَثُـرَ من المعاني وسَهُلَ عليه حفظه لقصره وسهولة ألفاظه. وملاك ذلك **الاختصار** لمن يفهم، والشرح لمن لا يفهم، وترك التكرار لمن قيل له ولم يعقل وإدمان التكرار لمن لم يقبل أو غفل».[65] ينبّه **ابن حزم** إلى مسألة مهمّة، وهي تفاوت القدرات الفردية لدى المتعلمين، وتقسيمهم إلى أربع فئات ولكل طريق يسلكه:

– فكان طريق الاختصار لمن له قدرات ذهنية تخول له الاستفادة من الاختصار.

- والاختصار مع الشرح للفئة الثانية.
- والاختصار والشرح والتكرار للفئة الثالثة.
- والاختصار والشرح والتكرار وإدمان التكرار للفئة الرابعة.

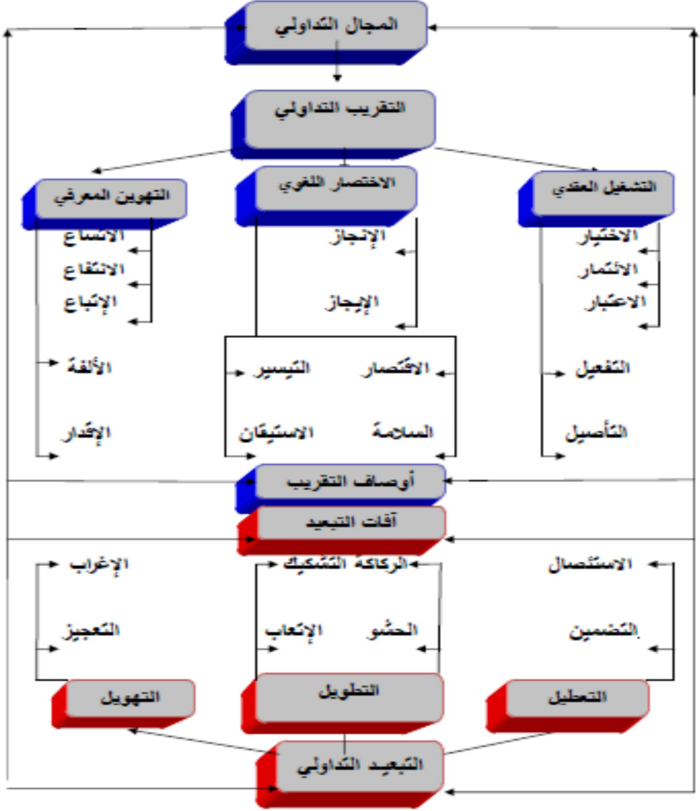
ليصبح الاختصار هو لبُّ العملية التعليمية مع وسائل تعينه على الترسيخ والفهم.



- رسم يمثل لب العملية التعليمية (الاختصار)-

وحتى نستطيع أن ندرك هذه التقنيات، لابدّ من توظيف الآيات والسور القرآنية المدرجة في التدرج للسنة نفسها، وإن لم يتوفّر ذلك يمكن استغلال السنوات السابقة للمرحلة المتوسطة، من شأن ذلك تيسير المعلومة لدى المتعلم، وعند تأدية ذلك نكون قد التزمنا الاختصار سواء في البرنامج أو الآليات التداولية المستعملة، فطول البرنامج يفوّت على المتعلم التحصيل الضروري من المعارف، وتأجيلها إلى مراحل تعليمية مستقبلية، ومراجعة للبرامج في مرحلة التعليم المتوسط، إذ نلحظ كثافة في المادة خاصة في السنوات الأولى، حيث نعمل على الإيجاز والاختصار فلا نحمل المتعلم فوق طاقته، ودروسا تثقل كاهله بالتعقيد والحشو، وقد بينّا ما ينجرّ عنها في موضع سابق.

ومن خلال تطبيقنا للمجال والتقريب التداولي، فقد عملنا على رسم مخطوطة تبين المجال التداولي مع أصوله وقواعده التداولية، والتقريب التداولي وأوصافه ومقابله التبعيد التداولي وآفاته.



– مخطوطة تمثل المجال التداولي والتقريب التداولي مع أصوله و قواعده التداولية –

وإذا كنّا قد استفدنا من المشروع الطاهائي في وصف العملية التعليمية التّعلمية فإنّنا راعينا خصوصية الخطاب القرآني فلم نحاصره بمناهج نسقطها عليه إسقاطا «وإلا كنّا نطمع في محال، إذ يُطلب أن يقيس الشيء بغير المقياس المجعول له، أو كنّا، بتعبير ابن خلدون، كمن رأى الميزان الّذي يوزن به الذهب، فطمع أن يزن به الجبال»[66]. ولو قمنا بذلك لكنّا كمن وضع نفسه في ضيق بعد أن كان في فرج.

الهوامش:

[1] ينظر: أحمد مختار عمر، لغة القرآن دراسة توثيقية فنية، مؤسسة الكويت للتقدم الفني، الكويت ط2، 1998م، ص8.

[2] ينظر: أشرف محمد زيدان، علاقة التلازم بين القرآن الكريم واللغة العربية ومستقبلها رؤية معاصرة، مجلة البحوث والدراسات الإسلامية، بغداد- العراق، ط30، 2013، ص55.

[3] ينظر: فؤاد بوعلي، «لغة التدريس: وجود لغة مشتركة أهم من وجود عملة مشتركة»، مجلة التعريب، المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر، دمشق- سوريا، العدد 45 ديسمبر 2013م، ص194.

[4] عبد السلام المسدي، الهوية العربية والأمن اللغوي دراسة وتوثيق، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة- قطر، ط1، 2014 م، ص346.

[5] ينظر: ضياء الدين بن فردية، عبد القادر البار، «النص القرآني واللغة العربية بين الحفظ والاحتواء» مجلة البدر، المجلد 10، العدد 05، 2018م، ص561.

[6]- ينظر: عبد الحميد علي، الأدب العربي: العصر الإسلامي والأموي، دار الكتاب الحديث القاهرة- مصر، ط1، 2005م، ص27.

[7] عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج، دار النهضة العربية، بيروت- لبنان، د ط، 1979 م، ص5.

[8] ينظر: عبد السلام المسدي، الهوية العربية والامن اللغوي، ص 262/263.

[9] مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب: دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، ط1، 2005م، ص5.

[10] عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغويّة تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ط1، 2004م، ص23

[11] ينظر: نفسه، ص ل.

(12) ينظر: نفسه، ص22.

(13) ينظر: نفسه، ص24.

(14) ينظر: نفسه، ص23.

(15) ينظر: علي آيت أوشان، اللسانيات والبيداغوجيا نموذج النحو الوظيفي " الأسس الديداكتيكية والمعرفية"، دار الثقافة، الدار البيضاء- المغرب، ط1، 1998م، ص24/25.

(16) ينظر: خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم بيت الحكمة للنشرو التوزيع، العلمة- الجزائر، د ط، 2009م، ص133.

(17) ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغويّة تداولية، ص د.

(18) إبراهيم مشروح، طه عبد الرحمن قراءة في مشروعه الفكريّ، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت- لبنان، ط1، 2009م، ص105.

(19) طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2000م، ص28.

(20) ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، ط 1 ،1998م، ص42.

(21) ينظر: طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص28.

(22) ينظر: إبراهيم مشروح، طه عبد الرحمن قراءة في مشروعه الفكري، ص72.

(23) ينظر: طه عبد الرحمن، فقه الفلسفة 2 القول الفلسفي كتاب المفهوم والتأثيل، المركز الدار البيضاء- المغرب، ط2، 2005م، ص152. الثقافي العربي،

(24) طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، ص244.

(25) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص28.

(26) طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، ص243.

(27) نفسه.

[28] ينظر: نفسه، ص248.

[29] مقتضى معيار التسليم: ينبغي أن يكون التسليم بالحقيقة التداولية أقوى من التسليم غيرها ومقتضى معيار التمييز: ينبغي أن تسهم الحقيقة التداولية في تمييز الممارسة التراثية الإسلامية العربية عن غيرها من الممارسات، ومقتضى معيار التفضيل: ينبغي أن تبلغ في تفضيل الممارسة التراثية على غيرها من الممارسات. ينظر: نفسه، ص 251.

[30] قاعدة الاختيار: التسليم بأنّ العقيدة الأصل هي المبنية على أصول الشرع الإسلامي قولا وعملا، وقاعدة الائتمار: التسليم بتفرد الله بالقداسة والتنزيه، والنبي ﷺ بالإتباع، قاعدة الاعتبار: التسليم بأنّ كل ما سوى الله لا يكون إلا بمشيئته. ينظر: نفسه، ص255.

[31] قاعدة الإنجاز: إنشاء الكلام وفق أساليب العرب وعاداتهم، قاعدة الإيجاز: الاختصار في التعبير عن المقاصد موصولة بالمعارف. ينظر: نفسه، ص255.

[32] قاعدة الاتساع: التسليم بحيازة المعرفة الإسلامية لعقل متسع، قاعدة الانتفاع: الانتفاع بتسديد العقل العملي عند توسله بالعقل النظري، قاعدة الإتباع: إتباع العقل الشرعي عند توسله بالعقل الوضعي في طلب العلم. ينظر: نفسه، ص 256/255.

[33] نفسه، ص273.

[34] ينظر: نفسه، ص279/275.

* التطويل: «ذكر ألفاظ وتراكيب في العبارة تزيد عن حاجة المخاطَب بالنظر إلى المقتضيات اللغوية لمجاله التداولي»، نفسه، ص282.

[35] ينظر: نفسه، ص285.

** التهويل: «إيراد معان ومفاهيم يستعظمها المخاطَب بالنظر إلى المقتضيات المعرفية لمجال التداول». نفسه، ص285.

[36] ينظر: نفسه، ص286.

*** التعطيل: «قطع صلة الألفاظ بمدلولاتها اللغوية والاصطلاحية الأصلية التي توافق المقتضيات العقدية لمجال التداول»، نفسه، ص287.

(37) ينظر: نفسه، ص288.

(38) ينظر: نفسه، ص 301.

(39) ينظر: نفسه، ص283.

(40) ينظر: نفسه، ص285/287.

(41) يؤمن طه عبد الرحمن بأنّ اللغة مثوى الوجود ومكمن اتصالنا بماضينا وخزانا لذاكرتنا الجماعية بل إنّه يجعل الاتصال بزماننا الماضي تضمنه اللغة لأنّ الأصل في كل تفكير هو الإنصات للغته؛ وهو ما ميّز طه بجعل الاتصال بما تضمره اللغة شرطا في الإبداع الفكري، عن طريق استمداد الإشارات الإضمارية للمدلولات اللغوية التراثية بواسطة التأثيل وهو مصطلح يقترحه طه مقابل التأصيل. ينظر: إبراهيم مشروح، طه عبد الرحمن قراءة في مشروعه الفكري، ص، 63.

(42) ينظر: طه عبد الرحمن، حوارات من أجل المستقبل، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت – لبنان، د ط، 2011م، ص74.

(43) الفارابي، المنطق، تحقيق: رفيق العجم، دار المشرق، بيروت– لبنان، د ط، 1986م، ج2 ص68/69.

(44) الغزالي، محك النظر في المنطق، تحقيق: أحمد فريد المزيري، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، د ط، د ت، ص274.

**** عملنا على إقامة التقريب الاختصاري اللغوي، وبتوسل من التقريب التشغيل العقدي وتقريب التهوين المعرفي، حيث نؤسس نموذجنا التقريبي القائم على الاختصار، والتشغيل والتهوين. والقواعد التداولية للأصل اللغوي وهي: قاعدة الإنجاز، وقاعدة الإيجاز، مع محاولة الاستفادة قدر الإمكان من القواعد التداولية لكل من التشغيل العقدي (الاختيار، الائتمار، الاعتبار) والتهوين المعرفي (الاتساع، الانتفاع، الإتباع).

[45] ينظر: عبد الرحمن قادة وآخرون، كتابي في التربية الإسلامية السنة الأولى من التعليم المتوسط، موفم للنشر، الجزائر، ط2، 2017م، ص10-12-14.

[46] ينظر: دعاس سيد علي وآخرون، التربية الإسلامية السنة الثالثة من التعليم المتوسط، موفم للنشر، الجزائر، د ط، 2017م، ص13-50.

[47] ينظر: لخضر لكحل وآخرون، التربية الإسلامية السنة الرابعة من التعليم المتوسط، منشورات الشهاب، باتنة- الجزائر، د ط، 2019م، ص9-69.

[48] ينظر: طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، ص329.

[49] ينظر: نفسه، ص285.

[50] نفسه، ص317.

[51] ينظر: محفوظ كحوال وآخرون، كتابي في اللغة العربية، السنة الأولى من التعليم المتوسط موفم للنشر، الجزائر، د ط،2017م، ص41.

[52] سورة المؤمنون، الآية: 1-2.

[53] سورة الأحزاب، الآية: 21.

[54] عبد الرحمن قادة وآخرون، كتابي في التربية الإسلامية، ص35.

[55] الأنعام: 97.

[56] سورة الأنعام، الآية: 98.

[57] ينظر: عبد الرحمن قادة وآخرون، كتابي في التربية الإسلامية، ص5/6.

[58] سورة الأنعام، الآية: 95.

[59] سورة القيامة، الآية: 17.

[60] سورة البقرة، الآية:222.

[61] سورة البقرة، الآية: 183.

[62] سورة عبس، الآية: 39.

[63] سورة الإسراء، الآية: 23.

[64] سورة هود، الآية: 38.

[65] ابن حزم الأندلسي، التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية، تحقيق: أحمد فريد المزيري، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، د ط، د ت، ص 189.

[66] طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص31.

تطبيقات على السياق القرآني

د. بلعالم فضيلة

المركز الجامعي، آفلو

الملخص: أصبح للسياق أهمية في بحوث الفلسفة التحليلية، التي اهتمت بفلسفة اللغة وتحليل الخطاب على وجه الخصوص. وكان لذلك الأثر البالغ في الدراسات اللسانيات النصية التي اعتمدت على مفهوم السياق اللغوي وهو ما يحيط بالمفردة من عبارات تساعد على فهمها وضبط، دلالاتها التي تمثل هذه العبارات في الوحدات المعجمية والنحوية والصرفية وكذلك العلاقات التركيبية.

وقد التفت الدارسون إلى بحث قضية السياق ومدى مساهمة التراث اللغوي العربي في اللسانيات النصيةِ. وقد برزت في الدراسات البلاغية والتفسيرية والفقهية والنقدية نظرات لا تقل أهمية وخصوبة عما قدمه الغربيون من اعتناء بالوحدة الموضوعية للنصوص مكتملة الإنتاج مثل القرآن والسنة، الشعر والنثر. وقد دفع هذا الاعتناء الدارسين إلى التساؤل عن خصوصيات اتساعها وانسجامها وترابطها والتئامها ومناسبتها

لعل الارهاسات الأولى لهذه الجهود المنهجية، تلك التي ظهرت في وقت مبكر مع البلاغة الكلاسيكية وفن الخطابة وقد وجد الباحثون صدى لهذه الجهود والمصطلحات عند الجرجاني والسكاكي وخاصة القرطاجني، الذي كاد يؤسس نظرية عربية في لسانيات النص وتحليل الخطاب. وقد اعتنى كل من هؤلاء العلماء بمسألة الربط والرابط، والفصل والوصل والمعنى الجامع بين القضايا والجمل وكمال الاتصال والانفصال والتناسب، ومن المفسرين قد اهتم سيد قطب بقضية السياق القرآني إذ اعتبر القرآن نصا واحدا من حيث اتساق أجزائه وترابط سوره والتناسب بين آياته، لأنه يصب في هدف واحد "تثبيت العقيدة" وإثباط كل محاولة لزعزعتها

وإبراز المنهج المتميز الذي يدل على قداسة النص القرآني ووحدته تدل على الخالق الواحد

من خلال هذه الورقة البحثية نطرح قضية السياق عند العرب القدامى ودوره في تبيان دلالة الألفاظ وتحديد دلالة الموضوع، وبعد الاطلاع على النظرية السياقية عند الغرب، تبادر إلى الذهن الإشكال التالي: كيف تعامل العلماء العرب مع النص القرآني؟ وهل هناك ملامح للسياق عند العرب؟

قد ارتبطت قضية اللغة بوجود الإنسان، فحظيت باهتمام كبير في عالم البحث إذ تطرق العلماء لهذه القضية منذ أقدم العصور. فمنهم من تكلم عن الفرق بين الصوت والمعنى، ومنهم من تطرق لجانب آخر يتعلق بنشأة اللغة لأول مرة أنها قديمة وهبة إلاهية ليست من صنع البشر، أم هي من اختراع الإنسان ونتاج نشاطه الإنساني، ثم تطور البحث في قضية اللغة إلى العلاقة بين اللفظ والمعنى، وأنواع دلالات الكلمة ومسائل متفرقة، مثل أهمية السياق في إيضاح المعنى، ووجود الترادف والمشترك اللفظي كظاهرة علمية في اللغات، ودور القياس والمجاز في تغيير المعنى. وبعد ذلك سجل البحث اللغوي منحى آخر تسجيل معاني الغريب في القرآن الكريم، والحديث اعن مجاز القرآن، التأليف في الوجوه والنظائر في القرآن، وإنتاج المعاجم الموضوعية، وهذا في مجمله يصب في علم الدلالة الذي ظهر منذ القرن التاسع عشر.

تطرق العلامة ابن فارس (395هـ) في مؤلفه المقاييس لمادة "لفظ" بأنها الدلالة على الطرح المطلق، ويغلب عليها أن تكون من الفم... إلى أن يقول "لُفِظَ الكلام لَفْظاً وبعدها يورد واحدا من المشتقات وما يحتمله من الدلالات: اللفظة هو الديك لما يظهره من الصوت، ويقال للرحى والبحر بمعنى الطرح. ففي الرحى للحبوب المطحونة، وفي البحر: إذ يخرج أشياء كثيرة من جوفه وفي الصحاح للجوهري

ت247) طرح المعنى ذاته وأكدها الأزهري (ت895هـ) فيما بعد وكلاهما لا يربط بين اللفظ ومدلوله أي معناه.

أما فيما يخص مادة (معنى) يذكر تعريف الخليل (ت175هـ) معنى كل شيء محنته وحالته التي يصل إليها أمره، ومعنى ذلك. أن المعنى يبرز من مكنون ومخزون ما تضمنه اللفظ. أما أقدم صور التعبير عن المقابلة بين اللفظ والمعنى نجدها عند صاحب الكتاب" سيبويه[1] إذ يضع الرمز الصوتي وصيغته الصرفية في جهة ويمثل في الجهة المقابلة مدلوله الجزئي؛ وذلك أن الكلام يتصرف إلى اسم وفعل وحرف فجاء بمعنى، ليس باسم ولا فعل.

أما ابن جني[2] في كتابه "الخصائص" فقد تعرض لثنائية اللفظ والمعنى بالدراسة حيث عرض ثلاثة أوجه متصلة هي: "العلاقة بين اللفظ والمعنى، والعلاقة بين اللفظ واللفظ، ثم العلاقة بين الحروف ببعضها، ويقول في ذلك: اعلم أن كل واحد من هذه الدلائل معتد مراعى مؤثر إلا أنها في القوة والضعف على ثلاث مراتب: فأقواهن الدلالة اللّفظية، ثم تليها الصناعية، ثم تليها المعنوية، ولنذكر بذلك ما يصح به الغرض"[3].

وابن جني يتناول قضية اللفظ والمعنى ويوليهما اهتماما بالغا وفي حديثه عن الترادف يشير إلى المعنى على انه دلالة اللفظة أو الكلمة، ويبدي تعليلا رئيسيا هو أن مرد هذا التعدد في الألفاظ على مدلول واحد إنما هو تعدد القبائل ويحتج في ذلك بقصة الرجلين اختلفا على تسمية الطير الجارح (الصقر)، فواحد يقول بهذا اللفظ والآخر ينطقه (السقر) فاحتكما إلى ثالث فقال أنه لا يعرفه إلا أنه (الزقر) ينظر الى الكلمات وكأن لكل كلمة كيانا مستقلا منفصلا، ولكن في الحقيقة لا يمكن فهم أية كلمة بمعزل عن الكلمات الأخرى ذات الصلة بها والتي تحدد معناها لذلك يمكن اعتبار البنية المعجمية للغة -من وجهة نظر دلالية- شبكة واسعة من علاقات المعنى أي أنها تشبه نسيج العنكبوت الواسع المتعدد الأبعاد يمثل كل خيط فيه احدى هذه

العلاقات وتمثل كل عقدة فيه وحدة معجمية مختلفة وتكمن أهداف هذه العلاقات في أن العلاقات في أن عبارة ما في تركيب ما لا تكسب قيمتها الا بتقابلها مع ما يسبقها أو ما يليها أو الأثنين معا وهذا يقودنا الى تعريف السياق

مفهوم السياق **contexte**: لقد التفت كثير من علماء اللغة إلى أهمية السياق لما له من فضل في تحديد المعنى المراد من الكلام.

"لا تتمتع الكلمات بمعنى، ولكنها تتمتع بوظائف... إن المعنى كما يظهر لنا أثناء الخطاب يتعلق بعلاقات الكلمة مع كلمات المقام الأخرى. وتحدد هذه العلاقات معنى من معاني كل كلمة ولا تحددها الصورة التي تحملها الكلمات"[(4)]

فالألفاظ لبنات الكلام، وليس لكلمة فضل على أخرى كانت وحدها، فإذا انتظمت في جملة أو عبارة وضحت قيمتها.

وقد تطرق علماء العرب القدامى إلى هذه المعاني، ولهذا نجد عبارة "لكل مقام مقال". مشهورة عند البلاغيين.

والسياق– في معادلة لفظية ذات مستويات منها: مستوى المنطوق، ومستوى المفهوم. "يقصد به سياق الكلام فهو تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه"[(5)]

و"سياق الحوادث مجراها وتسلسلها، وارتباطها بعضها ببعض، فإذا جاء الحادث متفقا مع الظروف المحيطة به كان واقعا في سياقها وإذا جاء مخالفا لها وجب البحث عن علة الخلاف[(6)] أي أن مخالفتها للسياق نتيجة لأسباب نفسية أو اجتماعية

السياق عند العرب: قد جاء الاهتمام بالسياق عند العرب لخدمة القرآن الكريم وإدراك معانيه، لأنه أنزل بلغة العرب، وتوقف فهمه على فهم اللغة العربية. وقد اختلفت البحوث والدراسات في هذا المجال وظهرت فيه مذاهب مختلفة نذكر منها: المفسرين والبلاغيين والنحويين، وإن كان الأصوليون قد اهتموا بهذه الدراسة أيضا.

1- **عند المفسرين:** نجد الانتباه إلى الفرق بين ظاهر القرىن وباطنه قد قادهم إلى التفريق بين المعنى المقالي والمعنى المقامي، وجل ما أورده هؤلاء من تفاسير

مردّه إلى ألفاظ الدواوين التي كانوا يوردونها كشــواهد وتفســيرات أملتهــا علــيهم معطيات السياق بنوعيه، لأنهم يفسرون دلالات الألفاظ التي وردت في النص"(7)

وعلى هذا الأساس وضع المفسرون شروطا للمفسر منها مــا يتعلــق بالجانــب اللغوي، ومنها ما يتعلق بالجانب المقامي، "تتمثل في إتقانه لمجموعات مــن العلــوم أشبه ما تكون بمراحل التحليل في النظريــة الســياقية"(8) ونوردهــا بهــذا الشــكل التناظري:

علم القراءات= التحليل الصوتي

علم الصرف (الاشتقاق)= مصادر الكلمات (الصيغ الكلامية)

علم النحو= علم التركيب construction

متن اللغة= علم اللغة science du langage

هذا عن السياق اللغوي. أما ما يتعلق بالجانب المقامي، يجب أن يتعرف المفســر على أسباب النزول (وهي الأحداث والوقائع التي عايشت النص القرآنــي بالإضــافة إلى معرفة المكي والمدني والترتيب الزمني لنزول الآيات)

2- **<u>عند اللغويين:</u>** ولعل المتتبع لمسار الدراسات اللغوية التي أقيمت حول إعجــاز القرآن يجد أن بعض العلماء قد ربط بين الإعجاز البياني والإحاطة اللغويــة..."ذلك أن علم البشر لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظهــا، التــي هــي ظــروف المعاني ولا تكتمل معرفتهم لاستيفاء وجوه النظر التي بها يكون ائتلافهــا، وارتبــاط بعضها ببعض ويتواصلون باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها إلــى أن يــأتوا بكلام مثله، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة -كما ذكر الحطابي- لفــظ حامــل ومعنى به قائم، ورباط لها ناظم"(9)

اختيارنا لهذا النص ليس بنيّة إتباع المسار التاريخي لنظرية النظم، لكن لأنه يلفت الانتباه إلى قضية تخص بحثنا، ويتعلق الأمر بالنتقارب بين النظم والسياق.

3- **عند البلاغيين:** إن البلاغة العربية بالعلوم التي تضمنتها وقفت علـــى دراســـة شاملة وعامة للمعنى le sens في كل اللغات لا في العربية وحدها، وهذا من خـــلال تركيزهم على فكرة (لكل مقام مقال) و(لكل كلمة عند صاحبتها مقـــام)، فقـــد اشـــار الخطيب القزويني إلى أن بلاغة الكلام معناها مطابقته لمقتضى الحال مع فصـــاحته ثم أوضح ان مقتضى الحال يتغير بتغير المقامات فمقام التنكير يختلـــف عـــن مقـــام التعريف، ومقام التقديم يختلف عن مقام التأخير، وغيرها من أوجه مقتضـــى الحـــال والذي سماه عبد القاهر الجرجاني بالنظم حيث يقول أن النظم توحي معـــاني النحـــو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام"[10]

السياق عند الغرب: إن فكرة السياق ودلالته علـــى المعـــاني الحقيقيـــة للكـــلام مطروحة في الفكر الإنساني، ففي عهد أفلاطون وأرسطو، نجد أفلاطون قد أشار في كتابه (فيدروس) إلى مراعاة مقتضى الحال في الخطابة كذلك كان الحال عند أرسطو الذي نبه في كتابه (فن الشعر) لموضوع مقتضى الحال وأشار إلى أن الفكـــرة هـــي القدرة على إيجاد اللغة التي يقتضيها الموقف ويتلاءم معها[11] إلا أن هذا الاهتمام لم يكن بالقدر الكافي الذي يلفت الانتباه.

وبعد ذلك شهد الدرس اللغوي عند الغرب تطورا هائلا، فمثلا في دراستهم للسياق نجد تطورا ملحوظا في مدة زمنية متسلسلة وهي معان متقاربة حيث بيّنـــوا وظيفـــة السياق البارزة، ودوره الأساسي في حياة الفرد والمجتمع علـــى اخـــتلاف طبقـــاتهم. وطبقت هذه الدراسة على كل المستويات (اللغوي المقامي، الثقافي، العاطفي).

تطبيقات السياق عند القـــدامى: لقد كان البحث في فكرة النظم سببا لوضع قواعد علم المعاني، كما أنّه طريق لعلم البيان، وكان الوصول إلى تحديد هذه الفكرة، قمـــة مجهود عنيف بذله العلماء وذهبوا فيه كل مذهب من القول.

وإذا كانت قضية النظم قد قُننت وفلسفت، ودعمت أصولها ومبادئهـــا علـــى يـــد الجرجاني، فإن البحث العلمي لا يستطيع أن ينكر جهود السابقين من أمثال الجـــاحظ

وابن قتيبة في القرن الثالث، وجهود الرماني والباقلاني وقاضي عبد الجبار في القرن الرابع الهجري... وجميعهم قبل الجرجاني، ففكرة النظم عند الجاحظ فكـرة لفظيـة تعتمد على حسن الصوغ وكمال التركيب، ودقة تأليف اللفـظ، وجمـال نظمـه، ولا عجب فقد كان شغوفا بجودة اللفظ وحسن بهاء رونقه حتى قدمه على المعنى[12]

أما ابن قتيبة يقول: "فالقرآن قد شرفه الله وكرمه، وسماه روحا ورحمـة وشـفاء وهدى ونورا، وقطع منه بمعجز التأليف أطماع الكائدين، وأبانه بعجيب الـنظم عـن جيل المتكلفين وجعله متلوا لا يمل على طول الـتلاوة، ومسـموعا لا تمجـه الآذان وغضا لا يخلق على كثرة الرد، وعجيبا لا تنقضي عجائبه ومفيدا لا تنقطع فوائده... ونسخ به سالف الكتب، وجمع الكثير من معانيه في قليل لفظه، وذلـك معنـى قـول رسول الله صلى الله عليه وسلم" أوتيت جوامع الكلم"[13]

ويستأنف قائلا: "فإن شئت أن تعرف ذلك، فتدبر قوله سبحانه وتعالى:" خذ العفـو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين"[14]

كيف جمع له بهذا الكلام كل خلق عظيم، لأن في أخذ العفـو صـلة القـاطعين والصفح عن الظالمين وإعطاء المانعين. وفي الأمر بالمعروف، تقـوى الله، وصـلة الأرحام، وصون اللسان عن الكذب، وغض الطرف عن المحرمات، وإنما سمي هذا وما أشبهه عرفا ومعروفا، لأن كل نفس تعرفه، وكـل قلـب يطمـئن إليـه، وفـي الإعراض عن الجاهلين والصبر والحلم، تتربه عن النفس مماراة السفيه، ومنازعـة اللجوج"[15]

والملاحظ أن الرجل كان يقصد السياق، فوضع الجملة في هذا السياق هو الـذي أوحى بهذه المعاني الكريمة.

فالألفاظ لبنات الكلام، وليس لكلمة فضل على أخرى كانت وحدها، فإذا انتظمـت في جملة او عبارة وضحت قيمتها، وكانت بذلك النظم دليلا على نفسها مـن حيـث روعتها أو سقوطها وهذا يتقارب مع معنى السياق

يقول البازي في أول كتابه (أنوار التحصيل في أسرار التنزيل) اعلم أن المعنى الواحد قد يخبر عنه بألفاظ بعضها أحسن من بعض، وكذلك كل واحد من جزأي الجملة، فقد يعبر عنه بأفصح ما يلائم الجزء الآخر، ولا بد من استحضار معاني الجمل، واستحضار جميع ما يلائمها من الألفاظ، ثم استعمال أنسبها وأفصحها استحضار هذا هذا معتذر على البشر في أكثر الأحوال، ودلك عتيد حاصل في علم الله، فلذلك كان القرآن أحسن الحديث وأفصحه، وإن كان مشتملا على الفصيح والأفصح، والمليح والأملح، ويضرب أمثلة من دراسات القدامى في هذا المجال قوله تعالى: "وجنى الجنتين دان"(16) لو قال مكانها: "وثمر الجنتين قريب"، لم يقم مقامه من جهة الجناس بين الجنى والجنتين من جهة أن الثمر لا يشعر بمصيره إلى حال يجنى فيها، وجهة مؤاخاة الفواصل(17)

من خلال هذا النص نلاحظ الإشارة إلى الإحاطة اللغوية في القرآن، فقد روي في هذه الآية الكريمة ثلاثة أنواع من السياق

الأصوات تكون خاضعة للسياق فيتأثر كل صوت بما يتقدمه أو يأتي بعده من أصوات. تطابق دلالة اللفظ مع المدلول المقصود إيراده، فالجني غير الثمر في إبراز المعنى.

الجرس الموسيقي أي التركيب الشكلي للألفاظ.

لما لاحظناه من تقارب بين فكرة النظم عند القدامى والنظرية السياقية الحديثة التي تعامل معها سيّد قطب في تحليل الخطاب الديني، ارتأينا أن نعرض نماذج من النظم عند القدامى منذ القرن الرابع الهجري، عصر ازدهار الدراسات القرآنية – اللغوية– لنبيّن مدى تعمق سيّد قطب في هذه المعاملة القرآنية، ومحدودية التعامل مع القرآن عند القدامى بحيث توقفوا عند الاكتشاف، ولم يستثمروه لصالح المعنى الديني المتوخى من وجود هذا الإعجاز

إن المعنى الذي جعله عبد القاهر الجرجاني محورا للنظم، هو المعنى الصوري أو معنى المصوّر، فالمعنى هو جوهر الكلام عنده، والذي تنسب إليه مزية النظم

ليس هو المعنى الغفل الخام، وإنما هو المعنى الذي تشكل في النفس بشـــكل خـــاص ونظم فيها نظما خاصا، هو صوة المعنى، لا المعنى مجردا من الصورة

أما مفهوم النظم –عند عبد الجبار– فهو أمر عميق، فهو يشـــير صـــراحة إلـــى حركات النحو، وما ترسم من فروق في العبارات، وهو لا يريد الحركات الظـــاهرة إنما يريد معنى أعمق هو نفس المعنى الذي أراده عبد القهار، وهو النظـــام النحـــوي للكلام، نظما يعتبر فيه حال المنظوم بعضه إلى بعض. لا ضمّ الشيء إلـــى الشـــيء كيفما اتفق"[18]

لذلك فهو يذهب إلى أن الكلمة لا تعد فصيحة في نفسها إذ لابـــد مـــن ملاحظـــة صفات مختلفة لها، ولا بد من ملاحظة أبدالها ونظائرهـــا، ولا بـــد مـــن ملاحظـــة حركاتها في الإعراب، ولا بد من ملاحظة موقعها في التقديم والتأخير

وهكذا تتبين الصلة الوثيقة بين معنى النظم اللغوي، ومعناه الاصطلاحي... فـــإذا طبقنا ذلك المعنى على القرآن، وجدنا النظم القرآني، الذي هو مناط الأعجـــاز عنـــد عبد القاهر وغيره.

نماذج سياقية من القرآن:

1- **<u>مفاضلة بين التعبير القرآني والتعبير عند العرب:</u>** قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ ﴾[19] أحسن من التعبير ب (تقرأ) لثقله بالمهمزة. ومنهـــا ﴿لا ريـــب فيه﴾[20] أحسن من (لا شكّ فيه) لثقل الإدغام، ولهذا كثر دكر الريب.

ومنها ﴿لا تهنوا﴾[21] أحسن من (لا تضعفوا) لخفتـــه. و﴿وآثـــرك الله علينـــا﴾[22] أخف من (فضّلك) و﴿وهن العظم مني﴾[23] أحسن من (ضعف) لأن الفتحة أخف مـــن الضمة.

ومنها ﴿آمن﴾[24] أخف من (صدّق)، ولذا كان ذكره أكثر من دكر التصديق.

و﴿وآتى﴾[25] أخف من (أعطى)، و﴿أنذر﴾[26] أخـــف مـــن (خـــوّف). و﴿خيـــر لكم﴾[27] أخف من (أفضل لكم)

"وألفاظ القرآن إذا انصرفت عن النظم، وكانت بعيدة عن مجال التصوير، ألفــاظ عادية من حسن الألفاظ العربية التي تحمل كل منها دلالة خاصة"[28]

نلاحظ أن هذا القول ينطبق على السياق ودوره في تنسيق المعــاني، وتوظيــف المفردات العادية فتبث فيها الروح فتكسب في النص القرآني قيمة جديدة.

"والأسلوب قد يبهرك رسفه، ويسحرك وصفه ومعناه، ولا تملك إلا أن تستحســنه وتستعذبه، لما به من سحر الطلاء، فإذا فضضت نظامه، وفرّقت متجمعه لم تبد فيــه ميزة يفوق بها غيره من الأساليب"[29]

2- **لفظة" كفر" في سياقات متعددة:**

1- **أصلها اللغوي:** و"الكفر" لفظ قرآني له دلالته اللغوية من وجهة نظــر لغويــة على مفهوم الإيمان في الإسلام، بالإضافة إلى مفهوم الشرع فيه، ذلك أن مادة الكفــر تتصل في أصلها اللغوي بالستر، وقد وصف العرب الليل بالكفر لســتره الأشــخاص والزارع لستره البذر في الأرض، وقالوا كفر النعمة، وكفّرها (بالتشديد) للتعبير عــن الإنحراف عن أداء شكرها. قال الراغب في معجمه: "وأعظم الكفر جحود الوحدانيــة أو الشريعة أو النبوة... والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالا، والكفر في الــدين أكثر، والكفور فيها جميعا"[30]

2- **عند الزمخشري:** يشير الزمخشري في (أساس البلاغة) إلى معــاني التغطيــة فيقول: "كفر السحاب بالسماء، كفر الماء في الوعاء، وكفر الليل بظلامه، وليل كــافر ولبس الكافر الدروع، وهو ثوب يلبس فوقها، وكفرت الريح الرسم والفــلاح الحــبّ ومنه قيل للزارع الكفار، وفارس مكفر ومتكفر، وكفر نفســه بالســلاح وتكفــر بــه وغابت الشمس في الكافر وهو البحر، ورجل مكفر وهو المحسان الذي تكفر نعمته"

3- **عند الدمغاني:** ونجد من علماء القرن السابع الدمغاني قد حاول استقراء وجوه دلالة هذه الكلمة في القرآن الكريم، فبيّن أنها تأتي بمعان أربعة:

الإنكار في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ (31) أي جحد وأنكر توحيد الله.

الجحود: في مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ (32)، أي جحدوا به

كفر النعمة: في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ (33)

البراءة: في مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ﴾ (34)، أي يقول إني تبرأت.

دور السياق في تبيان دلالة الألفاظ: إذا كانت الكلمات تتغير مدلولاتها بتغير سياقاتها في النصوص الأدبية، للكشف عن رؤى عميقة، يتجدد بها إحساس الإنسان بالحياة من حوله، فإن السياق عند سيّد قطب وسيلة من وسائل الإبلاغ عن حقيقة الإسلام وبيان أهدافه ومراميه في سعادة الإنسان بيانا يتعمق به إدراك المسلم لمعنى الوجود وغايته، حيث تتظافر الكلمات في العبارة الواحدة، والعبارات في الآية الواحدة والآيات في السورة الواحدة. ثم يجمع كل ما هو مكي في هدف واحد يصب في إطار بناء العقيدة، وكل ما هو مدني لتنظيم المجتمع وصنع الشريعة المثلى التي اختارها الله لعباده المؤمنين، ويتم كل ذلك بطرق مختلفة تعكسها سور القرآن الكريم في التعبير الشيّق سواء بالتعقيبات التي تتجلى في الترغيب بالجنة والترهيب من النار، أو بالبناء اللفظي العجيب في تناسقه مع المقاصد والمعاني أو المدلول اللغوي المصحح لتصورات المؤمنين، بالإضافة إلى التحديد، والدقة والتوكيد، فضلا عن الإيقاع المناسب لكل موضوع مطروق، والجو النفسي والأساليب المدهشة المتنوعة.

كما أن سيّد قطب لا يتصور القرآن الكريم مجرد نص لغوي يفسر أو يجلي الغموض عن مفرداته... "إنها ليست ألفاظا وعبارات إنما هي مطارق وإيقاعات: صورها، ظلالها، مشاهدها، موسيقاها، لمساتها الوجدانية التي تكمن وتتوزع هنا وهناك"(35). بل يتصوره أبعد من ذلك في أهدافه وفي طريقة عرضه حيث لا

تعرض قضاياه عرضا جدليا باردا في كلمات وينتهي كأية قضية ذهنية باردة، إنما تعرض وحولها إطار– هو هذا الكون بكل ما فيه من عجائب– هي براهين هذه القضايا وآياتها في الإدراك البشري البصير المفتوح

ومن ناحية أخرى يفضل سيد قطب عدم الكشف والتوضيح في بعض مواضيع القرآن لأنه يعتبر ذلك مفسدة لجو التعبير وتشويها له يصرف عن الفهم الصحيح للقرآن.

وأول ما نشير إليه أثناء بدء هذا التطبيق مع ألفاظ القرآن الكريم في سياقات مختلفة، هو الصبر على تعريفات سيّد قطب عبر أجواء الآيات، وأثناء تقديمه للسورة لأننا لا نستطيع الولوج إلى اللفظة عنده قبل تتبع سياقها الممهد سواء في بداية السورة أو عند ربط جزء بجزء. إذا كانت اللفظة في جزء تابع لجزء قبله واختيارنا لألفاظ بعينها لم يكن صدفة إنما لاعتبارات نذكرها في مجالها من هذه الدراسة واجتنابا لكثير من العناء في تتبع هذا التطبيق يجب توضيح الألفاظ والآيات التي ذكرت فيها

لفظ (حق):

تتبع مدلول كلمة حق عبر السور التالية:

1- سورة الرعد آية رقم 1 إلى الآية رقم 19

2- سورة آل عمران آية رقم 03

3- سورة النساء الآية 170

2 2–2– أ سورة الرعد من آية 1 إلى الآية 19:

ففي تفسيره لسورة الرعد يقوده اهتمامه بالسياق، وحرصه على تتبع سلسلة من المعاني في بداية السورة إلى التوقف عند قضية قبل التطرق (لكلمة حق) بالتحليل كما أشرنا إلى ذلك في التمهيد، ودلك للاتصال بينهما. فبدون معرفة هذه القضية

يصعب تحليل معنى بقية الآيات، وهذه القضية التي استوقفت سيّد قطب هو قوله تعالى: "ألمر تلك آيات الكتاب. والذي أنزل من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون"[(36)]

يقول سيّد قطب: ق ألف، لام، ميم، راء تلك آيات الكتاب، آيات هذا القرآن أو تلك آيات على الكتاب تدل على الوحي به عند الله. إذا كانت صياغته من مادة هذه الأحرف دلالة على أنه من وحي الله لا من عمل مخلوق كائنا من كان"[(37)]

السياق اللغوي: هذا النص يعكس لنا كيف تعامل السيد قطب مع الأحرف المقطعة في بداية بعض سور القرآن (سورة الرعد) فهو لا يجادل ولا يقحم نفسه في نقاش عميق بل يقف موقف التسليم، ففي هذه الآيات تراءى له وجهان:

1- آية بمعنى "آية القرآن" أي جزء منه..

2- آيات "على الكتاب" أي دلالة عليه تدل على أنه وحي من عند الله

وكلا الوجهين يقرران نفس الحقيقة هي أن القرآن "أنزل بلسان عربي مبين" ومادته من الأحرف المذكورة... وهذه الأحرف عبارة عن وعاء للثقافة في ذلك العصر، حيث كانت هذه اللغة مفخرة، ومكسبا لذلك سهل عليهم فهم القرآن.

سياق المقام: كما كان فيه أجوبة عن تساؤلات قومهم (الصحابة وغيرهم) وشفاء لأدوائهم... خاصة الذين آمنوا به. "الحق وحده" "الحق من ربك" الحق الخالص الذي لا يلتبس بالباطل، والذي لا يحتمل الشك والتردد وتلك الأحرف آيات على أنه الحق فهي آية أنه من عند الله ولن يكون ما عند الله إلا الحق لا ريب فيه"[(38)]

ولكن أكثر الناس لا يؤمنون، بأنه موحى به ولا بالقضايا المترتبة على إيمان بهذا الوحي: من توحيد وديمونة له وحده ومن بعث وعمل صالح في الحياة.

على ضوء الجزء الأخير من الآية يستكمل سيّد قطب مناقشة مدلول كلمة (الحق) بعد أن ربط مدلولها بالأحرف المقطعة في الجزء الأول من الآية. وذلك بيان فحوى هذا الحق فهو ليس مجرد كلمات يحرّك بها اللسان، ولا مجرد اعتراف بل هو "ما

وقر في القلب وصدّقه العمل" أو كما قال الرسول ﷺ، ويترتب على صاحبه –أي المصدق لهذا الكتاب– تبعات لا بد من العمل بها والتصرف بمقتضاها: توحيد الله في كل سكون وحركة، وديونة له وحده، والإيمان بالبعث والاستعداد له، والعمل الصالح في الحياة، لأن الإيمان من الأسس التي ينبني عليها التصور الاعتقادي، ويقوم عليها الواقع في الحياة بعد ذلك.

وكما أسلفنا الذكر إن هذا الحق له براهينه القائمة بقدرة الله –سبحانه وتعالى– قادر على لإقناع العقل وذلك عن طريق الكون المتطور آياته التي يتفاعل معها البشر وهي مسخرة لهم ليبلوهم فيما آتاهم.

وخلاصة الحديث أن سيّد قطب قد جمع كل الوسائل اللغوية والمشاهد المرئية المتمثلة في البناء الداخلي للنص إلى جانب التصور الإسلامي الذي ينبني عليه الاعتقاد (السياق الخارجي) جمع كل ذلك لبيان دلالة "الحق" بكل مكوناتها وبراهينها وكان كل هذا الاهتمام لإبراز الوظيفة التي جاءت كلمة الحق لتؤديها ألا وهي وظيفة الدعوة عن بينة واقناع لإسقاط الحجة على الله يوم الدين، وقد أضاف في الأخير ضرورة صفاء البصيرة حتى ترى النور جليا لأن بعض الظروف المستجدة من التطور المادي، والابتعاد عن الحق ومخلفات الجاهلية تقف حجرة عثرة أمام استيقاظ الضمائر وجمع الهمم لعبادة الله وحده وإخلاص العبادة ليس بالأمر السهل.

دائما في إطار قضية الوحي والرسالة، وقضية التوحيد والشركاء. الجولة الثانية من (سورة الرعد) تناقش طبيعة الإيمان، وطبيعة الكفر "في لمسات وجدانية وعقلانية وتصورية دقيقة رفيقة"[39]

خاصية التقابل: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[40]

والسياق هذه المرة يقود سيّد قطب إلى وجهة أخرى نبنيها من قوله: "إن المقابل لمن يعلم أن ما أنزل إليه من ربه هو الحق ليس هو من لا يعلم هذا، إنما المقابل هو الأعمى، وهو أسلوب عجيب في لمس القلوب وتجسيم الفروق، وهو الحق في الوقت

ذاته لا مبالغة فيه ولا زيادة ولا تحريف. فالعمى وحده هو الذي ينشيء الجهل بهـذه الحقيقة الكبرى التي لا تخفى إلا على الأعمى"[41] ثم يبين حقيقة الأعمى بطريقته الخاصة

"والناس إزاء هذه الحقيقة الكبيرة صنفان: مبصرون فهم يعلمون وعمـي فهـم لا يعلمون، والعمى عمى البصيرة، وانطماس المدارك، واستغلاق القلوب وانطفاء قبس المعرفة في الروح، وانفصالها عن مصدر الإشعاع"[42]

اكتشف سيّ قطب المعنى المقصود بكلمة "الحق" من خلال التقابل، وهي نفسها التي أثيرت في الشطر الأول من سورة الرعد. يقول سيّد قطب: "إنهـا تثـار مـرة أخرى على نسق جيّد"[43]، ونلاحظ أن معنى الكلمة لم يتغير بـل السـياق صـبغها بصبغة جديدة لتؤدي وظيفتها بأسلوب مغاير

وقد استوحى هذا المعنى من تصوره للعقيدة الواضحة المعالم لـم يطرقهـا هـذه المرة من خلال المعتقدين، ويقسمهم إلى صنفين تُجاه هذا الحق المتمثل في "الـوحي" صنف مبصر به متقين، مبصر به ومصدق، وصنف مكذب جاهل عن عمد بسـبب العمى الذي أصاب بصائرهم، وطمس أرواحهم وفصلهم عن طريق الصواب، فأمـا" الذين لهم قلوب وعقول مدركة تذكر بالحق فتتذكر، وتتنبه إلى دلائلـه فتتفكـر"[44]. وهذه هي صفات أولي الألباب كما هو مصرح به في الآية الكريمة.

ويندهش سيّد قطب أمام هذا الأسلوب الدقيق غير أنه يبين لنا مصدر هذا التقابـل "فإن ما ينشيء الجهل هو العمي، لأن الذي لا يعلم يمكن له أن يتعلم، أما من عميـت بصيرته مطبوع على ذلك العمى ولا يبحث أبدا عن الحقيقة.

ويتعمق سيّد قطب في إيضاح مصادر العمى المتنوعـة، وذلـك قصـد كشـفها ليتوخاها الناس: فهو عمى البصيرة، وانطماس المدارك واستغلاق القلـوب وانطفـاء قبس المعرفة في الأرواح، إذن كل هذه المترادفات توظف في مقابل كلمة" الحق".

ب- سورة آل عمران آية رقم 03:

ومن سورة آل عمران قوله تعـــالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ (45)

متضمنات القول:

1) وتتضمن هذه الآية في شطرها الأول جملة حقـائق أساسـية فـي التصـور الاعتقادي وفي الرد كذلك على أهل الكتاب وغيرهم من المنكـرين لرسـالة محمـد صلى الله عليه وسلم "وصحة ما جاء به من عند الله"

2) فهي تقر وحدة الجهة التي تنزل منها الكتاب على الرسل، فالله فالله الذي لا إله هو الحي القيوم، هو الذي نزل هذا القرآن –عليك– كما أنه أنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى من قبل. وإذن فلا اختلاط ولا امتزاج بين الأولوهية والعبودية إنما هناك إله واحد ينزل الكتاب على المختارين من عباده. وهناك عبيد يتلقون. وهم عبيد لله ولو كانو أنبياء مرسلين"

3) وهي تقرر 'أي كلمة الحق' وحدة الدين ووحدة الحق الـذي تتضـمنه الكتـب المنزلة من عند الله، فهذا الكتاب نزله عليك بالحق.. مصدقا لما بين يديه من التـوراة والإنجيل.. وكلها تستهدف غاية واحدة، هدى الناس

"وهذا الكتاب الجديد الفرقان يبين الحق الذي تضمنته الكتب المنزلة والانحرافـات والشبهات التي لحقت بها بفعل الأهواء والتيارات الفكرية والسياسـية، وهـي كلمـة الحق تقرر –ضمنا– أنه لا وجه لتكذيب أهل الكتاب للرسالة الجديدة فهي سائرة على نمط رسالات قبلها. وكتابها نزل "بالحق" كالكتب المنزلة. ونزل على رسـول مـن البشر كما نزلت الكتب على رسل من البشر. وهو مصدق لما بين يديه مـن كتـاب الله، يضم جناحيه على الحق الذي تضم جوانحها عليه وقد نزله مـن يملـك تنزيـل الكتاب ... فهو منزل من الجهة التي لها الحق في وضع منهاج الحياة للبشر، وبنـاء

تصوراتهم الاعتقادية، وشرائعهم وأخلاقهم وآدابهم في الكتاب الذي ينزله على رسوله"[46]

السياق الثقافي: من خلال هذه النصوص –التي رأينا نقلها بجملتها– نلاحظ أن لفظة الحق استدعاها السياق الموضوعي للسورة إلى عدة محطات واهتدى إليها سيد قطب بفضل اهتمامه بالسياق وإدراكه لضرورة التعامل مع الرسالة وفق ملابسات العصر الذي أنزلت فيه ثم تعميمها على جميع الأجيال عبر العصور

إذن يبدأ بأن كلمة "حق" جاءت في سياق الرد على أهل الكتاب، وتصحيح التصور الاعتقادي، والهدف هو أن هذه الرسالة المحمدية هي حق يحتمل نفس الحيقة التي جاءت بها الرسل السابقة لها– وهي هدى للناس

كما أنها كلمة حق تتضمن دعوة أهل الكتاب لتصديق هذه الرسالة مثلها مثل الرسالات السابقة من ناحية الدعوة إلى التوحيد. وقد جاء هذا الكتاب ليفرق بين الحق والباطل أي فرقان

ومن ناحية أخرى أشار سيّد قطب إلى جانب مهم يمس هذه اللفظة التي تستوعب كثيرا من المعاني ويتمثل هذا الجانب في أن هذه الرسالة من عند الله لصالح البشرية جمعاء حيث يقوم بمساعدتها على بناء التصور الاعتقادي. فمصدر هذا الحق واحد – هو الله– الذي يملك وحده سبحانه حق التشريع والتأديب عن طريق هذا الكتاب الذي أنزل على رسوله.

2–2–ج سورة النساء الآية 170

وفي سورة النساء قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾[47]

سياق الحال: "وهي دعوة سبقها دحض مفتريات أهل الكتاب، وكشف حيلة اليهود ومناكرهم وتاريخهم كله، وتصوير تعنتهم الأصيل، حتى مع موسى نبيهم وقائدهم ومنقذهم"[48]

لبيان معنى لفظة حق عمد سيّد قطب لاستدعاء السياق الخارجي أو سياق الحال ليبين لنا أن هذا الحق الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم هيأ له الله الطريق بدحض مفتريات اليهود المتمثلة في قولهم "لن تمسنا النار إلا أيام معدودات" وكانوا يقولون: "نحن أبناء الله وأحباؤه" فجاء القرآن القرآن لينفي هذا كله. ويضعهم في موضعهم: عبادا من العباد إن أحسنوا أثيبوا وإن أساءوا -ولم يستغفروا ويتوبوا- عذبوا" وكان ذلك على الله يسيرا[49] من يهود مع نبيهم، ونصارى بقولهم لا نبي بعد عيسى عليه السلام.

ويأتي مدلول هذه الكلمة "حق لأن حكمة الله استدعت وجوده وهو متمثل في رحمة الله بعباده حتى لا تكون على الله حجة بعد أن شوه بنوا اسرائيل رسالتهم وحرّف النصارى رسالة عيسى عليه السلام جاءت الرسالة الشاملة لكافة الناس: "لئلا يكون على الناس حجة بعد الرسل" وعدم وجود هذه الرسالة ينتفي مع عدل الله في أن يأخذ الناس بالعقاب دون البلاغ. وكان حق قول الله سبحانه وتعالى: "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين".. رحمة في الدنيا وفي الآخرة[50]

نستنتج من هذا التحليل لمواقف السياق المختلفة من كلمة "الحق"، أن سيّد قطب ربطها بثلاث مراحل:

1- المرحلة الأولى: هي المرحلة التمهيدية:

دحض أهل الكتاب، وقد كانت من خلال دعوة الله لأهل الكتاب بأن يؤمنوا بهذه الدعوة التي ختمت الرسالات السابقة وجاءت مصدقة لها. وتصرفات أهل الكتاب مع أنبيائهم كان من دواعي هذه الرسالة الشاملة لتصحيح ما تعرضت له الرسالات السابقة من تشويه.

2- المرحلة الثانية هي المرحلة التنفيذية:

إن حكمة الله وعدله يقتضيان وجود هذه الرسالة الشاملة حتى لا يبقى للأجيال القادمة على الله من حجة

3- المرحلة الثالثة هي مرحلة الثبات: فهو حق لا سبيل إلى محوه أو تغييره.

وفي ختام مناقشة السياقات المختلفة لكلمة حق نحصل على حلقة مترابطة يستدعي كل جزء فيها بقية الأجزاء. بحيث أصبح آخر جزء منها المتمثل في ما اقتضته حكمة الله من إتيان هته الرسالة الشاملة الخاتمة يستدعي العودة إلى أول مدلول تطرقنا له وهو إثبات أحقية الرسالة، وعدالتها، وضرورتها في حياة الناس وهذا شان الأسلوب القرآني في طرح قضايا العقيدة، وقد بينا ذلك عند مناقشة التصور الإسلامي الذي أبرز خصائصه ربط الحياة الاجتماعية بالتصور الاعتقادي وهدف هذه العقيدة هو تصحيح التصور الاعتقادي الذي يفرص تصحيح التصور الفكري. وبهذا يبلغ السياق أوجه في تحقيق هدف الدعوة الإسلامية التي جاءت لبناء هذه الأمة.

بعد عرضنا لهذه الدراسة التطبيقية على السياق عند العرب القدامى لنبين الفروق بينهم وبين سيد قطب من خلال نظرتهم للسياق وتعاملهم معه والحدود التي وقفوا عليها، إذ وجدنا الفرق شاسعا بينهما حيث أجرينا دراسة على تطبيقه للسياق في التفسير أثناء تحليله للمواقف المختلفة في القرآن الكريم، إذ استفاد من تطبيقه للسياق في التفسير، وكان دليله في ذلك إدراكه الواعي لخصائص التصور الإسلامي ولأهداف القرآن الكريم وبالتالي أهداف الرسالة المحمدية للبشرية عامة، نجد بيانه لكلمة حق التي تتبعناها في مختلف السياقات عبر سور مختلفة في القرآن أن الحق عملة ذات وجوه تصب في نفس المنبع ألا وهو صدق هذه الرسالة وعدالتها وشموليتها.

وتجدر الإشارة في نهاية هذا البحث إلى أنه رغم هذه المحاولات الجادة في العناية بالظاهر القرآنية ووصفها في المقارنات النحوية والبلاغية عند العرب القدامى، فإننا لا يمكن أن نعتبرها نظريات مكتملة النسق وتامة الشروط، بل إنها مقاربات كغيرها من المقاربات

يمكن الإفادة منها، والسبب في ذلك يعود إلى أن اهتمام العرب بهذه القضايا لم يكن هدفا في حد ذاته لاهتمامهم كان منصبا على النص وولوعهم بجماله وقداسته وحلاوته وقد تفننوا في كشف أغواره ومواطن الاتساق والانسجام فيه.

الاحالات:

[1] سيبويه ابو بشر عمر بن عثمان بن قنبر، فارسي الأصل ولد بالأهواز ثم هاجر إلى البصـــرة لطلب العلم، توفي 180 للهجرة، من آثاره المشهورة الكتاب"

[2] ابن جني (320هـــ-392هـــ)، هو أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، كان ابوه مولى رومـــي لسليمان بن الفهد الأزلي الموصلي، اشتهر بأبحاثه في فقه اللغة ومن تصانيفه شرح ديوان المتنبي والمبهج في اشتقاق أسماء رجال الحماسة، وسر الصناعة، واللمع الشبيه.

[3] ابن جني، الخصائص، ص 98

[4] بيار جيرو: علم الدلالة- ترجمة عن الفرنسية، د. منذر العياش، ص42

[5] أنيس ابراهيم ومنتصر عبد الحليم والصوالحي وأحمد محمد خلف الله، المعجم الوسيط، ط2، ج1، ص 465

[6] جميل صليبيا- المعجم الفلسفي، الشركة العالمية للكتاب 1994، ج1، ص683

[7] ينظر، جبل عبد الكريم محمد حسن، في علم الدلالة- دراسة تطبيقية- ص 63

[8] ينظر، حمودة طاهر سليمان، دراسة المعنى عند الأصوليين، ص 221

[9] د. جمال العمري، مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري، دار المعارف، ص 274

[10] ينظر، الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص 277

[11] ينظر خليل حلمي، الكلمة دراسة لغوية معجمية، دار المعرفة الجامعية-1995، ص 157

[12] المرجع نفسه، ص 281

[13] ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص 43

[14] سورة الأعراف 199

[15] د. جمال العمري، مفهوم الإعجاز القرآني، ص 281

[16] سورة الرحمن 54

[17] د. جمال العمري، مفهوم الإعجاز القرآني، ص 284/285

[18] د. جمال العمري، مفهوم الإعجاز القرآني، ص278

[19] العنكبوت، الآية 48

[20] البقرة، الآية 02 :

[21] آل عمران، الآية 139

[22] يوسف، الآية 91

[23] مريم، الآية 04

[24] البقرة، الآية 284

[25] البقرة، الآية 177

[26] يونس، الآية 02

[27] البقرة، الآية 54

[28] د. جمال العمري- مفهوم الإعجاز القرآني حتى القرن السادس الهجري- دار المعارف، ص 286

[29] المرجع نفسه، ص 286

[30] الوجوه والنظائر: مادة الكفر، ينظر التصوير الفني في القرآن، ص 15

[31] البقرة، الآية 2/6

[32] البقرة، الآية 89

[33] البقرة، الآية 152

[34] العنكبوت، الآية 25

[35] سيّد قطب، في ظلال القرآن، ط 10، 1402ه/1982م، ص 2039

[36] سورة الرعد، الآية 1

[37] الظلال، ص 2043

[38] نفسه، ص 2056

[39] الظلال ج4، ص 2056

[40] سورة الرعد، الآية 19

[41] الظلال ج4، ص 2056

[42] نفسه2056

[43] نفسه2056

[44] الظلال، ص2056

[45] سورة آل عمران، الآية 03

[46] الظلال، ص367–368

[47] سورة النساء، آية 170

[48] الظلال، ص814

[49] الظلال، ص 813

[50] نفسه، ص814

اللغة العربية من منهج الخبر إلى منهج النظر

د. ابن شماني محمد

المركز الجامعي أحمد زبانة غليزان

بات من المسلّم به أن نشأة الدرس اللساني العربي قد ارتبط بنشأة النحو العربي وهذا ما تناقلته معظم كتب التراجم والطبقات فضلا عن كتب تاريخ النحو العربي وأصوله أيضا، كما ارتبط هذا الدرس اللساني من جانب آخر بشخصية أبي الأسود الدؤلي (ت69ه) باعتباره الواضع الأول لمبادئ اللسانيات العربية عموما، ولمبادئ النحو العربي خصوصا[1] وبغض النظر عن حقيقة ذلك، فإننا نظن أن تلك القصة التي حبكت حول الكيفية والسبب اللذين لأجلهما وضع أبو الأسود الدؤلي أوليات الدرس اللساني العربي تشوبها شكوك لعلل ليس هذا سياق ذكرها.

وسواء أكان الواضع هو الإمام أبو الأسود الدؤلي أم كان غيره، وبأمر من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أم لا، فإن الهدف الأساس، والغاية القصوى من ذلك كله هو حفظ كتاب الله تعالى من تطرق اللحن إليه تلاوة وإعرابا وفهما، وحماية اللغة العربية تباعا، ابتداء من ذلك تحدد الهدف والمنهج الذي سار عليه العلماء العرب خلفا عن سلف إلى غاية المرحلة التي عرف فيها النحو العربي خاصة الكثير من التعقيد والضبابية في مناقشة ودراسة العديد من مفاهيم وقوانين اللغة العربية إن على مستوى اللغة الواصفة أو على مستوى الواقع اللغوي الفعلي؛ لهذا السبب يمكننا أن نقسم أهم المراحل التي مرت بها اللغة العربية إلى ثلاث مراحل كبرى من جهة المنهج والهدف معا، وهي:

- مرحلة اللغة العربية في ظل النهج الخبري؛
- مرحلة اللغة العربية في ظل المنهج النظري؛

ولنا إمكانية تقسيم المرحلة الثانية إلى مرحلتين هما: مرحلة اللغة العربية في ظل المنهج النظري لدى النحاة المتأخرين، ومرحلة اللغة العربية في ظل المنهج النظري لدى اللسانيين العرب المعاصرين، ونحن سنتعامل مع هذه التقاسيم باعتبارها معالم تسمح لنا بمعرفة التقلبات التي طرأت على اللغة العربية وتحولها عن المنهج الخبري إلى المنهج النظري. ولابد من التنبيه إلى أننا سنقتصر على المرحلتين البارزتين الأولى والثانية دون التعرض إلى قسمي المرحلة الثانية.

المرحلة الأولى:

أ- **اللغة العربية في ظل المنهج الخبري:** إن المقصود بالمنهج الخبري هو منهج القرآن الكريم وأثره في حماية اللغة العربية بوصفه، المنهج الذي أتاح للعلماء القدامى بوضع وصياغة قوانين اللسان العربي، نحوا وصرفا ومعجما وبلاغة وأسلوبا ودلالة...إلخ، على أسس علمية موضوعية ومتينة، لذلك يعد المنهج الخبري منطلقا قويا اتخذه العلماء العرب المتقدمون قاعدة منهجية، ومنه استطاعوا أن يصوغوا العديد من قواعد اللغة العربية، ولعل أهم ما انجرّ عن ذلك هو حظوة اللغة العربية بحماية منقطعة النظير، فصارت العلاقة بين القرآن الكريم واللغة العربية علاقة لزومية، تدور بينهما وجودا وعدما.

وكون القرآن الكريم اتخذه العلماء العرب الأوائل منطلقا في بحوثهم اللغوية، فإنه يعني في جانب آخر المدونةَ اللغويةَ التي اشتغل عليها أولائك العلماء، ومنها استنبطوا وصاغوا ووضعوا ضوابط اللسان العربي، فبالإضافة إلى كلام العرب شعرا ونثرا كان القرآن الكريم هو العامل الأساس والمحرك في حماية اللغة العربية لذا ظلت اللغة العربية تدرس في ظل المنهج الخبري، وظلت النتائج والثمار العلمية التي كان يجنيها علماؤنا المتقدمون في شتى فروع المعرفة اللغوية في رحاب المنهج الخبري أيضا. من هذا المنظور فإننا يمكننا التطرق إلى ذكر خواص اللغة العربية في ظل المنهج الخبري بالوقوف على هذه المحاور الآتية:

1- المدونة اللغوية؛
2- المنهج العلمي؛
3- الهدف العلمي.

1- المدونة: تميزت المدونة اللغوية العربية في هذه المرحلة بجملة من الخصائص البارزة، وأهمها وأكثرها بيانا هي كونها بنيت على خاصية السماع؛ ذلك أن آلية السماع –باعتباره كل "ما ثبت في كلام من يوثق بفصاحته، فشمل كلام الله تعالى وهو القرآن، وكلام نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وكلام العرب قبل بعثته وفي زمنه وبعده، إلى زمن فسدت فيه الألسنة بكثرة المولّدين، نظما ونثرا عن مسلم أو كافر"[2]– تفضي مباشرة إلى أن التعامل مع ما جمع عن العرب الفصحاء هو ذو خاصية مراسية، أي إن المدونة اللغوية العربية بالنظر إلى المرحلة الأولى هي مدونة مراسية لأنها نابعة من كلام عربي فعلي يتكلمه أناس حقيقيون في أزمنة وأماكن فعلية، وكل ما توصل إليه العلماء العرب القدامى من قواعد وضوابط لها علاقة بعلوم اللغة العربية هو من جنس ذلك، أو بعبارة أخرى؛ إن قوانين اللسان العربي هي قوانين فعلية تناسب لغة فعلية ممارسة في الزمان والمكان، ولا حظّ للافتراض في ذلك على الأقل في أول الأمر.

إنها مدونة –على حدّ تعبير عبد الرحمن الحاج صالح– من أعظم المدونات اللغوية "التي شهدها تاريخ البشرية، وقد رأينا أن القبائل العربية التي أُخذت منها اللغة ونتج عن هذا المسموع العملاق كانت تغطي شبه الجزيرة كلها في الجاهلية..."[3] والسر في هذا التميز والتفرد الذي حظيت به المدونة اللغوية العربية قديما يرجع إلى ارتباطها المباشر بالمنهج الخبري الذي أمدها بخواص أخرى قلما نجدها في لغات أجنبية، من ذلك أنها مدونة لغوية عربية مفتوحة، وهو بخلاف ما دعت إليه التيارات اللسانية الغربية الحديثة والمعاصرة في أوروبا كما في أمريكا الشمالية، والبنوية منها خاصة.

إن معنى كون المدونة اللغوية مفتوحة هو عدم اقتصارها على عينات لغوية محدودة؛ بحيث تصير المدونة في صورة نسق مغلق على نفسه، لا يقبل الزيادة فيه أو

النقصان منه، وهو مفهوم صوري يتعارض معارضة صريحة مع مفهوم اللغة المراسية المسموعة من الواقع اللغوي الفعلي؛ لأجل هذا تعد المدونة اللغوية العربية في ظل المنهج الخبري مدونة فعلية؛ لأنها مراسية، وكذا مفتوحة يقول الحاج صالح في هذا الصدد ما نصه: "فما كانوا يدوّنونه منذ أول سماع يبقى طوال السنين مفتوحا ونعني بذلك ... أنّ أي لغوي في ذلك الزمان (زمان التدوين) كان يمكنه أن يسمع من فصحاء العرب في أي وقت شاء وأن يروي من شيوخه وممّا سمعه منهم. فسماع هذا اللغوي لا ينحصر فيما سمعه هو ودوّنه بنفسه مباشرة من فصحاء العرب –وكان يمكن أن يكتفي به في نظر البنويين– بل يتألف من جميع المعطيات اللغوية التي وصلت إليه إلى حدّ ذلك الوقت، ويكوّن هذا الذي تجمّع من سماعه وسماع غيره طول حياته مجموعة مكتملة من النصوص مهما كان، إلا أن هذا المسموع يبقى عند هذا اللغوي مفتوحا في كل وقت مادام يشتغل بالبحث في اللغة العربية..."[4] وهذا ما يضمن حضور الجانب الواقعي للغة؛ بحيث يبعدها عن كل ما يحولها إلى مجموع فرضيات أو قواعد صورية بحتة متعالية على الواقع اللغوي للغة.

بناء على ما تقدم تتحدد أهم خواص المدونة اللغوية العربية التي كان يشتغل عليها علماء اللغة العرب القدامى في ظل المنهج الخبري في كونها مدونة لغوية مراسية بمعنى واقعية وفعلية، ومؤسسة على آلية علمية وموضوعية هي آلية السماع، وهي أيضا مدونة مفتوحة غير مغلقة على نفسها.

2- المنهج: وممّا له صلة مباشرة بتلك الخواص المذكورة، خاصية أخرى متعلقة بالمنهج الذي طبّقه العلماء العرب المتقدمون، وهو الاستقراء، باعتباره منهجا تجريبيا ولكونه ملائما وموائما لخاصية السماع والمراس الذي اتصفت بهما المدونة اللغوية العربية؛ إذ مادامت المدونة اللغوية مراسية فإن هذا يفضي بنا آليا إلى معرفة نوع المنهج المتبع في دراستها، وهو هنا الاستقراء؛ لأن ما تم التوصل إليه من نتائج علمية وما وضع من قواعد نحوية وصرفية ومعجمية وأسلوبية وبلاغية كان نتيجة للاختبارات والتحريات والمشاهدات العلمية التي كان يقوم بها العلماء العرب القدامى.

ويعد الاعتماد على المنهج الاستقرائي في دراسة اللغة العربية قديما مظهــرا مــن مظاهر اهتمام العلماء العرب بالجانب المراسي في اللغة العربية، مما يعني مــن جهــة أخرى أن العلماء المتقدمين كانوا حريصين جدا على تتبع أثار العــرب فــي كلامهــا والتدقيق في الوقوف على سننها وعوائدها في ذلك، فكان أن نتج عنه ابتكــار طريقــة علمية غاية في الضبط والاستقراء لكلام العرب ووضع القوانين اللسانية التي مازالــت قائمة ليوم الناس هذا؛ لأنهم كانوا الأكثر تحريا واختبارا لكلام العرب، والأكثر حرصــا على أن تبقى بحوثهم اللغوية في كنف المنهج الخبري؛ لذا نلفي في دراســاتهم اللغويــة المتقدمة بعدا عمليا وواقعيا يتجنب فيه العلماء اللجوء إلى الافتراضــات والاختراعــات التي لا تتصل بواقع اللغة الفعلي؛ لأن الثمرة التي كانوا ينشدونها هي أن يلتحــق مــن ليس عربيا بالعربي في كلامه وينحو نحوه في سائر تصرفاته الكلامية، وكفــى بهــذا دليلا على واقعية الدراسات اللغوية العربية المتقدمة خاصة، ونحن إذا وازنا بين طريقة علماء اللغة في الشطر المنهجي لوجدناها تتفق إلى حد كبير مع طريقة علماء الشــريعة الإسلامية في دراساتهم لكتاب الله تعالى ولسنة النبي صلى الله عليه وسلم خاصة فــي ميداني أصول الفقه والحديث النبوي الشريف من دون أن يتطابقا تماما. إن هذا الاتفاق الحاصل بينهما أكسب علماء العربية احتياطا وصرامة منهجيتين دائمتين في اســتقراء كلام العرب شعرا ونثرا، وما كان لهم ذلك لولا ارتباطهم بقدســية المــنهج الخبــري منطلقا وهدفا معا، فكانت النتيجة من جنس المقدمة.

3- الهدف: أما فيما له علاقة بالهدف الذي كان يصبو إليه العلماء العرب القدامى فإنه كان هدفا تعليميا بالدرجة الأولى، على هذا الأساس كانت العلوم العربية وقتئذ – والنحو من جملتها– متصفة بالبساطة التي عُدمت في العصور اللاحقة وصارت العربية مجرد قواعد صورية خالية من خواص كثيرة كانت متميزة بها، فتعسر تعلمها حتى على أبناء العربية نفسها.

إن الجهود العلمية التي سخرها علماء العربية القدامى لصون اللسان عن الوقوع في الخطأ بوضع وصياغة القوانين اللسانية العربية، تجعل للغة العربية بحد ذاتها التي كان

يدرسها أولائك العلماء وجودا حقيقيا، مما يتيح لها استقلالية عن تبعية النسق الذي يضعه المنظر عادة، كما هو الأمر في اللسانيات الغربية الحديثة، أي إن للغة كيانا يخصها وما استنبط منها من قواعد لسانية في جميع المستويات لا يكون غريبا عنها بل هو أمر ناتج عن تأمل ودراسة وإحصاء واختبار ومشاهدة متكررة، وطبيعي أن يكون الهدف من دراسة اللغة بهذا المنظور هدفا مطابقا لواقع اللغة العربية، فلا هو متعارض معها، ولا هي متعالية على الإنسان الذي يتداولها، فمهمة علماء اللغة الأوائل كانت منحصرة في إيجاد طريقة تيسر على متعلم اللغة العربية من غير العرب استعمال العربية كما يستعملها العربي نفسه في مختلف السياقات والظروف.

ولابد من التنبيه مرة أخرى على أن القواعد اللغوية التي وضعها المتقدمون من علماء العربية لم تكن عبارة عن نماذج صورية كما هو معروف اليوم في اللسانيات الغربية، أو قوالب مجردة تجعل المتكلم خاضعا لها تابعا لنسقها؛ لذا يعد هذا عاملا قويا ومباشرا في الإقبال على تعلم اللغة العربية حينها، لانعدام الهوة بين ما كان مستعملا في الحياة اليومية، وما كان مقعدا له في أبواب نحوية أو صرفية أو أسلوبية أو بلاغية.

خلاصة القول، هي أن اللغة العربية لمّا كانت في ظل خطوات المنهج الخبري ظلت لغة عادية مستعملة من قبل متكلمين عاديين في ظروف زمكانية عادية، مما أتاح للعلماء الأوائل بجمع مدونة لغوية عربية من الموجود بالفعل شعرا ونثرا عبر السماع، فضلا عن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف باعتبارهما الأصلان البارزان في ذلك كله، وهذا بدوره جعلهم يصوغون قواعد وضوابط لما كان موجودا من اللغة بالفعل عن طريق الاستقراء من دون محاولة إخضاع ذلك إلى النظر الذي يحتم على إقصاء الواقع الفعلي للغة وإحلال محلّه واقعا لغويا آخر هو من وضع صاحب النظر نفسه، أو في أحسن الأحوال إخضاع الواقع اللغوي الفعلي لمستلزمات وقيود النسق النظري بوصفه مؤسسا على مجموع الفرضيات المنسجمة والمتسقة التي تشكل قولا ومنهجا نظريا خالصا، وهنا مكمن المفارقة بين أن يكون الهدف من دراسة اللغة هو وضع قواعد تساعد على التعليم وصون اللسان عن الوقوع في الخطأ، أي أن

تكون الثمرة تعليمية أساسا، وبين أن يكون الهدف هو صياغة نسق نظري مجرد ينظر إلى اللغة نظرة صورية خالصة في معزل عن الواقع.

المرحلة الثانية:

ب - اللغة العربية في ظل المنهج النظري: انطلاقا من معرفة خواص المنهج الخبري الذي انضوت فيه اللغة العربية قديما، يتجلى لنا قسيمه وهو المنهج النظري ومعرفة خواصه هو الأخر يتطلب منا السير على الخطى نفسها التي رأيناها في المنهج الخبري، وعليه يتحدد المقصود بالمنهج النظري في دراسة اللغة العربية في كونه الطريقة العقلانية التي يتبناها وينتهجها علماء اللسانيات الحديثة، ابتداء من فجر هذا العلم في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في أوروبا، إلاّ أن الذي يعنينا في هذا المقام هو تبني هذا المنهج النظري في دراسة اللغة العربية عند بعض اللسانيين العرب المحدثين، بوصفهم متأثرين بما أنتجه العقل الغربي في ميدان اللغة من نظريات وأنساق وأقوال علمية في دراسة مختلف الظواهر اللغوية ؛ لذا سيكون مفيدا أن نحصر ذلك في المدونة والمنهج والهدف قصد الوقوف على طبيعته ودرجة الاختلاف والتحول الذي اعترى اللغة العربية، باعتبارها لغة كانت في ظل المنهج الخبري، فصارت بظهور اللسانيات الحديثة في ظل المنهج النظري.

لا يخفى على أي مهتم بشأن اللسانيات عامة، واللسانيات العربية الحديثة خاصة حجم التأثر الذي بلغه العرب المحدثون بالنظريات اللسانية الغربية، ولأدل على ذلك من تشكل تيارات لسانية عربية تتبنى الطرح الغربي في دراسة اللغة العربية، وصرنا نسمع عن البنويين العرب ومن جملتهم الأسلوبيين والوظيفيين والسيميائيين، والتوليديين والتداوليين العرب، وهكذا دواليك، فكان أن وجدنا أنفسنا أمام منتج لساني عربي حديث وضخم يتوق إلى وضع نظرية لسانية عربية حديثة بانتهاج الطريقة العقلانية في ذلك أعني اجتهادهم في تطبيق المنهج النظري ذي المواصفات الغربية على اللغة العربية تارة بالإسقاط الأنطولوجي، وتارة أخرى بالمقاربات الحداثية المتعددة. بناء على هذا

سنحاول بيان الخواص التي تميزت بها اللغة العربية في ظل المـنهج النظـري علـى النحو الآتي:

1- المدونة: سبقت لنا الإشارة إلى أهم خاصية تميزت بها المدونة اللغويـة فـي إطار المنهج النظري، وهي خاصية الانغلاق على نفسها، وكنا بيّنا أنها مدونـة لغويـة تختلف في جوهرها عن مفهوم المدونة اللغوية العربية التي تم جمعها في إطار المـنهج الخبري، مما يعني أن العلماء المتبنين للمنهج النظري فـي دراسـة اللغـة الإنسـانية عموما، والعربية خصوصا، سيتعاملون مع مجموع معطيات لغوية محدودة تم رصدها والاكتفاء بها، من دون الالتفات إلى ما سوى ذلك. فاللغة عند أصحاب المنهج النظـري هي نسق مكتف بذاته، وله الأسبقية الأنطولوجية على أجزاء اللغة نفسها، ومعلـوم أن هذا المفهوم يتضمن شيئا من الافتراض والصورية البحتة، وهو الذي تبنته بقوة مختلف التيارات والمدارس اللسانية البنوية منها خاصة.

وبما أن المدونة اللغوية مغلقة على نفسها، بوصفها نسقا مجردا، فإن هذا يعنـي أن العلماء من أهل المنهج النظري سيعتمدون في دراسة اللغـة علـى " مجموعـة مـن النصوص جمعت في مكان معين وزمان معين، بغية وصفها الوصـف العلمـي مـن الناحية اللغوية..."[5]وقد زاد أندري مارتيني (**A. Martinet**) ضـبط المدونـة اللغويـة باشتراط عدم جواز أن تمس بأي تغيير سواء أتعلق الأمر بالزيادة فيهـا أم بالإنقـاص منها؛ إذ لا يصح أن يعتمد في دراسة اللغة إلا على ما جمع من معطيات[6] لغويـة فـي شكل نسق منسجم ومتسق، وممثل للغة المدروسة، فضلا عن كونهـا مدونـة لغويـة شاملة، وعليه ستكون هذه شروطا ضرورية[7] في كل مدونة لغوية فـي ظـل المـنهج النظري تروم الموضوعية والدقة العلمية في البحث اللساني.

من هذا المنطلق، تعد هذه المدونة اللغوية التي يشتغل عليها هؤلاء العلماء مجموعة نصوص تجمع مرة واحدة على اتصال حتى يمكن أن توصف اللغة التي تنتمي إليها هذه المدونة بكيفية موضوعية... والمقصود هو أن تكوّن المدونة عينة فقط"[8] من الكلام المجموع. وإذا كان الأمر على هذا النمط، فإن المدونة اللغوية العربية وغيرها في ذلك

سواء، أي: أن تكون متصفة بالانغلاق وهو مؤشر واضح على النسقية والانتقائية بحكم المعطيات أو العيّنات المحدودة التي جُمعت، كما أنّها تتصف بالافتراضية المؤدية إلى الصياغة الصورية للقواعد والقوانين اللسانية المراد وضعها للغة المدروسة.

ونحن إذا تأملنا المنجز اللساني العربي الحديث المتأثر بالمنهج النظري تبيّن لنا أنه اعتمد بشكل واضح المفاهيم اللسانية الغربية في دراسة اللغة العربية، وفي مقدمتها المدونة اللغوية؛ لأن الهم العلمي الأساس الذي كان يحمله اللسانيون العرب المحدثون هو كيف يتم صياغة نسق نظري لساني به تدرس اللغة العربية دراسة علمية وموضوعية بعيدا عن المعطيات اللسانية التي حدّدها العلماء العرب القدامى خاصة في مفهوم المدونة؛ لذا نلفيهم يميلون ميلا عظيما إلى وضع نظرية لسانية عربية تتمشى مع متطلبات الطرح العقلاني في اللسانيات الغربية، وهنا يجوز لنا القول بأن اللغة العربية شهدت منعرجا خطيرا تجلى في تحولها عن المنهج الخبري إلى المنهج النظري، أو بعبارة أخرى؛ انتقلت من المسموع إلى العقلاني.

فالنماذج التي قدمها بعض الباحثين اللسانيين العرب في إطار المنهج النظري تنبيء عن توجه عقلاني محض متأثر إلى أبعد الحدود بالمنجز اللساني الغربي العقلاني، باعتباره قولا علميا نظريا في مقابل القول العلمي الخبري، وتكفي الإشارة هنا إلى المشروع اللساني الذي قدّمه كل من عبد القادر الفاسي الفهري في العديد من مؤلفاته اللسانية ذات التوجه التوليدي والتحويلي[9] وأحمد المتوكل في كتاباته اللسانية الوظيفية[10] ومحاولة عز الدين المجذوب في كتابه المنوال النحوي[11] الذي تبنى فيه الطرح الغلوسيماتيكي في مقاربة اللغة العربية، بالإضافة إلى أعمال لسانية أخرى تصب في التوجه عينه.

وبالمقابل، نجد أعمالا لسانية عربية جادة لم تتبن المنهج النظري على الصورة الغربية العقلانية في دراسة اللغة العربية، بل آثرت أن تعود أدراجها إلى التراث لتحيي المفاهيم اللسانية العربية وفي مقدمتها مفهوم المدونة، فانطلق أصحاب هذا المنحى اللساني من المسموع العربي كما هو في أصالته ومنهجه الخبري، ولعل من أبرز هذه

الأعمال اللسانية العربية المشروع الذي قدّمه عبد الرحمن الحاج صالح في العديد من كتاباته اللسانية ذات البعد الخليلي[12] وأحمد العلوي[13] في مشروعه اللساني الذي أطلق عليه اللسانيات القرآنية، الرافض للعقلانية الغربية في دراسة اللغة العربية، وكذلك محمد الأوراغي في كتاباته اللسانية ذات التوجه النسبي[14] الناقد للنزعة الكلية في اللسانيات؛ لكونها صورة من صور المنهج النظري العقلاني.

2- المنهج: إذا كان الغالب على الدراسات اللسانية العربية القديمة من الناحية المنهجية هو المنهج الاستقرائي، فإن المنهج الغالب على الدراسات اللسانية الحديثة التي أنتجها العقل الغربي عموما، هو المنهج الفرضي – الاستنباطي؛ أو بالأحرى، اعتمدت اللسانيات الغربية خاصة، وبعض البحوث اللسانية العربية الحديثة المتأثرة بها، الطريقةَ الاستنباطية في دراسة اللغة الإنسانية ومعنى ذلك أن الأساس الذي يرتكز عليه هذا المنهج هو الانطلاق من وضع فرضيات أولية، أو مجموع قضايا مبدئية مُسلّم بها على اعتبار أنها بديهات لا تقبل البرهان أصلا، فهي صادقة في ذاتها. فمن هذه الأوليات يتشكل النسق النظري اللساني، أو النظرية العلمية بواسطة جملة من الخطوات والمراحل المنهجية الصورية المنصوص عليها، وذات البعد المنطقي والرياضي ولهذا المنهج حضور قوي جدا في لسانيات لويس هلمسليف الغلوسيماتيك[15] وكذا في اللسانيات التوليدية والتحويلية لدى تشومسكي[16].

يتميز هذا المنهج العلمي بالصورية البحتة، وقاعدته هي الفرضية الأولية، وصدقه صدق منطقي وهو رهن بشروط ضرورية تتمثل في الانسجام والاتساق والبساطة، مما يقتضي تحقق الاكتفاء الذاتي فيه، فتتشكل على إثر ذلك نواة صلبة[17] متضمنة فيه، كما أننا نلفيه منهجا –عند التأمل فيه جيدا– غير متصل بالواقع الفعلي للظاهرة المراد دراستها، وهي هنا اللغة الإنسانية عموما، واللغة العربية خصوصا.

فتكون اللغة في هذه الحالة تابعة للنسق النظري وخاضعة لشروطه الضرورية مثلما هي عند أهل النظر، وليس العكس هو الحاصل، ويظهر ذلك بوضوح من الأمثلة والشواهد التي تضرب عادة في تعليل القواعد أو تطبيقها.

هذا، وقد يتجلى البعد الافتراضي في هذا المنحى اللساني في العمل المتواصل على ألاّ يلحق أي خلل إلى البنية الداخلية للنسق النظري في سياق الاختبار التجريبي له وإذا تحتم ذلك وصار النسق النظري اللساني في تعارض تام مع الواقع اللغوي الفعلي، فإن أصحاب المنهج النظري يشككون في كفاية الواقع اللغوي نفسه، بوصفه واقعا لغويا غير منسجم ولا هو بمتسق؛ لذا ستكون الأحقية في صياغة واقع لغوي جديد، أو إعادة صياغته عبر الصورنة، للمنهج النظري؛ لكونه مؤسسا على خطوات وضوابط منطقية ورياضية لا تقبل الدحض، فضلا عن امتلاكه كفاية وصفية وتفسيرية وإبيستيمولوجية عالية جدا وهذا الأمر يفتقر إليه الواقع اللغوي الفعلي في نظر أهل المنهج النظري في اللسانيات كما في غيرها من فروع المعرفة العلمية.

فدراسة اللغة بهذا المنهج النظري لا يتعلق الأمر فيه باللغة التي يتداولها المتكلمون فيما بينهم في سياقات وظروف مختلفة ومتصلة بالزمان والمكان، مثلما هو الحال في البحوث اللسانية العربية القديمة؛ بل يتعلق الأمر هنا بتوجه صوري ومنطقي تخضع له اللغة ومتكلموها، فلمّا لم يكن ذلك متاحا بالفعل نظرا للإشكالية الإبستيمولوجية المتمثلة في التعارض بين الواقع والنظرية، لجأ العلماء في المنهج النظري إلى ابتكار واقع لغوي جديد من وضعهم هم، بناء على أن المدونة اللغوية التي اتخذوها موضوعا دراسيا هي في الأصل نسق مجرد مغلق على نفسه، فينتج عن هذا أنّ اللغة التي يتكلم عنها علماء اللسانيات في ظل المنهج النظري ليست هي اللغة العادية، ولا المتكلم والمستمع اللذان يوصفان في المنهج النظري هما المتكلم والمستمع الفعليان، ولا الواقع اللغوي الفعلي هو الواقع اللغوي الذي توجد فيه اللغة الخاضعة للزمان والمكان، فوجود اللغة بهذا الوصف رهن بوجود النسق النظري اللساني.

من هذا المنظور، يتبين حجم الاختلاف بين أن تكون اللغة مدروسة في إطار المنهج الخبري، وبين أن تكون مدروسة في إطار المنهج النظري، وهو ما يحدث مع اللغة العربية اليوم؛ إذ تحولت من منهج الخبر إلى منهج النظر، بحكم التأثير المستمر الذي تشهده الحضارة العربية والإسلامية بكل ما ينتجه العقل الغربي من نظريات ومناهج ومفاهيم علمية.

3- **الهدف:** يزداد الفرق وضوحا عند معرفة الهدف الذي يروم تحقيقه علماء اللسانيات في إطار المنهج النظري، فإذا كان هدف العرب القدامى من دراسة اللغة العربية محددا في الجانب التعليمي، فإن الهدف الأساس الذي يسعى إليه الباحثون العرب المحدثون من دراسة اللغة العربية هو صياغة أو ابتكار نسق نظري لساني بالمواصفات والشروط والضوابط المنطقية والرياضية ذات التوجه العقلاني الغربي وهذا في الحقيقة يعد نتيجة طبيعية يصل إليها كل من كان منطلقه المنهج النظري بالطريقة الفرضية الاستنباطية.

فشتان بين العمل على تيسير سبل تعلم العربية وجعل ذلك ثمرة دراستها علميا وبين العمل وبذل الوسع في وضع نظرية لسانية بها تدرس اللغة العربية، أو بعبارة أخرى، اشتغل علماء اللغة العرب القدامى على دراسة اللغة العربية في ظل المنهج الخبري انطلاقا من مدونة لغوية مسموعة ومقتبسة من واقع لغوي فعلي، فأدى بهم ذلك إلى بناء نظرية لغوية واقعية تكون فيها العلاقة بين الواقع اللغوي والنظرية اللغوية متبادلة؛ أي: هي علاقة ثنائية، في حين يشتغل اللسانيون العرب المحدثون في دراستهم للغة العربية في ظل المنهج النظري على اختراع نظرية لسانية عربية أولا، ثم إخضاع الواقع اللغوي العربي لها -وهذا ما يقتضيه المنهج النظري العقلاني- فيوصلهم ذلك إلى وضع نسق لساني مجرد تكون فيه العلاقة بين اللغة العربية الفعلية والنظرية اللسانية العربية علاقة أحادية الجانب[18]، أي: النسق النظري اللساني الموضوع، أو النظرية اللسانية هي التي تؤثر في الواقع اللغوي الفعلي ولا تنعكس

القضية لأن ذلك يرتبط بمفهوم النسق المغلق على نفسه الذي تمت صياغته وفق الشروط والضوابط المنطقية والرياضية اليقينية عندهم.

وخلاصة القول، هي أن الهدف الأسمى والرئيس من دراسة اللغة عموما بقوانين المنهج النظري هو التحكم في اللغة والعمل على عقلنتها، وذلك بجعلها موجودة في عالم معقلن هو الآخر، وعليه ستكون النظرية الموضوعة أولا هي التي تتولى ذلك الأمر وصفا وتفسيرا باعتماد آليات في مقدمتها الصورنة.

وممّا سبق يمكننا القول بأن اللغة العربية تقلّبت على الأقل بين منهجين علميين مختلفين عبر مراحلها التكوينية والتطورية، أولهما: هو المنهج الخبري أي: المنهج القرآني الذي اتخذه العلماء المتقدمون قاعدة معرفية ومنهجية في دراسة اللغة العربية وقد توصلوا جرّاء تقيدهم بالمنهج الخبري إلى نتائج علمية دقيقة وموضوعية، بل منها ما كان سابقا على عصره، وثانيهما: هو المنهج النظري، أي: المنهج العقلاني كما صاغه اللسانيون الغربيون، واتخذوه قاعدة معرفية ومنهجية في دراستهم للغة الإنسانية، وهو عين المنهج الذي تأثر به معظم الباحثين اللسانيين العرب المحدثين الذين حاولوا به دراسة اللغة العربية باعتباره منهجا كفيلا بأن يمكّنهم من وضع نظرية لسانية عربية، بمواصفات عالمية أو غربية على الأقل.

فبتبنيهم للمنهج النظري حاليا في دراستها من حيث المنطلق، يفضي حتما إلى لغة عربية صورية، كون النظر يفرض نسقا محددا ومؤسسا سلفا على أصول وقواعد صورية منطقية يسودها جانب كبير من الافتراض، فاللغة هنا لا تكون مراسية البتة وثمرتها لا تتحدد في صون اللسان عن الوقوع في الخطأ؛ بل تكون افتراضية وصورية بشروط منطقية ورياضية خالصة؛ لأن المدونة اللغوية العربية في هذا التصور تحولت إلى نسق مغلق ومصوّرن معا.

الإحالات:

1- ينظر: **أبو الطيب اللغوي**، مراتب النحويين، تقديم وتعليق محمد زينهم محمد عزب، دار الأفاق العربية، مصر. ط1423-2003.ص 15. **وأبو سعيد السيرافي**، أخبار النحويين البصريين، تحقيق محمد إبراهيم ألبنا، دار ابن حزم، بيروت لبنان، والمكتبة المكية، مكة المكرمة، ط1/ 1427-2006. ص37 -42. **وأبو القاسم الزجاجي**، الإيضاح في علل النحو، تحقيق مازن المبارك، دار النفائس، بيروت لبنان، ط1399/3 - 1979. ص89 -90.

2- **السيوطي**، الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط2011/3. ص24.

3- **عبد الرحمن الحاج صالح**، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.ص 251.

4- **عبد الرحمن الحاج صالح**، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، ص 271-272.

5- **عبد الرحمن الحاج صالح**، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، ص 267.

6- voir: **A. Martinet**, éléments de linguistique générale, 4eme ed. A. Colin, paris 1998. P30-31. et **G. Mounin**, Dictionnaire de la linguistique, 4eme ed, puf, paris 2004. P 98. et **J. Dubois** et autres, Dictionnaire de linguistique et des sciences du langage, larousse, paris 1999. P123-124.

7- voir: **A.J. Greimas**, Sémantique générale, 2eme ed, puf, paris 1995. P143-144. et **Greimas** et **J. Courtés** , Sémiotique, dictionnaire raisonné de la théorie du langage, ed Hachette, paris 1993. P73-74.

8- **عبد الرحمن الحاج صالح**، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، ص268.

9- ينظر **عبد القادر الفاسي الفهري:**

- اللسانيات واللغة العربية، نماذج تركيبية ودلالية، دار توبقال، الدار البيضاء المغرب ط1993/3.
- البناء الموازي، توبقال، الدار البيضاء المغرب، 1986.
- المعجم العربي، نماذج تحليلية جديدة، توبقال، الدار البيضاء المغرب، 1985.
- Linguistique arabe, forme et interprétation, P.F.L.S.H. Rabat, 1982.

10- ينظر **أحمد المتوكل:**

- اللسانيات الوظيفية، عكاظ، الرباط. المغرب، 1978.

- أفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي، منشورات كلية الآداب، الرباط. المغرب، 1993.
- الخطاب وخصائص اللغة العربية، دار الأمان المغرب، منشورات الاختلاف الجزائر، الدار العربية للعلوم لبنان، ط1/ 2010.
- دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، الدار البيضاء المغرب، 1986.
- قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، البنية التحتية أو التمثيل الدلالي، دار الأمان الرباط المغرب،1995.
- قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، بنية الخطاب من الجملة إلى النص، دار الأمان الرباط المغرب، 2001.
- المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي، الأصول والامتداد، دار الأمان الرباط، المغرب 2006.

مسائل النحو العربي في قضايا النحو الوظيفي، دار الكتاب الجديد، بيروت لبنان، 2008. **الدين المجذوب:**

- المنوال النحوي العربي، قراءة لسانية جديدة، كلية الآداب سوسة، ودار محمد علي الحامي تونس، ط1998/1.

12- ينظر **عبد الرحمن الحاج صالح:**

- السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.
- بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.
- البنى النحوية العربية، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، 2016.
- منطق العرب في علوم اللسان، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012.
- Linguistique arabe et linguistique générale, E.N.A.G. Algérie, 2011.

13- ينظر **أحمد العلوي:**

- ظهور اللغة وعناوين الظهور، مجلة دراسات أدبية ولسانية، العدد 4/ صيف – خريف 1986.
- من تماثيل الأحجار إلى تماثيل الأنظار، بحث في أركيولوجيا المعرفة اللسانية، جريدة المحور الثقافي، العدد 7/ ديجنبر 1987.
- آية الفكر وكبرياء النظر، مجلة الموقف، العدد 1/ مارس 1987.
- اللغة والعقلان، مجلة الموقف، العدد 8/ ديجنبر 1988.
- العقلانية اللغوية العربية، منشورات فكر، المغرب، ط2014/1.

- Épistémologie de la linguistique arabe, linguistique, islam et épistémologie, ed Okad, Rabat, 1998.

14- ينظر **محمد الأوراغي:**

- الوسائط اللغوية، دار الأمان الرباط المغرب، ط1/ 2011.

- نظرية اللسانيات النسبية، دواعي النشأة، منشورات الاختلاف، الجزائر، دار الأمان المغرب الدار العربية للعلوم، لبنان، ط1/ 2010.

- اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم، منشورات الاختلاف، الجزائر، دار الأمان المغرب منشورات ضفاف لبنان، ط2014/2.

15 - voir: **L.Hjelmslev**, prolégomènes à une théorie du langage, traduction d'Una Cagner, ed de Minuit, paris 1971.

16 – voir: **N.Chomsky**, linguistique cartésienne, suivi de la nature formelle du langage, traduction de N. Delanoë et D. Sperber, ed du Seuil, paris 1969.

– **N. Chomsky**, aspects de la théorie syntaxique, traduction de Jean Claude Milner, ed du Seuil, paris 1971.

– **N. Chomsky**, et **G. A. Miller**, l'analyse formelle des langues naturelles, traduction de P. Richard et N. Ruwet, ed Mouton/ Gauthier Villars, paris 1968.

17- اقتصرنا في هذا السياق على ذكر الخطوات الأساسية للطريقة الفرضية الاستنباطية؛ إذ التفصيل فيها يقتضي بحثا مستقلا؛ لذا سنكتفي بالإحالة إلى بعض المراجع التي فصلت فيها:

- **L. Rougier**, la structure des théories déductives, ed librairie Felixe Alcon, paris 1921, ch. 2, p 32. Ch. 3, p 63.

- **J. Cavaillès**, méthode axiomatique et formalisme, Hermann éditeurs, paris, 1938. Ch. 2. P 76.

- **R. Blanché**, l'axiomatique, 3eme ed, puf paris.2009. ch. 2. P 29. et ch.4. p 75.

- **Denis Mieville**, introduction à la théorie des systèmes formels, CdRS. Université de Neuchatel, Suisse, N° 4, 1991. Tome 1, ch.1. p 1-20.ch.2 p 23.ch.3. p 43.

أما فيما له صلة بمفهوم النواة الصلبة، فينظر: **إمري لاكاتوس**، برامج الأبحاث العلمية، ترجمة محمد ماهر عبد القادر علي، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، ط1/ 1997. ص 116-117.

وأما ما له علاقة باللسانيات، فينظر: **محمد بن شماني**، الغلوسيماتيك والأكسيوماتيك، ضمن كتاب أبحاث في الغلوسيماطيقا، تحرير وترجمة يوسف إسكندر، سلسلة دراسات فكرية، جامعة الكوفة العراق، دار الرافدين بيروت لبنان، ط1/ 2019.

- **18**- ينظر في مفهوم التأثير الذي تمارسه النظرية اللسانية في الواقع اللغوي الفعلي في إطار المنهج النظري باعتباره قولا علميا نظريا، **محمد بن شماني**، أحادية تأثير القول النظري اللساني

مجلة مطارحات في اللغة والأدب، تصدر عن معهد الآداب واللغات المركز الجامعي أحمد زبانة غليزان، العدد 5. 2016، ص 114.

11- ينظر **عز الدين المجذوب:**

- المنوال النحوي العربي، قراءة لسانية جديدة، كلية الآداب سوسة، ودار محمد علي الحامي تونس، ط1998/1.

12- ينظر **عبد الرحمن الحاج صالح:**

- السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.
- بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.
- البنى النحوية العربية، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، 2016.
- منطق العرب في علوم اللسان، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012.
- Linguistique arabe et linguistique générale, E.N.A.G. Algérie, 2011.

13- ينظر **أحمد العلوي:**

- ظهور اللغة وعناوين الظهور، مجلة دراسات أدبية ولسانية، العدد 4/ صيف – خريف 1986.
- من تماثيل الأحجار إلى تماثيل الأنظار، بحث في أركيولوجيا المعرفة اللسانية، جريدة المحور الثقافي، العدد 7/ ديجنبر 1987.
- آية الفكر وكبرياء النظر، مجلة الموقف، العدد 1/ مارس 1987.
- اللغة والعقلان، مجلة الموقف، العدد 8/ ديجنبر 1988.
- العقلانية اللغوية العربية، منشورات فكر، المغرب، ط2014/1.
- Épistémologie de la linguistique arabe, linguistique, islam et épistémologie, ed Okad, Rabat, 1998.

14- ينظر **محمد الأوراغي:**

- الوسائط اللغوية، دار الأمان الرباط المغرب، ط1/ 2011.
- نظرية اللسانيات النسبية، دواعي النشأة، منشورات الاختلاف، الجزائر، دار الأمان المغرب الدار العربية للعلوم، لبنان، ط1/ 2010.
- اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم، منشورات الاختلاف، الجزائر، دار الأمان المغرب منشورات ضفاف لبنان، ط2014/2.

15 - voir: **L.Hjelmslev**, prolégomènes à une théorie du langage, traduction d’Una Cagner, ed de Minuit, paris 1971.

16 – voir: **N.Chomsky**, linguistique cartésienne, suivi de la nature formelle du langage, traduction de N. Delanoë et D. Sperber, ed du Seuil, paris 1969.

– **N. Chomsky**, aspects de la théorie syntaxique, traduction de Jean Claude Milner, ed du Seuil, paris 1971.

– **N. Chomsky**, et **G. A. Miller**, l'analyse formelle des langues naturelles, traduction de P. Richard et N. Ruwet, ed Mouton/ Gauthier Villars, paris 1968.

17– اقتصرنا في هذا السياق على ذكر الخطوات الأساسية للطريقة الفرضية الاستنباطية؛ إذ التفصيل فيها يقتضي بحثا مستقلا؛ لذا سنكتفي بالإحالة إلى بعض المراجع التي فصلت فيها:

– **L. Rougier**, la structure des théories déductives, ed librairie Felixe Alcon, paris 1921, ch. 2, p 32. Ch. 3, p 63.

– **J. Cavaillès**, méthode axiomatique et formalisme, Hermann éditeurs, paris, 1938. Ch. 2. P 76.

– **R. Blanché**, l'axiomatique, 3eme ed, puf paris.2009. ch. 2. P 29. et ch.4. p 75.

– **Denis Mieville**, introduction à la théorie des systèmes formels, CdRS. Université de Neuchatel, Suisse, N° 4, 1991. Tome 1, ch.1. p 1-20.ch.2 p 23.ch.3. p 43.

أما فيما له صلة بمفهوم النواة الصلبة، فينظر: **إمري لاكاتوس**، برامج الأبحاث العلمية، ترجمة محمد ماهر عبد القادر علي، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، ط1/ 1997. ص 116-117.

وأما ما له علاقة باللسانيات، فينظر: **محمد بن شماني**، الغلوسيماتيك والأكسيوماتيك، ضمن كتاب أبحاث في الغلوسيماطيقا، تحرير وترجمة يوسف إسكندر، سلسلة دراسات فكرية، جامعة الكوفة العراق، دار الرافدين بيروت لبنان، ط1/ 2019.

18– ينظر في مفهوم التأثير الذي تمارسه النظرية اللسانية في الواقع اللغوي الفعلي في إطار المنهج النظري باعتباره قولا علميا نظريا، **محمد بن شماني**، أحادية تأثير القول النظري اللساني، مجلة مطارحات في اللغة والأدب، تصدر عن معهد الآداب واللغات المركز الجامعي أحمد زبانة، غليزان العدد 5. 2016، ص 114.

فن الإبداع وإتقان العمل في الثقافة الجاهلية
ـ نظرات اجتماعية من خلال القصيدة الزائية للشماخ بن ضرار ـ

د. مختار بزاوية
جامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر

الملخّص: يعتبر الشعر خلاصة صافية للتجارب الإنسانية، ومصدرا لتدوين المعارف المختلفة، وقد جعل العرب من الشعر ديوانهم التراثي، ومادة تاريخهم، وسِجِلّ حياتهم لمختلف المستويات الاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية. وكان –ابن عباس رضي الله عنهما– يقول: «إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب؛ فإن الشعر ديوان العرب». وكان إذا سئل عن شيء من القرآن أنشد فيه شعراً.

وكانت القبائل العربية تفتخر أكبر الفخر إذا برز من بين أبنائها شاعر مبدع ومن شدة اهتمام العرب بالشعر وولعهم به، علقوا القصائد الشهيرة التي ذاع صيتها على أستار الكعبة وأسموها المعلقات. يقول ابن عبد ربه الأندلسي في العقد الفريد: «وقد بلغ من كلف العرب به –يقصد الشعر– وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد تخيّرتها من الشعر القديم، فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة، وعلّقتها بين أستار الكعبة، فمنه يقال: مذهّبة امرئ القيس، ومذهّبة زهير، والمذهّبات سبع وقد يقال: المعلّقات».

وبما أنّ الشعر الجاهلي سَجَّل مظاهر حياة العرب وبيئتهم، وأحوالهم المختلفة فإننا نعتمد عليه في تصوير هذه المظاهر في العصر الجاهلي، ومن تِلكُم المظاهر الحياة الاجتماعية، وقد ركزتُ على جانب قلّ ما ينتبه إليه الباحثون، وهو فن الإبداع وإتقان العمل، وكيف يتعلق به صاحبه أشدّ التعلّق، وهذا من خلال القصيدة الزائية للشاعر المخضرم والصحابي الجليل "الشماخ بن ضرار"، ومطلعها:

عفــا بَطْــنُ قــوٍّ مــن سُــليْمى فَعَــالِزُ   فَـــذاتُ الغَضَـــا فالمُشْـــرفَاتُ النّواشِـــزُ

وهي من أروع القصائد التي نظهما الشماخ، فهي تبرز مظهرا مــن مظــاهر الحياة في البيئة الجاهلية، وهي قساوة العيش في الصـــحراء مـــع ابتكـــار لأدوات الحرب من الأسلحة وتملكها دفاعا عن النفس، ولكن هذه الوســيلة التـــي صـــنعها الشاعر وأجاد في وصفها وهي "القوس"، تحولت من المادة إلـــى الفــن والإبــداع، وإحساس بالتعلق والولع بها إلى درجة كبيرة.

ومداخلتي هي عبارة عن نظرات في هذا المظهر الاجتماعي، وهو فن الإبـــداع وإتقان العمل في الثقافة الجاهلية، مع امتزاجه بالأحاســيس المرهفـــة والمشـــاعر النبيلة، خاصة حينما يفقد الإنسان أغلى وأنفس ما عملت يداه.

Abstract : Poetry is the fruit of human experience and a source for immortalizing diverse knowledge, so Arabs have made poetry their heritage, their history and a story of their lives on various social, political, cultural and religious levels. The companion of the prophet Ibn-Abbas, may Allah be pleased with him, says: "If you read a verse from the Qur'an that you do not understand, look for the meaning in the poetry of the Arabs, and when asked to comment on some verses he answered with poetry.

The Arab tribes were proud to boast when a creative poet emerged in it, and to testify to their interest in and love for poetry, they honored the famous poems by hanging them on Kaaba and called them "EL Moualakat "the pendants. Ibn Abd al-Rabbo al-Andalusi recounts in his collection "El Ikd El Farid": "The Arabs were so fond of poetry, that they ended up picking seven of the best poems of ancient poetry, and they adorn them and to engrave on beautiful supports, then to hang them on the curtains of Kaaba, one said thus: the gilded engraving

of Imr'ou al Kays, and that of Zuhair … etc, one can say: the pendants or the gilded engravings »

Since pre-Islamic poetry records the manifestations of Arabs‘s life and their environment, as well as their different situations, we rely on it in the representation of these manifestations in the pre-Islamic era and on these aspects of social life, and we focus on what the researchers' attention, the art of creativity and mastery of work, and this through the poem of the poet companion of the prophet "Shamakh bin Dharar", starting with:

عفـــا بَطْـــنُ قـــوٍّ مـــن سُـــليْمى فَعَـــالِزُ

فَـــذاتُ الغَضَـــا فالمُشْـــرفَاتُ النّواشِـــزُ

This is one of the most beautiful poems written by the Shammakhs: he highlight a manifestation of life in an ignorant environment, the harshness of life in the desert with the invention of war’s weapons and their possession in view of self-defense, but this weapon that the poet has made with his own hands and described as "the bow" has been transformed from matter to art and creativity, bringing out the feeling of attachment and love to a large extent.

My intervention is in the form of a look at this social aspect, art of creativity and mastery of work in pre-Islamic culture, with its mixture of sensual feelings and noble feelings, especially when one loses a very valuable goof designed with his own hands.

مقدمة: إنّنا في هذا الظرف الذي طغت فيه الثقافة الغربية على عالمنا العربي والإسلامي، لفي أمَسِّ الحاجة إلى الالتفات إلى تراثنا الفكري والأدبي والروحي كي نستمد منه ما يُعيننا على إرساء قواعد لنهضتنا، ترتكز على المثل الروحية والأخلاقية والإنسانية التي يشتمل عليها تراثنا المجيد منذ أقدم العصور، ولعل

بعضاً من تراثنا الأدبي لا يزال مغمورا لم تُسلَّط عليه الأضواء، أو لم يُقرأ قــراءة مناسبة تتماشى ومتطلبات النهضة والتقدم في هذا العصر[1].

ومن ذلك التراثِ الــشعرُ الجاهلي الذي يُعدّ أحد الوثائق الناقلة لجوانب الحيــاة الجاهلية، والصورة الصادقة والمعبرة عن عادات العــرب وتقاليدهم ومُثُلِهم، وهو يحوي من القيم الفنية، والصور الجمالية الرائعــة، والمعــاني الدقيقــة الموحيــة ما يجعله بحق يتصدر ذروة الشعر العربي، فالعصر الجاهلي بما تضمنه من هــذه العادات والمثُل والقِيم، وأنمــاط الحيــاة الاجتماعية والسياسية والثقافيــة والدينيــة وغيرها، قد وُجد أكثره مبثوثا في الشعر وبعضه في الأجنــاس الأدبيــة الأخــرى كالأمثال والحِكم وغيرهما. فالشعر إذن مصــدر رئــيس فــي دراســة المجتمــع الجــاهلي بكل تفاصيله.

وعلى الرغم من كثرة الدراسات حول الشعر العربي، وتناوله قديماً وحديثاً من قبل الباحثين والدارسين والنقاد، فلا يزال الطريق مفتوحاً للمزيد منهــا، "فالشــعر الجاهلي لا يزال مذخورا بالكنوز المسهُوِّ عنها، وهو الجذْر الــذي تفرَّعــت منــه فروع الشعر في الأعصار المختلفة، وفي البقاع المختلفة، والأزمنة المختلفة إلــى يومنا هذا، وليس عندنا بَعْدَ كلام الله وكلام رسول الله صلى الله عليه وســلّم بيــانٌ أعلى منه، وهذا ما أجمع عليه علماء الأمّة"[2].

وهذا يدلّ على قيمة هذا التراث الشعري ومَعينه الجــمّ، الــذي يتجــدد بتجــدد الدارسين والناقدين له، في الدراسات الأدبية والبلاغية والنقدية وغيرها، ولــِما لــهُ في فهم الكتاب والسنة من دورٍ كبير لا يخفى على أولي الألباب والعقول. كمــا أنّ المتجوّل في هذا التراث الشعري والناظر فيه بعين التــدبر والإحســاس والتــذوق يلمس لا محالة مكامن الحسن والجمال والإبداع الإنساني، وأنه كان منبعا ومــنهلا لكل العلوم الأدبية واللغوية التي ظهرت لاحقا، بعد كتاب الله وكلام المعصوم ﷺ.

والجوانب المتعلقة بدراسة الشعر الجــاهلي كثيــرة ومتعــددة، ولعــلّ البعــد الاجتماعي من أهم هذه الجوانب، لكونه يكشف بعمق تفاصــيل وأســرار الحيــاة

العربية، والقِيم التي تبنّاها الإنسان العربي وأطّرت حياته ككــل، فظــروف البيئــة القاسية المحيطة به، وقوانين العشيرة والقبيلة، والعيش على الإغارة والبحث عــن الكلأ والماء وأمور أخرى، كلها قد ساهم في رسم صورة العربي في فكره وثقافته وتعلقه بالبادية والصحراء.

وبما أنّ حياة العرب في صحرائهم القاحلة قد قامت على الحروب والنزاعــات والإغارة على الضعفاء، فلا شكّ أنّهم تكيّفوا مع هذه الحياة وأعدوا لها العدّة دفاعــا عن أنفسهم، فكانت الشجاعة والفروسية من أهم ما يجب أن يتصف به الفــرد فــي القبيلة ليحمي ذمارها، ويردّ عنها الأعداء المغيرين المعتدين، واكتســاب الأســلحة والإجادة في صنعها واستعمالها ضرب آخر من ضروب القوة والصلابة، لتحصيل الظفر والفوز في الحروب والمعارك والمواجهات.

ومن تلكم الأسلحة القوس والسهم، فهما مــن الأدوات الفاعلــة والمُهمّــة بــل والضرورية في حياة العربي في السِّلم والحرب، ففي الحرب همــا أداتــا نصــر وغلبة، فتجدهم قد أكثروا من وصف قسيّهم وسِهامهم التي أعدّوها لقتــال أعــدائهم وأما في السِّلم فهما وسيلتان لكسب العيش والقوت عن طريــق الصــيد والقــنص. والحديث عن القوس خاصة هو لَبِنة موضوعي المتعلق بإجــادة وإتقــان صــنعها وتحَوُّلِها من مادّة إلى آفاق من الرمزية والأسطورية؛ تنبئ عن مدى تعلق الشعراء بها ووفائهم لها. والواصفون لها من الشعراء الجاهليين كُثُر، اشتهر منهم جماعــة أسهبوا في وصفها وأفردوا القصائد لها، ومنهم: أوس بن حجر، والشماخ الــذبياني والشنفرى الأزدي[3].

وقد اخترت قصيدة الشماخ بن ضرار الذبياني "الزّائية" في وصف القوس، لأنّها من عيون وروائع الشعر العربي دون منازع، وهي درّة شعره، وفريدة في بابهــا وهي تتحدث عن الموضوع قيد الدراسة في هذه المداخلة بلغة بيانية راقية، حيــث امتزج إتقان العمل وإجادته مع الأحاسيس المرهفة، وشدة التعلق بالعمــل المنجــز ولكنّ الظروف أحينا تضطر الإنسان للتفريط في أغلى ما صنعت يداه.

وفيها أيضا من اللوحات الفنية وبراعة التصوير ما يسحر الألباب ويُبهر القارئين، فقد تحدّث عن الحمار الوحشي، وأثناء وصفه الدقيق يتغلل في نفسيته ويتتبع أدقّ خلجاته ونبضات قلبه، ومختلف أحواله، حتى كأنه يعيش معه، لتلك الدقة العجيبة في رصد أحواله الخارجية، وما يختلج في نفسه من انفعالات[4].

ثم ينتقل إلى وصف القوس في قالب قصصي امتزج فيه السرد مع الوصف ويروي كل المراحل التي مرت بها، وطريقة إجادة صنعها في إتقان لا مثيل له، ثمّ كيف اضطر تحت وطأة البؤس والفاقة إلى أن بيعها في الأسواق، إلى من يعرف قدرها وجودتها، لتستقر في يد الشاري، ويحزنَ عليها حزنا شديدا تنسكب معه العبرات، ويضطرب معه الفؤاد ويرتاع[5].

كل هذه المعاني استهوتني وجعلتني أُفتنُ بهذه القصيدة، وقد عالجت الموضوع بمنهجية وصفية تحليلية، مع التعريف بالشاعر وقصيدته في أول هذا العمل، والله الموفق.

أولا- التعريف بالشاعر[6]: هو الشمّاخ بن ضرار بن سِنان بن أميّة بن عمرو بن جِحاش بن بَجالة بن مازِن بن ثعلبة بن سعد بن ذُبيان. وأمّ الشّماخ أنمارية من بنات الخُرشُب، ويُقال: إنّهنّ من أنجب نساء العرب، واسمها مُعاذة بنت بُجَير بن خالد بن إيّاس. والشّماخ مُخضرَم ممّن أدرك الجاهليّة والإسلام، وقد قال للنبيّ ﷺ:

تَعلَّمْ رسُولَ اللهِ أنّا كَأنّنَا أَفَأْنَا بِأنْمَارٍ ثَعَالِبَ ذِي غِسْلِ

تعلَّم رَسُول الله لمْ نَرَ مِثْلَهُمْ أَجَرَ عَلَى الأَدْنَى وَأَحْرَمَ للْفَضْلِ[7]

يعني أنمارَ بن بغيض وهم قومه. وهو أحد من هجا عشيرتَه وهجا أضيافه ومنَّ عليهم بالقِرى[8]. والشّماخ لقب واسمه معقِل، وله أخوان من أمه وأبيه شاعران: أحدهما مزَرَّد وهو مشهور، واسمه يزيد والآخر جَزْء بن ضرار.

وقد جعله ابن سلام في الطبقة الثالثة من فحول الجاهلية، وقرنه بالنابغة الجعدي، وأبي ذؤيب الهذلي، ولبيد بن ربيعة العامري. وقال عنه: «فأمّا الشماخ

فكان شديد متون الشعر[9]، أشد أَسْر كلامٍ من لبيد[10]، وفيه كزازة[11]، ولبيد أسهل منه منطقاً».

ورُوي أنّ الحطيئة قال في وصيته: «أبلغوا الشّماخ أنّه أشعر غطفـان". وهـو أرجَزُ الناس على بديهة، وأوصف الناس للقوس والحَمير، وقد أُنشِد الوليد بن عبـد الملك شيئا من شعر الشماخ في صفة الحمير فقال: «ما أوصفَه لها! إنّي لأحسـب أنّ أحد أبويْه كان حمارا». شهد القادسية وتوفي في غزوة موقان في زمان الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة 22هـ.

وقد عاش الشّماخ طفولةً مؤلمةً، ذاق فيها مرارة اليُتم صبيّاً، وابتُليَ بوجه دميمٍ وقامةٍ قصيرة لعلهما كانا سبب معاناته في شبابه، فضلا عمّا عُرف به من تشدُّدٍ ي الإنفاق، مع إخفاقه في الزّواج مرّتين. وفي خضم هذه الحياة الأسرية المضـطربة والاجتماعية وجد الشاعر نفسه في عُزلة خانقة، وكانـت الرحلـة سـبيله لتسـلية الهموم[12]. وكان من مظاهر علاقته المتأزمة بالجماعة أن قلّما نجد ذكرا لها فـي شعره، فهو بعيد تماما عن أحداث القبيلة، وشؤونها، وهجاء خصـومها، أو تخليـد مآثرها، حتى كاد شعره يقتصر على الوصف[13].

ثانيا– وصف القصيدة "الزّائية" للشماخ بن ضرار، أنموذج الدراسة:

1- **مواضيع القصيدة:** عدد أبيات القصيدة 56 بيتا، وهي تـدور حـول ثلاثـة موضوعات: الأول حديث عن الرامي الصياد، والثاني حديث عن قصـة صـناعة القوس وإجادتها، والثالث حديث عن قصة بيع القوس وشراء الرامي لها[14].

فالموضوع الأول: تنحصر أبياته في عشرين بيتا: من مطلع القصيدة إلى البيت رقم (20)، وفيها يبدأ الشاعر بالبكاء على أطلال سليمى التي عفا عليها الزمن فـي مكانها المستقر، بين المشرفات والنواشز. ثم خروج القواس الشاعر علـى ناقتـه طالبا الصيد والقنص، ثم تصوير الشاعر لمشهد الحمر الوحشية شـديدة العطـش

تطلب عينا من الماء لترتوي منها، لكنّ الرامي البارع يمنعها ويذودها عن المـــاء وهو عامر أخو الخضر[15].

والموضوع الثاني هو وصف القوس وكيفية الإبداع في صنعها، منذ أن كانـــت غصنا في شجرة متوارية عن الأنظار، محاطة بالأشواك والأشجار المتلاصقة، فلم يبال القوّاس بالمخاطر، وكابد عناء الطريق للوصول إليها، حتـــى حصـــل عليهـــا متخيرا لها من هذا الفرع، ثم تركها عامين في الظـــل ليجـــف ماؤهـــا، ويصـــلب عودها، فهذّبها وثقّفها إلى أن صارت من أحسن ما صنعت وما كســـبت يـــداه[16].

وتنحصر أبياته في 07 أبيات من البيت 21 إلى البيت 27. وقـــد اختلـــف الشـــراح والدارسون للقصيدة في هذا القوّاس أهو الشاعر نفسه أم رجل مجهول يحكي عنـــه الشاعر، أو هو الرامي عامر أخو الخضر، والأرجح الأول.

والموضوع الثالث: قصة بيع القواس لهذه القوس بسبب عوزه وفاقته، فقد انتظر موسم الحج فانطلق بها إلى السوق، فعرض عليه تاجر له معرفة بجيد القـــوس أو رديئها أن يبعها له، وراح يساومه ويعرض عليه أغلى الأثمان؛ ثيابا فاخرة، وذهبا خالصا، وجلدا مدبوغا بالقرظ من جلود الماعز، فـــأغراه الـــثمن، ولكنّـــه تـــردّد واستبدت به الحيرة، والناس من حوله يغرونه بالبيع، حتى استسلم للصـــفقة، فلمـــا فارقته القوس فاضت عيناه بالدموع، وجاشت صـــدره بآهـــات النـــدم والحســـرة واندلعت نيران الأسف، بعد أن أصبحت ملكا لغيره[17]. والذي باعها هو الشـــاعر والذي اشتراها هو عامر أخو الخضر، كما يرى صلاح الدين الهادي محقق ديوان الشماخ، ومحمد أبو موسى صاحب كتاب الشعر الجاهلي.

2- **الإيقاع الصوتي للقصيدة:** بُنيت القصيدة على بحر الطويل الذي يتسم بنَفَسِه وامتداده الصوتي الطويل، الذي يُتيح للشاعر الامتداد في الحـــديث عـــن تجربتـــه. وجاء استخدامه في هذه القصيدة منسجما مع العَناء وطول المـــدة الزمنيـــة التـــي صاحبت صنع القوس منذ كان غضا يانعا حتى صار سلاحا للصـــيد والقـــنص أو

القتال والحرب[18]. كما أفاد الشاعر من إمكانات بحر الطويل، لأنّــه أقــرب إلـــى الأسلوب القصصي الذي يُتيح للشاعر الاسترسال في سرد الحدث[19]، فهو يـــروي لنا قصة هذا القوس ويحدثنا عنها بالتفصيل في قالب سردي امتزج مع الوصف.

وإذا عدنا إلى القافية فلا يخفى علينا دورها الكبير في تحديـد البنيـة الدلاليـة للقصيدة، متجاوزة بذلك الغاية الإيقاعية فقط، وزحزحتها من مكانهـا يهـدم بنيـة القصيدة[20]، وهي من نوع قافية المتـدارك؛ التـي بـين يفصِـل بـين سـاكنيْها متحركان[21]، ومثال ذلك من البيت الأول فالقافية هي: (واشزو /0//0)، وحـرف رويّه الزاي وهو من حروف الصفير، صوت رخو مجهور للنطق به يندفع الهواء من الرئتين مارا بالحنجرة فيتحرك الوتران الصوتيان، ثم يتّخذ مجراه من الحلـق والفم حتى يصل إلى المخرج[22].

وبما أنّ الصوت هو صدى للمعنى، فإن استخدام الشاعر لهذه القافيـة ورويهـا حرف الزاي أبان عن إبداع كبير وانسجام مع الدلالة المرجوة، فالقافية الدالة علـى الخفة والحركة منسجمة مع خفة وحركة القوس والطريدة معا، والزاي الـذي مـن صفاته الصفير انسجم مع الصوت الذي يُحدثه السهم المقذوف من القوس[23].

3- شكل القصيدة وبنيتها:

- القصيدة من الشعر الجاهلي، وهي لا تخرج على ما عرفته القصيدة الجاهليـة في شكلها وبنيتها، فالشماخ على ما جرت عليه العادة بدأ بالبكاء علـى الأطـلال (أطلال سُلَيْمى) وهي السمة الغالبة على الشعر الجاهلي، بل واستمرت هذه الميـزة حتى مع الشعر الإسلامي قرونا عديدة،.
- ذكر الرحلة والناقة ومفارقة الديار نحو الصيد والقنص وكسب القـوت، مـع وصف الحمر الوحشية، وقد جرى على هذا النحو كثير من شعراء الجاهليّة.

•في القصيدة ذكر لمجموعة من الأسماء تمثل أماكن وأزمنة وشخصيات جاهلية (سُلَيْمى- الغضا- ذو الأراك- القنتين- عثلب- ابني غمار- عامر أخو الخضر- المواسم..).

•وصف أدوات الحرب عامة، والقوس خاصة، وهو موضوع القصيدة، حيث شاركه في هذا الغرض مجموعة من الشعراء كأوس بن حجر والشنفرى وغيرهما.

•دقة التصوير والصور الشعرية البارزة والمعبرة بصدق عن الموضوع، في قالب سردي ووصفي، مع الامتزاج بالأحاسيس المرهفة، التي تعبر عن مظهر اجتماعي خالص، وهو التفريط في أغلى الممتلكات بسبب الفقر والحاجة.

•وحدة البيت واستقلاله والتنويع في المواضيع، من البكاء على الأطلال، إلى وصف الناقة خلال الرحلة، وصف الحمر الوحشية، وترصد القناصين والصيادين لها، ووصف القوس ومراحل صنعها، وبيع القوس في المواسم، وحزن الشاعر على بيع هذه القوس، وأخيرا بعض صفات هذه القوس.

•اللغة المعجمية القوية والصعبة، وغرابة ألفاظه الممعنة في البداوة، لذا قلّ الاستشهاد بشعره في كتب الأدب، ولكن بعض علماء اللغة وجدوا في هذا الشعر فيضاً من الغريب فاهتّموا به.

ثالثا- فن الإبداع وإتقان العمل في الثقافة الجاهلية:

1- **إتقان العمل في الديانات السماوية:** وجدت فكرة العمل وإتقانه منذ القديم منذ نزول سيدنا آدم وحواء عليهما السلام إلى الأرض، ونشأة ذريتهما، لتسخير ما في هذه الطبيعة من نبات وحيوان وجماد لخدمة الإنسان وبقائه على قيد الحياة وضمان الراحة والعيش الكريم. وقد حرصت الدينات السماوية على إعطاء العمل مرتبة عالية وربطه بالعبادة، مع إنصاف العمال والإشادة بأعمالهم، ولا أدل على ذلك من كون الأنبياء والرسل ذوي حِرَف ومِهَن متقنين لأعمالهم، كرعي الغنم والحدادة والتجارة والزراعة وغيرها.

هذا وللعمل مكانة عظيمة في الشريعة الإسلامية، فقد ذكر جذر "عمل" ومشتقاته أكثر من 350 مرة في القرآن الكريم [24]، كما حرصت النصوص على توجيه العاملين لإتقان عملهم على أكمل وجه وأحسن صورة، قال الله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ ﴾ [التوبة/105]، وقال أيضا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف/30]، وقال رسول الله ﷺ: **«إنَّ اللهَ يُحِبُّ إذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلاً أَنْ يُتْقِنَهُ»**[25]، **وقال أيضا: «إنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القِتْلَة، وإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ، ولْيُحِدِ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ» رواه مسلم**[26].

2- **أدوات الصيد عند الجاهليين وإتقان صنعها:** كان الصيد من الأعمال التي مارسها الإنسان في حياته منذ أزمان بعيدة، وهذه الأعمال كانت تمثل الصراع بين الإنسان والحيوان، حيث تَحوَّل الصيد إلى معركة تدور رحاها بينهما من أجل ثنائية الحياة أو الموت[27]، أما عند العرب فصار الصيد ضربا من ضروب الرزق، ومُتعةً من مُتَعِ النفس ولونا من ألوان الحرب أيام السلم[28]. وسارت الفروسية مع الصيد جنبا إلى جنب، وصار من سمات الفتى الفارس أن يُجيدَ الرمي والصيد، وفي هذه البيئة الصحراوية القاسية، امتطى الشاعر فرسه أو ناقته متجاوزا العوالم المجهولة، والأهوال والمخاطر المُحدِقة، وسجّل بعض المواقف الدرامية بين الصياد والحيوانات الوحشية في الغابات والبراري[29].

أما عن وسائل الصيد، فمعلوم أنّ العرب في الجاهلية استعملوا أسلحة متنوعة كان من أشهرها القِسِيّ والنِّبَال، ومن خلال استقراء شعرهم، يَبرُز اهتمام الجاهليين بالقوس من حين نشأتها إلى حين استخدامها، مُبيِّنين مواطنها وشجرها، وقد كابد بعضهم من أجل الحصول على تلك القوس وعانى الأمرين، وبَذَل الغالي والنفيس لأجل استجلاب أفضل الشجر لصنعها، ولو أدى ذلك إلى موته وهلاكه[30].

وإذا عدنا إلى الشعر الجاهلي فالشواهد للذي ذكرت كثيرة، فهذا أوس بن حجــر يصف موطن الشجرة التي يصنع منها القوس، وأنّها مقطوعة من رأس جبل، بعيدة المنال تعانق السحاب، ولا يقدر عليها إلا من استسهل الصعب وجــدّ فــي طلبهــا خاصة أن السير على هذه الصخور فيه خطر شديد، لأن الأقدام لا تثبت فوقها كأنه مدهونة، والوصول إلى هذه الشجرة ضرب من المحال، فيقول:

وَمَبْضُــوعَةٌ مِــنْ رَأْسِ فَــرْعٍ شَــظِيَّةٍ بِطَــوْدٍ تَــرَاهُ فِــي السَّــحَابِ مُجَلَّــلاَ

عَلَى ظَهْــرِ صَــفْوانٍ كَــأَنَّ مُتُونــهُ عُلِلْــنَ بِــدُهْنٍ يُزْلِــقُ المُتَنَــزِّلاَ[31]

وبعد عناء الحصول عليها وتحمُّل المشاق، صوَّرَ الشاعر تصويرا دقيقا كيفيــة إتقان وإجادة صنعها، كأنّها تحفة فنية يسعى القواس أن يخرجها في أبهى حلة، مع الاستعانة بخبير في ذلك، إذ يقول:

فَلَمّا نَجَا من ذَلِــكَ الكَــرْبِ لَــم يَــزلْ يْظَعُهَــــا مَــــاء اللِّحَــــاء لِتَــــذْبُلا

فَــأنْحَى عَلَيْهَــا ذَات حَــدّ دعَــا لَــهُ رَفِيقــاً بِأَخْــذٍ بِالمَــدَاوسِ صَــيْقَلَا

عَلَــى فَخِذَيْــهِ مــنْ بُرَايَــةِ عُودِهَــا شَبِيهُ سَــفَى البُهْمَــى إذَا مَــا تفَــتَّلا

فجَرَّدَهَــا صَــفْرَاءَ لا الطّــولُ عَابَهَــا وَلاَ قِصَــرٌ أَزْرَى بِهَــا فَــتَعَطلا[32]

وبعد هذه المكابدة والتعب في صنعها، تصبح القوس والأسهم هما أغلى وأعــز ما يملك الصياد العربي، بل أحيانا لا يملك غيرهما، يقول الشماخ بن ضرار:

قليــلُ الــتِّلادِ غَيْــرَ قَــوْسٍ وَأَسْــمٍ أنَّ الذي يَرْمِــي مــنَ الــوحْش تَــارزُ[33]

3- **أهمية القوس عند الجاهليين دون غيرها:** القوس هي أحسن ســلاح يحقــق لصاحبه إصابة عدوه دون الالتحام معه، عكس السيف أو الخنجر، كما أنهــا فــي الحرب سلاح خطير، فبفضلها يستطيع الرماة إحراز النصر، وقلب موازين المعركة وردع أي هجوم، وقد جعلها الصعاليك الوسيلة الوحيدة لردع القبيلة والنيل منهــا

دون عناء ومشقة. أمّا في الصيد فهي الوسيلة الوحيدة القادرة على النيل من الهدف عن بعد لأنّ الاقتراب من الحيوان يعني فراره وعدم الظفر به. ولمكانتها الكبيرة عند الجاهليين، وضع حاجب بن زرارة قوسه رهينة أمرٍ هامٍ. والكسعي الذي حطم قوسه، أصبح مثلا لكل من ضحّى بمصدر رزقه حتى قيل: "ندامة الكسعي"[(34)].

4- **نموذج الإتقان في صناعة القوس: (زائية الشماخ)**: القصيدة الزائية للشماخ بن ضرار فريدة في بابها، وهي من عيون الشعر العربي، ويمكن دراستها من جوانب متعددة وبمستويات مختلفة، وبما أنّ موضوعنا متعلق بنظرات اجتماعية لجانب العمل وإتقانه، فإنني سأقتصر على هذا المستوى ومقتضياته فقط. وقد ذكرت سابقا أن الأبيات التي تصف القوس وكيفية صنعها في قصيدة الشماخ هي:07 أبيات من البيت 21 إلى البيت 27، فقد استطرد شاعرنا في حديثه عن وصف القوس بعد الصورة الشعرية التي رسمها للصياد وهو يترصد الحمر الوحشية، ويحمل قوسه التي لا تخطئ الرمية، ثم بدأ حديثه عن القوس بضمير الغائب بقوله "تخيّرها"، وحضور الضمير هنا يعني تعلقا بما قبله، وهي ثلاثة أبيات يمكن اعتبارها تمهيدا لبداية الحديث عن القوس، وهي قوله:

وَحَلّأَهَا عَنْ ذي الأرَاكَةِ عَامِرٌ   أَخُو الخُضْرِ يَرْمِي حَيْثُ تُكْوَى النَّوَاحِزُ

قَلِيلُ التِّلادِ غَيْرَ قَوْسٍ وَأَسْهُمٍ   كَأَنَّ الذي يَرْمِي مِنَ الوحْش تَارِزُ

مُطِلاًّ بِزُرْقٍ مَا يُدَاوَى رَمِيُّهَا   وَصَفْرَاءَ مِنْ نَبْعٍ عَلَيْهَا الجَلائِزُ[(35)]

فقد كان وجود عامر عند ذي الأراكة مانعًا من قدوم هذه الحُمُر، وهو رامٍ جيد لا يرمي إلاّ حيث تكوى الإبل المصابة بمرض النجاز، وهو سعال شديد يصيب الإبل في رئتها، فتُكْوى بها جنوبها وأصول أعناقها، وهذا هو هدف الرامي الحَذِق فهو لا يُخطئ رميّته، حيث إنها تقع في مقتل، فإنْ لم تُصِبه أوقفته مذعورًا، خائفاً قد خارت قواه فلا يقدر على المسير، ومعه نصال زرق يطلّ بها من مكان مشرف

مرتفع، لا يمكن أن يُداوى من رُمِيَت به، وقوسٍ صفراء من شجر نبع، قد لويـــت عليها عقبات؛ لتشدها وتزيد من قوتها[36]. إذن فهاء الضمير في قولـــه "تخيرهـــا" تعود على صفراء أي قوس صفراء فذكر الصفة دون الموصوف، وبعـــدها يبـــدأ حديثه عن هذه القوس.

وبعد القراءة المتأنية والفاحصة للقصيدة استخلصت العناصر التالية الدالة علـــى جودة هذه القوس، وإتقان صنعها، وهي:

4-1- **حسن اختيار المادة الأساسي:** قال الشماخ بن ضرار:

تَخَيَّرَهَـــا القَـــوَّاسُ مِـــنْ فَـــرْعِ ضَـــالةٍ   لهَـــا شَـــذبٌ مِـــنْ دُونِهَـــا وحَـــوَاجِزُ

نَمَـــتْ فـــي مكـــانٍ كنّهَـــا واسْـــتَوتْ بِـــهِ   فَمَـــا دُونَهَـــا مِـــن غِيلِهَـــا مُتَلَـــاحِزُ[37]

فكلمة "تخيرها" وصف لقوله" صفراء من نبع" والفرع الضالة يعني بها النبعـــة والشّذب هو فروع الشجر التي تُقطع وتبقى تسدّ الطريق إلى النّبعة، والحـــواجز أي الموانع، فالشاعر وقعت عينه على نبع كثير فاختار من النبع أجوده، فكأنـــه أدرك نفاستها وعلامة الجودة فيه، فهو يختار النبعة الصالحة مادام يـــرى نظـــائر لهـــا فيتخير أفضلها، ورغم هذه الحواجز الفاصلة بينه وبين النبعة إلا أنّ عين القـــواس تخطتها، وأبصرتها بعناية فائقة، لتتخيرها وتظفر بها[38].

وقد ذكر الشاعر موطنها الذي نمت وطالت فيه، وهو مكان كنّهـــا أي ســـترها واستوت به، ويمنع من الوصول إليها الغيل المتلاحز أي الشجر الكثيف الملتف وقد أجاد الشاعر في رسم صورة الحواجز الفاصلة بين القواس وهذه النبعـــة، فهنـــاك تجانس خفيف تراه في تكرار حرف الكاف والنون في كلمتي "مكان كنّها"، وغُنّـــة وطُربة ملازمة أبدا لحرف النون الساكنة، وأنّ إسناد الكنّ للمكان، فيه إشارة إلـــى خفاء الخفاء وتضافرت معه كلمة "متلاحز" بإيقاعها الصوتي الدال على كثافة هـــذا الغيل والتفاف أغضانه، كما أنّ ذكر كثرة الحواجز وتكرارها في البيتين والإلحـــاح

على وجودها، لدليل على تمنّع هذه النبعة ودقة عين القواس التي رمقتها وتخطت كل هذه الموانع[39].

4-2- **مكابدة المخاطر وتحمّل الصعاب:** بعد أن رمقت عين الشاعر ما كانت تبحث عنه من مادة نفيسة لصنع القوس، صوّر هنا مكابدته للمخاطر والصعاب لأجل الظفر بها، لأنّ هذه النبعة ليست ميسرّة لكل أحد، فهي متمنّعة في حصن حصين، والحواجز والموانع كثيرة وخطيرة للوصول إليها، يقول الشماخ:

فَمَا زَالَ يَنْجُو كُلّ رَطْبٍ ويَابِسٍ   وَيَنغَلُ حَتَّى نَالهَا وَهْيَ بَارزُ

فَأنْحَى إليْهَا ذَاتَ حَدٍّ غُرابُهَا   عَدوٌّ لِأَوْسَاطِ العِضَاهِ مُشَارِزُ

فَلمّا اطْمَأنّتْ فِي يَدَيْهِ رأَى غِنىً   أحَاطَ بِهِ وازورّ عَمَّن يُحَاوزُ

فهو يصوّر هنا حجم المعاناة التي لاقاها القوّاس للوصول إلى هذه النبعة باختراق كل هذه الأشجار الكثيفة الرطب منها واليابس، ووظف فعلي "ينجو" و"ينغل" للدلالة على ذلك، فـ"ينجو" أي يقطع كل ما يصادف طريقه من فروع الشجر، و"ينغل" يتغلل مع الجهد والمشقة، ويروى أيضا "ينحو" أي يختار ويأخذ والأول أصوب للمعنى، كما أنّ قوله "فما زال حتى نالها" فيه دلالة عميقة على استغراق زمن لا بأس به في مكابدة المشقّة والجهد لينال مراده، وما إن وصل إليها حتى اغتنم هذه الفرصة العظيمة وراح ينهال عليها بالفأس الشرسة في حدّة وشدّة كأنّ بينها وبين أوساط العضاه -أي الشجر العظيم ذو الشوك- عداوة، وعبّر عن لهفة الظفر بها وعجلته في تملّكها، بقوة القطع لدى الفأس بقوله: "مشارز" أي فأس قاطعة لكل شيء مرّت عليه[40].

ويا فرحته وهو يظفر بهذه المادة النفيسة والأصيلة والغالية، فهي كنز ثمين وثروة لا تُقدّر بثمن، وإنما أراد الشماخ بهذا أن يؤكّد نفاستها، وأنّ هذا القوّاس الخبير الذي لطالما أنحى بفأسه على كريم النّبع، أدْرَك أنّ الذي بين يديْه ليس هو

النّبعة، وإنّما هو الغنى، فحيازته لها سيُفضي إلى غنٍى يُغنيه عن الناس، أو يبيعها في المواسم فيكسب به ثروة[41]. فلما حازها استغنى بها وانشغل عن كل من يخالطهم من الأهل والأصدقاء[42].

4-3- **حِرَفيّة صاحب العمل وشدّة صَبره:** لمّا ظفر الشاعر بهذه المادة الأصيلة، شرع في صنع القوس في حِرفيّة عالية تُنبئ عن خبرته في هذا المجال فذكر الطريقة المناسبة والوقت الذي استغرقته، حيث قال:

فَمَظّعَهَا عامينِ ماءَ لِحائِهَا وَيَنْظُرُ مِنْهَا أيُّهَا هُوَ غَامزُ

فقد قام الشاعر بعملية تجفيفها في الظل لأنّ تعريضها للشمس يتسبّب في تشقّقها، فقال "فمظعها ماء لحائها" أي أشربها ماء لحائها[43]، والتشريب هو أن يترك عليها ماء لحائها سنتين حتى تشرب العود ماء اللّحاء، وهذه العملية مُهمّة لمعرفة مكان العِوج فيها ليُقوِّمه[44]، ولا شكّ أنّ بقاءه لمدة سنتين كاملتين دليل على صبره الشديد بغية إتقان عمله وصناعة القوس صناعة جيّدة، فلم يتعجّلأ في ذلك، بل وفاها حقها من التشريب حتى تصير في قوة لا تضاهى.

وبعد عملية التجفيف ومعرفة مواطن العِوج فيها راح يقوّمها، يقول الشماخ:

أقَامَ الثِّقَافُ والطَّرِيدَةُ دَرْأَها كمَا قَوَّمتْ ضغْنَ الشمُوسِ المَهَامزُ

والثقاف حديدة في طرفها خرق يتَّسع للقوس ليقوِّم عِوجها، والطريدة قصبة مُجوَّفة خشِنة الجوف تدخل فيها القوس لِتُبرى قِشرتها، والدّرء العِوج، والمهاكز جمع مهماز وهو ما يُنخس به الفرس في جَنْبَيْه، والشّموس الفرس النّافر، والمعنى أنّ لما رآها وعرف موضع عِوجها وضعها في الثّقاف والطّريدة لِيُسوّى هذا العِوج، وشبّه هذا بالذي يُروِّض الفرس الشّموس حتى تسلّس وتنقاد[45]. وانظر إلى هذا الإتقان المتناهي والجودة الكبيرة في إنجاز العمل، فمن قال أنّ الجاهليين كانوا بعيدين عن هذا الجانب؟

4-4- **غلاء ثمن هذه القوس عند بيعها:** لمّا كانت هذا القوس مُتقنة الصنع، ذات جودة عالية، فلا شكّ أن العيون الخبيرة بالسلعة حين تراها ستترغب فيها، وتدفع للظفر بها الغالي والنفيس، وهذا ما وقع بالفعل، قال الشماخ واصفا بيعها في السوق:

فَوَافَى بِهَا أهْلَ المَوَاسِمِ فَانْبَرَى لهَا بَيِّعٌ يُغْلِي بِهَا السَّوْمَ رائزُ

فَقَالَ لَهُ: هَلْ تَشْتَرِيهَا فَإنَّهَا تُبَاعُ بِمَا بِيعَ التِّلادُ الحَرائزُ

فَقَالَ: إزارٌ شَرْعَبِيٌّ وأَربعٌ مِنَ السِّيَرَاءِ أو أَوَاقٍ نَوَاجِزُ

ثَمَانٍ مِن الكِيرِيِّ حُمْرٌ كَأنَّهَا مِنَ الجَمْرِ مَا ذَكَّى مِنَ النَّارِ خَابزُ

وَبُرْدَانِ مِنْ خَالٍ وَتِسْعُونَ مَعْ ذاكَ مَقْرُوظٌ مِنَ الجِلْدِ مَاعِزُ

فحين قصد القّواس السوق، تتبّعه المنبهرون بهذه القوس وجودتها، وذلك من خلال نظرة ثاقبة -في يد صاحبها- وزاد الإعجاب حين تجريبها، حينها علم القّواس برغبة الرائي المجّرب المتفحّص لهذه القوس بأنه راغب فيها، مقبِل على شرائها، ولو كلّفه ذلك مالاً كثيرًا، فبادره القّواس بقوله مباغتًا: هل تشتريها؟ وكأنّه يشوّقه لها، ففي استفهامه هنا تشويق للمشتري، ثم أخذ يثبت له بأنها تُباع بما يُباع به المتاع الغالي الثمن، وأكّ كلامه بـ "إنّ" إمعاناً منه في نفاستها عنده، وكلّ ذلك إشعار لهذا البيع بأنها غالية عند هذا القّواس، فلا يقترب من شرائها إلاّ مَنْ يقِّدر ثمنها ويعرق قيمتها، فلّما علم نيّته وأنه يريد بيعها، باشره بعروضه المُغْرِية، وهي إزار شرعبي وهو جنس من البرود وهو من أجود الثياب وأغلاها، وأربع شقاق من السّيَراء وهو جنس من البرود المسيرة لأنّ فيها خطوطا كالسيور، وأواق من الذهب والفضة نواجز، جمع ناجزة أي حاضرة نقدا، و"أو" هما بمعنى الواو، وهذه الأواقي جمع أوقيّة وهي الميزان المعروف، فبيّن أنّها ثمانية وهي من الذهب المصنوع، كأنها من شدة حمرتها جمر الخابز الذي يُذكي ناره باستمرار، وبردان من خال وهو جنس من البرود أرضها حمر وفيها خطوط خضر، وقيل ثياب تصنع باليمن، وقيل هي موضع باليمن تصنع به

الثياب النفيسة، وتسعون درهما، وفوق كل ذلك جلد مدبوغ بالقرظ و"ماعز" أي شـــديد وهو جراب أو وعاء لهذه الأشياء[46].

4-5- **شدّة التعلّق بها لأنها متقنعة الصنع:** لا شكّ أنّ التفــريط فـــي الشـــيء النفيس أمر صعب، وإن وقع لظرف ما فستلحق صاحبة حسرة وندامة، وهذا بالفعل ما وقع لشاعرنا حينما باع قوسه، تلك القطعة الفريدة التي أبدع في صنعها، وأتقنها وأجادها، وقد تحمل لأجلها المشاق كابد المخاطر والأهوال، وصــبر عليهــا مــدة سنتين وهو يجففها ويقومها إلى أن أصــبحت قوســا يتنــافس عليهــا المشــترون ويعرضون لأجلها أغلى الأثمان، فقد تردد قليلا، ثم لما اجتمع عليه الناس وأغــروه ببيعها، فرّط فيه، حزن عليها حزنا شديدا، قال الشماخ:

فَظَــــلّ يُنَــــاجِي نَفسَـــــهُ وَأَميرَهَـــا أَيَأْتي الـــذِي يُعْطَـــى بِهَـــا أم يُجَـــاوزُ؟

فَقَـــالُوا لَـــهُ بَـــايعْ أخـــاك ولا يَكُـــنْ لَكَ اليْومَ عن رِبْـــحٍ مـــنَ البَيْـــع لاهِـــزُ

فَلمَّا شَـــراهَا فَاضَـــتِ العَـــيْنُ عَبْـــرةً وَفِي الصَّدْرِ حُـــزّازٌ مِـــنَ الوَجْـــد حَـــامِزُ

تردد القوّاس –وهو الشاعر في أغلب الظنّ– وأخذ يراجع نفسه وقلبـــه، أهـــذا المال ثمن لهذه القوس أم لا؟ وهذا ممّا يدّل على مكانتها العالية عنده وشدة تعلقـــه بها، وأنّه لم يجبره على المجيء بها إلى السوق إلاّ الظروف القاســية، ثـــمّ أخـــذ الحضور لهذه المساومة النادرة يحثّون القّواس ويغرونه على البيع، وألاّ يضيِّع هذه الفرصة الثمينة، وأنّ هذا الثّمن المعروض لا يمكن أنْ يعطى لغيرها مـــن جنســـها ومع شدة إلحاحهم وصخبهم وعلّو أصواتهم، باع القّواس قوسه، واشتّد وجده عليها حتى فاضت العين بعبرات وحّز في النفس ما حّز حتى توالت الزفرات، فهو فراق لحبيب عاش معه سنوات، وذهب من بين يديْه في لحظات. وتجد ذلك ظاهًرا فـــي تكراره للفاء، وكأنه يتأفّف من هذا الموقف الذي أجبره الزمن عليه، وفـــي ألفاظـــه

نجد كلمة "حزّاز، وحامز" ففيهما ما فيها من الوجد والأسى ما لا يمكن معه التعبير بغيرهما، وهذا يدلّ على براعة الشاعر في وصف هذا الموقف(47).

5- **تأثر الشعراء بزائية الشماخ واستلهامهم فكرة الإتقان منها:** أقبل الأدباء والشعراء على ديوان الشماخ وشرحوا قصائده وبينوها للقارئ، بل وتأثروا بها فهو شاعر مُجيد ذو لغة راقية، ولم يتغير بعد الإسلام عما كان عليه في شعره في الجاهلية، من جزالة اللفظ وغرابة المعنى، لكنّ قصيدته الزائية في وصف القوس على وجه الخصوص، قد اشتهرت وراجت ولقيت قبولا لدى الأدباء والشعراء وعدّوها من عيون الشعر العربي، وقصيدة فريدة في بابها بعد قصائد أوس بن حجر في وصف القوس، ومن أهم المعاصرين الذين تأثروا بها فيما له علاقة بموضوع الإتقان الأستاذ محمود شاكر.

وقد استحضر الأستاذ محمود شاكر قصّة القواس في زائية الشماخ، عندما جرى بينه وبين صاحبٍ له حِوار في شأن إتقان العمل، فاستلهم منها وألّف رسالته (القوس العذراء وقراءة التراث)، وفيها قصيدته وعددُ أبياتها مائتان وتسعون وعالج فيها قضية من أحدث قضايا العصر، وهي العلم والفنّ والولوع بإتقان العمل، الذي يراه محمود شاكر في إرث طبيعته فنّا متمكّنا، وأنّ الإنسان بسليقة فطرته فنّان مُعْرِق، وهذا أدقّ وأكرم ما يُستخلَص من حكاية إتقان العمل(48).

وتُعَدّ قصيدة "القوس العذراء" من أبرز أعمال المحقق الأديب محمود شاكر، فقد قرأ قصيدة الصحابي الجليل الشماخ قراءة شعرية فنيّة رائعة. يقول عنها إحسان عباس: «لا ريب عندي في أنّ الشّعر الحديث قد ضلّ كثيراً حين لم يهتد إلى "القوس العذراء"، وأنّ الناقد الحديث كان يعشو إلى أضواء خادعة، حين انقاد وراء التأثر بشعر أجنبي، ورموز غريبة، ولم يتسطع أن يكتشف أدواته في التراث كما فعلت "القوس العذراء"». ويقول عنها زكي نجيب محمود: «درّة ساطعة هذه بين سائر الدرر، وآية هذه من الفنّ محكَمَة بين آيات الفنّ المحكمات، وقعت عليها وأنا

أدور بالبصر العجلان في سوق الكتب الحديثة الصدور، فكنت –حين وقع عليها البصر– كمن كان ينبش في أديم الأرض بين المدر والحصى، ثم لاحت له بغتة –لتخطف منه البصر ببريقها– لؤلؤة، هو كتاب "القوس العذراء"». كما وصفها محمد مصطفى هدارة بقولة: «قصيدة "القوس العذراء" رؤية جديدة في الإبداع الفني، تأخذ مكانها في الذروة من الأعمال الرائعة في أدبنا المعاصر، بل في الأدب الإنساني في كل زمان ومكان»(49).

خاتمة: خَلُص هذا البحث إلى النتائج التالية:

- إنّ دراسة وصف القوس في الشعر الجاهلي، كفيلة بكشف أسرار وخبايا العديد من موضوعات الشعر الجاهلي وكشف مكنوناته، وقد بينت هذه الدراسة جانبا اجتماعيا هاما، ألا وهو ثقافة الإبداع وفن الإتقان عند الجاهليين.
- دقة الوصف امتزجت مع حيثيات السرد، فشكلت مشهدا فنيا للقوّاس وهو يصيد الحمر الوحشية، ثم فتح باب لوصف إجادة وإتقان صنع القوس.
- المعجم اللغوي للشماخ في زائيته يتسم بالقوة والجزالة والغرابة في كثير من الأحيان.
- رسم الشاعر لوحات فنية جميلة من وحي البادية، منذ انطلاقه بناقته يجوب الصحراء، مرورا بتصوير مشهد اصطياد الحمر الوحشية، ثم وصف صناعة القوس وإتقانها، وأخيرا ببيع القوس والحزن عليها.
- تعتبر زائية الشماخ أنموذجا رائعا عن إتقان العمل وإجادته، فقد أبدع في صناعة تحفة فردية من نوعها، تسابق المبتاعون لأجلها وعرضوا أغلى الأثمان.

الهوامش:

[1] ينظر مقدمة ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني: تحقيق صلاح الدين الهادي، دار المعارف مصر، (دت)، ص17.

[2] أبو موسى (محمد محمد): الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء، مكتبة وهبة، ط2 القاهرة، 2012، ص05.

[3] ينظر: الدوسري (فهاد بن محمد): وصف القوس في الشعر الجاهلي، مذكرة ماجتسير، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، السعودية، 2015، ص02.

[4] ينظر: مقدمة ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني، ص13–14.

[5] المرجع السابق، ص14.

[6] ينظر: ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله): الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الحديث القاهرة، (دت)، ج01، ص304–307. والأصفهاني (أبو الفرج): الأغاني، تحقيق إحسان عباس وإبراهيم السّعافين وبكر عبّاس، دار صادر، ط3، بيروت، 2008، ج09، ص118–120. والبغدادي (عبد القادر): خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط4 القاهرة، 1997، ج03، ص197. والصَّفَدي (صلاح الدين): الوافي بالوفيات، تحقيق أبو عبد الله جلال الأسيوطي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2010، ج13، ص36–38. والمرزباني (أبو عبيد الله محمد): معجم الشعراء، تصحيح وتعليق ف.كرنكو، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 1982 ص138. والزِرِكلي (خير الدين): الأعلام، دار العلم للملايين، ط5، بيروت، 1980، ج03، ص175.

[7] نُسب البيتان للشماخ بن ضرار كما في الإصابة (210/03) نقلا عن أبي الفرج، وروى صاحب الأغاني الأول منهما فقط ونسبه للشماخ (98/08)، وكذا صاحب الوافي بالوفيات (463/14). والصواب أنّ البيْتيْن لمزرّد، فَهُما له–مع بعض الاختلاف في الرواية والترتيب– في الشعر والشعراء (274/01)، والإصابة (58/06)، والعمدة (55/01)، والاستيعاب (302/01)، وأسد الغابة (351/04). والبيتان معا في ديوان مزرد ص63 مع بعض الاختلاف في الرواية. ومما يرجّح نسبتهما لمزرّد أخي الشماخ أنّ مزرّدا هو الذي هجا بني أنمار في غير موضع من ديوانه، بينما لم يرد للشماخ هجاء لبني أنمار في ديوانه. ينظر: ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني: ص454.

[8] صحح أحمد محمد شاكر عند تحقيقه لكتاب الشعر والشعراء هذا الخطأ الذي وقع فيه العلماء والرواة من أمثال أبي الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني والبغدادي صاحب الخزانة، وقال إنّ هــذا الوصــف لأخيه مزرّد وليس للشماخ. ينظر: ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله): الشعر والشعراء، ج01، ص304.

[9] يريد عباراته وألفاظه وصياغته.

[10] يريد بناء الكلام وتركيبه، يعني أنه غير مشرخٍ ولا ضعيف متخالف.

[11] يريد أنه قليل الماء غير ليّن ولا سهل، بل فيه يُبس وتقبّض.

[12] ينظر: الهادي (صلاح الدين): الشماخ بن ضرار الذبياني، حياته وشعره، ص80–107. نقــلا عن الديوب (سمر): البُعد الحجاجي في رائيّة الشماخ بن ضرار الذبياني، مجلة جامعــة البعــث، المجدل39، العدد32، سورية، 2017، ص157.

[13] ينظر: المرجع نفسه، ص113.

[14] ينظر: أبو موسى (محمد محمد): الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء، ص515.

[15] ينظر: السويدي (سلامة عبد الله): القوس في الشــعر الجــاهلي والإســلامي، مجلــة كليــة الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، العدد21، 1998، ص247. وعبد الحليم (طارق): دراسات مقارنــة في الشعر العربي، موقع الشيخ طارق عبد الحليم، الرابط:
(http://tariq-abdelhaleem.net/ar/post/73163)

[16] ينظر: مقدمة ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني: ص14.

[17] ينظر: بوتيوتة (عبد المالك): تجليات السرد في القصيدة الجاهلية، مذكة ماجستير، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد منتوري قسنطينة، 2007، ص101.

[18] السراج (رافعة سعيد): مستويات الأسلوب في زائية الشماخ بن ضرار –القوس والطريــدة– أنموذجا، مجلة جامعة تكريت للعلوم، المجلد19، العدد12، ديسمبر، 2012، ص81.

[19] القيرواني (ابن رشيق): العمدة في صناعة الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محي الدين عبد الحميد دار الجيل، ط5، بيروت، 1981، ج01، ص261.

[20] كنوني (محمد): اللغة الشعرية دراسة في شعر حميد سعيد، دار الشؤون الثقافية، ط1، بغــداد 1997، ص173.

[21] التبريزي (الخطيب): الكافي في العروض والقوافي، تحقيق الحسّاني حسن عبد الله، مكتبة الخانجي، ط3، القاهرة، 1994، ص148.

[22] أنيس (إبراهيم): الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو مصرية، ط4، القاهرة، 2007، ص74.

[23] السراج (رافعة سعيد): مستويات الأسلوب في زائية الشماخ بن ضرار، ص83.

[24] عبد الباقي (فؤاد): المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الكتب المصرية، القاهرة 1364ه، ص484-488.

[25] رواه الطبراني في الأوسط (891)، وأبو يعلى (4386)، والبيهقي في شعب الإيمان (334/04) وابن عدي في الكامل (2359/06). ينظر: موقع ملتقى أهل الحديث، الرابط: (https://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?t=3253).

[26] مسلم (أبو الحسين): صحيح مسلم، تشرف بخدمتها والعناية بها أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي دار طيبة، ط1، الرياض، 2006، ج02، 941.

[27] ينظر: الشمري (عبد علي): مشاهد الصراع في لوحة الصيد في الشعر الجاهلي، مجلة كلية التربية، العدد الرابع، ص30.

[28] ينظر: وطفة (علي): إشكالية المفهوم في الخطاب العربي، قراءة اجتماعية، مجلة التعريب، العدد19، 2000، ص160.

[29] ينظر: المشهراوي (عصام محمد): دلالات الوحدة في قصيدة الصيد الجاهلية، مجلة جامعة الأزهر، المجلد12، العدد02، غزة، 2010، ص122.

[30] ينظر: الدوسري (فهاد بن محمد): وصف القوس في الشعر الجاهلي، ص23.

[31] ديوان أوس بن حجر: تحقيق محمد يوسف نجم، دار بيروت للطباعة والنشر، ط1، بيروت 1980، ص85-86. ومبضوعة: أي مقطوعة، الفرع: أعلى الشجرة. والشظية: الشقة والفلقة، وهي صفة للمبضوعة ومجللاً: جلّله: بمعنى غطّاه وألبسه. وعلى ظهر صفوان: حجر. يزلق المتنزل: لملامسته. وعُلِلن: سقين مرةً بعد مرة.

[32] المرجع السابق، ص88. والكرب: الشدة. ويمظعها: يُشرِبها. واللحاء: قشر العود. والرفيق: الحتذق. والمداوس: المصاقل واحدها مدوس. والسفى: شوك البُهمى واحدته سفاة.

(33) ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني: ص183. والتلاد: كل مال قديم من حيوان وغيره يـورث عن الآباء، وقليل التلاد أي لا تلاد له فلا يملك سوى قوسه وأسهمه. وتارز: أي جامد بارد يصيب كيف يريد.

(34) عبد المالك (بوتيوتة): تجليات السرد في القصيدة الجاهلية، مذكرة ماجستير، كلية الآداب واللغات، جامعة منتوري قسنطينة، 2007، ص100.

(35) ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني: ص182–183.

(36) ينظر: الدوسري (فهاد بن محمد): وصف القوس في الشعر الجاهلي، ص33.

(37) ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني: ص184.

(38) ينظر: أبو موسى (محمد محمد): الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء، ص517.

(39) المرجع السابق، ص518.

(40) ينظر: السويدي (سلامة عبد الله): القوس في الشعر الجاهلي والإسلامي، ص248.

(41) ينظر: أبو موسى (محمد محمد): الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء، ص520.

(42) ينظر: ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني: ص185.

(43) ينظر: أبو موسى (محمد محمد): الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء، ص521.

(44) ينظر: ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني: ص185.

(45) ينظر: أبو موسى (محمد محمد): الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء، ص522.

(46) ينظر: الدوسري (فهاد بن محمد): وصف القوس في الشعر الجاهلي، ص35–36.

(47) المرجع السابق.

(48) ينظر: أبو موسى (محمد محمد): الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء، ص"ك".

(49) موقع إسلام ويب، الرابط:

(http://articles.islamweb.net/media/index.php?page=article&lang=A&id=148232)

التأويل النحوي في القرآن الكريم وأثره في المعنى
– دراسة تحليلية وصفية –

داه. عبد الرحيم مزاري

جامعة ابن خلدون، تيارت.

الملخص: لقد سعى علماء اللغة والنحو منذ نزول القرآن إلى فهمه وتفسيره وتدبر معناه، ولقد وظفوا في ذلك الكثير من الوسائل والأساليب من بينها التأويل النحوي، وهو وسيلة يلجأ إليها النحاة وعلماء اللغة للتوفيق بين القواعد النحوية وبين النصوص المخالفة لهذه القواعد، وهو دراسة تراكيب اللغة من جهة الحذف والزيادة والتقديم والتأخير والتضمين والحمل على المعنى وتقدير الحركات الإعرابية، أي تخريج كل ما خالف القواعد التي وضعها النحاة واللغويون، وقد استعمل من قبل النحاة الأوائل لكن لم يوظفوا مصطلح التأويل النحوي، وإنمّا ظهر هذا المصطلح مع المتأخرين، لكن السؤال الذي يطرح: كيف أثر التأويل النحوي في القران الكريم على المعنى؟ وهل كان هذا التأويل مساعدا لفهم النصوص القرآنية؟ وكيف ساهم التأويل النحوي في فهم النصوص القرآنية؟

الكلمات المفتاحية: التأويل النحوي، القرآن الكريم، تأثير التأويل على المعنى النحو العربي.

توطئة: لقد اهتمت الدراسات اللغوية العربية منذ نشأتها بموضوع الأصول النحوية، وقد اعتمد علماء اللغة على السماع والقياس والتعليل في استنباط القواعد وفهمها، وقد وضعوا في ذلك أساليب ومناهج للدرس النحوي، وقد كان النشاط اللغوي قديما يرتكز على المحادثات الشفوية والمناقشات والحوارات فيما بين علماء اللغة والنّحو، فلم يكن التدوين حاضرا في تلك الفترة، وبدأ النّحو في أوّل الأمر تطبيقيا ثمّ جاء بعد ذلك التنظير والتقعيد استنادا على كلام العرب والقبائل الفصيحة.

1) بين النحو والتأويل: كان العرب قديما ينطقون اللغة عـن سـليقة وكـانوا يستعملونها استعمالا فصيحا وسليما من الأخطاء، فقد تميزوا بهـذه اللغـة البليغـة والعظيمة، وفي هذا يقول ابن خلدون وهو يتكلم عن علوم اللسان العربي: "وكانـت المَلَكَة الحاصلة من ذلك للعرب أحسن الملكات وأوضحها إبانةً عن المقاصد لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني، مثل الحركات التي تعـيّن الفاعـل مـن المفعول من المجرور أعني المضاف ...وليسَ يوجد ذلك إلا في لغة العرب"[1].

وقد كان الشعر هو علم القوم، وهو القالب الذي يحفظ اللغة في تلك الفترة حيث قال عمر بن الخطاب: "كان الشعر علم القوم، ولم يكن لهم عِلم أصح منـه، فجـاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهِيت عـن الشـعر وروايته، فلمّا كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنّت العرب في الأمصار راجعـوا رواية الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب، وألفوا ذلك وقد هلـك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم كثيره"[2].

وفي قول عمر بن الخطاب السابق إشارة واضحة إلى غياب التدوين فـي تلـك الفترة، واعتماد العرب كلّيًا على الشعر فقط في حفظ علمهم وأقـوالهم وعـاداتهم وغيرها، وفي السياق نفسه جاء قول أبي عمرو بن العلاء: "ما انتهى إلـيكم ممّـا قالت العرب إلاّ أقلّه، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علمٌ وشعر كثير"[3].

وبعد مجيء الإسلام ودخول الناس فيه أفواجا من كـل الأقطـار ومخـالطتهم للأعاجم تسرب اللحن إلى الألسنة، وتغيّرت تلك الملكة، فأصبح لا بدّ من اسـتنباط قوانين وضوابط لتحفظ تلك الملكة اللغوية، خاصة بعد شيوع اللحـن فـي القـرآن الكريم، فوضعوا قواعد تضبط الحركات على أواخر الكلمات وسمّوها بـالإعراب وسمّوا المُوجب لهذا التغيّر عاملا، وجعلوها صناعة مخصوصـة[4]، واصـطلحوا على تسميتها بعلم النحو.

والنحو علم يختصّ بدراسة أواخر الكلمات من حيث الإعراب والبنـاء وتـأثير عناصر الجملة على المعنى، وقد "استخرجه المتقدّمون فيه من استقراء كلام العرب

حتّى وقفوا منه على الغرض الذي قصده المبتدئون بهذه اللغة"[5]، أي استقراء كلام العرب الموصلة إلى معرفة أجزائه التي ائتلف منها، والنحو "ما يرادف قولنا (علم العربية) لا قَسيمُ الصرف، وهو مصدر أريد به اسم المفعول، أي: المَنحُوّ، كالخلق بمعنى المخلوق، وخصّته غلبة الاستعمال بهذا العلم، وإن كان كلّ علــم مَنحُــوًّا"[6] وقال السكاكي (ت626هـ) في تعريفه للنحو: "اعلم أنّ النحو هو أن تنحو معرفــة كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقا بمقاييس مستنبطة من كـــلام العرب وقوانين مبنية عليها"[7]، إذن فهو علم يجمع بـــين التراكيـــب فـــي الجمـــل وتأثيرها على بعضها وإيجاد العلاقة التي تربط فيمـــا بينهـــا، وينبغـــي أن يكـــون مستنبطا من كلام العرب الذي لم يصله اللحن.

وقد جاء للنّحو في اللغة خمسة معان[8]:

أ- القصد، يقال: نحوت نحوك، أي: قصدتُ قصدك.

ب- المثل، يقال: مررتُ برجلٍ نحوك، أي: مررتُ برجلٍ مثلك.

ج- الجهة، يقال: توجهتُ نحو البيت، أي: جهة البيت.

د- المقدار، يقال: له عندي نحو ألف، أي مقدار ألف.

هـ- القسم، يقال: هذا على أربعة أنحاء، أي أربعة أقسام.

فهذه المعاني اللغوية كلّها شابهت المعنى الاصطلاحي للكلمة وهو القصد ومـــا إليه، وسبب تسمية النحو بهذا الاسم هو ما روي عن علي رضي الله تعالى عنه لمّا أشار على أبي الأسود الدؤلي أن يضعه وعلّمه الاسم والفعل والحرف وشيئا مـــن الإعراب، وقال له: اُنْحُ هذا النحو يا أبا الأسود[9]، وقد أُريدَ بالنّحو أن ينحو المتكلم إذا تعلم كلام العرب، وقد قال ابن جني عن النّحو: "هو انتحاء سَمْت كلام العـــرب في تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمـــع والتحقيـــر والتكســـير والإضـــافة والنسب والتركيب وغير ذلك، ليلحق من ليس من أهل اللغة العربيّة بأهلهـــا فـــي الفصاحة، فينطق بها وإن لم يكن منهم"[10].

2) تعريف التأويل النحوي: لم أجد فيما اطلعت عليه تعريفا دقيقا لمصطلح التأويل النحوي، حيث أن ما كان شائعا عند اللغويين والنحويين هو لفظة "التأويل" وحدها، حيث كان يستعملها كلّ من اللغويين والنحويين كآلية تنقل من خلالها اللفظ من دلالة الظاهر المحتمل إلى معنى آخر يكون أرجح منه، حيث تجعله القرائن أو الأدلة يصبح هو المعنى الراجح لأنه يمثل حقيقة قصد المتكلم وهو مدار التأويل وقد مارس النحاة التأويل النحوي دون أن تظهر هذه الكلمة في مؤلفاتهم، ومن بينهم: سيبويه والفراء والأخفش والمبرد والزجاجي وابن جني وغيرهم.

وقد أشار أبو حيان الأندلسي إلى التأويل في النحو وذلك حين تعرض لآراء النحاة في إعمال (ليس) في قولهم (ليسَ الطيبُ إلا المسكُ)، حيث قال: "وقوله 'ولا ضمير في (ليس) خلافا لأبي علي'، إذا ثبت أن ذلك لغة فلا يمكن التأويل، لأن التأويل لا يكون إلا إذا كانت الجادّةُ على شيء، ثم جاء شيء يخالف الجادة فيُتأول أما إذا كانت لغة طائفة من العرب لم تتكلم إلا بها فلا تأول"[11]، فهو يشير هنا إلى التأويل النحوي ضمنيا، ويشير إلى عدم إمكانية التأويل في لغات العرب التي لم تتكلم بها، وقد ذكر أن أبا علي تأوّل قولهم (ليس َ الطيّبُ إلا المسكُ) ولم يبلغه نقل أبي عمرو أنها لغة تميم.

وقد عرف الباحث غازي مختار طليمات التأويل النحوي بقوله: "هو النظر فيما نقل من فصيح الكلام مخالفا للأقيسة والقواعد المستنبطة من النصوص الصحيحة والعمل على تخريجها وتوجيهها لتوافق بالملاطفة والرفق هذه الأقيسة والقواعد على ألا يؤدي هذا التوجيه إلى تغيير القواعد أو زعزعة صحتها واطرادها"[12] ويرى مختار طليمات بأن النحاة قد استعجلوا في تقعيد القواعد حين صاغوها على نحو جعلها عاجزة عن استيعاب ما خالفها من النصوص التي لم يقفوا عليها[13]فقد أسرعوا في تقعيدها قبل أن يحصوا كل النصوص، ثم ظهرا أن عددا من النصوص قد خالف هذه القواعد، الأمر الذي اضطر النحويين إلى البحث عن وسيلة تُصاغ

لتتفق هذه النصوص مع القواعد، فاستعانوا بالتأويل في تخريج ما خالف القواعد من القليل والنادر والشاذ.

ويقول علي أبو المكارم عن التأويل النحوي: "... ومعنى هذا أن التأويل يعنى تبيين النص بصورة تجعله –آخر الأمر– متفقا مع القواعد المتبعة، ومن هنا اتخذ التأويل النحوي مفهومه في التراث النحوي، وأصبح يُطلق على الأساليب المختلفة التي تهدف إلى إسباغ صفة الاتساق على العلاقة بين النصوص والقواعد، وصار –كظاهرة نحوية– يعنى صبّ ظواهر اللغة المنافية للقواعد في قوالب هذه القواعد"[14]، أي أن التأويل جاء لإظهار وتفسير الظواهر التي خالفت القواعد بحيث تصبح موافقه لها، أي أنّ النحاة هو تصحيح القواعد التي وضعوها عن طريق تسويغ وتأويل ما يختلف مع هذه القواعد من نصوص قابلة للتسويغ ورفض ما سواها.

وقد اعتبر علي أبو المكارم أن موقف النحاة إزاء اللغة وقواعدها كان على ثلاثة مواقف[15]:

أوّلا: قبول كل النصوص التي تتوافق مع القواعد الموضوعة.

ثانيا: قبول النصوص التي يمكن أن يبرّر اختلافها مع القواعد النحوية، ويكون هذا التبرير من خلال التأويل ومظاهره المختلفة.

ثالثا: رفض النصوص التي تختلف مع القواعد النحوية اختلافا جذريا، وهي نصوص لا يمكن تأويلها، وقد أعاد على أبو المكارم السبب في هذا إلى الخلط بين المناهج المختلفة ونظرة جزئية في تناول القضايا اللغوية، وبالتالي حدوث خلط في التقعيد النحوي لها.

وفي تعريف آخر للتأويل النحوي قال السيوطي نقلا عن أبي حيان في شرح التسهيل: "التأويل إنّما يسوغ إذا كانت الجادة على شيء، ثم جاء شيء يخالف الجادة فيُتأوّل"[16]، وقد ذكر محمد عيد بأن الجادة في القول السابق ليست النطق العربي وظاهر الكلام، بل هي قواعد النحو، فالنحاة قد أوّلوا الكلام وصرفوه عن

ظاهره حتى يوافق القواعد النحوية، أي إرجاع النصوص التي لم تتوفر فيها الشروط النحوية إلى موقف تتسم بالسلامة النحوية.

ويرى الباحث محمد عيد أن التأويل في النحو قد وُجِد نتيجة عاملين[17]:

أولا: أصول النحو والذي حدد وجهة التأويل في النحو، وذلك من خلال نظريات أصول النحو، مثل العامل والمعمول والعلة والمعلول والقياس.

ثانيا: الجهد الذهني العميق، والذي سار في التأويل في النحو وأوغلَ فيه، حيث نمّاه النظر العقلي وأبدع فيه حتى وصل به إلى درجة التعمية والإلغاز، فالتأويل في النحو قد وجِد في النحو نتيجة النظر العقلي العميق والتدبر في النصوص اللغوية لتتوافق مع الأصول النحوية.

من خلال تعريف التأويل النحوي يظهر أن هناك تقاربا بينه وبين التوجيه الإعرابي، لذا ينبغي أن نشير إلى الفرق بينهما:

3) الفرق بين التأويل النحوي والتوجيه الإعرابي: التأويل النحوي يختلف عن التوجيه الإعرابي، وذلك أن التأويل أعمّ من التأويل، فكلّ تأويل توجيه وليس كل توجيه تأويل، ومن أمثلة ذلك قراءة الجمهور لآية النساء بالنصب (والأرحَامَ) في الآية ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾[18] والتوجيه فيها أنها معطوفة على المفعول به وهو لفظ الجلالة (اللهَ)، والمعنى: واتّقوا اللهَ واتّقُوا الأرحَامَ ، فهذا الإعراب وأمثاله يدخل في باب التوجيه النحوي وليس تأويلا[19] أما إعراب كلمة (الأرحامِ) بالجرّ على أنها مجرورة بواو القسم فإنّه يعدّ تأويلا نحويا، ونستطيع في الوقت نفسه أن نسميّه توجيها نحويا، لأن التأويل أعمّ وأشمل من التوجيه.

ونجد فرقا آخر في استعمال المصطلحين عند النحاة، فهم يستعملون كلمة توجيه عندما يكون الإشكال أقرب إلى الصناعة النحوية منه إلى المعنى، ويستعملون كلمة تأويل عندما يكون الإشكال أقرب إلى المعنى منه إلى الصناعة النحوية.

وقد كان التأويل النحوي هو الوسيلة الوحيدة التي لجأ إليها النحاة للتوفيق بين القواعد النحوية والنصوص المخالفة لها المنسوبة إلى عصر الاستشهاد، وقد رفضوا في الكثير من الأحيان بقية النصوص الأخرى التي لا تتوافق وهذا العصر.

وقد ذكر علي أبو المكارم أن أهداف التأويل في البحث النحوي تتحدّد في هدفين أساسين[20]:

أولا: صحة القواعد.

ثانيا: سلامة النصوص.

ويقصد الباحث من خلال هذين الهدفين أن الغاية التي سعى إليها النحاة هي تصحيح القواعد بتسويغ ما يختلف معها من نصوص تُنسب إلى عصر الاستشهاد وذلك بواسطة التأويل، وهذا الموقف في نظر النحاة ضرورة يفرضها منهجهم وذلك من خلال قبول كل النصوص المأثورة عن ذلك العصر، والتزامهم بها في تقنين القواعد، ويتضمن هذا الالتزام في رأي على أبي المكارم طرفين اثنين:

أولا: الأخذ بالنصوص الموافقة للقواعد.

ثانيا: تأويل النصوص المخالفة لقواعد تأويلا يبعد بها عن التأثير في القواعد نفسها، ويكون ذلك بتفسيرها وصياغتها بشكل يتوافق مع القواعد ولا يعارضها.

وقد أشار الباحث غازي مختار طليمات إلى أن السبب في حاجة النحو إلى التأويل باعتبار أن القواعد النحوية مستخلصة من النصوص الفصيحة، هو أن النحاة لم يدرسوا كلّ ما قالته العرب قبل أن يضعوا هذه القواعد،[21] وهو يرى أن الاستقراء الناقص يؤدي إل الاستنباط الخاطئ، ولم يستطيعوا دراسة كل ما قالته العرب لأنه قد ضاع من الشعر العربي القديم أكثره، وقال أبو عمرو بن العلاء في هذا: "ما انتهى إليكم ممّا قالت العرب إلا أقلّه، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علمٌ وشعر كثير"[22] .

من خلال ما تقدم يمكن القول بأن التأويل النحوي هو وسيلة يلجأ إليها النحاة وعلماء اللغة للتوفيق بين القواعد النحوية وبين النصوص المخالفة لهذه القواعد وهو دراسة تراكيب اللغة من جهة الحذف والزيادة والتقديم والتأخير والتضمين

والحمل على المعنى وتقدير الحركات الإعرابية، أي تخريج كل ما خالف القواعد التي وضعها النحاة واللغويون، وقد استعمل من قبل النحاة الأوائل لكن لم يوظفوا مصطلح التأويل النحوي، وإنمّا ظهر هذا المصطلح مع المتأخرين.

4) أسباب التأويل النحوي: هناك مجموعة من الأسباب التي أدت إلى التأويل النحوي في، نذكر منها:

1- القراءات القرآنية:

تعدّ القراءات القرآنية من الأسباب الرئيسة التي دعت إلى التأويل، وذلك لإخضاعها للقواعد النحوية، أو محاولة إيجاد تفسير نحوي أو لغوي لها، فعلم القراءات هو " علم يُعلم منه اتفاق الناقلين لكتاب الله تعالى واختلافهم في الحذف والإثبات والتحريك والتسكين والفصل والوصل، وغير ذلك من هيئة النطق والإبدال، وغيره من حيث السماع"[23]، وقد كثر التأويل النحوي في الاحتجاج بالقراءات وتقويتها منذ نشأة النحو.

ومن بين هذه القراءات قراءة غير أهل الكوفة للآية الكريمة ﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ [24] على أنّ (وجاعِلُ) اسم فاعل مضاف إلى (الليل)، فينتصب (سكنًا) و(الشمسَ والقمرَ) بفعلين مضمرين لأنَّ اسم الفاعل إذا كان ماضيا لا يعمل[25]، فهذا من باب الاجتهاد في التأويل النحوي.

2- العامل النحوي: من بين الأسباب الهامة للتأويل النحوي هو العامل، وقد عرفه الجرجاني بقوله: "العامل في اصطلاح النحويين ما أوجب كون آخر الكلمة مرفوعا أو منصوبا أو مجرورا أو ساكنا نحو: جاءَ زيدٌ، ورأيت زيداً، ومررتُ بزيد"[26]، فالعامل هو الموجد المُنشئ للحالة الإعرابية من رفع أو نصب أو جر أو جزم، وللعلامة الإعرابية التي تقع في آخر الكلمة وتدلّ على حالتها الإعرابية تكون حركة أو حرفا أو سكونا أو حذفاً.

وقد اختلف النحويون في حقيقة العامل على ثلاثة مذاهب[27]:

أ- ذهب أكثر النحويين إلى أن العامل هو الكلمات أو المعاني، فالكلمة تؤثر في الكلمات الأخرى، فتحدث فيها الرفع أو النصب أو الجر أو الجزم، مثلا: (ذهبَ زيدٌ) فإن ذهب هي التي أحدثت الرفع في زيد وهي التي جلبت العلامة الإعرابية لها وهي الضمة، وكذلك المعنى له قدرة على إيجاد الحالة الإعرابية والعلامة الدالة عليها، فمثلا: (المؤمنُ صادقٌ) فإن الابتداء هو الذي رفع كلمة المؤمن، وهو الذي جلب العلامة الإعرابية فيها وهي الضمة.

ب- وذكر ابن جني أن العامل هو المتكلم فقال: "فإذا قلت: ضربَ سعيدٌ جعفرا فإن (ضرب) لم تعمل في الحقيقة شيئا، وهل تحصل من قولك (ضربَ) إلا على اللفظ بالضاد والراء والباء على صورة (فَعَلَ)، فهذا هو الصوت والصوت مما لا يجوز أن يكون منسوبا إليه الفعل...وإنما قال النحويون: عامل لفظي وعامل معنوي، ليُرُوك أن بعض العمل يأتي مسببا عن لفظ يَصحبُه كمررتُ بزيدٍ، وليتَ عمراً قائمٌ"[28]، ويريد ابن جني من هذا القول أن يكشف عن طبيعة العامل، فالكلمة ليست لديها القدرة على التأثير في غيرها من الكلمات وإحداث العمل الإعرابي لأنها أصوات، والأصوات لا تعمل، بل إن المتكلم بكلام العرب هو الذي يحدث هذا العمل، فيرفع وينصب ويجزم.

وقد ذهب الأنباري كذلك في هذا الشأن حيث اعتبر أن العامل مجرد أمارة وعلامة، وليس له تأثير حسّي حين قال: "العوامل اللفظية ليست مؤثرة في المعمول حقيقة، وإنما هي أمارات وعلامات، فالعلامة تكون بعدم الشيء كما تكون بوجود الشيء"[29]، ومن خلال هذا يعتبر الأنباري أن يكون التعري من العوامل اللفظية عاملا في حد ذاته.

ج- وذهب ابن مضاء القرطبي إلى أن العامل الذي يحدث حركات الإعراب هو المتكلم نفسه، وهو لا يتفق وجمهور النحويين في هذا الشأن، فهو في مباحثه النحوية يرفض العامل النحوي ولا يقرّ بوجوده، لكنه يتفق مع أصحاب المذهب

الثاني في أن العامل هو المتكلم، لكنه يختلف عنهم في التطبيــق، فهــم يعتمــدون العوامل النحوية في مباحثهم، لكن ابن مضاء يرفضها.

وقد شغل العامل في القرآن الكريم النحويين وعلماءَ اللغة بشكل كبير، فباعتبار أن نظرية العامل هي التي تفسر الحركات الإعرابية، فلا بدّ لكلّ عامل من معمول وقد اختلف علماء اللغة في كثير من المواطن في التنزيل العزيز، وذلــك لــورود بعض الأساليب أو التراكيب اللغوية بلا عامل ظاهر، فتوجد اللفظــة مرفوعــة أو منصوبة أو مجرورة ويُجهلُ عامل الرفع أو النصب أو الجر فيها، ولهذا فقد وجــه علماء اللغة الآيات القرآنية التي جُهل العامل فيها توجيهــاتٍ مختلفــة وتــأويلات نحوية.

ومن أمثلة هذا ما جاء في سورة آل عمران في قوله تعــالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [30]، حيث اُختلــف فــي عامل النصب في كلمة (ورسولاً)، فلجأ النحويون إلى التأويل النحوي لتفسير عامل النصب فيها، ومن بين هذه التأويلات:

أولا: تقدير الآية: ونعلّمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ونبعثه رسولا إلى بني إسرائيل قائلا: أني قد جئتكم بآية من ربّكم، وهو قول الرازي في تفســيره[31] وهذا ما ذهب إليه محي الدين الدرويش حيث قال: "ورســولا مفعــول بــه لفعــل محذوف، أي: ويجعله رسولا"[32]، هذا التأويل الأول.

ثانيا: جاء في تفسير الرازي أن الزجاج قال: الاختيار عندي أن تقديره: ويكلّــم الناس رسولا، وإنّما أضمرنا ذلك لقوله: أني قد جئتكم، والمعنى: ويكلمهم رســولاً بأني قد جئتكم، وبهذا التأويل تنصب لفظة (رسولاً) على الحــال[33]، وقــد أجــاز الزمخشري وغيره أن يُعرب (رسولا) حالاً، كأنه عطفه على (يعُلمه) بالمعنى[34].

ثالثا: ذكر الرازي في تأويل آخر عن الأخفش[35] أنه يمكن اعتبار الواو زائـدة والتقدير: ويعلمه الكتابَ والحكمةَ والتوراةَ، والإنجيل رسولاً إلـى بنـي إسـرائيل قائلا: أني قد جئتكم بآية.

3- المذاهب الدينية: لقد كان للمذاهب الدينية دور كبير في توظيـف التأويـل النحوي وحتى المبالغة فيه وحمل النص على غير ظاهره، فبعض الفرق حاولت أن تؤوّل النصوص القرآنية بحيث تتفق ومعتقداتهم ومذاهبهم، ومن بين هـذه الفـرق المعتزلة، فقد أوّلت العديد من النصوص القرآنية بما يتفق مع مذهبها وآرائها.

ومن أمثلة ذلك ما أوّله المعتزلة في الآية الكريمـة: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[36] حيث اعتمدوا على قراءة أبي السمال الشاذة برفع (كلُ) وهي قراءة شاذة، فتصـبح جملة (خلقناه) في محل نعت لكلمة (شيء)، والخبر شبه الجملة (بقـدر)، فيصـبح المعنى من خلال هذا السياق: إنّا كلُ شيءٍ مخلوق لنا بقـدرٍ، أي أن مخلوقـا مـا يضافُ إلى غير الله تعالى ليس بقدر، وأن في الحياة ما هو مخلوق لله ومـا هـو مخلوق لغير الله، فتعالى الله الذي له كل شيء، فهذا التأويل ناقص وغيـر مقبـول وقد قرأ الزمخشري هذه الآية بالرفع وهو من رؤوس المعتزلة، أما أهـل السـنة فيقرأون الآية بنصب (كلَّ) فيصبح معنى الآية: إنّا خلقنا كلَّ شيء بقـدر، فيكـون عموم نسبة كل مخلوق إلى الله تعالى[37].

4- مخالفة التراكيب اللغوية وتكثير التخريجات النحوية: لقد مـارس التأويـل النحوي اللغويون والنحويون منذ نشأة النحو، فمنهم من كـان يختـار التـأويلات القريبة إلى المعنى والظاهرة من النصوص ويبتعد عن غيرها، ومنهم مـن كـان يفتتن في تقديم التأويلات والتخريجات للآيات ،خاصة في الآيات التـي لـم تكـن القواعد النحوية واللغوية تنطبق عليها، ومن أمثلة هذا فـي قولـه تعـالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[38] ففي إعراب كلمة (كافةً) قدّم اللغويون والنحويون مجموعة مـن التخريجـات، لأن

القاعدة تقول أن الحال لا تتقدم على صاحبها إذا جرّ بحرف جر أصلي إذا اعتبرناها حالا، وأُوّلت كلمة (كافة) على وجهين[39]:

أولا: هناك من اعتبر أنها وقعت حالا، ومنهم الفارسي وابن كيسان وابن جني وأبو علي، وذهب ابن مالك إلى أن تقديم الحال على صاحبها إذا كان مجرورا بحرف جر أصلي هو تقديم صحيح، وقد استشهد بالآية السابقة، فتكون (كافة) حالا من المجرور (الناس).

5- اختلاف المدارس النحوية: لقد اعتمد النحاة على كثير من شواهد القرآن الكريم في إثبات صحة القواعد أو ترجيح بعض ما اختلف فيه، وقد اختلف أنصار المذاهب النحوية أو المدارس النحوية في قراءة بعض الآيات، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَو أَنَّا كَتَبنَا عَلَيهِم أَنِ ٱقتُلُوٓاْ أَنفُسَكُم أَوِ ٱخرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلا قَلِيل مِّنهُمۖ وَلَو أَنَّهُم فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيرا لَّهُم وَأَشَدَّ تَثبِيتا﴾[40]، فقد جاء عن ابن خالويه القراءات الآتية[41]:

أولا: قرأ عاصم وحمزة بكسر النون والواو لالتقاء الساكنين، في (النون والقاف)، وفي (الواو والخاء)، والألف قد سقطت للوصل.

ثانيا: قراءة أبي عمرو بضمّ الواو وكسر النون، حيث قال: لما احتجت إلى حركتها الواو بحركة هي منها.

ثالثا: قراءة الباقين بضمّ الحرفين جميعا.

وذكر ابن خالويه أن "أهل الكوفة قالوا: إنّما حركوا بالضمّ إتباعاً لضمة التاء والراء، وذلك غلط، لأن ألف الوصل تسقط مع حركتها ولا تنقلُ حركتها، ولكنّ الحُجّة لمن ضمّ عند البصريين: أنهم كرهوا أن يخرجوا من كسرٍ إلى ضمّ، فضمّوا ليُتبعوا الضمَّ الضمَّ، كقولك: اُدخل، اُخرج"[42]، فنجد ابن خالويه هنا يرجح حجة البصريين على الكوفيين، لأن ألف الوصل تسقط حركتها ولا تُنقل، فكلٌّ من المذهبين أو المدرستين قد مارس التأويل النحوي في إثبات صحة رأيه.

وفي هذا قال ابن الأنباري: "ذهب الكوفيون إلى أن الاسم الظاهر إذا كانت فيه الألف واللام وُصِلَ كما يوصل بالذي، وذهب البصريون إلى أنه لا يوصل، أمّا الكوفيون فاحتجوا بأن قالوا: إنّما قلنا ذلك لأنّه قد جاء ذلك في كلامهم واستعمالهم ...وأمّا البصريون فاحتجوا بأن قالوا: إنّما قلنا إنّه لا يجوز ذلك لأن الاسم الظاهر يدلّ على معنى مخصوص في نفسه"[43]، إذن فالبصريون قد قدّموا الحجة على كلامهم بأن الاسم الظاهر يدل على معنى مستقل بذاته والتالي فلا يوصل، أما الكوفيون فقد اعتمدوا على السماع ببيت من الشعر في إثبات وصل الاسم الظاهر كما يوصل بالذي.

إذن فهناك مجموعة من التأويلات الخاصة بالنصوص القرآنية جاءت مختلفة بسبب اختلاف المذاهب أو المدارس النحوية في تفكيرها وقواعدها، وقد سعى علماء كل مدرسة إلى إثبات صحة آرائها من خلال القراءات أو التخريجات النحوية أو القياس أو غيره، ولعلّ أبرز هذين المذهبين أو المدرستين البصرة والكوفة.

6- تنوع اللهجات القبلية: لقد حاول اللغويون والنحويون في السنة الثانية للهجرة جمع المادّة اللغوية من قبائل العرب في شبه الجزيرة العربية، وهذا لوضع القواعد النحوية واللغوية للعربية، قال عبد الرحمان الحاج صالح: "لقد رحل اللغويون العرب إلى كلّ صُقع من أصقاع الجزيرة وكانت رحلاتهم للسماع من أفواه العرب واسعة جدا وخاصة في العصور الأولى"[44]، وبالتالي وجدوا أنفسهم أمام لهجات كثيرة ومتنوعة أو ما عرف عند اللغويين القدامى باللغات، وقد كان بعض اللغويون يختارون منها ما هو مستعمل وفصيح، والبعض الآخر يأخذ بها كلها، وكان من بين الذين يتحرون اللغة الفصيحة من القبائل هو عمرو بن العلاء حيث جاء في طبقات النحويين واللغويين: "قال ابن نوفل: سمعت أبي يقول لأبي عمرو بن العلاء: أخبرني عمّا وضعت ما سمّيته عربية، أيدخل فيها كلام العرب كلُّه؟ فقال لا، فقلت: كيف تصنع فيما خالفَتك فيع العرب وهم حجّة؟ قال: أعمل

على الأكثر، وأسمّي ما خالفني لغات"[45]، ولهذا فقد كان لتنوع اللهجات القبلية أثر في تأويل القرآن الكريم، باعتبار أن القرآن الكريم قد نزل بعدة أحرف.

ومن بين الآيات التي ورد فيها تأويلات كثيرة متعلقة باللهجات قوله تعالى: ﴿قَالُواْ إِن هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخرِجَاكُم مِّن أَرضِكُم بِسِحرِهِمَا وَيَذهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلمُثلَىٰ﴾[46]، ففي كلمة (هذان) وردت فها مجموعة من الأقوال وهي:

أولا: أن هذه القراءة (هذان) هي لغة بني الحرث بن كعب وزَبيد وخثعم وكنانة ابن زيد، حيث جعلوا الاسم المثنى نحو الأسماء التي في آخرها ألف مثل عصا وسعدى، فبم يقلبوها ياء في الجرّ والنّصب، وبالتالي تبقى كلمة (هذان) في حالة واحدة مهما اختلفت حالتها الإعرابية[47]، وعلل القرطبي لغة بني كعب في كلمة (هذان) بأنهم يجعلون رفع الاثنين وخفضه بالألف، مثل: جاء الزيدان، ورأيتُ الزيدان، ومررتُ بالزيدان، وقد ذهب إلى هذا القول كذلك أبو زيد الأنصاري، وأبو الخطّاب الأخفش، والكسائي والفراء وغيرهم[48].

ثانيا: أن كلمة (إنّ) في الآية السابقة بمعنى نعم، فقد حكى الكسائي عن عاصم أن العرب تأتي ب (إِنَّ) بمعنى نعم، وذكر القرطبي أن سيبويه قد أشار إلى أنّ (إِنَّ) تأتي بمعنى (أَجَلْ)، وذهب إلى هذا القول محمد بن يزيد وإسماعيل بن إسحاق القاضي، وأبو إسحاق الزجاج [49]، وقد قال عبد الله بن قيس الرقيات:

بَكَرَتْ عَلَيَّ عَوَاذِلِي ... يَلْحَيْنَنِي وَأَلُومُهُنَّه

ويَقُلْنَ شَيْبٌ قد عَلا ... كَ وَقَد كبِرتَ فَقُلْتُ إنّه[50]

وقد قصد الشاعر ب (إنّه) أي (نعم)، وقد استدلّ النحويون بمعنى نعم في كلمة (إِنَّ) بقول ابن الزبير لمن قال له: لعن الله ناقةً حملتني إليك، فقال: إنَّ وراكبها أي نعم ولعن راكبها.

خاتمة: من خلال ما سبق يمكن القول بأن النحو علم يختصّ بدراسة أواخر الكلمات من حيث الإعراب والبناء وتأثير عناصر الجملة على المعنى، وقد استخرجه النحويون وعلماء اللغة استقراءً من كلام العرب، وقد تطور علم النحو مع بدايته وألّف فيه النحويون وتعددت مدارس النحو حتى أصبح على الشكل الذي هو عليه اليوم.

أمّا التأويل النحوي فهو وسيلة يلجأ إليها النحاة وعلماء اللغة للتوفيق بين القواعد النحوية وبين النصوص المخالفة لهذه القواعد، وهو دراسة تراكيب اللغة من جهة الحذف والزيادة والتقديم والتأخير والتضمين والحمل على المعنى وتقدير الحركات الإعرابية، أي تخريج كل ما خالف القواعد التي وضعها النحاة واللغويون، وقد استعمل من قبل النحاة الأوائل لكن لم يوظفوا مصطلح التأويل النحوي، وإنمّا ظهر هذا المصطلح مع المتأخرين، والتأويل النحوي يختلف عن التوجيه الإعرابي، وذلك أن التأويل أعمّ من التأويل، فكلّ تأويل توجيه وليس كل توجيه تأويل.

للتأويل النحوي عدة أسباب منها القراءات القرآنية، فبتعدد القراءات اجتهد العلماء والمفسرون في تأويلها، والعامل النحوي الذي عني به النحاة وعلماء اللغة فحتى تتوافق القواعد النحوية التي وضعوها للغة كان لابد عليهم من تأويل بعض الآيات القرآنية حتى تتوافق والقواعد التي وضعوها، وكذا المذاهب الدينية، فقد اجتهد أنصار كل مذهب في تفسير القران وتأويله، وكذلك اختلاف المدارس النحوية وتعددها كان من الأسباب الهامة للتأويل النحوي، وكذا تنوع اللهجات القبلية في لغات العرب، وأخيرا محاولة بعض علماء اللغة مخالفة التراكيب اللغوية وتكثير التخريجات النحوية ،وقد كان للتأويل النحوي في القرآن الكريم نتائج كثيرة، منها محاولة فهم الآيات القرآنية استنادا إلى تأويلها النحوي، وكذا التحقق من صحة بعض القواعد التي وضعها النحويون.

الهوامش:

---

[1] المقدّمة، عبد الرحمان ابن خلدون، المركز الوطني للبحوث في عصور ماقبل التاريخ الجزائر، ط3، 2006 م، ج3، ص237.

[2] الخصائص أ أبو الفتح عثمان بن جني، تح: محمد على النّجار، المكتبة العلمية، دت، دط، ج1 ص 386.

[3]المرجع نفسه، ج1، ص 386.

[4] ينظر، المرجع نفسه، ج3، ص 238.

[5] الأصول في النحو، ابن السراج (أبو بكر محمد بن السري بن سهل النحوي)، تح: محمد عثمان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2009م، ج1، ص 39.

[6] شرح الأشموني على ألفية ابن مالك (منهج المسالك إلى ألفية ابن مالك)، أبو الحسن الأشموني تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1955م، ج1، ص5، 6.

[7] مفتاح العلوم، السكاكي (أبو يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي)، تح: نعيم زرزور دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط2، 1987م، ص75.

[8] ينظر، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك (منهج المسالك إلى ألفية ابن مالك)، أبو الحسن الأشموني، ج1، ص6، وينظر، الأصول في النحو، ابن السراج، ص 39 (الإحالة).

[9] ينظر، شرح الأشموني عن ألفية ابن مالك، ج1، ص6.

[10] الخصائص أ أبو الفتح عثمان بن جني، تح: محمد على النّجار، المكتبة العلمية، دت، دط، ج1 ص 34.

[11] التذبيل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، أبو حيان الأندلسي، تح: حسن هنداوي، دار القلم دمشق، ط1، 2000م، ج4، ص300.

[12] أثر التأويل النحوي في فهم النص، غازي مختار طليمات، مجلة كلية الدراسات الاسلامية والعربية، الامارات العربية، دبي، ع15، 1998م، ص249

[13] ينظر، أثر التأويل النحوي في فهم النص، غازي مختار طليمات، مجلة كلية الدراسات الاسلامية والعربية، الامارات العربية، دبي، ع15، 1998م، ص249

[14] أصول التفكير النحوي، علي أبو المكارم، دار غريب للطباعة والنشر، القـــاهرة، ط1، 2006م ص232.

[15] ينظر، الحذف والتقدير في النحو العربي، علي أبو المكـــارم، دار غريـــب، القـــاهرة، ط1 2008م، ص200.

[16] أصول النحو العربي في نظر النحاة ورأي ابن مضاء وضوء علم اللغة الحديث، محمد عيـــد عالم الكتب، القاهرة، ط4، 1989م، ص157

[17] ينظر، أصول النحو العربي في نظر النحاة ورأي ابن مضاء وضوء علم اللغة الحديث، محمد عيد، ص 161.

[18] سورة النساء، الآية 1

[19] ينظر، ظاهرة التأويل في إعراب القرآن الكريم، عبد القادر هنادي (رسالة ماجستير)، كليـــة اللغة العربية، جامعة أم القرى،1982م، ص12

[20] ينظر، أصول التفكير النحوي، علي أبو المكارم، ص232

[21] ينظر، أثر التأويل النحوي في فهم النص، غازي مختار طليمات، ص 250.

[22] المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي (عبد الرحمان جلال الدين السيوطي)، تح: محمد أبو الفضل ابراهيم، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، دط، 1986م، ج1، ص249

[23] إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر (منتهى الأماني والمسرات في علوم القراءات) أحمد بن محمد البنا، تح: شعبان محمد إسماعيل، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1987م، ج1، ص67

[24] سورة الأنعام، الآية 96، أما في رواية ورش فجاءت (وجاعلُ الليلِ سكنا)

[25] ينظر، التأويل النحوي في القرآن الكريم، عبد الفتاح أحمد الحموز، ج1، ص 32.

[26] العوامل المائة النحوية في أصول علم العربية، عبد القـــاهر الجرجـــاني، تـــح: البـــدراوي زهران، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1988م، ص73.

[27] نظرية العامل في النحو العربي عرضا ونقدا، وليد عاطف الأنصاري، دار الكتاب الثقـــافي الاردن، ط2، 2014م، ص49

[28] الخصائص، ابن جني، ج1، ص 109.

[29] نظرية العامل في النحو العربي عرضا ونقدا، وليد عاطف الأنصاري، ص51

(30) سورة آل عمران، الآية 49.

(31) ينظر، تفسير الفخر الرازي المستشهد بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، محمد الـرازي فخـر الدين، دار الفكر، ط1، 1981م، ج8، ص60

(32) إعراب القرآن الكريم وبيانه، محي الدين الدرويش، ج1، ص 443.

(33) تفسير الفخر الرازي، الرازي، ج8، ص 60.

(34) ينظر، إعراب القرآن الكريم وبيانه، محي الدين الدرويش، ج2، ص 443.

(35) ينظر، تفسير الفخر الرازي، الرازي، ج8، ص 60.

(36) سورة القمر، الآية 49.

(37) ينظر، اعراب القرآن الكريم وبيانه، محي الدين الدرويش، ج7، ص363.

(38) سورة سبأ، الآية 28.

(39) ينظر، إعراب القرآن الكريم وبيانه، محي الدين الدرويش، ج6، ص 241-243.

(40) سورة النساء، الآية 66.

(41) ينظر، إعراب القراءات السبع وعللها، ابن خالويه (أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويـه الهمذاني النحوي الشافعي)، إعراب القراءات السبع وعللها، تح: عبـد الرحمـان بـن سـليمان العثيميين، مكتبة الخانجي، ط1، دت، ص134

(42) إعراب القراءات السبع وعللها، ابن خالويه، ص134-135

(43) الانصاف في مسائل الخلاف، ابن الأنباري، مسألة 107، ص 584.

(44) السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، عبد الرحمان الحـاج صـالح، مـوفم للنشر، الجزائر، دط، 2012م، ص347

(45) طبقات النحويين واللغويين، أبو بكر الزبيدي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعـارف ط2، 1973م، ص 39.

(46) سورة طه، الآية 63.

(47) ينظر، تفسير الكشاف، الزمخشري، ج16، ص 660

(48) ينظر، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمّنه من السّنة وآيِ الفرقان، القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر)، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، ط1، 2006م، ج14، ص93،92.

(49) ينظر، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمّنه من السّنة وآيِ الفرقان، القرطبي، ج14، ص 93،92، وينظر، التبيان في إعراب القرآن، العكبري، ج2، ص 186، وينظر، تفسير الكشاف الزمخشري، ج16، ص 660.

(50) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، عبيد الله بن قيس الرقيات، تح: محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، دط، 2009م، ص 66.

البلاغة العربيّة ونموها في الدراسات القرآنيّة

أ. عبد القادر بن فطة

الجامعة مصطفى اسطمبولي، معسكر

مدخل: كان القرآن في حواضره العلمية ينوّر الحركة اللغوية من فيضه المتـدفّق المتصدّر في استكشاف عمق النص القرآني، وصور إعجازه في درسه فعمل العلماء في جدّية في استيعاب جزئياته تكوينا وأصالة. وكان ما قدمه العلماء والبلاغيون من جهود يبلغ بهم إلى ذروة صاعدة من بين الجهود العلمية المبدعة. فقد رسّخوا النـواة الصحيحة التي انبثقت منها البلاغية العربية، فاسترسلوا في بيان أهميتها، وملاحظـة النسق اللغوي في تشكيلها، وأظهروا قيمتها الدلالية، وتحدثوا عـن مراعـاة السـياق وترتيب الأنساق، وعرضوا للأساليب وصنوف الكلام، وترشحت من نباهتهم مباحث بلاغية أملتها عليهم طبيعة البحث اللغوي. وهم في ذلك لم يخرجـوا عـن المـنهج اللغوي المتأصّل للقرآن الكريم

نحاول من خلال هذا المداخلة أن نبيّن تجاوز البلاغة العربية بنموها لتغدو نافـذة في ملكة العلماء في التأليف، الذي نمّى قدراتهم وحرّكها ليستلوا منها صفاء إنتـاجهم فاسترسلوا في بيان قيمتها الدلالية التي ساهمت في تقوية بنية القراءة القرآنية لإبـراز جمال النص القرآني من منابعه اللغوية التي تكسبنا القدرة على التذوق، وتوصلنا إلى صورة مثالية مقنعة لإدراك عظمة كتاب الله.

حقيقة البلاغة العربية: إنّ البلاغة العربية في الموروث العربي كانـت تشـكّل رؤية تحمل ملامح ذات الشاعر، وهو يضفي علي ألفاظه محسوسـاته مـن خـلال تجربته النفسية والفنية تعكس هويته الإبداعية. فقد كانت أكثر قوة لأوصال المجتمـع الجاهلي، استقطبت الوحدة عن طريق القصائد الشعرية جعلته يعيش حيـاة حاشـدة بالتجربة الطاحنة شكّلت الطاقة الوجدانية العفيفة وجمال الوعي. ظلت تهـيمن علـى

نفوسهم ملحقة بها الإباء والنخوة، حتى بزغت البلاغة القرآنية بجمالها تفيض خيــرا فتجاوزت الأداء العربي إلى أداء صريح استمال الألباب، وضخّ في النفس الســكينة حتى غدت امتدادا عفويا بظلالها الجمالية.

لقد تمرّدت البلاغة القرآنية على النمط العربي لتغدو نافذة في ملكة العلماء فــي التأليف، ولم يجدوا متنفسا لهم إلا في سموّها الذي نمّى قدراتهم وحرّكهــا ليســتلوا منها صفاء إنتاجهم، فأدركوا أنّها تتّسم بالانفتاح الحسي والجمالي «للقــرآن مســحة خلابة عجيبة تتجلى في نظامه الصوتي، وجماله اللغــوي، ونريــد بنظــام القــرآن الصوتي: اتساق القرآن وائتلافه في حركاته وسكناته، ومداته وغنّاتــه، واتصــالاته وسكتاته، اتساقا عجيبا وائتلافا رائعا، يسترعي الأسماع، ويستهوي النفوس، بطريقــة لا يمكن أن يصل إليها أيّ كلام آخر من منظوم ومنثور.[1]

لو تأملنا هذه البلاغة لوجدناها مشحونة بالجمال الذي يحمل البهجة الغامرة التــي اجتاحت أعماق النفوس المطمئنة لتنفلت من الهموم، وتنغمر فــي أجــواء روحانيــة مفعمة بالرحمة الإلهية «ونريد بجمال القرآن اللغوي، تلك الظاهرة العجيبة التي امتاز بها القرآن في وصف حروفه وترتيب كلماته، ترتيبا دون كل ترتيب تعاطــاه النــاس في كلامهم، ولقد وصل هذا الجمال إلى قمة الإعجاز.[2]· إنّ مهمــة البلاغــة فــي إطارها اللغوي أداة روحية مباشرة، تقوم على أساس من قدرة التعبير عــن مظــاهر الوجود الحيّ الذي وجد المتلقي نفسه ملتزما به بحكم الإعجاز. وإنّــه ليقــف أمــام الغزارة والتنوع التعبيري تستحقّ إيفاءها حقّه من الوقوف والبحث.

اليقين العميق بأنّ فضل البلاغة القرآنية لا يقف عند الفائدة العلمية، بل هناك سمو في الجمال الخلقي يصدق بقدر من التأنّه والعفاف فالقارئ يجد نفسه أمام ما تعرضــه الآيات القرآنية من مضامين تتجاوب مع الموقف المسبب لهذا الجمال البلاغي فعنــد قوله تعالى: ﴿رَبّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُــؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَــاتِ وَلاَ تَزِدِ الظّالِمِينَ إِلاّ تَبَارا﴾نوح2 فالآية بنسيجها البلاغي تصورّ الضلال والزيغ وما

يولده من إحساس يؤدي المعنى الحقيقي، فما كان على نـــوح عليـــه الســـلام إلا إن يتوجّه إلى الله بدعاء متّسم بإيقاع عنيف تتتابه موسيقى مهيبة. فالتعبير صادر عـــن بشر مرسل جاهد كثيرا وعانى طويلا.

فإيقاع المفردات يحمل بيانا دقيقا على صبر نوح وعناد قومه، فنلمس تعبيرا بديعا وتصويرا فريدا يخلق في النفس التجاوب مع اللهجة المؤثرة عن نوح عليـــه الســـلام وإدراك أطماع القلوب الداعية. وهذا الإيقاع يجعل القارئ يعيش مع المشاهد، وينتقل من مفردة إلى أخرى دون عناء رابطا بداية الآية بآخرها. وقد طغى علـــى التعبيـــر توازن ذو نغمات معبرة، وبالمقابل نجد دعاء لطيفا على لسان زكريا عليه السلام قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُـــنْ بِـــدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّاً﴾ مريم4 إيقاع الآية مَرِن يعكس حكمة زكريا ويبعد عنه العقدة رغم أنّـــه كـــان محروما من الولد، ويجعل ألفاظ النص واسعة الدلالة اجتمعـــت، واتســـعت لتعبّـــر بإيضاح عن قصد هذا النبي الكريم.

إذ لم تكن بلاغة القرآن يوما من الأيام أضعف فعهد قوتها تجاوز القرون، ولم يبد الهون عليها، فهيمنت هيبتها وتحولت ذات قوة وسلطان، فتفتّحت أعين العلماء عليهـــا وهي يومئذ ميدان للإنتاج والإبداع، فامتدت إلى أصحاب المذاهب والعقائد، فاستقرت الأذهان بعد ما كانت مضطربة، وتلقّت النفوس الجلد بقدر مـــا كانـــت تعـــاني مـــن خصومات المناظرات بين الملل والنحل. ولو لم تكن هذه البلاغة ذات جمال ومنعـــة ذوقية لما اتّخذت لنفسها القوة والتنزّه «لقد أثبت القرآن جدارته بصـــفة الـــربط بـــين المتلقي والنص بوشائج متينة، وهذا الاستحقاق يكمن في ديمومة ربط المرء بالواقع: الواقع النفسي القدرة على إثارته على ومرّ العصور، فتنبش في مكونات أساسية فـــي السلوك البشري، وههنا مخاطبة الخالق لما خلق.»[3]

لقد كان لها أثر كبير في حياة الفكر ونشاطه بلغت منه مبلغا عجيبا في رقيّ نشاط العقل، فكانت سلاحه المسخّر في ميدان القلم واللسان، وصلت به إلى مرحلة الإنتـــاج

الأصيل والجديد بعد أن كان يتخبّط في الركود والتقوقع، فامتلأت الرفوف بالكتب فكان نتاج العقول مختلفا يجمع بينها التمازج والتفاعل تحت إمرة خصائصها الأصيلة فاتّسع نطاقها، وظهر في ميدانها عدد من نوابغ العلم الذين تعددت ثقافتهم في جوانب متعدّدة من فقه وبلاغة. فقد أسهبوا في إظهار ضوابطها من خلال لغة القرآن ووظفوا ملكتهم في التعامل معها فهي مبنية على القوانين تحكم دلالات الألفاظ والتراكيب. وألغت مبدأ التبعية قصد تطوير النظام اللغوي وجعله منارا يبعث شعاعه لكشف فلسفة هذا العلم وحلّ عقده، وقد سلك علماؤه الاتجاه العلمي للإفهام والإقناع في تحليل مسائله، فاستقرِؤوا اللغة لاستخلاص الأصول، فكانت قياسا يثبتون بها القواعد للتعليل والإلزام. وقد ارتكز الدرس البلاغي على التأويل بإعمال المنطق والاجتهاد في فهم النصوص والوصول إلى التخريجات. فالمنطلق الذي تأسّس عليه هو النص القرآني بعد أن استقرت لغته لدى البلاغين فوقفوا عند دراسة قضايا بلاغية لمعرفة الأسس ونظامها في السياق.

فالبلاغة اختطت منهجيتها من القرآن الكريم، وأدخلت في بناء النظام اللغوي للعربية. فكانت علومها ذات طابع ثابت، وموضوعاتها تأخذ الصدارة في الدراسات ذات الصلة بالعلوم المعرفية. فجعلها القرآن عنصرا في التفكير ووسيلة في نقل المفاهيم لغزارة المعاني والمقاصد، وصارت لغة المصطلحات العلمية لدى الفرق الدينية والمذاهب العقلية. فوجدوا في مكوناتها الغاية في تحقيق المعالجة المنطقية للتصورات المخزونة بصور أفضل وأكثر نضجا، فاستقرت مفاهيمها في دلالتها. فبفضل القرآن أصبحت ركيزة رئيسة لدى أهل العلم من أصوليين ولغويين ومفسرين. فما قدمه القرآن للبلاغة من إضافة نقّح المادة اللغوية لذوي الاختصاص في اللغة لتوثيق علمهم.

فوجدت البلاغة أوج نشاطها في حضن القرآن الكريم، فنضجت المسائل وتأصّلت المصطلحات. ولذلك انبرى البلاغيون إلى وضع آليات كفيلة بالحفاظ على النظام البلاغي في الكتابة. وعظم ذلك بملامسة ما يكتنزه النص القرآني من بيان وبديع

ومعاني. حفّزهم إلى تصنيف المؤلفات تكون حصيلة ثراء استلهمه أهل البلاغة لينتفع به علماء اللغة والشريعة. فقد أمدّ القرآن الدرس البلاغي بذخيرة بلاغيـــة للاحتجـــاج بالكلام الفصيح للتأكيد على مرجعية القرآن في الموازنـــات البلاغيـــة، واســـتنطاق حقيقتها المبثوثة في التراث.

ولعل أكثر ميادين العلوم قربا منها علوم اللغة والقرآن، وذلـــك لأنّهمـــا تعنيـــان بمعرفة كنهها وحقائقها، وأهل العلمين هم معدن هذه البلاغة، فقد بيّنوا الحاجة إليهـــا وطريق تحصيلها لأنّ الغاية عندهم الإحاطة بجوهرها حتى لا يخرج المـــتعلم عنهـــا فهي لا تحتمل الزيادة والنقصان، فقد رعوا خصوصيتها وضرورة بعدها عن التنافر. فهي ثورة تتناغم مع مبادئ القرآن الكريم، ولازمة تعصم لغته من الطاعنين وتحميها من ابتزاز عنادهم، وستبقى الرادع لألدّ أعدائه. فلا عجب أن يكون جمالهـــا محطـــة إلهام، ومهبط إشراق، وركيزة عقدية في استقامة الرؤى وتنوير الأفكار. ففي القـــرآن مشاهد تصور مصير البشر يوم القيامة، واختلاف التعبير الفني بينهما قـــال تعـــالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ الزمر 71 هذا مصير الكفرة فهم اليوم فـــي خـــزي إنّها حقيقة عميقة ينقلها القرآن الكريم في كلمات محدودة متكاملة فـــي اتجـــاه واحـــد لطيفة السياق اختار لها مقاطع مؤتلفة المعاني مرتبطة جمال التعبير البلاغـــي مـــن بدايته إلى نهايته، تعبير يحمل صور التهديد الخفيّ بسوء العاقبة، يظهر هيئة العصـــاة في تعبير عجيب.

وبالمقابل هناك مشهد تخفق له الأفئدة وتطمئن إليه الأرواح قال تعالى: ﴿وَسِـــيقَ الّذِينَ اتّقَوْاْ رَبّهُمْ إِلَى الّجَنّةِ زُمَراً حَتّىَ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُـــمْ خَزَنَتُهَـــا سَلاَمٌ عَلَيْكُـــمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ الزمر73 في هذه الآية تجاوب الكلمـــات فيهـــا نبرة لينة ورأفة يضفيها الموقف. فخطاب الله لهذه الفئة امتاز بالتشـــريف والتعظـــيم

واحتلت كل كلمة مكانها المناسب، وارتبطت بغيرها من الكلمات، واختـــار التعبيـــر الخاص عن المعاني التي يراد إثباتها في ذهن السامع يخلق جوا نفسيا منفرد.

فالبلاغة القرآنية بمعناها العميق الشامل الذي يضفي على المعاني صفات ملموسة تتجلى للبصر، وينطوي على اعتبارات أبعد مدى وأكثر أهمية من مجـــرد صـــورة للأساليب، فإنّها تتطلب معرفة وذوقا. فهي تهتم بنمو العلوم في جو تسوده الراحة أي كل ما يتعلّق بالأمانة العلمية، وتشمل حركة المرور، وتأمين نقل معانيها، فـــي جـــو مريح هادئ وغير منهك للأعصاب. فالبلاغة في القرآن كائن الذي يساهم في تـــوفير التفكير النقيّ، ويؤمّن مساحة الإنتاج العلمي لتأدية وظيفة صـــحية للعقـــل ووظيفـــة جمالية للنفس اللذين يمتّعان المتلقي بمناظر خلابة تبدّد السأم، وتفتح أســـارير الـــنفس «واعلم أنّ لكل معنى نوعا من اللفظ هو أخصّ به وأولى، وضربا من العبارة، هو بتأديته أقوم، وهي فيه أجلى وما إذا أخذ منه كان إلى الفهم أقرب، وبـــالقول أخلـــق وكان للسمع أدعى، والنفس إليه أميل»[4]

إنّ التعرّف على جمالها يتطلّب اقتفاء أثر الأوائـــل بـــدءا بالصـــاحبة والتـــابعين للوقوف على عناصره الأصيلة، فهم أساس صلاحيته. فقد وضعوا المقومات الأولـــى من خلال تلاوة القرآن كما سمعوه عن الرسول صلى الله عليه وسلم أثناء صـــحبتهم له، وعن صحابته، والحفظة من بعدهم. فكانوا يلتزمون بما أقرأهم به حرفـــا حرفـــا وحركة وسكونا «في كلّ بلد ومصر وجماعة كانوا يقرئون الناس ويأخذون القـــراءة عنهم عرضا آية آية، وكلمة كلمة، ومدّة مدّة.» [5]

إضافة إلى ذلك أنّ أهم مظاهرها الأصيلة الاستقرار المـــرتبط بالإعجـــاز الـــذي أكسبها موقعها الحصين في لغة القرآن، فجذب إليها الملكات النقيّة للعيش معها فـــي أمن، فكشفت عن أصالتها في الفهم والقدرة على الابتكار، ولم تلبث حتـــى تمخّـــض عنها ازدياد في النشاط الفكري والثقافي للدراسات القرآنية واللغوية خدمـــة للقـــرآن

الكريم لفهم ما يصعب من دقائق الأساليب. فاستقرار البلاغة القرآنيــة شــكّل أهــم مقوماتها لأنّه وجد الأرضية خصبة في النص القرآني للاستعانة بــه فــي التحليــل والتقعيد، ووجود الحاجة العلمية عند المتعلّم في إتقان فهم علوم العربية.

فالاستقرار البلاغي نشأ على أساس تخطيط رباني، ودراسته على الورق يجــب أن تكون عميقة، لأنّه أخذ أبعادا جديدة تتساير وتطور العلوم، وقــام بتغييــر شــامل وتشكيل جديد لخواص الكتلة اللغوية. توالت الحقب، استنبط العلماء تنوّعا معقولا في البلاغة القرآنية من حيث جمالها، وكان التركيز على استقرارها الذي طبع تصاميمها بالمرونة، إذ كان داخل أسوار النص القرآني يعزلها عن الدخيل الحوشي والســوقي. فقد أكسبها بداعة، وزاد في تمدّدها وتكيّفها لمعطيات الطور اللغوي.

إنّ هذا الاتّساع وتزايد أهل العلم عليها ناجم عن آثار الاستقرار دعا الباحثين مــن فروع العلم المختلفة للمشاركة في تثويرها. فالحاجة إلى تحســين الوضــع العلمــي وتنظيمه كان في الحقيقة من باعث استقرار البلاغة جماليا، فقد أمّن للمتعلم الهــدوء والراحة في محيط علمي صحي، وجنّبه جمود وفوضى الأســاليب الوضــعية التــي كانت ضمن رقعة محدودة أقبرتها تعقيدات النعرات الجاهلية قــال (البــاقلاني402ه) «هو أدقّ من السحر، وأهول من البحر، وأعجب من الشعر، وكيف لا يكــون ذلــك وأنت تحسب أنّ وضع الصبح موضع الفجر، يحسن في كل كلام، إلا أن يكون شعرا أو سجعا، وليس كذلك فإنّ إحدى اللفظتين قد تنفر في موضع، وتزلّ عن مكــان لا تزلّ عنه اللفظة الأخرى، بل قد تتمكن فيه.»[6]

لم يقتصر جمال البلاغة القرآنية على الاستقرار بل كان هناك مظهر آخر هندس شبكة أساليبها وتراكيبها القرآنية حتى صارت كالحدائق خلابة، ساهم في تنسيق أفكار العلماء، وتحديد نوعية المفردة لمختلف التراكيب من أجل توفير أعلى درجات الرقيّ وعناصر الجمال ألا وهو الانسجام الذي أبعد الفوضى والانزعــاج والضــرر عــن

جمالها، (قال الرماني 909ه) في الذوق السليم الميّال إلى عذوبة التعبير في القرآن الكريم «والسبب في التلاؤم تعديل الحروف في التأليف، فكلّما كان أعدل كان أشدّ تلاؤما، وأمّا التنافر فالسبب فيه ما ذكره الخليل من البعد الشديد أو القرب الشديد. والفائدة في التلاؤم حسن الكلام في السمع، وسهولته في اللفظ، وتقبّل المعنى في النفس، كما يرد عليها من حسن الصورة وطريقة الدلالة.»[7]

فالانسجام يبني البلاغة بشكل متين وعجيب خال من التعرّج، لا يترك فرغات للطاعنين لينفذوا إلى أعماق النص فيجفّفوا هيكلها، فتغيب أشكالها الزخرفية والجمالية فعند قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ غافر18 فالألفاظ التي تتألف منها هذه الآية تنسجم مع المعنى والجو الذي يدور في إطاره النص تتحقق صورة الحزن. ونلاحظ تردد المفردات تشير إلى الرعب والوعيد فكلمة (أنذر والآزفة) تدلان على صوت الأسى والتهديد، فإيقاع الكلمات يشعر بعمق المضمون وحقيقة المشهد. فقد نقل لنا صورة اجتمعت فيها أسباب الوعيد «جد البناء التعبيري قويا بجملته وتفصيله، بحيث نجد بالأصوات زاجرة زجر ما تحمله من معاني، فالشكل والمضمون وحدة متفقة السمات والخصائص.»[8] فقد أعطاها القرآن طابع الثبات مما جعلها مستقرة وآمنة، وأضفى عليها البساطة والمتعة، وقد منحها أهمية خاصة لكونها تمدّ الحماية للغة القرآن، كما أنّها بمرور الزمن أصبحت لها السيادة في التأليف. كما سمح للعلماء أن يقدّموا قمة إنتاجهم من تنظيم أفكارهم وفق مبادئ القرآن، يمنع الانتهاك والتجاوز الشخصي للنظام اللغوي للقرآن الكريم.

فالانسجام جعل جمال البلاغة القرآنية على محور هندسي واحد، والملاحظ عليها وجود العلاقة الذوقية الجلية سواء كان المتلقي عربيا أو عجميا. فهي مصمّمة كوحدات مرتبطة فيما بينها، إذ أعطت أبعادها ومقاساتها بشكل مدروس مع إعجاز

فعند قال تعالى: ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ يوسف32 فصيغة (ليسجننّ وليكونا) هناك تناسب في الإيقاع ما بين الكلمتين بنون التوكيد الثقيلة والخفيفة والوقف عليها. فهذه النون بنوعيها المسبوقة بالقسم أضفت على الجملة نغما يوقظ النفوس التائهة بالعودة إلى ربّها، كما كشف لنا عن طبيعة المقام. فجمال التصوير رسم لنا صورة المرأة وهي مشدودة إلى عرض الحياة الدنيا في أزهى حالة، إنّها في موقع تجد ما تشتهي، ولكنّها مع يوسف عليه السلام بهذا الإيمان والعفّة لم تحصل على غرضها. فهذه الآية أكثر إيحاء في تصوير ما وراء الواقعة من بلاء.

فقد أولى القرآن الانسجام أهمية خاصة في إضفاء الجمال على البلاغة القرآنية بجعل القوة والراحة من أعمدته لاستمالة الشعور اللامنتهي للمتلقي. فالانسجام يمثّل المظهر المعماري لجمالها، والمشرف على فضائها تتجمّع حوله الدلالات والمقاصد طبقا لغاية ومنهج مقصودة في النظام اللغوي. لقد كان أثره جوهريا انعكس على النواحي الفنية والجمالية، إذ غدت كالنصب التذكاري فاخرة البهاء، مزيّنة ومزخرفة ترمز إلى ارتقاء اللغوي للقرآن الكريم.

لقد قاد هذا الطراز المتميّز للبلاغة القرآنية إلى زيادة الطلب المستمر عليها، وشغلت أفكار العلماء. فقد كانت تغذي الحركة اللغوية من فيض جمالها المتدفّق المتصدّر في استكشاف عمق النص القرآني، وصور إعجازه في درسه وعملوه في جدّية في استيعاب جزئياته تكوينا وأصالة. وكان ما قدمه العلماء من جهود يبلغ بهم إلى ذروة صاعدة من بين الجهود العلمية المبدعة.

جهود العلماء في تأصيل البلاغة العربية: لقد بذل العلماء جهودا سخية في مجال تأصل البلاغة العربية، وقفوا إلى جانبها يدافعون عنها، ويواجهون العجمة والرطانة من خلال وضع ضوابط وآليات الكتابة كما فعل الجاحظ وعبد القاهر الجرجاني. وقد نتج عن هذا الاهتمام تأصيل وتطور للبلاغة العربية ساهم القرآن الكريم في ذلك

حيت جرت لغته على الألسنة، فقد أصبحت البلاغة العربية لغة التخاطب والحوار العلمي حملت طاقة من المصطلحات العلمية والأدبية.

لقد ضربت البلاغة العربية بأصالتها أعماق الدرس اللغوي، هيأ لها القرآن المقومات لاحتضان الألفاظ الراقية والمعاني الفياضة والأساليب الجديدة والتراكيب المتنوعة. ولعل من معالم الأصالة أنها أمدت التراث اللغوي بالثوابت التي تنير الفكر العربي. فهي حاملة لمجموعة من الخصائص البلاغية الممنهجة علميا أدرك أصحابها ضوابطها وأصولها إدراكا عميقا، وقيدوها بمعايير لغوية كمعيار الاستدلال والاحتجاج على منوال الأصوليين في طريقة استقراء النصوص.

إن أبرز شيء في جهود العلماء ما يظهر في كتبهم التي ركزوا فيها على الدرس البلاغي، وأشاروا في مواطن كثيرة إلى روعة المعاني ودقة انسجام المفردات في مبانيها، وتنسيقها تنسيقاً يتناسب مع قوة الأسلوب والرقة في البيان، ثم إحكامها في الربط بحيث تستولي على ملكة المتلقي لهذا القرآن الكريم فقد استوعبوا جمال اللغة ووقف على كونيتها.

فالبلاغة العربية تتميز بمسحة بديعة، تظهر في نظامها، وجودة البناء في حركة المفردات وتساوق الجمل إلى أن بلغت السمو في الأنماط، وتلوين مستويات الخطاب.

ومن الأوائل الذين وقفوا عند هذه التراكيب (الجاحظ 255ه) الذي أبرز الجوانب البيانية التي تتماشى مع نظام اللغة العربية بطريقة علمية مؤسسة. فقد رأى أنّ طبيعة البلاغة العربية تملك آليات تفرض على أصحابه المعارف اللغوية المدعّمة بالملكات لضبط محتوياته ومقاصده. والظاهر من مؤلفاته أنّه فهمها فهما عميقا لاعتماده على معرفته لأسرار العربية جعله يدرك أساليب التعبير وما تنفرد به من نظام متكامل لفظيا ودلاليا.

فقد رصد حركة البلاغة في الحقل اللغوي، فاهتم بمسائلها لاستنباط الأحكام من النصوص. لذا نجده يعالج موضوعات كثيرة في كتابه البيان والتبيين وأكد على

ضرورة البلاغة في إدراك أسرار التراكيب ودلالتها. فقد ساهم الجاحظ في وضع اللّبنة الأولى في تأصيل أسسها، فلم يغفل عن شيء يستحق الخوض فيه.

أبدع (الجاحظ) في كتبه التي طرح فيه مسائل كثيرة. فهي تشكّل ذخيرة بلاغية يغلب عليها الاستقصاء والتعمق في التحليل، واستنباط المبادئ والأصول من الجزئيات. تميز بفطنته وحسن تصريف الكلام والكشف عن المعاني بوجوه الأداء وأصول البيان. إنّه يمثل قفزة هامة في الدراسات البلاغية التي اعتمد عليها العلماء والباحثون قديما وحديثا في منهج البحث العلمي، والحركة اللغوية كما كان لعبد القاهر الجرجاني إسهام في خدمة البلاغة العربية، فقد عكف على دراسة أسرارها، وعرف كيف يقترب من بلاغة القرآن بأسلوب علمي جمع فيه بين ثقافته الخاصة وذكائه بغية التوفيق بين البيان والمعاني فهو أشبه بعلماء الشريعة حتى أصبح مرجعا يعود إليه العلماء للاستشهاد بآرائه في التفسير.

لقد عني بخدمة القرآن، وانصبت دراسته على بلاغته ومعانيه، وكان يرى لا سبيل إلى مبتغاه إلا بالوقوف على أسرار القرآن البيانية، وإدراك دقائقه، والإلمام بأساليب العربية، وكان حاضرا بذهنه وفطنته، فلا يقبل على كتاب الله وكلام العرب إلا مبينا للمعاني وأضرب الكلام. فأسرار البلاغة ودلائل الإعجاز القرآن كانا فسيحين للظواهر البلاغية المتنوعة، وغنيين بالمسائل اللغوية مضفيا عليها استقراءه متذوّقا جمال البلاغة وسموّها.

أمّا (عبد القاهر الجرجاني400ه) فقد أظهر في كتابيه قدرة فائقة وثقافة واسعة في الإحاطة بأسرار البلاغة القرآنية، وخفايا الأسلوب العربي بحث في المسائل التي تبدو غامضة، إلا أنها في الحقيقة مُحكمة، وضع فيه أبوابا تنزّه القرآن من اللحن وتدحض المدّعين، ودمغ من رمى العربية بالقصور «أول من أسس هذا الفن قواعده وأوضح براهينه، وأظهر فوائده، ورتّب أفانيه.»(9). لقد أحسّ بضرورة التقرب من البلاغة العربية لمواجهة التحديات ومنها ظاهرة اللحن، وعدم الاكتفاء بغرائب

الكلمات وشواذ الصيغ، بل فهم أسرار بلاغة، وإدراك إعجازها الذي أعطى التفوق لها.

فقد اتّجه (عبد القاهر الجرجاني) إلى إثبات الارتقاء البلاغي القرآن الكريم ونظمه، وعمل مخلصا على التماس الدقّة في التغيير والتجديد في البلاغة العربية. لقد اجتهد في سبيل حماية البلاغة العربية من خلال مؤلفاته مبينا فيها التجديد والقدرة على التعامل مع اللسان العربي.

إنّ تمسّك أهل البلاغة بهذا العلم لم يقفوا عند ارتقائها إنّما أبانوا على أنّها جوهر الحضارة العربية الإسلامية تتّصل بوجود الأمة. فإبداعهم في التعامل معها وطّن جمالها، وعمّق وعيهم بأهميتها في الحياة العلمية. فحرصهم تخطى عقبة اللحن بوضع ضوابط تصون البلاغة العربية، فكان ما وضعوه إشراقا لعصمتها من الابتذال، فلم يخل حديثهم في المسائل البلاغية من الاستشهاد بالقرآن الكريم.

فقد أسهبوا في إظهار ضوابط البلاغة العربية من خلال لغة القرآن ووظفوا ملكتهم في التعامل معها فهي مبنية على القوانين تحكم دلالات الألفاظ والتراكيب. وألغت مبدأ التبعية قصد تطوير النظام اللغوي وجعله منارا يبعث شعاعه لكشف فلسفة هذا العلم وحلّ عقده، وقد سلك علماؤه الاتجاه العلمي للإفهام والإقناع في تحليل مسائله، فكانت قياسا يثبتون بها القواعد للتعليل والتأويل بإعمال المنطق والاجتهاد في فهم النصوص والوصول إلى التخريجات. فالمنطلق الذي تأسّست عليه هو النص القرآني بعد أن استقرت لدى أهلها فوقفوا عند دراسة قضايا بلاغية لمعرفة أسسها ونظامها في السياق.

كما حظيت البلاغة العربية بأهمية واسعة لدى الأصوليين لأن الاستدلال على الأحكام الشرعية متوقف على فهم الخطاب الشرعي، وهذا الفهم ينبغي أن يكون فهمًا دقيقا ومضبوطًا بضوابط التفسير بحيث تراعى فيه الضوابط البلاغية المتعلقة بالبيان. فالبلاغة سبيل لاستيعاب الكلام، وإدراك العلوم، فقد وضعت مقاييس للتحكم في الدلالة التي هي محور علم أصول الفقه. فاهتمّ الأصوليون بها لاستلهام الأحكام من

النصوص القرآنية، وقد شدّد (الشافعي204ه) على ضرورة الإحاطة بالمستوى اللغوي وعلى رأسه البلاغي للوقوف على مقاصد النص «ما جهل النــاس ولا اختلفــوا إلا لتركهم لسان العرب، وميلهم إلى لسان أرسطاطاليس...، ولم ينزل القرآن ولا أتــت السنة إلا على مصطلح العرب والاستدلال لا على مصطلح اليونان، ولكل قوم لغــة واصطلاح ومذاهبهم في المحاورة والتخاطب والاحتجاج.[10]

لقد كان علم أصول الفقه بحاجة إلى البلاغة وضوابطها، فالدرس البلاغــي فــي القرآن أمدّ الأصوليين بمناهجه تساعدهم في صياغة آرائهم، وتسديد اجتهادهم خاصة في الدلالة التركيبية.

فنظرا لأهمية علم الأصول اعتنى أهله بكلّ ما يتعلّق بلاغة لقرآن للتوصل إلــى المقاصد من خلال ما يضمره اللفظ بغية تأصيل المعايير في استنباط الأحكام الناتجــة عن تغيّر الواقع وفقا لتطور الزمن، وقد أدرك الأصوليون الصلة القوية بين بلاغــة القرآن والنص فهي تقودهم إلى فهم أسراره والوقوف على الفكرة الجوهرية، وتحديد الغاية.

ومن الأصوليين الذين أصّلوا للبلاغة العربية (الشافعي) فهو واضع علم أصــول الفقه ورائد الأصوليين، وقد أدرك أنّ اللغة أعم من العلوم المختلفــة «واعلــم أكثــر اللسان في أكثر العرب أعم من علم أكثر سنن العلماء.» [11]

فقد ركّز على البيان الذي استمدّ قوته من علاقة اللفظ والمعنى وأنّ المعنى أســبق من اللفظ، وقد توصّل إلى نقل بعض الألفاظ من الاستعمال الشائع إلى مفاهيم شرعية «ألفاظ الصلاة، والصوم، والحج، والزكاة وكانت هذه الألفاظ تستعمل بوصفها اللغوي للدعاء والإمساك، والقصد والنمو على الترتيب إلا أنّها في الشريعة اكتسبت مفــاهيم جديدة ارتبط بعبادات معروفة حتى تحولت إلى المصطلحية.» [12]

ومن المباحث التي أثارها قضية اللفظ الظاهر، والنص في آن واحد وقرّب بينهما« وما أطلقه الشافعي فإنّه سمى الظاهر نصا، وهم منطبق على اللغة ولا مانع منه في الشرع، والنص في اللغة بمعنى الظهور تقول العرب: نصت الظبية رأسها إذا رفعته وأظهرته.»(13) فتناوله هذا الموضوع حين تكلم عن البيان لأنّه يؤدي إلى استنباط الحكم الذي يستدل به المجتهد.

وقد حدّد أطراف البيان الأربعة. «–المبيِّن: وهو الذي يقوم بعملية الإبانة كالشارع في النص الديني من قرآن وسنة، أو المجتهد الذي تمرس بحياة الشريعة.

– البيان: وهو الدليل الموصول إلى معرفة الحكم المطلوب، ويتناول الكشف عن المقاصد.

– المبيِّن: وهو عبارة عن اللفظ الذي تتضح دلالة بحيث يعرف المراد منه.

– المبيِّن إليه: وهو المتلقي للأحكام والسامع لها، وقد أثار الشافعي ذلك بأنّ تلك المعاني المتشبعة ببيان لمن خوطب بها، وممن نزل القرآن بلسانه متقاربة الاستواء عنده، وإن كان بعضها أشدّ تأكيدا ببيان من بعض، ومختلفة عند من يجهل لسان العرب.» (14)

والذي نستخلصه أنّ الشافعي حكّم منطق البلاغة العربية، وكان اهتمامه كبيرا بها، واستطاع الإلمام بضوابطها. فالذي توصّل إليه امتاز بالنضج، ورؤية شاملة انبعثت من إحاطته بها على أنّها وسيلة للفهم واستنباط الأحكام، فقد اهتدى بفطنته إلى الإبانة عن كثير من أسرارها، وهذا ما نجده مبثوثا في كتابه الرسالة.

وقد سلك الأصوليون بعد (الشافعي) هذا المسلك الذي تناول تلك الموضوعات اعتمادا على اللغة، والذي يؤكد على دراستها للوقوف على معرفة التأويل الذي يساعد على فهم النص، وأثرها الكبير في التمييز وإدراك الفروق.

ومنهم (الآمدي631ه) الذي اهتم بالمسائل البيانية بغية استنباط الأحكــام الشــرعية من النصوص الدينية. لذا نجده يعالج موضوعات كثيرة في كتابه (الإحكــام) وعلــى رأسها الحقيقة والمجاز «أم علم العربية فلتوقف معرفة دلالات الأدلــة اللفظيــة مــن الكتاب والستة، وأقوال أهل الحل والعقد من الأمة، على معرفة موضوعاتها لغة، من جهة الحقيقة والمجاز والعموم والخصوص والإطلاق والتقييد والحــذف والإضــمار والمنطوق والمفهوم والاقتضاء والإشارة والتنبيه والإيماء وغير مما يعرف في غيــر علم العربية.»(15)

كما بحث في موضوع التأويل لمعرفة الدلالة، فاتخذ البلاغة مفتاح التعمــق فــي مضامين النص القرآني «حمل اللفظ على غير مدلوله الظاهر منه، مع احتمــال لــه بدليل يعضده.»(16)

وحدّد الآمدي شروطا للتأويل منها موافقته للغة أو البيان أو الشريعة، أي صاحب بلاغة ومعرفة بالقرآن والسنة معرفة دقيقة. وكما خاض في موضوع البيان الذي فتح بابه الشافعي والذي اختلف فيه الأصوليون «فاعلم أنّه لما كــان متعلقــا بــالتعريف والإعلام بما ليس بمعروف ولا معلوم وكان ذلك مما يتوقف على دليل والدليل مرشد إلى المطلوب وهو العلم أو الظن الحاصل عن الدليل.»(17) من التعاريف التي نقــدها ما ذهب إليه (أبو بكر الصيرفي 330ه) وهو من أصحاب الشافعي «إخــراج الشــيء عن حيز الإشكال إلى حيز الوضوح والتجلي أو تعريف أبي عبد الله البصري وغيره (أنّ البيان هم العلم الحاصل من الدليل.»(18)

فنظرة (الآمدي) إلى البيان كانت علمية مؤسسة على تعيين مدلول اللفظ المتوخى إيضاحه في التركيب، وتظهر فطنته في إبراز الجوانب الدلالية في المواطن المختلفة من النص التي تتماشى مع تعاليم الشريعة. ولم يتوقف عمل الرجل هنا بــل تطــرق

إلى دلالة الاقتضاء وهي نوع من أنواع الإشارة وهي ما كان المدلول فيه مضمرا إمّا لضرورة صدق المتكلم وإمّا لصحة وقوع الملفوظ به.

لقد أثرى القرآن البلاغة بطابع الكونية الذي لا يعرف التصدعات في بنيته، ولا التغيرات في قواعده، فأصبحت تملك روافد لكل المصطلحات مما ساعد أهل البلاغة من الدخول إلى التقعيد والتأليف، ومنحتهم القدرة العقلية العلمية على مواجهة اللحن الأمر الذي دفع بهم إلى التأليف، ووضع الضوابط لتمكين المتعلم من فهم أسرار الكتاب، وتعبئتها روحيا حتى لا يتوغل الدخيل إلى لغته. حقق لها القوة في استعمال التصوير الدقيق، والمنطق المقنع عن طريق نظمه الذي قرّب المعنى إلى الذهن فتمتلكه حاسة النظر في التعابير التي ارتسمها القرآن، إنّها لفتة عجيبة إلى تداعي المشاعر عند ذوي الأبصار، تسمو فيه الفصاحة، وتظهر فيه البلاغة ويلج به الكلام من العادة ويتجاوز العرف.

إنّ التأصيل البلاغي عند العلماء أساسه الاعتناء بالبيان لتحقيق المقاصد حتى تتّفق مع الشريعة. فالبلاغة العربية تجمع بين الذوق والنظام العقلي، فأثرت اللغة بطرق الأداء وسائل التعبير، فاجتهاد علماء البلاغة انطلق من نظام اللغة ومناهجها فتركيب الجمل، وصياغة الأساليب منبعهما عمق اللغة فإذا زاغت عنها لحقها الخلل وأصابها الابتذال «ولا يعقل أنّ صاحب السليقة اللغوية يخطئ، إلا إذا نطق بلغة خاصة يتمسك فيها بقواعد وأصول تراعى فيها حياته العادية حين ينطلق على سجيته.»[19].

النتائج والتوصيات:

ـ البلاغة العربية من مظاهر البارزة في الدراسات القرآنية، لها خصائصها وسماتها التعبيرية والدلالية مما جعلها موضع اهتمام لدى القدامى، كونها من معالم لغة القرآن، ولما له من صور جمالية.

ــ إنّها تشكّل جوهر الجودة للنصّ ترد لدوافع سياقية وللتنويع في الدراسات زاخرة بالمعاني النفسية تحمل أسرارا لغوية، وتتضمن مقاصد محددة متعاضدة مع لوازم فكرية ظاهرة أو خفية.

ــ تمثل البلاغة العربية جانبا متميّزا من لغة القرآن في إبانة الكلام على صورة توضّح اللفظ وتكشف عن المعنى.

ــ فهي عنصر اتّسع مداه في أعماق لغة القرآن الكريم، ووجه من وجوه الإعجاز جيء بها لتهذيب السريرة، والخروج من أوهام الغريزة.

ــ اهتمّ بها البلاغيون لإظهار قدراتهم الإبداعية تنسجم مع طريقة قراءاتهم فرسموا دورها، وشخّصوا طابعها فاستثمروا قيمته الجمالية والدلالية.

ــ أمّا التوصيات التي خلصت إليها فهي:

ــ الاهتمام بالبحث البلاغي النظري والتطبيقي، وترشيد الباحث إلى الاقتراب من لغة القرآن.

ــ العمل على توسيع دائرة الدرس البلاغي، والرفع من البحوث حول أبنيته.

ــ الانفتاح على الدراسات الحديثة مع المحافظة على خصوصية الدرس البلاغي في الدراسات القرآنية.

الاحالات:

[1] الزرقاني (عبد العظيم)، مناهل العرفان، دار الكتب العلمي بيروت 2003 م 208/2

[2] نفس المرجع، ص208

[3] أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية، ط2 دار المكتبي دمشق سوريا، ط2 419 1، ص 29ــ 30

[4] الجرجاني (عبد القاهر)، ثلاث رسائل في الإعجاز (الرسالة الشافية)، ص107

[5] ابن مجاهد (أبو بكر)، السبعة في القراءات، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعار مصر، ص9

[6] الباقلاني (القاضي أبو بكر محمد بن الطيب)، إعجاز القرآن، تحقيق: أحمد صقر، ط3 دار المعارف القاهرة 1196، ص4

[7] الرماني (علي بن عيسى)، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق محمد زغلول ومحمد خلف الله، دار المعارف القاهرة ص88

[8] محمد إبراهيم شادي، البلاغة الصوتية في القرآن الكريم، الرسالة ط2 1402ه، ص65

[9] انظر مقدمة أسرار البلاغة، تحقيق محمود شاكر، ط1 طبعة المدني جدة1991، ص13

[10] السيوطي (جلال الدين)، صون الكلم عن فن المنطق والكلام، تحقيق: علي سامي النشار وسعاد علي عبد الرزاق، سلسلة إحياء التراث العربي، ص48

[11] الشافعي (محمد بن إدريس)، الرسالة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية بيروت 1339ه، ص44

[12] أحمد عبد الغفار، التصور اللغوي عند الأصوليين، دار المعرفة الجامعية 1996م، ص78

[13] الغزالي (أبو حامد)، المستصفى في علم الأصول، تحقيق: حمزة بن زهير حافظ المدينة المنورة 1413ه–384/1

[14] نفس المرجع، ص136

[15] الآمدي (سيف الدين)، الإحكام تحقيق: سيد الحميلي دار الكتاب العربي بيروت ط1 1427ه –8/1

[16] نفس المرجع ،199/2

[17] نفس المرجع،2 /177

[18] نفس المرجع،177/2

[19] إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط3 1965ص76.

أَثرُ القُرْآنِ الكَرَيمِ فِي صِنَاعَةِ المَلَكَةِ البَلاَغِيَةِ عِنْدَ اِبْنِ خَلْدُون

داه. عبد القادر عيدي
الجزائر2 أبو القاسم سعد الله

".. فملكة البلاغة العالية الطبقة في جنسها، إنّما تحصل بحفظ العالي في طبقته من الكلام" ابن خلدون (المقدمة ص 686)

الملخص: يطرح هذا المقالُ آلية صناعة الملكة البلاغيّة في تفكير ابن خلدون وأثر القرآن الكريم في حصولها، إذْ يَعتبر صناعة الملكة البلاغيّة كباقي الصّناعات التي تُتعلم، فابن خلدون يتميز بفكر غزير وأسلوب متميز نال بهما شهرةً في العالم مغربًا ومشرقًا قديمًا وحديثًا.

وإن كان المشهور عنه تبحّره في علمي التّاريخ والاجتماع، إلاّ أنّه "ليس هو الميدان الوحيد الّذي تتجلّي فيه عبقرية هذا الرّجل فهناك مجال آخر أبدع فيه –مسكوت عنه حتي الآن – مع أنّه يوازي عنده علم العمران البشري نعني بذلك علم البلاغة"[1].

ويشير ابن خلدون إلي أنّ السّمع أبو الملكات، ولكن بعد اختلاط العرب بالعجم وشيوع اللحن لم يعد السّمع وسيلة لتعلم اللغة الفصحى، ليقرّ بأنّ حفظ القرآن الكريم وكلام العرب مهمّ لاكتساب الملكة وجعل القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه، أين يقول: "اعلم أنّ تعليمَ الوِلْدان للقرآن شِعارٌ من شعائر الدين، أخذ به أهل الملّة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم، لما يسبق فيه إلي القلوب من رسوخ

---

[1]– محمد الصغير بناني، البلاغة والعمران ص04.

الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث. وصـــار القـــرآن أصـــل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعده من الملكات"[2]

فالقرآن الكريم عند ابن خلدون سبيل لاكتساب الملكة اللسانية، وسائر الملكات، كمـــا أنّه مصدر للثّراء اللغوي، وهو بذلك قد طرح أفكارا تربوية بالدّرجة الأولـــي، وهـــي أفكار حضارية، عُدّت بحق نظريات للتّعلم والتّعليم، يحقّ لنا اليوم أن نعتزّ بهـــا، ولقـــد قدّم لمن رام بلوغ المراتب العليا في البلاغة طرقا ووسائل تمكّنه من ذلك.

وخلص إلي أنّ ثمرة فنّ البلاغة إنّما هي في فهم الإعجـــاز مـــن القـــرآن، لأنّ إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومـــة، وهـــي أعلي مراتب الكمال مع الكلام فيما يختص بالألفاظ في انتقائهـــا وجـــودة رصـــفها وتركيبها. وهذا هو الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن إدراكه" [3]

كلمات مفتاحية: القرآن الكريم، الملكة البلاغية، اللسان، اللغة، ابن خلدون

مقدمـــــــة:

تعدّ مقدّمة ابن خلدون مصدرًا رئيسًا، ليس لعلمي التّاريخ والاجتماع فحسب، بل للأدب وسائر صنوفه، "فبنية المقدمة ينبغي البحث عن أصلها في كتب الأدب: أدب الجاحظ علي وجه الخصوص، وفي كتابي الحيوان، والبيان والتبيين علـــي وجـــه التدقيق، فالمقدمةُ كتابُ أدبٍ شكلاً ومضمونًا، والـــدخول فـــي أعماقهـــا يبّـــين أنّ موضوع العلم والمعرفة والوسائل التي يؤديان بها، كاللغة والوحي والفنون، ومـــا أشبهها من الموضوعات الفكرية اللسانية، تطغي علي جميع الأبواب وتستحوذ علي معظم اهتمامه"[01] .

---

[2]– مقدمة ابن خلدون ص635.

[3]– نفسه653.

وابن خلدون يجهل قدرَه كثيرٌ من النّاس، غير أنّ "هناك من اللسانيين من يجد في المقدمة جملة من الأفكار اللسانية التي لا تقلّ أهمية عمّا توصّل إليه البحث اللسانيّ عند الغرب[02].

سأحاول أن أسلّط الضوء علي جانب من جوانب التفكير البلاغي عند ابن خلدون، وهو الملكة البلاغية وأثر القرآن الكريم في صناعتها. فما مفهومها عنده. وما فائدتها. وما هي مراحل اكتسابها. وما أثر القرآن الكريم في اكتسابها؟.

مبحث علم البيان في مقدمة ابن خلدون:

لقد أفرد ابن خلدون في مقدمته فصلا سمّاه: "في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض من ذلك كله من الأحوال"، يقع هذا الفصل سادسا في ترتيب فصول الكتاب الأول والذي عنونه بـ: "في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها"، ويضم هذا الفصل خمسين فصلا، تضمّن الفصل السادس والثلاثون منه علوم اللسان العربي، وفيه أشار إلي علم البيان ويعني به **البلاغة** عند العرب، وذلك من باب تسمية الكلّ باسم جزئه.

كما تضمن الفصل السابع والثلاثون مفهوم الملكة أين أشار إلي أنّ اللغة ملكة صناعية.

يقول ابن خلدون عن علم البيان: "هذا العلم حادث في الملّة بعد علم العربية واللغة وهو من العلوم اللسانية لأنه متعلق بالألفاظ وما تفيده"[03]

أي أنّ علم البيان يأتي تعلمه بعد علم النّحو وما يتصل به، وبعد حفظ متن اللغة بالمعاجم.

وعلم البيان مرتبط بإعجاز القرآن الكريم، وقد أشار ابن خلدون إلي ثمرة هذا العلم يقول ابن خلدون: "واعلم أنّ ثمرة هذا الفن إنّما هي في فهم الإعجاز من القرآن" [04].

فثمرة علم البيان هي فهم الإعجاز القرآني في البلاغة، وهي أعلي مراتب الكلام في انتقاء الألفاظ وجودة تركيبها، ويدرك هذا الإعجاز من كان له ذوق في فهم اللسان العربي.

إنّ من وسائل قطف ثمرة علم البيان اكتساب الملكة البلاغية، وقد أشار ابن خلدون إلي ذلك لفهم إعجاز القرآن الكريم أين تحدّث عن الملكة اللسانية حتى عُدّ المؤسس الحقيقي لنظرية الملكة اللسانية وليس المحدثين"[05].

مفهوم الملكة لغة: جاء في اللسّان في مادة (م. ل. ك): "طال ملكه وملكه وملكه وملكته (عن اللحياني). أي: رقه. ويقال: إنّه حسن الملكة والملك (عنه أيضا). وأقر بالملكة والملوكة. أي: الملك. وفي الحديث: "لا يدخل الجنة سيء الملكة"، متحرك. أي: الذي يسيء صحبة المماليك. ويقال: فلان حسن الملكة إذا كان حسن الصنع إلي مماليكه. وفي الحديث: حسن الملكة نماء، هو من ذلك."[06]

فمفهوم الملكة في اللسان اتخذ بُعدا أخلاقيا، ويعني التعامل الحسن والحذق.

جاء في المعجم الوسيط: "صفةٌ راسخةٌ في النفس، أو هي استعدادٌ عقليٌّ خاصٌّ لتناول أَعمالٍ معيَّنة بحذقٍ ومهارة"[07]. وهنا تعني الكلمة الصّنعة.

مفهوم الملكة اصطلاحا قبل ابن خلدون: لقد تناول العلماء مفهوم الملكة قبل ابن خلدون، أين تناولوا مباحث النّحو والصّرف واللسّان وربطوها بالسليقة والطبع والفطرة والصناعة والمهارة والكفاءة والذوق.

فالشريف الجرجاني يعرّفها بقوله: "الملكة هي صفة راسخة في النفس، فالنّفس تحصل لها هيئة بسبب فعل من الأفعال، ويقال لتلك الهيئة كيفية نفسانية، وتسمي حالة ما دامت سريعة الزوال؛ فإذا تكررت ومارستها النفس حتى رسخت تلك الكيفية فيها وصارت بطيئة الزوال، فتصير ملكة. وبالقياس إلي ذلك الفعل عادة وخلقا"[08]

أمّا أبو حيّان التوحيدي فمصطلح الملكة يعني عنده العادة، ويقول بأنّها تكون عن طريق التكرار، "قيل إنّها العادة؟ قال: حال يأخذ بها المرء نفسه من غير أن تكون مسنونة، يجري عليها مجري ما هو مألوف طبيعيا، قال أبو سليمان المنطقي: "كأنّ هذا

الاسم ليس يخلص إلاّ لمن أتي شيئا مراراً، فأمّا في أوّل ذلك فليس له هذا النعــت، إنّمــا يصير مألوفا بالتكرار "(09)

مفهوم المَلَكَة عند ابن خلدون: إنَ الملكة بمفهومها عند "ابــن خلــدون" صــفة راسخة في النّفس تتم نتىجة استعمال الفعل وتكراره مرات عديدة، إذ يقول فــي هــذا الصدد: "والملكة صفة راسخة تحصل من استعمال ذلك الفعل وتكرّره مرّة بعد أخــري وحتى ترسخ صورته وعلي نسبة الأصل تكون الملكة"(10).

وحتى ترسخ الصفة في النفس يري ابن خلدون أنّ ذلك يكون عبر ثلاث مراحــل: "والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال لأنّ الفعل يقع أولا وتعود منه للذات صــفة ثــم تتكرر فتكون حالا. ومعني الحال أنّها صفة غير راسخة ثم يزيد التكرار فتكون ملكــة أي صفة راسخة." (11). فهو يلح علي أهمية التكرار لتكوين الملكة.

وهذا التكرار لتكوين الملكة أشار إليه محمد الصغير بناني أين اعتبر أنّ نظريــة ابن خلدون تقوم علي "قانون الارتقاء" كما أسماه في مقدمتــه، والنظريــة الارتقائيــة وظفها ابن خلدون لبناء نظرية المعني ينشأ أول ما ينشأ عن الفعل، فإذا تكرر الفعل صار صفة وإذا تكررت الصفة صارت حالا أعني صفة غير ثابتة وإذا تكرر الحــال صــار ملكة أي مقاما كما يقول المتصوفة"(12).

أثر تعليم القرآن الكريم للولدان في اكتساب الملكة البلاغية:

إنّ تعليم القرآن الكريم للناشئة له أهمية بالغة الأثر، وتزخر كتب علوم القــرآن الكريم بنماذج عن هذا الأثر، فقد ورد عن الحافظ السّيوطي قوله: (تعليم الصّــبيان القرآن أصل من أصول الإسلام به ينشأ علي الفطرة، ويسبق إلي قلــوبهم أنــوار الحكمة، قبل تمكن الأهواء منها وسوادها بأكدار المعصية والضلال) (13).

فهو يعدّ تعليم الصبيان القرآن أصل تعلم مختلف العلوم، فهو يهيئ الصّبي ويصقل ذهنه، وينمّي فكره، ويمدّه بنور الحكمة والأخلاق.

كما نجد نصيحة الرشيد لمعلم ولده محمد الأمين: "يا أحمرُ إنّ أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه فصيّر يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة، وكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين. أقرئه القرآن، وعرّفه الأخبار وروّه الأشعار وعلّمه السّنن وبصّره بمواقع الكلام وبدّئه وامنعه من الضحك إلاّ في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه ورفع مجالس القوّاد إذا حضروا مجلسه ولا تمرنّ بك ساعة إلاّ وأنت مغتنم فائدة"[14]، قال ابن خلدون وهذا من أحسن مذاهب التعليم.

وابن خلدون وبحكم سفره عبر أقطار كثيرة وتعمّقه في مختلف العلوم، يوضح أثر تعلم القرآن الكريم وتعليمه للناشئة بقوله: "اعلم أنّ تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين، أخذ به أهل الملّة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم، لما يسبق فيه إلي القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث. وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعده من الملكات[15].

فأوّل ما ينبغي أن يتعلّمه الولد، وهو في سنّ مبكرة هو القرآن الكريم، لما له أثر بارز في تكوين شخصيته وحياته، وهو أصل حصول باقي الملكات.

وسبب ذلك أنّ تعليم الصغر أشد رسوخاً وهو أصل لما بعده، لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات. وعلي حسب الأساس وأساليبه يكون حال ما ينبني عليه[16].

طرق العرب في تعليم القرآن الكريم للولدان: أكسبت الرحلة التي خاضها ابن خلدون بين بلاد المغرب والمشرق والأندلس، ومخالطته للعلماء، والأدباء في مختلف الفنون، والعلوم رصيدا معرفيا غزيرا، حيث تعرّف علي أحوال التعليم في هذه الأقطار.

وحدّد ابن خلدون طرق العرب في تعليم القرآن بقوله: "واختلفت طـــرقهم فـــي تعليم القرآن للولدان، باختلافهم باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات.

01 – فأمّا أهل المغرب: فمذهبهم في الولدان الاقتصار علي تعليم القرآن فقـــط وأخذهم أثناء المدارسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه، لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم، لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب، إلي أن يحذق فيه أو ينقطع دونه، فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعـــاً عن العلم بالجملة.

وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قري البربر، أمم المغـــرب، فـــي ولدانهم إلي أن يجاوزوا حد البلوغ إلي الشبيبة. وكذا في الكبير إذا راجع مدارسة القـــرآن بعد طائفة من عمره. فهم لذلك أقوم علي رسم القرآن وحفظه من سواهم.

02 – وأمّا أهل الأندلس: فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو، وهذا هو الذي يراعونه في التعليم. إلا أنّه لما كان القرآن أصل ذلك وأســـه ومنبـــع الـــدين والعلوم جعلوه أصلاً في التعليم. فلا يقتصرون لذلك عليه فقط، بل يخلطـــون فـــي تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل، وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب.

ولا تختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه، بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها، إلي أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلي الشبيبة، وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما، وبرز في الخط والكتاب وتعلق بأذيال العلـــم علـــي الجملة، لو كان فيها سند لتعليم العلوم. لكنهم ينقطعون عند ذلك لانقطاع سند التعليم في آفاقهم، ولا يحصل بأيديهم إلا ما حصل من ذلك التعليم الأول. وفيه كفاية لمـــن أرشده الله تعالي واستعداد إذا وجد المعلم.

03– وأما أهل إفريقية: فيخلطون في تعليمهم للولـــدان القـــرآن بالحـــديث فـــي الغالب، ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مســـائلها، إلا أن عنـــايتهم بـــالقرآن

واستظهار الولدان إياه، ووقوفهم علي اختلاف رواياته وقراءاته أكثر مما سواه، وعنايتهم بالخط تبع لذلك"[17]

تكامل بين القرآن الكريم وأفانين العلم لحصول الملكة: يرى ابن خلدون أنّ تعلّم القرآن وحده لا يكفي للحصول علي الملكة البلاغية، يقول: "فأمّا أهل إفريقية والمغرب فأفادهم الاقتصار علي القرآن القصور عن ملكة اللسّان جملة، وذلك لأن القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة لما أنّ البشر مصروفون عن الإتيان بمثله، فهم مصروفون عن الاستعمال علي أساليبه والاحتذاء بها، وليس لهم ملكة في غير أساليبه، فلا يحصل لصاحبه ملكة في اللسان العربي، وحظه الجمود في العبارات وقلة التصرف في الكلام"[18]

ومعجز القرآن الكريم بألفاظه ومعانيه، يصعب الاتيان بمثله، لذا يؤكد ابن خلدون أنّ من اقتصر حفظه علي القرآن الكريم، لا يمكنه بحال اكتساب الملكة.

بينما نجده يذكر عن الأندلسيين قوله: "وأمّا أهل الأندلس فأفادهم التفنن في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسة العربية من أوّل العمر، حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي"[19]

مراتب اكتساب الملكة عند ابن خلدون: (السمع/التكرار/الحفظ):

يعتبر ابن خلدون أنّ من حاز علي تعلم اللسان المُضري الذي نزل به القرآن فهو الناقد البصير بالبلاغة فيها، والحصول علي هذه الملكة البلاغية أمر ممكن لمن رام ذلك شأن سائر الملكات يوصي ابن خلدون بما يلي: "... ووجه التعليم لمن يبتغي هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري علي أساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف ومخاطبات فحول العرب في أسجاعهم وأشعارهم وكلمات المولدين أيضا في سائر فنونهم حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ولقن العبارة عن المقاصد منهم. ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره علي حساب عباراتهم وتأليف كلماتهم

وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال"[20].

وبهذا يمكن إجمال وسائل اكتساب الملكة البلاغية في وسيلتين:

01 – كثرة الحفظ والاستماع للكلام البليغ الجاري علي أساليب العرب. ويشمل حفظ القرآن الكريم والحديث النبوي وكلام السلف ومخاطبات فحول العرب والبلغاء...

02 – كثرة استعمال الكلام البليغ وتكراره والتعبير علي نحو ما حفظه منه.

هو بذلك يشير إلي أهم وسيلة لاكتساب الملكة وهي السمع أين يقول: "والسّمع أبو الملكات اللسانية"[21]

فبداية اكتساب الملكة لا بد أن تكون بالسماع، وهذا ما قال به "ابن خلدون" في معرض تفسيره لقول العامة أنّ اللغة للعرب بالطبع، حيث يقول: "فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها...ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله يتكرر إلي أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم[22] "

فالسمع هو أساس وأولي لبنات اكتساب الملكة البلاغية، ذلك: "إنّ الطبيعة وهبت الإنسان لسانا واحدا، ولكنّها وهبته أذنين... والحكمة في ذلك هي أن يسمع ضعف ما يتكلم[23]".

وهذا ما يتوافق مع ما ذهب إليه بلومفيلد في إعطاء ملكة السمع درجة من الأهمية، حيث استغل المنهجية السمعية الشفهية في تحليله التوزيعي للغة وفق المحورين الصرفي والتركيبي، إذ من خصائص هذه المنهجية:

01- الاهتمام بالمنطوق والمسموع قبل المقروء والمكتوب ومن ثمة العمل علي تنمية اللغة الشفهية.

02- تقديم اللغة المراد تعليمها في شكل حوار يسجل علي أشرطة مغناطيسية تتحول بعد ذلك إلي مخابر اللغات.

03- الاعتماد علي التكرار الشفهي المكثف من أجل ترسيخ الجمل المثالية التكثيف من المحاكاة والحفظ ثم استعمال التمارين البنيوية"[24]

وكذلك من أهم وسائل اكتساب الملكة الحفظ، وخير ما أوصي به ابن خلدون حفظ القرآن، ويرى بأنّ تعلّم القرآن هو أساس ثراء الرصيد اللغوي، وحصول الملكة اللسانية يكون من تعلّم القرآن.

فالملكة إذن عند ابن خلدون لا تحصل إلا بممارسة كلام العرب وتكرره علي السمع والتفطن لخواصه تركيبه، فهذا التحديد للملكة اللسانية من قبل ابن خلدون نراه صالحا لأن يكون المقابل العربي لمفهوم الكفاية عند نوام تشو مسكي.

وكثرة التكرار تؤدي إلي الحفظ الذي يزيد صاحب الملكة رسوخا وقوة، ولا يحصل ذلك إلا بعد فهم كلام العرب[25]، ولعل هذا ما تقره اللسانيات التربوية الحديثة، حيث يعمل المربون حديثا بهذه المبادئ -التدرج، والتكرار والحث علي الممارسة- في تلقين العلوم.

وأول درجات التعليم تكون بالقرآن الكريم، فملكة البلاغة العالية الطبقة في جنسها إنّما تحصل بحفظ العالي في طبقته من الكلام"[26].

لهذا كان كلام الإسلاميين من العرب أعلى درجة من كلام الجاهليين، يقول ابن خلدون: "ويظهر لك من هذا الفصل وما تقرر فيه سر آخر، وهو إعطاء السبب في أن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية

في منثورهم ومنظومهم. فإنّا نجد شعر حسان بن ثابت وعمــر بــن أبــي ربيعــة والحطيئة وجرير والفرزدق ونصيب وغيلان ذي الرمة والأحوص وبشار، ثم كلام السلف من العرب في الدولة الأموية وصدرا من الدولة العباســية، فــي خطــبهم وترسيلهم ومحاوراتهم للملوك أرفع طبقة في البلاغة بكثير من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير وعلقمة بن عبدة وطرفة بن العبد، ومن كــلام الجاهليــة فــي منثورهم ومحاوراتهم. والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصــير بالبلاغة، والسبب في ذلك أنّ هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث، اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثليهما، لكونها ولجــت في قلوبهم ونشأت علي أساليبها نفوسهم، فنهضت طباعهم وارتقت ملكــاتهم فــي البلاغة علي ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية، ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشــأ عليها، فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأصفي رونقــا مــن أولئــك وأرصف مبني وأعدل تثقيفا بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة .وتأمل ذلك يشهد لك به ذوقك إن كنت من أهل الذوق والتبصر بالبلاغة"[27].

مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين: ومن العوامل في اكتساب الملكة التــي نبّه إليها ابن خلدون مراعاة الفروق الفردية بــين المتعلمــين فالعوامــل النفســية والجسمية والبيئية لها دور كبير في معرفة مستويات المتعلمين، بحيث يتفاوت ذلك الحجم بين فرد وآخر.

يقول ابن خلدون: "... وهو كما رأيت إنّما يحصل في ثــلاث تكــرارات وقــد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه" [28].

وهذا ما أكده علــم اللغة الحديث؛ ذلك أنّ الأنام لا يتكلمون علي منوال واحــد بل تجدهم، حتي في حالة انتمائهم إلي المحيط الاجتماعي نفسه، يختلفون في سرعة السرد، ويتفاوتون في رصيدهم من المفردات[29].

الفرق بين الملكة والطبع عند ابن خلدون: يؤكد ابن خلدون أنّ الملكة غير الطبع فالملكة قبل اكتسابها تكون شعورية، أمّا بعد اكتسابها فإنّها تصبح لا شعورية، أمّا الطبع فإنّه منذ البداية غير شعوريّ لأنّه فطريّ: "فالملكات تكتسب من أعراف التخاطب في الأمصار والأمصار تتعرض للفتح والاختلاط بين أجناسها وتغير حكامها، وكل هذا يؤثر في نوع الملكات التي يكتسبها أبناء تلك الأمصار [30].

ويشير ابن خلدون إلي أمر مهم حين ينعت من قال إنّ الصواب للعرب في لغتهم وبلاغتهم طبيعي فيهم، ينعتهم بالمغفلين يقول: "ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب في لغتهم إعرابا وبلاغة أمر طبيعي. ويقول كانت العرب تنطق بالطبع وليس كذلك وإنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت في بادئ الرأي أنها جبلة وطبع"[31].

فلغة العربي ليست فطرية فيه بل تُكتسب بالتكرار والسماع؛ أي: بالتعليم، وإذا كان السّماع يرسخها فإنّه من جهة أخرى يفسدها، وهذا ما حدث للعرب عند اختلاطهم بالأعاجم وتعوُّدِهم علي سماع لحنهم حتى وقر في ألسنتهم وألسنة أطفالهم.

الملكة البلاغية ومفهوم الذوق: إنّ حصول ملكة البلاغة يعبّر عنه ابن خلدون بمفهوم الذوق يقول: "اعلم أن لفظة الذوق يتداولها المعتنون بفنون البيان ومعناها حصول ملكة البلاغة للسان"[32]

فهو يعلل سبب اختيار مصطلح الذوق وإسقاطه علي الملكة البلاغية بقوله: "واستعير لهذه الملكة عندما ترسخ وتستقر اسم الذوق الذي اصطلح عليه أهل صناعة البيان والذوق إنّما هو موضوع لإدراك الطّعوم لكن لما كان محل هذه الملكة في اللسان من حيث النطق بالكلام كما هو محل لإدراك الطّعوم استعير لها اسمه وأيضا فهو وجداني اللسان كما أنّ الطعوم محسوسة له فقيل له: ذوق" [33].

إنّ من فوائد هذه الملكة بعد اكتسابها أنّها: "تهدي البليغ إلـــي وجـــود الـــنظم وحســـن التركيب الموافق لتراكيب العرب في لغتهم ونظم كلامهم فيستطيع بذلك تمييـــز الســـمين والغث من الكلام، فكأنه يذوق الكلام ويميزه كما يميز اللسانُ أنواعَ الأطعمة"[34]

فائدة أخري هو القدرة علي التمييز بين الكلام البليغ وغيره وتمييز حسنه مـــن رديئه، في ذلك يقول ابن خلدون لمن حصل له الذوق البلاغي: "وإذا عرض عليـــه الكلام حائدا عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم أعرض عنه ومجّه وعلم أنّه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم"[35]

الفرق بين تحصيل علم البلاغة وتحصيل الملكة البلاغية: لقد أشار ابن خلدون" إلي موضوع مهم وهو صلة النّحو بالملكة اللسانية"، فيقول في صناعة العربية وقوانين الإعراب "إنّما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة، فهي علم بكيفية لا نفس الكيفية"[36].

لقد فرَق ابن خلدون بين الملكة وقوانين الملكة، أي بين العلـــم النظـــري والخبـــرة العلمية بالتجربة، بحيث ىقدّم دليلاً علي ذلك لمن يجيد العلـــم بصـــناعة النَجـــارة ولا يمارسها عملا، فإذا سألته عنها شرحها قائلا: "أن تضع المنشار علـــي رأس الخشـــبة وتمسك بطرفه وآخر قبالتك ممسك بالطرف الآخـــر وتتعاقبانـــه بينكمـــا، وأطرافـــه المضرسة المحدد تقطع ما مرّت عليه ذاهبة جائية، إلي أن ينتهي إلي آخر الخشبة وهو لو طولب بهذا العمل أو شيء منه لم يحكمه"[37].

مثال آخر يضربه ابن خلدون أين يشير إلي أنّ تحصيل العلم بقواعده وقوانينـــه لا يلزم منه تحصيل الملكة ويمثل لذلك حين يقول: ....نجد كثيراً من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علماً بتلك القوانين إذا سئل في كتابة سطرين إلي أخيه أو ذوي مودته أو شكوى ظلامه أو قصد من قصوده أخطـــأ فيهـــا عـــن

الصواب وأكثر من اللحن ولم يجد تأليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود علـــي أساليب اللسان العربي"[38]

هو بذلك يفرق بين العلم وبين الملكة فالملكة تحصل من دون تحصيل علومهـــا لأنّ الملكة أمر وجداني ترسخ في النفس من دون وعي من خلال البيئة والمحاكـــاة والتكرار بخلاف العلم فإنه يكتسب بوعي من المتعلم.

وهنا يتفق مع ما يتبناه تشومسكي في نظريته اللغوية من كون ما يعتد به مـــن نحو في تعلم اللغة أو اكتسابها هـــو القواعـــد المضـــمرة التـــي تخـــول للإنســـان استحضارها بطريقة آلية أثناء الكلام.

حفظة القرآن الكريم والتحصيل الدراسي:

_ أثبتت كثير من الدراسات في المؤسسات التربوية الجزائرية وغير الجزائريـــة أثر حفظ القرآن الكريم علي التحصيل العلمي، فمن بين الدراسات علي المســـتوي الوطني نجد:

01- دراسة (سليم حمي وعبد اللطيف فارح ود. ربيع العبزوزي) علـــي عينـــة من تلاميذ الطور المتوسط، حيث طبقت دراستهم علي 320 تلميـــذا وتلميـــذة مـــن متوسطات مدينة الوادي، أسفرت النتائج عن وجود فروق ذات دلالة إحصائية فـــي دافعية التعلم بين التلاميذ الذين يحفظون القرآن الكريم والذين لا يحفظونه"[39].

02- تسجيل أجرته جريدة الحوار الجزائرية في عددها 3454 الصادر بتاريخ 22 جويلية 2018 مع مختصين وشيوخ زوايا حول أثر القرآن الكريم في التحصيل الدراسي بعد ظهور نتائج امتحان البكالوريا لسنة 2008، كان تعليق المحاورين كالتالي:

أ- شيخ زاوية الهامل، الشيخ مأمون القاسمي: بيّن أنّ تفـــوق حفظـــة القـــرآن الكريم في شهادة البكالوريا يدحض كل المزاعم التي تقول إنّهم ضعيفوا المســـتوي

داعيا كافة الطلبة إلي الإقبال علي حفظ كتاب الله كي يكون لهم سدّا منيعا وحصنا في حياتهم".

كما أكّد أنّ "القرآن الكريم فيه أسرار عظيمة، وندعو أبناءنا وبناتنا إلي المزيد من الإقبال علي حفظه وسيكون لهم حصنا منيعا وعاصما ودافعا قويا إلي مزيد من التحصيل في مسارهم العلمي "وأضاف:" أنّ السّر هو كلام الله المنزل علي نبيه صلي الله عليه وسلم، وما يحمله من بركته علي حافظيه، فالمسلمون أدركوا هذه الحقيقة منذ عهد الرسالة، ولذلك جعلوا أصول التربية والتعليم تقوم علي القرآن وعلي نهج القرآن وهذا ما أثبته عالم الاجتماع ابن خلدون في مقدمته".

وقدّم شيخ زاوية الهامل مثالين علي تفوق طلبة حفظة القرآن منذ القدم في الدراسة في كافة المستويات، حيث قال "أيام التعليم الأصلي كان الناجحون في مسابقات حفظ القرآن الكريم، صغار الحفظة الذين لم تتجاوز سنهم عشر سنوات هؤلاء كانوا متفرغين لحفظ القرآن منذ طفولتهم، كنّا نلحقهم بمؤسسات التعليم الأصلي بالسّنة الأولي من التعليم الأصلي المتوسط مباشرة، يلاحظ علي هؤلاء أنّهم يتفوقون علي طول المسار وصولا إلي شهادة البكالوريا بتقدير.

أمّا عن المثال الثاني "فقبل سنوات، كنا فتحنا دورات لطلاب المدارس للفترة الصيفية، والذين التحقوا لحفظ القرآن في أربع دورات صيفية، والنتيجة أنّ هؤلاء سواء من المتوسط أو الثانوي كلهم من المتفوقين في الدراسة وكرمناهم بكل سعادة في مناسبتين لختمهم القرآن الكريم ولحصولهم علي شهادات البكالوريا".

ب- الأمين العام للتنسيقية الوطنية لأساتذة العلوم الإسلامية بوجمعة شيهوب:

أكّد أنّ تفوّق حفظة القرآن في شهادة البكالوريا وإحرازهم لأعلي المعدلات هو نتيجة طبيعية، ينفي كل ما يقول إنّ هؤلاء يملكون مستوي تعليميا ضعيفا.

وأوضح أنّ الدراسات القديمة تثبت أنّ طلاّب المدارس القرآنية متفوقون في الدراسات الأخرى، فهو ينشط الذاكرة وينشط العقل، كما أنّه يجعل ملكة معرفية

كبيرة عند الطفل منذ الصغر، مما يؤهله إلي اكتساب العلوم بسرعة والتفـوق فـي التحصيل العلمي".

وأضاف أنّ "هناك مسؤولة في الأمم المتحدة قدمت وأثبتـت ذلـك بالتفاصـيل وبالحساب، ولذلك الخلل في من يقولون عكس ذلك".

جـ- الشيخ عبد المالك محمد عبد الرحمن صوفي شيخ زاوية بأدرار: يرى أنّ الدراسات تثبت أنّ حفظ القرآن قبل سن الخامسـة يحفـز الـدماغ علـي الحفـظ والاستيعاب والتركيز وخاصة لما يتوجب علي الطفل أن يستوعب على الأقـل 15 ألف مفردة في هذا العمر، ولا يتأتى له ذلك إلا بحفظ القرآن.

وأوضح أنّ "الطالب عندما يتذوق حلاوة القرآن، فإنّه يصبح القرآن هـو كـل شيء في حياته، مما يمكنه من تكوين رصيد معرفي كبير يسهل لـه كـل العلـوم الأخرى وتصبح لا شيء مقارنة بالقرآن الكريم".

د- رئيس الاتحاد الوطني لعمال التربية والتكوين صادق دزيري: بيّن أنّ حفـظ القرآن الكريم يساعد في تنشيط الذاكرة ما يساعد في التحصيل العلمي، داعيا إلـى القيام بدراسات لهذه الظاهرة ومعرفة الأسباب والاقتداء والعمـل بهـا مسـتقبلا. ويرى أنّ "حفظة القرآن الكريم تجد أنّ عقولهم متفرغة للدراسة ولا يعيشـون أي ضغط نفسي كون القرآن يساعد علي تخفيفه أو إزالته لما له من تأثير فعال يسـاهم في ذلك، بالإضافة إلي عقار آخر وهو توفيق الله".

واعتبر أنّ هذه النتائج المتفوقة التي يحصل عليها حفظة القرآن فـي مختلـف الشهادات وعلي رأسها شهادة البكالوريا بمثابة الرسالة التي يفضل أن توجه لمعهد الدراسات الأنثروبولوجية للقيام بدراسة معمقة في هذه الظـاهرة للاسـتفادة منهـا مستقبلا[40].

3- دراسة لطلبة المدرسة القرآنية بمسجد عبد الحميد بن باديس بمسعد ولاية الجلفة، والتي يشرف علي تدريسهم الأستاذ قراش المداني بمساعدة الأستاذ مباركي مصطفي: أثبتت أنّ 80 % من المسجلين في المدرسة حازوا معدلات دراسية ممتازة وجيدة، بل وزاد عدد الراغبين في الالتحاق بصفوف المدرسة زيادة معتبرة، (دراسة 2019).

ومن الدراسات الأخري خارج الجزائر نجد دراسات في المؤسسات التعليمية السعودية، كدراسة العامر (1425هـ) الذي أشار: "أنّ هناك فروقا ذات دلالة إحصائية بين الطلاب الملتحقين بحلق تحفيظ القرآن الكريم وغير الملتحقين بحلق تحفيظ القرآن لصالح الطلاب الملتحقين من حيث نسبة المتفوقين دراسيا".[41]

خاتمة: لقد طرح ابن خلدون أفكارا تربوية بالدرجة الأولي، حين تناول كل ما يتعلق باكتساب الملكة اللغوية عموما، والبلاغية خصوصا، وهي أفكار حضارية عُدّت بحق نظريات للتعلم والتعليم يحق لنا اليوم أن نعتز بها، كما وضّح أثر القرآن الكريم في صناعة الملكة اللسانية، والتي يعتبرها كباقي الصناعات.

وقد بيّن بعد تبحّره في مختلف العلوم، ورحلته عبر مختلف الأقطار أنّ أولي الأمور بالحفظ هو القرآن الكريم وهو الأساس الذي تنبني عليه جل الملكات.

إنّنا مازلنا بحاجة ماسة إلي إعادة قراءة فكر ابن خلدون اللغوي، اليوم أكثر من أي وقت مضي كيف لا ونحن نعيش انحطاطا للغة وابتعادا عن أساليب العرب وتراجعا في المستوي التعليمي، ضف إلي ذلك، فالاستعمال اللغوي الفصيح في التّدريس وبين الطلاب في الأقسام اليوم بات غائباً، فلو عملنا بمنظور ابن خلدون - وهو ميدان خصب يفتح للباحثين مجالا لولوجه والكتابة فيه - لاستطعنا إكساب المتعلم ملكة لغوية سليمة.

المراجع:

01 – إبراهيم مصطفي، وأحمد حسن الزيات، وحامد عبد القادر، ومحمد النجار: المعجم الوسيط، دار النشر: دار الدعوة، تحقيق: مجمع اللغة العربية_الطبعة 4

02 – ابن خلدون، عبد الرحمن أبو زيد ولي الدّين. مقدمة ابن خلدون الامام عبد الرحمان بن محمد بن خلدون تحقيق محمد الشامي، شركة دار الكتاب الحديث دراريه الجزائر، الطبعة 2016/1

03 – ابن منظور، لسان العرب، الجزء الرابع عشر، دار صبح بيروت، لبنان، الطبعة الأولي سنة 2006م

04 – حفيظة تازروتي، اكتساب اللغة العربية عند الطفل الجزائري، دار القصبة للنشر الجزائر، 2003،

05 – حنفي بن عيسي، محاضرات في علم النفس اللغوي، المؤسسة الوطنية للكتاب وديوان المطبوعات الجامعية، ط 3، الجزائر.

06 – الشريف الجرجاني: كتاب التعريفات، الدار التونسية للنشر، تونس،1971م.

07 – عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار التونسية للكتاب، ط 2، تونس، 1986 .

08– عبد الله سراج الدين تلاوة القرآن المجيد فضائلها آدابها خصائصها، مطابع الرشيد لأعمال الطباعة، المدينة المنورة. ط1402/3 هـ.

09– عماد بن عبد الرحمان العبد اللطيف، أثر حلقات تحفيظ القرآن الكريم علي التحصيل الدراسي والقيم الخلقية دار التفسير، ط2014/1 المملكة العربية السعودية جدة.

10– محمد الصغير بناني، البلاغة والعمران ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1996.

11 – مجلة العلوم العربية، جامعة محمد بن سعود الإسلامية. السعودية. العدد 23 مارس 2012.

الهوامش:

(1) محمد الصغير بناني، البلاغة والعمران، ص 22

(2) عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، ص 208.

(3) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 651.

(4) المرجع السابق نفسه، ص 653.

(5) مجلة العلوم العربية العدد 13 ص 187.

(6) ابن منظور، لسان العرب، المجلد 14، مادة ملك: ص:177.

(7) إبراهيم مصطفي، وأحمد حسن الزيات، وحامد عبد القادر، ومحمد النجار: المعجم الوسيط مادة ملك

(8) الشريف الجرجاني: كتاب التعريفات، الدار التونسية للنشر، تونس،1971م.

(9) أبو حيان التوحيدي، الامتناع والمؤانسة، ج3، دار مكتبة الحياة، د.ط، ص132 .

(10) مقدمة ابن خلدون، ص 474.

(11) المرجع السابق نفسه، ص 656.

(12) محمد الصغير بنانى، المدارس اللسانية فى التراث العربى فى الدراسات الحديثة، ص 17

(13) عبد الله سراج الدين تلاوة القرآن المجيد فضائلها آدابها خصائصها، ص 108.

(14) مقدمة ابن خلدون، ص 638

(15) نفسه، ص 638.

(16) نفسه، ص 635

(17) نفسه، ص 635

(18) نفسه، ص 636

(19) نفسه ص 636

(20) نفسه، ص 663

(21) نفسه، ص 647

(22) نفسه، ص 656

[23] حنفي بن عيسي، محاضرات في علم النفس اللغوي، ص 123

[24] حفيظة تازروتي، اكتساب اللغة العربية عند الطفل الجزائري، ص 85.

[25] مقدمة ابن خلدون ص 665

[26] نفسه، ص 686.

[27] نفسه، ص 687

[28] نفسه، ص 626

[29] حنفي بن عيسي، محاضرات في علم النفس اللغوي، ص 225

[30] مقدمة ابن خلدون، ص 670

[31] نفسه، ص 666

[32] نفسه، ص 666

[33] نفسه: ص 667

[34] نفسه: ص 666.

[35] نفسه: ص 667.

[36] نفسه، ص 664.

[37] نفسه، ص 664

[38] نفسه، ص 664.

[39] سليم حمي، عبد اللطيف فارح، د. ربيع العبزوزي، حفظ القرآن الكريم وعلاقته بدافعية التعلم لدي تلاميذ المرحلة المتوسطة بمدينة الوادي، مقال نشر في مجلة سلوك، العدد الرابع ديسمبر 2016 جامعة مستغانم.

[40] مقال بعنوان (حفظة القرآن يتصدرون نتائج البكالوريا)، جريدة الحوار الجزائرية 22 جويلية 2018، عدد رقم 3454.

[41] عماد بن عبد الرحمان العبد اللطيف، أثر حلقات تحفيظ القرآن الكريم علي التحصيل الدراسي والقيم الخلقية، دار التفسير، ص 35.

البِنية الصّرفيّة، وأثرها في توجيه دلالة الخطاب القرآنيّ

أ. مختارية عوَّاد
جامعة وهران1

ملخص: تأتي هذه الدّراسةُ في مصاف الدِّراسات الّتي تعنى بدراسة مفردات القرآن الكريم، وهو ما يندرجُ تحت ما يطلقُ عليه البنية الصّرفيّة، أو ما يندرج حديثًا تحت مصطلح (Morpheme)، ويطلق -كما أسلفنا ذكرًا- على فرع علم اللّغة الّذي يُعنى بدراسة أشكال الكلمات، وصيغها المختلفة (Morphology)، الّذي يبحثُ في بنية الوحدة اللّغويّة وتلوُّناتها.

وقد انتقيتُ في هذه الدّراسة سورة "المطففين" للتّطبيق والتّحليل، وسيسيرُ البحث في التّحليل الصّرفيّ (المورفولوجيّ) على محاور ثلاثة هي: اسم الفاعل، اسم المفعول الفعل المزيد. مع محاولة توظيف دلالة السّياق، والدّلالة المعجميّة ما أمكن.

وسيتمُّ تصدير كلّ أساس من هذه الأسس بدراسة تحليليّة توضح الدّلالات المتفرعة عنه، ثمّ اتِّباع هذا التّحليل بنتائج، ثمّ محاولة تحليل هذه النَّتائج دلاليًّا، وفق النّحو الآتي:

1- البنية الصّرفيّة بين التّراث، والطّرح اللِّسانيّ

2- التّلوِّينات الصّرفيّة، والمستوى الدّلاليّ:

أ- دلالة اسم الفاعل في الجملة القرآنيّة.

ب- دلالة اسم المفعول في الجملة القرآنيّة.

ج- دلالة الفعل المزيد في الجملة القرآنيّة.

مقدِّمة: حَسْبُ اللُّغةِ العربيّةِ فَخْرًا أنْ اجْتَبَاها اللهُ عزَّ وجــلَّ دونَ لُغــاتِ الْعــالمين وجَعَلَها لغةَ الْقرآنِ الْكريمِ، الَّذي يحوِي فِي ثَنَاياه تعاليمَ وشرائعَ الإسلامِ، كيفَ لا وقــد وصف اللهُ سبحانه وتعالى كلامه المعجز بها: "قُرْآنًا عربيًّــا غيــرَ ذي عِــوَجٍ لَعَلَّهُــمْ يَتَّقُونَ".

لُغةً انتزَعَها الْقرآنُ الْكريمُ مِنْ أحضانِ الصَّحراءِ، وتوجَها مَلكةً؛ إذْ مَنَحَها قُــوَّةً ورقيًّا ما كانتْ لتصلَ إليهِ لولاهُ، ووهَبها مِنَ الْمعاني الْفياضةِ، والألفاظِ المتطــوِّرة والتَّراكيبِ الجديدةِ، والأساليبِ الرّفيعةِ، فغدَتْ بفضله تتألقُ وتَتَباهى على غيرها من اللّغاتِ بمَا حازتْ عليهِ من محاسنِ الْجمالِ، وأنواعِ الْكمالِ.

ولا شكَّ أنَّ هذهِ اللُّغةَ حظيتْ باهتمامِ الدّارسينَ قديمًا وحَــديثًا، لا ســيما فيمَــا يخصُّ مستوَى الكلمةِ الْمُفردةِ وهي موضوعُ عِلمِ الصَّرفِ؛ بيدَ أنَّ الصَّرْفَ يــدرسُ بُنيةَ الْكلِمةِ فِي ذَاتِها، وتكمنُ أهميتهُ فِي أنَّهُ يقومُ عَلَى رَصدِ التَّغييرِ الَّذي يَمُسُّ بُنيةَ الْكلمةِ، إذْ تعدُّ بنيةُ الكلمة محورًا أساسًا في تنوّع دلالتها، بلْ إنَّ المفــردة الوَاحــدة تعكسُ أكثر من دلالةٍ، وللسِّياق بنوعيه (الدّاخليّ والخارجيّ) أثــرهُ الْواضــح فــي تحوّل دلالة المفردة.

فقد جاء في مقدّمة الشّافيّة لابن الحاجب كلامٌ بليغٌ عن فائدة علم الصّرف، وأهميتــه مفادهُ: "أنَّ مَنْ أرادَ أنْ يكون له منحةٌ من الكتاب الإلهيّ، والكلام النّبــوِّي، فليصــرف عنان همَّته إلى علم الصّرف، فيجعله نصب الطّرف، مشمّرًا عن ساق الْجــدِّ ليغــوصَ في تيار بحار الكتابِ وفرائدهِ، ويتفحص لطائف الكلام النّبوِّي وفوائدهِ، فإنَّ مَــنْ اتَّقــى اللهَ في تنزيلهِ، وأجال النّظر في تعاطي تأويله، وطلبَ أنْ تكمَّلَ له ديانته، وأنْ تصحَّ لهُ صلاته وقراءته، وهو غير عالم بهذا العلم، فقد ركب عمياء، وخبط خبط عشواء، إذْ بهِ تنحلُ العُويصات الأبيّةُ وتعرفُ سعةُ اللّغة العربيّة"[1] ، ومن ثمَّ وجب المعرفة والإلمام بعلم الصّرف حتّى يتهيأ لنا فهم مقاصد الْخطاب الْقرآنيّ، وإقامةِ معانيهِ علــى الْحقيقــةِ كمَا يتسنى للدّارس استنباط أحكام الشّريعةِ.

في ظلِ هذَا الطَّرحِ، وبالتّساندِ إلى هذهِ التّغييرات الَّتي تمسُّ بُنيةَ الْكلمةِ في اللّغةِ العربيّةِ، واستجابةً للمسعى العام لموضوع الملتقَى "الْقرآنُ الْكريمُ، واللّغةُ العربيَّــةُ" وبخاصة المحور الثّاني من محاور الملتقى "علوم العربيَّة، والدِّراســات القرآنيّــة" تولدتْ لديَّ رغبةٌ مُلحةٌ لولوج علمِ الصّرف ولا سيما إذا مــا تعلَّــق هــذا العلــم بالْخطاب القرآنيّ، فكانَ أنْ وقعَ اختياري على موضــوعٍ، وَسَــمْتُهُ بــــ: "**البُنيــة الصّرفيّة، وأثرها في توجيه دلالة الْخطاب القرآنيّ**".

لذَا سأحاولُ من خلال هذه المداخلة الْوقوفَ علَى "الْبُنية الصّرفيّة، وأثرها فــي توجيه الخطاب القرآنيّ –سورة الْمطففين أنموذجًا–" إذْ سأنتقي تلوِّينــات صــرفيّة حدّدتها في ثلاث بُنياتٍ (اسم الفاعل، اسم المفعول، الفعل المزيد)، وما تضفيه مــن معانٍ على المستوى الدّلاليّ في الْجملة القرآنيّة، بالاتِّكــاء علــى عتبــةٍ إجرائيّــةٍ سأحاولُ من خلالها التّعمق في سورة المطففين، قصدَ ملامســةِ مــا تكتنــزهُ مــن تلوِّيناتٍ صرفيّة ودورها في توجيه دلالة الخطاب القرآنيّ.

ومِنْ ثمَّ انْبَثقت إشكاليّة هذا البحث على النّحو الآتي:

❖ **ما أثرُ البُنية الصّرفيّة على المستوى الدّلاليّ في الخطاب القرآنيّ؟**

❖ **هلْ يمكنُ فهم مقاصد الخطاب القرآنيّ فهمًا صحيحًا بعيدًا عن علم الصّرف؟**

1– **الْبُنية الصَّرفيّة بين التُّراثِ، والطِّرح اللِّسانيِّ**: يُعدُّ علمُ الصَّرفِ من أجَــلِّ علوم اللّغةِ العربيَّةِ، فلقد كانَ في طور نشوئهِ مندمجًا في النّحوِّ واللّغة والأدبِ تحت مُسمى "علم اللّغة"، على شكل مسائل متفرّقة في كُتبِ النَّحوِّ، بدْءًا بكتــابِ ســيبويه الَّذي تعرض لكثيرٍ من قضاياه ومسائلهِ، دون تصنيفٍ لها ولا تبويبٍ، وقــد حــذَا حذْوهُ في ذلك الزّمخشريّ، والمازنيّ، وابن جنيّ، ثمَّ " أخــذتْ بحــوثُ الصَّــرفِ شكلها الأخيرِ علَى يَدي ابن الْحاجب الّذي هذَّبَ مسائلهُ، ورتَّبَ أبوابهُ، وجمعَ مــا تقدَّمَ من مسائلهِ في الْكُتب الأخرى، فكانَ كتابهُ (الشَّافيّة) من خيــرة الْكتــبِ الّتــي أخرجتْ في الصَّرفِ من ناحية الإحاطةِ والتّبويبِ"[2]

ومن الَّذين قدّموا في علم الصّرف بحوثًا تتسمُ بالطّرافة والمتعةِ ابن مالك فهو "من أواخر الَّذين بحثُوا في موضوعاتِ الصَّرفِ بحثًا شيِّقًا مُمْتِعًا، فقد فصَّل في أبوابهِ ومسائلهِ، ولم يجيء من بعدهِ مَنْ أتَى بجديدٍ أو ببحوثٍ فيها طرافةٌ، وفيها مُتعةٌ، وكلُّ ما فعلهُ المُتأخرونَ هو تلخيص الْكُتب المتقدِّمة أو شرحها، والتّعليق عليها كما في شروح الشّافيّةِ الْكثيرةِ، وشروح ابن مالك، ولا سيما الألفيّة والتّسهيل"[3]

وقد تبوَّأ علم الصّرف منزلة رفيعة في علوم اللّغة، حيثُ قدّمه بعض علماء العربيّة من أمثال ابن جنيّ، وابن عصفور على النّحو، لكونه يبحثُ في ذواتِ الْكَلِمِ، وأحوالها بغض النّظر عن التّراكيبِ، على خلاف النّحو الّذي لا ينظرُ في أحوال الكلمات المفردة إلاَّ بعد التّركيب، وهو رأي ابن عصفور في قوله: "فإنَّ معرفةَ الشّيء قبل التّركيبِ، مُقدَّمةٌ على معرفته بعد تركيبهِ"[4]

المعنى نفسه أشار إليه ابن مسعود، فهو بالنسبة له الأصل حيثُ يقولُ: "اِعلمْ أنَّ الصَّرفَ أمُّ الْعلومِ، والنّحوَ أبوها"[5]، وهذا الوصفُ بالأمِّ كنايةٌ عن أنَّهُ به تتولَّدُ الْكلماتُ، وتتكاثرُ الألفاظُ.

ومازال الدّرس الصّرفيّ يحظى بالدّراسة والاهتمام من قبل علماء اللّغة المحدثين من خلال ما توصلوا إليه في الدّرس اللّساني الحديث، ما يجعلنا أمام ضرورة تحديد مصطلحي (البُنية، والصّرف) بين التّراث، والدّرس اللِّساني الحديث.

أ- **مصطلح (البُنية، الصّرف) في التُّراث:** البنيةُ الصّرفيّةُ؛ مصطلحٌ ينقسمُ إلى قسمين: البنية، الصّرف.

يتعدّدُ مفهوم كلمة (البنية) تعدّد اتِّساع معنًى، ولا تناقض فيه، ويجتمع أكثرها حول جوهر الشّيء وشكله، ومن ذلك دلالتها على الهيئة، كما وردَ في لسانِ العربِ لابن منظور ت(711ه) : "البِنْيَةُ والبُنْيَةُ ما بَنَيْتَهُ وهو البِنَى والبُنَى ...يُقالُ بِنيَةُ وهي مثل رِشوة ورشَا، كأنَّ البِنية الهيئة الّتي بُنيت عليها مثل المِشية والرِّكبة، والْبُنَى

بضمٍّ المقصور، مثل البُنَى يقالُ بُنية وبُنًى وبِنية وبِنَى بكسر الباء مقصــور مثــل جِزية وجزى، وفلان صحيح البنية أي الفطرة، وأبنيتُ الرَّجلَ أعطيتهُ بنًــى ومــا يبتني به الأرض." [6]

وبنيةُ الكلمة عند نحاتنا العرب، يعرفها ابن الحاجب بقوله: "المّرادُ مــن بنــاء الكلمة، ووزنها، وصيغتها، هيئتها الّتي يمكنُ أنْ يُشاركها فيها غيرُها، وهي عــددُ حروفها المرتَّبةُ، وحركاتها المعيّنة، وسكونها مع اعتبار الحروف الزّائدة والأصليّة كلٌّ في موضعه؛ فَرَجُلٌ مثلًا على هيئةٍ وصفةٍ يشاركه فيها عَضُدٌ، وهي كونه على ثلاثةٍ أولها مفتوحٌ، وثانيها مضمومٌ، أمَّا الحرف الأخير فلا تُعتبرُ حركتُهُ وســكونهُ في البناء، فرَجُلٌ و رَجُلًا ورَجُلٍ على بناءٍ واحدٍ، وكذا جَمَلَ على بناء ضَرَبَ؛ لأنَّ الحرف الأخير لحركة الإعراب وسكونه، وحركة البناء وسكونه" [7]

نجدُ ابن الحاجب يضعُ ضوابط دقيقة يحدّد من خلالها بنية الكلمة:

1- عدد حروفها المرتّبة؛ فَعَقلَ بنيةٌ، وقَلَعَ بنيةٌ أخرى.

2- حركاتها المعيَّنة وسكونها؛ فَعَلِمَ بنيةٌ، عِلْمٌ بنيةٌ ثانية، وعُلِمَ بنيةٌ ثالثةٌ [8]

من خلال التعريف اللّغويّ والاصطلاحيّ لمصطلح (البنية) نجده يعنــي هيئــةُ الكلمة، غير أنّ ابن الحاجب قد عدَّ الصّيغة والوزن والبنية جميعًا بمعنًى واحدٍ، إلاَّ أنَّ من المحدثين مَنْ فرَّق بين هذه المصطلحات الثلاثة.

أمّا مصطلح الصّرف لغة[9]: من صرف الشيء، ردَّه على وجهــه، وصــرف الأجير من العمل: خلَّى سبيله، وصرف المال: أنفقه، وأصــرف الشَّــراب: قدَّمــه صِرفًا لم يمزجه بغيره. وصارف نفسهُ عن الشيء: تكلَّف صَرْفها عنه.

وصرَّف الأمرَ: دبَّرهُ، وبيَّنهُ، وفي التّنزيل: "ولقدْ صَرَّفنا للنّاسِ في هَذَا الْقُــرآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ"[10]، واصْطَرفَ: تصَرَّفَ فِي طلبِ الْكسبِ، وانْصرفَ عنــهُ: تَحــوَّلَ

عنه. قال اللهُ تعالى: "ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهم"[11]، وتصرَّف: تقلَّبَ فيهِ، ومنهُ تصاريف الرِّياح تقلبها في وجهاتها.

وفي تراثنا العربيّ فقد حدَّهُ ابنُ الحاجب بقوله: "التّصريف علمٌ بأصُولٍ تُعـرفُ بهِ أحوالُ أبنيةِ الْكلم الّتي ليستْ بإعرابٍ"[12]

فعلمُ الصّرف من وجهة رأي ابن الحاجب ليسَ هوَ نفسُ التّغيير الّذي يطرأ علَى الكلمة فيحولها من بنيةٍ إلى أخرى، ولكنهُ العلم بذلك التّغيير، وصـوَّره المتنوِّعـة فهو "مجموعةٌ من الْقواعدِ والأصولِ الّتي تهدينا إلَى معرفة الأوضاع الّتـي تـأتي عليها أبنيةُ الْكلمِ"[13]، "ويعملُ علَى وضعِ تصنيفاتٍ متنوِّعةٍ لأشكال الأبنيةِ، وأحوالها المُختلفة، وما يطرأُ عليها من تغييرٍ في ذواتها"[14]

فبالنّظر إلى التّعريف اللّغوّي لمصطلح (الصّرف) نجده ينحصر في ثلاثة معانٍ وهي: التّغيير والتّحويل والتّصريف، ولا يخرجُ ما في المعاجم العربيَّة عـن هـذه الْمعاني، أمّا اصطلاحًا فنجد له في كتب التّراث معنيان أحـدهما عملـيّ ويوافقـه مصطلح (التّصريف)؛ وهو تحويل الأصل الْواحد إلى أمثلة مُختلفة لمعانٍ مقصودة لا تحصلُ إلاَّ بها، كتحوِّيل المصدر إلى اسمَي الفاعل والمفعول، واسم التّفضـيل، واسمي المكان والزَّمان، والجمع، والتّصغير، والآلـة، والثّـاني علمـيّ ويوافقـه مصطلح (الصّرف)؛ وهو مضمون ما جاء فـي تعريـف ابـن الحاجـب لعلـم الصّرف[15]

ب- مصطلح (البنية، الصّرف) في الدّرس اللّساني الحديث: يعـرف الـدّكتور تمّام حسّان البنية على أنّها " إطارٌ ذهنيّ للكلمة المفردة، وليست هـي الكلمـة ذات المعنَى المفرد"[16]، ومن الأمثلة الْعمليّة الّتي ساقها للتوضيح نذكر[17]:

صيغة فاعل= بنية عامة لعدد عظيم من الكلمات، وهي ذات معنًى وظيفيّ صرفيّ.

كلمة (كاتب)= عند إفرادها على صفحة المعجم تعدُّ كلمة منطوقة بالقوّة لا بالفعل.

فتمّام حسان يعدّ البنية مفهومٌ صرفيّ لا ينطقٌ، وهو بهذا يميّز البنية عن الكلمة واللّفظ؛ فالكلمة حسبه مفهومٌ معجمي منطوقٌ بالقوّة، في حين اللّفظ عنــده مفهــومٌ استعماليّ تتحقّق به الكلمة بالفعل بوساطة النّطق أو الكتابة في محيط الجملة.

وهو ما ذهب إليه المحدثون حين فرّقوا بين المصطلحات الصّرفيّة كالتّفريق بين الصّيغة والبنية والوزن، فكلّ مصطلح عندهم له دلالة خاصة، مثلما ورد في معجم المصطلحات النّحويّة والصّرفيّة، إذْ نجدُ تعريف البنية على النّحو الآتي "بنية الكلمةِ وبناؤها، ومبناها ألفاظٌ مترادفة، تعني كلّها ذات اللّفظ وتركيبه ومادّتــه وأصــوله فللحرف مَبناه وبُنيته، وبناؤه، وللاسم والفعل كذلك، ولعلَّ المقصود من هذا التّعبير هو عدّة الحروف مع الهيئة الّتي تكون عليها، فبُنية الفعل (نزلَ) تعني حروفه الّتي يتكوَّن منها، والهيئة الّتي تنتظم هذه الحروف من حركةٍ أو سكونٍ، ويظلُّ للكلمــة الواحدة معناها الّذي وُضعت من أجلهِ حتّى إذا ما زيدَ فــي بنيتهــا أو مبناهــا، أو نقُص منهما تغيَّر معناها ومدلولها، أو زادَ مفهومها وما ترمي إليهِ"[18]

أمّا إذا عرجنا إلى مصطلح الصّرف في " الدّرس الصّرفيّ الحديث –وهو فرعٌ من فروع اللّسانيات، ومستوى من مستويات التّحليل اللّغوِّي– يُعنى بتناول البنية الّتي تمثّلها الصّيغ والمقاطع، والعناصر الصّوتيّة الّتي تؤدي معاني صرفيّة أو نحويّة"[19]

ويطلقُ بعض الدّارسين المحدثين على هذا الــدّرس مصــطلح المورفولــوجيّ (Morphology)، ولقد بيَّن سوسير موضوع علم المورفولوجيا بأنّه "يُعالج الأشــكال المختلفة للكلمات (أسماء، أفعال، صفات، ضمائر)، وأنّ الفرقَ بينــهُ، وبــينَ علــم التّركيب أنَّ الثَّاني يهتمُ بتحديد الْوظائف الوحدات الصّرفيّة الّتي تتحقَّق بهــا كــلُّ وظيفةٍ، بينما لا يتناولُ علم المورفولوجيا إلاَّ أشكال تلك الوحدات"[20]

نفس المفهوم أشار إليه الدّكتور تمّام حسّان فهو يعرف علم المورفولوجيا بأنّــه "ذلك العلم الّذي يتناولُ النّاحية الشكليّةَ التركيبيّة للصيغ والموازين الصّرفيّة"[21]

والوحدة الصَّرفيّة والّتي يصطلح عليها في الدّرس اللّسانيّ الحـديث بـالمُورفيم (Morpheme) هي أساس التّحليل الصّرفيّ الحديث، "فإذا كانَ علمُ الصّـرف فـي العربيّة يتَّخذُ من البنية الصّرفيّة للكلمة وحدة صغرى تقومُ عليها الدّراسة، فإنَّ علم (المورفولوجيا) يستبدلُ بها وحدة أخرى تعرف باسم (المورفيم)"[22]

ورغم اختلاف المصطلح العربيّ عن المصطلح الأجنبيّ "لأنَّ إطلاق مصـطلح قديم ذي معالم واضحة، وحدود مرسومة، وتصوّر معروف على ما يعنيه مصطلح جديد يختلف عنهُ في كلِّ هذا أو بعضه أمرٌ يورثُ هذه الحيرة، وتلـك البلبلـة"[23] نجدُ في المقابل بعضًا من اللّغويين المحدثين من العرب يرون أنّ "موضـوع علـم المورفولوجيا مُشابهٌ لموضوع علم الصّرف عند علماء العربيّـة، وأنَّ اهتمامـات المورفولوجيين، إنْ صحَّ التّعبير تُقاربُ اهتمام الصّرفيين العرب؛ فهي تتمثَّلُ فـي وصف أشكال الأبنية، وأوضاعها المختلفة ولكن تبقى هناك بعض الفوارق الدَّقيقـة الّتي قد تفرضها طبيعةُ اللّغة، ومنهج الدِّراسة"[24]

بناءً على ما سبق نتوصل إلى أنَّ "البنية الصّرفيّة هي الوحدة الّتي يدرسها علم الصّـرف ويصفُ صورَّها، وهيئاتها الّتي تتشكّلُ لها، ويفسرُ ما يطرأُ عليها من تغييراتٍ"[25]

وهو المعنى نفسه الّذي أشار إليه الرّضيّ في تحديده لمفهوم البنيـة هـذا فيمـا يخصّ مفهوم البنية الصّرفية في التُّراث، أمّا تعريف البنية الصّرفيّة في الدّراسـات اللِّسانيّة فهي علمٌ يدرسُ بنية الْكلمات، وأشكالها لا لذاتها، وإنّما لغرضٍ دلالـيّ أو لغرضٍ صرفيّ يفيدُ خدمة الجمل والعبارات[26]

وعليه فإنَّ البنية الصّرفيّة لها أثر في توجيه الدّلالة داخل الْخطـاب أو الـنّص وهذا ما سنحاول الوقوف عليه من خلال بعض التّلوّينات الصّرفية المختـارة فـي سورة المطفِّفين.

2- **التّلوِّينات الصّرفيّة، والمستوى الدّلاليّ:** من أهم أبواب علم الصّرف نجد: المشتقات، والمجرد والمزيد، وتقسيم الفعل إلى أزمنته المختلفة، والتّنكير والتّعريف، والمتعدي واللازم، والمتصرف والجامد ...فالبحث في هذه المسائل وأمثالها بحثٌ صرفيٌّ صميمٌ، إذْ يخدمُ الْجملةَ، ويجعلها ذات معانٍ مختلفة.

وبناءً على ذلك اخترنا من المشتقات اسمي الفاعل والمفعول، ومن أبحاث الفعل اخترنا الفعل المزيد، باعتبار هذه البنيات بنياتٌ صرفيَّةٌ قائمة بذاتها، تحملُ في طياتها أبعادًا دلاليّةً خاصةً.

أ- دلالة اسم الفاعل في الجملة القرآنيّة: اسمُ الفاعل من المشتقّات الّتي وقعَ خلافٌ كبيرٌ بين النّحاة واللّغويّين في أحكامه، فقدْ اختلفُوا في كونه اسمًا أو فعلًا كما اخْتلفُوا في دلالتهِ الزّمنيَّة على الماضي والحال والاستِقبال، واختلفوا في دلالته على الحدُوث أو الثّبات.

أمّا عن ماهيته؛ فإنَّ اسم الفاعل "...يدلُّ على الحدثِ والحدوث وفاعله، ويُقْصَدُ بالحدث: معنى المصدر، وبالحدوث ما يُقابلُ الثّبوت"[27]؛ فإذا قلتَ (قارئ): فتلك الصّيغة دلّت على أمرين: الحدث وهو القراءة، والفاعل وهو الّذي يقوم بالقراءة[28]

وممّا وردَ في سورة المُطفِّفين من اسم الفاعل قوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ﴾[29].

الشّاهد هنا: اسم الفاعل (الْمُطَفِّفِينَ) من الفعل المضارع المتعدِّي (يُطَفِّفُ)، وهو جمع (مُطَفِّفُ)؛ أي على وزن (مُفَعِّلُ)، وماضيه (طَفَّفَ)؛ وطفَّفَ الكيل: قلّلَ المكيلَ لهُ في إيفائهِ واستيفائهِ[30]

ومن حيث فصيلة التّعيين: اسم الفاعل (المُطَفِّفين) جاء مقترنًا بأل، فقد أوردَ الأزهريّ ما نصُّهُ: "فإن كانَ اسم الفاعل صلّة (أل) عمل عَمَلَ فعله مُطلقًا ماضيًّا كانَ أو غيره، معتمدًا أو غير معتمدٍ، تقول: "جاءَ الضّارب زيدًا أمس أو الآن أو

غدًا"، فالضّاربُ اسم فاعل فيه ضمير مستتر تقديره "هـو"، وزيـدًا مفعـول بـه منصوب باسم الفاعل "ضارب" و(أل) هذه موصولة و(ضارب) حلَّ محلَّ (ضَرب) إنْ أريدَ المعنى أو (يضرب) إنْ أريدَ غيرهُ، والفعل يعملُ في جميع الحالات فكـذا ما حلَّ محلَّه"[31].

أمّا ابنُ يعيش فيرى أنَّ الألف واللّام بمعنى الّذي، واسم الفاعل بمعنـى الفعـل يقولُ: "وإنّما عمل لأنَّ الألف واللّام فيه بمعنى الّذي، واسم الفاعـل المتّصـل بهـا بمعنى الفعل، فلمّا كانَ في مذهب الفعل عَمِلَ عملهُ، فهو اسمٌ لفظًا، وفعل معنًـى، وإنّما حوّل لفظ الفعل فيه إلى الاسم؛ لأنَّ الألف واللّام لا يجوزُ دخولهما على لفـظ الفعل، فكانَ الّذي أوجبَ نقلَ لفظه حكمٌ أوجبَ إصلاح اللّفظ، ومعنى الفعـل بـاقٍ على حاله"[32]

ومن هنا نلحظُ أنَّ اسم الفاعل المعرّف بالألف واللّام هو في الحقيقة فعـلٌ، وأنَّ الألف واللّام موصولة، واسم الفاعل بمعنى الفعل، وبالتّالي فهو يعملُ ماضيًا وحالًا ومستقبلًا وهو المشهور من قول النّحويّين.

وبناءً على ما تقدّم فإنَّ اسم الفاعل (المُطَفِّفين) وردَ في الآية الكريمـة بمعنـى الفعل (يطفِّف)، والألف واللّام بمعنى الذي؛ أي: ويلٌ للّذين يُطفِّفون، فاسم الفاعـل هنا يعمل عمل فعله المتعدّي، فبنية (المطفِّفين) هي اسم لفظًا، ومن دلالـة الاسـم ثبات الوصف، وفعل معنًى، ومن دلالة الفعل التّجدد، وعليه فإنَّ لهذه البنية دلالـة على التّطفيف على أنّه صفةٌ ثابتةٌ في من يتصف بها، أمّا طريقة حدوث التّطفيـف فهي تتّجددُ و تتغير حسب العصر ومقتضيات الحياة، كمـا أنَّ البنيـة (المُطفِّفـين) تعمل ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا.

وأمّا من حيث فصيلة العدد، فإنّ بنية (المُطفِّفين) جاءت علـى صـيغة الجمـع المذكّر السّالم، "فإنَّ هذا الجمع يدلُّ على القلَّة في الجوامد، وأمّا في الصّـفات فـإنَّ دلالته على القلَّة ليست مطردة بلْ نستطيع أنْ نقولَ: إنَّ الأصل فيـه يـدلُّ علـى

الْحدث، فجمعُ الصّفات جمعًا سالمًا يُقرِّبُها من الفعليَّة، وتكسيرها يبعدها من الفعليّة إلى الاسميّة"[33].

وجاء في "شرح الرّضي على الشّافية": "اِعلمْ أنَّ الأصلَ في الصِّفات أنْ لا تُكسرَ لمشابهتها الأفعال، وعملها فيلحقُ للجمع بأواخرها ما يلحقُ بأواخر الفعل وهو الواو والنّون، فيتبعه الألف والتّاء لأنّه فرعه...ثمَّ إنّهم مع هذا كلِّه كسَّروا بعض الصّفات لكونها أسماء كالجوامد، وإنْ شابهت الفعل، وتكسير الصّفات المشبّهة أكثر من تكسير اسم الفعل في الثّلاثي إذْ شَبَهُها بالفعل أقلّ من شبهه"[34]

يتّضح ممّا سبق أنَّ اسم الفاعل (المطفِّفين) يفيدُ الفعليّة باعتبار أنَّ اسم الفاعل "صفةٌ تؤخذُ من الفعل المعلوم لتدلَّ على معنى وقعَ من الموصوف بها، أو قَامَ به على وجه الحدوث لا الثّبوت"[35].

أمّا من حيث الدّلالة، فبناء (المُطَفِّفين) جاء على زنة (مُفَعِّل)، وهي من الصيغ الصّرفيّة الّتي تأتي للدّلالة على التّعديّة كما تأتي للدّلالة على التّكثير[36]

استنِادًا على تحليل البنية الصّرفيّة للبناء (المُطفِّفين) يتّضح لنا معنى هذه البنية فالمطفِّفون "جمع (المطفِّف)، وهو اسم فاعل للفعل (طفَّفَ) بمعنى: نقص الشّيء قليلًا ويتعدَّى إلى المفعول. فيقال: طفّفَ المكيال أو الميزان تطفيفًا: بمعنى: كَالَ أو وزن ولم يُوفِ، والطَّفيف: مثل (القليل) وزنًا ومعنًى، ومنه قيل لتطفيف المكيال والميزان تطفيف...وقد طفّفهُ فهو مُطفِّف –اسم فاعل– إذا كَالَ أو وزن ولم يوفِ"[37].

أمّا عن السّياق فقد وردَ اسم الفاعل (المطفّفين) بعد المبتدأ (ويلٌ) الّذي "جاء نكرةً لأنّهُ مُتضمِّن معنى الفعل بدعاءٍ"[38]، والدّعاء لا تكون إجابته إلاّ في المستقبل يقول المبرِّد: "واِعلَمْ أنَّ الدّعاء بمنزلة الأمر والنّهي"[39]، ممّا يوضح الدّلالة الزّمنية على المستقبل، فاسم الفاعل (المُطفِّفين) يدلّ على الزمن المستقبل.

ب- دلالة اسم المفعول في الجملة القرآنيّة: من تعريفات اسم المفعول الواردة في كتب النّحو أنّه "مَا اشتُق من المصدر للدّلالة علـى صـفةِ مَـن وقـع عليـه الحدث"[40]، ووردَ في جامع الدّروس العربيّة "صفةٌ تؤخذُ من الفعل المجهول للدّلالة على حدثٍ وقع على الموصوف بها على وجـه الحـدوث والتّجـدد، لا الثّبـوت والدّوام"[41]، وعند عباس حسن: "هو اسمٌ مشتقٌ يدلُّ على معنًى مجرد غيـر دائـم وعلى الّذي وقع عليه هذا المعنى، فلا بُدَّ أنْ يدلَّ على الأمرين معًا... مثل كلمـة: (محفوظ) و(مصروع) "[42].

إذن فهو يُقصد به لدى الصّرفيين بأنّه الوصفُ المشـتق مـن الفعـل المبنـي للمجهول، للدّلالة على من وقع عليه الفعل.

ومن ذلك يُفهم أنَّ اسم المفعول هو ما تحقَّقت له الصِّفات التَّالية:

أ- أنْ يكون وصفًا، وهو بذلك يشتركُ مع كلِّ الأسماء المشـتقّة الدّالـة علـى الوصف.

ب- أنْ يكون مأخوذًا من الفعل المبني للمجهول، وبذلك يتميز عن اسم الفاعل.

ج- أنْ يكون دالًا على من وقع عليه الفعل، وبذلك يتميز عن أسماء الأوصـاف من نحو (محمود، مَكروه، مذموم، منتقى، مُكرَّم)[43].

وممّا ورد في سورة المطفِّفين من اسم المفعول قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾[44]

الشّاهدُ هنا: (محجوبون)، وهو "جمع مَحْجُوب، اسم مفعول من الثّلاثي حُجِـب وزنه مفعول"[45]؛ ومصدرهُ (الحَجْب)، "والحجبُ هو السّتر، ويستعمل في المنع من الحضور لدى الملك، ولدى سيِّد القوم"[46]

ومن حيثُ فصيلة التّعيين: جاء اسم المفعول (مَحْجُوبُون) مجردًا من (أل)، غير عامل، "كما أنّه من حيثُ الدّلالة على الزمن يُقال فيه ما قيل في اســـم الفاعـــل"[47] فيدلُّ على الزّمن الماضي إذا كانَ مضافًا، ويدلُّ على الزّمن الحاضر أو المســـتقبل إذا كان عاملًا غير معرّف بـــ(أل)، ويدلُّ على الماضي أو الحاضر أو المستقبل إذا كانَ معرَّفًا بـــ(أل).

فاسم المفعول (محجوبون) يدلُّ على من وقع عليه الحجب أي المُكذِّبون؛ وهـــم الّذين "يُكذِّبون بيوم الدِّين والمُجازاة"[48]، وممّا ورد في تفسير معنى الحجـــاب مـــا ذهب إليه الطّبري: "إنَّ اللهَ تعالى ذِكرُهُ أخبر عن هؤلاء القوم أنّهـــم عـــن رؤيتـــه محجوبون؛ ويحتمل أنْ يكون مرادًا به الحِجاب عن كرامته، وأنْ يكون مرادًا بـــه الحجابُ عن ذلك كلِّه، ولا دلالة في الآية تدلُّ على أنّه مرادٌ بذلك الحجـــاب عـــن معنًى منه دون معنًى ...فالصّواب أنْ يقال: هم محجوبون عن رؤيته وعن كرامته إذْ كان الخبرُ عامًا لا دلالةً على خصوصيّة"[49].

وبناءً على ذلك تتّضح الدّلالة الزّمنيّة للبناء (محجوبون)، وهي دلالـــة الـــزّمن المستقبل، لما وردَ في الآية الكريمة من قرائن دالة على الاستقبال؛ وهي القرينـــة الزَّمنيّة (يومئذ) الّتي توحي بوقوع هذه الأحداث يوم العرض على الله تعـــالى فـــي يوم القيامة.

وأمّا من حيث فصيلة العدد، فإنَّ بنية (مَحْجُوبُون) جاءت على صـــيغة الجمـــع المذكّر السّالم، وقد أشار صاحب كتاب شذّ العرف "أنَّ كلَّ ما يجري على الفعل من اسمي الفاعل والمفعول، وأوّله ميمٌ فبابه التّصحيح أي جمع التّصحيح السّـــالم، ولا يُجمع تكسير لمشابهته الفعل لفظًا ومعنًى"[50]. فلم يرد من اسم المفعول في القـــرآن الكريم إلاّ الجمع السّالم، وذلك أنَّ الجمع السّالم أكثر دلالةً على الوصف، المســـتفاد من فعله الّذي اشتق منه، وهذا من دلائل الإعجاز في القرآن الكريم[51]

ومن حيث الدّلالة الّتي نستقيها من السّياق نجد الخطاب في الآية (14) في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [52] جاء جملة فعليّةً، في حين كان الخطاب في الآية(15) في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [53] جملةً اسميّةً.

هذا العدول في الخطاب من الجملة الفعليّة إلى الجملة الاسميّة فيه ضربٌ من التَّأكيد والمبالغة، يقول الطّبري: "وإنَّما يُعدلُ عن أحدِ الخطابين إلى الآخر لضربٍ من التّأكيد والمبالغةِ، فمن ذلك قولنا: قامَ زيدُ، وإنَّ زيدًا قائمٌ، فقولنا: (قَامَ زيدُ) معناه الإخبار عن زيدٍ بالقيام أيضًا، إلاَّ أنَّ في الثَّاني زيادةً ليست في الأوّل، وهي توكيده بإنَّ المُشدَّدة الّتي من شأنها الإثبات لما يأتي بعدَها، وإذا زِيدَ في خبرها اللّام، فقيل: إنَّ زيدًا لقائمٌ، كان ذلك أكثر توكيدًا في الإخبار بقيامه"[54].

يستنتج ممّا سبق أنَّ دلالة السّياق الّتي ورد فيها البناء (مَحْجُوبون)، والّتي تضمَّنتها الجملة الاسميّة المؤكّدة بـ(إنَّ) المشدّدة، واللّام المزحلقة في الخبر (محجوبون)، تحمل معنى التّوكيد.

ج- دلالة الفعل المزيد في الجملة القرآنيّة: الفعل ركنٌ مهمٌ في بناء الجملة العربيّة، يقول عنه سيبويه: "وأمّا الفعل فأمثلةٌ أخذتْ من لفظ أحداث الأسماء وبُنيت لما مضى، ولما يكون ولم يقعْ، وما هو كائن لم ينقطع"[55].

ويقصد سيبويه بأحداث الأسماء المصادر، يقول معقبا " والأحداثُ نحو الضّرب والقتل والحمد"[56]

ويقسمُ الفعل إلى عدّة أقسامٍ، وذلك وفقًا لعدّة اعتباراتٍ، منها تقسيمه من حيثُ التّجرد والزِّيادة في حروفه، ولأنّ موضوع تحليلنا الفعل المزيد، لذا سنكتفي بالوقوف عنده.

فالفعل المزيد "هو كلُّ فعلٍ زيدَ على حروفه الأصليّة حرف يسقط في بعض تصاريف الفعل لغير علّة تصريفيّة، أو حرفان أو ثلاثة أحرفٍ"[57].

وللفعل الثّلاثي المزيد أوزانٌ، و"أقصى ما يصله الثّلاثي المزيد ستة أحرفٍ، أي أنَّ الثّلاثي المزيد قد يكونُ مزيدًا بحرفٍ. مثل: أكرم، أو بحرفين مثل (انْكسر)، أو بثلاثة أحرف مثل (استخرج)، وتتراوح أبنية الثّلاثي المزيد بين 25 و29 بنية أو أكثر من ذلك"[58].

ومن أوزان الفعل الثّلاثي المزيد بحرفين نجد صيغة (انْفعل)، فقد عدّ البناء (انْفعل) من الأبنية الّتي لم تجيء على وزن الرّباعي، ولم يلحق به[59]

ولقد وردت في سورة المطفِّفين أبنية الأفعال المزيدة على صيغتي الماضي والمضارع، ومن بين هذه الأبنية بناء الفعل الثّلاثيّ المزيد بحرفين، وتحديدًا صيغة (انْفَعَل)، الواردة في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴾[60].

الشّاهد هنا: البناء (انْقَلَبُوا)؛ فعل ماضٍ من الثّلاثي (قَلَبَ)، المزيد بحرفين: همزة الوصل، ونون قبل فائه، وسرّ الإتيان بهمزة الوصل أنَّ النّون وقعت في أوّل الفعل وهي ساكنة، والعرب لا تبتدئ بساكن، فجعلوا همزة الوصل للتّوصل إلى ساكن.

وهو مشتق من المصدر: الانقلاب؛ والانقلاب: الرّجوع إلى الموضع الّذي جيء منه، يقال: انْقَلبَ المسافرُ إلى أهله، وفي دعاء السّفر "أعوذُ بك من كئابة المنقلب" وأصله مستعارٌ من قَلَبَ الثّوب،

إذا صرفه من وجهٍ إلى وجهٍ آخر، يُقال: قَلَبَ الشيء، إذا أرجعه.

وأهل الرّجل: زوجه وأبناؤه، وذكر الأهل هنا لأنّهم ينبسط إليهم بالحديث، فلذلك قيل (إلى أهلهم) دون: إلى بيوتهم[61].

ولصيغة (انْفَعل) دلالة في المعنى، فهي تأتي لمعنًى واحدٍ، حسب بيانات المفسرين، وعلماء علوم القرآن، والصّرفيين، وهو المطاوعة، ولذلك لا يكون إلاَّ

لازمًا، إلاَّ في الأفعال العلاجيّة، ويأتي لمطاوعة الثّلاثي كثيـرًا، مثـل: كسـرتهُ فانْكسرَ، وقطعته فانْقطعَ.

وفائدة المطاوعة هي "أنَّ أثرَ الفعل يظهرُ على مفعوله، فكأنّما استجابَ لـهُ ولذلك سمِّيت هذه النّون نون المطاوعة"[62].

كما أنَّ لورود البناء (انْقلبُوا) مرتين، فائدة بلاغيّة، وهـي الإطنـاب بـالتّكرير؛ إذ "تكرير الفعل (انْقلبُوا) بقوله (انْقلبُوا فاكهين) من النّسج الجزل في الكلام، كان يكفـي أنْ يقول: وإذا انْقلبوا إلى أهلهم فَكِهُوا، أو إذا انْقلبُوا إلى أهلهم كانُوا فاكهين، وذلك لما فـي إعادة الفعل من زيادة تقرير معناه في ذهن السّامع لأنّه ممّا ينبغي الاعتناء به، ولزيـادة تقرير ما في الفعل من إفادة التّجديد حتّى يكون فيه استحضار الحالة"[63].

وأمّا من حيث الدّلالة الزّمنيّة للفعل فهو يدلُّ على الماضي، و"(إذا) في المواضع الثّلاثة مستعمل للزمان الماضي"[64].

نستنتج ممّا سبقَ أنَّ المبنى الصّرفيّ (انْقلبُوا) فعل ثلاثي مزيد بحـرفين، جـاء على زنة (انْفعل) الدّالة على المطاوعة، ولهذا البناء إيحاءات دلاليّـة تتمثّـل فـي إضفاء معنى التّقرير إلى جانب التّجديد من خلال تكرير الفعل (انْقلبُوا)، إضافة إلى دلالته على الزّمن الماضي.

وفحوى القول في هذه المباحثة أنَّ "علم الصّرف عند اللِّسانيين العرب، فهو علمٌ يدرس الكلمات وأشكالها لا لذاتها، وإنّما لغرضٍ دلاليّ أو لغـرضٍ صـرفيّ يفيـد خدمة الجمل والعبارات"[65]، وفي المقابل نجده في اللِّسانيات العصريّة يُعنى بوصف القواعد الّتي تحدِّد البنية الدّاخليّة للكلمات أي قواعد ترتيب الوحدات الصّرفيّة الّتـي تكوِّن الكلمات إضافةً إلى وصف قواعد البنية الدّاخليّة للكلمات، وقواعـد التّرتيـب التّركيبي للجمل[66].

نتائج البحث: توصّل البحث إلى مجموعة من النتائج، أهمها:

- علمُ الصّرف من أجلِّ علوم اللّغة العربيّة، أولاهُ المفسرون وعلماء الأصـــول أهميةً بالغةً، حتّى ذهب بعضهم إلى أنَّ تعلّمه -علم الصّرف- وجوب كفائيّ، لمـــا له من أثرٍ واضحٍ في كشف وإيضاح المقاصد الحقيقيّة، وبيان الأحكـــام الشّـــرعيّة الّتي يتضمَّنها الخطاب القرآنيّ.
- الصّرف يمسُّ الجانب الأوّل في التّركيب والكلام، وهو بنيـــة الكلمـــة إذْ أنَّ الكلمة لا تتحدّد دلالتها إلاَّ بالنّظر إلى بنيتها المورفولوجيّة، وما تضفيه هذه البنيـــة على هذه اللّفظة من إيحاءات.
- للبناء الصّرفيّ الواحد أكثر من وظيفة بحسب ما يقتضيه المعنى.
- اسم الفاعل يدلُّ على الثّبات في أصله، والحدوث فيه طارئ.
- لصيغة اسم الفاعل دلالات منها: دلالته علـــى الأزمنـــة (الماضـــي، الحـــال الاستقبال، الاستمرار)، دلالته على الثّبات، دلالته على الحدوث، دلالته على تأكيـــد المعنى ومبالغته.
- اسم الفاعل الوارد على وزن (مُفعِّل) في سورة المطفّفين يفيد التّكثير والمبالغة.
- اسم المفعول وصفٌ مشتقٌ من الفعل المبني للمجهول للدّلالة على من وقـــع عليه الحدث.
- فصيلتا التّعيين والعدد تعينُ على تحديد دلالة اسمي الفاعـــل والمفعـــول فـــي الخطاب القرآنيّ.
- من دلالات الفعل الثلاثيّ المزيد بحرفين (انفعل) الوارد في سورة المطفّفـــين الدّلالة على المطاوعة.

التّوصيات: علم الصّرف علم جليل بالغ الإفادة لا سيما إذا كانت الدّراســـة فـــي حقل الدِّراسات القرآنيَّة، وللوصول إلى كشف إعجاز النّص القرآني لا بدَّ أنْ يقرنَ علم الصّرف بعلم الأصوات، وخاصة أنّ هذا الأخير قد حظي باهتمام العلماء فـــي الدّراسات اللّسانيّة الحديثة.

الهوامش:

(1) ابن الحاجب، عثمان بن عمر الرّدينيّ، الشّافية في علم التّصريف، تحقيق: حسن أحمد عثمان دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، د.ت، ج1، ص:32.

(2) خديجة الحديثي، أبنيةُ الصّرف في كتاب سيبويه، منشورات مكتبة النّهضة بغداد، ط1، 1965م ص :39−40.

(3) المرجع السّابق، ص: 40.

(4) الإشبيليّ، ابن عصفور (ت762ه)، الممتع في التّصريف، تحقيق: فخر الــدّين قبــاوة، مكتبــة لبنان، بيروت، د.ط، د.ت، ص :23.

(5) ابن مسعود، أحمد بن علي، مراح الأرواح فــي الصّــرف، دار الكتــب المصــريّة، ط4، (د.ت) ص:03.

(6) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدِّين بن مكرم، لسان العرب، تحقيق: يوسف خياط، دار لسان العرب، بيروت، لبنان، مادة (بَنو).

(7) الإستراباذي، رضي الدِّين محمّد بن الحسن، شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق: محمــد نــور الحسن وآخرون، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، دط، دت، ج1، ص :02

(8) ينطرُ: لطيفة إبراهيم النّجار، دور البنية الصّرفيّة، وصف الظّاهرة النّحويّــة وتقعيــدها، دار البشير، عمان (الأردن)، ط1، 1994، ص:33.

(9) ينظر ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ط3، 1994م، مادة (صرف).

(10) سورة الإسراء: الآية89.

(11) سورة التّوبة: الآية 127.

(12) الإستراباذي، المصدر السّابق، ص:01

(13) محمود السّمرة ونهاد الموسَى، كتاب العربية: نظام البنية الصّرفيّة، وزارة التّربيــة والتّعلــيم وشؤون الشّباب، سلطنة عمان، ط1، 1985م، ص: 18.

[14] ينظر: الحملاوي، أحمد، شذا العرف في فنِّ الصّرف، المكتبة الثّقافيّة، بيروت، ص:18.

[15] خديجة الحديثي، المرجع السّابق، ص :23.

[16] تمّام حسّان، البيان في روائع القرآن، دراسة لغويّة وأسلوبيّة للنّصّ القرآنـــيّ، عـــالم الكتـــب القاهرة (مصر)، ط1، 1993، ص:17

[17] تمّام حسّان، المرجع السّابق، ص :17

[18] اللّبدي، محمّد سمير نجيب، معجم المصطلحات النّحويّة والصّرفيّة، مؤسســـة الرِّســـالة، دار الفرقان، الأردن (عمان)، ط1 ،1985، ص: 27.

[19] عبد المقصود محمّد عبد المقصود، دراسة البنية الصّرفيّة في ضوء اللِّسانيات الوصفيّة، الدّار العربيّة للموسوعات، بيوت (لبنان)، ط1، 2006، ص:93.

[20] ينظر: فرديناند دي سوسير، دروس في الألسنيّة العامة، ترجمة: صالح القرمـــادي وآخـــرين الدّار العربية للكتاب، 1985م، ص:202

[21] ينظر: تمّام حسّان، مناهج البحث في اللّغة، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، 1990، ص:170.

[22] لطيفة النّجار، دور البنية الصّرفيّة في وصف الظّاهرة النحويّة وتقعيدها، ص:33.

[23] محمود أحمد نحلة، لغة القرآن الكريم في جزء عمّ، دار النّهضة العربيّـــة، بيـــروت، لبنـــان 1981، ص:382.

[24] لطيفة النّجار، دور البنية الصّرفيّة في وصف الظّاهرة النّحويِّة وتقعيدها، ص:27.

[25] لطيفة النّجار، المرجع نفسه، ص:32–33.

[26] ينظر: رابح بوحوش، البنية اللّغويّة لبردة البوصيري، ديـــوان المطبوعـــات الجامعيّـــة، د.ط 1993م، ص :83

[27] السّامرائيّ، فاضل صلاح، معاني الأبنية في العربيّة، دار عمّار للنّشر والتّوزيع، الأردن، ط2 2007م، ص:41

[28] ينظر: ياقوت، محمود سليمان، الصّرف التّعليميّ والتّطبيق في القرآن الكريم، مكتبة المنار الإسلاميّة، ط1 ،1999م، ص:220

[29] سورة المطفِّفين: الآية (1–2).

[30] الأصفهانيّ، أبو القاسم الحسين بن محمّد المعروف بالرّاغب، المفردات في غريب القرآن تحقيق: صفوان عدنان داؤودي، دار القلم، دمشق، الدّار الشّامية، بيروت، ط3، 2002م، مادة (طف)، ص:35.

[31] الأزهريّ، خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمّد الجرجاويّ(ت905هـ)، شرح التّصريح على التّوضيح، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط2000،1م، ج2، ص:65.

[32] ابن يعيش، ابن علي (ت643هـ)، صحّحه وعلق عليه حواشي نفيسة بعد مراجعته على أصول خطيّة بمعرفة مشيخة الأزهر المعمور، إدارة الطِّباعة المنيريّة، مصر، ج6، ص:77.

[33] السّامرائيّ، فاضل صالح، المرجع السّابق، ص126.

[34] الإسترباذي، المصدر السّابق، :116/2.

[35] الغلاييني، الشّيخ مصطفى، جامع الدّروس العربيّة، بيروت، المكتبة العصريّة، ط2 ،1973م، 182/1.

[36] ابن جني، أبو الفتح عثمان، المنصف، تحقيق: إبراهيم مصطفى، وعبد الله أمين، إدارة إحياء التراث القديم، ط1، 1954م، ج1، ص91.

[37] الشّيخلي، بهجت عبد الواحد، بلاغة القرآن الكريم في الإعجاز، إعرابًا وتفسيرًا بإيجاز مج10، (المجادلة–النّاس)، مكتبة دنديس، عمان (الأردن)، ط1 ،2001م، ص534.

[38] المرجع نفسه، ص535.

[39] المبرد، أبو العباس محمّد بن يزيد، المقتضب، تح: محمّد عبد الخالق عضيمة، وزارة الأوقاف المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، لجنة إحياء التّراث الإسلاميّ، القاهرة، مصر، ط1، 1994 ج2، ص130

(40) خديجة الحديثيّ، المرجع السّابق، ص280.

(41) الغلاييني، مصطفى: المرجع السّابق، ج1، ص135.

(42) حسن، عباس: النّحو الوافي، ج3، ط3، دار المعارف (مصر)، د.ت، ص 271.

(43) محمّد، عيد: النّحو المُصفى، مكتبة الشّباب، القاهرة، 1980، ج1، ص:666.

(44) سورة المطفِّفين: الآية 15.

(45) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه، دار الرّشيد، (دمشق، بيروت) مؤسسة الإيمان (بيروت، لبنان)، ط3، 1965م، مج15، ص273.

(46) بن عاشور، محمّد الطّاهر، تفسير التّحرير والتّنوِّير، الدّار التّونسية للنّشر، ج30، تونس، د.ط 1984م، ص 200–201.

(47) السّامرائيّ، معاني الأبنية، ص52.

(48) الطّبريّ، أبو جعفر محمّد بن جرير، تفسير الطّبريّ جامع البيان عن تأويل آى القرآن، تح: عبد الله بن عبد المحسن التّركي، ج24، دار هجر (مصر)، ط1 ،2001م، ص198.

(49) المرجع السابق، ص (205–206).

(50) الحملاويّ، شذ العرف في فنِّ الصّرف، ص146.

(51) ينظر: اسما الفاعل والمفعول في القرآن الكريم، رسالة ماجستير، خديجة السّر محمّد علي جامعة أم درمان الإسلاميّة، 2010م، ص (177–178).

(52) سورة المطفِّفين: الآية 14.

(53) سورة المطفِّفين: الآية 15.

(54) ابن الأثير، ضياء الدِّين: المثلُ السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، قدّمه: أحمد الحوفي وبدوي طَبانه، القسم الثّاني، دار نهضة مصر للطبع والنّشر، ط2، ص234.

[55] سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر: الكتاب، تح: عبد السلام محمّد هــارون، مكتبــة الخانجي، القاهرة، ط3، ج1، 1988، ص12.

[56] المرجع السّابق: ص12.

[57] عبده الرّاجحي، التّطبيق الصّرفيّ، دار النّهضة العربيّة، بيروت، د.ط، د.ت، ص:27.

[58] عبد الحميد عبد الواحد: بنية الفعل، قراءة في التّصريف العربــيّ، منشــورات كليــة الآداب والعلوم الإنسانيّة، صفاقس، 1996م، ص:109.

[59] المرجع السّابق: ص112.

[60] سورة المطففين: الآية 31.

[61] ابن عاشور، تفسير التّحرير والتّنوِّير، ص212.

[62] عبده الرّاجحيّ، التّطبيق الصّرفي، ص37.

[63] ابن عاشور، تفسير التّحرير والتّنوير، ص:212.

[64] المرجع نفسه، ص:210.

[65] رابح بوحوش: البنية اللّغوِّية لبردة البوصيريّ، ص: 69.

[66] ينظر، المرجع نفسه: ص68–69.

التميز الأسلوبي الجدولي للإعجاز البياني في القرآن الكريم

Distinguished stylistic tabular excellence of the graphic miracle in the Koran.

داه. فاطمة زهراء قوادري عيشوش

جامعة الجيلالي بونعامة، خميس مليانة

ملخص: نزل القرآن الكريم ذو البيان الرفيع، والبلاغة العليا بلسان عربي مبين، وتركيب جمالي منظوم، بأسلوب جميل متفرد، يكشف بلاغة النص القرآني للأسيقة النظمية، ليصوغ مسارات جمالية في الإبانة عن دقة الانتقاء الأسلوبي التي تمنحه خصوصية التشكل والانبناء، ووظيفتها الساحرة في التأثير، حيث يستطرف براعتها المتلقي جراء دقة الموقع للمفردة القرآنية، والتي تعد من القضايا البيانية التي استرعت اهتمام الأسلوبيين من خلال اختيار اللفظ المناسب من النظام الجدولي، وإفراغها في قالب خاص بدقة عجيبة حتى لا تجد لفظا يمكن استبداله بآخر دون تغيير المعنى، ومنها دقة التركيب والنظم، واستنادا على هذا الطرح تروم مداخلتنا تبيين مواضع الإعجاز البياني في المستوى الجدولي للألفاظ والمفردات، المتسمة بجوهر الإعجاز في لغة القرآن الكريم.

الكلمات المفتاحية: القرآن، الإعجاز، المحور الجدولي، الألفاظ، الحروف القصة القرآنية.

The Holy Qur'an was revealed with a high statement, and the highest rhetoric with a distinctive Arabic tongue, and a structured aesthetic structure, in a beautiful and unique manner, reveals the eloquence of the Koranic text of the systemic aesthetic, to formulate aesthetic paths in the expression of the accuracy of stylistic selection, which gives it the specificity of formation and building.And its charming function in the

impact, where the prowess extends the receiver because of the accuracy of the site of the Qur'anic vocabulary, which is one of the graphic issues that attracted the attention of the stylists by choosing the appropriate word from the spreadsheet system, and emptied in a special template with astonishing accuracy so as not to find a word can be replaced by another without Based on this presentation, our intervention aims to show the locations of the graphic miracle in the tabular level of words and vocabulary, characterized by the essence of the miracle in the language of the Koran.

Keywords: Qur'an, miracles, tabular axis, words, letters, Quranic story.

توشحت الأنسجة القرآنية من خلال ما زخرت به من صور بيانية، أسهمت في إظهار مقومات الإعجاز بأفصح الألفاظ، وتحبير نسوجه التركيبية، والنظمية وإحكام السداد لما تضمنه النظم القرآني ومساق كل آية، ومن أجل ذلك فإن "شرف علم البيان الذي لا ترى علما هو أرسخ منه أصلا وأبسق فرعا وأحلى جنى وأعذب وردا وأكرم نتاجا وأنور سراجا والذي لولاه لم تر لسانا يحرك الوشي ويصوغ الحلى ويلفظ الدرر وينفث السحر ويريك بدائع من الزهر"[1].

يستقصي أسلوب القرآن الحاوي لزخارف البيان في كل مستويات اللفظ المعجز في معانيه، وتراكيبه، وهو ما يعنى به هذا البحث، الذي يعرض بالبيان لملامح الإعجاز القرآني موضحا العناية البالغة في تخير ألفاظه، وإعجاز في نسج تراكيبه ودقة سبكه، وتناسب دلالاته، لتسمه بميسم التفرد والتميز.

وتفضي بنا هذه المصادرة إلى محاولات "الرافعي جمع كل المذاهب المختلفة لظاهرة الإعجاز كما حاول من خلال هذا الجمع أن يقدم رأيا خاصا له في قضية الإعجاز برد وجوه البلاغة إلى أسرار الوضع اللغوي التي مرجعها إلى الإبانة عن حياة المعنى، بتركيب حي في دقة التأليف، وأحكام الوضع وجمال التصوير، وشدة الملائمة"[2]، على شاكلة متفردة، وما يسعفها من تقانات تنضوي تحت لواء الدقة في الاختيار والتركيب.

ولا مناص أن "يعمد القرآن إلى تقديم المضمون الديني بطريقة تعتبر قمة في تشغيل العتاد البلاغي، لأن الله تعالى أراد أن يكون القرآن في أعلى طبقات الفصاحة ليكون علما دالا على صدق النبي عليه السلام، وعلم أن ذلك لا يتم إلا بالحقائق المجردة، وأنه لابد من سلوك طريقة التجوز والاستعارة، فسلك تلك الطريقة، ليكون أدخل في لغة العرب وأدل على الإعجاز"[3]

مما ينخرط في هذا السلك "تقريب هذا النهج في الدراسة من المشاغل البلاغية والأسلوبية الحديثة قلنا أن عنايته ببلاغة الكلام تحيط بالجدولين اللذين ينظمان الظاهرة اللغوية: جدول الاختيار الذي تقع في صلبه الإجراءات المتعلقة بالوحدات اللغوية المفردة كاختيار اللفظ الملائم للمعنى المراد، والمستجيب للغاية المرسومة من الكلام، أو استغلال العلاقات الاستبدالية القائمة بين أجزاء هذا الجدول"[4].

ويتمثل المحور الاستبدالي كونه في "المحور الرأسي للكلمات التي تستطيع أن تدخل في علاقات مع غيرها على شكل جمل في المحور الأفقي، وقد سمي المحور الرأسي محور الاستبدال لأن كل واحدة من الكلمات فيه يمكن أن تأخذ مكان الأخرى ضمن العلاقة التي تقيمها سابقتها مع أي كلمة في محور التركيب"[5]

ووفق هذا المنظور نلفي تناسقا وانسجاما على مستوى الوعي الجدولي للمقال حيث تتجدل الألفاظ، والحروف عبرها الأنسجة اللغوية وتتسكب في مداراتها المناسبة.

مكونات اللغة العربية: يتألف النظام اللغوي للغة العربية كالآتي:

أولا: "المستوى الصوتي: الذي لا يوجد مجسدا إلا في البنية الصوتية للمفردات.

ثانيا: المستوى الإفرادي: للكلمات (مستوى الكلمات المفردة) وله جانبان متلازمان:

- البنية الصوتية للكلمة: يختص بدراسة أوزان علم الصرف.
- البنية الدلالية للكلمة: ويختص بدراستها علم المعجم.

ثالثا: المستوى التركيبي للكلمات: (مستوى الكلمة المركبة بعضها مع بعض أي التراكيب)"[6].

يسوق هذه العناصر تشكيل نسق أسلوبي من خلال عملية انتخاب المادة الصوتية، والكلمات، ثم تليه عملية البناء وفق قوالب خاصة، من خلال ما تمليه الجداول اللفظية، وتشظيها في أنساق، ونظم محكم، ذات صبغة بلاغية صاغت من رحم البراعة، فتنفذ بعين التبصر وروح الاعتبار مبلغها من الإجادة.

اهتم رائد البلاغة (عبد القاهر الجرجاني) بالنظم و"انتهى إلى أن جمال الأسلوب ليس في اللفظ ولا في المعنى وإنما هو في نظم الكلام أي في الأسلوب ثم يحاول بعد ذلك أن يبين فيما يكون جمال الأسلوب وروعته، فيدرس الجملة بالتفصيل منفردة ومتصلة ..وقيمة الإيجاز والإطناب وضرورة مطابقة الكلام لمقتضى الحال"[7].

ولا غرو أن تتشكل الصناعة البلاغية صوب "لونان من النظم الفاخر والبلاغة الساحرة أحدهما ما توخيت فيه معاني النحو وأسراره، والثاني ما جمع توخي معاني النحو حظا من براعة التصوير وتناسق التعبير ودقة الصنع واتحاد الوضع"[8]، والذي تمخض عن الخواص المتغيرة التي ينطوي عليها البناء.

اتسم النص القرآني ببلاغة فريدة وذلك "باشتماله على النظم الغريب والوزن العجيب، والأسلوب المخالف لما استنبطه البلغاء من كلام العرب في مطالعه وفواصله ومقاطعه"[9]، ليصوغ تجلي البيان القرآني نظما خاصا يسري في القلوب.

انماز النص القرآني بهندسة بلاغية، ويعزى ذلك إلى أسلوبه المتباين المتمايز حيث "تنزل القرآن الكريم ذو البيان الرفيع والبلاغة العليا بلسان عربي مبين وتركيب جمالي بديع، فكان أن دانت له من العرب أرباب الفصاحة والبيان قلوب وأسماع..ذلك لما وجدوا فيه من جمال البيان ورفعة التشريع"[10].

يلزمنا الفهم الموضوعي أن "القرآن أعلى منازل البيان، وأعلى مراتبه ما جمع وجوه الحسن، وأسبابه، وطرقه، وأبوابه من تعديل النظم، وسلامته، وحسنه

وبهجته، وحسن موقعه في السمع، وسهولته على اللسان، ووقوعه في النفس موقع القبول وتصوره تصور المشاهد"[11].

وبناء على هذا "فسر (البقلاني) النظم بنوع الأدبي فذهب أن القرآن بديع الــنظم عجيب التأليف) ..حيث جاء القرآن على تصرف وجوهه، وتباين مذاهبه خارجــا عن المعهود من نظام جميع كلام العرب، ومباينا للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن الكلام المعتاد"[12]

وتتشكل عصافير هذا الأنام المسحر للإعجاز القرآني مثل المعمل الذي يتــولى النسج والبناء، حيث "لا تجده في غيره حتى الدقة فــي معــاني مفرداتــه وتحديــد الحقائق في جمله، ومزج المعاني الكثيرة في أسلوبه، ولطف التناسب بــين آياتــه وبين صوره"[13]، وتتنزل بموجبه سبكا بليغا مرصعا بجوهر مكنون توشحت ألفاظه عبر السنين صفاء ولمعانا.

الانتخاب الجدولي على مستوى اللفظ: رسمت الهندسة اللفظية معــالم الــنص القرآني، وصبغ أسلوب آياتها بسيمة التفرد جراء خصوصية الاختيــار، وإفــراغ ألفاظه في قالب يساوق المدلول، لتفضي إلى مسالك تأليفية منتظمة سواحله البيــان وهذا ما نجده في "معقد البلاغة أن يؤتى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديتــه ويختار له اللفظ الذي هو أخص به وأكشف عنه وأتم له، وأحرى بأن يكسبه نــبلا ويظهر فيه مزية، ولا تفاضل بين لفظتين في الدلالة حتى تكون أحداهما أدل علــى معناها من الأخرى"[14]

تؤدي بنا هذه الملاحظة أن الأسلوب القرآني محكم لا يجوز عليــه التغييــر أو التبديل، "فإن النظم كما يقول شيخ البلاغة العربية (عبد القاهر الجرجاني) يتحد في الوضع ويدق في الصنع تتآخى في نظام بديع واتساق عجيب لا نظير له في كــلام البشر، مما يقطع بعظمة وبلاغة هذا الكتاب العزيز"[15].

ونلمس ذلك من تخريج عبد القاهر الجرجاني بقوله" فلو كانت الكلمة إذا حسنت من حيث هي لفظة إذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك في ذاتهــا، وعلــى

انفرادها دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم لما اختلف بها الحال، ولكانت إما أن تحسن، أو لا تحسن أبدا[16].

فالأسلوب الرصين كائن عضوي له أعضاء تتكامل في تراتبيتها من خلال مبدأ التكامل الوظيفي، وهذا ما يحتكم إليه الأسلوب الفني، حيث يومئ هذا الرأي "أنّ اللفظ تبِع للمعنى في النظم وأن الكلم تترتب في النطق بحسب ترتيب معانيها في النفس"[17]، لتفضي إلى الوحدة العضوية الظاهرة.

ويتأسس الطرح السابق بمقتضى شروط، حيث تنخرط بمقتضاها الألفاظ والمعاني في قالب خاص، وصياغة متفردة شكلا وروحا"، ومن البّين الجلّي أن التباين في هذه الفضيلة، والتباعد إلى ما ينافيها من الرذيلة ليس بمجرد اللفظ، والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا من التأليف، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب، والترتيب"[18].

قوله تعالى ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾(سورة التكاثر الآية1/8)

"فالمقابر جمع مقبرة وهي مجتمع القبور واستعمالها هنا هو الملائم معنويا لهذا التكاثر دلالة على مصير ما يتكالب عليه المتكاثرون في حطام الدنيا، هناك حيث مجتمع الموتى ومحتشد الرمم على اختلاف الأعمار والأجيال والطبقات وهذه الدلالة من السعة والشمول لا يمكن أن يقوم بها لفظ القبور جمع قبر"[19].

نلحظ أن ألفاظ هذه الآية منتقاة انتقاء دقيقا، حيث "لمح الإعجاز في اللفظ في مكانه إذا أبدل فسد معناه، أو ضاع الرونق الذي يكون منه سقوط البلاغة"[20].

يفضي هذا الإجراء من خلال تعاور الألفاظ، "لتتآلف فيه الخصائص المفردة مع خصائص البنية العامة تآلفا فذا مترابط الحلقات متراصة بحيث إذا اختل جزء ووقع في غير موقعه المقسوم له ظهر القلق والاضطراب على تأليف الجملة"[21].

يؤسس هذا الطرح إلى براعة البيان، وحسن "اختيار الكلمة أو الأداة المناسبة للمعنى النفسي، فعلى مستوى الكلمة قد تجد في اللغة كلمات مترادفة أو متقاربة المعنى، ولكن بينها فروق دقيقة في الإيحاء أو المدلول، ويتدخل عنصر الاختيار في الوقوع على الكلمة المناسبة"[22].

إن من القضايا البيانية التي استرعت اهتمام الأسلوبيين هو اختيار وانتقاء اللفظ المناسب، حيث تتجسد في المقتضى الأسلوبي بوظيفتها الإجرائية، وهذا الطرح يسوقنا إلى الإقرار أن البيان متسم بجوهر "الإعجاز في لغة القرآن الكريم، منها اختياره للألفاظ بدقة عجيبة حتى لا تجد لفظا يمكن استبداله بآخر دون تغيير المعنى ومنها دقة التركيب والنظم"[23].

"وبحسب ما يترتب في نظمه ويتنزل في موقعه ويجري على سمت مطلعه ومقطعه، يكون عجيب مقتضياته وبديع مقتضياتها"[24]، في غمد واحد في تركيب نسج الكلام.

اتسم التعبير القرآني بملمح التميز، من خلال تناسب اللفظ القرآني وموقعه في السياق، ذلك "أن اللفظة في إفرادها تكتسب معنى في نفسها من وضعها اللغوي نجدها تكتسب في التركيب وفي السياق معنى إضافيا، حتى إذا عزلناها وميزناها من تركيبها ضعفت ونقصت، وهذا المعنى الإضافي هو ما يطلق عليه الرافعي: روح التركيب"[25]

وفي صورة تنظيرية أخرى نلفي أن "مناط البلاغة في النظم القرآني، عند الخطابي أنه اللفظ في مكانه إذا أبدل فسد معناه أو ضاع الرونق الذي يكون منه سقوط البلاغة"[26]، لذلك نلمس أن الألفاظ ترتبط بمدارات خاصة في الدائرة النظمية يحدد خلالها القيم الدلالية للأسلوب.

ومناط الأعجاز البياني أن تكون الألفاظ المفردة في هيئة خاصة، وتموقعها في مدارات لا يمكن لمثيلاتها التموقع فيه، وبناء على هذا اصطبغت ألفاظ القرآن

بصبغة التباين على المستوى الخطي للبنية اللسانية، حيث تعزى تمفصلات الأسلبة إلى الإعجاز اللفظي.

تأسيسا على ما تقدم، نخلص إلى أن "أسلوب القرآن يتألق في اختيار ألفاظه ولما بين الألفاظ من فروق دقيقة في دلالتها يستخدم كل حيث يؤدي معناه في دقة فائقة فكأنها تؤمن بأن هذا المكان كأنما خلقت له تلك الكلمة بعينها"[27]، والتي ترجع إلى مزية إخراج الكلمات التي هي محصول التأليف والتنظيم المتقن.

وينتظم الانتقاء الجدولي للفظ وفق حالات تتباين تباينا عمقيا و"أن يعلم من أهل اللغة أنهم متى أرادوا إفهام معنى من المعاني غيرهم، اقتصروا على عبارات مخصوصة"[28]، وأن تكون "مختارة منتقاة حتى أصبحت كل لفظة من ألفاظها تتنزل منزلة الفريدة من حب العقد، وهي الجوهرة التي لا نظير لها لما تدل على عظم فصاحة وقوة عارضة"[29].

"فالناقد الأسلوبي يتحرك من خلال النظام اللغوي، وما فيه من إمكانات استبدالية بحيث يكون تحليل الجملة مرتكزا على طبيعة تنظيم مفرداتها وما يحتمله هذا التنظيم من قيم دلالية"[30]، يحسن فيها تصريف ألفاظه من حالة إلى حالة، والتماسه البراعة في أطفح معانيها.

في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾(الحج الآية73)

"حيث تضمن الضرب معنى الجعل، وتحقق من ذلك الغاية من التضمين وهي أن الضرب توافق مع لفظة المثل ليسيرورته وانتشاره وغرابته، وأما الجعل فقد تناسب مع أفعال الكافرين في أنهم جعلوا مع الله آلهة أخرى فلو قال "جعل مثل فاستمعوا له" لما أفاد المقصود وهو المعنى الذي أراده الله من المثل، لأن المقصود من المثل بيان ضعف المدعو من دون الله وعجزه على مدار الأيام، والمناسب لهذا

المقصود استعمال الضرب الذي يتضمن معنى الجعل لأن الكفار بجعلهم مع الله آلهة جعلوا هذا الأمر في انتشاره كالمثل"[31].

وينتظم هذا التنزيل مخطط ضمني من الذاكرة الجدولية، ليتشكل في متونه المعنى المقصود للتعبير القرآني، وكل لفظة فيه معجزة، يقول السامرائي "إن التعبير القرآني تعبير فني مقصود، كل لفظة بل كل حرف فيه وضع وضعا فنيا مقصودا، ولم تراع في هذا الوضع الآية وحدها ولا السورة وحدها، بل روعي في هذا الوضع التعبير القرآني كله"[32].

تدبرا إلى أبعاد هذا التقدير نذهب إلى ما قاله (القاضي الجرجاني) "ترى الصورة تستكمل شرائط الحسن وتستوفي أوصاف الكمال وتذهب في الأفق كل مذهب...ولو قيل لك كيف صارت هذه الصورة وهي مقصورة عن الأولى في الأحكام والصنعة، وفي الترتيب والصيغة، وفيما يجمع أوصاف الكمال، وينتظم أسباب الاختيار، أحلى وأرشق وأوقع، لاقمت السائل مقام المتعنت المتجانف، ورددته رد المستبهم، الجاهل، وكذلك منظومه ومنثوره ومجمله ومفصله"[33].

وعلى هذا المستند نلحظ أنه "إذا برع اللفظ في المعنى البارع كان ألطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول والمتكرر، ثم أنضاف إلى ذلك التصرف البديع في الوجوه التي تتضمن تأييد ما يبتدئ تأسيسه ويراد تحقيقه، بان التفاضل في البراعة والفصاحة، ثم إذا وجدت الألفاظ وفق المعنى والمعاني وفقها"[34]، لتبلور توظيفها توظيفا بنائيا محسوبا.

ونذكر ما يلي صورا أخرى في دقة الاختيار للفظ من بينها ورد "في المعاجم آنس الشيء أبصره، والصوت سمعه، واستأنس: استأذن، حيث يقول القرآن (آنس نارا) أن يقال أبصرها أو نظرها أو رآها"[35]

ويفتق التأويل لهذا اللفظ أنه "لا تقول آنس في الشيء تبصره أو تسمعه إلا أن تجد فيه أنسا، فإذا قال العربي الأصيل: آنست فقد رأى أو سمع ما يؤنسه"[36] ليصوغ دقة انتساب اللفظ لمعناه.

قوله تعالى ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾الحشر الآية(21).

تنخرط في هذا معاني متعادلة لمعنى الخشية من بينها الخوف، إلا أن لفظ الخشية مناسب في محور التلاؤم، ليختار من الجدول اللفظي لفظة الخشية، حيث "تفترق الخشية عن الخوف بأنها تكون عن يقين صادق بعظمة من نخشاه كما يفترق الخشوع عن الخضوع بأننا لا نخشع إلا عن انفعال صادق بجلال من نخشع له، أما الخوف يجوز أن يحدث عن تسلط بالقهر والإرهاب"[37].

يمثل دقة الاختيار مقياسا في تناسب المعاني، وعلة ذلك ومستنده المنطقي في "البيان المعجز في اطراد نسقه ولطف دلالاته، وباهر أسراره كل خشية فيه على اختلاف صيغها لا تكون إلا في الحياة الدنيا لا في الآخرة، إذ الدنيا هي مجال ابتلاء"[38].

وفي قوله تعالى وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)هود(44)

ورد في الآية "ابلعي ماءك"، عوضا عن اشربي ماءك "فاختيار الفعل بلع وصياغة فعل الأمر منه، دون الفعل شرب مثلا، هذا الاختيار له دلالة خاصة فالموقف هنا موقف انتهاء الطوفان من أداء مهمته وهي إهلاك الكافرين وضرورة عودة الحياة فوق الأرض إلى وضعها الطبيعي، بأسرع ما تكون العودة، حيث تدل مادة البلع على سرعة الحلق وسرعة الالتهام في حين تدل مادة شرب على السلوك الطبيعي الهادئ"39.

كما نلحظ بلاغة انتقاء اللفظ في سورة غافر من خلال "مجيء الوصف على صيغة المبالغة إمعانا منهم في تكذيب رسولهم وردّ ما جاء به **(فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ)**، فيتخير المولى –عز وجل– صيغة المبالغة "فعَّال" في قوله تعالى: **(فَقَالُوا**

سَاحِرٌ كَذَّابٌ) فـ (الكذاب الذي عادته الكذب بأن يكذب مرة بعد أخرى، ولم يقولوا: "سحّار"، لأنهم كانوا يزعمون أنه ساحر، وأن سحرتهم أسحر منه)[40].

ومن دقائق النظم المعجز قوله –سبحانه– "آمنوا معه" ولم يقل "آمنوا به" (إشارة إلى مظاهرتهم موسى في دعوته ومناصرته، وليس الاكتفاء بمجرد الإيمان بصدق رسالته فحسب).؟[(17)]، وقد تخير الله كلمة "ذروني" كناية عن خطـر ذلـك العمـل وصعوبة تحصيله، لأن مثله مما يمنع المستشار مستشيره من الإقدام عليه، ولـذلك عطف "وليدع"، لأن موسى خوفهم عذاب الله وتحداهم بالآيات التسع[41].

ومن بلاغة تخيّر المفردات قول المؤمن عن يوسف –عليه السلام–: "**حَتَّـى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ**..."، ولم يقل: "مات" أو "توفي" مع أن "هلك" لا تتناسب ومقـام الأنبيـاء قال البقاعي: (وكأنه عبر بالهلاك إيهامًا لهم أنه غير معظم له، وأنه إنما يقول مـا يشعر بالتعظيم لأجل محض النصيحة والنظر في العاقبة)[42].

ويعتبر السياق مهما في ضبط دلالة الألفاظ وفق المعنى المقصود، وعليه " فإن القرآن الكريم مثلما يختار الألفاظ المعبرة يختار المعاني الصحيحة المناسبة للغرائز الإنسانية، والعواطف البشرية ليكون لها من السلطان على النفوس، ذلك أن انتقـاء عناصر الموضوع له قيمته في التأثير، وليس رونق اللفظ وحده هو الذي له ذلـك السلطان الخفي"[43].

تشترك هذه الرؤية في تشييد الأنموذج المتفرد وفق مبدأ التراكب، ومـن أجـل ذلك "ليس في القرآن ما يعلو بعضه بعضا في البلاغة، وإنما فيه ما يفترق بعضـه عن بعض في صورة النظم والتأليف، تبعا لطبيعة المعنى والغـرض، وكـل فـي الصورة التي ليس وراءها غاية في حسن العرض، وجمال النسق وروعـة الأداء وقوة التأثير"[44].

تتفاضل الألفاظ وفق مرتبة بيانية يقاس إليها "أبواب الترادف الناشئ عن اجتثاث الكلمة عن سياقها الأصلي واستعمالها في سياق آخر أجنبي عنها فيضـمحل تبعـا لذلك الفارق المعنوي بينهما وبين الكلمات القريبة من معناها"[45].

ويعقد بموجبه " وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص، الأشكل به، الذي إذا أبدل مكانه غيره، جاء منه إما تبديل المعنى الذي يكون فيه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة"[46].

فيقتضي المحور الجدولي الانتظام التركيبي، التي تقتضي أشكال التناسب والتوازن، وذلك "أن اللفظ لا يكتسب معنى محددا، ولا يفيد فائدة خاصة، إلا إذا أدى وظيفة معينة في سياق ما، فالألفاظ تستمد دلالاتها من علاقاتها بالكلمات السابقة لها واللاحقة لها"[47].

ووفق ما تقدم تتأسس العلاقة المعنوية للجملة وفق:

1- نحوي ساكن لا يتغير حسب حال السامع.

2- مجال إبلاغي متغير"[48].

ينصب المجال الإبلاغي المتغير في حسن الانتقاء والاختيار في قالب توليفي مخصوص، حيث يظفر هذا الجزء على غيره من الأجزاء بموقع مميز على مستوى المركبات.

انتخاب الجدولي للحروف: "الصوت المفرد هو أصغر وسيلة بيانية في العربية فهو أيضا وسيلة أساسية بيانية في الكلمة المفردة"[49].

"ويقول (ابن جني) في هذا الصدد نعم ومن وراء هذا من اللطف فيه أظهر والحكمة أعلى وأوضح وذلك أنهم يظفون إلى اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبر عنها بها ترتيبها وتقديم ما يضاهي آخره وتوسيط ما يضاهي أوسطه سوقا للحرف على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب"[50].

وعلى صعيد الدفق النظري، يحد الإعجاز في "في حذاقة حروفه وأصدائها أوصاف لم تكن لتكون تلك الأوصاف فيها قبل نزول القرآن، وتكون قد اختصت بأنفسها بهيئات وصفات يسمعها السامعون عليها إذا كانت متلوة في القرآن لا يجدون لها تلك الهيئات والصفات خارج القرآن"[51].

وأناة المحصلات للإعجاز في الحروف أنه "كل سورة بدئت بالحروف المفـردة فإن أكثر كلماتها وحروفها مماثل له، فحق لكل سورة منها ألا يناسبها غير الواردة فيها، فلو وضع (ق) في موضع (ن) لم يكن لعدم التناسب الواجب مراعاتهـا فـي كلام الله، وسورة ق بدئت به لما تكرر فيها من الكلمات بلفظ القاف، مـن ذكـر: القرآن، والخلق، وتكرار القول ومراجعته، والقرب من ابن آدم، وتلقـي الملكـين، وقول العتيد، وذكر الرقيب والسائق...[52].

ونستدل أيضا بقوله تعالى في سورة (ص)، فاكتسبت دلالات متنوعـة، حيـث "اشتملت صورة ص على خصومات متعددة، فأولها خصومة الكفار مع النبي صلى الله عليه وسلم، واختصام الخصمين عند داود، ثم تخاصم أهل النار، ثـم اختصـام الملأ الأعلى في العلم، ثم تخاصم ابليس في شأن آدم"[53].

نلفي وفق هذه التمفصلات الجوهرية لمعاني الآية أنها مسـاوقة فـي مـدلولها للحرف في تراتبية محكمة في علاقة ارتباط لا فكاك منه. وفق صـور عنقوديـة تتنامى أطرافها.

سورة النون والقلم الألفاظ النونية منها في قوله تعالى ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾

"يلف الحرف إلى سر الحرف الذي هو مناط القراءة والعلم والبيان...فلا يعطي أي معنى أو دلالة، وما يخرج عن صوت مجرد، ثم يأخذ الحرف موضـعه مـن الكلمة فيتجلى سره الأكبر"[54].

ونلحظ أن معنى حرف النون يوافق التصور العام لمسار السـورة المضـمرة والظاهرة، وعليه منهجيا الهيكل الافتراضي للشكل اللغوي ينبني وفق تناسب بـين معنى الحرف ومعاني الآية.

ونلفي في افتتاح السور (الم) أنها "جمعت المخارج الثلاثة: الحلق واللسان والشفتين، على ترتيبها، وذلك إشارة إلى البداية التي هي بدء الخلق، والنهاية التي هي بدء الميعاد، والوسط الذي هو المعاش من التشريع بين الأوامر والنواهي"[55].

وفي قوله تعالى سورة النساء (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا)﴿٣﴾ وبناء على هذا "لا نرى السياق يستقيم بل نرى المعنى لا يصح إطلاقا، إذا وضعنا أو نيابة عن الواو في آية النساء، لأن مقتضى التخيير ب أو أن ينكحوا إما مثنى أو ثلاث أو رباع، وليس هذا هو الحكم المستفاد من الآية، في إباحة تعدد الزوجات مثنى وثلاث ورباع، ثم لا يتجاوز إلى المحظور وراء رباع"[56].

وفي قوله تعالى (فيها عينان نضاختان)الرحمان66 إن تموقع الحرف خ بدل الحاء مسوغه أنهم "جعلوا الحاء لرقتها للماء الضعيف والحاء لغلضتها لما هو أقوى منه"[57].

ويسوقنا هذا التعليل الصوتي إلى أنه "يتفق أهل اللغة والتفسير على أن الآية قرئت بالحاء والخاء، وأن في هذا الاستبدال الفونيمي تغيرا دلاليا والذي يبدو أن اللفظين بينهما فارق في الدلالة من خلال السياق"[58]، وفي نفس المنظور ندلل بتخريج (ابن جني) في قوله "النضح بالحاء غير المعجمة للماء السخيف يخف أثره وقالوا النضخ بالخاء لما يقوى أثره قبيل الثوب ونحوه بللا ظاهرا، وذلك لأن الخاء أوفى صوتا من الحاء، ألا ترى إلى غلظ الخاء ورقة الحاء"[59]

وفي قوله تعالى (ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ)سورة عبس22، يفيد معنى "النشر هو الإحياء"[60]، و من أجل ذلك فإن "اختيار حرف الشين بما يختزنه في وصفه من التفشي والانبساط، يقول ابن الجزري والشين حرف تفش، سميت بذلك لأنها تفشت في مخرجها عند النطق بها، ومعنى التفشي هو كثرة خروج بين اللسان والحنك

وانبساطه في الخروج عند النطق به، ولعل هذا التفشي في صفة حرف الشين يناسب طبيعة الإحياء وما يتضمنه من مراحل متعددة"[61].

يتخذ التناسب الجدولي للحرف في حسن التوافق بين مكوناته الدلالية وبين معمارية التركيب للسورة أو الآية.

"وقيل يا أرض ابلعي ماءك هذا التركيب بني على طريقة النداء والنداء يراد به في المعاني النحوية طلب الإقبال بحرف نائب مناب أدعو ...والاختيار النحوي لعنصر النداء هنا له معنى نفسي، فهو يشير إلى تجسيد الأرض وإعطائها صفة الكائن العاقل وكونها ممن يسمع ويعي، وذلك التجسيد، يشير هنا إلى أن كل الكائنات الناطقة والصامتة أمام الله سواء فهو خالقها، وهو الذي يستطيع أن يوجه لها الخطاب فتسمع وتطيع، وجاء ذلك المعنى من تدخل الاختيار النحوي"[62].

وعليه يمنحنا هذا الطرح فهما جليا، حيث أن "محاولة إدراك الخصائص الجمالية في اللغة التي أحسن القرآن استغلالها في صنع هذا الأسلوب المعجز والسعي إلى إدراك هذه الخصائص الجمالية هو خطوة في طريق التفسير الموضوعي للجمال اللغوي"[63].

وتتحد خصائص الجمال من خلال ما يكتنزه الحرف من معاني ودلائل، ذلك "أن الصوت (الحرف في اللغة العربية وظيفة بيانية ولعل هذه الدقة البيانية للصوت لم تتميز بها لغة غير العربية، وأن هذه الوظيفة البيانية تنحصر في بيان المخرج بدقة وبيان الصفة المميزة له، وكل صوت في العربية خص بمعنى مناسب له بالمنطق ومعنى مميز له"[64].

انتقاء الجدولي في القصة القرآنية: تعرف القصة أنها "مجموعة من الأحداث المترابطة يقوم بها مجموعة من الأشخاص في حركة حية دائبة، ويتخلل ذلك عنصر التشويق الذي يحكمه الخيال حتى الذروة أو العقدة التي يعقبها الحل أو لحظة التنوير"[65].

وعليه "عدت القصص أحد وجوه إعجاز القرآن، وذلك أنها أخبار عن غيوب سالفة وردت ممن لا يعرف الكتب، ولم يجالس أصحاب التواريخ[66].

"لم ينظر للقصص في القرآن إلا باعتباره ينطوي على موعظة ويهدف إلى ضرب المثل وتقديم النصح، من خلال وقائع الماضي المغرقة في القدم"[67]، حيث تفتق معانيها طاقات يقاس إليها مقاييس التناسب في مسالك توليفية ينتظم بناؤها في مقامات منطقية تتنزل في سياقات التلاؤم.

في قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾البقرة(133)

إن الناظر في هذه السورة يلفي أن "خبر عن يعقوب جاء في مكانه المناسب من آيات سورة البقرة إذ تسبقه مباشرة قصة إبراهيم، -عليه السلام وبنائه- مع ولده إسماعيل البيت الحرام وبنائه في الوقت نفسه صرح الإسلام وعقيدة التوحيد الصحيحة"[68].

وفي قوله تعالى ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾الزخرف46 "إن السيادة والغلبة هنا لغوغائية الباطل على منطق الحق ولعلها سيادة مقصودة من ناحية بناء القصة وقد ساعد على ظهورها سكوت الحق منذ البداية فموسى ألقى إليهم بمهمته مجملة ثم مضى ولم يعقب، ولكن كان لكلمته (إني رسول ربي العالمين) وقعها الأليم في نفوس أصحاب الباطل فارتفعت أصواتهم في مواجهتها حتى ظنوا أن لهم الغلبة إلى ما لا نهاية فأخلدوا إلى الأرض والتفوا حول زعيمهم صاحب الصوت العالي بعد أن أرهبهم فأطاعوه في كل ما يأمر فاستحقوا غضب الله وانتقامه"[69]

ونتناول نموذجا أخر هو قصة يوسف عليه السلام، حيث تعد نموذجا مبنيا على انتظام الجدول وحسن انتقاء أحداثه، وعليه تعبر عن "ملامح القصة القرآنية في

ترابط أحداثها وواقعيتها والشخصية القرآنية وحيويتها، وعنصر التشويق والإثارة ومدى الانسجام والتناسق مع قوة الإحكام والربط في هذه السورة الكريمة"[70].

ويتمحور التشكل اللولبي لبنية هذه القصة كون أن "هؤلاء الفتية الذين يطلق عليهم أهل الكهف أنامهم الله ثلاث مائة عام وتسعة، وهذه مسألة تحتاج إلى أشياء كثيرة تظهر لنا كهوف القدرة وأول هذه الكهوف أن الرقاد الطويل يفسد الجسد"[71] في قوله تعالى ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ الكهف 18.

يرتكز المكتسب التنظيري إلى إعجاز متناه في خضم هذه القصة، حيث يرجع فيه إلى ما "أعطانا الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم ما لم يصل إليه الطب إلا حديثا، الأطباء يطلبون من أهل المريض غير القادر على الحركة، أن يقلبوه يمينا ويسارا حتى لا يصاب جسده بقرحة الفراش، التي تسبب له أضرارا بالغة[72].

"وهكذا تتضح خصيصة الانتقاء في القصص القرآني، وأن أحداث هذه القصص ليست موزعة توزيعا عشوائيا، وإنما موزعة في دقة وروعة، وإعجاز بحيث لا ينبو حدث بمكانه في القصة أو السورة"[73].

تأسيسا على ما تقدم، يتبدى لنا أن "النظم علم عظيم الخطر عالي الشأن إذ هو الذي يهدينا لنعطي لكل مقام مقاله الذي لا يناسبه غيره من فنون القول"[74]، وإدراك المعاني القرآنية ضمن بوتقة الإعجاز اللغوي البياني.

تتبعَ هذا البحثُ جوانب الإعجاز البياني الذي توافرت عليه المحور الجدولي من خلال الانتقاء المحكم للألفاظ، ومعانيها، وحسن تموقعها في السور، وما اشتملت عليه من ألوان البيان المعجز، محاولا أن يستقصي كل أبعاد الإعجاز، من حيث الحروف والألفاظ، والتراكيب، ودلالات السياق الذي وردت فيه.

ولقد أوضح البحث عن جوانب عدة من أوجه الإعجاز البياني مع عناية بالغة بمباحث: انتقاء الحروف، والألفاظ والكلمات، وتخير المفردات، وخصوصية انتقاء الأحداث في القصة القرآنية، وتناسب المعاني.

وانتهى البحث إلى بيان أن المبحث البلاغي والأسلوبي جزء من جوهر الإعجاز القرآني، وأن الاختيار مؤسس على استساغات منجية، حيث تستهدف الدقة، والتلاؤم، وفنية التعبير القرآني.

وبمجمل من القول فإن البحث كشف عن البنية البيانية الجمالية للإعجاز البياني التي اشتملت عليه، حيث شخصت الدعامات البيانية جدوى أسلوبية جمالية، رسمت خلالها مسارا متفردا للأسلوب القرآني منحته خصوصية التشكل والانبناء الأسلوبي بما يتصل بها من سحر التأليف، ليؤثر في النفوس تأثيرا خاصا من خلال المعاني القرآنية، وتجلياتها البيانية والجمالية المعجزة.

قائمة الهوامش:

1- عائشة عبد الرحمان بنت الشاطئ، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، دار المعارف، ط3، القاهرة، ب ت، ص 123.

[2]- محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، الشركة المصرية العالمية دار نوبار، القاهرة، ط1 1994، ص 87.

3- مصطفى الغرافي، قراءة النص الديني، مجلة قضايا اسلامية معاصرة، مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، العدد 62/61، شتاء وربيع 1436/2015، ص 214.

4- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات كلية الآداب مندوبة، ط2، تونس، 1994، ص 252.

- [5]منذر العياشي، الأسلوبية، وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري، ط1، حلب سوريا 2002، ص 81.

6-عمار ساسي، الإعجاز البياني في القر'ن الكريم، دراسة نظرية للإعجاز البياني في الآيات المحكمات، دار المعارف، ط1، البليدة الجزائر، 2003، ص 222.

7- محمد عبد المنعم خفاجي، الأسلوبية والبيان العربي، الدار المصرية اللبنانية، ط1 القاهرة مصر، 1992، ص 37.

[8]- المرجع نفسه، ص 50.

9- أحمد القبانجي، سر الإعجاز القرآني، الانتشار العربي، ط1 بيروت لبنان، 2009، ص 67.

[10]-السيد خضر، فواصل الآيات القرآنية، مكتبة الآداب، القاهرة 1922، ص 4. [10]

[11]- المرجع السابق، عائشة عبد الرحمان، ص 118.

[12]- محمد كريم كواز، البلاغة والنقد، المصطلح والنشأة والتجديد، مؤسسة الانتشار العربي، ط 1، بيروت، لبنان، 2006 ص 310.

[13]-المرجع السابق، عائشة عبد الرحمان، الإعجاز البياني، ص 133.

[14]- المرجع نفسه، ص 121.

[15]- حسين أحمد علي الدراويش، النظم القرآني في سورة البقرة، دراسة في الدلالة والأسلوب لإشراف: إبراهيم السامرائي، لتحضير لشهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها، الجامعة الأردنية، 1986، ص 168..

16- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، تح: محمد رشـيد رضـا، ط1: دار الكتب علمية، بيروت لبنان1409ه،1988ص: 121

17- المصدر نفسه، ص 45.

18- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، تحقيق: عبد الحميـد الهنـداوي، ط1: دار الكتـب العلمية، بيروت، 2001

ص: 13-14

19- المرجع السابق، عائشة عبد الرحمان، ص 275.

20- المرجع نفسه، ص 140.

21- المرجع السابق، حمادي صمود، التفكير البلاغي، ص 292.

22- أحمد درويش، دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتـراث، دار غريـب للطباعـة والنشـر والتوزيع، ب ط، القاهرة، 1998ص 106.

23- المرجع السابق، السيد خضر، فواصل الآيات القرآنية، ص 5.

24- المرجع السابق، عائشة عبد الرحمان، ص 118.

25- المرجع السابق، محمد عبد المطلب، ص 93.

26- المرجع السابق، عائشة عبد الرحمان، ص 101.

27-حفني محمد شرف، إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق، لمجلس الأعلـى للشـؤون الإسلامية، ط4، مصر، 1970 ص 222.

28- يحي بن حمزة بن علي بن ابراهيم العلوي اليمني، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلـوم حقائق الإعجاز، دار الكتب الخديوية، ج1، 1332مصر، ص 93.

29- المرجع السابق، حفني محمد شرف، إعجاز القرآن البياني بين النظريـة والتطبيـق، ا، ص 228.

30-المرجع السابق، محمد عبد المطلب، ص 362.

- مأمون سليمان حسن أبو جقيم، جمالية التعبير القرآني في سورة الحج، إشراف: أمين يوسـف عودة، أطروحة ماجستيرر في اللغة العربية، جامعة آل العدد 62/61

32- الحاج موساوي، الإشارات العلمية في القرآن الكريم كيف نفهمها وكيف نترجمها، مجلة معالم العدد العاشر السداسي الثاني، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2018، ص 142.

33- المرجع السابق، عبد المنعم خفاجي، ص 54.

[34]– المرجع السابق، عائشة عبد الرحمان، ص 91.

[35]– المرجع نفسه، ص 217.

[36]– المرجع نفسه، ص 217.

[37]– نفسه، ص 226.

[38]– نفسه، ص 226.

[39]– المرجع السابق، أحمد درويش، ص 118/117.

[40]– ماجد بن محمد الماجد، الإعجاز البياني في قصة مؤمن آل فرعون، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب، المجلد 5، العدد 2، 2008، ص 5

[41]– نفسه، ص 5.

[42]– نفسه، ص 21.

[43]– بن عيسى عبد القادر بطاهر، أساليب الإقناع في القرآن الكريم، دراسة تطبيقية لسورة الفرقان، إشراف محمد بركات حمدي أبو علي، مذكرة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، الجامعة الأردنية، 1990، ص 143.

[44]– المرجع السابق، عبد المنعم خفاجي، صص 55.

[45]– حمادي صمود، التفكير البلاغي، ص 285.

[46]– المرجع السابق، محمد كريم كواز، ص 312.

[47]– نفسه، ص 324.

[48]– المرجع السابق، عمار ساسي، ص 223.

[49]– نفسه، ص 233.

[50]– أبو الفتح ابن جني، الخصائص، ج2، تح: محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، ط 2، ص 164.

[51]– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 249، 250.

[52]– المرجع السابق، عائشة عبد الرحمان، ص 149.

[53]– نفسه، ص 149.

[54]– نفسه، ص 162.

[55]– نفسه، ص 149.

[56]– نفسه، ص 207.

[57]- عمار ساسي، ص 225.

[58]- خميس فزاع عمير، أثر الاستبدال الصوتي في التعبير القرآني، مجلة جامعة تكريت للعلـوم المجلد 12، العدد 5، أيار 2012، ص 279.

[59]- المرجع السابق، خميس فزاع عمير، ص 279.

[60]- أحمد بن محمد الخراط، الإعجاز القرآني في ضوء القراءات القرآنية المتواترة، مجمع ملك فهد للطباعة المصحف الشريف، ب ط، الكدينة المنورة، السعودية، 1426، ص 47. [60]

- نفسه ص 52.

[62]- المرجع السابق، أحمد درويش، ص 117.

[63]- نفسه، ص 116.

[64]- المرجع السابق، عمار ساسي، ص 226.

[65]- مر محمد عمر باحاذر، الدلالة الإعجازية في رحاب سورة يوسف، دار المأمون للتـراث، ط1، بيروت، 1418ه/1997م، ص 9.

[66]- عبد الله إبراهيم، النثر العربي القديم، بحث في البنية السردية، المجلـس الـوطني للثقافـة والفنون والتراث، ط1 الدوحة قطر بما أن، 2002، ص 12.

[67]- المرجع نفسه، ص 13.

[68]-محمد عبد اللاه عبده دبور، أسس بناء القصة في القرآن الكريم، إشراف فتحي محمـد أبـو عيسى، أطروحة دكتوراه في الأدب والنقد، جامعـة الأزهـر كليـة اللغـة العربيـة بالمنوفيـة مصر1417ه/1996 ص 55.

[69]- المرجع نفسه، ص 59.

[70]- المرجع السابق، عمر محمد عمر باحاذر، ص 11.

[71]- صمحمد متولي الشعراوي، سورة الكهف، دار أخبار اليوم قطاع الثقافـة، ب ط، القـاهرة مصر، ب ت، ص 16.

[72]- نفسه، ص 16.

[73]- المرجع السابق، محمد عبد اللاه عبده دبور، ص 60.

-[74]- حسين أحمد علي، النظم القرآني في سورة البقرة، ص 171.

استثمار الحوسبة والبرمجيات التقنية في خدمة القرآن الكريم واللغة العربية

أ. فاطمة الزهرة المالحي
جامعة باتنة 1 الحاج لخضر.

الملخّص: تعرض هذه الورقة البحثية عددًا من المحاور تتضمّن مفهوم الحوسبة الآلية، أهمّيتها، والتّعريف بمشروع التقنية خدمة للقرآن الكريم، فاللّغة العربية في حاجة إلى نهضة شاملة، وعمل آلي متقن يعتمد التغذية السليمة للحاسوب، والفهم الصحيح للعربية ومشكلاتها وقضاياها، كما نوضّح في هذا المقال أهم النّظم وبرمجيات النشر الإلكتروني التي تساهم في نشر القرآن الكريم، كبرنامج "**مكة ويب**" و"**المصحف للنشر المكتبي**"، برنامج **نور القرآن الكريم**، وبهذا البرنامج نستطيع تفسير آيات القرآن الكريم، وبرنامج **النشر المكتبي** (المستقبل الرّقمي) والعديد من مواقع النشر الحاسوبية التي تمكّن من نشر القرآن الكريم، وشرح أحكام التجويد مع إمكانية الترجمة الآلية، وغيرها من الميّزات التي سنتطرّق لها بشيء من التفصيل...

الكلمات المفتاحية: مفهوم البرمجة الآلية، القرآن الكريم، اللغة العربية، برامج النشر الالكتروني.

Abstract: This paper presents a number of axes, including the concept of automated computing, its importance, and the definition of technology project in the service of the Koran, the Arabic language in need of a comprehensive renaissance, and the work of a robust computer based on proper nutrition of the computer, and the correct

understanding of Arabic and its problems and issues, as explained in this article The most important systems and electronic publishing programs that contribute to the dissemination of the Koran and there are many of them, such as the program "Mecca Web" and "Mushaf for desktop publishing", the program of the Holy Quran production cetnow this program we can explain any verse in the Koran, and the program of desktop publishing (digital future), And many N computer publishing sites that contribute to the dissemination of the Koran, and explain the provisions of the Quran with the possibility of automatic translation, and other features ...

مقدّمة: تتجلّى روعة القرآن الكريم في قدرتك على الغوص فيه لتـــزداد تعمّقـــاً وشوقاً وكلما نهلت من فيضه ومعينه الصّافي ازددت به تعلّقاً وتشبثاً، وما يبعد عنه إلّا من جفا قلبه وغلظ كبده. وهذا كتابه الله – تعالى – الذي شغل العالم منذ نزولـــه إلى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو مصباح الظّلام ومنهل البيان الذي وقف فحول العرب وفصحاؤهم أمامه عاجزين مشدوهين، وهم الذين طالمـــا خاضوا معارك البلاغة والبيان، وتباروا في فنون القول وأســـراره حتـــى أســـروا القلوب والأذهان بسحر بيانهم وتبيينهم، وهاهم أولاء يقفون أمـــام البيـــان الأعظـــم مأسورين مشدوهين عاجزين!!.[1]

«للقرآن الكريم شأن بالغ في الدّعوة الإسلامية على عهد النّبي صلى الله عليـــه وسلم حتّى فزع أساطين الفصاحة والبلاغة من كفّار قريش حينما ظهرت فاعليتـــه في جذب عيونهم وسراتهم إلى دائرة الإسلام الحنيف، فقالوا لأتبـــاعهم: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ ﴾.[2] ويقول تعالى:﴿ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴾ [3]...».[4]

وقد جاء أسلوب القرآن الكريم في الغاية العظمى من البلاغة والفصاحة، وخرج عن جميع وجوه النظم المتعارف عليها في كلام العرب فتوافر العلماء على البحث في أسراره واستخراج درره، فصنّف فيه **الزملكاني والفراء وأبـــو عبيـــده وابـــن قتيبة والإمام الرازي وعبد القاهر الجرجاني** وغيرهم، (والواقـــع أن المصـــنفات الأولى في الإعجاز على اختلاف مذاهب أصحابها، جاءت أشبه بمباحـــث بلاغيـــة مما قدروا أن إعجاز القرآن يُعرف بها، وإن استوعبت أقوال المتكلمين في وجـــوه الإعجاز، فرسائل **الخطّابي السنى، والرّمّاني المعتزلي، والباقلّاني الأشعري**، تأخذ مكانها في المكتبة البلاغيّة وبعد أن استقلّت البلاغة بالتأليف والتصنيف، وُجّهت إلى خدمة الإعجاز البلاغي.. الجرجاني يضع كتابه في النظم والبلاغة ويقدّمـــه باســـم (دلائل الإعجاز)، وأبو هلال العسكريّ يضع علم الفصاحة والبلاغـــة تاليـــاً لعلـــم التّوحيد، والزمخشري وهو من المعتزلة يقرّر أنه لابدّ من علم البيـــان والمعـــاني لإدراك معجزة رسول الله ﷺ.[5]

ميدان المعالجة الآلية للغة: إنّ ميدان المعالجة الآلية للّغة العربية يحظى في أيّامنـــا هذه بالاهتمام الكبير والمتزايد لدى الباحثين عبر العالم حيث يعتبر من أهـــم التطبيقـــات الحاسوبية حاليًا وخاصّة ونحن في عصر مجتمعات الإعلام، لمواجهة كـــلّ التحـــديات التي تطرحها العولمة، ونرقى باللغة العربية إلى منزلة اللغات المتطوّرة.[6]

مشكلة البحث: تكمن مشكلة البحث في الآتي:

- كيف تتم معالجة الآلية للغة العربية؟.
- ما هي البرمجيات الجديدة المساهمة في نشر القرآن الكريم وتحفيظه؟.
- وفيم تكمن أهميّة البرامج والتقانات الالكترونية خدمة القرآن الكريم واللغة العربية؟

هدف البحث: يهدف البحث إلى الوقوف على أهـــم البرمجيـــات التكنولوجيـــة الجديدة التي لها أهم النّظم وبرمجيات النشر الإلكتروني التي تسهم في نشر القرآن الكريم وهناك العديد منها كبرنامج "**مكة ويب**" و"**المصحف للنشر المكتبي**"، برنامج

نور القرآن الكريم إنتاج cetnow بهذا البرنامج نستطيع تفسير أي آية في القرآن الكريم، وبرنامج **النشر المكتبي** (المستقبل الرّقمي)، والعديد من مواقع النشر الحاسوبية التي تسهم في نشر القرآن الكريم، وشرح أحكام التجويد مع إمكانية الترجمة الآلية.

منهج البحث: تمثّل منهج البحث في الخطوات الآتية:

- **أولا:** استخدام التقنية في القرآن الكريم واللغة العربية.
- **ثانيا:** أهميّة البرمجيات التقنية في نشر وترجمة القرآن الكريم.
- **ثالثا:** أهم المشاريع التقنية خدمة للقرآن الكريم واللغة العربية.
- **رابعا:** أهم التطبيقات الخاصة بتجويد وسماع وحفظ القرآن الكريم.
- **النتائج والخاتمة**

أوّلا: استخدام التقنية في تعليم القرآن الكريم: إنّ من نعم الله تعالى علينا أن يسر لنا تعلّم كتابه وحفظه فقال يقول عز وجل: ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (7) ومن هذا المنطلق اتجهت جهود العلماء والمختصين في كل زمان ومكان للعناية بتحفيظ القرآن الكريم وتعليم تلاوته وتدريس علومه، وتفننوا في استخدام الوسائل التعليمية المساعدة في تعليمه لمختلف الفئات العمرية، ومنذ ظهور الحاسب الآلي وانتشاره بشكل واسع وتنوع تطبيقاته، وبظهور الإنترنت وتعدد استخداماتها، وجدت المؤسسات التربوية والمراكز القرآنية والمختصون فضاءً رحباً لخدمة القرآن الكريم وتدريسه ونشر علومه وسوف أوجز في هذه العجالة الخطوط العريضة التي يستضيء بها معلم القرآن الكريم خلال استخدامه للتقنية في تعليم كتاب الله تعالى لأبنائنا الطلاب في المدارس، فأقول وبالله التوفيق:

1- تتنوّع التقنيات التي تسهل تعليم كتاب الله تنوّعا كبيرا فاحرص أخي المعلم على اختيار ما يتناسب مع طلابك وإمكاناتك وإمكانات مدرستك ولا تقحم التقنيات

التي لا تتناسب مع درسك وطلابك وبيئتك فلا تتحصل على الفائدة المبتغاة وتهــدر جهدك فيما لا يجدي.

2- احرص على تطوير مهاراتك وتجديد تقنياتك فطلابنا اليوم من أكثر الأجيال متابعة واستخداماً للجديد من التقنيات فكن في مستوى تطلعاتهم.[8]

ثانيا: أهميّة البرمجيات التقنية في نشر وترجمة القرآن الكريم.

تكمن أهمية التقنية خدمة للقرآن الكريم «لقد أنزل الله القــرآن الكــريم هــدى ورحمة للعالمين، وجعل أهل القرآن هم أهله وخاصته، فميّزهم بخدمته عــن بقيــة البشر، فمن وفّقه للعناية به فهو الموفق، وعلى قدر جهد وفناءه في أمره يصــيب من بركاته ونفحاته، قال تعالى: ﴿**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ**﴾.[9] وفي ظــلّ التقــدّم المتنامي والمتسارع لتقنيات المعلومات والاتصالات يبدي كثير من مؤسسات التعليم العالي الحكومية منها والخاصة، سواء في الــدول المتقدّمــة أو الناميــة اهتمامــا ملحوظا،[10] بهذه التقانات حيث ظهرت في الآونة الأخيرة عدّة برمجيــات خدمــة للقرآن الكريم وتساهم في ترجمته وحفظه وتلقيه بطرائق تكنولوجية حديثة وسنركز دراستنا على ثلاث برمجيات نذكرها كالآتي:

❖ **البرنامج الأول: برنامج نور القرآن الكريم.**

1. **التعريف بمركز "نور"**: تأسس مركز أبحاث تقنية المعلومات لخدمة القــرآن الكريم وعلومه **(نور)** بجامعة طيبة في المدينة المنورة بتاريخ **1432/24/03**، وهــو أحد مراكز الأبحاث الواعدة المدعومة من وزارة التعليم العالي بالمملكــة العربيــة السعودية ممثلة في أمانة مراكز التميز البحثي. يهتم مركز نور بــإجراء الأبحــاث والدراسات والاستشارات والأنشطة التي تتعلق بمجال توظيف تقنيــة المعلومــات لخدمة القرآن الكريم وعلومه. ويسعى المركز لتقديم خدمات مختلفة تــتلخص فــي

دعم المشاريع البحثية، وتقديم الاستشارات، والسعي للتعـــاون المحلـــي والـــدولي وضمان الجودة في جميع مخرجات المركز.[11]

أ- وحدة القراءات: تخدم هذه الوحدة **علم القراءات والمتون الخاصة به**، مثـــل "**الشاطبية**" في القراءات السبع و"**الدرة**" في القراءات المتممة للعشر، و"**الطيبة فـــي القراءات العشر الكبرى**". وذلك من خلال التعليم وقراءة القرآن الكـــريم بقـــراءات البلدان الإسلامية المختلفة، كما سيقوم المسار بعمل أبحاث في التدريب الآلي علـــى أحكام التجويد وكيفية مراجعة القارئ من خلال تقنيات الحاسب الآلي.

ويقوم المركز ومن خلال هذه الوحدة بتنفيذ مشروع تعلـــيم القـــراءات الســـبع باستخدام الحاسب الآلي في تعليم وتدريب وقراءة القرآن العظيم بالقراءات الســـبع من طريق الشاطبية، حيث تم تقديم بحث في هذا الموضوع والبرنـــامج التجريبـــي الخاص بذلك وتطبيقه على الربع الأول من الجزء الثلاثين من القرآن الكريم، حيث تم تقييمه وقبوله بندوة القرآن الكريم والتقنيات المعاصرة بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ويقوم المركز من خلال هذه الوحـــدة بالتعـــاون مـــع الأقســـام المختصة في الجامعة وفي الجامعة الإسلامية ومع مجمـــع الملـــك فهـــد لطباعـــة المصحف الشريف، وغير ذلك من الجهات ذات العلاقة.[12]

ب- وحدة تفسير القرآن الكريم: وتهتم هذه الوحدة بحفظ وســـرعة اســـتدعاء ومقارنة التفاسير المختلفة للقرآن الكريم وكذلك التفاسير الناطقة، والتفاسير المختلفة للآية وعرضها بأسلوب سهل ويسير وتقوم هذه الوحدة بعمل أبحاث فـــي إحصـــاء المتشابهات من الآيات والكلمات وبيان الإعجاز القرآني في هذا المجال، كما يقـــوم المركز ومن خلال هذه الوحدة بعمل مشروع تجميع ما تم نشـــره فـــي **التفســـير الموضوعي للقرآن الكريم وعمل العمليات الحاسوبية عليه مـــن بحـــث وتبويـــب وإحصاء** حيث أفاد أحد أساتذة التفسير في جامعة الأزهر ومتعاقـــد الآن بالجامعـــة

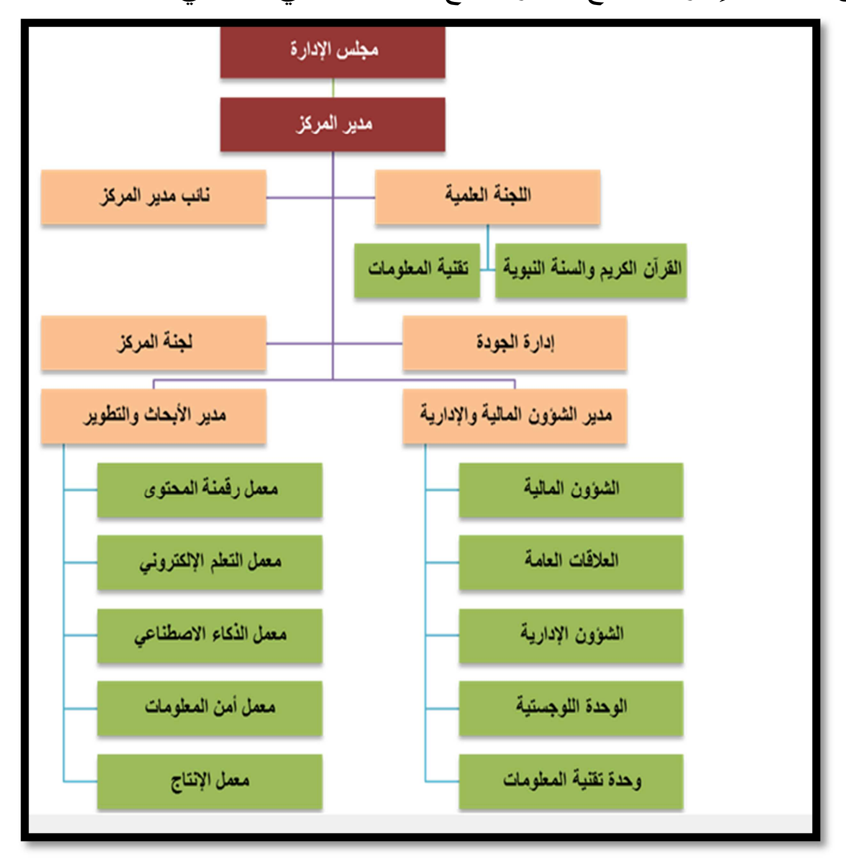
الإسلامية بأهمية هذا الموضوع واستعداده للتعاون ويمكن ترجمة معـــاني القـــرآن الكريم في هذا المشروع وخاصة في ترجمة الموضوعات ذات الاهتمـــام العـــالمي باللغات المختلفة وسيكون المنتج مناسباً للاستخدام عن طريق الحاسبات المتوازيـــة وشبكات الهاتف المحمول لانتشار الاستخدام وعموم الفائدة. هذه الوحـــدة المســـار بالتعاون مع الأقسام المختصة في الجامعة وفي الجامعة الإسلامية ومع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، وغير ذلك من الجهات ذات العلاقة.

جـــ- وحدة بيئة التعلم الافتراضية: من **الأهداف الرئيسية لهذه الوحدة البحثية هو تطوير بيئـــة تعليميـــة افتراضـــية ((Virtual Learning Environment (VLE)** مخصصة لتعليم القرآن الكريم وعلومه باستخدام أحدث تقنيـــات التعلـــيم والـــتعلم المتاحة في الوقت الحاضر. ونظرًا لتفرد القرآن الكريم والعلوم المتصلة به، سوف يتم تطوير بيئة تعلم افتراضية جديدة ذات جودة ومواصفات قياسية عالمية لاستخدام مصادر القرآن وعلومه عبر الشبكة العالمية العنكبوتية. وهذا سيساعد بشكل كبيـــر على توحيد الجهود وبناء مجتمع واسع من المطورين لخدمة وتحقيق الاحتياجـــات التعليمية لخدمة القرآن الكريم لأمتنا وجميع الأفراد، كما تهدف هذه الوحـــدة إلـــى وضع معيار موحد جديد لبيئة تعلم افتراضية مخصصة للقـــرآن الكـــريم وعلومـــه والتي سوف تخدم الأفراد والمجتمعات المحلية، والمنظمات على كافة المســـتويات من حيث احتياجات التعلم والتعليم وكذلك يحفظ مصادر القرآن الرقمية من أي أذى أو تحريف وتشمل هذه الوحدة مختلف مسارات البحوث في تقنيات التعليم والـــتعلم وتوظيفها بفعالية في استخدام مصادر القرآن الكريم وعلومه من خلال توفير نظـــام تعلم إلكتروني مخصص للقرآن وعلومه وتطوير مستودع رقمي للكائنات التعليمية خاص بالقرآن الكريم وعلومه وتطوير تطبيق لنشر الكائنات التعليمية للقرآن الكريم

وتوفير بيئة ذات تقنية عالية لبث الوسائط المتعددة لمصادر القرآن وتطوير محرك بحث مخصص للقرآن الكريم والعلوم المتصلة به.[13]

د- وحدة أمن المعلومات:

ولهذه الوحدة أهمية خاصة في **حفظ القرآن الكريم من الأخطاء** التي قد تكون عفوية من المسلمين الذي يعملون في خدمة القرآن الكريم، وقد تكون مقصودة من بعض أعداء الإسلام، كالتحريف والتشويه والزيادة والنقصان من خلال المواقع على شبكات الإنترنيت، مع حصر جميع النشاطات التي تمت في هذا المجال.[14]



ثانيا: برنامج مكّة ويب.

- أوّل مصحف نشر على صفحات الويب شعاره "انشر بدون تعب الآن وبكل سهولة".

- طوّر برمجة خاصة تتوافق مع آلية نشر المصحف الشريف بواسطة الصور ذات الشفافية والمتناهية الصغر لسرعة تحميلها مع دقة عرض جيدة بما يتوافق مع متطلبات ومعطيات النشر عبر الشبكة، وأديرت لهذا كله قاعدة بيانات تتوافق فيه الكلمة الإملائية مع شكلها المطابق للمصحف الشريف.[15]

- وأديرت لهذا كله قاعدة بيانات تتوافق فيه الكلمة الإملائية مع شكلها المطابق للمصحف الشريف في موطنها من المصحف في موقع المشروع.

- لقد صيغ من هذا كلّه برنامج حاسوبي يسهّل على المستخدم التعامل مع شواهد القرآن الكريم ليطلب من البرنامج عبر زر البحث ما يريد من شاهد لتخرج له نتائج بحثة بدقّة، وله الخيار في طلب كود نشر النصّ القرآني بما يغطي كافة جوانب النّشر في المنتديات الإسلامية.[16]

- أهم التطبيقات لقراءة وسماع القرآن الكريم:





Ayat - Al Quran .7

تطبيق آيات القرآن الكريم المميز للأندرويد ، التطبيق عبارة عن نسخة من مشروع المصحف الألكتروني لجامعة الملك سعود ، ويقدم التطبيق القرآن الكريم باللغة العربية والأنجليزية مقرؤ ومسموع ، ومصحف التجويد الملون وفقاً لقواعد التجويد ، بإلاضافة الي المصحف بالقرآت المعروفة مثل قراءة ورش عن نافع ،بالإضافة الي تلاوات وسماع القرآن من قبل نخبة من مشاهير القراء بالعالم الأسلامي، ويمكنك تصفح المصحف بالآيات المختلفة او البحث عن أيه بالأضافة الي سبعة تفاسير مختلفة لآيات القرآن ، وغيرها العديد من المزايا .

أهم المشاريع والبرمجيات الخاصّة بتجويد القرآن الكريم وقراءته:

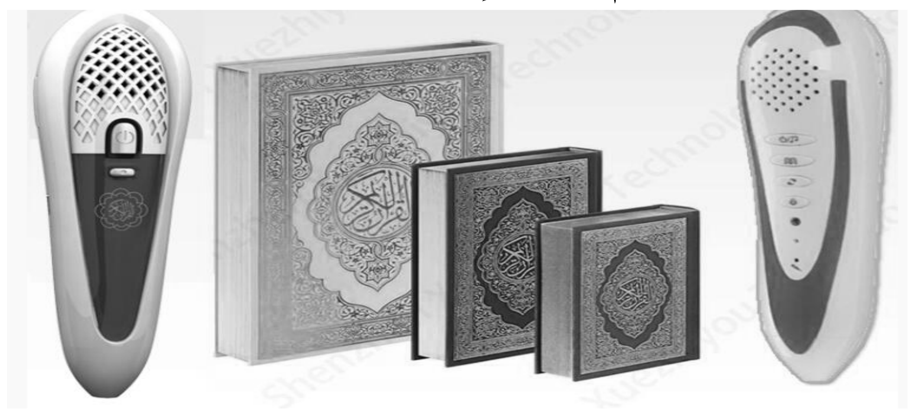
1- مصحف التجويد مع القلم القارئ:



- بصوت تسعة من أشهر القراء.
- التحفيظ بسهولة من خلال التكرار.
- بلمسة بسيطة من القلم على أية آية، ثم ربرفع القلم قليلاً والمتابعة به لكلمات الله تعالى المكتوبة، يمكنك من سماع تلاوتها ثم بنقل رأس القلم إلى البطاقة الذكية الموجودة داخل الفلاف، يمكنك سماع إما تفسير تلك الآية أو سماع ترجمة معناها إلى اللغات التالية: (الإنكليزية، الفرنسية، التركية، الألمانية، الماليزية، الروسية الاسبانية، الصينية، الفارسية والآردية).
- تسجيل صوتك لتصحيح تلاوتك ومقارنته بالمقرئ الذي تختاره.
- فهرسة مواضيع القرآن.
- فهرسة ملوّنة لأسماء السُوَر.
- بطارية دائمة قابلة للشحن مع شاحن خارجي عن طريق منفذ USB، يمكننا من شحن القلم، والتواصل مع التحديثات والتطويرات من خلال موقعنا.

ملاحظة: متوفر أيضاً بنسخ خاصة لكل من روايتي: ورش عن نافع، قالون عن نافع.[17]

2- الرقمية القرآن القلم قارئ الكبار تعلم قاموس الصوت القلم 2.4 جرام اللاسلكية نقل الصوت القلم ل قراءة الإعاقة:



القلم الحديث أهميته: يتحدّث القصد باستخدام أحدث تكنولوجيا التعرف على الصور البصرية والتكنولوجيا المتقدمة الصوت الرقمي المتقدمة جيل جديد من القــراءة الذكيــة وتعلم أداة .

* وهو يجسد الانصهار الكمال مــن المنتجــات الالكترونيــة وصــناعة التعلــيم والتكنولوجيا لمفهوم محورها الناس.

* يتحدث القلم يكون نقطة لقراءة، كرر، تسجيل، الترجمة، الترفيــه، والعديــد مــن الميزات الأخرى، تعبئة كاملة للأطفال مثل العينين والأذنين واليدين، ونظــام الحســية الدماغ، وسهلة لزراعة الأطفال المعرفية، ومحو الأميــة، والحــديث، والقــدرة علــى التفكير.

* يقرأ أين الطريق من خلال النقطة حيث يقرأ جنبا إلى جنب مع طريقــة ســمعت للتعلم، وتحسين مصلحة طفلك في التعلم، لتحفيز تطور الــدماغ .لــيس فقــط الســماح للأطفال تعلم المعرفة من التخصصات المتكاملة، وإرساء أساسا جيدا للأطفــال الــذين يلتحقون بالمدرسة، ولكن أيضا المساهمة في تشكيل نوعية شخصية الطفــل لزراعــة وتحسين ذكاء الأطفال ونوعية[18].

النتائج والتوصيات: ولعل أهم نتائج التي توصــلنا إليهــا فــي اســتثمار التقنيــة والبرمجيات خدمة للقرآن الكريم كالآتي:

أولاً: حفظ القرآن وترتيله: تعددت الوسائل التي تعين المرء على تلاوة القرآن فــي أي وقت شاء؛ ليلاً أو نهاراً. وفي أي مكان كان؛ مسكناً أو مركباً أو غيره. وعلى أيــة حال كان؛ قائماً أو قاعداً أو غير ذلك.

– وقد أعانت على حفظه لإمكانية تكرار الآيات مرات عديدة وبأصوات مختلفــة وكذا ساعدت في نشر العديد من القراءات القرآنية في شتى أنحاء العالم والتي لم تكــن

معلومة عند كثير من الناس، وغير ذلك من الصور المشرقة في كل ما يتعلق بـــالحفظ والتلاوة.

ثانياً: تجويد القرآن وترتيله:

– لقد أفادت هذه الوسائل في جانب تجويد القرآن وترتيله إفادة عظيمة؛ عن طريق نشر القراءة الصحيحة السليمة، والمجودة المرتلة، وبث الدورات التجويديـــة وإمكانيـــة الالتحاق بها، وأخذ الإجازات القرآنية عن طريق التعليم عن بعد بكل سهولة ويسر.

ثالثاً: تفسير القرآن وتدبره:

– وهذا أمر ظاهر وبين، فقد أثمرت هذه الأجهزة والتقنيات بفضل الله علماً واسعاً في تفسير القرآن وتدبره، ونشر هذه العلوم التفسيرية، والتدبرات القرآنيـــة ممـــا أفـــاد وغير كثيراً في جوانب حياة فئات المجتمع في شتى أنحاء العالم.

– ساعدت هذه الأجهزة في إفادة العلماء بعضهم من جهود بعض.

– أهم ما ينبغي التنبه إليه في استخدام هذا التقنيات والأجهزة هـــو مزيـــد العنايـــة بسلامة المصدر سواءً من حيث ضبط النصوص أو صحة المعلومات.

– ويجمل بنا كذالك الإفادة منها إيجاباً لا سلباً، ومراعاة الحق والجدية، والحذر من الزلل في التعامل معها، وتجنب الباطل منها والمشبوه.(19)

– ولا يتأتى للمرء ذلك الأمر حتى يستحضر منّة الله تعالى في تعليمه هذه العلـــوم إياه، وتسخيره هذه الأجهزة له، ومن ثم استشعار لزوم شكره المنعم تجاه هذه النعم التي أسداها إليه سبحانه.

– وهذه البلاد الكريمة – المملكة العربية السعودية– اعتنت بكل ما يتعلق بخدمـــة القرآن الكريم، وسعت خطوات جادة في هـــذا الجانـــب، وأقامـــت نـــدوات خاصـــة ومؤتمرات عديدة، محلية وعالمية، في هذا الموضوع خاصة، وفي غيره عامة، وهـــي في ذلك مشكورة. وهذه العناية التي تبذلها هذه البلاد تتمثل في مؤسسات شتى ومرافـــق عديدة ولعل من أبرزها مجمع الملك فهد – رحمه الله – لطباعة المصـــحف الشـــريف

الذي يقوم بجهود عظيمة، مؤسسية منظمة، وعلمية صحيحة، وآلية متقنة في استعمال هذه التقنيات والأجهزة الحديثة، وضبط كل ذلك بضوابط وقواعد أصيلة.

خاتمة: مِمّا سبق نخلص إلى أن القرآن الكريم معين لا ينضب وجنة فيحاء لا ينقضي ثمرها، بل يظل ملء السمع والبصر، يملك الفؤاد ويستولى على العقل والوجدان... وإننا بعد هذا التطوّف في دراستنا لأهمّ البرامج والتطبيقات الإلكترونية التي تخدم القرآن الكريم نرى أنّه من الضروري تتبع التطوّر الحاصل في عصر التكنولوجية الحديثة ومواكبة التحديات الجديدة والقرآن الكريم من أعظم النعم التي أنعمنا بها الله تعالى، وأقل ما يمكن فعله اتجاهها هو الحفاظ عليه وقراءته والتدبر فيه وتعلم تلاوة القرآن وتحفيظه، فقد أوصى بنا الله تعالى والرسول عليه الصلاة والسلام قراءة القرآن وحفظه ، فحفظ القرآن يجعلنا بإذن الله تعالى نتعرف على أهم القواعد والأسس الإسلامية التي يجب أن نتبعها ونتحلى بها بالإضافة إلى أنه تحصين وحماية من وساوس الشيطان والإغراءات الدنيوية التي ممكن أن تضعف من إيمان المسلم وهناك عدة طرق يمكن إتباعها لحفظ القرآن بطريقة سهلة ومبسطة، وهناك العديد من التطبيقات تعني بتحفيظ القرآن الكريم للكبار والصغار بطريقة سهلة وسريعة وتمكن المستخدم من ترسيخ الآية في ذهنه دون أن ينساها، وقد وضعنا في مقالنا قائمة من أفضل تطبيقات حفظ القرآن الكريم للاستفادة منها.

نتائج وتوصيات:

- إنّ من أهم ميزات هذه التقنيات (البرمجيات) هو كيفية توظيفها وحسن استغلالها فيم يخدم كتاب الله واللّغة العربية.
- من نعم الله علينا أن سخّر لنا هذه البرمجيات لتسهّل عملية نشر القرآن الكريم وتجويده وقراءته وحفظه والابتعاد عن اللّحن او تحريف للقرآن الكريم.
- تشجيع الباحثين العرب والجزائريين على وجه الخصوص من إجراء البحوث وتطويرها خدمة للقرآن الكريم واللغة العربية.

المراجع:

[1] محمد السيد عبد الرازق موسى، إعجـاز البلاغـي فـي التقـديم والتـأخير، 21/6/2010 ./http://quran m.com

[2] المزمل، الآية 20.

[3] المزمل، الآية 04.

[4] محمود بن حمزة الكرماني، أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان فـي توجيـه متشـابه القرآن لما فيه من الحجّة والبيان، تح: عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة للنشر والتوزيـع، دط دت، ص 05-06.

[5] عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني للقرآن، ط2، دار المعارف بمصر، 1987، ص94.

[6]-عشيت عبد المجيد، صياغة النظرية الخليلية الحديثة وفق القواعد التركيبية الموجّهة بالرؤوس اللغة العربية في تكنواوجيا المعلونيات نطوّر واعد...وتطوير متواصل، المجلس الأعلـى للغـة العربية، وقائع الندوة الدولية الجزائرفي 28-2002/12/29، طبعة مارس 2007، ص 34.

[7] القمر، الآية 17.

[8]https://www.manhal.net/index

[9] ص، الآية 29.

[10] http://www.alriyadh.com/

[11] المرجع نفسه، http://www.alriyadh.com /

[12] المرجع نفسه، http://www.alriyadh.com /

[13] المرجع نفسه، http://www.alriyadh.com /

[14] المرجع نفسه، http://www.alriyadh.com /

[15] http://www.alriyadh.com/

[16] http://www.alriyadh.com/

[17]http://www.alriyadh.com/media/article/2014/07/04/img/740715985624.jpg

[18]http://www.alriyadh.com/media/article/2014/07/04/img/740715985624.jpg

[19] https://dr-ibtesam-aljabry.com/container.php?fun=contactus

الأربعاء, 19 ذو الحجة 1440 ه 21 -أوت 2019 .

الدرس اللغوي في مناهج الزوايا والمدارس القرآنية بتوات "قراءة في المظاهر والخصائص

د. عبد الخالق قصباوى
جامعة أدرار

المقدمة: باسم الله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآلـه وسـلم الجمع المبارك الكريم السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

"**أما بعد**" استحقت توات من أرض الجزائر لقب الحاضرة العلميـة بامتيـاز، منـذ القرن العاشر الهجري، حسب ما وعته المصادر إلى الزمن المعاصر والحديث للـدور الذي قدمته الزوايا والمدارس الدينية في وسطٍ محبٍ للعلم وأهلِهِ، برز آثار ذلك فـي الحركة التي عكسها الرصيد الزاخر لمختلف العلوم، منها علم اللغة العربية الملتصـق الممشوج بالقرآن الكريم، نما هذا العلم بها وتطور، فاستقر ليستمر، حلَّقت فـي سـمائه أسماء صُقَعٌ، كمحمد بن أب المزمري (ت 1160هـ)، الذي وصفته المصـادر بشـيخ النحاة وسيبويه عصره وخليل زمانه، مستحوذ ناصية القريض، إلى أبوفـارس محمـد عبد العزيز البلبالى (ت 1261هـ) ـ الملقب بسيبويه، إلى الزمن المعاصر عبد الكـريم بن أحمد البكري النحوى، في القرن(14هـ- 20م)، فـإلى العصـر الحـديث، الشـيخ إبراهيم حفصى النحوى الصرفى، الشيخ باى صاحب التصانيف المفيدة، الشيخ محمـد المكى الفقيه النحوى ...الخ من الأسماء اللتى تضيق جنبات هذا البحث المتواضع عـن بيانها، حركة لغوية أدبية راجت في مجالس الدرس، فاض مسكها رفوف الخزائن، من شروح وحواش وتقييدات وطرر، ودوىَّ صوتها صماخ الآذان، ولاشك أن فضل ذلـك راجع للمنهاج المتكون عليه في الزوايا والمدارس القرآنية المنتشـرة عبـر الجهـات الأربع لتوات، والذي نحاول إبراز مظاهره وخصائصه ومستوياته فـي هـذا البحـث

مقتصرين في التمثيل على الزمن المعاصر والحديث، بحكم اعتباره صورة استمرار للمراحل السابقة منذ القرن (10هـ)، أيضا فما مدى اهتمام هذا المنهاج التربوي في توات بالدرس اللغوي، وما مركزيته عندهم؟، وما أهم مظاهره؟، وما الإنفراد الذي يميزه؟ في علمٍ يعد المدْرَج والمرتقى في فهم الخطاب والقنطرة التي عليها المجاز إلى معرفة السنة والكتاب، وما الإضافة التي قدمها للمكتبة خاصة وتثبيت علم اللغة العربية في الألسن بهذا الجزء من أرض الجزائر عامة؟، ذاك ما نحاول الإجابة عنه في مباحث أربع، مبحثُ تحديد المفاهيم وتفكيك المصطلحات، ومبحث مفهوم الدرس اللغوي بزوايا ومدارس توات القرآنية ومكانته، ومبحث مختلف مظاهر وأنشطة الدرس اللغوي لديهم، ومبحث ما يختص به ويميزه عندهم، معتمدين على مصادر المخطوطات والدارسات الأكاديمية في الموضوع، في ظل انعدام للمصادر والدراسات المتخصصة في موضوع المنهاج لهاته الزوايا والمدارس القرآنية فبالله الاستعانة وبفضله التوفيق.

المبحث الأول: توات الزوايا والمدارس القرآنية.

المطلب الأول: مفهوم توات وواقع الزوايا والمدارس القرآنية

أ: لفظ توات، اسم لمنطقة من مناطق الجنوب الغربي للجزائر، واصلها وتحدث عنها الجغرافيون والمؤرخون والرحالة في مصنفاتهم، كابن بطوطة والمؤرخ اليوناني "هيرودوت"[1] وابن خلدون وغيرهم.

يطلق عليها حديثا، في القرن (14هـ 1900م) ولاية أدرار، الشاملة للمناطق الأربع توات الوسطى، وقراره، وتديكلت؛ تنزروفت[2] المعروفة إداريا بدائرة برج باجي مختار الحدودية.

ب: الزوايا والمدارس القرآنية، قديمة بالإقليم إنشائها مستمر، ممتد – حسب ما وعته المصادر – إلى أول زاوية بالمنطقة أنشأها الشيخ مولاي سليمان بن علي في

القرن السادس الهجري (570هـ) تليها حلقة زاوية الشيخ المغيلى في القرن 08 هـ فإلى زواية تنلان في القرن (10هـ) إلى مدرسة تمنطيط عاصمة الإقليم قبل انتقاله لتيمى، فإلى مدرسة ملوكة، فسالى، فأدرار، واستمر الإنشاء إلى زمننا المعاصر، بتسع وعشرين مدرسة أوزاوية ذات نظام داخلى، بتعدادٍ طلابي وصل مجموعه سنة (2018م) = (8425) منه (2846) طلبة دائمون، و(5579) مؤقتون بفصل الصيف[3]، اعتمدت في القديم على الأوقاف وتبرعات المحسنين، وتطوع المشايخ والأئمة بعملهم، تمت مرافقتها قانونيا كغيرها من المدارس عبر الوطن من قبل الدولة الجزائرية، فصدر بشأنها مرسوم تنفيذى 94 / 432 المؤرخ في 10 ديسمبر 1994م حدد كيفية إنشائها وتنظيمها وسيرها[4].

المطلب الثانى: مفهوم الزوايا والمدارس الدينية.

أ: تعريف الزاوية: الزاوية في المفهوم اللغوى، واحدة الزوايا، من فعل زوى الشيء يزويه نحاه، وانزوى القوم لبعضهم إذا تدانوا وتضاموا، فاللفظ ذو معان متعددة كما يفيد معنى الركن ومنه هندسيا الزاوية، ومنه أيضا معنى الانزواء،" أى العزلة والانطواء، ومعنى الجمع[5].

والناظر لتقسيمات الزوايا من حيث تعدد الوظائف يمكنه القول: إن كل تلك المعاني، قد تصدق على لفظ الزاوية، فهي مجمع الناس وركنا يؤوون إليه، وملجأ ينعزلون ويختلون فيه طلبا للصفاء الروحى.

وفي المفهوم الاصطلاحي، وردت تعريفات عدة نقتصر منها على ما جاء عند أحد الباحثين، أنها: "مؤسسة دينية اجتماعية وثقافية ذات مهام ووظائف مختلفة"[6] ويمكن أن نحدد لها تعريفا أيضا حسب واقعها، تعنى: مركز ديني ذو أبعاد ووظائف مختلفة دينية اجتماعية".

وبناء على ما سبق، يتضح أن الوظائف التي أنشئت لأجلها الزوايا في توات يجعلها أنواعا أيضا، منها الخيرية والصوفية والعلمية، ونحن نتوجه هنا إلى ما له اتصال مباشر بالعلم والتربية مما يرتبط بالمدارس العلمية ذات المنهج الخاص في التدريس، والنظام الداخلي مما يمكن تسميته بالزوايا العلمية.

ب: مفهوم المدرسة الدينية "الزاوية العلمية": قبل تحديد مفهوم مصطلح المدرسة الدينية، أود أن أشير إلى أن واقع الاستعمال لمصطلح الزاوية والمدرسة بتوات في الزمن الحاضر يشهد إطلاقا للفظ بالمعنيين، فيطلقون لفظ زاوية الشيخ بلكبير مثلا ويقصدون مدرسته الدينية والعكس، فما الأصل في الإطلاق؟، الجواب، إن إطلاق لفظ الزاوية على المدرسة الدينية في الزمن الحاضر إطلاق حديث، بينما الاستعمال الذي ندركه في زمننا المعاصر منذ أن عرفنا هاته المراكز، تسميتها بالمدارس الدينية لاالزوايا، وهذا بارز في عناوين لوحاتها الخارجية، وفي تسمياتها في وثائق القائم عليها، أعنى وثائق إدارة الشؤون الدينية والأوقاف بولاية أدرار خصوصا، والأمرُ نفسه في بعض الكتابات حولها، كمؤلف "القول الحسن في مناقب الشيخ أبي محمد الحسن شيخ المدرسة الدينية بأنزقمير" للباحث أحمد بن حسان، كما أن المشرع الجزائري يعرف المدارس القرآنية عموما في المرسوم ت 432/94 – بحسب واقعها التعليمى– بلفظ المدارس القرآنية ولم يستعمل مصطلح زاوية.

ولفظ الزاوية عرفا اختص في الاستعمال، بالأمكنة التاريخية الخيرية المهتمة والمرتكزة على الجانب الروحي مما تعلق بالأوراد الصوفية وإيواء عابري السبيل بينما المدارس إذا أُطلقت انصرف المعنى للمراكز المختصة في العلم الشرعى من تحفيظ للقرآن وتعليم مختلف العلوم الأصلية والفرعية، "فهى المحض الذي ترعرعت فيه جميع الدروس المتعلقة بالدين الإسلامى"[7] مع الإشارة إلى قيامها ببعض أدوار الزوايا التاريخية كإيواء عابري السبيل، وبناء على هذا، بين النوعين اختلاف والتقاء

فيختلفان في المنشأ الأساس، إذ تختص الزاوية بالجانب الروحي الصوفي، بينما المدرسة الجانب العلمي، ويتفقان في تقاسم بعض الأدوار الاجتماعية من إيواء وإطعام مع الإشارة إلى أن الاستعمال القديم الجامع لكل هذه الاختصاصات هو لفظ الزاوية.

ومن خلال ما تمت الإشارة له، فإن واقع لفظ المدرسة الدينية بتوات حسب الهدف والنظام والمنهاج التعليمي، عبارة عن مركز علمي متخصص في تحفيظ القرآن وتعليم مختلف العلوم الشرعية واللغوية بمستوياتها الدنيا والمتوسطة والعالية، يشرف عليه شيخ ذو مستو عال في العلوم الشرعية، يعينه أئمة وأعوان دينيون على تطبيق البرنامج التعليمي الخاص والمتابعة الإدارية والسهر على تطبيق القوانين الداخلية لنظام المدرسة، وهى المعنية بالدرس اللغوى على وجه الخصوص، يأتى في مرحلة ما بعد دور الكتاتيب القرآنية المحلية، "وغالبا المنتسب إليها حافظا للقرآن الكريم، أو على مشارف إتمامه وحفظه"[8].

ج: **مفهوم المدرسة القرآنية الخارجية "الكتاتيب"**: المدارس القرآنية الخارجية المعروفة قديما بالكتاتيب، تقع بالأحياء داخل المجمعات السكانية بتوات، تعتمد في منهاجها على المرحلة المبتدئة من التعليم الدينى، نظامها خارجى، ونوع طلبتها في الغالب صغارَ أبناء الحى، مبتدئين من الحروف الهجائية، ليتعلموا القرآن كأساس تُصْحِبُهم في هذه المرحلة بتلقين مبادئ العلوم المختلفة، فقه العبادات، التجويد، التزكية

"تسمى هذه المدارس في العرف القديم بالإقليم أقربيش أو المحضرة [8] أو الكُتّاب"، شأن مرادفات أخرى تستعمل لهذا المسمى في الجزائر تختلف اختلاف المناطق، من مثل لفظ المعمرة، المسيد، الشريعة،....الخ.

المطلب الثالث: مفهوم المنهاج ومظاهره للزوايا والمدارس القرآنية.

تعريف المنهج:

أ: **لغة:** كلمة منهج mèthode ليست مصطلحا أحادي المعنى في العلم، وإنما يحـــدد معناه الوصف المقرون، وبغض النظر عن المفاهيم للمصطلح في موضـــوع البحـــث العلمى المختلفة اختلاف الموضوع المبحوث فيه كطرائق، من منهج تـــاريخى mèthode historique، علمى method scientifique، فإننا نقصد هنا "المنهج كمجموعة منظمـــة من العمليات تسعى لبلوغ هدف"[9] المتناغم مع لفظ نَهَجَ في اللغـــة الـــذي بابـــه فـــرِح وضرب، فالمنهج والمنهاج الطريق الواضح، ونهج الطريق أبانـــه وأوضـــحه وســـلكه "واستنهج الطريق صار نهجا، والنهج مستقيم المنهاج"[10] مما يتفق ويقترب مع مختلـــف المفاهيم التربوية المتباينة المرتكزة على المدرسة تارة والتلميـــذ أخـــرى، والتـــي فـــي عمومها لا تخرج عن الخبرات التربوية والمعرفية للمدرسة بغية تلميـــذ منســـجم مـــع الأهداف.

ب: **المنهج اصطلاحا:** بناء على ما سبق في المعنى اللغوى، سوف يكـــون مفهـــوم المنهاج المتساوق مع ذلك، الطريقة المتبعة في تكوين مرتادى الزوايا والمدارس الدينية بغية فرد متعلم صالح مصلح، ما يُدخل مجموع العمليات ذات الأركان المتعـــددة، مـــن مكان –زاوية أو مدرسة– شيخ، طالب، مقرر، نظام.

تعليمها متدرج يمر بمراحل أولها التعليم القرآنى للمنتسب، المشتمل علـــى التحفـــيظ والضبط ومعرفة أحكام الرسم وشواهده، مع اعتماد حلقة التكرار اليومى والأســـبوعى يتزامن ذلك في هذه المرحلة مع تلقين مبادئ المتون الأولية في العقيدة والفقـــه والآداب "بعد إنهاء الطالب لهاته المرحلة من حفظ للقرآن وتمكنه من تلك المبادئ يسجل تلقائيـــا في ما يعرف بحلقة المجلس أوالوقفه[11] أو أصحاب الفقه كما يسميه الـــبعض، إطلاقـــا للشيئ على جزئه، وللتفريق بينهم وبين المرحلة اللتى تســـبقهم وهـــم طلبـــة القـــرآن

فيجتمعون حول الشيخ ينفرد بهم عن أصحاب القرآن بغرض التعمق أكثر في مختلف العلوم الأصلية من تفسير وحديث وفقه وتجويد، وكذا مختلف العلوم التبعية الخادمة لها من لغة وأدب ومنطق وفرائض وحساب ...الخ بمنهج مواد المتون، فيعرض الطالب بمفرده عبارة من المتن على الشيخ، فيشرحه له، أو يتم العرض بصوت واحد من قبل مجموعة طلبة الحلقة فيشرح الشيخ النص مع تقوية ذلك بالإطلاع على الشروح الخاصة لتلك المتون.

التعليم الشرعي بهذه المدارس التواتية على العموم نوعين، ذو خصائص مختلفة دروس عامة للطلبة وغيرهم من عامة المجتمع، وخاصة بالمنتسبين لهذه المدارس ونقصر الحديث عليها هنا وبالتحديد فيما مجاله الدرس اللغوى.

المبحث الثانى: مفهوم الدرس اللغوى ومكانته في منهاج الزوايا والمدارس القرآنية بتوات.

المطلب الأول: حقيقة الدرس اللغوى واهميته.

1- **تعريف الدرس اللغوى:** الدرس اللغوى مركب إضافى من لفظين، درس ولغة، فما المراد بكل منهما منفردا في الجانب المعجمى، وبهما مجتمعين في عرف الاستعمال عند الإطلاق في هذا المجال؟.

أ- عند البحث والتحسس في معاجم اللغة، نجد الدرس لغة من مادة، د، س، ر، له معان، عفا للرسم، وبلى للثوب خلق، ومن ذلك قوله تعالى: "**وليقولوا درست**" أى قرأت عند الجمهور، وقُرأ دارست، أى ذاكرت، "والمدراس موضع يقرأ فيه القرآن"[12] ومنه المدرسة، والدرس ليس مجرد القراءة مرة، وإنما ما يحمل معنى المداومة والإعادة والتكرار والإدمان، فدرست الكتاب ذللتُهُ بكثرة القراءة حتى خف حفظه، وفي هذا السياق يقول الإمام المفسر الجزائري عبد الرحمان الثعالبي رحمه الله عند قوله

تعالى: "﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴾[13] تدرسون بضم الراء من درس إذا أدمن قراءة الكتاب وكرره"[14].

ومن هنا كانت الزوايا رباطات علم، يلتحق الطالب بها، توفره له الإقامة والإيواء، ليتفرغ للعلم، ينصح المشايخ طلبتهم في مجالس الدرس على التريث وعدم التسرع في أخذ العلم، خصوصا الدرس اللغوى، مذكرينهم عموما بما يوحى إليه قول ابن مالك في ألفيته في باب المفعول فيه:

الظرف وقت أو مكان ضُمِّنا في باطِّراد كهُنا امكثْ أزمُنا

والمراد بالدرس هنا، اسم للفعل، الذي يعنى مختلف أوجه النشاط في الشيء، ومنه الدرس الفقهى، ما يشمل مختلف البحوث والمجالات المرتبط بالفروع الفقهية وكذا الدرس الأصولى ...الخ من الإطلاقات المستعملة.

ب: اللغة:

أ: **اللغة** مصدرٌ من فعل لغا، جاء عن ابن منظور في اللسان، "أصلها لغوة، على وزن فُعلة –حذفت الواو– يجمع على لغة ولغون، معناه من لغا إذا تكلم، كما يطلق اللفظ على ما لا يعتد به من كلامٍ مما لا تحصل به فائدة، ومنه قوله تعالى ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ ﴾[15] والمراد الحلف بألفاظ زائدة غير مقصودة، وفي هذا السياق مدح الله عز وجل عباد الرحمان الناءون بأنفسهم عن لغو الحديث وباطله، قال تعالى": ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾[16] ومنه لفظ الحديث النبوى: من قال في الجمعة صه، فقد لغا – أى تكلم.

ب: اصطلاحا: وردت في المعاجم اللغوية العتيقة والمعاصرة تعريفات عدة لمصطلح اللغة، نقتصر منها على تعريف ابن جنى في مصنفه الخصائص، باب القول على اللغة " قائلا: "أما حدها، فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[17] وينجلي

بهذا التعريف خصائص اللغة من كونها، صوتيه، وتم التركيز على الصوت في التعريف لأنه الأصل، أما الإشارة والكتابة ..الخ فصورة بديلة للصوت، الذي يدخل لغة الطير مما يعبر عنه بمنطق الطير، جاء في القرآن الكريم قوله": ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (18).

الدرس اللغوى، المنسوب للغة، استعمل في مصادر الزوايا والمدارس الدينية، قال صاحب النصيحة "

واجتهدن عمرك في درس اللغة فهى لفهم ديننا مبلغه

ج: اصطلاحا: عند البحث والتحسس في الدراستين الأكاديميتين اللتين اختصتا في الموضوع –مما اطلعنا عليه– الدراسات اللغوية بتوات، وجهود علماء توات في الدرس اللغوى، لانعثر على تعريف لمفهوم الدرس اللغوى عند علماء المنطقة في اصطلاح الفن، لعله سهو، أوعدم حاجة للبيان بحكم الوضوح –والله أعلم–

ويمكن من خلال مفهوم اللفظتين والممارسة الملاحظة في منهاج الزوايا والمدارس القرآنية، أن يحدد مفهومه عندهم، بمجموع الأنشطة المتعلقة بمباحث اللغة العربية اللتى تشتغل عليها الزوايا وتهتم بها، واللتى لاتخرج عن النحو والصرف والبلاغة والأدب، يعكسها واقع النشاط في هذه البحوث، ويجلي هذه المباحث قول أحد مشايخ هاته الزوايا المعاصرين: "أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تفقهوا من غير ما درس علمه إياهم فى البلاغة والنحو والصرف والعلوم الأدبيه"[19](18).

2– **حكم تعلم اللغة:** حكم تعلم اللغة في فكر وأدبيات المنهاج التربوى فرض من الفروض من باب ما لايتم الواجب إلا به، والوسائل لها أحكام المقاصد كما قرر العلماء رحمهم الله، يعكس هذا الحكم المقررات المدرسية عندهم الداعية لتعلم اللغة منها نص صاحب النصيحة المتن المقرر في علم السلوك:

وقـــال شـــمس فـــي كتـــاب النفحـــات علـــم اللغـــات فرضـــه كالصـــلوات

لإنـــــه لا يعـــــرف الـــــدين ســـــوى بلغـــــة تشـــــرح كـــــل مـــــا حـــــوى

بـــل قـــال بعـــض أول الفـــرائض هـــــذا وذاك بـــــدليل نـــــاهض[20]

يقول الشارح –أحد مشايخ هاته الزوايا– عند هذه النص ما مجمله": علــم اللغــات يجب تعلمه كوجوب علم الفرائض أى الفرض العينى، ومــا أشــار إليــه المصــنف منصوص عليه في كتاب النفحات، بل منصوص عليه في غير ما كتاب، ثم أحال على مصنف المزهر لجلال الدين السيوطى، من توقف مجموعة علوم على اللغــة، كعلــم القراءات، وعلم التفسير وعلم الفقه، وعلم الأصول[21].

ومن تلك الأدلة على أهميتها قول شيخنا –الشيخ حسن– صاحب المدرســة الدينيــة بأنزجمير، في إطار معرض بيان إعراب لفظ الجلالــة –لا إلــه إلا الله– بعــد بيانــه مختلف أوجه الإعراب، يختم حديثه في ذلك المجلس بنصيحة قائلا": معرفة اختصاص المولى بالعبودية مما توحى إليه الجملة عرفناه باللغة العربية، ثم يذكّر بأبيات نصــيحة الشباب السالفة البيان الذي يتبين فيها فرضية معرفة اللغة العربية، قائلا": إن العجم فــي باكستان والهند يقولون إن التكلم باللغة العربية عبادة، ونحن العرب نزهد ويفتخر أحدنا إذا تحدث بلغة أخرى ويحتقر من ينطق بالعربية معتبرا –الشيخ– أنها اللغة الحية حقــا منبها إلى مسؤولية العرب قبل غيرهم عن القرآن مدللا لذلك بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴾ [22] لماذا لم تتفكروا؛ لإنه أنزل بلغــتكم، ثــم يؤكــد هــذه الفرضية بالتذكير بتلك الأبيات اللتى ذكرها بعض أهل العلم في حكم حفظ اللغــة كمــا جاء عن السيوطى وغيره"[23]:

حفـــــــظ اللغـــــــات علينـــــــا فـــــــرض كحفـــــــظ الصـــــــلاة

فلـــــــيس يحفـــــــظ ديـــــــن إلا بحفـــــــظ اللغـــــــات

خاتما حديثه قبل ذكر قصة سبب وضع النحو المشهورة بقوله": كان ابـــن عبـــاس وابن عمر رضى الله عنهما يضربان أولادهما على اللحن، مع أن أولادهم لا يعرفـــون اللحن إلا نادرا[24].

ثم يحث طلبة الحلقة على علو الهمة في الاشتغال بالدرس اللغوى، بـــذكره لقصـــة سيبويه البصري رحمه الله، المتوفى عن (32 سنة)، وكيف وضع كتابه المشهور الـــذي يغنى عن غيره ولا يغنى غيره عنه، وقد كان في حلقة حمّاد يدرس الحـــديث وأخطـــأ فعاتبه حماد علناً، فقال والله لا أطلب علما لا يُلحننى معه أحد، فخرج للبادية يسمع مـــن العرب ويقيد حتى ألفه كتابه المشهور.

ومن خلال النصوص السابقة تتضح مركزيتها في منهاج المدارس والزوايـــا مـــن كونها فرضا، من باب ما لا يتم الواجب إلا به، والوسائل تأخذ حكم المقاصد، كما هـــو مقرر في علم المقاصد الشرعية، لكن الفرض من جهة الوجوب العينى يطرح إشـــكالا إذْ طلبُ معرفتها من كل أحدٍ تكليف بما لا يطاق وهو ممنوع شرعا؟ أيضا ما الجـــواب ؟ إلا أن يراد بضرب مثل الصلوات كفرع من فروع الواجب العينى، ليس المراد بـــه الإلحاق وإنما المراد به درجة اللزوم، واللزوم كما هو في الفرض الكفائى في العينـــى أيضا، والآثار كما تلحق بالفرد تلحق الجماعة إيجابا وسلبا. - والله أعلم-

ونص شارح اللامية، التي تعد من المقررات في علم الصرف في المستوى العـــالى لهذه المدارس فاصل في كون تعلمها مما هو داخل في الاختصـــاص بالإجمـــاع مـــن فروض الكفايات، يقول الشيخ بحرق اليمنى، شارح لامية الأفعال، للإمام جمال الـــدين بن مالك في مطلع مقدمته": أما بعد فإن علم العربية في الدين بالمحل الأعلـــى والمقـــام الأعز الأسنى، إذْ هو السلم الذي به يرتقى إلى فهم الخطاب والقنطـــرة اللتـــى عليهـــا المجاز إلى معرفة السنة والكتاب، على ذلك أجمع أهل العلم سلفا وخلفا، وتقربوا إلـــى

الله بطلبها زلفى، وشرطوها في صحة الإمامة العظمى فما دونها من الولايات وعدُّوها من أهم فروض الكفايات"[25].

3- **أهمية تعلم اللغة ومكانتها بين العلوم في منهاج الزوايا:** يحدد مستوى الاهتمام ومرتبته لدى المنهاج في منحنى هرم مختلف العلوم المدرسة المعتمدة كأصول للتكوين – العلوم الأصلية – وأعنى الثلاثية المقعدة عندهم في بيت المرشد المعين المشهور على لسان الخاص والعام، قوله:

في عقد الأشعري وفقه مالك   وفي طريقة الجنيد السالك

كما تتضح مركزيتة في مسلمات يتربى عليها المتكونون، تسمى عندهم بعلوم الآلة، أو العلوم الخادمة للعلوم الأصلية الثلاث المذكورة تعكسها ألفاظ المتون المعتمدة لديهم في علوم الآداب، يتربى عليها الطلبة ويعتمد عليها الشيوخ في تحريك الهمم، يتضح هذا من خلال توجيهات المصنفات المقرره التالية:

- قول سراج طلاب العلوم:

ثُمِّ علوم النحو فيه استغرق   وكل زيتٍ في طِلابه احرقِ

لإنه للعلم كالحِبالهْ   به الفهوم ترتقى حبالهْ

من لم يُحَصِّلْهُ فباعه قصير   لا يستوى ياصاح الاعمى والبصير

كذا البيانُ كاسمه بيانُ   دل على ما قلته العيانُ

وكيف يرتقى إلى المعانى   من ليس ذا نحوٍ ولا بيانِ

- وقول صاحب الهدية: حسين الجسر:

واعن بحسن الخط والإنشاء   فذاك زينة لدى الأكْفاءِ

واحرص على النحو فذاك السلم   لكل علم تبتغيه الأمم

- قول صاحب النصيحة – الطاهر العبيدى الجزائري-

واجتهدن عمـــرك فـــي حفـــظ اللغـــه فهـــــى لفهـــــم ديننـــــا مبلغـــــه[26]

أما من حيث الترتيب، فمباحث اللغة كما سبق، علوم خادمة للعلوم الأصـــلية فـــي منهاج الزوايا، وطلبها حسب واقع الممارسة يسير في خط متواز، والنصـــوص التـــي يتربى عليها الطلبة توحى بتصنيفها في مقدمة طلب العلوم، من ذلك قول السراج وهـــو يتحدث عن ترتيب العلوم:

أولـــــــه عقائـــــــد ثـــــــم فـــــــروع تصـــوف وآلـــة بهـــا الشـــروع

قول صاحب النصيحة، بعد بيان حكم طلب اللغة:

فـــإن حفظـــت لغـــة ثـــم صـــغيت للـــذكر والـــدرس والشـــرع وعيـــت

لـــذاك كـــان الصـــحب قـــد تفقهـــوا فـــي غيـــر مـــا درس دراه الأفقـــه[28]

قال الشارح ع العزيز سيد اعمر رحمه الله، قـــال، أي بعـــض العلمـــاء –وإن لـــم يسمهم– كما جاء الأمر في أصل المتن – إن علم اللغة يجب طلبه قبل كل علم، ثم دلل على ذلك بأبيات:

قـــدم النحـــو علـــى الفقـــه فقـــد يبلـــغ النحـــوى بـــالنحو الشـــرف

ثم واصل لما قال: لأجل احتياج العلوم بأسرها إليه –علم العربية– وابتنائها عليـــه، مستشهدا بقول الشاعر:

النحـــو قنطـــرة إلـــى العلـــوم وهـــل يجـــاز نهـــر بغيـــر القنـــاطير

إن النحـــاة أنـــاس فـــاق مجـــدهم فـــوق العبـــاد جميعـــا بالمقـــادير[29]

وسرد ما جاء في مصنف سراج طلاب العلوم، وما جاء في مصنف الهديـــة مـــن الأبيات التى تمت الإشارة إليها.

ومن خلال استحضار هذه النصوص وواقع المنهاج، يتضح أن تعلم اللغة بالمدارس الدينية بتوات، يسير مع العلوم الأصلية الثلاث في خط متواز، وهو أمر طبيعي، بحكم اعتباره من المكمل الضروري، يأخذ نفس المركز، من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ومع هذه المكانة، التربيةُ القلبيةُ والتزكية النفسية أساس مقياس صلاح الإنسان عندهم، لكن جمالَ اللسان دونها كمالٌ مشوبٌ بالنقصان، والأكمل اجتماع أنواع الجمالِ، روح، ولسان، وهذا ما عبر عنه شيخنا -حفظه الله- في درسه الذي نسوقه كنموذج لفلسفة اللغة في فكر الشيخ، وقد قال في نهاية إعراب -لاإله إلا الله- موجها": لكن علينا بإصلاح قلوبنا يتسنى لنا بذلك إصلاح السنتنا لإنهم قالوا": إصلاح اللسان دون الجنان فسق وضلال، وإصلاح الجنان دون اللسان كمال دون كمال، وإصلاح اللسان والجنان كمال الكمال" (27).

المطلب الثاني: أهدف دراسة اللغة ودور المنهاج في ترسيخها: المراد هنا، الآلية والأداة اللتى ترسخ أهمية اللغة العربية في نظام الدراسة عند المتكون بهذه المدارس وهذا ما نتحسسه من المصادر المقررة، المتون وأغلبها منظوم، ومن حلقات الدرس أيضا.

1- **المصادر المقررة:** مواد المتون المقررة في علم الآداب عندهم، الشامل لغرس مختلف القيم في مختلف العلوم، منها علم اللغة العربية، نمثل لها بما يلي:

1- **متن هدية الألباب في علم الآداب:** هذا المتن من المقررات في علم الآداب – الأخلاق- بالمحاضر والمدارس القرآنية بتوات، يحفظه الصغار والكبار، لقى اهتماما وصل لشرح مفرداته، كما الحال مع الشيخ عبد العزيز سيد اعمر رحمه الله الذي شرحه تحت عنوان "فتح الملك الوهاب بشرح هدية الألباب"، المصوب والمسدد من قبل الشيخ سيدى محمد بلكبير رحمه الله، جاء فيه توجيه الناظم طالب العلم إلى الاهتمام باللغة العربية في قوله:

واعـــن بحســـن الخـــط والإنشـــاء فـــذاك زينـــة لـــدى الأكفـــاء

واحــرص علـــى النحـــو فـــذاك السـلم لكـــل علـــم تبتغيـــه الأمـــم

قال الشارح – عبد العزيز التواتى – ثم أمر المتعلم أيضا أن يحرص علـى علـم النحو وأخبر بأنه هو السلم لجميع العلوم لأنه جمال الألسنة وكمال العلماء وبه تعـرف معانى الكتابة –الكتاب– والسنة النبوية... [30]

2- **نصيحة الشباب:** إن الواقف على محور دعوة الشباب المسلم العربي عمومـا وطالب العلم الشرعى خصوصا في هذا المتن المنظوم الذي نال القسط المعتبـر فـي حلقات الشرح لدى شيوخ الزوايا بتوات، ليلاحظ تخصيص هذا المحور بمـا يتجـاوز عشر أبيات لدعوة الطلبة وتحريك هممهم تجاه طلب اللغة العربية وبيان أهميتها في فهـم الدين الإسلامى، وبالمقابل التحذير من الافتتان باللغة الأعجمية، يقول الناظم أولا:

ياهـــاجراً للغـــة القـــرآن ولغـــة الهـــادى إلـــى الـــديَّان

مقـــدما رطانـــة الأعجـــام كأنـــه عِلْـــجٌ مـــن الأروام

هجـــرُ لغـــات العـــرب ممـــن يـــدْرِ عـــارٌ وخفـــضٌ لرفيـــع القـــدر

ثم يواصل حاثا قائلا:

فـــلا تبـــدل زيـــك الشـــريفا ولا تحـــرف لفظـــك المنيفـــا

ثم يطلب صراحة مباشرة للطالب أن يجتهد عمره في دراسة اللغة العربية وتفهمها، مبينا السر في ذلك من تقويم اللسان وصونه عـن الخطـأ والفهـم الصـحيح للـدين الإسلامى، قائلا:

واجتهـدن عمـرك فـي درس اللغـة فهـــى لفهـــم ديننـــا مبلغـــه

فكـــل مـــن قـــد جهـــل الإعرابـــا فـــي فهمـــه قـــد أخطـــأ الصـــوابا

حيـــث الكتـــاب والنبـــي عربـــي وخـــاتم الـــوحى لســـان العربـــي

يقول الشيخ عبد العزيز، معلــقا في شرحه –الموجه لطلبــة العلــم علــى وجــه الخصوص– على هذا النظم لهذه الأبيات فيما فحواه،": التارك للغة القــرآن المشــرفة على سائر اللغات هاجر له، والمتحدثُ برطانة الأعاجم مقدمنها علـــى لــــغة القــرآن خارج عن الطريق الصحيح راض بالتسفل وبالخفض بعد الرفع، متشــبه بــالعلج، أى الكافر ثم ساق حديثا": من تشبه بقوم فهو منهم".

2- **حلقات الدرس:** الدرس اللغوى في الزوايا كما تكونه المقررات، تقرره وتثبتــه وتوجهه حلقات الدرس نمثل لذلك بالآتى:

1- قول الشيخ المكى النحوى المعاصر –حفظه الله– أثناء شــرحه لأحــد وقفــات مصنف الآجرومية وهو يسوق مختلف النصوص من كتاب أو سنة حــول علامــات معرفة الفعل عند قول ابن آجروم "والفعل يعرف بقد والسين وسوف ...." مستدلا فــي معرض البيان لدخول قد على المضارع بقوله تعالى": ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [31] مبينا المعنى العام للآية حســب الطريقــة المعهودة معربا الآية مشيرا إلى أن "حرف قد" هنا يفيــد معنـــى التحقيــق مســتخرجا إشارات عقائدية من كون علم الله تعالى مغاير لعلم المخلوقين..." خاتما الحــديث عــن هذه المعلومة بقوله": لايذوق الإنسان حلاوة القرآن إلا بالعربية وهكذا كلام رسوله[32].

2- من مظاهر التنبيه إلى أهداف تعلمها، نصح الطلاب بالاهتمام باللغة، من ذلــك وصية الشيخ أحمد خليلى اللغوى –أحد شيوخ الزوايا المعاصرين–، لتلامذته، مبينا لهم أنها السبيل الوحيد لفهم كتاب الله عز وجل، معززا ومستدلا بقول مالك رحمه الله": لــو صرت من العلوم في غاية ومن الفهوم في نهاية ما خرجت عن الأصــلين، كتــاب الله وسنة رسول الله ﷺ ولا سبيل لهما الإ باللسان العربي[33]"، وهى جملــة تــردد وتكــرر

كثيرا في مجالس درس التفسير واللغة، يعرفها الطلبة والملتزمــون حلقــات الــدرس بالزوايا

3- من النصوص المؤكدة لذلك قول شيخنا -حسن الأنجزميرى- المشار إليه سابقا في درسه حول إعراب كلمة التوحيد": الذي يعرف الإعراب يفهــم القــرآن ومراميــه وإشاراته وغوامضه، ولهذا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تفقهوا من غير ما درس علمهم إياه فى البلاغة والنحو والصرف والعلوم الأدبيه"[34].

وهى أهمية قعد لها السابقون ممن أسسوا منهاج الــدرس العلمــى بهــذه الزوايــا والمدارس، اللتى خرجت نخبة من العلماء اجتهدوا وقضوا وسيروا شؤون المجتمع فى فترة من تاريخه، كقول الشيخ عبد الكريم المغيلى رحمه الله ت (909هـ)، في معرض حديثه وهو يجيب من سأله عما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار مذكرا بشــروط المفتى، قائلا": فمن لامعرفة له باللغة أولا معرفة له بالمنطق لايوثق بفهمه"[35].

فتحصل على ضوء تلك النصوص أن أهمية اللغة عندهم مجملة في أمور ثلاث:

- تقويم اللسان؛
- فهم الأصلين الكتاب والسنة خاصة؛
- صحة الفهم وسلامة الاستنباط عامة؛

والنص الجامع لذلك كله عندهم، نص الشيخ بحرق اليمنى المشار إليه سابقا، شارح لامية الأفعال للإمام جمال الدين بن مالك في مطلع مقدمته قائلا": أما بعــد فــإن علــم العربية في الدين بالمحل الأعلى والمقام الأعز الأسنى، إذ هو السلم الذي به يرتقى إلى فهم الخطاب والقنطرة اللتى عليها المجاز إلى معرفة السنة والكتاب، على ذلــك أجمــع أهل العلم سلفا وخلفا، وتقربوا إلى الله بطلبها زلفى[36].

المبحث الثالث: مظاهر الدرس اللغوى في الزوايا والمدارس القرآنية بتوات:

الدرس اللغوى في منهاج الزوايا والمدارس بتوات واقعه متنوع نشط، لايقل أهميــة عن نشاط العلوم الأصلية من عقائد وفروع فقهية، وسلوك، ويمكن التمثيــل لــه وفــق نظرين:

المطلب الأول: المظاهر في مقررات المنهاج: مجال تعاطى الدرس اللغــوى فــي المنهاج تعكسه الفنون الثلاثة عندهم، نمثل لها بما يلى:

1- **علم النحو ومصنفاته في التكوين:** النحو من فعل نحا النحو والانتحاء، القصــد والطريق، فهو انتحاء سمت كلام العرب في الإعراب وغيره[37]، والمنهاج في أغلــب هذه المدارس مع وجود بعض الفوارق بينها يرتكز على مصنفات المتون، كل متن في مستوى يناسبه، نمثل له بالآتى:

أ: متن الآجرومية: المراد به المقدمة اللتى وضعها ابو عبد الله محمد ابن آجــروم الصنهاجى، ت (723هــ)، التى تعد في فلسفة الزوايا المُقَدِّمَةُ التى لا يسبقها شيء فــي تعلم أبجديات اللغة للمبتدئين خاصة وعموم المتعلمين.

لقى هذا المتن في توات عناية خاصة من قبل العلماء فاقت عناية حاضــرة شــنقيط حتى بلغ نظمهم له عُــشْر المنظومات اللغوية،[38] فأنجزوا في جانــب التــأليف كتبــا عديدة حوله من نظم وشرح بدأت من الشيخ بن أب المزمرى ت(1160هــ) رحمــه الله واستمرت إلى مولاي أحمد الطاهرى، في القــرن (20 م) رحمــه الله فــإلى الــزمن المعاصر بمؤلفات الشيخ محمد باى بلعالم رحمه الله، كاللؤلؤ المنظوم نظم مقدمــة بــن آجروم، أما حلقات الدرس، فلا يعدم لها مجلس أو مجالس في أية زاويــة أو مدرســة قرآنية داخلية، وهو أمر بادٍ للعيان لا يحتاج لبرهان.

ب: متن ملحة الإعراب: المؤَّلفُ هذا عبارة عن نظم يساوى (446) بيـت، للشـيخ أبى محمد القاسم الحريرى البصري المعاصر للزمخشري ت(516هـ) ألفه فـي ليلـة ولذا اشتهر بلقب بنت ليله، عليه شروح عدة، يمتاز بسهولة العبارة وكثـرة التمثيـل[39] مندطلقا من تحديد ماهية الكلام:

حـدُّ الكـلام مـا أفـاد المسـتمعْ نحـو سـعى زيـدٌ وعمـروٌ مُتَّبِـعْ

ونوعُـهُ الـذي عليـه يُبْنَـى اسـمٌ وفعـلٌ ثـم حـرفُ معنـى[40]

والسؤال المطروح ما مركزه في المنهاج؟ عرف هذا المصنف اهتماما في طـرق التدريس بالزوايا، المعاصرة والحديثة، أما القدامى فلم نعثر لهم على ذلـك، -حسـب اطلاعنا- على الرغم من أن النظم يعد من أولى المنظومات اللتى لاقت اهتمامـا مـن قبل العلماء عموما، فلا تفيدنا عن أثره المصادر اللتى تتحدث عن الإجازة في حلقـات الدرس اللغوى إلى جانب المصنفات اللغوية الأخرى المجاز فيها، لكـن المعاصـرين والمحدثين اهتموا به تدريسا وتأليفا، كمؤلف منحة الأتراب على ملحة الإعراب " للشيخ محمد باى بلعالم، وكلٌّ أوجلُّ المدارس القرآنية الخارجية تعرفه كمقرر من المقـررات الدراسية للمتكونين بها، اختص به طلبة المرحلة المتوسطة في الـدرس اللغـوي كمـا سوف يأتى في الخصائص.

ج: ألفية بن مالك: الألفية منظومة من ألف بيت، مشهورة في النحو، للشيخ محمـد بن مالك الأندلسى الدمشقى (ت446 هـ).

واهتم المنهاج الدراسي للزوايا بتوات بها اهتماما معتبراً وإن لم يصل لدرجة مقدمة ابن آجروم، أثرها بادٍ في مختلف الإجازات اللتى كانت تمنح في نهايـة التكـوين فـي الزمن القديم خاصة كما الأمر في إجازة الشيخ الجنتوري عن شيخه عبد العـالى بـن أحمد الأنصالحى، والأمر مستمر إلى اليوم من حيث الاهتمام بها، ولا توجد زاويـة أو

مدرسة دينية لا تعرفها ضمن مقرراتها، ولا تهتم بمختلف شروحها خاصة ابن عقيل ابن هشام، يتناولها الطلبة في المرحلة الأخيرة من تعليمهم مما نشير إليه بمرحلة التعليم العالى، وتأخيرها طبيعى بحكم علو مستواها اللغوى وزخمها العلمى، ولذاك ترى المشايخ في مجالسهم ينصحون الطلبة بالصبر والتريث في فهمها.

2- **علم الصرف:** يراد بعلم الصرف: العلم الذي يبحث عن أحوال أبنية الكَلِم المختص بالأصالة بالأفعال المتصرفة والأسماء المتمكنة[41]، وهو علمٌ مهمٌ لدى هاته المدارس، إذْ من أتقنه حاز أبواب اللغة وأحاط بطرقها، كما قال جمال الدين بن مالك في مصنفه أحد المقررات في هذا الفن كما يأتى:

وبعدُ فالفعل من يُحْكِم تصرفه يحز من اللغة الأبواب والسبلا[42]

فالحائز على الأبنية والأوزان، المُتبع ذلك بمواد اللغة غير مكتف بواحد منهما هو المتقنُ، ومظاهره كمقررات دراسية بهاته المدارس الدينية مصنفات عدة: منها:

أ- **لامية الأفعال**، متن منظوم، للإمام جمال الدين محمد بن مالك، ت ـ(930هـ). في علم الصرف، مطلعه:

الحمد لله لا أبغى به بدلا حمدا يبلغ من رضوانه الأملا

وهو مؤلف مهم، نال اهتمام العلماء شرحا وتعليقا كالشرح النفيس للعلامة بحرق اليمنى الذي أضاف واستدرك بفوائد على الأصل[43] وبهامشه شرح ابن الناظم بدر الدين بن مالك، من مقررات المنهاج في زوايا توات، للمتكونين في المرحلة العالية النهائية.

ب- مثلث قطرب وشروحه: هذا المصنف مقرر من مقررات المنهاج بالزوايا التواتية كما هو في غيرها من أرض الجزائر، لما يقدمه من ثروة لغوية للمعانى المتعددة في بنية المفردة الواحدة، والمصنف هذا للشيخ أبو محمد على بن المستنير

النحوى البصري (ت 206هـ) تلميذ سيبويه لقبه بقطرب، وهو عبارة عن فن في المثلثات، اللتى تعنى مجموعة لمفردات ثلاث، لها نفس الصيغة الصرفية ونفس الحروف، والمتغير فيها فاء الكلمة به يحصل التغير في المعنى،[44] مثل لفظ الغمر فتحا وكسرا وضما، ولفظ السلام، مطلعه:

يامُولعاً بالغضب والهجر والتجنب

في جده واللعب حبك قد برح بي

مُقَدِّماً فتْحاً على كسر فضم مسجلا

إن دموعى غَمْر وليس عندى غُمْر

يأيها ذا الغِمْر أقصر عن التعنت

عليه شروح عدة، كمثل نظم عبد العزيز المغربي، الحاضر في منهاج زوايا توات[45] وشرح مثلثلات قطرب للإمام والشيخ إبراهيم مقلاتى الجزائري، خريج مدرسة زاوية الهامل ببوسعادة، ويضاف لما مثلنا له مؤلفاتٌ مقررة عندهم، كمناهل العرفان ومراضع الأطفال بلبان معانى لامية الأفعال، للهرري، ومتن تصريف العِزّى لعبد الوهاب الزنجانى، الخ.

3- **علم المعاجم:** عند البحث في المصادر اللتى يشتغل عليها المتكونون بهذه الزوايا، نجد مجالا للاهتمام بهذا اللون اللغوى، لكنه بالمقارنة مع العلوم السابقة ضعيف، إذْ لا نرى أثرا لمعجم العين، أو لسان العرب أو مختار الصحاح، أو المصباح المنير...الخ، من المصنفات المشهورة، مع أنها بلا شك ضمن عناوين خزائن المراكز العلمية، فلعلها اختصاص المشايخ دون المتكونين يهرعون إليها ضرورةً وهم يفسرون مفردات القرآن الكريم والسنة المطهرة، ومختلف ألفاظ المتون العلمية اللتى يشرحونها

للطلبة في حلقات الدرس، ومع هذا لانعدم مصنفات أتيحت وتتاح للطلبة من هذا اللــون بفضلها ألفت مصنفات قديما وحديثا، كمصنف الألفية في غريب القــرآن، وأوصــاف الخيل، والغرة في الجبين، ونمثل لهذا اللون بما يلي:

أ- **متن الشمقمقية:** المصنف -الذي سوف يأتي الحديث عنه-، هذا كان له الــدور المهم في خدمة الدرس اللغوى بتوات بثروة وكمٍّ هائلٍ من الألفاظ الفصــيحة والغريبــة والحوشية، والأمرُ بادٍ في ألفاظ هذا الكتاب لأول وهلة، ما مــن شــأنه "امــتلاك زاد معرفى للطالب يوظفه ساعة حاجة تفكيك الكلمات العربية"[46].

ب- **مصنف الطرب،** هذا المؤلف للشيخ عبد الرحمان حفصــى رحمــه (ت2018م) وضعه لمساعدة المتكونين بهذه المدارس، على عادته كُلما أراد تبليغ معلومــة لغويــة ركب ناصية القريض، تسهيلا للطلاب وجمعا لشتات المعلومة، ألفــه بغــرض بيــان مختلف دلالات لفظ الضرب، مطلع المنظومة:

الضَّــــربُ أنــــواعٌ لكــــل واحــــد اســــمٌ يخصُّــــه ولا مــــن جاحِــــدِ

أولُهــــا فالضــــربُ باليــــد علــــى مُقَــــدَّمِ الــــرَّأْسِ يُســــمَّى فــــاعْقِلا

بالصَّــفعِ ثــم إن يكــنْ علــى القفــا باليد يدعى الصَّقْعِ ياأخا الوفا(47)..الــخ

ج- **مصنف غرة الجبين في وجه من كلام المبين:** مصنفٌ للشيخ عبــد الرحمــان حفصى المذكور موجه للمتكونين، عبارة عن متن يحوى مائة وثمانين بيتــا، متضــمنة بيانا لألفاظٍ من القرآن الكريم، من مثل لفظ السبيل، التوبة، الرحمة ...الخ، يقول مــثلا في لفظ القضاء:

فأوجــه القضــاء ســتة عشــر في محكم الــذكر وتــأتى فــي الأثــر

منهــا الفــراغُ، فــإذا قضــيتم فــي ســورة البكــر كمــا علمــتم[48].

4- **علم البلاغة:** البلاغة مما يرتبط بفصاحة اللفظ ومطابقة الكلام لمقتضى الحـــال ما يجعل التركيب في أعلى مستوياته اللغوية، تعكسه في منهاج الدرس اللغوى للزوايـــا بتوات متون عدة يتكون عليها الطلبة[49](18) في هذا الفن نمثل لها بمايلى:

أ- منها الجوهر المكنون للأخضري،

ب- عقود الجمان للسيوطى،

ج- أسرار البلاغة للجرجاني،

د- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، لبهـــاء الـــدين الســـبكى (ت 773م) ...الخ

5- **فن الأدب:** فن الأدب فى منهاج الزوايا، تعكسه مقررات دراسية مهتمة بالأمثال والحكم، والشعر، تأخذ مظاهر عدة، نمثل لها بما يلى:

– **متن الشمقمقية:** المتن هذا عبارة عن نظم أبو العباس، أحمد بـــن محمـــد بـــن محمد بن الونان الملوكى الحميري النسب التواتى الأصل، الفاسي الدار، المعروف بابن الونان (ت 1187 هــ)، عدد أبياته، (275ــ) ديوان، طريف جامع لعدد من فنون الأدب وأخبار العرب، بأغراض متعددة، نسيب، تغزل، حماسة وفخر، مخاطبة الحسود، حكم وأمثال ووصايا، مدح، مطلعه:

مهـــلا علـــى رســـلك حـــادى الأيـــق ولاتكلفهـــــا بمـــــا لـــــم تطـــــق[50]

وهو من المقررات الحاضرة في منهاج الزوايا، ذا أثر في دروس المشايخ، كما هو ظاهر في دروس شيخنا حسن الأنصاري المعاصر شيخ المدرسة الدينيـــة بـــأنزجمير، يدلل به لتحفيز الطلبة على التروى من الحكم والمثل والشعر وتربيتهم على الأخـــلاق، كنصحه لهم في هذا المقام بقول الناظم:

فكـــنْ مُهَـــذب الطِّبـــاع حافظـــا لحكـــــــم وأدب مفتـــــــرق

وعاشـــرِ النـــاس بخلـــق حســـن تُحْمَـــد عليــــه زمــــن التفـــرق

وكـــلُّ مـــن لـــيس لـــه عليـــك مـــنْ فضـــلٍ فـــلا تطعمـــه بـــالتملق

وانتهـــزِ الفُرْصـــة مثـــل بـــيهس وبالمُدىَ لحـمَ العِـداة شـرِّق ...الـخ

وتارة يحث الطلبة على خلق الإقدام وعدم الاستحياء في العلم، بـالبيتين مـن هـذا النظم:

لا تكـــتم الحـــق وقلـــه معلنـــا فهـــو جمـــال صـــوتك الصهصـــلق

وصِـــحْ بـــه شـــبه شـــبيب وأبـــي عـــروة عنـــد الزعـــق

وإن وجـــدت للكـــلام موضـــعا فكن غـراراً فيـه أو كالأشـدق....الخ

والناظر لما سقناه كتمثيل يتضح لديه، ما يقدمه هذا المصنف للمتكونين من ثـروة لغوية أدبية، سلوكية، من مثل لفظ مهلاً الذي يعنى التريثُ، الحادى سائق الإبل المغنـى لها، الأينق جمعٌ لناقة، التملُّق، اللين والتواضع لمن لا يستحق، الفرصة، النوبة، إضـافة للأمثال، في قصة بيهس الرجل العربي المغفل الذي سار به المثل – مكره أخـاك لا بطل – في النجدة، وشبيب ابن زيد في الشجاعة، وأبو عروة فـي جهـارة الصـوت يصيح بالأسد وقد احتمل الشاة فيتخلي عنها، والعباس عم النبي ﷺ الصيت، وقد تجمـع إليه أصحاب السمرة لما انهزم الناس يوم حنين، كالإبل الحانة على ولدها[51]...الخ مـن الثروة اللغوية والصرفية والبلاغية والتاريخية اللتى تقدمها هذه المنظومة للطلبـة هـذه المدارس القرآنية.

المطلب الثانى: المظاهر في حلقات الدرس: يمكن توضيح مظاهر اهتمام المنهاج باللغة وأثرها في العلوم المدَّرسة بالزوايا في حلقات التدريس، بأمثلة نوردهـا لا نريـد بها الحصر، وذلك في ما يلى:

1- **درس أحد أعلام المدارس الدينية، الشيخ الكنتي** -رحمه الله-، بمقر مدرسته في التفسير، وهو يشرح معنى قوله تعالى": ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ (52) قائلا": تُحبون، وردت بالفك والإدغام من حب يحب بالكسر، ومن أحب يحب فهو حبيب أو محبوب أو محب، وبعضهم يقول من حُبب وكلاهما في القرآن، قال تعالى: **يحبهم ويحبونه**، وقال يحببكم، ويحب من حب، لكن ورود المصدر من فعِل قليل، وووروده من فعُل كظرف ....". (53) فأنت ترى دور الملكة والحاسة اللغوية في توظيف النحو العربي في شرح وتفهيم النص القرآني واضحة يدخلها الشيخ بدون أية مقدمات، وهو أمر عام في بداية شرح ألفاظ مختلف المواد.

2- **درس الشيخ المكى – الفقيه النحوى**: يمكن لنا أن نستشهد هنا بإيراد تطبيقات للشيخ المكي -حفظه الله- في علم النحو، في درس علمي موجهٍ للطلبة بمسجد الفتح بأدرار سنة (2018م) على مدار ساعة ونصف من الزمن، مع التحليل المتنوع والمستفيض لألفاظ المقدمة في النحو لابن آجروم، بعنوان "**علامات الفعل**"، منطلقا إجمالا من تحديد الفرق بين الاسم والفعل، قائلا": الفعل أحطُّ من الاسم، إذ الاسم يخبر به وعنه، وقد يكتفى به في تركيب الكلام عن غيره، والفعل يخبر به لا عنه، ومرتبته متوسطة بين الاسم والحرف، ويستفيض في شرح علامات الفعل حسب ترتيب المصنف، ثم يستدرك موجها للطلبة أن العلامات الأربع اللتى ذكرها المصنف، قد السين، سوف، وتاء التأنيث الساكنة، غير مستوعبة لجميع علامات الفعل بحكم أن المصنف موضوع للمبتدئين، وهنا العلامات المتبقية وما امتاز به كل مقارنة بين مختلف المصنفات المقررة في منهاج الزوايا، فقال المصنف ذكر أربعا، وابن مالك في ألفيته أضاف تا فعلتُ وأتتْ ويا افعلِ ......ولم يذكر مما ذكره ابن آجروم سوى تاء التأنيث الساكنة، الحريري في ملحة الإعراب قال: والفعل ما يدخل قد والسين ...ولم

يتطرق لسوف ولا تاء التأنيث، ابن معطى الزووى الجزائري في ألفيته قـال: والفعـل بالسين وسوف عرفا* والأمر والنهى وقد إن صرفا، فهو وافق في الـبعض وأضـاف الأمر والنهى، إذ يكونان في باب الأفعال لا الأسماء بشرط التصـرف لا الجمـود وإلا كان اسم فعل أمر، ومثَّل له بحذاري لا يتصرف، وفرق بين الفعل واسمه وساق له آية قرآنية كقوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [54] ثم شرع في التفصـيل بدايـة مـن حرف قد، قائلا: قد، وهى ثلاثة أقسام، اسمية، اسم فعل، حرف، فالاسمية مثل لها بقـد زيد درهم، أى مقداره، ثم خلص إلى أن المراد هنا قد الحرفيـة اللتـى تـدخل علـى الماضى والمضارع، وفائدتها البلاغية في كلام ينتظر وقعه من قبل المخاطب، ممـثلا لذلك بقد قام زيد، موجها خطأ من يدخلها على المنفى، كلفظ قد لا ياتى، كما تدخل على الماضى لتفيد التحقيق ممثلا بقوله تعالى:﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [54] لإن إخبار الله ناشـئ عن علم فهو لا يخلف الميعاد ....الخ[55] مما حواه هذا الدرس من البيان المنبـأ عـن مستوى الاهتمام بالدرس اللغوى وأثره في منهاج هذه المدارس وفكر خريجيها.

3- **درس الشيخ حسن -حفظه الله-**: حول إعراب كلمة لا إلـه إلا الله، أعربهـا لطلبٍ وجِّه إليه من أحد الضيوف في أن يجلى لهم فيها الألفاظ النحوية، فقال لا إلـه إلا اللهُ بالرفع أولا إله إلا اللهَ بالنصب، يجوز هذا، ثم شرع يعرب قائلا": لا، تكون نافيـة للجنس تعمل عمل إن من نصب الاسم ورفع الخبر، وإلهَ اسمها مبنـى علـى الفـتح مدللا على ذلك من ألفية ابن مالك، وتعمل وجوبا إذا كانت مفردة، وجـوازا إذا كانـت مكررة، وهنا مفردة، وخبرها محذوف تقديره معبود، لإنه شاع في هذا البـاب إسـقاط الخبر، كلفظ لا بأس، لمن سأل عن الحال "أى على" لا ضير، لا فوت، اللهُ بـدلٌ مـن خبر لا المحذوف، والأفضل فيه الرفع ويجوز النصب، رابطا إياه بقاعـدة الاسـتثناء فيكون العمل واجبا إذا لم يتقدمه نفى أو شبهه، إما إذا تقدم فيجـوز العمـل والإلغـاء

والمختار اتِّباعُ ما اتصل، تقديره لا إلهَ معبود إلا اللهُ، وهذا إذا كان الاستثناء متصلا وإلا وجب النصب مطلقا [56].

4- **درس الشيخ أحمد علالي المعاصر -حفظه الله-:** الشيخ هذا المعروف بمولاي الحاج، شيخ المدرسة القرآنية الحبيبية بتسفاوت "وقفنا له على درس علمى" خاص بالطلبة، يشرح فيه ألفية ابن مالك، باب الفعل، يقول المصنف:

وبعد فعل فاعل فإن ظهر فهو وإلا فضمير استتر

منطلقا من إعراب البيت، ذاكرا الاحتمالين في أن تكون الواو استئنافية أو عاطفة في البيت، مختارا الاستئناف بحكم استقلالية الموضوع قائلا": -باب الفعل والفاعل- الواو استئنافية، والاستئناف ينقسم إلى قسمين، نحوى وهو ما كان في ابتداء الجملة بكلام انفصل عما قبله، والبيانى، وهو ما حل محل جواب لسؤال مقدر، ثم يواصل في تحديد معنى الفعل والفاعل مشيرا إجماع أهل اللغة على أن الفاعل عمدة ولذا وجب رفعه، مبينا موقع كل واحد منهما، والاختلاف الواقع هل يلزم أن يسبق الفعل الفاعل أم لا أم يصح التأخير؟ ناقلا مذاهب النحاة في ذلك مشيرا إلى أن مدرسة البصرة توجب البعدية للفعل، والمدرسة الكوفية تخير، مبينا أنه المختار، مشيرا إلى أصل الخلاف وهو تأثير الفعل في الفاعل من حيث التقديم تأثير لفظى، وتأثير الفاعل في الفعل تأثير إيجادى واختراعى، ثم أعطى أمثلة جمع فيها بين النظر والتطبيق بلفظ " زيد قام " على رأى البصريين، فزيد مبتدأ، وقام مع فاعله المقدر الجملة الصغرى في محل رفع خبر لزيد، ثم مثّل بقوله تعالى": ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [57] فعلى مذهب الكوفيين إعراب الآية، أحدٌ فاعل مقدم لاستجارك، الذي هو الفعل المؤخر، بينما ذهب البصريون إلى أن أحدٌ مرفوع على الفاعلية، وفعله محذوف واجب الحذف، فالجملة الفعلية شكلها وإن استجارك أحد من المشركين

استجارك فأجره، وهكذا قوله تعالى": ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴾[58] فعلى أصل الكوفيين، الشمس فاعل مقدم وكورت فعل مؤخر، والبصريون الشمس فاعل لفعل محذوف تقديره إذا كورت الشمس كورت..." الخ مما جاء في تفاصيل الدرس[59].

4- **درس الشيخ خليل،** -حفظه الله- صاحب المدرسة القرآنية للإمام العبقري بمدينة تيميمون، وقفنا له على محاضرة حول تفسير القرآن عند الشيخ سيدى محمد بن الكبير، في إطار الندوة الفكرية لسنة 2017م، محاضرة تبرز فيها قوة الرجل اللغوية وسهولة التوظيف لها، ما جعل المحاضرة لغوية حوت ثروة من الاستشهادات، قرآنا وشعرا عربيا وقصصا أدبيا، منطلقا من تحديد معنى التفسير اعتمادا على ما جاء في كلام العرب، مبينا أهمية تدبر الكتاب الذي لا سبيل إليه إلا بالفهم الذي أساسه اللغة العربية مستشهدا بمقولة الإمام مالك رضى الله عنه": لو صرت من العلوم في غاية ومن الفهوم في نهاية ما تجاوزت أصلين كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولا سبيل إليهما إلا باللسان العربي، ثم يذكر قصة نقلها عن الكشاف وابن عطية في سؤل معاوية ابن عباس عن لفظةٍ استشكلت عليه في القرآن وقد لطمته أمواجه فغرق فيها ولم يجد خلاصا، فظن أن قدر في قوله تعالى "**وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه...**" من القُدرة، وكيف يظن نبي الله عدم قدرة لله عليه، فقال ابن عباس إنه من القدْرِ -التضييق- لا من القُدرة، ثم استرسل الشيخ في محاضرته قائلا": ظن تكون لليقين، وللشك وللكذب، مستشهدا على كل معنى من القرآن الكريم، وختم محاضرته ببيان الأفعال اللتى تبنى على حرف واحد بما ذكره ابن مالك والشيخ ما العنينين والمعاصر الدكتور محمد حسان الدمشقى الذي أوصلها إلى 22 فعلا، مما يسمى في اللغة باللفيف المفروق، واهتمام الشيخ هذا باللغة العربية يعرفه الخاص والعام ممن يرتاد هذه المدارس القرآنية بأدرار، وقد ختم القرآن الكريم تفسيرا على الأقل مرتين

بمجلسه، وعقد ملتقى للطلبة بالمناسبة سنة (2018م) بعنـــوان" القـــرآن الكـــريم واللغـــة العربية[60] .

المبحث الرابع: خصائص الدرس اللغوى في منهاج زوايا ومدارس توات:

إن الواقف على نشاط مظاهر وألوان الدرس اللغوى ومجالاته بين النظر والتطبيـــق ونوعية المتكونين عليه والنشطين فيه من طلبة الزوايا والمـــدارس القرآنيـــة لـــيلاحظ خصائص متعددة نبينها في ما يلى:

المطلب الأول: التدرج: التدرج سنة الله في الكون، خُلق الإنسان المكـــرمُ بمراحـــل نطفة فعلقة فمضغة فلحما، وهكذا طبيعة خلق الكون الطبيعى متدرجـــة، قـــال تعـــالى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾ [61] ومنهج البـــدء بصغار العلم قبل كباره وبواضحه قبل مقفله وبحقيقته قبل مجازه، وبظاهره قبل خفيـــه سنة السلف، واقتداء بهذه السنة كانت طبيعة التدريس في هاته المدارس متدرجـــة كمًّـــا ونوعا ترتيبا بيداغوجيا مدروسا[62]، فيبدأ الطالب بالمبادئ الأولية عبر متون المســـتوى الأول، فإذا ما أتقن ذلك انتقل لمستوى التدرج، فإلى التعليم العالى في العلوم، لتربي فى الطالب أن العلم مستويات والإبحار فيه يتم شيئا فشيئا، كما تربي فيه عمليـــة الإبحـــار هذه مدى اتساع المعرفة في مختلف الفنون اللتى يتعلمها وحجم الاجتهادات المبذولة من قبل العلماء فيها، فمهما بلغ من العلم يدرك أن حجمه صغير أمام هذا الزخم، منبهة إياه إلى تعلم المُهم من العلوم، إذ العمر مهما طال قصير، محفظة له قـــول الهلالـــي فـــي منظومته حول أهم العلوم المقدمة، العقائد، الأحكام، والإحسان، ومفتاح ذلك كله، اللغـــة العربية مما تسميه علم الآلة:

وقـــدم الأهـــمَّ إن العلـــمَ جـــم   فـــالعمر طيـــف زار أوضـــيف ألـــم

أهمُّـــــه عقائـــــد ثـــــم فـــــروع   تصـــوف وآلـــةٌ بهـــا الشـــروع

وبناء على خاصية التدرج في تلقين العلوم بهذه الزوايا والمدارس القرآنيـــة يبـــرز التدرج في الدرس اللغوى وفق المراحل التالية، نبينها في ما يلى:

– **المرحلة الابتدائية:** المرحلة هذه، تحدد مواصـــفاتها فـــى الزوايـــا والمـــدارس القرآنية، بنوعية الطالب اللتى لا يرتبط بسن معين، وإنما المنطلق والقاعدة التى تربطـــه بهذه المرحلة أو غيرها مستواه وتاريخ أول ارتباطه بالعلم المدروس، عقائد أو فـــروع فقهية أو لغة عربية مما يسمى عندهم بعلم الآلة، وهى مرحلة بالنسبة للطلبة الملتحقـــين بهذا النوع من التعليم –الزوايا– غالبا أصحابها حافظين للقرآن أوفـــي مرحلـــة نهايـــة حفظه، ما يسمح لهم بالشروع في تعلم علوم اللغة، فيرتبطون بمصنفات تُعَدُّ مقدمة لهذا العلم، اللتى يقتصر فيها في الغالب على متن الأجرومية، ومختلف شـــروحها القديمـــة كالمكودى للشيخ أبو زيد عبد الرحمان المكودى رحمه الله، والمعاصرة، كشرح التحفـــة السنية للشيخ محمد محى الدين رحمه الله، ت (1972م)

– **المرحلة المتوسطة:** وهى مرحلة، مبنية ومرتبطة بمستوى الطالب في المرحلة السابقة ومدى استيعابه لتلك المقررات الابتدائية، وهضمه لمختلف تلك المبادئ الأوليـــة تتم بملاحظة الشيخ والمعينين له على تطبيق المنهـــاج، فيســـمح للطالـــب أن يـــرتبط بمصنفات تعد عندهم مرحلة وسطى لمن تجاوز المبـــادئ وهـــو دون إدراك المعقـــد والعالى في علم اللغة العربية، وهنا يربط بمصنفات متوسطة كمتن ملحـــة الإعـــراب للحريري، ومختلف شروحها.

– **المرحلة العالية:** وهى مرحلة يشرف فيها الطالب على التخـــرج، تبنـــى علـــى المرحلتين السابقتين بالملاحظة، فالطالب ذو المبادئ في علم اللغة المتعمق تعمقا وسطا فيها يسمح له بالدخول في هذه المرحلة اللتى تعد تدريسا وإشرافا من اختصاص شـــيخ

المدرسة نفسه، بحكم مستواها وارتباطها بمقررات عالية التوتر في هذا العلم العربي وهنا يدرِّسُ الطلبة في الغالب ألفيةً ابن مالك ويطالعون مختلف شروحها كابن عقيل والأشمونى وما تعلق بذلك من شرح الشواهد كقطر الندى وبل الصدى لابن هشام، كما يتعلمون الصرف في مختلف المقررات اللتى أشرنا إلى بعضها في مظاهر نشاط الدرس اللغوى بمنهاج الزوايا والمدرس القرآنية بتوات.

المطلب الثانى: الجمع بين النظر والتطبيق": العلم عامة خاصيته النظام لا مجال فيه للصدفة، ومصداقيتُه خضوعه للقوانين المنظمة وتلك براهينه، لكنه بلا تطبيق مجرد ادِّعاء، ومن هنا تبرز أهمية بيان دور الجانب التطبيقى لمختلف القواعد اللغوية اللتى عمل المنهاج عليها من خلال مختلف المتون، والناظر لمختلف المظاهر في الدرس بالزوايا يلاحظ ربط الجانب النظري بالتطبيق، ويبرز هذا من خلال منهجية سير حلقة الدرس، سواء ارتبط بمواد اللغة ومتونها أو تعلق بالعلوم الأخرى، بالنظر لخاصية الشمول اللتى سوف نتحدث عنها، يتم بتوجيه الأسئلة من قبل الشيخ للطلبة لتحديد بيان محل الإعراب في ألفاظ المتون المشروحة في الدرس بغية تقييم وتقويم ما أخذوه في الجانب النظري، أو بإعراب الألفاظ رأسا من قبل الشيخ أثناء تحليل مختلف النصوص في مختلف العلوم، وهو الغالب، ضما للتطبيق بنظره المجرد الذي أخذه الطلبة أثناء فهم تلك المتون اللغوية اللتى حفظوها، ويمكن التمثيل لذلك بما يلى:

- **درس الشيخ علالى** -مولاي الحاج- الذي أشرنا إليه، فقد انطلق في شرح باب الفعل في ألفية ابن مالك من إعراب بيت: وبعد فعل فاعل ... قائلا": الواو استئنافية والاستئناف ينقسم إلى قسمين، نحوى وبيانى ....، ثم يمثل بزيد قائم، زيد مبتدأ والفعل قام مع الفاعل المقدر في محل رفع خبر لزيد، حسب رأى البصريين، وهكذا يعرب جملة وإن أحد من المشركين استجارك، وجملة إذا السماء انفطرت، بحسب مذهب البصريين والكوفيين في تقديم الفعل أو تأخيره مما هو محل خلاف بينهم[63].

- **درس الشيخ المكى:** أشارنا إلى هذا الدرس في المظاهر، ونشير هنا إلى خاصية أثر الجمع فيه بين ما يجسده من تثبيت للمعلومة نظريا، وما يتبعه في نفس الوقت بالتطبيق، فيقول في بيان حرف قد في شرحه مقدمة ابن آجروم، وما يفيده من معان قائلا": قد تدخل على الماضى والمضارع وفائدتها بلاغية في كلام ينظر وقعه لما يكون المخاطب متوقعا لذلك، وتدخل على الماضى لتفيد التحقيق أو التقريب مثاله قوله تعالى": قد افلح المومنون "فالخبر متحقق فهو لا يخلف الميعاد، ومنه حديث " قد أفلح من رزق كفافا وقنعه الله بما آتاه" فالرسول لا ينطق عن الهوى، ثم يعرب لفظ قد يصدق الكذوب للتقليل، رابطا الإعراب بالصرف ببيان كذوب على وزن فعول مستشهدا على ذلك بقول ابن مالك، فعال أو مفعال أو فعول في كثرة عن فاعل بديل(64)....الخ " وهذا الأمر باد في تفسير الشيخ الكنتى أيضا، وإعراب جملة لا إله إلا الله في درس الشيخ حسن ...الخ مما ذكرناه من تمثيل في المظاهر.

المطلب الثالث: الشمول: يتسم الدرس اللغوى في منهاج الزوايا والمدارس القرآنية بالتنوع المتعدد الأبعاد وفق مظهرين:

النوع الأول: الشمول المستغرق لمختلف علوم اللغة، من نحو، وصرف وبلاغة وما تبع ذلك في فن الأدب، من شعر ومثل، وحكم، وقد تحدثنا عنه في المظاهر.

النوع الثانى: شمول الدرس اللغوى وحضوره في مختلف العلوم الأصلية، اللتى نعنى بها المقررات الخادمة لمكونات المرجعية الجزائرية، في العقائد، والأحكام الفرعية العملية، والسلوك – التصوف – مما تمت الإشارة إليه في المبحث الثانى بمعنى أن الدرس اللغوى في المنهاج تخدمه كل المواد والمقررات في تلك العلوم، لأن معانى ومفردات تلك العلوم مربوطة ضرورة تركيبا بقواعد اللغة العربية، وذلك ملاحظ في حلقة الدرس، لما يقرأ الطلبة النص جماعة، أو الطالب المعنىِ بالوقْفة سواء كان النص قرآنا أو متنا في أصول الدين، في الفقه، في علوم الحديث ...الخ فبعد الجملة التامة المعنى يشرع الشيخ في الشرح " مبتدئا بإعراب الكلمات، ثم يوضح

معانى تلك الألفاظ، مرتبا لها حسب ما يقتضيه المعنى[65]. واقفا عند الجوانب الأدبية والفقهية والأصولية وإيحاءات المعنى التربوي أيضا، إضافة إلى المادة الأساسية للمتن اللتى ينصب عليها الشرح، فيضم هذا المنهج أثناء الشرح، التربية والتعليم، كشرح عبارة مصنف محمد ابن على بن عاشر مثلا في قوله":

الحمد لله الذي علمنا   من العلوم ما به كلفن[66]

يعرب الشيخ مفردات الجملة لغويا، ثم يقف عند المعنى الاصطلاحي لها، ليختم بالتوجيه العقدى، من بيان أركان الحمد وأن مصدر العلوم من الله وبالتقوى تُنال، وهكذا مختلف العلوم يخدم بعضها بعضا.

المطلب الرابع: التربية والتوجيه الأخلاقي: الملاحظ لواقع الدرس اللغوى في منهاج الزوايا والمدارس القرآنية بتوات يرى أثر اعتباره أداة من أدوات التربية والتوجيه الأخلاقي للمتكونين، معتبرا صلاح القلب واستقامة الجوارح منبع الفتح في صلاح اللسان، وكتمثيل لذلك من الدرس السابق للشيخ المكى بعد الشرح المستفيض للجانب اللغوى في متن ابن آجروم في باب بيان علامة الفعل يوجه النصوص أخلاقيا قائلا في حرف قد: الزلل يحالف المستعجل، ثم يقول قال أبو الأسود الدؤلى في إفادة التكثير:

وإذا طلبت إلى كريم حاجة   فلقاؤه يكفيك والتسليم

فإذا رآك مسلما ذكر الذي   كلمته فكأنه ملزوم

أما التقليل فيواصل ببيان النص الأدبي لنفس الشاعر:

وإذا طلبت إلى لئيم حاجة   فألح في رفق وأنت مديم

والزم قبالة بيته ومكانه   بأشد ما لزم الغريم غريم[67]

فهو توجيه أخلاقي في جو لغوى، غرضه غرس قيم البذل والعطاء ونـــزع الشـــح والبخل في نفسية وفكر المتكون والمتلقى عموما، ونفس الأمر في التوجيـــه الأخلاقـــى مثلنا له في درس إعراب لا إله إلا الله بقول الشيخ للطلبة": إن اللغة العربيـــة مطلوبـــة وقبلها إصلاح القلوب، قالوا إصلاح اللسان دون الجنان فسق وضلال، وإصلاح الجنان دون اللسان كمال دون كمال، وإصلاح الجنان واللسان كمال الكمال" وتوجيهه للطـــلاب بالأبيات الأدبية من متن الشمقمقية بغية غرس الأخلاق، في تذكيرهم بقوله:

فكـــنْ مُهَـــذب الطِّبـــاع حافظـــا لحكـــــــــم وأدب مفتـــــــــــرق

وعاشـــرِ النـــاس بخلـــق حســـن تُحْمَـــد عليـــه زمـــن التفـــرق

وكـــلُّ مـــن لـــيس لـــه عليـــك مـــنْ فضـــلٍ فـــلا تطعمـــه بـــالتملق

وانتهـــزِ الفُرْصـــة مثـــل بـــيهس وبالمُـــدىَ لحـــمَ العِـــداة شـــرِّق

...الخ مما لا يخفى في درس اللغة حمال أوجه من تعليم وتربية.

هذا ما وفقنا المولى لبيانه، قراءة واقعية لمظاهر وخصائص الدرس اللغوى بمناهج زوايا توات ومدارسها القرآنية، طالبين النصح والتوجيـــه والتســـديد، معتـــذرين عـــن التقصير والسهو والخطأ، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله، **والحمد لله رب العالمين.**

الخاتمة: من خلال تفيء ظلال واقع الدرس اللغوى الممتع في المنهـــاج التربـــوى والتعليمى للزوايا والمدارس الدينية بمنطقة توات من أرض الجزائر المباركة انطلاقـــا من إشكالية البحث نخلص إلى ما يلى:

- نشاطُ ومهدُ تكوُّن الدرس اللغوى بتوات، منهاجُ الزوايا والمدارس القرآنية.
- الدرس اللغوى بتوات، يشمل جميع العلوم النحوية والصرفية والبلاغية والأدبية

- العمل في حقل الدرس اللغوي في فكر الزوايا والمدارس قُربة من القُرب وفرضٌ تحتمه قاعدة ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب – فهم القرآن والسنة المطهرة وإصلاح الألسن–
- الدرس اللغوى في الزوايا والمدارس القرآنية بتوات، يمتاز بخصائص واقعية فعَّلَتْهُ وعملت على تقريبه من المتكون.
- إصلاح اللسان في فكر الزوايا والمدارس الدينية تمامه وكماله بإصلاح الجنان – القلب – مما يعتبرونه كمال الكمال.
- اهتمام منهاج الزوايا والمدارس القرآنية بالدرس اللغوي بتوات ساهم في الحفاظ والحماية لأحد عناصر هوية الأمة المسلمة الجزائرية العربية من الذوبان خصوصا زمن الاستعمار الفرنسي للجزائر.
- عمل منهاج النشاط اللغوي على تخريج علماء أسهموا في تزويد وإمداد مكتبة اللغة في الجزائر بالمصنفات اللتى تركوها منذ القديم إلى الزمن المعاصر والحديث إضافة إلى الثروة البشرية المؤطرة لرسالة المساجد والزوايا العلمية في ميدان الفكر اللغوى.
- عمل ويعمل المنهاج التعليمى اللغوى للزوايا والمدارس القرآنية بتوات على صناعة الحاسة اللغوية للمتكونين عليه، فهم يمجون اللحن وتركيب الكلام غير السوي إضافة إلى تقويم اللسان، ولذا يضعف عندهم الخطأ أثناء حديثهم مما هو باد للعيان في دروسهم وخطبهم.
- ومع كل هذه الإيجابيات نسجل على المنهاج ملاحظات، كضعف الاهتمام بالجانب المعجمي للغة، ونقص الاهتمام إن لم نقل انعدامه بأصول اللغة من حيث المقررات، ولذا نوصى بمداركة هذا، عملا بمنهج الاستيعاب، كما نوصى بأهمية استفادة المنهج الأكاديمي بالجامعات في ميدان اللغة من طريقة الزوايا والمدارس القرآنية خصوصا ما ارتبط بخاصية الشمول، وخاصية الربط اللغوى بالجانب التربوى

والتزكية النفسية، واستفادة الزوايا أيضا من المنهج الأكاديمى للجامعــات فــي تكــوين وتربية الملكة اللغوية، خصوصا ما تقدمه أقسام اللغة والآداب.

وصلى الله وسلم على محمد الأمين، والحمد لله رب العالمين.

الهوامش:

01 – مؤرخ إغريقي يوناني، صاحب مؤلف تاريخ هيرودتس.

02 – فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديـين، ط، ديـوان المطبوعات الجامعية الجزائر، رسالة دكتوراه بجامعة الجزائر، ص 1، وحاج أحمد صديق، المراسلات اللغوية بتوات، أطروحة دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، 2008/2009م ص 12.

03 – وثائق أرشفية لمديرية الشؤون الدينية والأوقاف لولاية أدرار، إحصاء 2018م

04 – الجريدة الرسمية الجزائرية، ع 82 / 10 رجب 1415م.

05 – لسان العرب ط، دار صادر، بيروت، 2003م مج 07 / 83.

06 – محمد دباغ، دراسات في التراث، ط، د ر 2007م م دار الغرب الإسلامي، وهـران، الجزائـر ص 119.

07 – عبد القادر بقادر، جهود علماء توات في الدرس اللغوى من خلال الشروح، أطروحـة دكتـوراه جامعة باتنه، قسم اللغة العربية وآدابها، موسم، 1433–1434هـ 2012– 2013م، ص 60 08.

07 – عبد القادر بقادر، جهود علماء توات في الدرس اللغوى من خلال الشروح، المرجع السـابق، 40 08

08 – عبد القادر بقادر، جهود علماء توات، المرجع السابق، ص 40

09 – موريس أنجرس، منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية، ط 2، دار القصبة للنشر والتوزيـع الجزائر، ص 466.

10 – الفيروزبادي، القاموس المحيط، ط دار الهدى عين مليلة الجزائـر، د مـع، ص 271 والـرازي محمد، مختار الصحاح، ط 1، 1430هـ 2009م، دار الغد الجديد، القاهرة، مصـر، ص 349. وانظـر أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق شهاب الدين أبو عمرو، ط 1، 1432هـ 2011م، دار الفكـر بيروت، لبنان، ص 1000.

11 – محمد دباغ، المذهب المالكى مناهج ومصطلحات، محاضرة المدرسة المالكية بتوات، ط سخري. الجزائر، 1، 2010م ص 32.

12 – الفيروزبادى، القاموس المحيط، مرجع سابق، ص 704. وابن منظور، لسان العـرب، مرجـع سابق، مج 5/ 244.

13 – آل عمران ،79.

14 – ابن منظور، لسان العرب، المرجع السابق، مج 5/ 244، والثعالبى عبـد الرحمـان، الجـواهر الحسان في تفسير القرآن، ط 1، 1997م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، مج 2 / 68.

15 – المائدة / 89.

16 – الفرقان /72.17

17 – ابن جنى، الخصائص، ص 15: نسخة PDF/ Hhp//www.mostafa.com

18 – 16/ النمل .19

19 – المراد به شيخنا حسن حفظه الله، صاحب المدرسة الدينية بأنزجمير في درسه حول إعراب لاإله إلا الله.https//www.youthube.com

20 – الطاهر العبيدى الجزائري، فتوحات العلى الوهاب، للشيخ عبد العزيز سيد اعمـر، ط، هومـه الجزائر ن ص 143– 145.

21– عبد العزيز سيد اعمر، المرجع السابق، ص 142 إلى 146.

22– الزخرف /44.

23 – ذُكرتْ هذه الأبيات عند السيوطى في مصنغه المزهر في علوم اللغة.

24– معلومـات مسـتقاة مـن درس مسـجل للشـيخ حفظـه الله بالصـوت والصـورة https//www.youthube.com

25 – بحرق اليمنى، كتاب شرح لامية الأفعال للإمام جمال الدين بن مالك، ط دار رحـاب، الجزائـر

ص 2– 3.

26 – الطاهر العبيدى، فتوحات العلى الوهاب، مرجع سابق، ص 142.

27 – درس الشيخ حول إعراب لا إله إلا الله، https//www.youthube.com

28– الطاهر العبيدى، فتوحات العلى الوهاب، مرجع سابق، ص 147.

29 – عبد العزيز سيد اعمر فتوحات العلى الوهاب، مصدر سابق، ص 144– 146.

30– عبد العزيز سيد اعمر، نبراس الآداب المهذب لأخلاق الشباب، ط جزائرية، دون مع ص 49.

31– الأحزاب / 18.

32– المرجع الدرس الصوتى للشيخ https//www.youthube.com

33– مقابلة مع أحد الأئمة من تلامذة الشيخ المذكور، بتاريخ 18/ 06/ 2019م بالمسجد الكبير أولاد أنقال، أدرار.

34– درس الشيخ حول إعراب لا إله إلا الله، https//www.youthube.com

35– عبد الكريم المغيلى، ما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار، مخطوط خزانة زاوية سيدى البكري، أدرار، ص 33.

36– بجرق اليمنى، كتاب شرح لامية، مصدر سابق، ص 2– 3.

37– ابن منظور، مصدر سابق، مج 04/ 214.

38– حاج أحمد الصديق، المراسلات اللغوية بتوات، مصدر سابق، ص 367.

39– أحمد بن على الفاكهى، كشف النقاب عن مخدرات ملحة الإعراب، ط 1، 2006م، القاهرة، مج 1/ 36.

40– الحريري، ملحة الإعراب، ط 1، 1325هـ 1907م السعادة، مصر، ص 2.

41– شرح بحرق للامية الأفعال، المرجع السابق، ص 8.

42– جمال الدين بن مالك، لامية الأفعال، شرح بحرق، المرجع السابق، ص 7.

43- أنظر مقدمته، كتاب شرح بحرق اليمنى، المرجع السابق، ص 4.

44- إبرهيم مقلاتى، مثلثلات قطرب، ط، دار هومه 1998 م، الجزائر.

45- وثائق أرشيفية لمديرية الشؤون الدينية بمناسبة أربعينية تأسيس ولاية أدرار، 2013م

46- حاج أحمد الصديق، الدراسات اللغوية، مرجع سابق، ص 141.

47- بقادر، جهود علماء توات في الدرس اللغوى، مصدر سابق، ص 227.

48- بقادر، جهود علماء توات، المرجع السابق، ص 219 – 220.

49- وثائق أرشيفية لمديرية الشؤون الدينية بمناسبة أربعينية تأسيس ولاية أدرار، 2013م

50- عبد الله كنون الحسنى، شرح الشمقمقية، د مع، ص 3 – 11.

51- عبد الله كنون، شرح الشمقمقية، مرجع سابق، ص 11 – 66.

52- آل عمران/ 31.

53- https//www.youthube.co درس صوتى للشيخ.

54- النمل/ 82.

55- درس الشيخ محمد المكى لكبير https//www.youthube.com

56- درس مسجل للشيخ حفظه الله بالصوت والصورةhttps//www.youthube.com

57 – التوبة / 6.

58 – التكوير/1.

59- https//www.youthube.com درس للشيخ بالصوت والصورة لمجلس علمى في شرح ألفية بن مالك في النحو..

60- المحاضرة موثقة ضمن أعمال الندوة الفكرية السنوية للشيخ محمد بن الكبير، رحمه الله، بتنظيم مديرية الشؤون الدينية والأوقاف بادرار وبلدية أدرار لسنة 2018م

61- فصلت/9.

أهمية الشعر الجاهلي ووظائفه
في فهم الإعجاز البلاغي

د. عمّار عثماني
المركز الجامعي أحمد زبانة، غليزان

توطئة: تروم الورقة العلمية بيان أهمية الشعر الجاهلي وعظيمه في سبيل فهمنا لكتاب الله سبحانه وتعالى، وهو اهتمام جاء من منطلق البحث عن الوسائل التي تمكننا من تعليل مواطن الحلاوة والطلاوة التي شَهِد بها الناس أجمعون في حقّ القرآن المعجز بيانا وبلاغة.

اتّفق السابقون واللاحقون على القول بقدرة القرآن العظيم على تحقيق تحدٍّ وبيان وبلاغةٍ لم تبلغها العرب والعجم في تاريخها، رغم امتلاكهم لطرائق نظم الكلام، أو أنّ القرآن جاء على نظم وسنن العرب في كلامها، لكنّ الذي يثير التساؤل هو ما المميّز في كتاب ربّنا، جعل العرب تخرس في تحقيق بلاغته، وهو سؤال جوهريّ وشرعي لا بدّ من البحث والتأمل فيه، من حيث التنقير في أمهات كتب العرب ومصادر علمها وتعلمها، منذ أنّ فتح هذا الكتاب باب السؤال اللغويّ والبلاغيّ.

واختيارنا للشعر الجاهليّ في فهم كتاب الله من حيث بلاغته، ليس مفاضلة بينية وإنما يمثّل الشعر بيئة التحديّ، فبلاغة العرب وقيمة ما أنتجه آلة الكلام عندها ممثّلة في القول الشعريّ، من ثمّ ننطلق في عملنا من فرضية أنّ الذي لا يفهم نسج الشعر عند العرب لا يعرف أسرار النظم والتعليق في القرآن الكريم.

وبناء على هذه الفرضية فإنّ المقام يدفعنا إلى بيان الموضوع من حيث البحث في أعماق العلاقة الرابطة بين الشعر الجاهلي والقرآن.

1- **الشعر الجاهلي وقيمته:** إنّ الاهتمام بالشعر في الحضارة العربية قديم؛ ذلك أنّ العرب في جاهليتها كانت أمّة شعر، والنبوغ الشعري صفة فخر وعلوٍ، ولم يضمحل هذا الاهتمام بمجيء الإسلام، بل كان حاضرا في مجالس الخلفاء والصحابة والفقهاء رضوان الله عليهم كما سنرى.

أبان اللغويون موقفهم اتّجاه الشعر، وقد خصص عبد القاهر فصلا في الدلائل لبيان عظيم أهمية الشعر، والمعلوم أنّ كتابه هذا كان في آخر حياته، كما أعرب عن ذلك في المقدَّمة التي جعلها المحققون في فاتحة الكتاب، ومن ثمّ فإنّ موقفه ينبغي أن يؤخذ على محمل الجدّ.

إنّ ذمّ الشعر موقف قديم ظهر قبل عبد القاهر، فقالوا بشأنه صفات تتمثل في أنّه كلام هزل وسُخف، وهجاء وسبّ وكذب وباطل، وأنّه يتعلق بأحوال الشعراء الذين ذمّهم القرآن الكريم.

والذي لا شكّ فيه أنّ القرآن الكريم وتعاليم الدين الحنيف أثّر في صنعة الشعراء ومن ثمّ نحاول أن نحاور عبد القاهر في دفاعه عن الشعر.

إنّ عبد القاهر في ردّه على من ذمّ الشعر اعتمد على المفاضلة بين القول الشعريّ وعدمه، وأنّ لو كان الشعر مذموما لأمكن « أن يفضّل الخرس على النطق والعيّ على البيان».[1]

ويذكر اين قتيبة فضل الشعر عند العرب، يقول فيما بيانه: «وللعرب الشعر، الذي أقامه الله تعالى لها مقام الكتاب لغيرها، وجعله لعلومها مستودعا ولآدابها حافظا ولأسبابها مقيّدا ولأخبارها ديوانا، لا يرثّ على الدهر، ولا يبيد على مرّ الزمان وحراسه بالوزن والقوافي وحسن النظم وجودة التحبير، من التدليس والتغيير، فمن أراد أن يحدث فيه شيئا عسر ذلك عليه، ولم يخف له كما يخفى في الكلام المنثور»[2].

وقد عاد عبد القاهر إلى المدونة اللغوية في القرن الثاني والثالث الهجري، يقول فيما بيانه: «وقد استشهد العلماء لغريب القرآن وإعرابه من الأبيات فيها الفُحشُ وفيها ذكر الفعل القبيح، ثمّ لم يعبهم ذلك، إذ كانوا لم يقصدوا إلى ذلك الفحش ولم يريده، ولم يروُوا الشعر من أجله»[3]

والشعر في العصر الذي نزل فيه القرآن كان ملء أيام العرب ولياليهم وساعاتهم يتناشدونه في كلّ منزل، ويتمثلونه عند كل موقف ومسير، ويتذوقونه تذوقا بصيرا مرهفا، ويفضلون بعضه على بعض بما اكتسبوا من القدرة على التذوق الفاصل بين أدّق درجات البيان على اختلافها وتنوعها[4].

وجاء في كتاب العمدة لابن رشيق: أنّ ابن عباس كان يقول: إذا قرأتم شيئا من كتاب فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب، فإنّ الشعر ديوان العرب. وكان إذا سئل عن شيء من القرآن أنشد فيه شعرا. وكانت عائشة رضي الله عنها كثيرة الرواية بالشعر يقال إنّها كانت تروي جميع شعر لبيد. وروي عن النبي ﷺ أنّه قال: "لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين"[5].

وقد ذكر عكرمة أنّه ما سمع ابن عباس فسر آية من كتاب الله عز وجل إلاّ نزع فيها بيتا من الشعر، وكان يقول: إذا أعياكم تفسير آية من كتاب الله فاطلبوه في الشعر، فإنّ ديوان العرب[6].

روي عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أنّه قال على المنبر ما تقولون فيها يعني بذلك قوله تعالى: "أو يأخذهم على تخوف"، فسكتوا، فقام شيخ من هذيل، فقال هذه لغتنا، التخوف: التنقص، فسأله عمر رضي الله عنه: هل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟، قال: نعم، قال شاعرنا أبو كبير يصف ناقته:

تخوّف الرحل منها تامكا قردا ... كما تخوّف النّبعة السفنُ

فقال عمر رضي الله عنه: أيّها النّاس، عليكم بديوانكم لا تضلوا، قالوا: وما ديواننا؟، قال: شعر الجاهلية فإنّ فيه تفسير كتابكم[7].

وقد كان كتّاب السيرة والمغازي –في الصدر الأوّل– يحفظون كثيرا من الشعر الجاهلي ويستخدمونه في الاستشهاد على ما يكتبون أو يتحدثون. قال أبو الزناد عن أبان بن عثمان ابن عفان أنّه قلّما كان في صحبته دون أن يتمثل بأشعار شاعر وذكر أنّ عروة بن الزير وهو أيضا من كتاب السير والمغازي كان من أروى النّاس للشعر[8].

2- **دلالة التحدي وتحقيق الإعجاز:** قبل ضبط العلاقة بين الشعر الجاهلي والقرآن الكريم ينبغي أن نفهم الدلالة الحقيقة لمعنى التحدي تارة، والإعجاز تارة أخرى. ومردّ الإشكالية هو الإجابة عن تساؤل مفاده: ما الذي أعجز العرب؟.

وُضع لفظ «إعجاز القرآن» في أواخر القرن الثالث الهجري، ولم يكد حتى أحدث تاريخا مستفيضا رائعا، شارك فيه أكبر علماء الأمة في اللغة والبيان والتفسير وعلوم القرآن وعلم الكلام، وسيظل هذا اللفظ باقيا يحدث تاريخا لا ينقطع فيه أقلام العلماء والكتاب والباحثين[9].

إنّ «إعجاز القرآن مركب إضافي معناه بحسب أصل اللغة: إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به، فهو من إضافة المصدر لفاعله، والمفعول وما تعلق بالفعل المحذوف للعلم به، والتقدير إعجاز القرآن خلق الله عن الإتيان بما تحداهم به»[10].

وهناك من يرى أنّ إعجاز القرآن ارتقاؤه في البلاغة إلى أن يخرج عن طرق البشر ويعجزهم عن معارضته على ما هو الرأي الصحيح لا الإخبار عن المغيّبات ولا عدم التناقض والاختلاف، ولا الأسلوب الخاص، ولا صرف العقول عن المعارضة[11]. وهذا هو الوجه الذي وقف عليه البلاغيون في دراسته، فأقروا أنّ القرآن معجز ببلاغته، ومن ثمّ فإنّ العلوي (ت749هـ) يرى أنّ التحدي إنّما كان من أجل بلاغة الشيء وفصاحته، وجودة نظمه ورشاقة سياقه، وهذا معلوم لا شكّ فيه بين الشعراء والخطباء[12].

ويذهب الرافعي إلى القول بأنّ «القرآن الكريم بتمكنه من فطـرة العـرب علـى وجهه المعجز، قد نزل منهم منزلة الزمان في عمله وآثاره، لأنّ الذي أنـزل بعلمـه وقدّره بحكمته إنّما هو خالق الزمان نفسه، فهدم في نفوس العرب، وكان هدمه بنـاء جديدا جعل الأمة نفسها قائمة على أطلال نفسها، وبذلك أحكم عمـل الورثـة الـذي تعمله في الغرائز والطباع، إذ تبني بالهدم، وتقيم التاريخ من أنقاض التـاريخ، وهـذا هو الفرق بين العمل الإنساني والعمل الإلهي، وبين شيء يسمى ممكنا وشيء يسمى معجزا»

وبناء على ذلك يفهم على أنّ المعارضة التي كانت بين كفار قريش والرسـول ﷺ بلاغية محضة؛ يقول فيما بيانه: «الاعتماد في المعارضة إنمّا يكون علـى البلاغـة والفصاحة، وهو أنّ من سلف من المتقدمين الذي جروا في حلبة السـياق، وسـرحوا خواطرهم في مضمار المساجلة والتنـاحر والمقابلـة، كـامرئ القـيس، وعلقمـة والأخطل، وزهير، والأعشى، ومن المتأخرين كالبحتري، وأبي تمام، وأبي الطيـب المتنبي و غيرهم، ما كان تعويلهم فيما يجري من المعارضات على دقّة المعاني، ولا كان التحدي جاريا بينهم لعدم التناقض، ولا بالاستيلاء على الأخبار بـالعلوم الغيبيـة ولكن كان جاريا بجودة الانتظام، وحسن السياق وجزالة الألفاظ»(13).

والعلوي في ذلك يحاول أن يضع مقصودا للمعارضة بناء على مـا سـجل فـي تاريخ الشعر العربي من مساجلات ومعارضات بين الشعراء، ومرتكـزات التحـدي بينهم.

وينبغي أن يقرن التحدي بالنبوغ؛ فتحدي القرآن للكافرين إنّما كـان مـن نبـوغ هؤلاء في الفصاحة والبيان، وجاء التحدي من جنس تفوقهم، ولهذا يرى محمد متولي الشعراوي أنّ معجزات الله تأتي وتتحدى من أرسل الله فيهم الرسول فيما نبغوا فيـه لأنّ «التحدي فيما لا ينبغ فيه القوم لا يعتبر تحديا.. فمثلا إذا جئنا ببطل العـالم فـي رفع الأثقال، وتحدينا به رجلا عاديا.. لا يكون هناك مجـال للتحـدي.. لمـاذا؟ لأنّ المتحدي لم ينبغ في نفس جنس العمل الذي أريد أن يتم فيه التحدي.. ولكننا إذا جئنـا

ببطلين من أبطال العالم.. فإنّ التحدي يكون بينهما واضحا، ويكون له معنى فيما يثبت أنّ هو الأقوى»[14]

وإذا كان المطلوب في التحدي هو الإتيان بمثل القرآن، سواء كان هذا المثل حديثا كاملا، أو سورة واحدة، أو عشر سور فإنّ الكفار كانوا يعرفون المراد بالمثلية المطلوبة منهم، وهي المثالية البيانية. ومن ثمّ فهم صلاح الخالدي إعجاز القرآن على «أنّه عدم قدرة الكافرين على معارضة القرآن، وقصورهم على الإتيان بمثله، رغم توفر ملكتهم البيانية وقيام الداعي على ذلك، وهو استمرار تحديهم وتقرير عجزهم عن ذلك»[15].

وعليه يتبين أنّ المقصود بالتحدي «أن يتحدى النبيّ بالمعجزة قومه الكافرين المكذّبين له، ويطلب منهم معارضتها وإبطالها أو الإتيان بمثلها، وهم سيعجزون عن ذلك، لأنّها من فعل الله»[16].

والإعجاز في ذلك ليس مقصودا لذاته بل المقصود لازمه وهو إظهار أنّ هذا الكتاب حقّ، وأنّ الرسول جاء به رسول صدق فيلزمهم اتّباعه، وكذلك الشأنّ في سائر معجزات الأنبياء.

والحقّ أنّ إعجاز القرآن يفهم من صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النفوس؛ وقد ذكر الخطابي أنّ ذلك وجها ومن وجوه إعجازه، يقول فيما بيانه: «فإنّك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا إذا قرع السمع خلص به إلى القلب ومن اللذة والحلاوة في حال ومن الروعة والمهابة في أخرى ما خلص منه إليه تستثير به النفوس وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظّها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق وتغشاها الخوف والفرق»[17].

ثمّ إنّ صنيع القرآن بسامعه يعود إلى قوة بلاغته وبيانه، يتحقق معه التأثير، «فكم من عدو للرسول ﷺ من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأوّل، وأن يركنوا إلى مسالمته ويدخلوا في دينه وصارت عداوتهم موالاة وكفرهم إيمانا».

وكان الكافرون المعاندون يحسون في قرارة أنفسهم أنّ هذا الكلام ليس من كـــلام البشر وكانوا يحسون بحلاوة عبارته، وطلاوة أسلوبه والمعاني الثرّة المغدقـــة فـــي موضوعاته وأنّه يعلو ولا يُعلى عليه، كما قالها الوليد بن المغيرة في لحظة صدق مع نفسه عندما طالب منه قومه أن يقول في القرآن قـــولا لتجتمـــع كلمـــتهم عليـــه ولا يظهرون الاختلاف أمام وفود العرب في الموسم[18].

لقد كان تأثير القرآن العظيم في مشركي قريش عاما، فلم ينج عنه منه كبيـــر ولا صغير، رئيس ولا مرؤوس تناولهم هذا التأثير على اختلاف درجات عقولهم، بل لقد كان في رؤسائهم أشد وفي فصحائهم وبلغائهم أقوى من عامتهم، لأنهم أدرى بفنـــون الكلام وأساليبه[19].

وروي عن أبي عبيدة أنّ أعرابيا سمع رجلا يقرأ "فاصدع بما تـــومر وأعـــرض عن المشركين" فسجد، وقال سجدت لفصاحته، وسمع آخر رجلا يقرأ "فلما استيأســـوا منه خلصوا نجيا" فقال: أشهد أنّ مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام". وفي ذلك دليل على أنّ الذي أثر في الأعرابيين هو تلك البلاغـــة المعجـــزة التـــي يوصـــف بهـــا القرآن[20].

ومن النماذج الحيّة التي تظهر أنّ إعجاز القرآن في صنيعه بالقلوب، قصة عتبـــة بن ربيعة، الذي تأثر بالقرآن، بعدما سمع مـــن رســـول الله ﷺ قـــول الله: بســـم الله الرحمن الرحمن تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنـــا عربيـــا لقـــوم يعلمون بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون"، ثـــم مضـــى رســـول الله ﷺ يقرؤوها عليه، فلما سمعها عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره. وعاد إلى قومه محدثا، قائلا: أني سمعت قولا، والله ما سمعت مثله قط، والله ما هـــو بالشـــعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوا لله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ عظيم، فـــإن تصـــبه العرب فقد كفيتموه لغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم وكنتم أسعد النّاس به[21].

وقصة الأعرابيين وعتبة ربيعة إنّما تدل على أنّهم فهموا ما سمعوا من القرآن وتأكدوا أنّ كلام الله مباين لكلام البشر.

ومن هذا المنطلق الذي تتباين فيه القدرات تكون المعجزة، التي يعرفها عبد القاهر البغدادي بأنّها «ظهور أمر خلاف العادة في دار التكليف لإظهار صدق ذي نبوة من الأنبياء»[22]، ومن ثمّ فإنّ العلوي يرى أنّ تقرير الدلالة على أنّ القرآن معجز يدلّ على صدق من ظهر عليه[23].

والحاصل أنّ الله سبحانه وتعالى حين اصطفى من البشر محمد ﷺ، ابتعثه رسولا نبيّا، وآياته كتاب عربيّ، والمطلوب على حدّ قول محمود شاكر أن يقرّوا «أنّ هذا الكلام العربي المنزّل هو كلام الله سبحانه، وأنّه وإن كان جاريا على أساليب لغتهم فإنّه مفارق لكلام البشر بدليل ظاهر قاهر هم قادرون على تبينه واستظهاره، فإذا تبيّنوا ذلك، فالتاليه عليهم، هو رجل من أنفسهم، نبيّ مرسل مبلّغ عن ربّه كلام ربّ العالمين»[24].

وانطلاقا من هذه الرؤية عرّف محمود شاكر إعجاز القرآن على أنّ القرآن دال على كلام الله سبحانه وتعالى أنزله بعلمه بلسان عربي مبين فنزل به جبريل عليه السلام على قلب محمد ﷺ ليكون معجزته التي توجب من سمعها أن يشهد له بأنّه رسول الله أرسله إلى النّاس كافة[25].

تبيّن لنا فيما تقدم أنّ تحدي القرآن كان بلاغيا، وأنّ الذين أعجز الكافرين في الإتيان بما جاء به القرآن درجة البلاغة التي يوصف بها كلام ربّ العالمين، ومن ثمّ يمكننا أن نسند البلاغة للإعجاز، فالذي يحقّ التردد به هو الإعجاز البلاغي؛ ولهذا يرى الرماني أنّ البلاغة تأتي في ثلاث طبقات، "منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدني طبقة، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة فما كان في أعلاها طبقة فهو معجز، وهو بلاغة القرآن، وما كان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من النّاس"[26].

3- **الشعر الجاهلي ومقاربة الإعجاز البلاغي:** يلاحظ فيما تقدم أنّ القصد في التحدي متعلق بالبلاغة والفصاحة، وأنّ القرآن يملك قوة بيانية، يعجز العرب تحقيقها، رغم شهرتهم بذلك. ومن جهة أخرى يمكن أن نقول إنّ الجيل الذي نزل فيه القرآن كان يفهم كلام الله؛ لأنّه نزل على سنن العرب في كلامها، وبالتالي فأيّ إنصات لآيات الذكر الحكيم كان وقعه جليا على سامعيه كما دللنا بذلك على نماذج غيّرت آراء كفار قريش، وهو دلالة واضحة على فهمهم للقرآن أولا، وإحساسهم بالفارق بينه وبين كلامهم، وهو تحسس مكنهم من تذوق القرآن ومحاورة طلاوته وحلاوته.

وهذا الذي تحقق يثير فينا تساؤلا جوهريا مفاده: كيف يمكننا الاستفادة من هذه التجربة الواقعية في سبيل محاورة إعجاز القرآن وتفسير وصف الوليد بن المغيرة لكتاب ربّنا؟. أو أننا يمكن القول: إنّ القوة البيانية التي كانت تُعرف بها العرب في جاهليتها هي التي مكنت من حصول الأثر في الاستماع للقرآن، ونحن نعلم أنّ بلاغة العرب وفصاحتها جسدتها في شعرها –الشعر الجاهلي– ومن ثمّ فكيف يمكننا وصف العلاقة بين الشعر الجاهلي والقرآن؟ وهل يمكن أن يكون الشعر الجاهلي مدخلا مباشرا لتدبر الذكر الحكيم وملامسة إعجازه؟.

إنّ جملة الأسئلة هذه قد بحث فيها العلماء قديما وحديثا، سواء كان ذلك بالتصريح أو الكناية.

لقد كان الباقلاني متفطنا إلى أهمية الأدب في البحث عن وجه الإعجاز في القرآن؛ ولهذا يربط بين بيان الإعجاز ومعرفة الأدب، يقول: «ولسنا نزعم أنّه يمكننا أن نبين ما رمنا بيانه، وأردنا شرحه وتفصيله، لمن كان عن معرفة الأدب ذاهبا وعن وجه اللسان غافلا؛ لأنّ ذلك مما لا سبيل إليه، إلا أن يكون الناظر فيما نعرض عليه مما قصدنا إليه من أهل صناعة العربية، قد وقف على جمل من محاسن الكلام

ومتصرفاته ومذاهبه، وعرف جملة من طرق المتكلمين، ونظر في شيء من أصول الدين»[27].

وهو في ذلك يضع شروطا لتحقيق تذوق القرآن، أهمها معرفة العربية، ومذاهب العرب في كلامها، لأنّ ذلك يساعده في الوصول إلى الفرق بين كلام الله وكلام البشر، إذ يؤكد على ذلك ويقول: «فأما من كان متناهيا في معرفة وجوه الخطاب وطرق البلاغة والفنون التي يمكن فيها إظهار الفصاحة، فهو متى يسمع القرآن عرف إعجازه(...)؛ لأنّه يعرف من حال نفسه أنّه لا يقدر عليه، وهو يعرف من حال غيره مثل ما يعرف من حال نفسه، فيعلم أنّه عجز غيره كعجزه هو»[28].

ثمّ إنّ الباقلاني قد أتى بأفكار هامة في سبيل تدريس علم الإعجاز للمتعلمين، وهو تدريس يرتكز الأصل فيه على الشعر وتذوقه؛ إذ يصور رؤية تعلم المتوسط في الأدب كيف يتذوق القرآن، ويقف على حلاوته وطلاوته، يقول: «فإذا أردنا أن نقرب عليه أمرا، ونفسح له طريقا، ونفتح له بابا -ليعرف به إعجاز القرآن- فإنا نضع بين يديه الأمثلة، ونعرض عليه الأساليب، ونصوّر له صور كلّ قبيل من النّظم والنثر ونحضره من كلّ فنّ من القول شيئا يتأمله حقّ تأمله، ويراعيه حقّ رعايته فيستدل استدلال العالم، ويستدرك استدراك الناقد، ويقع له الفرق بين الكلام الصادر عن الرّبوبية، والطّالع عن الإلهية»[29].

وأضاف الباقلاني كلاما جيّدا وأعطى مخرجا هاما في الذي يريد أن يتدرب حتي يقع عنده الفصل بين الكلامين، وهي حالة ناقص حظّ في الأدب، يقول: «إذا كنت في صنعة الأدب متوسطا، وعلم العربية متبيّنا أن تنظر أولا في نظم القرآن ثم في شيء من كلام النبي ﷺ فتعرف الفصل بين النظمين، والفرق بين الكلامين، فإذا تبيّن لك الفصل ووقعت على جليّة الأمر وحقيقة الفرق فقد أدركت الغرض، وصادفت المقصد»[30].

والذي يفهم من كلام الباقلاني أنّ مواطن الإعجاز ينبغي أن تتحقق عند كلّ مستمع للقرآن الكريم، ومنا هنا نفهم دعوة محمد محمد أبو موسى في وجوب أن

يكون علم الإعجاز كعلم الفقه ميسرا، ومقروءا، وواضحا[31]. ومن ثمّ يكون تمتعــه بتلك الصفات مرتبطا بالأدب شرطا.

ويفهم من كلام الباقلاني أنّ الإعجاز البلاغي عنده لا يدركــه ناقــد الأدب إلا إذا كان متناهيا في هذا الباب، والتناهي يعني الدرجة الأعلى التي لا تطمح نفس إلى أبعد منها، وكأنّه نهاية التبحر، وغاية الإحاطة، سعة، وعمقا، وحسن تأت، ودقــة نظــر وصحة نفس، وسداد رأي، وقوة خاطر، وكأنّ إعجاز القرآن هنا هو صفو الصفو في هذا الباب[32].

والباقلاني أراد من خلال هذه الإشارات تحديد الجهات التي يجب أن يكون ناقــد الأدب بصيرا بها، ومقتدرا عليها؛ وهي كثيرة، يذكرها محمد محمد أبو موسى فــي قوله: «معرفة اللسان، وطرائق بنائه، وما أودع فيه من طاقات سواء منها ما يتصــل بالمفرد، وما يتصل بالتركيب، هذا فضلا عن التبحــر فــي المواضــعات النحويــة، والصرفية، وما ينطوي وراء هذه المواضعات من حكمة بيانية، وما تتنوع به طرائق الدلالة، من خبر واستخبار، وتفصيل وإجمال، وكناية وتصريح، وتعريض وتلــويح، وغير ذلك مما هو معروف بسعته ودقته، وتنوعه، ثمّ المعرفــة الواســعة بــالطرق والمذاهب في الشعر، والكتابة، والأدب كله»[33]

ومن هذا المنطلق يربط عبد القاهر الجرجاني بيان حجة القرآن بمعرفــة الشــعر يقول: «إذا كنّا نعلم أنّ الجهة التي منها قامت الحجــة بــالقرآن وظهــرت، وبانــت وبهرت هي أن كان على حدّ من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر، ومنتهيا إلى غايــة لا يطمح إليها بالفكر، وكان محالا أن تعرف كونه كذلك إلا محالا أن تعرف الشــعر الذي هو ديوان العرب، وعنوان الأدب»[34].

ومن ثمّ فإنّه لا يدرك «الحجة الباهرة إلاّ من علم الشعر وعرف بأي شيء يفضل بعضه بعضا وكيف ترتقي مراقيه حتى تصل إلى الغاية التــي لا يجــوز للبشــر أن يتجاوزها، وكل من سمع آية من المصحف وعنده هذا العلم يعلــم أنّهــا تجــاوزت الطوق، وخرجت عن الوُسع، وأنّ الذي يسمعه آية باهرة، وحجة بيّنة قاهرة»[35] .

والشعر في ذلك ينفعنا في الكشف عن وجه التحدي، والوقوف عند طبقة القــرآن من البلاغة، والذي يصدّ عن الشعر في فهمه للقرآن كان «صادّا عن أن تعرف حجة الله تعالى، وكان مثله مثل من يتصدى للنّاس فيمنعهم عن أن يحفظوا كتاب الله تعالى ويقوموا به ويتلوه ويقرئوه»(36)، وليس في محاداة الله أشنع مــن أن يكــون مثــل الشخص مثل من يمنع الناس من تلاوة كلام الله، وهذا الذنب المهلك أساســه الغفلــة وعدم مراجعة الرأي، واتّباع ما يهجس في الخاطر من غير تمحيص، وكــل الــذي أفضى بهؤلاء إلى هذه المهلكة أنّهم ساء رأيهم، وساءت مقالتهم في الشعر، وأشــاعوا في الناس فيه كلاما يصرفهم عنهم(37).

ودور الشعر في فهم كتاب الله ليس في أنّه يعرفنا فضل كلام على كــلام، وإنّمــا الشعر له مزية في بيان حجة الله؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى حين «ابتعث نبيّــه ﷺ لــم يجعل للنّاس دليلا على صدق نبوته يطالبهم بالإيمان به، سواء ما نــزّل عليــه مــن القرآن منجّما على ثلاث وعشرين سنة، وطالب عباده من عرب الجاهلية أن يتبيّنــوا أنّ ما نزّل إليه هو كلام الله المفارق لكلام البشر على اختلاف ألسنتهم، وذلك بمجرد سماعه يتلى عليهم في آيات قلائل»(38).

ومن ثمة فإنّه ينبغي الإقرار بأنّ أصحاب الشعر الجاهلي هم الذين نــزّل علــيهم القرآن العظيم، وهم السابقون الذين آمنوا بأنّ كلام الله سبحانه وبأنّ التاليه عليهم هــو رسول الله وإلى النّاس كافة ﷺ.

وإذا حصلت تلاوة القرآن ينبغي أن يصل القارئ إلى ملامسة حلاوتــه، وفضــله ولهذا نجد ابن قتيبة يحرص على تحقيق ذلك، وهو يردّ على المطاعن التي وجهــت لكتاب الله، إذ يقول: «وإنّما يعرف فضل القرآن من كثر نظره واتّسع علمــه، وفهــم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خصّ الله به لغتها دون جميع اللغات؛ فإنّه ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة، والبيان، واتّساع المجال أوتيته العــرب خصيصى من الله كما أرهصه في الرسول ﷺ، وأراده من إقامة الدليل علــى نبوتــه

بالكتاب، فجعله عمله كما جعل علم كلّ نبي من المرسلين من أشبه الأمور بمـــا فـــي زمانه المبعوث فيه»[39].

وإقامة الدليل على نبوته إنّما تتحقق بفهم القرآن ومعرفة علو بلاغته وإعجازهـــا ولذا حرص العلماء على تذوق الشعر الجاهلي؛ لأنّ يمثل التحدي المقصود كما أومأنا إلى ذلك فيما سبق، فالشعر الجاهلي أصبح" "بوصفه لغة، وسيلة أو وثيقة لتفسير لغـــة القرآن وفهمها، وليكون شاهدا على إعجازها، وبما أنّ القرآن ليس معجزا من ناحيـــة المعاني وحسب، بل من ناحية البيان أيضا، فقد صار أصلا جامعا للغة والدين، ومـــع أنّ الشعر الجاهلي سابق عليه زمنيا فقد أصبح القرآن سابقا للشعر الجـــاهلي بكونـــه إعجازا، أي بكونه يتجاوز الزمن، ولم يعد الشعر الجاهلي إلا حجـــة للإثبـــات هـــذا الإعجاز "[40].

ومن هنا نفهم كيف تم التوحيد بين اللغة والدين من جهة، وكيف أنّ علماء اللغـــة والدين أخذوا من جهة ثالثة يدرسون الشعر الجاهلي لا لذاته، بل لما فيه مـــن اللغـــة التي تشهد للغة القرآن، فصارت لغة الشعر الجاهلي بمفرداتها وتراكيبها معجمـــا أو مرجعا لفهم القرآن ولفهم الحديث أيضا[41].

والشعر الجاهلي هو اللغة المثلى التي فهمنا فأعنتنا على فهم القرآن، وتفسيره، لما فيه من تأصيل وفنّ، ولغة أدبية راقية جدّا، وثراء وغواية، وهو ما يستشهد به (...) لأنّه مبني على معرفة أوضاع اللغة العربية الفصيحة المختارة والإحاطـــة بقوانينهـــا ونظمها[42].

ومن ثمّ يكون ارتباط القرآن بالشعر الجاهلي فهما وتذوقا؛ لأنّ فهم القـــرآن فـــي ذلك مسند إلى واقع خارجي (الشعر الجاهلي)، «ولكنه فهم مؤيـــد بعامـــل خـــارجي تُستوحى معانيه من نص دالّ وقع تجريبه وإقراره مثل الشـــعر الجـــاهلي، ووعـــي داخلي تأويلي لا يخرج عن الحقيقة التي يحملها التعبير القرآني»[43].

إنّ علماء البلاغة كانوا متفطنين جدا لأهمية الشعر الجاهلي ودوره في الكشف عن حجة الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، وفهمه. وقد فهم أبو عبيدة معمر بن المثنى قيمة حضور الشعر الجاهلي في مجالس الخلفاء والصحابة رضوان الله عليهم واستند إلى ذلك في تفسيره للمجازات القرآنية؛ فقد عالج في كتابه قضية التوصل إلى فهم المعاني القرآنية، وذلك عن طريق احتذاء أساليب العرب في الكلام، وسننهم في وسائل الإبانة عن المعنى(44). وأبو عبيدة في ذلك إنّما كان على وعيّ بهذا الإجراء في التعامل مع القرآن، يقول فيما بيانه: «إنّما أنزل القرآن بلسان عربيّ مبين... فلم يحتج السلف، ولا الذين أدركوا وحيه ﷺ أن يسألوا عن معانيه، لأنّهم عرب الألسن فاستغنوا بعلمهم به عن المسألة عن معانيه، وعمّا فيه مما في كلام العرب مثله، من الوجوه والتلخيص، وفي القرآن ما في الكلام العربي من وجوه الإعراب ومن الغريب والمعاني»(45).

وقد لاحظنا الاستناد إلى الشعر الجاهلي في مقاربة الإعجاز في عدد من المصنفات البلاغية، عند عبد القاهر الجرجاني الذي كان الشعر عنده وسيلة تدريبية لتذوق القرآن، أو الزمخشري الذي تارة ما كان يعود في الكشاف إلى الشعر لفهم كلام الله وغيرهما من علماء العربية، غير أنّ مبحث الإعجاز في حقيقة أمره سقط في عدد من المصنفات البلاغية التي جاءت بعد السكاكي، واكتفي الاهتمام فيه عندهم بشرح دور البلاغة في الكشف عن مواطن الإعجاز، إلى أن خصه جيل المحدثين بالمعاينة وضبط العلاقة بين الأدب (الشعر الجاهلي) بوصفه وسيلة لمحاورة القرآن بلاغيا، على غرار مصطفى صادق الرافعي، ومحمود شاكر ومحمد ومحمد أبو موسى.

4- **خاتمة:** إنّ التواصل مع القرآن وتذوق إعجازه ليس أمرا هيّنا، بل يحتاج ذلك إلى ضبط جملة من العلاقات التي تساعدنا في فهم كلام ربّ العالمين أولا ومعرفة الفارق بينه وبين كلام النّاس، وانطلاقا مما تمّ معالجته يمكن أن نستخلص النتائج الآتية:

- الكشف عن الحجة الإعجازية في القرآن القصد منها إقامة الدليل على نبوته ﷺ.
- إنّ علاقتنا بالقرآن لا بدّ أن يكون منطلقها ضبط علاقتنا بالأدب، ومعرفة مذاهب الشعر، ومعرفة سنن العرب في كلامها.
- التعامل مع القرآن يحتاج إلى التوقف عند الفرق بين كلام الله وكلام الرسول ﷺ.
- يحتاج التعامل مع القرآن إلى خطة تدريبية، نعمل من خلالها على ضرب الأمثلة، معرفة للفارق بين الكلام الصادر عن الربوبية والطالع عن الإلهية وغيره.
- إنّ البلاغة الفطرية التي كانت مستودعة في أدمغة الجيل الذي نزل فيه القرآن وبعده ساعدتهم في الوقوف على وجوه الإعجاز البلاغي في القرآن.
- ضرورة التزود بعدّة ناقد الأدب في تذوق القرآن؛ فالأمر يحتاج إلى معرفة اللسان وطرائق بنائه.
- لقد أكد علماء البلاغة (أبو عبيدة والباقلاني والجرجاني وغيرهم) على ضرورة معرفة الشعر في الكشف عن الحجة.

وبناء على ذلك يمكننا أن نقدم توصيات من شأنها أن تكون ذا فاعلية في تحقيق الهدف المرجو من وراء هذه الورقة العلمية:

- لا بدّ أن يكون إعجاز القرآن علما يتدارسوه الناس في مختلف المقامات؛ في الجامعات (أقسام العلوم الإسلامية، واللغة العربية)، وكذلك في المعاهد الدينية خاصة بالنسبة لرتبتي إمام وأستاذ التعليم القرآني. ويكون ذلك في كل المستويات، حتى يعرف الطالب اجتهاد العلماء قديما وحديثا في معرفة وجوه إعجاز القرآن.

- إعطاء بالغ الأهمية لمقياس الشعر الجاهلي باعتباره المدخل الرئيس في التعامل مع القرآن؛ لأنّ ذلك يساعد المتعامل مع القرآن في فهمه أولا، ومحاولة الوقوف على إعجازه البلاغي.
- إنّ الملاحظ في أقسام اللغة العربية وآدابها خصيصا تراجع الاهتمام بالشعر الجاهلي فأصبحا برمجته تقتصر على إدراجه موضوعا ضمن محاضرات الأدب القديم، والحقّ أنّ لا يساعد في ضبط العلاقة بين الإعجاز والشعر الجاهلي.

5- هوامش البحث:

[1] عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، دار المدنى، جده، ط3، 1992، ص 11

[2] ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، تحقيق سعد بن نجدت عمر، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط1 2014، ص 47.

[3]عبد القاهر الجرجاني: المرجع السابق، ص 12.

[4] محمود شاكر: قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام، دار المدني، جده، 1997، ص 98.

[5] ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر ونقده، تحقيق محي الدين عبد الحميد، دار الجيل بيروت، ط5، 1981، ج1، ص30.

[6] التبريزي: شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000، ج1، ص 10.

[7] الزمخشري: الكشافعن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة، بيروت ج2، ص 608.

[8] الحافظ ابن كثير: البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ط8، 1990، ج9، ص 101.

[9] محمود شاكر: مداخل إعجاز القرآن، دار المدني، جده، ص8.

[10] محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط3، 1943، ج2، ص 331.

[11] الكليات، ص 149.

[12] يحي بن حمزة العلوي: الإيجاز لأسرار كتاب الطراز في علوم حقائق الإعجاز، تحقيق بن عيسى باطاهر، المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2017، ص 525.

[13] المصدر نفسه، ص 526-526.

[14] محمد متولي الشعراوي: معجزة القرآن، أخبار اليوم، مصر،1993، ص6.

[15] صلاح عبد الفتاح الخالدي: إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني، دار عمار، عمان ط1، 2000، ص 58.

[16] المرجع نفسه، ص 17.

[17] الخطابي: بيان إعجاز القرآن، ص 70.

[18] مصطفى مسلم: مباحث في إعجاز القرآن، دار المسلم للنشر والتوزيع، الرياض، ط2، 1996، ص 45.

[19] محمود السيد شيخون: الإعجاز في نظم القرآن، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط1 1978، ص 10.

[20] الحافظ ابن كثير: البداية والنهاية، ج1، ص 64.

[21] عبد الوهاب النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق علي محمد هشام، دار الكتب العلمية، بيروت، ج16، ص 210 و211.

[22] عبد القاهر البغدادي: أصول الدين، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط1، 1981، ص 170.

[23] يحي بن حمزة العلوي: الطراز، ص 520.

[24] محمود شاكر: قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام، ص 94.

[25] محمود شاكر: مداخل إعجاز القرآن، ص 15.

[26] الرماني أبو الحسن: النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3، 75.

[27] الباقلاني: إعجاز القرآن، اعتنى به أبو بكر عبد الرازق، مصر، 1994، ص 7.

[28] المصدر نفسه، ص 37.

[29] نفسه، ص 126.

[30] نفسه، ص 126 و127.

[31] محمد محمد أبو موسى، مراجعات في أصول الدرس البلاغي، ص 287.

[32] محمد محمد أبو موسى: الإعجاز البلاغي (دراسة تحليلية لتراث أهل العلم)، مكتبة وهبة القاهرة، ط2، 1997، ص 252.

[33] المرجع نفسه، ص 252.

(34) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 7.

(35) محمد محمد أبو موسى: مراجعات في أصول الدرس البلاغي، ص 289.

(36) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 9.

(37) المرجع نفسه، ص 290.

(38) محمود شاكر: قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام، ص 60.

(39) ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، ص 39.

(40) أدونيس: الثابت والمتحول (بحث في الإبداع والإتباع عند العرب)، دار الساقي، بيروت، ط7 1994، ج1، ص 203.

(41) محمد عجاج الخطيب: السنة قبل التدوين، مكتبة وهبة، مصر، 1988، ص 153.

(42) عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب، مجلد1، ص 5.

(43) محمد سعيد القطاري: غريب القرآن والشعر الجاهلي، عالم الكتب الحديث، الإربد، الأردن ط1، 2011، ص 44.

(44) بدوي طبانة: البيان العربي، ص 21.

(45) أبو عبيدة معمر بن المثنى: مجاز القرآن، ج1، ص 18.

عبقريّة العربيّة في معجزة القرآن، ولغة الحوسبة

د. جميلة غريّب
جامعة باجي مختار، عنابة.

1- **تصدير:** صدِق أنّ كلّ ما في يقين الكون، وكل ما في يقين الوحي الإلهي معجز ومدهش وعجيب، يتبيّنه المجتهد الواعي الباحث الفذّ، ويفكّ أسراره، ويكشف حقائقه كل من دقّق في كنهه، وتبصّر جوهره، وفقه غاياته، فاهتدى به إلى عليائه.

ولا يحقق فهم معجزات الكون الربانية، إلا الإقبال على طرقها، ودرسها في معارف القرآن الكريم بطول أناة، وإنعام نظر، وصفاء سريرة، وانفلات من أرسان التقاليد.

ولعل التكنولوجيا الحديثة وما اكتسحته من مجالات معرفيّة، وعلوم بينية؛ هي من فيض التكامل بين العلوم، واستباق الزمن بتفاعل التخصصات والفنون. زمن غدت فيه المعلومة تكاد تكون أقرب إلينا من ضغطة زر من لوحة المفاتيح، وأصبح فيه سبق الشرف لمن أنتج بلغته، فسلك بها غمار التقدم المعرفي، والعلميّ، وارتقى بها إلى سماء التألق، فتنداح حتى تحتوى كل الثقافات، وتغزو مختلف الشعوب والمجتمعات.

واللغة العربية تتجاسر على لغات العالم منذ القديم ولا تزال، وعبقريتها تتجاسر للدارسين من كل التخصصات. وإن في الرقمنة والحوسبة سبيل للباحثين على إدراك عبقريتها، وتقصّي سحرها الرباني الذي يخترق كل الأزمان العابرة، ويتعالى على كل الأنفس الجائرة.

الدراسة التي بين أيدينا؛ هي نقطة التقاء لا تنفصم بين اللغة العربيّة والنص القرآني المجيد، ولغة أخرى هي شِفرة العقل الالكتروني، ومفتاح للتفاعل مع الحاسوب، لغة الحوسبة (أو الرقمنة).

ونحن إذ نعرض بحثنا نتوسم فيه الرفعة للغة العربية، وهي أرفع ما تكون بالنص القرآني، الذي أردفْنا بعضا من آياته للتعليل بها على منطق التكنولوجيا الحديثة، ولغة الحوسبة، التي صدحت بمياسمها الرقمية، وهندستها الدقيقة حتى للغات الطبيعيّة فضلا عن:

إبراز المعرفة الرقمية في القرآن الكريم؛

التّأكيد على قدرة اللغة العربيّة (لغة القرآن الكريم) على استيعاب لغة الحوسبة

نشر الوعي بضرورة حوسبة اللغة العربيّة، ومعالجتها آليّا؛

فتح المجال للباحثين العاملين لإمعان النّظر، والتدبّر في المعرفة الحاسوبيّة في آي القرآن الحكيم.

متوسمين في ذلك المنهج الوصفي التحليلي، للوقوف على الحقائق الرقمية بالقرآن الكريم، ومقاربتها بلغة الحوسبة.

2- **معجزة القرآن الكريم:** القرآن الكريم كلام الله المنزل على نبيه محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، كلام معجز تحدى الله به العالمين من إنس وجن، ولم يتحد الملائكة لأنهم ليس لديهم اختيار فيما يفعلون، بل هم يفعلون ما يؤمرون به من الله –جل وعلا– دون اختيار منهم. وعليه؛ فالقرآن يتحدى كل القوى المخيرة في أمرها، التي ميزها الله عن بقية مخلوقاته بالعقل، والتفكير، والاختيار.

ولو كان ككتب القوانين والفنون؛ لما كان لتلاوته كل ذلك التأثير في قلب الطباع وتغيير الأوضاع، بل لكانت تلاوته تمل فتترك.[1]

وحديثنا عن معجزة القرآن الكريم؛ يقودنا بالضرورة للإشارة إلى معنى كلمة الإعجاز والمعجزة ودلالتهما.

فالإعجاز؛ مصدر من كلمة أعْجَزَ –يُعْجِزُ– إعجازاً، فهو معجِز لصيغة الفاعل. أما المعجزة؛ فيعتبرها السيوطي بأنها: "أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم عن المعارضة، وهي إما حسية، إما عقلية. [2]

والشيخ متولي الشعراوي –عليه رحمة الله– فيعتبرها مما لا يستطيع أحد أن يأتي به، وأن تكون–أيضا– مما نبغ فيه القوم، حتى لا يقال أن الرسول قد تحدى قومه بأمر لا يعرفونه ولا موهبة لهم فيه.فالتحدي لا بُدّ أن يكون في أمر نبغ فيه القوم حتى يكون للتحدي قيمة.[3]

إن المعجز في القرآن الكريم أنه ليس كغيره من الكتب السماوية، التي جاءت بمعجزات خرقت نواميس الكون فتحدت الأقوام، وأثبتت صحتها وصدق رسالة النبي المرسل. يؤمن بها كل من رآها، ومن لم يره صارت عنده من الأخبار المتواترة التي قد تصدق أولا تصدق. فهي معجزات حسية، آنية تنتهي بانتهاء الأجل المرسلة فيه، ولولا إثبات القرآن لها لغدت أخبارا تتواتر بين الناس. أما معجزة القرآن الكريم، فهي معجزة عقلية، خالدة إلى الأبد، لا يحدها مكان ولا زمان، مستمرة متجددة بتجدد الأجيال و الأزمان، إلى يوم يبعث الله الأرض ومن عليها.[4]

إن الرادع إلى البحث في معجزات القرآن؛ يؤول بنا للحديث عن معجزته اللغوية، التي بات من الضروري، التنبه إليها وإرخاء القلم حتى يبلغ منتهاه وغايته إلى طرقها؛ ألا وهي اللغة العربية في القرآن الكريم، ولغة الحوسبة والرقمنة، التي تميِّز عصرنا الحالي بكل تجلياته التكنولوجية.

3- **عبقرية اللغة العربيّة:** لقد شرَّف الله تبارك وتعالى اللغة العربية تشريفاً لم تنله لغة أخرى، حين أنزل كتابه العزيز على قلب رسوله ونبيّه محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم؛ فكان هذا التشريف الإلهيّ مصدر الحفظ، والمناعة والمتانة والقوة للغة العربية، الذي رفع قدرها وأكسبها من عناصر القدرة على النمو الذي لا يتوقف ما جعلها متميّزة، لأنها لغة الوحي الرباني والرسول الخاتم. بها تقام الصلاة ركن الدين المتين التي يؤدّيها المسلمون من شتى الأجناس في جميع أقطار الأرض على مدار الليل والنهار، فأصبحت لغة إنسانية ولساناً عالمياً منذ ظهور الإسلام[5].

جاء الخطاب القرآني بلسان عربي محكم مبين، بدليل الآيات البينات التالية من الذكر الحكيم:

﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف:3]؛

﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾[الشورى:7]؛

﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾[الزمر:28]؛

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾[يوسف:2]؛

﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا ﴾ [الأحقاف:12]؛

﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت:3]؛

﴿أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ [الرعد:37]؛

﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[الشعراء:195]

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ ﴾ [مريم:97].

وعليه؛ وُكِّل للسان العربي أن يوصل الأمانة للعالمين، وغدت العربية وعاءً حاملا لرسالة إنسانية غراء بمبادئها الرصينة، ومعالمها الوضاحة، ومقاصدها النبيلة. واستطاعت أن تكون –العربية– لغة حضارة مترامية الأطراف مكانا وزمانا، وواسعة الرؤى. لغة الحقائق الرياضية والطبيعية، والحكم والتشريع، والتجارة والعمل والفلسفة والمنطق، والروح بما فيها من أدق الخواطر وأرق الأحاسيس والعواطف لغة العلوم والآداب والفنون. لقد تجلّت عبقرية اللغة العربية في مجموع آثارها التي تجلى في بحر العصور، وفي فنون أدبها وأساليبها البيانية، وفي نظمها للكلام وتركيبه وربط أجزائه، وفي مفرداتها وألفاظها. وإن خصائصها المنطقية والفكرية والفنية لتتبدى وتتكشف في ذلك كله، ولهذا كان الكلام عن عبقريتها بوجه عام واسع الأطراف تحتاج دراسته إلى زمن طويل، ولا يكفي للإحاطة به الزمن القصير.

وحسبنا أن نقول؛ إنَّ التنزيل الخالد، الممتد إلى نهاية الزمان، والذي وصف الله أبعاده ومداه، بقوله: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾[الكهف 109 وقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾[لقمان:27] والذي كانت (العربية) وعاءه الخالد، هو الذي يجعلنا ندرك الطاقة التي تمتلكها العربية، والشرف الكبير بجعلها لغة التنزيل.(6)

ويزداد شأن العربيّة رفعة وتأكيدا لعبقريتها؛ احتوائها لمفاهيم حديثة، هي من صلب التكنولوجيا، ومن بيت المنطق، والرياضيات، والحوسبة بالمفهوم الواسع الذي يؤشر لعالم جديد، عالم الرقمنة والحوسبة.

4- الإعجاز اللغوي والحسابي في القرآن الكريم:

4-1 الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم؛

4-1-1 آية الكرسي (أعظم آي القرآن الكريم -نموذجا-)

آية الكرسي هي الآية 255 من سورة البقرة، والتي تجلى من خلالها إعجاز لغوي، وعبقرية للغة العربيّة في القرآن الكريم، يتبين من خلال التفصيل الموالي:

أ- **التكرار للنفي والإثبات:**

اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ..............................نفي؛

الْحَيُّ الْقَيُّومُ....................................إثبات؛

لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ........................نفي؛

لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ..........ثبات؛

مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ..............نفي؛

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ................إثبات؛

وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ......نفي؛

وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ..........إثبات؛

وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا.........................نفي؛

وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ..........................إثبات.

إن في توارد النفي والإثبات في آية الكرسي، بهذا الترابط والتماسك التواشج المتقن، لدليل على براعة اللغة العربيّة، وإعجاز القرآن الكريم. وإليكم الآن قرينة لغوية أخرى بذات الآية القرآنية، تثبت براعة العربية، وإعجاز القرآن اللغوية.

ب- **التناظر:**

اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ **الْحَيُّ الْقَيُّومُ**؛

لَا تَأْخُذُهُ **سِنَةٌ** وَلَا **نَوْمٌ**؛

لَهُ مَا فِي **السَّمَاوَاتِ** وَمَا فِي **الْأَرْضِ**؛

مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ **إِلَّا** بِإِذْنِهِ؛

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ؛

وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ **إِلَّا** بِمَا شَاءَ؛

وَسِعَ كُرْسِيُّهُ **السَّمَاوَاتِ** وَ**الْأَرْضَ**؛

وَلَا يَؤُودُهُ **حِفْظُهُمَا**؛

وَهُوَ **الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**؛

بداية وكما هو ملاحظ؛

- تبدأ الآية الكريمة باسمين من أسماء الله الحسنى، ألا وهما **(الحيّ/ القيّوم)** وتنتهي باسمين من أسماء الله الحسنى وهما **(العليّ/ العظيم)** -الواضحون باللون الأحمر في نص الآية بالأعلى-

- ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ ؛ الشطر الثاني من الآية، والظاهر في ترتيب مقاطع الآية أعلاه باللون الأحمر، و﴿**حفظهما**﴾ الظاهر بالمقطع ما قبل الأخير. وكما وضحه أحمد مصطفى المراغي في تفسيره للآية: "لا يعتريه نوم ولا مقدماته، وإذا كان كذلك كان قائما بتدبير شؤون عباده في جميع الأوقات آناء الليل وأطراف

النهار"[7] ضمانا **للحفظ** الذي لا يقوم دون قائمة من رب لعالمين. وقد جاء النظم الكريم بحسب الترتيب الطبيعي في الوجود، فنفى ما يعرض أولا وهو السِّنة، ثم ما يتبعها وهو النوم...وذكر جل وعلا النوم بعد السِّنة؛ ترقّ لنفي الأضعف إلى نفي الأقوى؛

– تناظر آخر بين المقطع الثالث من بداية الآية الكريمة، والمقطع الثالث من نهايتها. أي ما يلي: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ فكل من فيهما وما فيهما ملكه وعبيده. تأكيدا لملكه لهما –سبحانه (للمُلكيّة) ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ إن الكرسي–كما وصفه المراغي في تفسيره– "شيء يضبط السموات والأرض"[8] أي بمعنى التصرف فيهما؛

فهو يملك السموات والأرض –جل وعلا– ويتصرف فيها. (تناظر)؛

– استثناء وارد في آيتين متقابلتين والظاهرتين باللون الأحمر، وهما:

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ **إِلَّا** بِإِذْنِهِ﴾ استثناء بـ إلّا؛

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ **إِلَّا** بِمَا شَاءَ﴾ استثناء آخر –مناظر له – بـ إلّا.

– في وسط الآية الكريمة؛ أي في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾ أي؛ يعلم أمور الدنيا التي خلفوها، وأمور الآخرة التي يستقبلونها[9]. **(ما في الأيدي وما خلفها)** جمعت بين ما هو كائن بتفصيل الجزء الأول من الآية، وما سيكون من خبايا الغيب المؤشر عليه بالشطر الثاني من الآية الكريمة.

4-1-2؛ لغة جديدة بالقرآن الكريم: عُدّ إيجاد لفظ جديد واحدمن قبل شاعر أو أديب عربي؛ بمثابة فتح كبير، ولا سيما إذا وقع هذا اللفظ موقعه في العقول والقلوب فتداوله الناس، وسار على أقلام الكتاب[10]. فغدا على إثره الشاعر ملقب به فيغلب على اسمه الأصليّ، وهذا على نحو الشعراء التالية أسماؤهم:

معاوية بن تميم لقّب بـ"الشَّقِر" لقول":

قد أحمل الرمح الأصم كعوبه به من دماء القوم كالشّقرات

فيل بن عمرو بن الهجيم لقّب بـــ "بليل" لقوله:

وذي نســـب نـــاء بعيـــد وصـــلته   وذي رحـــــم **بلّلتهـــا بِبِلالهـــا**

عمرو بن سعيد بن مالك لقّب بـــ "المرقِّش" لقوله:

الـــدار قفـــر والرســـوم كمـــا   **رقّـــش** فـــي ظهـــر الأديـــم قلـــمْ

عمر بن ربيعة لقّب بـــ "المستوغ" لقوله:

يـــنشُّ المـــاء فـــي الـــرَّبَلات منهـــا   نشيشَ الرضـــف فـــي اللـــبن **الـــوغير**

شاس بن نهار العبد: لقب بـــ "الممزَّق" لقوله:

فإن كنت مـــأكولا فكـــن خيـــر آكـــل   وإلا فـــأدركني ولَمَّـــا **أُمَـــزَّقِ**

عائذ بن مِحْصَن العبدي: لقب بـــ "المثقِّب" بقوله:

ظهـــرن بكِلـــة وســـدلْنَ أخـــرى   **وثقَّـــبْنَ** الوَصـــاوصَ للعيـــون

عامر بن زيد مناة العبدي لقب بـــ "الحصيص" بقوله:

قـــد **حَصَّـــت** البيضـــة رأس امـــرئ   جَلْـــدٍ علـــى الأهـــوال صَـــبَّارِ

ربيعة بن ليث العبدي لقب بـــ "المطلع" بقوله:

فـــإن لـــم أزر ســـعدى بجُـــرد كأنهـــا   صدور القنا يطلعـــن مـــن كـــل **مطلـــع**

وهكذا استحق إسحاق المرقّش الاكبر هذا اللقب لقوله:

الـــدار قفـــرٌ والرســـوم كمـــا   **رقّـــش** فـــي ظهـــر الأديـــم قلـــم

واكتسب المتلمس لقبه من بيته المشهور:

فهـــذا أوان العِـــرضِ حيـــا ذبابـــه   زنـــابيره والأزرق **المـــتلمّس**

وغيرهم كثر ممن لقبوا بلقب دهاء استعمالهم لكلمات لم يعهدها العرب قديما فاشتهروا بها، وغدت سببهم للشهرة والمفخرة، والسؤدد –بكلمة واحدة فقط–

ولا يكمن إعجاز القرآن الكريم في الإتيان بلفظ أو ألفاظ جديدة فقط؛ بل في الكم الهائل من الألفاظ فضلا عن السرعة الزمنية المنزلة فيها –ليلة القدر بغار حراء– التي أحدثت صاعقة لغوية، ومعجزة إلهية لم يعهد لها العرب مثيلا لامن قبل ولا من بعد القرآن الكريم. الإعجاز –كذلك– ليس في الألفاظ الجديدة بحد ذاتها، فقد تنتج كلمات جديدة من بضع أصوات لغوية لم يسمع بها من قبل، لكن العظيم في الأمر أن يفهم النص الجديد من أول لحظة سمعوه بها، أو لنقل من ثاني لحظة...مع أنه كان يحمل لهم لغة جديدة بكل عناصرها[11]...لقد تجاوز الأمر معهم مجرد الفهم لما يسمعون؛ إلى الإعجاب الشديد البالغ حد الذهول، واعترافهم –الكافر منهم قبل المؤمن– بتفوقه واستحالة الوصول إلى مراقيه.

أ– **نماذج من أنواع الألفاظ الجديدة بالقرآن الكريم:** تكمن خصوصية اللفظ في القرآن الكريم في جدته اللفظية والمعنوية، فقد تظهر في:

– جِدَّة في جذره واشتقاقاته، وغالبا ما يكون معربا عن لغات أخرى؛ كالفارسية، والسريانية، والعبرية، واليونانية، والنبطية وغيرها من اللغات، على نحو هذه الألفاظ، والآيات القرآنية الظاهرة فيها، والمبينة في الجدول التالي:

اللفظة	الآية
الصّراط	﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ الفاتحة، الآية6
سبحانك	﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ البقرة، الآية32
قَسْوَرَة	﴿ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ ﴾ المدثر، الآية51
سجّين	﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ﴾ المطففين، الآية7

بَرْزَخ	﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾الرحمن: 19- 20
سجّيل	﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾الفيل، الآية4
السّجلّ	﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ الأنبياء الآية104
التّنّور	﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾هود، الآية40
ضِيزَى	﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾النجم، الآية 22
قَمْطَرير	﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾الإنسان الآية10
سُنْدُس	﴿ مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾الكهف، الآية31
اِستَبرق	﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾الإنسان الآية21
أباريق	﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ الواقعة، الآية18
القِسط	﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾الأنبياء، الآية47
القِسطاس	﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾الشعراء، الآية 182
الفردوس	﴿ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ المؤمنون الآية11
المِشكاة	﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾النور ،الآية35
طُوبى	﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ الرعد، الآية 29
قَراطيس	﴿ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾الأنعام، الآية91
سُرادِق	﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ الكهف، الآية29
اليمّ	﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾طه، الآية 39

كرسيّ	﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ البقرة، الآية255
الأرائِك	﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾الكهف،الآية31
الجِبت	﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾النساء، 51
الطّور	﴿وَٱلطُّورِ ۝١﴾الطور، الآية01

الجدول رقم(1) يبيّن الألفاظ المعرّبة الواردة في القرآن الكريم

– جدّة في اشتقاق اللفظ، لكنّه مأخوذ من جذر لغوي عرفه العرب من قبل، نحو الألفاظ الواردة في الجدول التالي:

اللفظة	الآية
ملكوت	﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾المؤمنون،الآية88
صلوات	﴿ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾]البقــرة، الآية 238
هادوا	﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ ﴾البقرة،الآية 62
الرّقيم	﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ الكهف، الآية 9
ربّانيُّون	﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾آل عمران،الآية 79
دحاها	﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾النازعات، الآية 30
الفرقان	﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾الفرقان الآية01
شَكُور	﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾سبأ، الآية 13
الحيوان	﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾العنكبوت، الآية 64

قانتون	﴿ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴾]الروم، الآية26[
عِلِيُّـــون	﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾المطففين، الآية 18
السّلسبيل	﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴾الإنسان، الآية 18
تِلقاء	﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ القصص، الآية28
مَقامِع	﴿ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾الحج، الآية21
المنافقون	﴿ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾النساء، الآية61
العادون	﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾المؤمنون، الآية7
المِحراب	﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ ﴾آلعمران،الآية 39
القَصَص	﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾آل عمران، الآية 62
الأنعام	﴿ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾طه،الآية54
آتاه	﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾آل عمران، الآية170
سُعُر	﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾القمر ، الآية47
تَزاوَر	﴿ تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ﴾الكهف، الآية17
مُلتَحَد	﴿ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾الجنّ، الآية22
طاغوت	﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾النحل، الآية36

الجدول رقم(2) يبيّن الألفاظ ذات الجذور العربيّة والاشتقاقات الجديدة الــواردة بالقرآن الكريم

- خصوصية من جدة اللفظ المعنوية دون اللفظيّة؛ وهذا النوع من الألفاظ عرفه العرب بشكله دون مضمونه الجديد، وهذا كثير جدا بالقرآن الكريم.

وتتحقق خصوصية هذا النوع من جدة استعمال ألفاظه، وطريقة ارتباطها مع الأدوات والألفاظ قبلها وبعدها؛ بحيث تكتسب في السياق الجديد معنى آخر جديدا مختلفا عن المعنى القديم.(12)

على نحو الألفاظ الآتي عرضها بالجدول الموالي:

اللفظ	الآية
أسلم	﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ البقرة،الآية112
الدنيا	﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾البقرة، الآية 86
سلطان	﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴾الصافات، الآية 156
المهتدون	﴿ أُولَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ البقرة الآية 157
الشهداء	﴿ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ﴾البقرة، الآية 282
البينة	﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾البيّنة،الآية4
البروج	﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾البروج، الآية1
القَدْر	﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾القدر، الآية 1
مرض	﴿ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ ﴾ النور، الآية 50
تولّى	﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴾النجم، الآية 33
الصالحات	﴿ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾المائدة، الآية 93
الشاهدين	﴿ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾آل عمران، الآية 53

الروح	﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾الإسراء، الآية 85
خاشعين	﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ ﴾الشورى 45
إصْر	﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ البقرة، الآية 286
نبتهل	﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾آل عمران، الآية 61
كتاب	﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾البقرة، الآية53
البِرّ	﴿لَنْ تَنَالُوا **الْبِرَّ** حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾آل عمران92
عِوَج	﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾طه، الآية107
الحرْث	﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾البقرة، الآية 223
ينظرون	﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ يس، الآية49

الجدول رقم(3) يبين قائمة لبعض الألفاظ جديدة المعنى دون الشكل الواردة بالقرآن الكريم.

– وقد يتجاوز اللفظ مرحلة الجِدّة والابتكار، إلى مرحلة أكثر غنى وتفاعلا مع الحياة اليوميّة؛ وهي مرحلة الاستقرار، والشيوع، وكثرة التداول. فيرتقي بهذا إلى مستوى (المصطلح)، وهذا يعبر بلفظه المفرد وحده، أو مرتبطا بلفظ آخر أحيانا، عن معنى أكبر من حجمه بكثير[13]. ونحو ذلك الألفاظ الواردة بالجدول الموالي، وما يقابلها من آيات قرآنية واردة فيها:

اللفظ	الآية
الجهاد	﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾البقرة، الآية 218
السّاعة	﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾يوسف،الآية 107
الأجر	﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾آل عمران، الآية 171
التّقوى	﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾الأعراف،الآية26
المؤمن	﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾التوبة، الآية 10
الكافر	﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾التغابن، الآية 2
الذّكر	﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾الحجر، الآية9
الإيمان	﴿ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ﴾التوبة، الآية23
الشّرك	﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾سبأ، الآية22
الصّلاة	﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾البقرة، الآية 3
القيامة	﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ﴾هود، الآية98
النّار	﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴾البلد، الآية 20
الغيب	﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾الرعد، 9
النّكاح	﴿ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ ﴾النساء، الآية6
المساجد	﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾البقرة،الآية 114
الشّهادة	﴿ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ ٱلْأَثِمِينَ ﴾المائدة، الآية106

الآخرة	﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾ النساءالآية 74
الحسنة	﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾النساء، الآية 79
السّيّئة	﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾النساء، الآية79

الجدول رقم (4) يبيّن الألفاظ العربيّة التي ارتقت إلى مستوى المصطلح بالقرآن الكريم.

– خصوصية مصدرها المعنى المجازي الذي أضفاه القرآن الكريم على اللفظ، فمنحه بذلك قوة الصورة البيانية، وربما خفي علينا مع مرور الزمن المعنى الأصلي للفظة، حتى لنظن أن اللفظ ولد وهو يحمل هذا المعنى. إنه نوع من توالد الألفاظ... به تتوالد الألفاظ، وتغنى اللغة وتزدهر[14]. والجدول الموالي يبين بعض من هذه الألفاظ بمعناها الأصلي، ومعناها الجديد الذي منحها إياها القرآن الكريم:

اللفظة	المعنى الأصلي (قبل نزول الوحي)	المعنى الجديد (بالقرآن الكريم)
الخنّس	خنس الأنف خنسامنبابتعب : انخفضت قصبته.	هي الكواكب الخمسة الدراري (السيارة)، لأنّها تستتر وترجع.
الحافرة	الأرض المحفورةويقال رجَع إلى حافِرَته؛ أي في طريقه التي جاء منها ورجَع في حافرته شاخ وهَرِمَ.	﴿لمردودون في الحافرة﴾ أي أنرد بعد الموت إلى الحياة

فلان سفيه	جاء من ثوب سفيه؛ أي ضعيف النّسج.	السفهاء وهم الكفار يتحدثون بالشطط وهو البعد عن الحق في دين الله.
الشّورى	شِرت العسل؛ أي استخرجته من خلاياه	استخراج الرأي السليم
الغابر	غبر الفارس؛ إذ ابتعد فلم يظهر منه إلا ما يثير فرسه من غبار. والغَابِرُ: الماضي، بعيد في الزمن.	الغابرين؛ أي الباقين في عذاب الله.
تابوت	جاء من (التّوب)؛ أي العودة، لأنه مركبة للرجوع إلى الله.	صندوق كان فيه صور الأنبياء أنزله الله على آدم.
حِكمة	تشبيها بالحَكَمَة؛ وهي ما يحيط بالحنك من اللجام ليمنع الفرس من الاضطراب...	صواب من قول وعمل، وعلم نافع. عظة وعبرة...
سفينة	سَفَنَ؛ أي قشّر. فشبهوها وهي تشق البحر بسكين تقشره.	نحت ظاهر الشيء، كسفن العود، والجلد، وسفن الريح التراب عن الأرض.
جنِيّ	جنّ؛ أي غطّى، فكأن هذا المخلوق قد غطى فامتنعت علينا رؤيته.	(الجن) تدل على نوع من الأفاعي السريعة في حركتها . (النمل،10) دل على الكائن البشري في بطن أمه. (النجم 32)

		تدل على الملائكة؛ كونها مخلوقات غائبة عن الأعين. (الصافات، 158) شدة اسوداد اللّيل، وحجبه للأشياء (الأنعام، 76) غياب العقل والإدراك.(المؤمنون، 25)...
غلوّ	غلا بالجارية لحمها وعظمها أي؛ أسرعت في النمو حتى جاوزت لِداتها.	يكون الغلو بتعدي الحد الذي أمر الله به، بالزيادة عليه أو التشديد فيه، ونحو ذلك.
شكر	الناقة التي يظهر سِمنها فوق ما تُعطى من علف.	صور النعمة وإظهارها، والامتلاء من ذكر المنعم عليه.

الجدول رقم(5) يبيّن الألفاظ العربيّة بالمعنى(الجديد) المجازي الذي أضفاه عليها القرآن الكريم.

ما عرضناه أضرب من الجدّة في اللغة التي جاء بها القرآن الكريم، والتي أبانت عن عبقرية وإبداع لا يضاهى، في داخل اللغة العربية وليس من خارجها. فالقرآن الكريم لم ينزل بلغة غير العربية؛ بل بثّ في اللغة القديمة روحا جديدة، وأحدث فيها ثورة لا مثيل لها، ولا مجال فيها للمقارنة، سواء في سرعة تحققها، أم في مساحة تأثيرها، أم في حجم إنجازاتها وإبداعها، وشموليتها لمختلف أبعاد اللّغة، مع أية ثورة لغوية حدثت لأية لغة أخرى في التاريخ القديم أو الحديث على الإطلاق.

ب- ألفاظ جديدة غير مألوفة لكنها مفهومة: يتعاظم الإعجاز اللغوي بالقرآن الكريم؛ لامتلاكه ألفاظ جديدة مبتكرة، لو يسمعها العرب قبل نزول الوحي، لكنهم تقبلوها وفهموها[15]. والجدول الموالي يعرض بعض من هذه الألفاظ:

ألفاظ عرفها العرب قبل الوحي	ألفاظ قرآنية جديدة
الشاهد	الأشهاد/الشهداء...
الحياة	الحيوان
لقاء	تِلقاء
هؤلاء	هاؤم
أولئك	أولئكم
الجهل	الجهالة/الجاهليّة
القراءة	القرآن
الكبير	الكبّار
الشّكر	الشّكور
العَجَب	العُجاب
الكَذّاب	الكِذّاب
الغسل	الغِسلين
الفَرق	الفُرقان
يرائي	رئاء
العالَم	العالمين
كذلكَ	كذلكِ
اتّقى	التّقوى
السّور	السّورة
السّوء	السوأى

الجدول رقم(6) يبيّن الألفاظ القرآنيّة الجديدة، غير المألوفة عند العرب لكنها مفهومة

بعد هذا العرض لبعض من الألفاظ القرآنية المبتكرة المعجزة، التي جمعت بين الجدة والإفهام؛ هو جانب آخر من جوانب الإعجاز التجديدي المحيّر في الوحي المحمدي.

4-2 الإعجاز الحسابي في القرآن الكريم:

4-2-1 لغة الحوسبة في القرآن الكريم: يجمع القرآن الكريم بين دفتيه، العديد من المفاهيم والكلمات الدالة على مجالات الحاسوب وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات، والتي تومئ بانبعاث لغة جديدة من القرآن الكريم في عصر الرقمنة والأنترنت؛ هي لغة الحوسبة.

وفي ما يلي عرض لبعض من مفاهيم الحوسبة الوارد ذكرها بالتنزيل الحكيم، مع بيان الآيات الدالة عليها، ومقاربتها بمفاهيم تكنولوجيا المعلومات والاتصالات.

أ- **نظام العد الثنائي(0-1):**

يتم تخزين المعلومات في الأجهزة الرقمية الحالية في هيئة أرقام طبق النظام العد الثنائي أي المعتمد على(0 و1). والتي تتحقق من خلالهما لغات برمجة تسهل للمبرمج كتابة برنامجه في هيئة تعليمات وأوامر يفهمه الحاسوب بغرض تنفيذ العمل المطلوب. ومن المعروف أن الحاسوب يحول اللغة المكتوبة بها البرمجة إلى سلسلة من الزوجين 0 و1، ويبدأ على أساسها عمله.

والآية الكريمة: ﴿**وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾سورة الذاريات الآية(49) تؤكد أن الله عز وجل خلق لكل ما خلق من الخلق ثانيا له، ومخالفا له في مبناه والمراد له، وكل منهما زوج للآخر...وهو القادر على خلق الشيء وخلافه وابتداع زوجين من كل شيء.

فالأصل في الابتداع هو الشيء وزوجه، وهذا المفهوم العام إن قاربناه مع لغة البرمجة والمفهوم العام للآية؛ نجد مفهوم الآية ينداح فيحتوي بذلك لغة البرمجة، التي أساس بنائها هو الزوج الرقمي (الصفر/ والواحد)(0-1)

ب- **العمليات الحسابية في القرآن الكريم:** وردت في القــرآن الكــريم مختلــف العمليات الحسابية، والتي هي أساس عمل الحاسوب، وبنـــاء عليهـــا تـــتم عمليـــات المعالجة الآلية لمختلف البيانات المودعة بالعقل الإلكتروني، بكل دقة وسرعة تفــوق سرعة أداء الإنسان وهي عمليات (الجمع - والطــرح - والضــرب - والقســمة) نوردها كما يلي:

عملية الجمــع: يقــول تعــالى: ﴿ ۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ الأعراف، الآية142

40=10+30

ويقول تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾البقرة، الآية 196

10=7+3

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ **ثَلَاثَ مِائَةٍ** سِنِينَ **وَازْدَادُوا تِسْعاً**﴾الكهف، الآية2

نجد صيغة الجمع التالية: **300+ 9**

كذلك قوله تعــالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴾سورة ص، الآية 23

1+99

عمليّة الطرح:

يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴾العنكبوت، الآية14

950= 50-1000

عمليّة الضرب:

يقول تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾البقرة، الآية261

700=100*7

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴾الأنفال الآية 65

200=10*20

1000=10*100

عمليّة القسمة:

يقول تعالى: ﴿ وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ﴾ القمر ،الآية28

ورود مصطلح القسمة بسورة القمر.

وفي قول تعالى: ﴿ وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾البقرة، الآية 237.

نصف المهر= المهر/2

– العمليات الحسابية الوارد ذكرها في القرآن الكريم من (جمع، وطرح، وقسمة وضرب) وغيرها من المفاهيم الحسابيّة والرّياضيّة؛ هي أساس اشتغال الحاسوب

والعقل الإلكتروني، بهدف معالجة البيانات لإنتاج مخرجات يبتغيها المستخدم، بناءً على التعليمات المودعة في ذاكرة الحاسوب.

ت- شبكات الأنترنت، والتّواصل الاجتماعي الإلكتروني:

يقول تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات، الآية13.

والشّعوب التي أتى ذكرها بالآية الكريمة واحدها شَعْبٌ؛ وهو الحي العظيم المنتسب إلى أصل واحد...وسمي الشعب شعبا لتشعب القبائل منه كتشعب أغصان الشجرة[17] وقد حضّ الله تعالى على التعارف بين الشعوب والقبائل، لحصول التعاون بينهم، وهي من أهم مقاصد ديننا الحنيف.

وشبكات الأنترنت والتواصل الاجتماعي؛ مطيةُ شعوب العالم المعاصر للتعارف فيما بينهم، ولقضاء حوائجهم، ومصالحهم، في واقع غدا فيه العالم قرية صغيرة وغدت فيه التقانات الملاذ والفلات والوسيلة والمهاد، لتحقق التعارف بين الشعوب والقبائل. هذه مقاربة بين الآية الكريمة وغايتها من التعارف والتقارب بين بني البشر، وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات التي من أهم غاياتها التواصل والتعارف بين الناس من مختلف الأجناس والأديان، والجنسيات. (والله تعالى أعلى وأعلم) ناهيك عن لغة الأرقام، التي شكلت محطات بحث كبيرة من قبل العديد من الباحثين والدارسين، الذين أذهلتهم الدقة البالغة، والعبقرية الفائقة المعجزة، التي لا تضاهيها قدرة أخرى في كيفية عرضها ونظمها وإعجازها.

5- **الخاتمة:** هذه بعض المفاهيم المنتقاة من لغة الحساب والحوسبة المتضمنة في القرآن الكريم، والتي استوقفتني في بحثي فجمعتها، ورتبتها، ونظمتها، بشكل تَقاربيّ بين مفاهيم قرآنية وأخرى تكنولوجيّة معاصرة، نستجلي من خلالها معجزة الذكر الحكيم، وعبقرية لغة التّبيين، التي أقرها القرآن الكريم، ألا وهي اللغة العربية.

وقد انبجست الدراسة على مجموعة من النتائج، نجملها في ما يلي:

- كشفت الدراسة أنّ للألفاظ بالقرآن الكريم خصوصية تتمثل في؛
- جِدَّة في جذره او اشتقاقاتها، وغالبا ما تكون معربة عن لغات أخرى؛
- جدّة في اشتقاق اللفظ، لكنّهم أخوذ من جذر لغوي عرفه العرب من قبل
- جدة اللفظ المعنوية دون اللفظيّة؛ وهذا النوع من الألفاظ عرفه العرب بشكله دون مضمونه الجديد، وهذا كثير جدا بالقرآن الكريم؛
- أكّد البحث أنّ اللفظ قد يرتقي من مرحلة الجِدّة والابتكار، إلى مرحلة أكثر غنى وتفاعلا مع الحياة اليوميّة؛ وهي مرحلة الاستقرار، والشيوع، وكثرة التداول. في سمو بهذا إلى مستوى (المصطلح)؛
- بينت الدراسة أنّ المعنى المجازي الذي يضفيه القرآن الكريم على اللفظ يمنحه بذلك قوة الصورة البيانية، وربما خفي علينا مع مرور الزمن المعنى الأصلي للّفظة، حتى لنظن أن اللفظ ولد وهو يحمل هذا المعنى؛
- توقفت الدراسة عند بعض الألفاظ الجديدة المبتكرة بالقرآن الكريم، التي لم يسمعها العرب قبل نزول الوحي، لكنهم تقبلوها وفهموها؛
- عرضت الدراسة لبعض من مفاهيم الحوسبة الوارد ذكرها بالتنزيل الحكيم مع بيان الآيات الدالة عليها، ومقاربتها بمفاهيم تكنولوجيا المعلومات والاتصالات من ذلكم:
- نظام العد الثنائي (0-1)؛ فالأصل في الابتداع كما ورد بالقرآن الكريم هو الشيء وزوجه، وهذا المفهوم يقارب في مفهومه العام لغة البرمجة؛
- العمليات الحسابية (الجمع - والضرب - والقسمة - والطرح) ورد ذكرها بالقرآن الكريم، وهي أساس اشتغال الحاسوب، والعقل الإلكتروني؛
- مفهومي شبكات الأنترنت، والتواصل الاجتماعي، ومقاربتهما بمفاهيم موجودة بالقرآن الكريم؛

وبهذا العمل المتواضع؛ نفتح المجال لبحوث أخرى أكثر عمقا، وأدق تفصيلا للإفصاح عن معان جليلة بالقرآن الكريم، هي مهد لتصورات التقانة المعاصرة وتكنولوجيا المعلومات.

وأخيرا نقول؛ أنّ معجزة القرآن الكريم معجزة عقلية خالدة إلى الأبد، لا يحدها مكان ولا زمان، مستمرة متجددة بتجدد الأجيال والأزمان، إلى يوم يبعث الله الأرض ومن عليها.

الهوامش:

1- ينظر: محمد رشيد رضا، الوحي المحمدي، دار الكتب-الجزائر- ط3، 1989 ص163.

2- جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت 1996، ص 311.

3- ينظر: محمد متولي الشعراوي، المنتخَب من تفسير القرآن الكريم، الجزء الأول دار العودة بيروت، دط، 1981، ص9-10.

للاستزادة: هاشم محمد سعيد دفتر دار المدني، معجزات قلب القرآن، دار الشروق جدة، ط4 1989، ص109-110.

4- ينظر: المرجع نفسه، ص11.

5- ينظر: محمد عبد الشَّافي القُوصِي، عبقرية اللغة العربية، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة إيسيسكو 1437 ه / 2016 م، الرباط المملكة المغربية، ص08.

6- ينظر: المرجع نفسه، ص14.

7- أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، الجزء الثالث، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان- ط2، 1985، ص 12.

8- المرجع نفسه، ص14.

9- المرجع نفسه، ص 13.

10- ينظر: أحمد بسام ساعي، المعجزة إعادة قراءة الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، ظواهر التجديد في لغة القرآن الكريم، الجزء الأول، المعهد العالمي للفكر الإسلامي -أمريكا، الطبعة الأولى 1433 هـ- 2012 م، ص185.

11- ينظر: المرجع نفسه، ص188.

12- ينظر: المرجع نفسه، ص190-191.

13- ينظر: المرجع نفسه، ص191.

14- ينظر: المرجع نفسه، ص191.

15- ينظر، المرجع نفسه، 195-196.

16- ينظر: أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، الجزء27، ص10.

17- ينظر: المرجع نفسه، الجزء26، ص142.

القرائن الخارجة عن النص القرآني، ودورها في التأويل عند الإمام الشاطبي في الموافقات

داه. الدباغي أحمادو
مديرية الشؤون الدينية والأوقاف، أدرار

الملخص: لا يمكن فهم مراد الله من كلامه بالاقتصار على تحديد الدلالات اللغوية لألفاظ القرآن الكريم، أو تفكيك وإعادة تركيب جمله.

بل يحتاج فهم مراد الله من القرآن الرجوع إلى السياق العام للقرائن المختلفة سواء كانت قرائن لغوية، أو ثقافية، أو قرائن العادات والتقاليد زمن التنزيل؛

وبسبب إهمال سياق القرائن المختلفة لفهم القرآن الكريم، والاقتصار على ألفاظه وتراكيبه، انحرفت طوائف كثيرة في فهم القرآن وتأويله.

ومن العلماء الذين أبدعوا في بيان ذلك، الإمام الشاطبي –رحمه الله– في موافقاته عند الحديث عن الدليل الأول من أدلة الشريعة الذي هو القرآن، وعند الحديث عن مقاصد الشريعة، وفي كتاب الموافقات بصفة عامة.

يعالج البحث ما يلي:

– أمية العرب: لقد خاطب القرآن أمة أمية، كما أشار إلى ذلك في عدة آيات وفهم القرآن يتطلب فهم عقلية الأميين الذين خاطبهم هذا القرآن.

– علوم العرب: لقد كانت لدى العرب –زمن نزول القرآن– بعض العلوم والمعارف، كعلم النجوم، ومبادئ من علوم الطب وغيرها.

وفهم القرآن يتطلب أن يكون في هذا السياق العام لعلوم العرب.

– ثقافة العرب: لمجتمع العرب–كغيره من المجتمعات الإنسانية–نسق ثقافي يعبر عن عادات وتقاليد وأعراف العرب.

حكم هذا النسق الثقافي علاقات المجتمع العربي، في جانبها الاجتماعي والديني والثقافي وغيرها.

وعلى مفسر القرآن أن يراعي هذا النسق الثقافي العربي العام، وهو يفسر القرآن، وأن يفهمه في هذا الاطار.

- أخلأق العرب: لقد عرف العرب زمن التنزيل القرآني أخلاقا، بعضها حسن أقره الإسلام، وبعضها غير ذلك نهى عنه.

ففي هذا السياق الأخلاقي نزل القرآن مقررا للحسن منه، ومزيل للسيء وضمن ذلك ينبغي أن يفهم القرآن.

المقدمة: النص، أي النص -كالكائن الحي- مرتبط ببيئة، لا ينفصل عنها ولا ينفك، تشده -النص- إلى بيئته روابط وخيوط، يمكن تسميتها بالنسبة للنص القرآني بالقرائن، وبتفعيل هذه الروابط والقرآئن يُفَعَّل النص، وتستنبط منه المعاني الصحيحة.

إشكالية المداخلة: هل يتطلب فهم القرآن وتفسيره -فقط- توضيح معاني الكلمات والمفردات، وتراكيب الجمل حسب قاموس الألفاظ والمعاني، أم لا بد من استحضار عناصر أخرى، منفصلة عن النص القرآني كمنظومة لغوية، متكونة من مفردات وجمل؟

بمعنى آخر، هل يستطيع أن يفسر القرآن، من لا يعرف المجتمع العربي وتقاليده بالاقتصار على توضيح معاني الجمل، والكلمات.

وكيف عالج الشاطبي هذه المسألة، أي مسألة القرائن الخارجة عن النص، من خلال كتاب الموافقات؟

القرآن الكريم، نزل في بيئة اجتماعية، وثقافية، وسياسية. واقتصادية..إلخ؛ لذلك راعى القرآن في خطابه كل ذلك.

وهذا يعني أن على مفسِّر النص القرآني، أن يضع كل ذلك في حسبانه وهو يفسر ذلك النص.

فمن لا يعرف المجتمع العربي بعلومه، وثقافاته، وتقاليده، وأخلاقه، لن يفهم القرآن فهما صحيحا.

والأكثر معرفة بمجتمع العرب، هو الأدق فهما لكتاب الله –تعالى–؛ لذا كان الصحابة أفقه من غيرهم بمعاني القرآن ومقاصده، باعتباره نزل في البيئة التي عاشوا فيها.

فاللغة التي يتخاطب بها البشر ليست ألفاظا ومبان فقط، بل هي تقاليد وأعراف وغيرها، وأبناء المجتمع الواحد أكثر فهما لبعضهم من غيرهم، حتى ولو اشترك معهم هذا الغير ألفاظ ومباني اللغة، ما دام لا يشاركهم العناصر الأخرى، التي هي التقاليد والأعراف..إلخ، وربما حتى المشاعر والأحاسيس.

فهذه العناصر كلها قرآئن في عقل المفسر، قد لا يصرح بها، لكنها حاضرة بالضرورة في ذهنه وهو يفسر النص؛ لأن المخاطِب قد وضعها في الحسبان، وهو يخاطب مجتمعا ما، بكلام ما.

فقد يتسآءل البعض –مثلا– لماذا ركز القرآن في ترسيخ العقيدة الإسلامية، على الحديث عن الإرض، والسماء، والجبال، والإبل، والبحر، وغيرها مما تعرفه العرب دون ذكر أشياء أخرى لا تعرفها العرب؛ والسبب أن القرآن خاطب العرب بالأشياء التي تعرفها العرب.

فالذي يرى خطاب جميع المجتمعات، بالعقيدة الإسلامية، من خلال الاقتصار على نفس الظواهر الطبيعية، التي خاطب بها القرآن العرب، لم يفهم القرآئن التي وضعها القرآن في حسبانه وهو يدعو إلى عقيدة التوحيد.

فالتذكير بعظمة الله في خلق ظواهر طبيعية، تعرفها العرب، وسائل لترسيخ العقيدة، وليست غايات؛ لذلك لا مانع من التذكير بعظمته في خلق ظواهر طبيعية أخرى، او حيوانات لم يذكرها القرآن؛ لأن العرب لم تكن تعرفها، مثل حيوان التمساح، أو غيره، بدل التذكير بعظمته في خلق البعير في مجتمع لا يعرف أهله

البعير -مثلا-، أو التذكير بعظمته في خلق البراكين، أو ظواهر جيولوجية غير موجودة في البيئة العربية.

بل هناك ظاهرة فلكية، لم تسمع بها العرب قط، وهي بقاء الليل، أو النهار نصف سنة، فلِم لا يتم توظيف هذه الظاهرة في الحديث عن الخالق، وهي ظاهرة لم يجد الفقهاء نصا شرعيا لبيان حكم الصوم والصلاة فيها، إلا حديث الدجال، الذي هو حديث عن الغيب، مما يؤكد مراعاة النص الشرعي لقرائن مرتبطة بعلم، وثقافة وأخلاق، وتقاليد المخاطبين به.

وحتى وإن كانت التكنولوجية في هذا العصر قد جعلت هذا الكوكب القرية واحدة لا تخفى فيه ظاهرة فلكية، عن أحد موجود على سطحه، فإن المقصود هو إيضاح مسألة القرآئن في الخطاب القرآني.

أمر آخر يمكن إيراده في هذا الصدد، وهو لماذا ذكَّر القرآن العرب بكون هذا الدين، هو ملة إبراهيم، أليس كذلك هو ملة موسى، وملة يوسف وغيرهما من الأنبياء.

السبب أن العرب تعرف بقية من بقايا دين إبراهيم، وتتمسك بها، فراعى القرآن هذا الواقع؛ من أجل إيناسهم وتأليف قلوبهم.

فلا ضير لمن يخاطب غير العرب بالإسلام، أن يؤنس قلوبهم بكون هذا الدين هو دين النبي والرسول الذي يعرفون.

كذلك يمكن إيراد -في هذا الصدد- سبب اقتصار القرآن الكريم، في حديثه عن نعيم الجنة على بعض أنواع النعيم والثمار، التي يتمتع بها الناس في هذه الدنيا، دون ذكر أنواع أخرى من النعيم موجودة في هذه الحياة، وهي من النعيم، كالموز والتفاح وكالشاي البن وغيرها؛

والسبب أن العرب لم تكن تعرف هذه المآكل والمشارب، فأجمل القرآن الإشـــارة إليها دون تفصيل، أو تمثيل لها، كما قال -تعالى-: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾[1].

فالذي لا يعرف المجتمع العربي، أو لا يراعي هذا المجتمع في التفسير، قد يذهب إلى القول، أن أنواع النعيم، التي لم يذكرها القرآن، ليست موجودة في الجنـــة، ولـــو كانت فيها لذكرها، كما ذكر أنواعا من النعيم، وهذا شطط وانحراف؛ سببه جهل مـــا تعرفه العرب من أنواع الثمار والفواكه.

وقبل إنهاء الحديث في هذه المقدمة، لا بد من الإشارة إلى أن الكلمة قد يكون لهـــا مدلول في سياق ما، ومدلول مغاير في ساق آخر، وســـياق الكـــلام، مـــن القـــرآئن الخارجة عن النص.

ومثال ذلك: العين، التي تطلق على الجارحة في سياق، وعلى عـــين المـــاء فـــي سياق آخر، وعلى الجاسوس في سياق ثالث.

ولتحديد معنى الكلمة لابد من معرفة سياقها، ليس فقط اللفظي، بل وغير اللفظـــي فذكر العين بين الجواسيس لا تعني العين في هذا السياق إلا الجاسوس.

ولئن كان أهم مقصد يطلب من تأويل النص القرآني، هو مقصد دخول المكلـــف تحت خطابه، فهدف أي تأويل له، هو تحقيق هذا الأمر؛ من أجل أن يمتثل المكلـــف له؛

وذلك لاستحالة امتثال أحد لخطاب لا يفهممه.

ومعرفة الأشياء -والتي هي قرآئن- التي وضعها القرآن فـــي اعتبـــاره، وهـــو يخاطب المكلفين بأوامره ونواهيه أمر شارح لمقاصد ومراميه.

والقرآئن التي على مفسِّر النص القرآني مراعاتها عنـــد الإمـــام الشـــاطبي فـــي موافقاته، يمكن حصرها في أربعة قرآئن، وهي موضوع المداخلة.

والقرآئن هي:

أمية العرب، وعلوم العرب، وثقافة العرب، وأخلاأق العرب.

التمهيد:

I- الإمام الشاطبي: من العلماء الأفذاذ المبدعين، والمنظرين للاجتهاد، في علوم الشريعة عموما، وفي مقاصدها وحكمها خصوصا الإمام الشاطبي في كتبه عامة وفي كتاب الموافقات خاصة.

01- الإمام الشاطبي هو: "إبراهيم، بن موسى، بن محمد، اللخمي، الغرناطي أبو إسحاق، الشهير بالشاطبي"[2].

02- مولده ونشأته: لم يلق مترجموه الأضواء على نسبه وأسرته، ولم يذكروا سنة ولادته"[3]، وذكروا سنة وفاته التي كانت في شعبان سنة 790ه[4]، وقد وُلِد ونشأ في غرناطة[5]، غرناطة التي كانت "في ذلك العصر، أعظم مركز للدراسات العلمية والأدبية في مغرب العالم الإسلامي"[6].

وقد شَغُف الشاطبي بالعلم منذ صغره[7].

03- شيوخه وتلاميذه: للإمام الشاطبي شيوخ، وتلاميذ، من الفقهاء، والعلماء مشهورين ومعروفين.

أ- شيوخه: أخذ الإمام الشاطبي العلم عن أئمة أعلام منهم:

- ابن الفخار البيري، أخذ عنه العربية[8].
- "الإمام الشريف رئيس العلوم اللسانية أبو القاسم السبتي شارح مقصورة حازم"[9].
- "الإمام المحقق أعلم أهل وقته الشريف أبو عبد الله التلمساني"[10].
- "الإمام علامة وقته بإجماع أبو عبد الله المقري "[11].
- أبو سعيد بن لب[12].
- أبو جعفر الشقوري[13].

ب- تلاميذه: أخذ عن الإمام الشاطبي علماء منهم:

- أبو يحي بن عاصم[14].

- القاضي أبو بكر بن عاصم أخو يحي بن عاصم[15].
- أبو عبد الله البياني[16]

04- مكانته العلمية ومواقفه الإصلاحية: للإمام الشاطبي مكانة علمية عالية ومواقف إصلاحية بارزة، أرّخ لها العلماء وبينوها.

أ-مكانته العلمية: الإمام الشاطبي من الأئمة الكبار، الذين أشاد بمكانتهم وعلو شأنهم أعلام الفكر الإسلامي منذ ما بُعَيد عصر الشاطبي إلى اليوم.

جاء في نيل الابتهاج:

"الإمام، العلامة، المحقق، القدوة، الحافظ، الجليل، المجتهد.

كان أصوليا، مفسرا، فقيها، محدثا، لغويا، بيانيا، نظار,ا ثبتا......إماما، مطلقا بحاثا، مدققا، جدليا، بارعا، في العلوم، من أفراد العلماء المحققين الأثبات، وأكابر الأئمة المتفننين الثقات، له القدم الراسخ، والإمامة العظمى، في الفنون فقها وأصولا وتفسيرا، وحديثا، وعربية، وغيرها مع التحري والتحقيق.

له استنباطات جليلة، ودقائق منيفة، وفوائد لطيفة، وأبحاث شريفة، وقواعد محررة"[17].

ومن المعاصرين الذين أشادوا بالشاطبي مصطفى أحمد الزرقاء الذي يقول:

"إن الشيخ الإمام أبى إسحاق إبراهيم الشاطبي، قمة علمية متميزة، بخصائصها في علوم الشريعة"[18].

ويقول أبو الأجفان: "كان إبراهيم الشاطبي من ألمع أعلام عصره بالأندلس، يتبوأ مكانة علمية سامية، ويمتاز بتعمقه في علوم العربية، وعلوم الشريعة، مما خول له استكناه أسرارها، وإبراز مقاصدها، وضبط قواعدها، وربط فروعها بأصلها"[19].

أما مكانته في التقوى، فقد عُرف بالصلاح والورع، فقد وصفه التنبكتي بقوله:

"...ورعا صالحا زاهدا..............................على قدم راسخ من الصلاح، والعفة، والتحري، والورع"[20].

ب- منهجه العلمي: تميز منهج الإمام الشاطبي العلمي في موافقاته بالإستقراء الكلي لنصوص الشريعة، وبيانها، اعتمادا على أطراف القضايا العقلية، كما ذكر هو نفسه حيث قال:

"...معتمدا على الاستقراءات الكلية، غير مقتصر على الأفراد الجزئية، ومبينا أصولها النقلية بأطراف من القضايا العقلية"[21].

ج- مواقفه الإصلاحية: لم يكن الشاطبي عالما من علماء الشريعة -فقط-، بل كان عالما، ومفكرا، ومصلحا في نفس الوقت، عُرفت له مواقف في الإصلاح خاصة في محاربة البدع.

يقول محمد أبو الأجفان: ".. وانتشار بعض البدع التي كان الشاطبي يحس بخطرها، ويميزها عن السنن المشروعة، ويوضح الأدلة على تحريمها، ويجري بذلك في مقاومتها على المنهج العلمي الرشيد، والطريق الشرعي المستقيم"[22].

يقول أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان:

"......إشارة إلى ارتباط موضوعه بالنظرية الإصلاحية التي ظهر بها مؤلفه في القرن الثامن للهجرة، والتي كانت الباعث على هذا التأليف، فقد رأى أن البدع هي التي فرقت المسلمين وجعلت دينهم شيعا"[23].

05- مؤلفاته وفتاوه: للإمام الشاطبي مؤلفات مشهورة، ومعروفة، وفتاوى منتشرة، ومتداولة.

أ- مؤلفاته: مؤلفات الإمام الشاطبي قليلة، تعد على أصابع اليد، لكنها قليلة النظائر من حيث الجدة، والعمق، والاحاطة، والابداع.

ذكر مؤلفات الشاطبي أكثر من مترجم له، وممن ذكرها صاحب نيل الابتهاج بتطريز الديباج[24]، وهي:

- الموافقات: وسيأتي حديث أكثر تفصيلا عنها.

- المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية: وهو كتاب حققه، الدكتور عبد الرحمن بن سليمان العثيمين.

جاء في نيل الابتهاج: ..منها شرحه الجليل، على الخلاصة في النحو، في أسـفار أربعة كبار، لم يؤلف عليها مثله، تحقيقا، وتدقيقا، فيما أعلم"[25].

– الاعتصام: وقد طُبع الكتاب الاعتصام عدة مرات، منها طبعة، قدم لها وعلـق عليها، وخرَّج أحاديثها، أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان.

وذكره صاحب نيل الابتهاج بقوله: "وتأليف نفيس في الحوادث والبدع فـي سـفر في غاية الإجادة"[26]

– الإفادات والإنشادات: وقد درس وحقق كتاب الإفادات والإنشـادات: الـدكتور محمد أبو الأجفان (ط1 1403هـ 1983م مؤسسة الرسالة بيروت لبنان).

– كتاب المجالس شرح في كتاب البيوع من صحيح البخاري[27].،

– كتاب الاتفاق في علم الاشتقاق

– وكتاب أصول النحو

وقد جاء ذكر هذين الكتابين الأخيرين في نيل الابتهاج بتطريز الديباج[28].

ب– فتاوه: للإمام الشاطبي فتاوى في القضايا والنوازل التي طرأت في عصـره وحدثت في زمانه.

يقول الدكتور محمد أبو الأجفان:

"أنجبت غرناطة في القرن الثامن طبقة من المفتين..............

وكان مترجَمنا من ألمع أفراد هذه الطبقة بفتاوه، التي دلت علـى سـعة وإلمـام بالمنقول، وحسن اكتناه لمقاصد الشريعة وأسرارها، وقد تناولت الإجابة على مسـائل من العبادات....وتناولت الإجابة عن مسائل من المعاملات"[29].

ونقل الإمام الونشريسي بعض فتاوى الإمام الشاطبي في معياره، شـملت معظـم أبواب الفقه، من عبادات، ومعاملات، وشملت أيضا مسائل في الأصول، كمـا فـي مسألة مراعاة[30] الخلاف[31].

II- كتاب الموافقات.

من الكتب التي تقل نظائرها كتاب الموافقات؛ فلا تكــاد تجــد لـــه نظيــرا فـــي موضوعه.

01- اسم الكتاب: كتاب الموافقات أشهر كتب الإمام الشاطبي، وقد أبدع الإمـــام الشاطبي في هذا الكتاب، خاصة في تأسيس وبيان مقاصد الشريعة.

وتحدث الإمام الشاطبي عن تأليف هذا الكتاب فقال:

"... ثُمَّ اسْتَخَرْتُ اللَّهَ تَعَالَى فِي نَظْمِ تِلْكَ الْفَرَائِدِ، وَجَمْعِ تِلْكَ الْفَوَائِدِ، إِلَى تَــرَاجِمَ، تَرُدُّهَا إِلَى أُصُولِهَا، وَتَكُونُ عَوْنًا عَلَى تَعَقُّلِهَا وَتَحْصِــيلِهَا؛ فَانْضَــمَّتْ إِلَـــى تَــرَاجِمِ الْأُصُولِ الْفِقْهِيَّةِ، وَانْتَظَمَتْ فِي أَسْلَاكِهَا السَّنِية الْبَهِيَّةِ؛ فَصَارَ كتابا منحصرا في خمسة أقسام"[32].

وقد سماه في البداية، "عنوان التعريف بأسرار التكليف"[33]، ثم غير هــذه التســمية إلى الموافقات؛ بسبب رؤيا منامية رأها كما ذكر هو في الموافقات[34].

02- أقوال العلماء فيه: كتاب الموافقات "من ركائز التراث الأساسية -كما يرى مصطفى أحمد الزرقاء- التي يلجأ إليها أساتذة الشريعة وطلابها المتقدمون، تفهما في دراستهم، وعزوا وتوثيقا لأفهامهم فيما يكتبون.................. ....

فقد ألقى كتاب الموافقات، نورا كاشفا، في طريق دراسة الفقه وأصوله"[35]

وجاء في نيل الابتهاج:

"الموافقات........كتاب جليل القدر، لا نظير له، يدل على إمامته، وبعد شأوه في العلوم، سيما علم الأصول"[36].

III- القرائن: من المصطلحات التي تتطلب المداخلة شرحها وبيانهــا مصـــطلح "القرائن"

01- تعريفها: القرائن جمع قرينة، والْقَرِينَة لغة:

"فَعِيلَة بِمَعْنَى مَفْعُولَةٍ مِنَ الاقتِران، وَقَدِ اقْتَرَنَ الشَّيْئَانِ وتَقَارَنا"[37].

والقرينة هي: "مَا يُوضح عَن المُرَاد، لَا بِالْوَضْعِ، تُؤْخَذ من لَاحق الْكَلَام الدَّال عى خُصُوص الْمَقْصُود، أَو سابقه"[38].

والقرينة "في الاصطلاح: أمر يشير إلى المطلوب"[39]

وقد تناولت القرينة اصطلاحا عدة علوم "مثل علم الاجتماع، وعلم النفس والقانون، وعلوم اللغة"[40].

والتعريف الذي يحدد معنى القرينة بدقة في سياق المداخلة، هو ما ذكره صاحب التمهيد في أصول الفقه، فقد جاء فيه:

"القرينة هي بيان لما أريد باللفظ، في عرف الشرع والعادة"[41].

فمعنى القرينة هي علامة، أو إشارة، تحدد مراد المتكلم من كلامه، وهذه الإشارة قد تكون من داخل الكلام، أي من سياق ألفاظه، وجمله، ومبانيه عامة، وقد تكون – هذه الإشارة– من خارج النص.

وموضوعنا القرآئن التي هي من خارج الكلام، ومرتبطة بعلوم وثقافة وتقاليد العرب.

02– أقسامها:

قسم العلماء القرائن إلى ثلاثة أقسام:

قرينة لفظية، وقرينة معنوية، وقرينة الحال[42].

وجاء تقسيمها في بعض كتب الأصول إلى:

"إما لفظية، وإما سياقية، وإما خارجية"[43].

أ– **القرينة اللفظية:** المقصود بالقرينة اللفظية[44] تحديد المعنى من داخل اللفظ، أو ما يطلق عليه في علم اللغة المعاصر السياق اللساني[45].

مثالها:

"العود مشترك بين الخشبة – وجمعه إذ ذاك أعواد – وبين آلة الغناء – وجمعه إذ ذاك عيدان.

وكذلك الأمر مشترك بين القول المخصوص – وجمعه إذا ذاك أوامــر – وبــين الفعل – وجمعه إذ ذاك أمور"[46].

أي يُحَدَّد معني الكلمة، أو الكلام من شيء مرتبط بذات اللفظ، كجمع المفرد – مثلا–.

فجمع المفرد هو الذي يحدد المراد والمقصود منه.

ب– القرينة السياقية[47]

يمكن تقسيم سياق الكلام بالنسبة لنصوص القرآن، إلى سياق كلمة، وسياق جملــة وسياق سورة، وسياق القرآن كله، أو سياق القرآن مع السنة.

فمن الألفاظ مالا يمكن تحديد معناه إلا بالرجوع للسورة كلها، وأحيانا إلى القــرآن كله، وأحيانا أخرى إلى نصوص الكتاب والسنة معا، كلفظ الصلاة، والزكاة، والصوم وغيرها، ولا يتسع المقام لشرح ذلك.

ويمكن عد القرينة السياقية، والقرينة اللفظية، نوعا واحدا؛ لأنها في النهاية تعنــي تحديد معنى الكلام من داخله، وذلك في مقابل القرينة الخارجية، التي لا يمكن تحديــد معنى الكلام فيها إلا بأمر خارجي عن الكلام.

د– القرينة الخارجية[48].

المقصود بالقرينة الخارجية، هي الأمور الخارجة عن النص، والتي لابــد منهــا لتحديد معنى النص، وهي كثيرة، بعضها يفرضها العقل والمنطق، كما فــي قولــه– تعالى–:

(وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ)[49]. فالعقل والمنطق يفرض معنى غير الذي يوحي به ظاهر اللفظ المجرد، وهو توجيه السؤال إلى القرية ذاتها؛ فالقرية –الأبنيــة، والــدور، و...– لا تسأل، وإنما يسأل أهلها.

وهذا هو المقصود بالقرآئن الخارجة عن النص، ودورها في التفسير.

وأهم قرينة يتم توظيفها في هذا السياق، طريقة العرب فــي التخاطــب، وبيئــتهم العلمية، والثقافية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية......إلخ.

IV – النص: من المصطلحات المطلوب بيانها وتوضيحها في هــذا الموضــوع مصطلح "النص"

01– تعريفه:

أ– لغة: يطلق النص لغة على معان منها:

"نَصَصْتُ الحديث الى فلان نَصّاً أي رَفَعْتُه"[50]، و"نَصَّ ما عنــده أي استقصـــاه. ونصُّ كلّ شيءٍ: مُنتَهاه"[51].

ب– اصطلاحا:

النص اصطلاحا هو: "ما دل على معناه بصيغته من غيــر توقــف علـــى أمـــر خارجي، مع احتمال التخصيص، والتأويل، احتمالا، أضعف، من احتمال الظاهر"[52].

وعرفه البزدوي بقوله:

"وأما النَّصُّ:

فَمَا ازداد وُضُوحًا عَلَى الظَّاهِرِ، بِمَعْنًى مِنْ الْمُتَكَلِّمِ لَا فِي نَفْسِ الصِّــيغَةِ، مَــأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِمْ:

نَصَّصْت الدَّابَّةَ، إذَا اسْتَخْرَجْت بِتَكَلُّفِك مِنْهَا سَيْرًا، فَوْقَ سَيْرِهَا الْمُعْتَــادِ، وَسُــمِّيَ مَجْلِسُ الْعَرُوسِ مِنَصَّةً؛ لِأَنَّهُ ازْدَادَ ظُهُورًا عَلَى سَائِرِ الْمَجَالِسِ"[53].

فقوله:

"فَمَا ازداد وُضُوحًا عَلَى الظَّاهِرِ، بِمَعْنًى مِنْ الْمُتَكَلِّمِ لَا فِي نَفْسِ الصِّيغَةِ"

أي: لبيان مراد المتكلم لا بد من اللجوء إلى أمر من خارج صيغة النص؛ لقرينـــة من القرآئن الخارجية، وهي كثيرة –كما سبق–.

02– المقصود به:المقصود بالنص، في المداخلة هو النص القرآنـــي[54]، الـــذي يُنظَر إليه من زاويتين:

أ– زاوية كونه كلام الله، لا دخل للبشر في وضعه، لا من حيث اللفــظ والجمــل ولا من حيث المعاني، وهو من هذا الجهة معجز، لا يستطيع بشر أن يأتي بمثله.

ب- زاوية كون المخاطبين به بشرا، فهو من هذه الزاوية، ككل كلام يفهمه البشر، فهو ميسر للبشر من حيث القدرة على ترديده وتلاوته، أو من حيث فهم معانيه ومقاصده، كما قال -تعالى-:

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[55].

وفي هذه الزاية يأتي الحديث عن القرائن الموضحة لمعنى القرآن.

أولا: أمية العرب: أهم مقاصد الخطاب القرآني خصوصا، والشرعي عموما بيان التكاليف التي يطلب من العباد امتثالها، فعلا أو تركا.

ولا يمكن تطبيق أي خطاب، إذا لم يفهم محتواه، ويتضح مضمونه، وحول هذا الأمر ذكر الشاطبي أربعة مقاصد لوضع الخطاب الشرعي، وفي مقدمته الخطاب القرآني.

قال الشاطبي: ".. من جهة قصده لوضع الشريعة ابتداء، وقصده في وضعها للأفهام بها، وقصده في وضعها للتكليف بمقتضاها، وقصده في دخول المكلف تحت حكمها"[56].

وما دام القصد الأول للخطاب القرآني هو العمل بمقتضى تكاليفه، فأول ما راعاه هذا الخطاب، هو أمية المخاطبين به، وقد تكرر الحديث عند الشاطبي في موافقاته على هذه المسألة،

فقال في عدة مواضع من كتاب الموافقات:

"الشَّرِيعَةَ أُمِّيَّةٌ، لَمْ تَخْرُجْ عما ألفته العرب"[57].

"وَمِنْهَا:

أَنْ تَكُونَ التَّكَالِيفُ الِاعْتِقَادِيَّةُ، وَالْعَمَلِيَّةُ، مِمَّا يَسَعُ الْأُمِّيَّ تَعَقُّلُهَا؛ لِيَسَعَهُ الدُّخُولُ تَحْتَ حُكْمِهَا.

أَمَّا الِاعْتِقَادِيَّةُ -بِأَنْ تَكُونَ مِنَ الْقُرْبِ لِلْفَهْمِ، وَالسُّهُولَةِ عَلَى الْعَقْلِ، بِحَيْثُ يَشْتَرِكُ فِيهَا الْجُمْهُورُ، مَنْ كَانَ مِنْهُمْ ثَاقِبَ الْفَهْمِ، أَوْ بَلِيدًا-، فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ مِمَّا لَا يُدْرِكُهُ إِلَّا

الْخَوَاصُّ، لَمْ تَكُنِ الشَّرِيعَةُ عَامَّةً، وَلَمْ تَكُنْ أُمِّيَّةً، وَقَدْ ثَبَتَ كَوْنُهَا كَـذَلِكَ، فَلَـا بُـدَّ أَنْ تَكُونَ الْمَعَانِي الْمَطْلُوبُ عِلْمُهَا وَاعْتِقَادُهَا سَهْلَةَ الْمَأْخَذِ"[58].

"فالتعمق في البحث فيها، وتطلب ما لا يشترك الجمهور في فهمه خـروج عـن مقتضى وضع الشريعة الأمية "[59].

ومن سياسات القرآن في خطاباته –كما ذكر الشاطبي– مراعاة معهود الأميين في كلامهم وحديثهم، فقال:

"وَمِنْهَا:

أَنَّهُ لَا بُدَّ فِي فَهْمِ الشَّرِيعَةِ مِنِ اتِّبَاعِ مَعْهُودِ الْأُمِّيِّينَ، وَهُمُ الْعَرَبُ الَّذِينَ نَزَلَ الْقُـرْآنُ بِلِسَانِهِمْ.

فَإِنْ كَانَ لِلْعَرَبِ فِي لِسَانِهِمْ عُرْفٌ مُسْتَمِرٌّ، فَلَا يَصِـحُّ الْعُـدُولُ عَنْـهُ فِـي فَهْـمِ الشَّرِيعَةِ"[60].

وذكر الإمام الشاطبي من أسباب انحراف الفرق الضـالة، وشـطط الجماعـات الخارجة عن جمهور المسلمين من أهل السنة والجماعة، هو تكلف مالا يسع عمـوم الناس فهمه، فقال:

"ومن طماح النفوس إلى ما لم تكلف به نشأت الفرق كلها أو أكثرها"[61].

وما دام القرآن راعى أمية العرب في خطابه، فالمطلوب تفسيره بمعنى تقريبـي يدركه الجمهور من الناس، وليس النخبة فقط.

يقول الشاطبي: "تفسير القرآن بمعنى تقريبي يليق بالجمهور، أو بمعنـى لا يليـق بالجمهور "[62].

وقد وساق الشاطبي لذلك أمثلة منها:

تفسير الملك بأنه: "خلق من خلق الله يتصرف بأمره"[63].

أو تفسير الإنسان بأنه: " هذا الذي أنت من جنسه "[64].

أو تفسير الكوكب بأنه هو: " الذي تشاهده بالليل" [65].

"ويسوق الشاطبي نموذجا لتفسير القرآن بما لا يسع الجمهور من العرب الأميين فهمه وإدراكه فيقول:

".. وَبِهِ تَعْلَم...:

(أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ) لَا يَدْخُلُ فِيهِ مِنْ وُجُوهِ الِاعْتِبَارِ عُلُومُ الْفَلْسَفَةِ الَّتِي لَا عَهْدَ لِلْعَرَبِ بِهَا، وَلَا يليق بالأميين الذين بُعث فيهم النبي الأمي –ﷺ– بِمِلَّةٍ سَهْلَةٍ سَمْحَةٍ.

وَالْفَلْسَفَةُ –عَلَى فَرْضِ أَنَّهَا جَائِزَةُ الطَّلَبِ– صَعْبَةُ الْمَأْخَذِ، وَعِرَةُ الْمَسْلَكِ، بَعِيدَةُ الْمُلْتَمَسِ، لَا يَلِيقُ الْخِطَابُ بِتَعَلُّمِهَا كَيْ تُتعرف آيَاتِ اللَّهِ وَدَلَائِلَ تَوْحِيدِهِ لِلْعَرَبِ النَّاشِئِينَ فِي مَحْضِ الْأُمِّيَّةِ"[66].

فالقرآن اعتمد أسلوب عامة الناس، متقفيهم وغير متقفيهم، بمعنى أن الخطاب القرآني ليس نخبويا.

يقول الشاطبي: "وَأَمَّا إِذَا كَانَ الطَّرِيقُ مُرَتَّبًا عَلَى قِيَاسَاتٍ مُرَكَّبَةٍ، أَوْ غَيْرِ مُرَكَّبَةٍ؛ إِلَّا أَنَّ فِي إِيصَالِهَا إِلَى الْمَطْلُوبِ بَعْضَ التَّوَقُّفِ لِلْعَقْلِ؛ فَلَيْسَ هَذَا الطَّرِيقُ بِشَرْعِيٍّ، وَلَا تَجِدُهُ فِي الْقُرْآنِ، وَلَا فِي السُّنَّةِ، وَلَا فِي كَلَامِ السَّلَفِ الصَّالِحِ"[67].

والسبب في ذلك أن الهدف الأول من الخطاب القرآني، هو عمل المكلف بمحتواه ومضمونه، ولا يمكنه ذلك إلا بفهم ما فيه، ولن يحصل الفهم إذا كان الخطاب فوق مستوى العامة.

لذا كان أسلوب النص القرآن يسع الجمهور، أي العالم وغير العالم، الذكي والمتوسط الذكاء والقليل الذكاء.

يقول الشاطبي: "أَنَّهُ إِنَّمَا يَصِحُّ فِي مَسْلَكِ الْأَفْهَامِ وَالْفَهْمِ مَا يَكُونُ عَامًّا لِجَمِيعِ الْعَرَبِ، فَلَا يُتَكَلَّفُ فِيهِ فَوْقَ مَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ، بِحَسَبِ الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي، فَإِنَّ النَّاسَ فِي الْفَهْمِ، وَتَأَتِّي التَّكْلِيفِ فِيهِ، لَيْسُوا عَلَى وِزَانٍ وَاحِدٍ، وَلَا مُتَقَارِبٍ، إِلَّا أَنَّهُمْ يَتَقَارَبُونَ فِي الْأُمُورِ الْجُمْهُورِيَّةِ وَمَا وَالَاهَا، وَعَلَى ذَلِكَ جَرَتْ مَصَالِحُهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَلَمْ يَكُونُوا بِحَيْثُ يَتَعَمَّقُونَ فِي كَلَامِهِمْ وَلَا فِي أَعْمَالِهِمْ، إِلَّا بِمِقْدَارِ مَا لَا يُخِلُّ بِمَقَاصِدِهِمْ، اللَّهُمَّ إِلَّا

أَنْ يَقْصِدُوا أَمْرًا خَاصًّا لِأُنَاسٍ خَاصَّةٍ، فَذَاكَ كَالْكِنَايَاتِ الْغَامِضَةِ، وَالرُّمُوزِ الْبَعِيدَةِ الَّتِي تَخْفَى عَنِ الْجُمْهُورِ، وَلَا تَخْفَى عَمَّنْ قُصِدَ بِهَا، وَإِلَّا كَانَ خَارِجًا عَنْ حُكْمِ مَعْهُودِهَا فَكَذَلِكَ يَلْزَمُ أَنْ يَنْزِلَ فَهْمُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، بِحَيْثُ تَكُونُ مَعَانِيهِ مُشْتَرَكَةً لِجَمِيعِ الْعَرَبِ"[68].

ويزيد الشاطبي المسألة بيانا فيقول:

"فالحاصل أن الواجب في هذا المقام، إجراء الفهم في الشريعة على وزان الاشتراك الجمهوري، الذي يسع الأميين، كما يسع غيرهم"[69]

واستدل الشاطبي على ذلك بحديث عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ:

لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جِبْرِيلَ، فَقَالَ:

"يَا جِبْرِيلُ إِنِّي بُعِثْتُ إِلَى أُمَّةٍ أُمِّيِّينَ:

مِنْهُمُ العَجُوزُ، وَالشَّيْخُ الكَبِيرُ، وَالغُلَامُ، وَالجَارِيَةُ، وَالرَّجُلُ الَّذِي لَمْ يَقْرَأْ كِتَابًا قَطُّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ القُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ"[70]

من العلماء من عارض رأي شاطبي حول أمية الشريعة بإطلاق[71].

ثانيا: أسلوب العرب في الكلام: أسلوب القرآن وطريقته في الخطاب عربية، ليس فيه شيء من أساليب غير العرب، وهذا لا يعني أن ليست فيه كلمة من غير عربية أو فيه كلمة من غير العربية نطق بها العرب وصارت من العربية؛ لأن ذلك يتعلق بعلم النحو.

وإنما المقصود أن القرآن بنى أسلوبه في الخطاب على طريقة العرب في الكلام.

فطريقة العرب في الكلام، قرينة تحدد المراد من كلام الله.

يقول الشاطبي: "وَهِيَ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لَيْسَ فيه من طرائق كلام الْعَجَمِ شَيْءٌ وَكَذَلِكَ السُّنَّةُ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ عَرَبِيٌّ، وَالسُّنَّةُ عَرَبِيَّةٌ، لَا بِمَعْنَى أَنَّ الْقُرْآنَ يَشْتَمِلُ عَلَى أَلْفَاظٍ أَعْجَمِيَّةٍ فِي الْأَصْلِ، أَوْ لَا يَشْتَمِلُ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ عِلْمِ النَّحْوِ وَاللُّغَةِ.

بَلْ بِمَعْنَى أَنَّهُ فِي أَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ وَأَسَالِيبِهِ عَرَبِيٌّ، بِحَيْثُ إِذَا حُقِّقَ هَذَا التَّحْقِيقَ سُلِكَ بِهِ فِي الِاسْتِنْبَاطِ مِنْهُ، وَالِاسْتِدْلَالِ بِهِ، مَسْلَكَ كَلَامِ الْعَرَبِ، فِي تَقْرِيرِ مَعَانِيهَا

وَمَنَازِعِهَا فِي أنواع مخاطباتها خاصة؛ فإن كثير مِنَ النَّاسِ يَأْخُـذُونَ أَدِلَّـةَ الْقُـرْآنِ بِحَسَبِ مَا يُعْطِيهِ الْعَقْلُ فِيهَا، لَا بِحَسَبِ مَا يُفهم مِنْ طَرِيقِ الْوَضْعِ، وَفِي ذَلِـكَ فَسَـادٌ كَبِيرٌ، وَخُرُوجٌ عَنْ مَقْصُودِ الشَّارِعِ"[72].

فالذي يفسير النص القرآني، عليه أن يعرف تقاليد العرب في الكلام، وعاداتها في الخطاب.

ومن عادتها في الخطاب "أنها تخاطب بالعام يراد به ظاهره، وبالعام يراد به العام في وجه، والخاص في وجه، وبالعام يراد به الخـاص، والظـاهر يـرا بـه غيـر الظاهر...............

وتتكلم بالكلام ينبئ أوله عن آخره، أو آخره عن أوله، وتـتكلم بالشـئ يعـرف بالمعنى كما يعرف بالإشارة"[73].

ومن عادات العرب في أسلوبها "أَنْ لَا تَرَى الْأَلْفَاظَ تَعَبُّدًا عِنْـدَ مُحَافَظَتِهَـا عَلَـى الْمَعَانِي، وَإِنْ كَانَتْ تُرَاعِيهَا أَيْضًا، فَلَيْسَ أَحَدُ الْأَمْرَيْنِ عِنْدَهَا بِمُلْتَزَمٍ، بَلْ قَدْ تَبْنِي عَلَى أَحَدِهِمَا مَرَّةً، وَعَلَى الْآخَرِ أُخْرَى، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ قَادِحًا فِي صِحَّةِ كَلَامِهَا وَاسْتِقَامَتِهِ[74].

فاللفظ ليس غاية مقصودة لذاتها، بل هو وسيلة لإيصال المعنـى، فـإذا وصـل المعنى بأي أسلوب حصل الغرض.

ويذكر الشاطبي أن من أسباب التباس معنى القرآن على بعض النـاس، التمـاس غرائبه ومعانيه بعيدا عن الأسلوب العربي.

قال الشاطبي:

"وَكَثِيرًا مَا يُغْفَلُ هَذَا النَّظَرُ بِالنِّسْبَةِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَتُلْتَمَسُ غَرَائِبُهُ وَمَعَانِيهِ عَلَـى غَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي يَنْبَغِي، فَتَسْتَبْهِمُ عَلَى الْمُلْتَمِسِ، وَتَسْتَعْجِمُ عَلَى مَنْ لَمْ يَفْهَـمْ مَقَاصِـدَ الْعَرَبِ، فَيَكُونُ عَمَلُهُ فِي غَيْرِ مَعْمَلٍ، وَمَشْيُهُ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ"[75].

فمن أسباب الضلال في فهم القرآن الكريم، الجهل بأسلوب العـرب فـي الكـلام والحديث، ومن راجع تاريخ الفرق الضالة، وسوء تأويلها للقرآن، أدرك أنها أوتيـت من قِبَل جهلها بالأسلوب العربي.

ومن الأمور التي راعها النص القرآني في أسلوبه أعراف العرب في خطابها وحديثها –كما ذكر الشاطبي:

01- الخروج في كثير من كلامها عن قوانينه المطردة، وضوابطه المستمرة "وجريانها في كثير من منثورها على طريق منظومها"[76].

وهذا ما يلاحظه المشتغلون بالكلام العربي من صرف الممنوع من الصرف، كما في قوله –تعالى-: (سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا)[77]، فقد قرئت مصروفة، وممنوعة من الصرف.

ونظائر هذا موجود في القرآن.

02- "الاستغناء ببعض الألفاظ عما يرادفها أو يقاربها"[78].

ويورد الشاطبي لذلك بأمثلة من اختلاف القراءات مثل:

- (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)[79] و(مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ)[80]، فقد قُرِئ بالكلمتين[81]

- (وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ)[82] (وَمَا يَخَادَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ)[83]، فقد قُرِئ بالكلمتين[84].

03- الممدوح من كلام العرب ما كان بعيدا عن التكلف[85].

"فَلَا يَسْتَقِيمُ لِلْمُتَكَلِّمِ فِي كِتَابِ اللَّهِ، أَوْ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ، أَنْ يَتَكَلَّفَ فِيهِمَ فَوْقَ مَا يَسَعُهُ لِسَانُ الْعَرَبِ"[86].

ومن هذا تحميل بعض الآيات، مالا يحتمله اللسان العربي.

04- الاولوية في خطاب العرب إلى المعاني وإصلاح الألفاظ من أجلها[87].

أي أن العرب لم تكن تلتفت كثيرا إلى الالفاظ والمفردات، إذا كان المعنى العام مفهوما، واستدل الشاطبي على ذلك بما يروى "عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَجُلًا سأل عمر بن الخطاب عن قوله:

(فَاكِهَةً وَأَبًّا)[88]:

مَا الْأَبُّ؟

فَقَالَ عُمَرُ:

نُهِينَا عَنِ التَّعَمُّقِ وَالتَّكَلُّفِ[89].

وَمِنَ الْمَشْهُورِ تَأْدِيبُهُ لِصَبِيغ حِينَ كَانَ يُكْثِرُ السُّؤَالَ عَنِ:

(الْمُرْسَلاتِ)[90]، وَ(الْعَاصِفَاتِ)[91] وَنَحْوِهِمَا[92].

وَظَاهِرُ هَذَا كُلِّهِ، أَنَّهُ إِنَّمَا نَهَى عَنْهُ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى التَّرْكِيبِيَّ مَعْلُومٌ عَلَى الْجُمْلَةِ، وَلَا يَنْبَنِي عَلَى فَهْمِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ حُكْمٌ تَكْلِيفِيٌّ، فَرَأَى أَنَّ الِاشْتِغَالَ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ مِمَّا هُوَ أَهَمُّ مِنْهُ تكلُّفٌ"[93].

هذا إذا لم يكن للفظ أثر في المعنى العام، أما إذا كان له أثر في المعنى العام، فالحرص على شرحه وبيانه مطلوب.

واستدل الشاطبي على ذلك بما يروى:

"عَنْ عُمَرَ نَفْسِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّف) [94].، فَإِنَّهُ سُئِلَ عَنْهُ عَلَى الْمِنْبَرِ.

فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ:

التَّخَوُّفُ عِنْدَنَا التنقص، ثم أنشده:

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ مِنْهَا تَامِكًا قَرِدًا ... كَمَا تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ

فَقَالَ عُمَرُ: أَيُّهَا النَّاسُ! تَمَسَّكُوا بِدِيوَانِ شِعْرِكُمْ فِي جَاهِلِيَّتِكُمْ، فَإِنَّ فِيهِ تَفْسِيرَ كِتَابِكُمْ[95]"[96].

فالأولوية عند العرب في أسلوبها لإيصال المعنى والمقصود من الكلام.

فإذا توقف إيصال المعنى العام على اللفظة حرصت العرب على معرفتها وبيانها وتوضيحها بما يزيل لبس المعنى العام.

أما إذا لم يتوقف عليها المعنى العام فالعرب لا تكترث بها.

ثالثا: ثقافة العرب.

يرى الشاطبي أنه لا يفسير القرآن بما لا تعرفه العرب في حياتها، ولا تجده في بيئتها، وليس معهودا في ثقافتها وتقاليدها.

قال الشاطبي:

"فَإِذًا تَفْسِيرُ قَوْلِهِ:

(أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا)[97] بِعِلْمِ الْهَيْئَةِ الَّذِي لَيْسَ تَحْتَهُ عَمَلٌ؛ غَيْرُ سائغ؛ ولأن ذلك من قبيل ما لا تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ، وَالْقُرْآنُ إِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهَا وَعَلَى مَعْهُودِهَا، وَهَذَا الْمَعْنَى مَشْرُوحٌ فِي كِتَابِ الْمَقَاصِدِ بِحَوْلِ اللَّهِ.

وَكَذَلِكَ الْقَوْلُ فِي كُلِّ عِلْمٍ يُعزى إِلَى الشَّرِيعَةِ لَا يُؤَدِّي فَائِدَةَ عَمَلٍ، وَلَا هُوَ مِمَّا تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ؛ فَقَدْ تَكَلَّفَ أَهْلُ الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ وَغَيْرِهَا الِاحْتِجَاجَ عَلَى صِحَّةِ الْأَخْذِ فِي عُلُومِهِمْ بِآيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَأَحَادِيثَ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَمَا استدل أَهْلُ الْعَدَدِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ﴾[98].

وَأَهْلُ النِّسَبِ الْعَدَدِيَّةِ، أَوِ الْهَنْدَسِيَّةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ﴾[99] إِلَى آخَرِ الْآيَتَيْنِ.

وَأَهْلُ الْكِيمِيَاءِ بِقَوْلِهِ، عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾[100]

وَأَهْلُ التَّعْدِيلِ النُّجُومِيِّ بِقَوْلِهِ:

﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٍ﴾[101] .

وَأَهْلُ الْمَنْطِقِ فِي أَنَّ نَقِيضَ الْكُلِّيَّةِ السَّالِبَةِ جُزْئِيَّةٌ مُوجَبَةٌ بِقَوْلِهِ:

﴿إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيۡءٍۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾[102].

وَعَلَى بَعْضِ الضُّرُوبِ الْحَمْلِيَّةِ وَالشَّرْطِيَّةِ بِأَشْيَاءَ أُخر.

وَأَهْلُ خَطِّ الرَّمْلِ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ:

﴿هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٍ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾[103]"[104].

وتحدث القرآن عن أنواع من ثمار الجنة تعرفها العرب، وذلك:

"......الْمَاءِ، وَاللَّبَنِ، وَالْخَمْرِ، وَالْعَسَلِ، وَالنَّخِيلِ، وَالْأَعْنَابِ، وَسَائِرِ مَا هُوَ عِنْدَهُمْ مَأْلُوفٌ"[105].

ولم يتحدث القرآن عن أنواع من الثمار لا تعرفها العرب، مثل:

"دُونَ الْجَوْزِ، وَاللَّوْزِ، وَالتُّفَّاحِ، وَالْكُمَّثْرَى، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ فَوَاكِهِ الْأَرْيَافِ وَبِلَادِ الْعَجَمِ"[106].

فتفسير القرآن بعيدا عن السياق الثقافي العام عند العوب، زمن التنزيل، قد يبعد المفسر عن المعنى الصحيح الذي أراده الله في كتابه.

رابعا: علوم العرب: قد يتسآءل البعض لِمَاذا أشار القرآن إلى بعض فروع العلوم، دون فروع أخرى، والسبب في ذلك، أن القرآن أشار إلى العلوم المعروفة عند العرب، دون مالا تعرفه العرب من علوم، ومعارف.

يقول الشاطبي: "وَاعْلَمْ أَنَّ الْعَرَبَ كَانَ لَهَا اعْتِنَاءٌ بِعُلُومٍ ذَكَرَهَا النَّاس............فمن علومها، عِلْمُ النُّجُومِ:

وَمَا يَخْتَصُّ بِهَا مِنَ الِاهْتِدَاءِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَاخْتِلَافِ الْأَزْمَانِ بِاخْتِلَافِ سَيْرِهَا وَتَعَرُّفِ مَنَازِلِ سَيْرِ النَّيِّرَيْنِ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا"[107].

وقد ذكر الشاطبي آيات كثيرة في هذا السياق، منها:

قوله –تعالى–:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾[108]

وقوله –تعالى–:

﴿ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾[109].

ومن العلوم التي اهتمت بها العرب علوم التاريخ، والطب، وعلوم البلاغة والفصاحة.

فبالنسبة لعلم التاريخ يقول الشاطبي:

"..وَمِنْهَا:

عِلْمُ التَّارِيخِ وَأَخْبَارُ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، وَفِي الْقُرْآنِ مِنْ ذَلِكَ مَا هُوَ كَثِيرٌ، وَكَذَلِكَ فِي السُّنَّةِ، وَلَكِنَّ الْقُرْآنَ احْتَفَلَ فِي ذَلِكَ، وَأَكْثَرُهُ مِنَ الْإِخْبَارِ بِالْغُيُوبِ الَّتِي لَمْ يَكُنْ لِلْعَرَبِ بِهَا عِلْمٌ، لَكِنَّهَا مِنْ جِنْسِ مَا كانوا ينتحلون"[110].

وذكر الشاطبي نماذج لذلك من القرآن منها:

قوله -تعالى-: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ [111].

وقوله -تعالى-: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ ﴾[112]..

وبالنسبة لعلم التاريخ يقول الشاطبي:

"وَمِنْهَا: عِلْمُ الطِّبِّ، فَقَدْ كَانَ فِي الْعَرَبِ مِنْهُ شَيْءٌ، لَا عَلَى مَا عِنْدَ الْأَوَائِلِ، بَلْ مَأْخُوذٌ مِنْ تَجَارِيبِ الْأُمِّيِّينَ، غَيْرُ مَبْنِيٍّ عَلَى عُلُومِ الطَّبِيعَةِ، الَّتِي يُقَرِّرُهَا الْأَقْدَمُونَ، وَعَلَى ذَلِكَ الْمَسَاقِ جَاءَ فِي الشَّرِيعَةِ، لَكِنْ عَلَى وَجْهٍ جَامِعٍ شاف، قليلٍ، يُطَّلَعُ مِنْهُ عَلَى كَثِيرٍ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ ﴾[113]"[114].

وبالنسبة لعلوم البلاغة والفصاحة يقول الشاطبي:

"وَمِنْهَا: التَّفَنُّنُ فِي عِلْمِ فُنُونِ الْبَلَاغَةِ، وَالْخَوْضُ فِي وُجُوهِ الْفَصَاحَةِ، وَالتَّصَرُّفُ فِي أَسَالِيبِ الْكَلَامِ، وَهُوَ أَعْظَمُ مُنْتَحَلَاتِهِمْ، فَجَاءَهُمْ بِمَا أَعْجَزَهُمْ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ،

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[115]"[116].

يرى الشاطبي أن تفسير قوله –تعالى-: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [117] باحتواء القرآن على جميع العلوم، حتى التي لم تعرفها العرب، يعارض طريقة النص القرآني في خطاب العرب بما تعرفه، وما تفهمه.

وعليه يكون معنى (الكتاب) في الآية هو اللوح المحفوظ، أو المقصود بقوله– تعالى-: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [118]. من التكاليف التي كلف الله بها عباده فجميعها في الكتاب[119].

خامسا: أخلاق العرب: ركز القرآن على الأخلاق التي تعرفها العرب، فأشاد بالحسن منها ودعا إليه، وحذر من القبيح ونهى عنه

يقول الشاطبي: "وَكَانَ لِعُقَلَائِهِمِ اعتناء بمكارم الأخلاق، واتصاف بمحاسن الشيم فَصَحَّحَتِ الشَّرِيعَةُ مِنْهَا مَا هُوَ صَحِيحٌ وَزَادَتْ عَلَيْهِ، وَأَبْطَلَتْ مَا هُوَ بَاطِلٌ، وَبَيَّنَتْ مَنَافِعَ مَا يَنْفَعُ مِنْ ذَلِكَ، وَمَضَارَّ مَا يَضُرُّ منه"[120].

فإذا لم يحذر القرآن عن أخلاق قبيحة لم تعرفها العرب، لا يعني أنه يقرها.

وبالنسبة للأخلاق الحميدة التي عرفتها العرب

يقول الشاطبي: "وَأَمَّا مَا يَرْجِعُ إِلَى الِاتِّصَافِ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَمَا يَنْضَافُ إِلَيْهَا فَهُوَ أَوَّلُ مَا خُوطِبُوا بِهِ، وَأَكْثَرُ مَا تَجِدُ ذَلِكَ فِي السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ، مِنْ حيث كان آنس لهم"[121].

وذكر الشاطبي لذلك نماذج من آي القرآن منها:

قوله –تعالى-: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾[122].

وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ﴾[123].

وحرم القرآن الخمر؛ لأنها من الفواحش المعروفة عند العرب[125124].؛ لذلك يخطئ من يبيح مواد أخطر من الخمر كالمخدرات –مثلا– أو يجعلها دون الخمر في

التحريم، بدعوى أن القرآن لم يحرمها كما حرم الخمر، أو القول بأنها لو كانت في درجته لنهى عنها كما نهى عن الخمر.

الخاتمة: إن فهم القرائن المحيطة بالقرآن، واستيعابها، من خلال فهم البيئة الاجتماعية والثقافية والسياسية التي نزل فيها القرآن، مفتاح ضروري لفهم القرآن إهماله يؤدي إلى انحراف في فهم القرآن؛ وقد انحرفت طوائف في تأويل القرآن بسبب إهمال السياق الذي نزل فيه القرآن.

وأولى مَن يؤخذ برأئه في تحديد معنى النص القرآني، هم أولئك الذين عايشوا التنزيل، ليس –فقط– بسبب معرفة اللسان العربي من ألفاظ ومبان؛ لأن معنى اللفظ والمبنى، يمكن تحديده بالرجوع إلى الشروح والقواميس اللغوية، ولكن كون الصحابة أولى بفهم القرآن من غيرهم؛ بسبب معرفتهم بالسياق العام، الذي نزل فيه القرآن الكريم.

فالسياق العام الذي نزل فيه القرآن، يشكل جزءا لا يتجزأ من اللسان العربي الذي نزل به القرآن.

وهناك قرينة ورابط مهم في تحديد معنى النص، لا يعرفه إلا من عايش تشكل النص، وبالنسبة للقرآن، لا يعرفها إلا من عايش تنزله، وهو قرينة ورابط شعوري الذي يشعر به، ويحسه من شاهد ولاحظ أجواء تكون النص ما.، أي أو عاصر نزول القرآن.

فمثلا من حضر إلقاء خطاب لحاكم، قد ينطبع في ذهنه رأئ، وتحليل، للخطاب قد لا يستطيع –بالضرورة– الإفصاح عن القواعد العلمية، والأسس المنطقية التي بنى عليها هذا الرأي، كما يقولون في الاستحسان معنى يشعر به المجتهد، لا يجد العبارة التي تسع التعبير عنه.

ومن هنا كان رأي الصحابة ضروريا؛ لبيان معاني القرآن، وتوضيح مقاصده لأنهم عايشوا الجو العام لنزوله، ولاحظوا القرآئن المحيطة بذلك النزول، فقد ينقدح

في ذهنهم من المعاني، مالا يفهمه غيرهم، ولا يصله سواهم، بأدوات الاجتهاد التقليدية، والمقتصر على تحليل ألفاظ وجمل الكلام.

وهنا لابد من نقل قصة تبين هذا المعنى وتوضحه: "تَنَاظَرَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ أَبُو عَمْرِو بْنُ الْعَلَاءِ، وَعَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ الْمُعْتَزِلِيُّ صَاحِبُ وَاصِلِ بْنِ عَطَاءٍ.

فَقَالَ عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ: يَا أَبَا عَمْرٍو لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى:

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾[126].

فَقَالَ أَبُو عَمْرٍو:

وَيْحَكَ يَا عَمْرُو، مِنَ الْعُجْمَةِ أُتِيتَ، إِنَّ الْعَرَبَ لَا تَعُدُّ إِخْلَافَ الْوَعِيدِ ذَمًّا، بَلْ جُودًا وَكَرَمًا، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

وَلَا يَرْهَبُ ابْنُ الْعَمِّ مَا عِشْتُ صَوْلَتِي

وَلَا يَخْتَشِي مِنْ صَوْلَةِ الْمُتَهَدِّدِ:

وما يرهب المولى ولا الجار صولتي

ولا أختفي من سورة المتهدد

وإني وإن أوعدته أو وعدته

لأخلف ايعادي وأنجز موعدي"[127]

فهذا الذي رأى إخلاف الوعيد الوارد في القرآن بعيدا عن رؤية العرب لإخلاف الوعيد عند استنتج استحالة مغفرة الله؛ لأنه من إخلاف الوعيد المستحيل، وغاب عنه أن إخلاف الوعيد عند العربي محمود.

فإهمال السياق في فهم القرآن هو الذي أدى إلى هذا الشطط في الفهم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الهوامش:

1- الزخرف: من: 71.

2- أحمد بابا بن أحمد بن الفقيه الحاج أحمد بن عمر بن محمد التكروري التنبكتي السوداني، أبو العباس، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ت: عبد الحميد عبد الله الهرامة (ط2 2000م دار الكاتب طرابلس ليبيا): 48.

3- أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي الأندلسي، الإفادات والإنشادات دراسة وتحقيق: الدكتور محمد أبو الأجفان (ط1 1403هـ 1983م مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان): 17.

4-ينظر: أحمد بابا، نيل الابتهاج: المصدر السابق: 50.

5-ينظر: الشاطبي، الإفادات والإنشادات: المصدر السابق: 17.

6-الإمام شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي الديمشقي، شدرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط (ط1 1406هـ 1986م دار ابن كثير- بيروت): 69/1.

7-ينظر: الشاطبي، الإفادات والإنشادات: المرجع السابق: 18.

8-ينظر: أحمد بابا، نيل الابتهاج: المصدر السابق: 48.

9-أحمد بابا، نيل الابتهاج: المصدر السابق: 48.

10-أحمد بابا، نيل الابتهاج: المصدر السابق: 49,48.

11-أحمد بابا، نيل الابتهاج: المصدر السابق: 49.

12- ينظر: أحمد بابا، نيل الابتهاج: المصدر السابق: 49.

13-ينظر: أحمد بابا، نيل الابتهاج: المصدر السابق: 49.

14-ينظر: أحمد بابا، نيل الابتهاج: المصدر السابق: 50.

15-ينظر: أحمد بابا، نيل الابتهاج: المصدر السابق: 50.

16-ينظر: أحمد بابا، نيل الابتهاج: المصدر السابق: 50.

17- أحمد بابا، نيل الابتهاج: المصدر السابق: 48.

18-أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي الأندلسي، فتاوى الإمـام الشـاطبي تحقيق: الدكتور محمد أبو الأجفان (ط2 1406هـ 1985م): 7.

19-الشاطبي، الإفادات والإنشادات: المرجع السابق: 18.

20- أحمد بابا، نيل الابتهاج: المصدر السابق: 48.

21- أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي، الموافقات، تقـديم: أبـو عبيـدة مشهور بن حسن آل سلمان: 9/1.

22- الشاطبي، الإفادات والإنشادات: المرجع السابق: 34.

23- أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي الأندلسي، الاعتصام، ضبط وتقديم وتعليق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان (مكتبة التوحيد): 1/7.

24-ينظر: أحمد بابا، نيل الابتهاج: المصدر السابق: 49.

25-أحمد بابا، نيل الابتهاج: المصدر السابق: 49.

26-أحمد بابا، نيل الابتهاج: المصدر السابق: 49.

27-ينظر: أحمد بابا، نيل الابتهاج: المصدر السابق: 49.

28-ينظر: أحمد بابا، نيل الابتهاج: المصدر السابق: 49.

29-الشاطبي، الإفادات والإنشادات: المرجع السابق: 45.

30-ينظر: أبو العباس أحمد بن يحي الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتـاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشـراف الـدكتور محمـد حجـي (1401هـ، 1981م نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكـة المغربيـة الربـاط ودار الغرب الإسلامي-بيروت لبنان): 6/389.

31-ينظر: الونشريسي: المصدر السابق: 26 و29 و278 1/327 وكـذا: 292 و468 2/511 وكذا: 3/209 وكذا: 140 و205/ 4 وكـذا: 23 و26 و59 و60 و101 و5/213 وكـذا: 71 و327 و387 و389 /6 وكذا: 101 و110 و7/125 وكذا: 133 و8/384 وكذا: 227 و252 و9/633 وكذا: 10/202 وكذا: 39 و42 و103 و110 و112 و123 و11/131.

32-الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 9/1.

33 -الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 10.

34 -ينظر: الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 10.

35 -الشاطبي، فتاوى الإمام الشاطبي: المرجع السابق: 8.

36 -أحمد بابا، نيل الابتهاج: المصدر نفسه: 49.

37 -أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، لسان العـرب (دار صادر- بيروت- لبنان): 336/13.

38-أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري (ط1 1419هـ 1998م مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت): 734.

39-السيد الشريف أبو الحسن علي بن محمد بن علي الحسيني الجرجاني الحنفي، الكليات التعريفات، وضع حواشيه وفهارسه: محمد باسل عيون السود (1424هـ- 2003 دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان): 175.

40-نعيمة قدوري، القرائن اللغوية وغير لغوية وأثرها في تحليل الخطاب القرآني.

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في علم الدلالة

قسم اللغة والأدب العربي/ كلية الآداب واللغات/ جامعة أبي بكر بلقائد/ وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

ولاية تلمسان/ الجزائر/ السنة الجامعية: 1436هـ-1437هـ/2015م-2016م: 2.

41-محفوظ بن أحمد بن الحسن أبو الخطاب الكلوذاني الحنبلي، التمهيد في أصول الفقه، تحقيق: الدكتور مفيد محمد أبوعمشة (ط1 1406هـ - 1985م مركز البحث وإحياء التراث الإسلامي كلية الشريعة والدراسات الإسلامية-جامعة أم القرى-مكة المكرمة): 183/1.

42-ينظر: الجرجاني، الكليات: المصدر السابق: 175.

43-الإمام الشريف أبو عبد الله محمد بن أحمد الحسيني التلمساني، مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول ويليه كتاب مثارات الغلط في الأدلة، تحقيق: محمد علي فركوس (ط1 1419هـ 1998م مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع): 453.

44- ينظر: التلمساني، مفتاح الوصول: المصدر السابق: 453.

45-ينظر: نعيمة قدوري، القرائن اللغوية: المرجع السابق: 7.

46- ينظر: التلمساني، مفتاح الوصول: المصدر السابق: 453.

47- ينظر: التلمساني، مفتاح الوصول: المصدر السابق: 455.

48- ينظر: التلمساني، مفتاح الوصول: المصدر السابق: 456.

49- يوسف: من: 82.

50- أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي: 86/7.

وينظر: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي المعروف بابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: الدكتور عبد الحميد هنداوي (ط1 1421هـ 2000م دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان): 271/8.

51- الفراهيدي، كتاب العين: المصدر السابق: 87/7.

52-إبراهيم محمد الجرمي، معجم علوم القرآن (ط1 1422هـ 2001م دار القلم دمشق): 293.

53-عبد العزيز بن أحمد بن محمد، علاء الدين البخاري الحنفي، كشف الأسرار شرح أصول البزدوي (دار الكتاب الإسلامي) /47,46/1.

54-القرآن هو: "كلام الله المنزل على النبي محمد صلى الله عليه وسلّم المكتوب في المصاحف المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المعجز ولو بسورة منه" نور الدين عتر، علوم القرآن: 10.

55-القمر: 17.

56- الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 5/2.

57-الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 126/2.

58-الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 141/2.

59-الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 142/2.

60-الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 132/2.

61-الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 142/2.

62- الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 67/1.

63-الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 67/1.

64-الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 67/1.

65-الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 67/1.

66-الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 65/1.

67-الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 71/1.

68-الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 136/2.

69-الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 138/2.

70- "قال الترمذي: حسن صحيح "

محمد بن الشيخ العلامة علي بن آدم بن موسى الاتيوبي الولوي، البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج (ط1 1431هـ دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع): 525/16.

وينظر: الشاطبي، الموفقات: المصدر السابق: 138/2.

71- يقول الشيخ عبد الله دراز:

"...وهذا كله فيما يتعلق بأحكام التكليف؛ لأنه عام يجب أن يفهمه العرب والجمهور؛ ليمكن الامتثال، أما الأسرار والحكم، والمواعظ والعبر، فمنها ما يدق عن فهم الجمهور، ويتناول بعض الخواص منه شيئا فشيئا بحسب ما يسره الله لهم وما يلهمهم به"

الشاطبي، الموافقات، ت: عبد الله دراز (1427هـ 2005م دار الحديث القاهرة): 308/2.

وجاء في تعليق أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان:

"إذا نظرنا للحديث الصحيح: "بلغوا عني ولو آية؛ فرب مبلغ أوعى من سامع"، مع العلم بأن القرآن للناس كافة، وأنه ليس مخاطبا به خصوص طائفة العرب في العهد الأول لها، بل العرب كلهم في عهدهم الأول وغيره وغير العرب كذلك، إذا نظرنا بهذا النظر؛ لا يمكننا أن نقف بالقرآن وبعلومه وأسراره وإشاراته عند ما يريده المؤلف، وكيف نوفق بين ما يدعو إليه من ذلك، وبين ما ثبت من أنه لا ينضب معينه؟

والخير في الاعتدال؛ فكل ما لا تساعد عليه اللغة، ولا يدخل في مقاصد التشريع؛ يعامل المعاملة التي يريدها المؤلف، أما ما لا تنبو عنه اللغة، ويدخل في مقاصد الشريعة بوجه؛ فلا يوجد مانع من إضافته إلى الكتاب العزيز، ومنه ما يتعلق بالنظر في مصنوعات الله للتدبر والاعتبار وتقوية الإيمان وزيادة الفهم والبصيرة".

الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 65/1.

72 الشاطبي، الموفقات: المصدر السابق: 39/1

73-الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 103/2.

74-الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 131/2.

75-الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 140/2.

76-الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 131/2.

77-الإنسان: من: 04.

78-الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 132/2.

79-الفاتحة: 04.

80-الفاتحة: 04.

81-ينظر: الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 132/2.

82-البقرة: من: 09.

83-البقرة: من: 09.

84-ينظر: الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 132/2.

85-ينظر: الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 135/2.

86-الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 135/2.

87- ينظر: الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 138/2.

88-عبس: من: 31.

89-الإمام الحافظ: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي (1349هـ دار المعرفة بيروت): 271/13.

90-المرسلات: 01.

91-المرسلات: 02.

92-الإمام الحافظ أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي، مسند الدارمي المعروف ب(سنن الدارمي)، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني,(1420هـ دار المغني للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية): 254/1.

المرسلات: 02.

93-الشاطبي، الموافقات: المصدرالسابق: 139/2.

94- النحل: من: 47.

95- ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي الشافعي البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، ت: محمد عبد الرحمن المرعشلي (ط1 دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع-بيروت-لبنان): 228/3.

96-الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 140,139/2.

97-ق: 6.

98-المؤمنون: 113.

99-الأنفال: من: 65.

100-الرعد: من: 17.

101-الرحمن: 05.

102-الأنعام: من: 91.

103-الأحقاف: من: 04.

104-الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 59/1.

105-الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 126,125/2.

106-الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 126,125/2.

107-الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 112/2.

ينظر: الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 127/2.

108-الأنعام: 97.

109-النحل: 16.

110-الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 117/2.

111-آل عمران: 44.

112-هود: 49.

113-الأعراف: 31.

114-الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 120/2.

115-الإسراء: 88.

116-الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 121/2.

117-الانعام: 38.

118-الانعام: 38.

119-ينظر: الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 129/2.

120-الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 112/2.

121-الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 122/2.

122-النحل: 90.

123-الأنعام: 151

124-ينظر: الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: 123/2.

125

126-النساء: 93.

127-ينظر: يحي بن أبي الخير العمراني شيخ الشافعية في اليمن، الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار، تحقيق: الدكتور سعود بن عبد العزيز الخلف: 677/3.

دور التكنولوجيات الحديثة في خدمة القرآن الكريم برامج الهواتف الذكية أنموذجاً

The role of modern technologies in the service of the Quran Smart phone software as a model

داه. أمينة حماني

جامعة مولود معمري، تيزي وزو

الملخص: سنحاول في هذه الورقة البحثية التعرف على تطبيق ظهر حديثا، يشتغل على الهواتف الذكية، يسهل عملية القراءة والحفظ والتفسير والذكر، وهو عبارة عن برنامج مصحف شريف موثق ومراجع يتبع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، تطبيق **"نختم"** يقوم باستخدام الخط في عرض الآيات القرآنية، وهو تطبيق يعرض كذلك تفسير الآيات ومعانيها، كما أنه يسمح بسماع الآية القرآنية.

سنقوم بشرح طريقة عمل هذا البرنامج في الهواتف الذكية ودوره في خدمة كتاب الله، ومساعدة القارئ على الذكر طيلة اليوم، ونعرف بهذا البرنامج لأكبر عدد من المسلمين أملا منا في كسب الأجر والمشاركة في خدمة القرآن الكريم من خلال برنامج **"نختم"**.

In this paper we will try to identify a newly appeared application, works on smart phones, facilitates the process of reading, memorization, interpretation and remembrance, which is a documented Mushaf Sharif document and reference follows the King Fahd Complex to print the Quran, application `` **Nakhtm "** uses the font in the presentation Quranic verses, an application that also displays the interpretation of the verses and their meanings, as it allows to hear the Quranic verse.

We will explain how this program works in smart phones and its role in the service of the Book of Allah, and help the reader to mention throughout the day, and we know this program to the largest number of Muslims hope to earn wages and participate in the service of the Koran through the program **"Nakhtem ".**

نص المقال: أصبح العلم اليوم جزءا لا يتجزأ من التكنولوجيا في مفهومها العام وأصبح الحديث عن التكنولوجيا حديثاً عن العلم ومدارسه ومناهجه وآلياته، وأصبح من غير الممكن فصل النظري عن التطبيقي وفصل المعرفة عن الخبرة، فالعلم ليس مجرّد نظريات أو مناهج تعتمد في استنباط الحقائق، ارتبط مفهوم العلم في **القرآن الكريم** بالحياة في مفهومها العام، فالعلم كلّ ما يفيد الإنسان ويحقق المصلحة العامة، ويردّ عن أهل الأرض المفاسد والمضارّ، ولما كانت التكنولوجيا أو كما عرفت في اللغة العربية بالتقانة تسعى لخدمة الإنسان، **ولما كان القرآن الكريم هو دستور الحياة فكيف تم تسخير التكنولوجيات الحديثة لخدمة اللغة العربية والقرآن الكريم؟ وماهي الوسائل والتقنيات والبرامج التي جهزت لخدمة القرآن وتسهيل حفظه وذكره بين الناس؟؟** وقد طوعت هذه التكنولوجيات ووظفت لخدمة القرآن الكريم وعلومه ضمن برامج عديدة ومتنوعة، فالقرآن الكريم كتاب الله الذي خاطب ولا زال يخاطب به البشرية جمعاء إلى يوم القيامة بلا تقيد زمان دون زمان أو مكان دون مكان.

أ.**مفهوم التكنولوجيا / التقانة:** تعددت المفاهيم المتعلقة **بالتكنولوجيا** أو ما يعرف **بالتقانة،** حيث يرتبط مفهوم **التقانة** بمفهوم العلم، ومن بين التعاريف نعرف **التقانة** على أنها: "مجموعة المعارف والخبرات والمهارات المتاحة والمستنبطة والمتراكمة المعينة بالآلات والأدوات والسبل والوسائل والنظم المرتبطة بالإنتاج والخدمات الموجهة من أجل خدمة إعراض محددة الإنسان والمجتمع، وتستند **التقانة** على العلم في تقدمها وتعتمد على القاعدة الإنتاجية المرتبطة بالتنمية الشاملة وتطورها"[1].

أما في المعاجم العربية فقد وردت كلمة أتقن، والتقانة في مصادر لغوية مختلفة على الوجه الآتي:

يقال: أتقن الشيء: أحكمه، وإتقانه: إحكامه، والإتقان: إحكام للأشياء.

فقد تم اشتقاق كلمة تقنية من الفعل أتقن أي أحكم الأمر، قال الله تعالى:

﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾[2].

ورجل تقن وتقن: متقن للأشياء حاذق، ووردت في منجد اللغة: تقن ألأمر: **(**حكمه التقنية: التكنيك، وقد أشار الدكتور **يوسف حلباوي**[3]، إلى مصطلح التقانة وجعلها مرادفة على المصطلح التكنولوجيا، ومصطلح التقنية مرادف إلى التكنيك.

فالتقنية هي التطبيق النظامي للمعرفة العلمية لأجل تحقيق مهام علمية، وحسب تعريف اليونسكو فالتقنية هي تطبيق المعرفة للتعبير عن مقدرتنا في تسخير مصادرنا لمنفعة الإنسانية

كلمة التقنية هي الترجمة العربية لكلمة تكنولوجيا **Technology** والتي تتكوّن من مقطعين: الاول: **Techno** ويعني صنعة أو فنا أو مهارة، والثاني **logy:** علم أو دراسة أو نظرية[4].

فالتقنية أو تكنولوجيا تستعمل بكونها عمليات ونواتج معا، وهي منظومة من **الأجهزة Hardware، والبرمجيات Software**، والعمليات التي تحقق الأهداف المنشودة بفاعلية وكفاءة تنشأ من حيازة المعلومات وتخزينها واسترجاعها وعرضها وتسويقها[5].

وفي نفس السياق التكنولوجي ظهرت الهواتف النقالة، كتصغير لهذه العمليات مع التطور المستمر في البرمجيات والهواتف النقالة، وهي هواتف تحوي خدمات تقنية بنظام التشغيل متعدد المهام، ويدعم تطبيقات التصوير والمشاركة والبيع والشراء والخدمات المكتبية والانترنت، ومن بين أهم أنظمة التشغيل نجد نظام **الأندر ويد** وهو عبارة عن نظام مجاني ومفتوح المصدر مبني على نواة لينكس، يتم تطوير **الأندرويد** من قبل التحالف المفتوح للهواتف النقالة الذي تديره شركة **جوجل.**

وقد أصبحت الهواتف النقالة الوسيط المفضل لدى الناس في معظم أنحاء العالم للحصول على المعلومات، وبفضلها يتمكن الشخص من تصفح الأنترنت والبريد واستعمال التطبيقات، التي سنحاول التعرف على تطبيق مهم يخدم القرآن الكريم ويسهل على المسلمين قراءة القرآن في كل وقت.

ب. **القرآن الكريم والعلم والتكنولوجيا:** القرآن الكريم كتاب الله الذي خاطب ولا زال يخاطب به البشرية جمعاء على يوم القيامة، هو كلام الله تعالى المنزل على خاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم بلفظه ومعناه، المكتوب في المصحف المنقول إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المعجز، المبدوء بسورة الفاتحة، المختوم بسورة الناس.

شغل مفهوم العلم في القرآن الكريم حيزاً هاماً من الآيات الكريمة، والناظر في القرآن الكريم يجد أن الله تعالى نسب العلم على نفسه، ومن ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[6]، فصفة العلم من أعظم الصفات الإلهية شأنها شأن القدرة والإرادة.

وكانت السيرة النبوية خير دليل على تحفيز المسلمين بالتعلم ونشر العلم، وكلما تطورت العلوم تماشت مع القرآن الكريم فهو صالح لكل مكان وزمان، والإعجاز العلمي في القرآن الكريم ووصول العلماء في يومنا هذا لحقائق علمية كانت في القرآن الكريم منذ نزوله.

لذا سعى علماء المسلمين إلى تسخير التكنولوجيا والتطبيقات الحديثة والاختراعات لخدمة هذا الدين، فنجد برامج الحاسوب المفسرة للقرآن، ومشروع حرف لخدمة القرآن الكريم من مجمع الملك فهد، وكذا تطبيقات الآذان والقبلة، والمصاحف المرتلة، وتطبيق **"تختم"** الذي سنعرف به في العنصر التالي.

ت. **تجربة تطبيق "تختم" في خدمة القرآن الكريم:** قراءة القرآن الكريم هي من أعظم العبادات التي يتقرب بها العبد إلى ربه، فقد أمرنا الله بالصلاة والزكاة والصوم والتعبد والتقرب إليه بقراءة القرآن الكريم، كما أمرنا بتدبر معانيه وأحكامه، فقراءة

القرآن شيء عظيم يغذي الروح ويهذبها ويجعلنا نشعر بالسكينة والطمأنينة، ولكن ونظراً لانشغالنا في أمور الحياة الدنيا وضيق الوقت وكثرة المشاغل التي نمر بها فنهجر القرآن الكريم.

ولهذا قام موقع رسول الله "**Rasoulallah.net**" بتطوير برنامج "**تختم**" لإحياء قراءة القرآن الكريم في واقع المسلمين في حياتهم اليومية، حيث يمكننا من قراءة القرآن الكريم وختمه بانتظام، فعندما يقوم المستخدم بفتح هاتفه يقوم البرنامج بعرض آية من آيات القرآن الكريم عليه، وهكذا كلما يفتح هاتفه تظهر له آية من آيات القرآن وهكذا بالترتيب حتى يصل إلى أخر السورة، ويوفر البرنامج أيضا تفسير آيات القرآن الكريم ومعرفة معاني الكلمات، كما يمكننا من خلال هذا التطبيق اختيار القارئ الذي نفضل سماعه.

وفي نفس السياق يؤكد موقع رسول الله أن المصحف المستخدم في التطبيق موثق ومراجع من قبل مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، وأن التفسير المستخدم في التطبيق هو التفسير الميسر[7].

تطبيق "**تختم**" [8]هو من أفضل التطبيقات التي تم تصميمها في الآونة الأخيرة حيث يمكننا من قراءة القرآن الكريم وختمه بانتظام.

إضافة إلى ما سبق، يقوم البرنامج بتقديم ميزة رائعة للغاية، ففي صباح كل يوم جديد يقدم لك بيانات تشجعك على المداومة على قراءة القرآن الكريم، فيقدم لك إحصائيات يومية وأسبوعية وشهرية عن كل ما قمت بقراءته من أول مرة قمت فيها بتحميل التطبيق، كما أنه يمكن للمستخدم تحيد الآية التي يريد ان يبدأ بها أو يريد البرنامج أن يعرضها عند فتح الهاتف فضلاً عن وجود خاصية مهمة فيه وهي "لاحقاً" ويمكنك تخطي الآية إذا لم تريد القراءة في ذلك الوقت، فحقاً هو من أجمل البرامج الموجودة في المجال الديني، والشكل التالي يوضح ذلك:



الشكل رقم: ((01)).

كما ذكرنا سابقاً، التطبيق مزود بالكثير من قراء القرآن الكريم الذين لمسوا قلوبنا بأصواتهم العذبة ومنهم: **الشيخ الحصري، مصطفى إسماعيل، محمد صديق المنشاوي، عبد الباسط عبد الصمد،** الحذيفي، مشاري راشد، سعود الشريم، أحمد العجمي، **عبد الرحمن السديس، محمد جبريل، ماهر المعقلي،** سعد الغامدي، اسلام صبحي والشكل التالي يوضح ذلك:



الشكل رقم: ((02)).

تطبيق **نختم** يقوم بعرض تفسير الآيات ومعانيها، كما أنه يسمح له بسماع الآية القرآنية بصوت القارئ الذي يفضله، والشكل رقم "02"" يقدم مثال على ذلك وهو الاستماع بصوت القارئ الشيخ "مشاري بن راشد العفاسي.

ث. **مميزات تطبيق نختم للهواتف النقالة:** تطبيق نختم هو تطبيق مجاني لقراءة القرآن الكريم بدون مشقة، فهو يعمل على الهواتف النقالة والأجهزة اللوحية بنظام أندرويد، فهو مصحف جامع شامل لقراءة وتفسير الآيات القرآنية، حيث يقدم كل يوم آية قرآنية في كل مرة يقوم صاحب التطبيق بفتح الهاتف المحمول، ويوفر تطبيق "نختم" العديد ومن الميزات ومنها:

▪ يسمح بترجمة الآيات القرآنية للغة الإنجليزية، والى العديد من اللغات العالميـــة مثل الفرنسية والصينية وغيرها، والأشكال التالية تظهر بعض الترجمات التي يحتويهـــا تطبيق **"تختم"**:



الشكل رقم : ((3)).



الشكل رقم: ((04)).

▪ يعرض كل يوم إحصائيات لنسبة القراءة اليومية والأسبوعية والشهرية بل ومنذ تحميل التطبيق.



الشكل رقم: ((04)).

▪تطبيق نختم للاندرويد يعرض على المسلم تفسير الآيات ومعانيهـــا، ويعـــرض مجموعة من أشهر التفاسير المعروفة والمتفق عليها، والشكل التالي يوضح ذلك:



الشكل رقم: ((05))

▪يملك تطبيق **"تختم"** ميزة لا تتوفر في العديد من التطبيقات وهي ميزة التأجيل فعند عرض الآية يمكن للقارئ / صاحب التطبيق تأجيلها لوقت لاحق، وهي بالضغط على الرمز الموضح في الشكل التالي:



الشكل رقم: ((06)).

▪يتيح التطبيق لمستعمليه ضبطه بالتوقيت الذي يناسبه، و نسبة العرض التي تتماشى ووقت فراغه من خلال ميزة الضبط الداخلية والإعدادات، كما يمكنه من تفعيل الاستماع إلى الآيات القرآنية وكذا إيقاف ظهور الآيات، وتنشيط أو إلغاء تنشيط القراءة المستمرة ونوضح ذلك من خلال الشكل التالي:



الشكل رقم: ((07)).

ج. **طريقة تحميل تطبيق "تختم":** يمكن تحميل تطبيق "تختم" مجانا من موقع رسول الله، وكذا تحميله بصيغة مباشرة من متجر التطبيقات جوجل بلاي، أو بلاي ستوري، وبعد التحميل نقوم بتثبيت التطبيق ونفتحه واعداده بالطريقة التي تناسب القارئ/ صاحب التطبيق والشكل التالي يوضح شكل البرنامج في متجر التطبيقات play store:



الشكل رقم: ((08))

خاتمة: شهد العالم اليوم تطوراً هائلا في مجال التكنولوجيا، وأصبح من السهل تخطي الحواجز، وكسر العقبات واختصار واختزال المسافات، وأصبح من السهل نشر المعلومة، ولاسيما نشر الدين الاسلامي، والتعريف بيه من خلال شاشة هاتف الحاسوب يستطيع الشخص وهو في منزله وفي غرفته، الإسهام في نشر الدين الاسلامي والتعريف بالقرآن الكريم، وكسب آلاف الحسنات من خلال تذكير الملايير بالدعوات والأذكار.

ولما كان القرآن الكريم هو الرسالة الخالدة التي تبين سماحة ديننا للعام، سعى علماء المسلمين إلى حث الشباب على التعريف به من خلال الاعتماد على التطورات الحاصلة في مجال التكنولوجيات الحديثة من خلال تسخير الهواتف الذكية لنشره و تلاوته وتذكير المسلمين به، فشجعت الشركات الاسلامية للبرمجيات والاتصال والتكنولوجيا على خلق برامج دعوية تذكيرية بالقرآن مثل تطبيق **"نختم"** الذي سخر لتسهيل ذكر القرآن، واختصار الوقت والجهد، وعدم التحجج بضيق الوقت لأنه في

متناول الجميع، ومجاني، وسهل التحميل، وسهل الاستعمال وبكل لغات العـــالم. فهــو تطبيق متكامل يخدم الدين والقرآن

ونختم ورقتنا البحثية بمجموعة من التوصيات:

- ضرورة الاعتماد على التقنيات المعلوماتية في خدمة القرآن وعلومـــه، ولـــيس مجرد وسائل للتسلية وإضاعة الوقت؛
- وجوب إنشاء مراكز وهيئـــات متخصصـــة فـــي خدمـــة القـــرآن وتســـخير التكنولوجيات الحديثة للتعريف بالدين والقرآن والسنة؛
- دعم المشاريع الشبابية الهادفة لخدمة كتاب الله مثل تطبيق **"تختم"**؛
- تعميم مثل هذه المبادرات والتطبيقات والبرامج في جميع الأوســـاط والملتقيـــات والندوات؛
- وضع خطط حديثة للوصول بالقرآن الكريم لتتمشى مـــع التطـــورات العلميـــة الحاصلة، والخروج من فكرة أن الدين والقرآن بعيدا عن التكنولوجيات الحديثة، بل هو دين يصلح لكل زمان ومكان وفيه من المعجزات ما لم يتوصل لها العلم الحديث بعد.

الهوامش:

---

[1]_ يعقوب فهد العبيد، **التنمية والتكنولوجيا مفهومه ومتطلباتها**، الدار العربية للنشر والتوزيـــع القاهرة، مصر، 1989، ص 19.

[2]_ سورة النمل، الاية 88.

[3]_ يوسف حلباوي، **التقانة في الوطن العربي مفهومها وتحدياتها**، مركـــز دراســـات الوحـــدة العربية، بيروت، 1992، ص 20.

[4]_ أحمد بدوي، **المعجم العربي الميسر**، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1999، ص 211.

[5]_ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[6]_ سورة البقرة، اللآية 216.

[7]إ _ Apps@Rasoulallah.net

[8] _ http://www.nekhtem.com/index.html

مساهمة علماء المغرب الأوسط في علوم اللغة العربية والقرآن الكريم خلال العهد الزياني (ق7-9ه/13-15م)"

باحث. عبد الكريم بصديق
جامعة وهران1

الملخص: يسلط هذا البحث الضوء على جوانب خفية من الحياة الثقافية وتحديداً إسهام علمائه في علوم القرآن الكريم وعلوم اللغة العربية. التي عرفها المغرب الأوسط خلال الفترة الوسيطية الزيانية.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم- اللغة العربية- المغرب الأوسط- العصر الوسيط - القراءات- التفسير- العلماء.

مقدمة: لا تعوزنا القرائن الدالة على اعتناء الزيانيين بعلوم القرآن الكريم وعلوم اللغة العربية لكونهم درسوها في المشرق وتأثرهم بعلماء الاندلس فقد انتشرت اللغة العربية في ربوع الدولة العبد الوادية باعتبارها لغة البلاد الرسمية في المكاتبات والمعاملات وشئون الدولة وكان لمجيء العلماء إلى المدن دور كبير في انتشار اللغة العربية وازدهارها، وكان أيضا لقدوم القبائل الهلالية إلى المغرب الإسلامي أثر كبير في دعم اللغة العربية وانتشارها لتمسك هذه القبائل البدوية باللسان العربي بالإضافة إلى الاتصال بالمراكز الثقافية الأخرى بالمغرب الأوسط كبجاية وتلمسان.

برزت مكانة علماء المغرب الأوسط في مجال اللغة العربية والقرآن الكريم وعلومها من خلال رافد فكري مرجعياته ومصادره من خلال شيوخه وعلمائه الذين كانت لهم إسهامات متعددة في مختلف المجالات العلمية؛ العقلية منها والنقلية وقد أردنا في هذا المقال نفض الغبار عما خلفه علماء المغرب الأوسط في اللغة

العربية وعلومها مسلطين الضوء على الرواد والعلماء الذين برزوا في بلاد المغرب الأوسط على اختلاف مشاربهم وعكفوا على دراستها والكتابة فيها.

جهود علماء المغرب الأوسط في خدمة علوم القرآن الكريم: يقصد بعلوم القرآن جملة الأبحاث التي تتعلق بكتاب الله الكريم، من حيث النزول، والجمع والترتيب، والتدوين، ومعرفة أسباب النزول، والمكي والمدني، وتأكيد الناسخ والمنسوخ، والمحكم، والمتشابه[1]، إلا اننا سوف نتطرق في هذه الدراسة الى التفسير وعلم القراءات باعتبارهما أهم علمين عرفا اهتماما كبيراَ من قبل علماء المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين من ناحية التدريس والتأليف فيهما.

– **علم التفسير:** هوعلم يشتمل على معرفة فهم كتاب الله المنزل على نبينا محمد ﷺ وبيان معانيه، واستخراج احكامه وحكمه[2]، ولا يمكن الخوض فيه الا لمن تمكن من مبادئ اللغة واصول الكلام، وفائدة هذا العلم حصول القدرة على استنباط الاحكام الشرعية على وجه الصحة[3].

دأب علماء المغرب الأوسط على العناية بتفسير ايات القرآن الكريم وحفظه. فكان الولوج لهذا العلم الا من قبل العالم المتضلع في علوم الشرع التي تحتاج الى ثقافة واسعة وعميقة ،ذلك ان القرآن يحتاج في تفسيره الى ثقافة دينية ،وتاريخية ولغوية قوية حتى يتمكن المفسر من تفسير كتاب الله[4].

وهذا ما امتاز به علماء المغرب الأوسط في القرنين الثامن والتاسع الهجريين فعمل عبد الرحمن الثعالبي على التفسير لم يأت أحد بعده في العهد الذي يلي عصره[5]، وباعتبار القرآن الكريم مصدر العلوم الشرعية الأخرى، فقد درس وفسر للناس في كامل بلاد المغرب الأوسط سواء في المساجد أم المدارس أم الزوايا وغيرها من مراكز التعليم في ذلك العصر[6]، إلا ان الميزة التي طبعت تفاسير علماء هذه البلاد هي اعتماد اغلبهم على الاثر في تفسيرهم[7]، وتميز نشاطهم كذلك بالقلة في هذا العلم[8].

إنتاج علماء المغرب الأوسط في علم التفسير: إن إنتاج علماء المغرب الأوسط خلال العصر الزياني في علم التفسير عرف نوعاً من الوفرة مقارنة مع ما ألف في مستهل القرن السابع الهجري(13م)، من هذا المنطلق نـود التعـرف علـى أهـم المفسرين الذين دونت القابهم وتصانيفهم في كتب التـاريخ والفهـارس والتـراجم والأثبات في هذا المجال، علاوة على ان علماء الفترة الزيانية تبصروا في العلـوم الدينية الأخرى.

ما يلفت انتباهنا هو انّنا لا نكاد نجد اسم مفسر واحـد خـلال القـرن الثـامن الهجري(14م) وهذا ما يدعونا للتساؤل لماذا لم يقم علماء المغرب الأوسط بتفسـير القرآن الكريم خلال المائة الثامنة للهجرة وان وجد اعلام فلماذا اغفلتها المصـادر التاريخية عن ذكرها.

أما في القرن التاسع الهجري فقد عرف إنتاجاً وفيراً من هذا العلم، ويعدّ تفسير الشيخ عبد الرحمن الثعالبي دفين مدينة الجزائر أبرز علمـاء هـذه الفتـرة علـى الاطلاق، وعد تفسيره من أهم التفاسير التي الفت في القرن التاسع الهجري(ق15م) بالمغرب الأوسط[9] ويعرف تفسره بـ"الجواهر الحسان في تفسير القرآن"[10] ويعـد هذا المؤلف اختصاراً لتفسير ابن عطية المتقدم، قال الثعالبي: "...فقد ضمنته بحمد الله، المهم مما اشتمل عليه تفسير ابن عطية"[11].

كما ألف الثعالبي كتابا أخر في علوم القرآن وهو "الذهب الابريز فـي غريـب القرآن العزيز"[12]. إضافة الى كتاب: "تحفة الاخوان فـي إعـراب بعـض ايـات القرآن"[13]، وله تفسير أخر موسوم بنفائس المرجان في قصص القرآن[14].

ومن علماء تلمسان الذين اعتنوا بتفسير كتاب الله أو سور أو ايات منـه نـذكر سعيد بن محمد العقباني[15] حيث عمل على تفسير "سورة الفتح" التـي بـين فيهـا العجب والعجاب[16] واتى بفوائد جليلة بتفسيره سورة "الانعام"[17]، وذكر ابـن مـريم المليتي أنه فسر"سورة الفاتحة"[18] .

لوحة لأهم علماء التفسير وتاليفهم في المغرب الأوسط على العهد الزياني:

المفسر	عمله في التفسير	الزمن	المصدر/الصفحة
احمد بن زاغو التلمساني	ألف "مقدمة في تفسير القرآن العظيم وخاتمة" -تفسير سورة الفاتحة	ت845ه تلمسان	التنبكتي، ص119 القلصادي،ص103
ابن مرزوق الحفيد	تفسير البحر اللمحيط وكشاف دقائقه في لفظه الوجيز الفائق على البسيط الوسيط فسر سور الاخلاص والمائدة ومريم لم: الايات الواضحات في وجه دلالة المعجزات.	ت842ه 1438م تلمسان	التنمبكتي،ص207 ابن مريم،ص67 البغدادي ايضاح المكنون، مج1، ص7.
محمد بن يوسف السنوسي	تفسير موجز للفاتحة، والقدر، البقرة. له: مختصر على حاشية التفتازاني على كشاف الزمخشري	ت895ه	التنمبكتي، ص572 ابن مريم، ص247 الزركلي، ج8، ص113.
محمد بن عبد الكريم المغيلي	كتاب: البدر المنير في علوم التفسير" كتاب: "الفتح المبين" تفسير الفاتحة	ت909ه 1503م	التمبكتي، ص577 ابن مريم، ص255

محمد بن قاسم أبوعبد الله الرصاع	كتاب: "الجمع والتقريب في ترتيب اي مغنى اللبيب"	ت894ه 1505م	التمبكتي، ص561
ابن أبي العيش الخزرجي التلمساني	تفسير المصحف الشريف	ت911ه 1505م	عادل نويهض، ص246
أبوالفضل ابن الإمام	كتاب: أبحاث في التفسير"	ت845ه 1441م	التمبكتي، ص521 عادل نويهض، ص75

نستشف من المصادر أن بعض اعلام العلم بالمغرب الأوسط لم تذكر لهم تفاسير محددة إلا ان المصادر التاريخية دلت على انهم فسروا القرآن الكريم في حلقات الدرس للطلبة في الكتاتيب والمساجد والزوايا، كالعالم المفسر محمد بن النجار (ت846ه/1442م) حيث ذكر القصادي خلال وفادته على تلمسان انه حضر وشهد دروسه في التفسير بتلمسان[19]. هذا وعد أبو يحي عبد الرحمن الحسني التلمساني(ت862ه/1423م) قامة في علم التفسير حيث ألف "تفسير سورة الفاتحة "على غاية من التحقيق"[20]. هذا والف ابراهيم بن فائد أبو إسحاق الزواوي (ت1453ه) "تفسير القرآن الكريم"[21].

علم القراءات: هو علم ينقل لغة القرآن وإعرابه الثابت بالسماع المتصل، كما يضبط به متن كلام الله تعالى بوجوهه المختلفة النازلة عليها المتواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهوعلم القراءات السبع، وبه يبحث عن صور نظم كلام الله تعالى من حيث وجوه الاختلافات المتواترة، ومبادئه مقدمات تواترية، والعرض منه تحصيل ملكة ضبط هذه الاختلافات وفائدته صون كلام الله عز وجل عن

تطرق التحريف والتغيير[22]، وبهذا العلم تعرف القراءة اداء ورواية وصحة وشذوذاً[23].

رصدت المصادر التاريخية ومصنفات التراجم والاثبات عدة مؤلفات لعلماء المغرب الأوسط في علم القراءات ،ففي القرن الثامن الهجري (ق14م) كتب العالم ابو عبد الله المقري الجد "رسالة في القراءات على الدوري"[24]، غير اننا نلاحظ الانتاج العلمي الوفير في القرن التاسع الهجري(ق15م) نذكر: كتاب: "المختار من الجوامع في محاذاة الدرر اللوامع في قراءة نافع"[25] للشيخ عبد الرحمن الثعالبي وهو عبارة عن شرح لكتاب ابن بري السابق الذكر، هذا الكتاب يوجد مخطوطا في المكتبة الوطنية الجزائرية ،ومن ميزاته ان مؤلفه يورد المتن مسبوقا بحرف الصاد ثم يتبعه بالشرح متبوعا بحرف الشين وفصوله وابوابه كالاتي: باب احكام الوقف واقسامه وباب ذكر معرفة المقاطع، كما الف الثعالبي كتاب "شرح منظومة ابن بري في قراءة نافع وقد جمع في هذا الشرح ما تفرق في غيره من الشروح ويمتاز بتنبيهات وتحرير مسائل مع المعمول به في قراءة نافع مع روايتي قالون وورش[26]"، كما له كتاب "التقاط الدرر"[27].

لوحة لأهم علماء القراءات وتأليفهم في المغرب الأوسط على العهد الزياني

العالم	عمله في القراءة	الزمن	المصدر/الصفحة
ابن مرزوق الحفيد	رجز حرز الاماني ارجوزة الفية في محاذاة الشاطبية	ق9ه/15م	المقري، نفح الطيب، ج6 ص355. التمبكتي، ص507.
محمد بن يوسف السنوسي	-شرح الشاطبية الكبرى -مختصر في القراءات السبع.	ق9ه/15م	ابن مريم، البستان، ص211 التمبكتي، ص572.

محمد بن عبد الجليل التنسي	-رسالة في القراءات -الطارز في شرح الخزار	(ت899ه)	خزانة يوسف بمراكش رقم372. نسخة م وج. رقم:390.
محمد بن احمد المصمودي	"المنحة المكية"	ق9ه/15م	نسخة موجودة في مكتبة باريس: رقم:1057.
احمد بن عثمان بن ثابت التلمساني	الرسالة الغراء في ترتيب خلاف وجوه القراء	ق9ه/15م	نسخة م وج. رقم:1254. مجموع 03/ونسخة رقم2419 /مجموع 04.
محمد بن توزينت التلمساني	"تقييد في القراءات"	ق9ه/15م	توجد منه نسختان في المكتبة الوطنية الجزائرية.
محمد بن شقرون الوهراني[28]	"تقريب المنافع في الطرق العشر لنافع"	الفه سنة 890ه	نسخة موجودة في مكتبة باريس: رقم:4532.
ابوعبد الله المجاصي[29]	"منظومة في غريب القرآن"	ق9ه/15م	نسخة م وج. رقم:413.

وهناك من العلماء من لم يدونوا في هذا العلم ولكنهم عدوا من المقرئين والمجودين الكبار للقران الكريم كاحمد بن عبد الله شهاب الدين الندرومي (ت830ه)، الذي عد من أكابر المقرئين في عصره، ورحل للقاهرة وتصدر الإفتاء فيها[30]، وكذلك الولي محمد التازي نزيل وهران (ت866ه/1461م) الذي كان حسن القراءة والصوت[31] .

ما يمكن ان نستنتجه أن إنتاج علماء المغرب الأوسط في هذا العلم لم يكـــن إلا تناولاَ لما سبق تأليفه بالشرح والاختصار، كما تميز بالقلة مقارنة بالعلوم الأخرى.

3/اسهام علماء المغرب الأوسط في مجال اللغة العربية وعلومها فـــي العهــد الزياني: يرجع الازدهار الذي شهده المغرب الأوسط فـــي العهـــد الزيـــاني الـــى الاتصال الوثيق بين العلوم مع القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف بالبرغم من التراجع الذي شهدته العلوم التجريبية خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين، الامر الذي فسح المجال لهيمنة العلوم الدينية في مجال التعليم والتليف؛ نلحظ ان مـــا تـــم انتاجه في العلوم اللسانية واللغوية والادب خلال القرن التاسع ه/31م لم يكن سوى اجتراراَ لما سبق انتاجه في القرون السابقة ففي الادب مثلا اقتصرت همم العلمـــاء على وضع الشروح والتقاييد والتعاليق على ما انتجته قرائح الشـــعراء والادبـــاء القدامى.

يسلط هذا البحث الضوء على جوانب من الحياة الثقافية تحديدا مساهمة علمائـــه في مجال اللغة العربية وعلومها. التي عرفها المغـــرب الأوســـط خـــلال الفتـــرة الوسيطية الزيانية، فمنذ القرن الثاني للهجرة بدأ المغرب الأوســـط يشـــق طريقـــه نحوالتمدن والاستقرار حيث شهد في منتصف القرن الثاني للهجرة بدايـــة تشـــكل الامارات المستقلة عن الخلافة ببلاد المشرق بداية بظهور إمارة تاهرت الاباضـــية سنة 361هــ ثم الامارات العلوية بمدن حمزة وتنس وشـــلف وتلمســـان وســـهول متيجة وكانت تلك الامارات بمثابة حواضر علمية أثرت تأثيرا بالغا فـــي تطـــوير الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط ليتوالى بعد ذلك ظهور المدن السياسية التي سرعان ما تتحول إلى حواضر علمية كقلعة بني حماد وبجاية ثم تلمسان، وبذلك ترســـخت الثقافة العربية وانتشرت العلوم الاسلامية في مختلف أرجاء بلاد المغرب الأوسط.

النحو: يدخل النحو واللغة عند العرب بما عرف بعلوم العربية التـــي تحتـــوي على هذين العلمين[32] والنحو هو علم يتعرف منه على احوال اللفظ المركـــب مـــن جهة ما يلحقه من التغايير المسماة بالإعراب والبنـــاء وانواعهـــا مـــن الحركـــات

والحروف مواضعها ولزومها وكيفية دخولها في الجمل لتبيين دلالتها والغاية من هذا العلم الاحتراز من الخطا في الفاظ العرب من جهة اصل تركيب الدال على اصل المعنى[33]. أسهم علماء المغرب الأوسط في اثراء علوم اللغة العربية بمؤلفات عديدة من اهل القرن الثامن الهجري 34م حيث نذكر:

إسم العالم وكنيته	التأليف في اللنحو	الزمن	المصدر/الصفحة
محمد بن ابي بكر عبد الرحمن المقري ت759ه	شرح التسهيل شرح النظائر /اعراب القرآن الكريم	ق8ه/ 14م	عادل نويهض، ص313. بشير يف، ص.345
احمد بن محمد التنسيت801ه	شرح كتاب التسهيل شرح الكافية	ق8ه/ 14م	الزركلي، الاعلام، ج،3ص.225 بشير يف، ص333.
احمد بن محمد بن غازي بن موسى الداودي التلمساني ت841ه	حدق المقتلين تقييد على شرح المرادي لألفية ابن مالك.	ق9ه/ 15م	هلال ناجي،نفائس المخطوطات في المكتبة الوطنية بتونس،ص67
ابن مرزوق الحفيد ت842هه	-ايضاح السالك على الفية ابن مالك -التسهيل لابن مالك	ق9ه/ 15م	السخاوي، ج،7ص.13 البغدادي، هدية العارفين ح6 .394،. ص ابن مريم، البستان

	-شرح شواهد الالفية -الاستيعاد لما في البردة من البيان والاعراب. -المعراج الى ستمطار فؤاد الاستاذ -ابن سراج		ص.433 البغدادي ايضاح المكنون 74.، ص3، ج الكتاني فهرس الفهارس، ج،3ص.494
قاسم بن سعيد العقباني ت854ه	كتاب قواعد النحو	ق9ه	كحالة معجم المؤلفين، ج، 4 ص.411
محمد بن العباس العبادي التلمساني ت871ه	تحقيق المقال وتسهيل المثال في شرح لامية الافعال شرح لامية الافعال	ق9ه	محمد الطمار، ص.371

يتضح لنا من الجدول مدى انصباب علماء تلمسان وفقهائها على دراسة النحو والصرف نتيجة لتبصّرهم وتمكنهم من هذا العلم.

علم اللغة: يقصد به علم نقل الألفاظ الدالة على المعاني المفردة وضبطها وتمييز الخاص بذلك اللسان من الدخل فيه [34] وتفصيل ما يدل على الاحداث وما يدل على الادوات وبيان ما يدل على اجناس الاشياء وأنواعها وأصنافها مما يدل على الاشخاص[35].

عرف المغرب الأوسط في عهد الزيانيين ازدهارا في علم اللغة العربية نتيجة لتلك الحركة الدؤوبة التي عرفتها العلوم اللسانية وفروعها من خلال قيام العلماء اختصار وتفسير وشرح الكتب الصعبة وتحليلها ونقدها ومما لا شك فيه ان هذه

الحركة العلمية أسهمت في تطور اللغة العربية بالمغرب الأوسط[36] وتشير الترسيمية التالية الى اهم إسهامات علماء المغرب الأوسط في ذلك:

اسم العالم وكنيته	التأليف في علم اللغة	الزمن	المصدر/الصفحة
محمد بن هدية بن علي القرشي التلمساني ت750ه	لعلق النفيس في شرح رسالة ابن خميس[37]		بشير ضيف ص333.
محمد بن ابي بكر عبد الرحمن المقري ت759ه	شرح لغة قصائد المغربي الخطيب		عادل نويهض ص313
ابن مرزوق الحفيد ت842ه	الذخائر القراطسية في شرح الشقراطيسية		البغدادي ايضاح المكنون، ج1 ص540
عبد الرحمن الثعالبي ت873ه	شرح غريب مختصر ابن الحاجب الفقهي		/
سعيد العقباني	شرح البردة (قصيدة)		ابن مريم ،البستان ص106.
محمد بن يوسف السنوسي	الدر المنظوم في شرح قواعد ابن اجروم		الملالي،؟ المواهب القدوسية، ص314.
محمد بن عبد الكريم المغيلي ت909ه	مقدمة في اللغة العربية[38]		بشير ضيف ص362.

علم البيان والعروض والقوافي: إعتنى علمـــاء وفقهـــاء المغـــرب الأوســـط بالدراسات اللغوية والاداب من خلال انكباهم على التـــاليف فـــي مجـــال البلاغـــة لارتباطها الوثيق بعوم القرآن والحديث كون الدارس يجد صعوبة في ادراك تفسير معاني النصوص الشرعية دونما تمكن من مفردات اللغة والبيان؛ كما اهتم علمـــاء المغرب الأوسط بالعروض وتصحيح ازوان الشعر والتطرق الى الانواع والأوزان المستعملة التي تدعى بالبحور وكيفية تطبيقها بالتفاعيل[39] والغرض منـــه تحصـــيل ملكة إيراد الكلام على واحد من الايقاعات المتناسبة لتحقيق غاية الاحتـــراز عـــن الخطا في ايراد الكلام عليه. ومن علماء تلمسان الذين برعوا في الحركة اللغويـــة نجد:

إســـم العـــالم وكنيته	**التأليف في علـم البيان والعـروض والقوافي**	نوعه	**الزمن**	**المصدر/الصفحة**
احمد بـــن يحـــي عبد الواحد بـــن ابـــي حجلـــة التلمســـــــاني ت776ه	كتاب مقامات	نثر		الزركلي، الاعـــلام، ج1، ص269

ابن مرزوق الجد ت 781ه	خطب جمعية خطب مرتبة على حروف المعجم له "خطب كثيرة من غير التزام حروف المعجم"	نثر		يحي بوعزيز، ج2، ص152. ابن مرزوق، المناقب المرزوقية،ص84
عبد الله بن محمد بن علي شرف الدين التلمساني	شرح خطبة ابن نباتة "شرح خطب الاربعين	نثر		محمد الطمار، ص74. البغدادي ايضاح المكنون، ج1، ص431
ابن مرزوق الحفيد ت842ه	ارجوزة "نظم التلخيص[40] شروح ثلالثة "اظهار صدق المودة في شرح قصيدة البردة[41].	نثر		المقري، نفح الطيب، ج6 ص347.
احمد بن زاغو	"شرح تلخيص القزويني"	نثر		القلصادي، رحلة، ص301.
احمد بن جعفر الداودي التلمساني	"حاشية على التفتازاني"	نثر		عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، ج2، ص272.

عفيف الدين الكومي ت690ه	"كتاب العروض"	العروض		الزركلي، الاعلام ج31 ص130.
ابراهيم بن ابي بكر بن عبد الله بن اسحاق التلمساني ت690ه	"مقالات في العروض" "المعشرات على اوزان العرب"	العروض		كحالة، معجم المؤلفين ج2، ص303.
فتوح بن عيسى الصنهاجي	"شرح الخزرجية" "المفاتيح المرزوقية في استخراج رموز الخرجية"	الثاني		ابن فرحون الديباج المذهب، ج1، ص275.
محمد بن عبد الكريم المغيلي ه909ت	"المعروض في علم العروض[42]"	العروض		البغدادي ج،6ص.194
أحمد بن يحي الونشريسي ت914ه	"شرح الخزرجية[43]"	الثاني		بشير ضيف، المرجع السابق، ص34.

إن الملاحظة التي يمكن ان نبدي بها ان هذا العلم عرف نوعاَ من النمو والتطور في القرن الثامن الهجري فألف فيه الكثير من العلماء، ولكن تراجع التأليف في هذا المجال بداية مع القرن التاسع الهجري 15م.

علم الادب: يعرف ابن خلدون الادب على انه الاجادة في فني النظم والنثر او ما يعبر عن معنى الحياة بأسلوب لطيف سواء كان شعراَ ونثرا[44] وتتحصر مقاصده

في عشرة علوم وهي علم اللغة، التصريف، المعاني، البيان، البديع، العروض القوافي، النحو، قوانين الكتابة والقراءة[45]. وقد لعبت تلمسان دورا بارزا في تفتق قريحة الادباء وإثارة احاسيسهم كما كان لثراء الدولة الزيانية دور هام في جلب الشعراء[46]. كما عملت هجرة الاندلسيين الى حواضر المغرب الأوسط في تفعل الادب الزياني[47] دون ان يفقد خصوصيته المغربية؛ هذه العوامل ادت الى شحذ همم وقرائح الشعراء فاتوا بشعر كثير وراق كما حوى الشعر الزياني كل مظاهر الحياة السياسية والعلمية والاجتماعية والى جانب هذا النثر الفني نجد نثرا مرسلاً في الاسلوب العلمي والكتابة التاريخية كابن خلدون والتنسي. كما اهتم هؤلاء بالموشحات الاندلسية الواردة عليهم من اهل الاندلس فنسجوا منها أشعاراً بالإضافة الى عامل تغلغل الادب الصوفي في المنطقة.

اسم العالم وكنيته	التأليف في علم الأدب	الزمن	المصدر/الصفحة
أبو عبد الله الثغري القيسي التلمساني ت703ه	"ديوان الشعر "	ق8ه/ 14م	ابن خلدون البغية، ج1 ص72-87. المقري، ازهار الرياض ج3، ص229.
ابن خميس وجمعه ابو عبد الله القاضي لحضرمي	"الدر النفيس في شعر ابن خميس" "ديوان الصبابة"	ق8ه/ 14م	ابن الخطيب، الاحاطة في اخبارغرناطة، ج2، ص109 عادل نويهض، ص305.
ابن حجلة التلمساني	"كتاب الادب الغض" "سكردان الملوك	ق8ه/ 14م	البغدادي، ايضاح المكنون، ج 1، ص96.

يحـــي ابـــن خلدون	له مجموعة قصـــائد مولدية	ق8ه/ 14م	ابـــن خلـــدون البغيـــة، ج2 ص18.
محمد بن ابـــي بكر ابن العطار ت717ت	"ديوان شعر" "نظـــم الدرر في مدح ســـيد البشر صلى الله عليه وسلم"	ق8ه/ 14م	المقـــري،نفح الطيـــب ،ج7 ،ص480 .
ابوحموموســـى الثاني الزياني	له عدة اشعار مولدية وفـــي الفروســـية والرثاء.	ق8ه/ 14م	ابـــن خلـــدون البغيـــة، ج2 ص105.
ابوعبـــــد الله التنســـــــي ت899ه	"راح الارواح فيمـــا قالـــــه المـــــولى ابوحمـــــــــومن الشعر وقيل فيه من الامداح وما يوافـــق ذلك على حســـاب الاقتراح"	ق9ه/ 15م	المقري، نفـــح الطيـــب، ج6 ص213.
محمد بن عبـــد الكريم المغيلي 919هت	له"قصيدة "عـــارض بها البردة.	ق10 16/ه م	ابن مريم البستان، ص253.
محمـــد عبـــد الحوضـــــــي ت931ه	"مرثية محمـــد بـــن يوسف السنوسي "	ق10 16/ه م	المكتبة الوطنيـــة الجزائريـــة ،رقم:2396.

ابو جمعة التلالسي 764ه	الموشحات والشعر المولدي	ق8ه/ 14م	ذكرها صاحب البغية.
ابو عبد الله الشريف	"مفتاح الوصول الى بناء الفروع على الاصول"	ق8ه/ 14م	راجع المصدر، ص15.
يحي ابن خلدون	وصف تلمسان .	ق8ه/ 14م	اب خلدون البغية، ج1 ص10
ابو حمو موسى الثاني الزياني	الموشحات والشعر المولدي	ق8ه/ 14م	راجع المصدر (مقدمة المحقق، ص106.

خاتمة ظلت الرحلة في طلب العلم مظهراَ مشرفاَ ونبيلاَ في الثقافة العربية الإسلامية، حيث ظل الناس يتبادلون الرحلات للتزود من ينابيع المعرفة، والسماع من أكابر العلماء والمفكرين ومجالساتهم ومناقشاتهم، ولقد كان المتعلمون أوطلاب العلم بالمغرب الأوسط يلتمسون مشافهة الرجال والاتصال بهم شخصيا وكانوا يفتخرون بذلك ويتباهون، فكان طلاب المغرب العربي يتركون بلداتهم بعد أن يحّصلوا ما لدى علمائها فيتوجهون إلى مراكز العلم المنتشرة في أنحاء العالم الإسلامي، ويكابدون مشاق السفر وأخطاره التي يعجز المرء عن وصفها، مما خلد لهم ذكرا رفيعا في أغلبها، ومن هنا فقد بات المثقف المغربي لا يعد نفسه مثقفا مكتمل الثقافة إلا إذا قام بالرحلة إلى بلد المشرق ليحج، ويتصل بعلماء المشارقة ولقد ظلت هذه السيرة قائمة إلى النصف الأول من القرن العشرين.

اعتنى الزيانيون بعلوم القرآن الكريم وباللغة العربية لكونهم درسوها في المشرق وتاثرهم بعلماء الاندلس فقد وانتشرت اللغة العربية في ربوع الدولة العبد الوادية باعتبارها لغة البلاد الرسمية في المكاتبات والمعاملات وشئون الدولة وكان

لمجيء العلماء إلى المدن دور كبير في انتشار اللغة العربية وازدهارها،وكان أيضا لقدوم القبائل الهلالية إلى المغرب الإسلامي أثر كبير في دعم اللغة العربية وانتشارها لتمسك هذه القبائل البدوية باللسان العربي بالإضافة إلى الاتصال بالمراكز الثقافية الأخرى بالمغرب الأوسط كبجاية وتلمسان.

برزت مكانة علماء المغرب الأوسط في مجال اللغة العربية وعلومها من خلال رافد فكري مرجعياته ومصادره من خلال شيوخه وعلمائه الذين كانت لهم إسهامات متعددة في مختلف المجالات العلمية؛ العقلية منها والنقلية، وقد أردنا في هذا المقال نفض الغبار عما خلفه علماء المغرب الأوسط في اللغة العربية وعلومها مسلطين الضوء على الرواد والعلماء الذين برزوا في بلاد المغرب الأوسط على اختلاف مشاربهم وعكفوا على دراستها والكتابة فيها.

الاحالات:

1طاش كبرى زادة، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، تحقيق كامل بدري وعبد الوهاب ابو الانوار، دار الكتب الحديثة القاهرة، 1968م، ج2، ص ص54-11؛ 2القنوجي صديق بن حسن: ابجد العلوم، ج1، الوشي المرقوم في احوال العلوم، اعده للطبع عبد الجبار زكار، وزارة الثقافة و الارشاد القومي، دمشق،1978م،ص 101؛محمد علي الصابوني: لتبيان في علوم القران، نشر وتوزيع مكتبة رحاب، ط3، 1986م، ص6.

[2] ابن الاكفاني محمد بن ابراهيم بن ساعد الانصاري (749ه/1348م): ارشاد القاصد الى اسنى المقاصد في انواع العلوم، تحقيق وتعليق عبد المنعم عمر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1990م ص157؛ ابن خلدون عبد الرحمن (ت808ه/1394م)، المقدمة، اعتنى بها مصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط1،2005م، ص457؛حاجي خليفة، المصدر السابق،مج2،ص427؛ طاش كبرى زادة: المصدر السابق، ج2،ص ص 54-334.

[3] التوقاني لطف الله بن حسن: رسالة في العلوم الشرعية والعربية، تقديم وطبع وعليق رفيق العجم، دار الفكر اللبناني ،بيروت، ط1، 1994م، ص49-50.

[4] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر الى القرن الرابع عشر الهجري (16-20ه)، الشركة الوطنية والتوزيع،1981م، ج2، ص11-12.

[5] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج1، ص11-12.

[6] القلصادي علي بم محمد القرشي الاندلسي (ت891-1486م): رحلة القلصادي المسماة تمهيد الطالب ومنهى الراغب الى اعلى المنازل والمناقب، دراسة وتحقيق محمد ابو الاجفان، الشركة التونسية للتوزيع،1978م، ص102. أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج1، ص12.

[7] عبد الرحمن الثعالبي: الجوار الحسان في تفسير القرآن، ص(أ)؛ فؤاد القاسمي: فهرس مخطوطات المكتبة القاسمية، الجزائر، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 2006م، ص139-219.

[8] عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، موضع للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002م، ج 2، ص438.

[9] عبد الرحمن الثعالبي: الجوار الحسان في تفسير القرآن، ص(ج)؛ مجهول: القول الاحوط فيما تداول من العلوم وكتبها بالمغربين الاقصا والاوسط، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم:3185، ورقة7.

[10] التنبكتي احمد بابا (ت1036ه/1627م): نيل الابتهاج بتطريز الديباج، اشـراف وتقـديم عبـد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الاسلامية، طرابلس/ليبيـا، ط1989م، ص258-259؛ البغدادي اسماعيل باشا: هدية العارفين في اسماء المؤلفين واثار المصـنفين، دار الكتـب العلمية، بيروت /لبنان، 1992 م، مج3، ص544.

[11] القرافي بدر الدين: توشيح الديباج وحلية الابتهاج، تحقيق وتقديم احمـد احمـد الشـتيوي، دار الغرب الاسلامي، بيروت،1983م، ص120.

[12] عادل نويهض: معجم المفسرين من صدر الاسلام الى العصر الحاضر، تقديم حسن خالد، ط3، 1988م، ج1، ص276.

[13] البغدادي، هدية العارفين، المصدر السابق، مج5، ص532.

[14] عبد الرحمن الثعالبي: المصدر السابق، مج5، ص5.

[15] هو أبو عثمان سعيد بن محمَّد بن محمَّد العقباني التجيبي التلمساني القاضي الفقيـه المـالكي المحقِّق النَّظَّار، ولي قضاء تلمسان وبجاية وسلا ومراكش، وكان يلقَّب برئيس العلماء والعقـلاء ووصفه ابن صعد بالفقيه العلَّامة خاتمة قضاة العدل بتلمسان، له تآليف منها: «شرح الحوفية» في الفرائض، و«شرح الجمل للخونجي» في المنطق، وشرح على «ابن الحاجب الأصلي»، توفي سنة (811ه). أحمد بن يحيى بن محمد الونشريسي التلمسـاني، أبـو العبـاس المـالكي (المتـوفى: 914هـ)، تحقيق محمد بن يوسف القاضي، شركة نوابغ الفكر للنشر والتوزيع والتصدير الطبعة: الأولى، 2009م، ص137. أبوعبد الله محمد بن محمد بن علي بن عبد الواحد المجاري الأندلسي (المتوفى: 862هـ): برنامج المجاري، تحقيق، محمد أبـو الاجفـان، دار الغـرب الاسـلامي- بيروت/ لبنان، الطبعة الأولى، 1982م/ 1400م، ص129.

[16] ابن القاضي المكناسي أبي العباس احمد بن محمد(ت1525ه/1616م)، درة الحجال في اسـماء الرجال، تحقيق محمد الاحمدي ابو الانوار، المكتبة العتيقة، تـونس،1971م، ص431.مخلـوف محمد بن محمد(ت1360ه)، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، خرج حواشيه وعلق عليـه عبد المجيد خيالي ومحمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت/لبنان،2003م، ج1، ص360-361.

[17] التنبكتي، المصدر السابق، ص190.

[18] ابن مريم أبو عبد الله محمد بن احمد المليتي المديوني (كان حيا في 1014ه /1605م)، البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان، نشره محمد بن ابي شنب، ديوان المطبوعات الجامعية،1986م، ص106.

[19] القلصادي، المصدر السابق، ص102.

التنمبكي: المصدر السابق، ص170.[20]

[21] ابن القاضي المكناسي، درة الحجال، ج1، ص258. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية، مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، الرسالة ناشرون، بيروت /لبنان، الطبعة الاولى، 1993م، ج1، ص73.

[22] الاكفاني: المصدر السابق، 154.ابن خلدون: المقدمة: ص455.

[23] مجهول: القول الاحوط، الورقة10، القنوجي: ابجد العلوم، ج1، ص123.

[24] الدوري هو حفص بن عمر بن عبد العزيز الدوري البغداداي: النحري المقرئ ولد سنة 150ه ايام خلافة المنصور وتوفي في 246ه. عن ترجمته ينظر: عبد الفتاح القاضي: تاريخ القراء العشرة ورواتهم وتواتر قرائتهم ومنهج كل في القراءة، مطبعة المشهد الحسيني، القاهرة/مصر 1970م، ص18.

–توجد نسخة منها في زاوية تنغلمت بمراكش بالمغرب الاقصى تحت رقم 134.

[25] توجد منه نسخة المكتبة الوطنية رقم 405.ابن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في تاريخ الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحية، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1972م، ص341.

[26]طبع متن الكتاب في المطبعة الثعالبية بالجزائر سنة1324ه، سركيس: معجم المطبوعات ص661–668.

[27] البغدادي إسماعيل باشا: ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، دار الكتب العلمية بيروت/لبنان،1992م، مج1، ص117.

[28] هو أبو عبد الله محمد شقرون بن محمد بن أحمد بن أبي جمعة المغراوي الوهراني الفاسي محدث ومقرئ كما ذكر ذلك صاحب معجم المؤلفين ووالده هو العالم المقرئ الأديب، الشيخ أبو العباس أحمد بن أبي جمعة المغراوي الوهراني (ت 920 هـ/1514م)، كان أحد أعلام وقته ومن أهل الفتوى، وهو صاحب الفتوى الشهيرة إلى الموريسكيين توفي شقرون الوهراني عام

(929هـ). كحالة ،معجم المؤلفين، ج4 ، ص 303.عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر ،ص79.

[29] هو أبو محمَّد عبد الله بن عبد الواحد بن إبراهيم بن الناصر المجاصي، الملقب بـ «البكَّاء» لكثرة بكائه ورعا وتقوى، وصفه المقري: «بعالم الصلحاء، وصالح العلماء، وجليس النزيل وحليف البكاء والعويل». كان أبو محمَّد المجاصي من أهل الحديث والدِّين، رحل إلى المشرق في طلب العلم، وتولَّى التدريس والوعظ بتلمسان، ومن أشهر تلامذته: الشريف أبو عبد الله التلمساني والمقري الكبير، وابن مرزوق الجد، وتوفي بتلمسان سنة (741هـ). «وفيات الونشريسي» ص111، التنبكتي، نيل الابتهاج، ص132، ابن مريم: البستان، ص121.

[30] عادل نويهض: معجم اعلام الجزائر، المرجع السابق، ص329.

[31] السخاوي شمس الدين محمد بن عبد الرحمن(ت902ه/1497م)، الضوء اللامه لاهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت/لبنان، تحقيق وطبع أوفست كونروغرافير، ج2، ص181.

[32]القنوجي صديق بن حسن، أبجد العلوم، المحقق: عبد الجبار الزكار، وزارة الثقافة والإرشاد القومي دمشق – دار الكتب العلمية، بيروت /لبنان3971 م، ج، 3ص.344طاش كبرى زادة، مفتاح السعادة، ج،3 ص.31

[33] ابن الأكفاني محمد ابن ابراهيم بن ساعد الانصاري (ت749ه/3141م)، ارشاد القاصد الى اسنى المقاصد في انواع العلوم، تحقيق وتعليق: عبد المنعم عمر، دار الفكر العربي القاهرة/مصر،3991م.، ص.

[34] ابن الاكفاني، المصدر السابق، ص.343

[35] محمد حسين محاسنة، اضواء على تاريخ العلوم عند المسلمين، دار الكتاب الجامعي العين/الامارات العربية المتحدة، 4113م، ص.374

[36] عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، موفم للنشر/الجزائر، ج،4 ص.414

[37] راجع الكتاب ومقدمة المحقق، دار الغرب الاسلامي، بيروت/لبنان،3991م

[38] توجد منه نسخة مخطوطة في مكتبة تمنطيط بولاية ادرار جنوبي الجزائر.

[39] ابن الاكفاني، المصدر السابق، ص.341

[40] ابن الاكفاني، المصدر السابق، ص.341

[41] حققها محمد الكوار جامعة محمد الخامس، دبلوم الدراسات المعمقة،1994م

[42] توجد منه نسخة مخطوطة بدار الكتب الناصرية بتمكروت تحت رقم بالمغرب الاقصى .3177

[43] توجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة الطارفة بالقرارة بولاية غرداية.

[44] إبن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، اعتناء: مصطفى شيخ مصطفى، مؤسسة الرسالة ناشـــرون بيروت/لبنان، ص620.

[45] إ بن الاكفاني، المصدر السابق، ص.109.

[46] محمد بوشقيف، تطور العلوم بالمغرب الاوسط خلال القـــرنين الثـــامن والتاســـع الهجـــريين (ق34/31م)، اطروحة دكتوراه، كلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان،2011/2010م، ص190.

[47] محمد الطمار، تاريخ الادب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيـــع، الجزائـــر، 1981م ص177.

دور الدراسات القرآنية في نمو البلاغة العربية
دلائل الإعجاز أنموذجا

أ. بن يحيى ناعوس
المركز الجامعي أحمد زبانة، غليزان.

توطئة: يحاول هذا البحث تتبع نمو البلاغة العربية، باعتبارها عنصرا أساسيا من إعجاز القرآن الكريم، من خلال الدراسات القرآنية وخصوصا التي انكبت على تبيان سر الإعجاز في القرآن الذي أبهر العرب بفصاحته وسحرهم ببيانه، مما جعل العلماء المهتمين بذلك أمثال عبد القاهر الجرجاني الذي يحاول أن يجيب عن سؤال: ما سر أن لغة القرآن التي بهرت القوى والقدر؟ من خلال كتابيه: اسرار البلاغة ودلائل الإعجاز.

فما علاقة هذين الكتابين بنمو البلاغة العربية؟

وأين يكمن تأثير دراسة لغة القرآن الكريم في خدمة البلاغة العربية؟

لغة القرآن الكريم: يوضح القرآن الكريم لنا في كثير من سوره أنه نزل بلسان عربي مبين ليتم الفهم والتدبر، والغوص في معانيه، والوقوف على مراميه التي هي المقصد العام من نزوله حيث قال تعالى:﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ٢ ﴾[يوسف:2] فالقرآن عربي اللسان ولن يستطيع فهمه بعيدا عن هذا اللسان ولأنه "نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه، ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه"[1].

وهذه اللغة العربية تتحدث عن خصالها وتدافع عن نفسها من الهجمات المتكررة التي تتعرض لها من أبنائها قبل أعدائها:

رَجَعْتُ لنفْسِي فاتَّهمتُ حَصاتِي ونادَيْتُ قَوْمِي فاحْتَسَبْتُ حياتِي

رَمَوني بعُقْمٍ في الشَّبابِ وليتَني عَقِمتُ فلم أجزَعْ لقَولِ عِداتي

ولَــدتُ ولمَّــا لــم أجِــدْ لعرائســي	رِجـــالاً وأَكفـــاءً وَأَدْتُ بنـــاتِي
وسِـــعتُ كِتـــابَ اللهِ لَفظـــاً وغايـــةً	ومــا ضِــقْتُ عــن آيٍ بــه وعِظــاتِ
فكيف أضِيقُ اليــومَ عــن وَصــفِ آلــةٍ	وتَنْسِـــيقِ أســـماءٍ لمُخْتَرَعـــاتِ
أنا البحــر فــي أحشــائه الــدر كــامن	فهل ســاءلوا الغــواص عــن صــدفاتي
فيــا وَيحَكُــم أبلــى وتَبلــى مَحاسِــني	ومــنْكمْ وإنْ عَــزَّ الــدّواءُ أســاتِي
فــلا تَكِلُــوني للزّمــانِ فــإنّني	أخــافُ علــيكم أن تَحــينَ وَفــاتي
أرى لرِجــالِ الغَــربِ عِــزّاً ومَنعَــةً	وكــم عَــزَّ أقــوامٌ بعِــزِّ لُغــاتِ
أتَــوْا أهلَهُــم بــالمُعجِزاتِ تَفَنُّنــاً	فيــا ليــتَكُمْ تــأتونَ بالكلِمَــاتِ
أيُطرِبُكُم مــن جانِــبِ الغَــربِ ناعِــبٌ	يُنــادي بِــوَأدي فــي رَبيــعِ حَيــاتي[2]

لهذا فهذه اللغة خالدة بخلود القرآن الذي فقه العرب الأوائــل ذلــك فمنــذ أن "بــدأ اهتمامهم يتجه إلى المحافظة على القرآن الكريم، دستور العربية الخالد، فإذا به منطلــق العقل العربي إلى دراسة نصوص اللغــة، ومتنهــا، وقواعــدها النحويــة والصــرفية الصوتية والبلاغية وإذا بالعلماء منذ عهد مبكر يبدؤون في اللمسات الأولى في العلــوم العربية، استهدافاً لخدمة النص القرآني الكريم"[3] فخدمة اللغة خدمة للكتاب المنزل.

يخبرنا القرآن في كثير من الآيات البينات الواضحات على أنه نزل بلسان عربــي مبين إذ يقول الله تعالى: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر:28] وقال أيضا: ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت:3] فالدعوة إلى تعلم العربيــة يوصل إلى فهم القرآن، والوقوف على علم الكتاب الذي به التقوى والعلم الحقيقي.

بل يحثنا القرآن على نشر تعاليمه وتبيانها للناس قاطبة بلسان عربي مبين للحقــائق وموضح للقضايا الأساسية التي بها فلاح الإنسان ونجاحه قال تعــالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ

إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الشورى:7] فالعقل كل العقل لمعاني القرآن لن يكون بلسان آخر، وإنما يكون بلسان عربي واضح ومبين، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف:3] وفي قوله ايضا﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأحقاف:12].

لهذا لما بحث العرب الأوائل في طرائق العرب في الإبانة بالبحث فيما خلفوه من شعر وحكمة وأمثال وخطب وغيرها وجودوا ثروة بلاغية عظيمة حتى قيل: "لو وجد الحكيم أرسطو في شعر اليونانيين ما يوجد في شعر العرب من كثرة الحكم والأمثال والاستدلالات واختلاف ضروب الإبداع في فنون الكلام ··· لزاد على ما وضع من القوانين الشعرية"[(4)] والفنون الخطابية الشيء الكثير.

وظل علماء العرب ينقبون في التراث البياني ويستخرجون كنوزه العظيمة التي زخرت بها المؤلفات الكثيرة التي امتلأت بها المكتبة التراثية انطلاقا من الخطابي والرمانيو الباقلاني والجاحظ وعبد القاهر وغيرهم، لأن البلاغة العربية بحر زاخر لا يمكن استخراج صدفاته العظيمة والثمينة في وقت محدد بل "كيف يظن إنسان أن صناعة البلاغة يتأتى تحصيلها في الزمن القريب، وهي البحر الذي لم يصل أحد إلى نهايته مع استنفاد الأعمار. [(5)]

واستمر العمل متواصلا على نفس الوتيرة منذ عصره صلى الله عليه وسلم إلى حين وفاته على هذه السنن المستقيم، وكذلك الصحابة ساروا على نفس المنهج الذي سلكه الرسول صلى الله عليه وسلم، فكان اللسان العربي عندهم صحيحاً محروساً لايتداخله الخلل ولا يتطرق إليه الزلل[6] ولا يشوبه الدخن.

وكان الدافع الأساسي لهذا النشاط المعرفي والعلمي عاملين اثنين:

1-**العامل الديني:** كان لابد من شرح وتفسير القرآن الكريم والحديث الشريف ليتمكن العرب والأعاجم من فهم النصوص الدينية، فاجتهد العلماء في شرح ألفاظ القرآن ومعانيها في مواضعها؛

2- **اللحن اللغوي** : تفشت ظاهرة اللحن اللغوي بعد دخول الأعاجم وغير العرب وهو انحراف كلام العرب وقواعد النحو والصرف[7] وقواعد البيان التي سار عليها العرب الخُلص وتوارثوها.

واستمر العلماء، وفقا لهذا، ينهجون نهجهم الذي وضعوه لأنفسهم في خدمة لغة القرآن حتى وضعت القواعد، وأُسست المدارس في شتى الفنون والمعارف، وعرفت في ذلك مناطق بتخصص في فن من الفنون حيث تمت أوليات الدراسة النحوية في مدينة البصرة، وشملت تلك الفترة التي تمتد من أبي الأسود إلى الخليل بن أحمد وتلميذه سيبويه وكلاهما يعد أنموذجاً للثقافة العربية الجامعة[8]، ويمثلان البداية الفعلية للنشاط العلمي الدؤوب.

دور الدراسات القرآنية في نمو الدرس البلاغي:

انطلاقا من ذلك المنهج الذي رُسمت لبناته من أيام الرسول ﷺ، وبينت ملامحه في عهد الصحابة حتى قال ابن مسعود: "مَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ فَلْيُثَوِّرِ الْقُرْآنَ، فَإِنَّ فِيهِ عِلْمَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ"[9]. ومن هنا سار البحث العلمي الجاد يؤسس لنفسه قواعد صارمة لا يحيد عنها قيد أنملة.

واستقر في ذهن العلماء وأساطين البيان في شتى الأزمنة والعصور على أن "كتاب الله؛ لو نُزِعت منه لفظة، ثم أُدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لما وُجِد، ونحن تبين لنا البراعة في أكثره، ويخفى علينا وجهها في مواضع؛ لقصورنا عن مرتبة العرب. يومئذ. في سلامة الذوق، وجودة القريحة، ومَيْزِ الكلام"[10] ووضوح البيان.

بل ذهب بهم البحث إلى أن "للحرف /الصوت المفرد في القرآن الكريم تفرُّدٌ وتميُّز من حيثُ المناسبة بين صوت الحرف المفرد ومعنى الكلمة التي هو جزءٌ منها، بل

يمتدُّ هذا التَّميُّز والتَّفرُّد إلى توظيف الحركة المصاحبة للحرف في بيان المعنى المــراد على نحوٍ متفرِّد."[11] والأمثلة على ذلك كثيرة.

فلو ضربنا مثالا لذلك التفرد فإن لفظة(نضيد) في قوله تعالى:﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾[ق: 10]، "ووقف على حرف الدال، استشعر السامع بهذا المــدِّ الهــابط) الياء) خلاف ما استشعاره بذلك المدِّ الصاعد الذى قَبْلَهُ في بَاسِقَاتٍ)؛ إذ يستشعر بسمعه قبل بصره هذا التنضيد الذى في الطَّلْعِ، وقد غُطِّى بغطائه الرباني الجميل ذي الرائحــة الزكية. ومن إيحاء الأصوات المفردة في تعبير القرآن إيحاء (الهمزة) وإيحاء (الهــاء) في سياقيهما؛ إذ ورد كلٌّ منهما في سياق مغاير دلاليًّا لسياق الآخر، وهذا يعــود إلــى تغاير صفة كل منهما من الناحية الصوتية، وإنْ كانَا من مخرجٍ واحد هو الحنجــرة؛ إذ الهمزة صوت شديدٌ انفجاريٌّ، على حين عُدَّت الهاء من الأصوات الرِّخوة المهموســة الضعيفة"[12] وهذا غيض من فيض.

إذ نجد أن العربي لم يكن يختار الصوت دون أن تكون له دلالة في الواقــع فإننــا "نجد صوتي (الصاد) في (صعد) و(السين) في (سعد) [مثلا] قد اتفقــا فــي خصــائص وصفات معينة، واختلفا في أخرى. فممّا اتفقا فيه أنّ كــلاً منهمــا (صــامت، أســلي صفيري، ومهموس، ورخو)، واختلفا في أن (الصاد) صوت مطبق، مفخــم، والســين صوت منفتح مرقق"[13].

فلو دققنا النظر في المعنى لوجدنا أنّ (صعد) تعني «الذهاب إلى مكان عالٍ، وتــدل (سعد) على اليُمن، وهي نقيض النَّحْس"[14]، فهذا برهان قاطع على أن العربي لم يكــن يختار الحروف عشوائيا وإنما يختارها وفق مدلولها الواقعي، فهذا يجعل اللسان العربي ثري ثراء منقطع النظير، من هنا فإن اللغة العربية هي لغة حياة.

وهذا يسوقنا إلى الحديث عن البلاغة التي اتصفت بها اللغة العربية ولبست لبوســها الواضح الماتع في غير تكلف أو مجج، لأن أساس البلاغة أن يصل معناك إلى السامع في غير تكرار أوتلكئ، ولهذا فإن "عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هــو

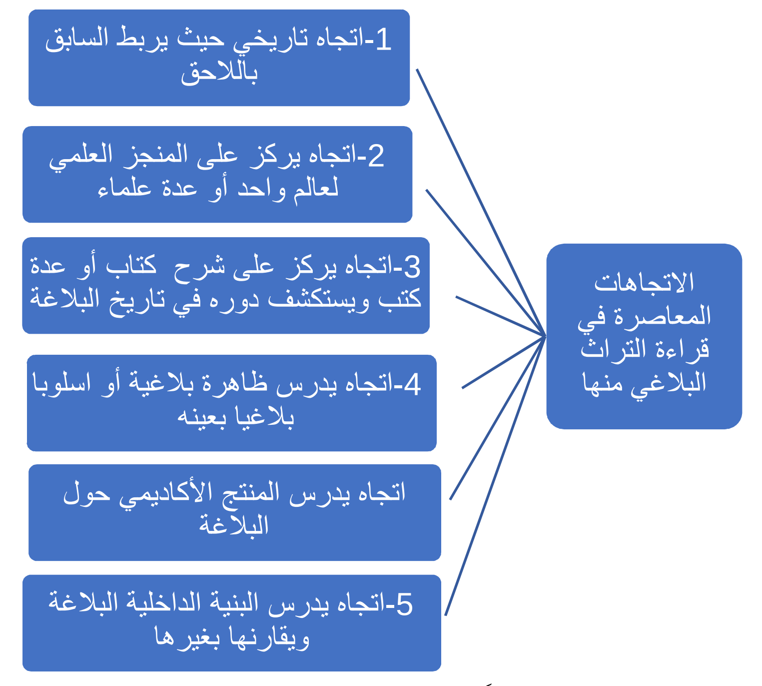
وضع كلّ نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخصّ الأشكل به الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إمَّا تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإمَّا ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة"[15]. نزولها إلى منزلة الحضيض.

وهنا ندرك سر تفاضل كلام على كلام وتفوق بيان على بيان في وضع الألفاظ منازلها التي استدعتها المعاني، كما أسلفنا، وأن سبيل الكلام "سبيل ما يدخله التفاضل وأن للتفاضل فيه غاياتٍ ينأى بعضها عن بعض، ومنازل يعلو بعضها بعضا، وأن علم ذلك علم يخص أهله، وأن الأصل والقدوة فيه العرب، ومن عداهم تبع لهم، وقاصر فيه عنهم، وأنه لا يجوز أن الذي نزل في الوحي، يدعى للمتأخرين من الخطباء والبلغاء عن زمان النبي وكان فيه التحدي، أم زادوا على أولئك الأولين، أو كمُلوا في علم البلاغة أو تعاطيه الما لم يكمُلوا له. كيف؟ ونحن نراهم يحمِلون عنهم أنُفسهم، ويبرأون من دعوى المداناة معهم، فضلا عن الزيادة عليهم"[16].

ما يمكن أن نخلص إليه في نهاية هذا المبحث هو أن الدراسات القرآنية كان هدفها الوقوف على سر تفوق كلام الله على غيره من كلام البشر، وهو نفس هدف البلاغة العربية وفي هذا يقول ابن خلدون: "واعلم أنَّ ثمرة هذا الفن، إنما هي فَهْم الإعجاز من القرآن"[(17)]، وفي هذا المخطط توضيح وإجمال لذلك:



ولكي نقف على مراحل نمو البلاغة يجدر بنا أن نشير إلى أن هناك عدة اتجاهات معاصرة في دراسة البلاغة العربية نذكرمنها:



ومنها اخترنا الاتجاه الثاني حيث ركّزنا على المنجز العلمي في مجال الدراسات القرآنية ودورها في نمو البلاغة العربية مع عبد القاهر الجرجاني.

دور عبد القاهر في نمو الدرس البلاغي من خلال كتابيه (أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز):

عمد عبد القاهر الجرجاني، وهو "واضع علم البلاغة"[18]، إلى تبيان سر تفوق كلام على كلام، وقول على قول في كتابيه على التوالي حيث عكف في أسرار البلاغة على تبيان أسرار البيان العربي، ممهدا لذلك بتوضيح دور الكلام الذي ميّز الله به الإنسان عن سائر المخلوقات.

وفي ذلك أعطى أهمية لوظيفة الكلام عند الإنسان في شتى مجالات حياته، مركزا على دوره في صقل معارف الإنسان وتقلبه في ميادين العلم لأن الكلام هو الذي "يعطي العلوم منازلها، يبين مراتبها، ويكشف صورها، ويجني صنوف ثمرها، ويبرز

مكنون ضمائرها، وبه أبان الله تعالى الإنسان على سائر الحيون"[19] ميزه عن سائر مخلوقاته لأن اللغة هي وعاء الأمة.

لذلك إذا أصيب الإنسان بعي في بيانه وعطب في لسانه ولم يستطع أن يبين عن مكنونات نفسه "لوقع الحي الحساس في مرتبة الجماد، ولكان الإدراك كالذي ينافيه من الأضداد، ولبقيت القلوب مقفلة على ودائعها"[20]، ومن هذا المنطلق ميّز الله الإنسان حيث قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن:1-4] حيث ربط، سبحانه، تعليم القرآن بخلق الإنسان، وتعليمه البيان دلالة واضحة على أن بالبيان نستطيع فهم القرآن، وكأن الله خلقنا من أجل ذلك.

وعليه ففهم اللسان العربي طريق مؤدي إلى فهم القرآن لأنه نزل بلسان عربي مبين قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرًا﴾ [طه: 113] بل هو يوضح توضيحا لا يدع مجالا للريب ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيًّاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ﴾ [الرعد:37].

تدلنا كل هذه الآيات، وغيرها، على ضرورة معرفة أسرار البلاغة العربية لأنه نزل على طرائق العرب في البيان وهذا ما يشفع لعبد القاهر سر تأليف كتابه أسرار البلاغة وتبيان خصائص اللغة العربية وأسرارها. وإذ ركّز أيما تركيز على تبيان سر البلاغة العربية الكامن في "أمر يقع من المرء في فؤاده، وفضل يقتدحه العقل من زناده"[21] هذا هو السر الحقيقي للبلاغة العربية.

وأرسى قاعدة في ذلك على أن القائد للبيان في البلاغة العربية هي المعاني وليست الألفاظ، كما شاع عند الناس وخاصة أهل بعض العلم، لأنك" لا تجد تجنيسا مقبولا ولا سجعا حسنا، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه وحتى تجده لا تبتغي به بديلا، ولا تجد عنه حولا"[22] لأننا إذا رمنا البلاغة في اللفظ حدنا عن الطريق وسلكنا مسلكا يبعدنا عن الهدف الذي نرجوه.

ولهذا فإن الطريق الأسلم في البيان العربي، اللسان الإنساني بصفة عامــة، هــو أن تجعل الإفصاح عن مكنونات نفسك تقوده المعاني فإنك "لن تجد أيمن طائرا، وأحســن أولا وآخرا، وأهدى إلى الإحسان، وأجلب للاستحسان، من أن ترسل المعــاني علــى سجيتها، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ"[23] فهي تتخير لباسها التي تظهر بــه ووشــيها الذي تتزين به.

فليس للتكلف في البلاغة وظيفة إلا أن يجعل الكلام ممجوجا، والبيان ممقوتــا فكــم من شاعر أسقطه التكلف في الهاوية، وكم خطيب وقع في الغاوية لهذا ركَّز عبد القاهر في كتابيه على ضرورة تصحيح المفاهيم عن سر البلاغة المتمثل في الكــلام المقبــول والمؤثر هو الذي تقوده المعاني وما على المتكلم إلا أن يجد المعاني، ويتركهــا تختــار ألفاظها التي تناسبها. ولهذا وجدناه في كتابه يركز على ضــرورة التــدقيق فــي ســر البلاغة.

ومن هنا بنى كتابه على الخطة الخادمة لفكرته التي أشرنا إليها فيما سبق:

كتاب أسرار البلاغة[24]

أسرار البلاغة فاتحة الكتاب و27 فصلا

- في قسمة التجنيس وتنويعه.1
- في الاستعارة وتقسيماتها.1
- في الاستعارة المتحدة في الجنس والمختلفة في النوع.1
- اعتراض على تنزيل الوجوه منزلة العدم وعكسه ليس من حديث.1
- التشبيه للاشتراك في نفس الصفة وفي مقتضياتها.1
- في وجوه الشبه المنتزع من شيء أو أشياء .1
- في حال انتزاع الشبه من الوصف.1
- في مواقع التمثيل والتأثير.1
- الفرق بينا للتمثيل الدقيق والتعقيد.1
- هذا فن آخر من القول بجمع التشبيه والتمثيل جميعا.1
- الجمع بين الشكل وهيئة الحركة في التشبيه.1
- في الأخذ والسرقة وما في ذلك من تعليل وضروب الحقيقة والتخييل.1
- هذا فن آخر غير ما تقدم في الموازنة بين التشبيه والتمثيل.1
- الفرق بين الاستعارة والتمثيل.1
- في وقع مستعارا بحسب الحس وهو ليس كذلك.1
- في الأخذ والسرقة وما في ذلك من تعليل وضروب الحقيقة والتخييل.1
- بين المعنى الحقيقي والتخييل.1
- هذا نوع آخر في التعليل .1
- في تخييل بغير تعليل .1
- في الفرق بين التشبيه والاستعارة.1
- في الاتفاق في الأخذ والسرقة والاستمداد والاستعانة.1
- في حدي الحقيقة والمجاز.1
- في المجاز العقلي والمجاز اللغوي والفرق بينهما .1
- منه فيما قيل في عن استعارة وليس كذلك بل هو حقيقة .1
- هذا كلام في ذكر المجاز وفي بيان معناه وحقيقته.1
- في تقسيم إلى لغوي وعقلي .1
- في الحذف والزيادة وهل هما مجاز أم لا.1

ومن هنا نفهم الهدف من تأليف الكتاب وهو الوقوف على أسرار البلاغة العربية ولهذا نراه، ولكي يحكم حكما منصفا بعيدا عن التسرع والخابط خبط عشواء، يشارك القارئ في بناء فكرة الكتاب فيقول له: "راجع فكرتك، واشحذ بصيرتك، وأحسن التأمل، ودع عنك التجوز في الرأي، ثم انظر، هل تجد لاستحسانهم وحمدهم وثنائهم ومدحهم منصرفا إلا إلى استعارة وقعت موقعها، وأصابت غرضها، أو حسن ترتيب تكامل معه البيان، حتى وصل المعنى إلى القلب، مع وصول اللفظ إلى السمع، واستقر في الفهم مع وقوع العبارة في الأذن"[25]. هذه خلاصة ما يمكن أن يعلق في ذهن القارئ حول سر البلاغة العربية.

ثم انتقل بنا في دلائل الإعجاز نقلة أخرى لتبيان المزية التي جعلت لغة القرآن تقهر القُوى والقدر، رغم أن العرب هم أهل البيان ونزل بلغتهم إلا أنهم وقفوا حيالها واجمين، "لم يدع في نفس بليغ منهم -ولو حك بيافوخه السماء- موضع طمع حتى خرست الألسن عن أن تدعي وتقول، وخذيت القروم فلم تملك أن تصول"[26] ووقفت متدبرة في أسرار إعجازه.

رغم أننا نعلم بأن القرآن نزل نزولا مفرقا حسب الأحداث إلا أنه كان يتحداهم أن يأتوا بمثله، فالنبي صلى الله عليه وسلم «كان هذا القرآن ينزل عليه منجَّمًا، وكان الذي نزل عليه يومئذ قليلا كما تعلم وكان هذا القليل من التنزيل هو برهانُه الفرد على نبوته وإذن، فقليل ما أوحى إليه من آيات يومئذ، وهو على قلته، وقلَّةِ ما فيه من المعاني التي تنامت وتجمعت في القرآن جملة، كما نقرؤه اليوم منطوٍ على دليل مُسْتَبِينٍ قاهرٍ، يحكم له بأنَّه ليس من كلام البشر"[27] وهذا يزيد في عجزهم على أن يأتوا بمثله.

ويؤكد من جهة ثانية «على أنَّ تاليِهِ عليهم، وهو بشر مثلهم نبي من عند الله مرسَلٌ، فإذا صَحَّ هذا -وهو صحيح لا ريب فيه- ثبت ما قلناه أوَّلاً من أنَّ الآيات القليلة من القرآن، ثُمَّ الآيات الكثيرة، ثُمَّ القرآنُ كلُّه أيٍّ ذلك كان في تلاوته على سامعه من العرب الدليل الذي يطالبه بأن يقطعَ بأنَّ الكلامَ مُفارِقٌ لجنس كلام البشر، وذلك من وجه واحد، وهو وجه البيان والنظم."[28] الذي ركّز عليه عبد القاهر.

ومن أجل أن يبيّن المزية بنى عبد القاهر كتاب دلائل الإعجاز[29] وفق الخطة الآتية:

1. مقدمة؛
2. المدخل إلى دلائل الإعجاز من إملاء عبد القاهر؛
3. كتاب دلائل الإعجاز؛
4. خطبة الكتاب؛
5. في فضل العلم وعلم البيان وحديث الشعر روايته؛
6. سبب تأليف الكتاب والحديث عن الفصاحة والبلاغة ودليل والإعجاز وأن النظم توخي معاني النحو والحديث عن فنون البلاغة من كناية واستعارة وقضية المزية
7. الحديث عن التقديم والتأخير والاستفهام والنفي؛
8. ودستور في التقديم والتأخير في الاستفهام والخبر؛
9. قول في الحذف وضرب أمثلة في الباب؛
10. فصل في القول على فروق في الخبر وكل ما تعلق بذلك مع ضرب أمثلة لذلك؛
11. فصل في الذي خصوصا وفيه أسرار جم؛
12. فصل في فروق الحال وكل ما يتعلق بذلك؛
13. فصل في القول في الفصل والوصل؛
14. فصول شتى في أمر اللفظ والنظم والحديث أقوال العلماء في البلاغة وكلام الجاحظ؛
15. فصل المزية للمعنى المقتبس من النظم؛
16. فصل الكلام ضربان والمعنى ومعنى المعنى. قضايا ذلك بالتفصيل؛
17. فصل في المزية تكون ويجب بها الفضل، إذا احتمل الكلام في ظاهره وجها آخر تنبو عن النفس مع شرح جملة من الآيات؛
18. فصل هذا فصل في المجاز مع تفسير قوله تعالى: «إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب..."؛

19. فصل بيان دقيق في الكناية وإثبات الصفة عن طريقها، وأمثلة ذلك؛
20. فصل في إن ومواقعها؛
21. القصر والاختصاص وفصل في مسائل إنما مع الغرق بين ما وإلا؛
22. فصل وبيان، وإزالة شبهة في شأن النظم والترتيب وهي الحكاية؛
23. فصل بيان الجهة التي يختص منها الشعر بقائله هي النظم والترتيب وتوخي معاني النحو؛
24. فصل تمام القول في النظم وأنه توخي معاني النحو، ودليل ذلك؛
25. تحرير القول في إعجاز القرآن، وفي الفصاحة والبلاغة وإبطال الصرفة وبيان أن النظم والاستعارة هما مناط الإعجاز فصل في الفصاحة بين المعنى واللفظ وغيرها
26. الكلام الفصيح قسمان: قسم مزيته في اللفظ قسم مزيته في النظم؛
27. القسم الأول الكنية والاستعارة والتمثيل على حد الاستعارة؛
28. القسم الثاني وهو الذي تكون فصاحته في النظم والرد على المعتزلة في اللفظ
29. فصل هذا تقرير يصلح لأن يحفظ للمناظرة (مناقشة الاحتذاء والابتداء والنسق في إعجاز القرآن...)؛
30. خاتمة كتاب دلائل الإعجاز وتمام نسخة أسعد أفندي.

ويلاحظ القارئ لكتاب دلائل الإعجاز على أن عبد القاهر عمل جاهدا على أن القرآن مكان لا يعتريه التبديل ولا التحريف ولا التغيير لخصائص فيه حيث "تآلفت كلماته من حروف لو سقط واحد منها، أو أبدل بغيره، أو أقحم معه آخر، لكان ذلك خللا بينا في نسق الوزن، وجرس النغمة، وفي حس السمع وذوق اللسان، وفي انسجام العبارة وبراعة المخرج، وتساند الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض ولرأيت لذلك هجنة في السمع، كالذي تتكره من كل مرئي لم تقع اجزاؤه على ترتيبها ولم تتفق على طبقاتها، وخرج بعضها طولا، وخرج بعضها عرضا»[30]، ولكن القرآن يبهرك منظره ويدهشك بيانه ويأسرك منطقه.

ولذلك إذا تأملنا في أصواته وانسجامها لتوصلنا إلى أن القرآن "غربال للأصوات ومصفاة لها أخرجت منها ما ينبو عنه السمع وما يثقل على اللسان، والناظر في هذا الكتاب الكريم يجد بين دفتيه أمثلة ناصعة للنقاء الصوتي والسلاسة وتجسيد المعنى عن طريق الصوت بصورة متميزة، بل متفردة لا نجد لها مثيلا في أرقى مستويات الفصاحة اللغوية لهذه اللغة»[31]. الكريمة المعطاء.

من هنا لا نعجب إذا كان العرب الأوائل وهم أولو فصاحة وبيان وقفوا حيارى مشدوهين أمام "مزايا ظهرت لهم في نظمه وخصائص صادفوها في سياق لفظه وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها ومجاري ألفاظها ومواقعها، وفي مضرب كلِّ مثل ومساق كلِّ خبرٍ وصورة كلِّ عِظةٍ وتنبيه وإعلام وتذكيرٍ وترغيبٍ وترهيبٍ، ومع كلِّ حجة وبرهان وصفة وتبيان،"[32] وجدوا انسجاما واتساقا.

بل دققوا النظر فيه فبهرهم" أنَّهم تأمَّلوه سورة سورة، وعُشْرا عشرا، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ولفظة ينكر شأنها أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه أو أحرى وأخلق بل وجدوا اتساقا بهر العقول، وأعجز الجمهور ونظاما، والتئاما، وإتقانا، وإحكاما»[(33)]. زادهم تعلقا به وحبا له.

ولهذا كان دور عبد القاهر، وهو يدرس البيان القرآني، أن يركز على دراسة المزية التي جعلته يبهرهم في نظمه وتماسكه في سبكه بتبيان" أمر المعاني كيف تختلف، وتتفق، ومن أين تجتمع، وتفترق، وأفصّل أجناسَها وأنواعها"[34]، وكل مزاياها وخصائصها.

وبل وضح لنا ذلك صراحة في كتابه وهو يخدم لغة القرآن فهو يريد أن يبرز "خَاصَّها ومُشاعها، وأبيّنُ أحوالَها في كرم مَنْصِبها من العقل، وفى تمكُّنها في نِصابِهِ وقرب رحمها منه، أو بعدها –حين تُنسب– عنه، وكونها كالحليف الجاري مَجْرَى النَّسَب، أو الزَّنِيمِ المُلْصَق بالقوم، لا يقبلونه، ولا يَمْتَعِضُونَ له، ولا يَذُبُّونَ عنه»[(35)]. فهنا تظهر لنا جليا دقة بحث عبد القاهر في البلاغة الخادمة للغة القرآن الكريم.

لا يكفي، كما يرى عبد القاهر، في علم الفصاحة" أن تنصب لهـا قياسـا مـا وأن تصفها وصفا مجملا، وتقول فيها قولا مرسلا، بل لا تكون من معرفتها في شيء حتى تفصّل القول، وتُحصِّل، وتضع اليد على الخصائص التي تعـرض فـي نظـم الكلـم وتعدَّها واحدة واحدة وتسميها شيئا شيئا وتكون معرفتك معرفة الصنع الحـاذق الـذي يعلم علم كل خيط من الأبريسم الذي في الديباج وكل قطعة من القطع المنجـورة فـي الباب المقطع وكل آجرة من الآجر الذي في البناء البديع››[36]. ومن هنا كـان حكمـك مبني على يقين وعلى دراسة ودراية.

ونجد أن عبد القاهر في كتابه تعمق في دراسة أسرار البلاغة القرآنية، ووقف على دقائقها، ونثر فنونها على بساط البحث وميز دور العطف في النظم حتى قال فيه: "اعلم أنه ما من علم من علوم البلاغة أنت تقول فيه: إنه خفي غامض، ودقيـق صـعب، إلا وعلم هذا الباب أغمض وأخفى وأدق وأصعب"[37]. ليؤكد لك أن علوم البلاغـة ترتكـز على حسن السبك وبراعة الانسجام وروعة الاتساق.

ويخاطب القارئ المتمرس ويدعوه إلى التعمق اكثر قائلا: «ما أظن بك أيها القارئ لكتابنا إن كنت وفيّته حقّه من النظر، وتدبّرته حقّ التدبر، إلا أنك قد علمت علماً أبـى أن يكون للشك فيه نصيب، وللتوقف نحوك مذهب أن ليس النظم شيئاً إلا توخي معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه فيما بين معاني الكلم..."[38]

ثم يصل بنا في كتابه على أنه «لا بُدَّ لكلِّ كلام تستحسنه ولفـظ تسـتجيده مـن أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة وعلة معقولة، وأن يكون لنا إلى العبارة عـن ذاك سبيل وعلى صحة ما ادعيناه من ذلك دليل، وهو باب من العلم إذا أنت فتحته اطلعـت منه على فوائد جليلة ومعان شريفة»[39]، لا تدرك إلا بالروية والتدبر.

وما يجدر بنا الإشارة إليه في نهاية المطاف على أن عبد القاهر تحدث عن البلاغة ببلاغة عالية وكأنه يضع القاعدة ويطبق لها في آن واحد لأنك إذا أعدت قراءة ما كتبه في هذا الفن ستجدك تصغي "إلى وقع أجراس حروفها وحركتها، وما أقامها عليه مـن التعادل الصوتي الذي يملأُ الأذن، فينفذ في القلب، فيشغله بما حمله إليه ذلـك الإيقـاع

الفخم من المعاني، وكيف أن عبد القاهر يوظف ذلك إيصالا لمراداته ومعانيه ومغازيه إلى قلبك، فيبعثه على أن يستغرق في لذة الفهم التي هي خصيصة الصفوة من أبناء آدم – عَلَيْهِ السَّلام، فمن ذاق عرف ومن عرف عشق السعي في التي هي أهدى وأقوم"[40].

كل هذه الدراسة التي قام بها عبد القاهر في كتابيه خادما بذلك اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم مبينا مزية لغة القرآن، وسر قهر القوى والقدر؛ جعل بذلك البلاغة تقف على قدميها كعلم مستقل واضح المعالم بين الأهداف يهتم بتبيان سر أن يصل الكلام إلى أذن السامع بدون مشقة أو معاناة.

ثم ما جاء بعده من دراسات بلاغية فإنما هي شارحة لما كتبه عبد القاهر في كتابيه: (أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز) أو مطبقة لما وضعه من قواعد مثلما فعل الزمخشري في تفسيره الكشاف.

الخاتمة: نختم هذا البحث ببيان أن عبد القاهر الجرجاني استطاع من خلال كتابيه أن يجعل البلاغة تقف على سوقها، كعلم ثمرته أن يقف على سر إعجاز البيان القرآني مبينا أن المزية تكمن في النظم، وفي تشابك المعاني بعضها ببعض حتى قال: "ذاك أنه ليس من عاقل يفتح عين قلبه، إلا وهو يعلم ضرورة أن المعنى في ضم بعضها إلى بعض، وتعليق بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض، لا أن بنطق بعضها في أثر بعض، من غير أن يكون فيما بينها تعلّق ويعلم كذلك ضرورة إذا فكّر، أن التعلق فيما بين معانيها، لا فيما بينها أنفسها"[41].

وهنا يخلص البحث إلى النقاط الآتية:

- الدراسات القرآنية مهدت الطريق لنمو البلاغة لأنهما يلتقيان في هدف واحد؛
- خدمة اللغة العربية هي خدمة لكتاب الله تعالى؛
- البلاغة عند عبد القاهر عرفت نضجا ونموا؛
- كل الدراسات البلاغية التي أتت بعد عبد القاهر اقتبست منه وتأثرت به.

الاحالات:

1-مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، الطبعة السابعة المكتبة وهبة، القاهرة، ص326.
[2]-حافظ إبراهيم، الديوان.
[3]-عبد الصبور شاهين: في علم اللغة العام مؤسسة الرسالة بيروت لبنان ط6 1989، ص10.
[4]- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 68.
[5]- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء .ص88.
[6]-محمود سليمان ياقوت: منهج البحث اللغوي، دار المعرفة الإسكندرية 2003 ص62.
6- ينظر: صالح بلعيد: الصرف والنحو، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 1998 ط1، ص 134
7-ينظر: عبد الصبور شاهين: في علم اللغة العام، مؤسسة الرسالة بيروت لبنان، ط6 1989 ص11.
[9]-أخرجه الطبراني في " الكبير " (9 / 146)، رقم (8665) من طريق زهير، عن أبي إسحاق عن مرة، عن ابن مسعود، وذكره الهيثمي في " المجمع " (7 / 168)، وقال: رواه الطبراني بأسانيد، ورجال أحدها رجال الصحيح. وأخرجه عبد الله بن أحمد في الزهد رقم (532) والطبراني أيضا (9 / 146)، رقم (8666) من طريق شعبة، عن أبي إسحاق، عن مرة، عن عبد الله.
[10] - ابن عطية: المحرر الوجيز: ج1ص 39 – ط: المجلس العلمي بفاس – تونس: 1395
[11]- محمد محمد داود، الإعجاز البياني في القرآن الكريم، في ضوء العلوم اللغوية الحديثة، كتاب الهلال سلسلة شهرية تصدر عن مؤسسة دار الهلال، مصر. ص12.
[12]- محمد محمد داود، الإعجاز البياني في القرآن الكريم، ص14.
[13]- الأصوات اللغوية 75 ـــ 77.
[14] - لسان العرب: ابن منظور 3 / 252 (صعد)، و3 / 213 (سعد).
[15]- الخطابي: بيان إعجاز القرآن: ص 29 – ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن – تح: محمد خلف الله وزغلول سلام – دار المعرف بمصر :1387
[16]- الرسالة الشافية 579، ملحقة بدلائل الإعجاز.
[17]- مقدمة ابن خلدون، باب البيان، ص521.

[18]- عبد القاهر الجرجاني، اسرار البلاغة في علم البيان، تح: محمد رشيد رضا، الطبعة الأولى2002، دار المعرفة، بيروت لبنان. ص 06.

[19]- عبد القاهر الجرجاني، اسرار البلاغة في علم البيان، ص 13.

[20]-- نفس المصدر، ص 13.

[21]-- عبد القاهر الجرجاني، اسرار البلاغة في علم البيان، تح: محمد رشيد رضا، الطبعة الأولى2002، دار المعرفة، بيروت لبنان. ص 15.

[22]-- عبد القاهر الجرجاني، اسرار البلاغة في علم البيان، ص 18.

[23]-- عبد القاهر الجرجاني، اسرار البلاغة في علم البيان، ص 21.

[24]-عبد القاهر الجرجاني، اسرار البلاغة في علم البيان، تح: محمد رشيد رضا، الطبعة الأولى2002، دار المعرفة، بيروت لبنان.

[25]- عبد القاهر الجرجاني، اسرار البلاغة في علم البيان ص 27.

[26]-دلائل الاعجاز ص 39.

[27]-تقديم كتاب: "الظاهرة القرآنية " لمالك بن نبي: بعنوان: (فصل في إعجاز القرآن) بقلم محمود شاكر –ط: دار الفكر – دمشق – 1405.ص:27-28

[28]-تقديم كتاب: "الظاهرة القرآنية" لمالك بن نبي: بعنوان: (فصل في إعجاز القرآن) بقلم محمود شاكر – ص:27-28.

[29]-عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، الطبعة الخامسة 2004م الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة مصر.

[30]- مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ط9، بيروت، دار الكتاب العربي 1973، ص105.

[31]-محمد محمد داود، الإعجاز البياني في القرآن الكريم، في ضوء العلوم اللغوية الحديثة ص24.

[32]-دلائل الإعجاز :39

[33]- دلائل الإعجاز :39

[34]- عبد القاهر: أسرار البلاغة – ص:26- ط: شاكر.

[35]- المرجع نفسه، نفس الصفحة.

[36] - دلائل الإعجاز – تح: شاكر ص 37

[37]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، المصدر السابق، ص 158.

[38]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني: المصدر السابق، ص: 335-336.

[39] - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، المصدر السابق، ص 41.

[40]-محمود توفيق محمد سعد، العزفُعلى أنوار الذِّكرمعالم الطريق إلى فقه المعنى القرآنيّ في سياق السورة، ط1 1424هـ، القاهرة مصر، ص30.

[41]-عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ط شاكر، ص 466.

ملامح ومعايير البلاغة في التراث العربي قبل نزول القرآن

داه. حبيب بوشيبة
المركز ج. أحمد بن يحيى الونشريسي، تيسمسيلت

ملخص: ممّا لاشكّ فيه أن اللغة تعدّ الأداة الإجرائية للتّواصل بين البشر، ولم تستغن عنها أمّة من الأمم منذ وجود الإنسان على وجه هذه البسيطة؛ ويعدّ اللسان العربي بأجناسه خاصّة الشّعر الجاهلي عُرفا لغويّا لأمّة نشأت في الفيافي والقفار، لغة كانت بالنسبة لهم ذروة مجدهم وأجلّ باسقات شرفهم، إنمازت بالإحكام والثّبوت لم يطرأ عليها أيّ تغيير أو نقصٍ أو تعديل بخلاف اللّغات الأخرى؛ ولم يزل هذا العرف اللغوي صوغا مهيمنا إلى غاية بزوغ فجر الإسلام، حيث نزل القرآن الكريم بلسانه فتعضّد هذا السّند اللغوي واشتدّ ساعده واستوى على سوقه وبلغ أوجّ نبوغه واتلئبّ أمره، ممّا مكّنه أن يكون أطول مُعمّر لغوي على وجه الخليقة لمدة تحاكى سبعة عشر قرنا، فصار اللسان العربي كالمتضمّن للقرآن، وصار القرآن الكريم كالمُحلّي لهذا اللسان، ممّا أكسب هذه اللغة مصداقيّة وإشراقة مكّنتته أن يحققّ حضوره كلسانٍ عتيدٍ على غرار الألسنة الدّائرة في فَلَك اللغات.

الكلمات المفتاحية: الشّعر، البلاغة، الفصاحة، الصّوت، الإيقاع.

مقدمة: لقد كان للّسان العربي كمال النّبوغ والتّميّز ممّا مكّنه من مباراة ومطاولة غيره من اللغات الضّاربة بثقلها في عمق التّاريخ، فإنّ العصر الجاهلي أو عصر ما قبل نزول القرآن تميّز أهله بحدّة الذكاء، وفصاحة القول، وجزالة الألفاظ، وسرعة البديهة، وقوّة القريحة، وهذا ما انعكس فصاحة وبلاغة ونبوغا في أشعارهم ونثرهم وخُطبهم؛ وللوقوف على تماهيات وتجلّيات البلاغة في التّراث العربي قبل نزول

القرآن، سنرتهن في ذلك للوقوف على بعضٍ من أشعارهم وخطبهم، على غرار ما تميّزت به خطبة قسّ بن ساعدة الأيادي، وما جادت به قرائح الجهابذة من الشّعراء على غرار امرئ القيس، وعنترة بن شدّاد، والأعشى، وغيرهم ممّن كانوا يُعدّون الرّوافد والكُمّل في الفصاحة والبلاغة والبيان.

توطئة: لقد عُرف اللّسان العربي منذ ظهوره بالإحكام وحسن الصّنعة وجودة النّسج، حتّى غدا كلام العرب أحسن بيانا، وأنصع بلاغة، ويلمس ذلك في خُطبهم وأشعارهم، التي تعدّ مرآة عاكسةً لاكتمال أركان لغتهم وتمام معالمها.

1-تجليات البلاغة العربية في الأعمال النّثرية عند القدامى: خطبة (قسّ بن ساعدة): تُعدّ خطبة (قس بن ساعدة) من أجود ما قيل ووصل إلينا من الخطب المشهورة قبل الإسلام، لما تميّزت به من براعة القول وحسن الألفاظ، ولقد كان للعامل الصّوتي الدّور المحوري في هذه الخطبة، حيث أدّى الإيقاع الموسيقي مؤدّاه للتّعبير عمّا كان يجيش بصدر الخطيب، من أسى وتضجّر على أمّة استنكفت عن عبادة الله إلى عبادة الأوثان والأحجار، والتي استهلّها بذكر الموت والحياة، والتّذكير بعظمة الله ونعمه [1].

لقد كان عامل **الصّوت** متمثّلا في السّجع والإيقاع، والمراوحة بين الأصوات المهموسة والمجهورة، وهذا ما حقّق تمام حضور البلاغة في خطبة قس بن ساعدة كما تركت المقاطع الممدودة والمفتوحة في خطبته نحو: اسمعوا وعُوا، فانتفعوا، مات ومَن مات فات، آتٍ، وقوله أيضا: فإنّ في السماء لخَبَرا، وإن في الأرض لعبَرا، مِهادٌ موضوع، وسَقْفٌ مرفوع، ونجوم تَمُور، وبِحارٌ لا تَغُور، وليل داج، وسماء ذات أبراج، أثرا جليّا يعكس شجاه وتضجّره وخوفه على مستمعيه الذين أوغلوا في الشّرك بالله وحادوا عن معالم الحنيفيّة السّمحاء.

ولتحقيق ما كان يصبو إليه الخطيب من التّأثير في مستمعيه ارتهن إلى ما كان يستحسنه العرب من حسن التّجاور الصّوتي وأثره الرّنّان في النّطق والسّمع، فالكثير من الحروف العربيّة لا يُستحسن تجاورها، لصعوبة نطقها وعسر تلقّيها، وممّا أُثر

عنهم من خلال تُراثهم الزّاخر أنّ« القاف والكاف والجيم فلم تتجاور في كلامهم البتّـــة، لم يأت عنهم قج ولا جق، ولا كج ولا جك، ولا قك ولا كق»[2]، فكان هــذا الوضـــع اللغوي من المرتكزات العاملة على تفعيل سهولة النطق على اللسان وجمال الوقع على الآذان، وهذا مادفع (قسّ بن ساعدة) إلى الاتّكاء على النّغم الموسيقي في خطبتـــه، لمـــا لهذه الأخيرة –الموسيقى الصّوتية– من قدرة على التّأثير، من خلال انتقـــاء الأصـــوات وحسن توظيفها.

أمّا بالنّسبة **للألفاظ** المُستعملة في الخطبة فقد كانـــت موحيـــة ذات دلالات عميقـــة تخاطب النّفوس العاتية المتمرّدة، وتقرع القلوب الصّلبة علـــى غـــرار قولـــه: مِهـــادٌ موضوع، وسَقْفٌ مرفوع، ونجوم تَمُور، وبِحارٌ لا تَغُـــور، وليـــل داج، وســـماء ذات أبراج؛ وهذا التّوظيف لهذه الكلمات العميقة يعمل على حمل النّاس للرّجوع إلـــى جـــادّة الصّواب.

من خلال تقصّي ألفاظ الخطبة نجد الخطيب قد جنح إلى معايير الفصاحة في تأليف الكلمة المفردة وكلام الخطبة عموما، وابتعد عمّا يُستثقل في أذن السّامع، مـــن ســـماجة الألفاظ، وتنافر الكلمة إلا ما شذّ، وهذا ما انعكس على الأسلوب سلاسة وعذوبة، كمـــا انمازت الخطبة في عمومها بالخلوّ من وحشي الألفاظ وغريبها.

وممّا يلفت النّظر في الألفاظ المستعملة من قِبل الخطيب أنّهـــا كانـــت تُحـــاكي الألفاظ القرآنية، فقوله: آيات محكمات تُحاكي قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ ﴾ (سورة آل عمـــران الآية:07)، وكذلك قوله: وسقف مرفوع هي نفسها المذكورة في أوائل سورة الطّور في قوله تعـــالى: ﴿ وَٱلطُّورِ ١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ﴾ (سورة الطّور، الآيات: 01–05)، وكذلك الشّأن في توظيفه من الألفاظ مـــا يدلّ على عظمة الله وقدرته، في بناء السّماء وقوّتها، في قولـــه: وســـماء ذات أبـــراج حيث نجد نظير هذه الكلمة في فاتحة سورة البروج، حيث نســـتخلص أنّ (قـــس بـــن

ساعدة) كان من القلّة التي كانت تدين لله عزّ وجلّ على ملّة الخليل إبراهيم، لم تكتنفه خزعبلات الشّرك ولا ترّهات الكهّان مثلما كان ساريا في الجزيرة العربية.

كما كان للمستوى **التركيبي** الحضور التّام متمثلا في الخبر والإنشاء، وكذلك توظيف المحسّنات البديعية والصّور البيانية من طباق نحو: أحياء وأموات، وجمع وشتات، وكذلك المقابلة كقوله: هو الله الواحد المعبود ليس له والد ولا مولود، وهذه الصّور البيانية والمحسّنات البديعية تزداد جمالا واتّساقا بفاعليّة أداء السّجع الذي يُكسبها تناغما صوتيا عن طريق الإيقاع، وتراتبيّة أسلوبيّة تتأتّى منها الدّلالة العامّة لبناء الخطبة التي تهدف إلى حمل المتلقّين على العودة إلى رشدهم والإنابة إلى ربّهم.

ومهما يكن من أمر، وإن كانت هذه الخطبة التي أشرنا إلى بعضٍ من ملا محها الأسلوبيّة وتجلياتها البلاغية في عجالة هي من أهمّ الأعمال النّثرية؛ إلا أنّ الشّعر كان سُويداء القلب في المجتمع العربي آنذاك، ولم يستطع منازعته ولا مضارعته في حضوره أيّ لون من ألوان الأجناس الأدبيّة الأخرى، فتمايزت فنونه عندهم وتعددّت تحكمها في ذلك الأغراض المختلفة كالهجاء، والمدح، والفخر، والرثاء، والغزل والوصف، والحكمة والموعظة، والاعتذار وغيرها.

2- **تجليات البلاغة العربية في الأعمال الشّعرية عند القدامى:** بما أنّ العرب كانوا أمّة لسانهم الشّعر فقد تملّكوا أدوات التّأثير والإقناع البلاغية فيه، وأولوه–الشّعر–أهميّة منقطعة النّظير من أجل إنجاح العمليّة الإبلاغيّة التّأثيريّة، فكان شأنهم في بناء الكلام «اطراح الأبنية التي يصعب النّطق بها لضرب من التّقارب في الحروف، فلا يكاد يجئ في كلام العرب ثلاثة أحرف من جنس واحد في كلمة واحدة، لحزونة ذلك على ألسنتهم وثقله، فقد روي عن (الخليل بن أحمد الفراهيدي) قال: سمعنا كلمة شنعاء وهي: الهعخع، وأنكرنا تأليفها»[3]، ومردّ الشّناعة لدى الخليل لأنّ العرب كان دأبهم في النّطق الميل إلى الخفّة والسّرعة لتيسير الأداء النّطقي، وهذه الكلمة مستثقلة على المتلقّي كونها كلّها حروف حلقيّة ذات مخرجٍ واحد.

لقد كان للمواقف المتعدّدة التي كانت تعتري شعراء الجاهليّة سببا في ترسيخ قــدمهم للإفصاح عن مختلجات صدورهم والإعراب عن مــواقفهم والــذّب عــن أنفســهم أو قبيلتهم، بكلّ ما أوتوا من بلاغة عالية، ولو كانوا عبيدا وُضعاء؛ فهذا **(عنترة بن شدّاد)** الذي لم يكن بادئ أمره إلا التّمثّل ببيت أو بيتين من الشّعر، فما إن عوتــب وانــتُقص لسواده ودمامته ورقّه كونه مملوكا، حتّى تحوّل هذا العبد الوضيع إلى شــاعرٍ مكتســحٍ بشعره قبّة الفصاحة والبلاغة والبيان، بمعلّقة تمتاز بعذوبة الأسلوب، وسهولة اللّفظ مع جزالتها، ورقّة المعنى ودقّته، تُنبئ عمّا كان يجوس بداخله من كبتٍ وعــذابٍ نفســي مطلعها:[4]

هــلْ غــادرَ الشُّــعراءُ مــنْ متــردَّمِ ... أم هــلْ عرفــتَ الــدارَ بعــدَ تــوهّمِ

أَعْيَــاكَ رَسْــمُ الــدَّارِ لَــمْ يَــتَكَلَّمِ ... حَتَّــى تَكَلَّــمَ كَالأَصَــمِّ الأَعْجَــمِ

يَــا دَارَ عَبْلَــةَ بِــالجَواءِ تَكَلَّمِــي ... وَعِمِّــي صَــباحاً دَارَ عبْلَــةَ واســلَمِي

ولقد كان لهذا الشّاعر المفلق إجادةٌ في النّظم في مختلف الأغراض الشّعريّة فقد قال عن مكارم الأخلاق ومحاسنها:[5]

ولقــد أبيــتُ علــى الطَّــوى وأظلــهُ ... حتــى أنــال بــه كــريمَ المأكــلِ

فكانت ألفاظه معبّرة عن عزّة النّفس وشُموخ الرّوح والأنفة التي تمنعه عن المســألة وتدفعه لحفظ ماء وجهه، رغم استعباده واستبعاده من قِبل أهلــه وعشــيرته، حتــى إنّ النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام كان إذا ذُكر هذا البيت من الشّعر في حضرته يقــول« مــا وصف لي أعرابي قطّ فأحببت أن أراه إلا عنترة»[6]

ولقد كان له على غِرار أقرانه جودة كلام وقوّة سبك واستحضار، فقد اســتطاع أن يجمع بين الغزل والشّجاعة والبأس في آن واحد بقوله: [7]

وَلَقَــد ذَكَرتُــكِ والرِّمــاحُ نَواهِــل مِنّــي ... وبِــيضُ الهِنــد تَقطُــر مِــن دَمــي

فَــوَدَدتُ تَقبيــلَ السُــيوفِ لأَنَّهــا ... لَمَعَــت كَبــارِقِ ثَغــرِكِ المُتَبَسِّــم

حيث تُبيّن هذه الأبيات مدى القوّة الذّهنية التي اتّصف بها الشّاعر حتّى تمكّن من هذا الوصف الرّائع بفصاحةٍ متناهيةٍ في البيان في خِضمّ حرب مستعرة، حمي وطيسها واشتعلت نارها، فهو يبرهن خالص حبّه ووفائه لمحبوبته عبلة؛ وقد دلّ هذا السّبك والاستحضار للمؤكّدات قد ولقد في تلك الظروف الملتبسة بالصّعاب والأهوال على بلاغته وفصاحته.

وممّن تملّك ناصية الفصاحة والبيان في العصر الجاهلي **(امرؤ القيس)** بن حجر حيث ينسب لهذا الشّاعر تطوير الشّعر وأسبقيّته إليه، فهو يعدّ بمعيّة المهلهل بن ربيعة «أوّل من نهج سبيله، وسهّل الطّريق إليه[8]؛ ونظرا لما اتّسم به شعر (امرئ القيس) من الجودة فقد كان منارة يُهتدى بها، لما عرف من قوّة البيان ورصف الكلام وانتقاء الألفاظ وتحبير الأسلوب، ممّا جعل شعره يجوب المشارق والمغارب، ويكون معيارا لجودة الشّعر من عدمه وذلك لخواص ومزايا انفرد بها مكنته من التّربع على قمة الفصاحة والبيان، فقد كان لهذا الشّاعر «عقل بياني كبير من العقول المفردة التي خلقت خلقها في هذه اللغة، فوضع في بيانها أوضاعا كان هو مبتدعها والسّابق إليها، ونهج لمن بعده طريقتها في الاحتذاء عليها، والزيادة فيها والتّوليد منها»[9]، ولذلك انماز شعره بالفصاحة، وكان له كمال القبول والتّلقّي. ولقد كان لمعلّقة امرئ القيس وما انضوت عليه من النّضج اللغوي ومعايير البلاغة وحسن الطّلاوة وقوّة التّأثير، الدّلالة الكبرى على ميزة هذا الشّاعر وفصاحته ومدى تحكّمه في آلة البلاغة والبيان؛ فقد «سبق العرب إلى أشياء ابتدعها استحسنها العرب واتّبعه فيها الشعراء، منها استيقافه صحبه، والبكاء في الدّيار ورقّة النّسيب، وقرب المأخذ وشبّه النّساء بالضّبّاء والبيض والخيل بالعقبان والعصيّ، وقيّد الأوابد وأجاد في التّشبيه»[10]

ومن معالم فصاحة (امرئ القيس) إتيانه بما لم يألفه الأوائل كتوظيفه مشابهة شيئين بشيئين، حيث شبّه الطّريّ من قلوب الطّير بالعنّاب، واليابس منها بالحشف البالي في قوله:[11]

كَأَنَّ قُلوبَ الطَيرِ رَطباً وَيابِساً لَدى وَكرِها العُنّابُ وَالحَشَفُ البالي

ولقد كان لهذا الشّاعر واسع الأفق في انتقاء الألفاظ ذات الدّلالة العميقة، والإيحاءات القويّة المعبّرة عن تلك المواقف التي كان يعيشها كأنّها رأي العين كقوله:[12]

وَقَدْ أَغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وُكُنَاتِهَا   بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأَوَابِدِ هَيْكَلِ

حيث جنح الشّاعر في قوله: قَيْدِ الأَوَابِدِ إلى استعمال لفظة قيد واستحسنها بخلاف غيرها من الكلمات نحو مانع الأوابد، وهذا الانتقاء لهذه الكلمة في التّوظيف «أبلغ من- مانع الأوابد عن جربها-والأصل في ذلك ما أفاده التّشبيه في الاستعارة من البيان إلي»[13]

وممّا يلفت الانتباه أنّ (امرئ القيس) قرع باب الظّواهر الصّوتية بظاهرة الإدغام في معلّقته، ممّا أضفى عليها تجانسا في التّركيب، وإيقاعا وجرسا في السّمع، وسلاسة في النّطق، وإيضاحا للدّلالة، ممّا ينمّ عن قبضة محكمة من الشّاعر في حسن تصرّفه في الكلام، فقد جنح إلى تبيان ما عليه فرسه من قوّة المراس، والجمع بين الإقبال والإدبار والكرّ والفرّ والاستمراريّة عن طريق الإدغام بقوله[14]:

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعاً   كجُلْمُوْدِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ

كَمَيْتٍ يَزِلُّ اللِّبْدُ عَنْ حَالِ مَتْنِهِ   كَمَا زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بِالمُتَنَزَّلِ

فتوالي الرّاءات المدغمة في قوله: مِكَرٍّ مِفَرٍّ هي للتّعبير عن استمراريّة الرّكض وكثرته والمبالغة فيه، فالشّاعر غرضه من هذا الإدغام التّمثيل لما هي عليه فرسه من قوّة وسرعة، وكثرة الحركة تُحاكيها الرّاء لما لها من صفات الاضطراب وسرعة الحركة في الفم، وقوّة الاهتزاز عند النّطق، ولذلك كان«من أبرز صفاتها الرّبربة أي التّحريك، وسطح اللّسان شديد الاهتزاز عند النّطق بها[15]، وأمّا تشبيه الفرس بالصّخرة المتدنّية من الأعالي بإدغام الطّاء في الطّاء في قوله "حطّه" هو من قبيل

التّعبير عن المبالغة في قوّة وسرعة هذا الفرس واندفاعها، حتّى كأنّها صخرة مُلقاةٌ من الأعالي نحو الأسفل.

ومن ملامح الفصاحة وقوة التّمثيل والتّصوير أنّ الشّاعر استطاع أن يجعل من الصّفات المتضادّة«الكرّ والفرّ والإقبال والإدبار مجتمعةً في قوله لا في فعله لأنّ فيها تضادا، ثمّ شبّهه في سرعة مرّه وصلابة خلقه بحجرٍ ألقاه السّيل من مكانٍ عالٍ إلى حضيض»[16]، وهذا الارتهان للحروف لمقاربة المعنى والدّلالة على الأحداث هو من سمت العرب وصنيعهم في حديثهم في باب مقابلة الألفاظ بما يشاكل الأصوات، وقد وصفه (ابن جنّي) بأنه باب«عظيم واسع ونهج متلئب عند عارفيه مأموم، وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر عنها، فيعدلونها بها ويحتذونها عليها وذلك أكثر مما نقدره وأضعاف ما نستشعره»[17]

وممّا جعل بعض النّقاد يتعجّبون من فصاحة (امرئ القيس) قصده إلى تنافر الحروف في قوله:[18]

غَدائِرُها مُستَشزِراتٌ إِلى العُلا تَضِلُّ العِقاصَ في مُثَنّىً وَمُرسَلِ

فرغم ما قيل عن هذا البيت من تنافر الحروف في قوله مستشزرات، وذلك للصعوبة الواقعة أثناء النطق بالكلمة، والتي نشَأَت من اجتماع حروفٍ خاصَّة هي: التاء والسين والشين والزاي، وذلك «لتوسُّط الشين وهي مهموسة رخوة بين التاء وهي مهموسة شديدة، والزاي وهي مجهورة»[19]، مما يتسبب في ثقل في النطق واستثقال في السمع معا، وهذا ما تعمل البلاغة على الحياد عنه؛ إلا أنّ هذا الشّاعر الفذّ ونظرا لما تملّكه من خصائص أسلوبيّة وفنون التّصرّف في الكلام سمقت به إلى أعلى درجات البلاغة والبيان، فإنّه جعل يُفاوض المقام بما يُناسبه من المقال، «ولكنّ قليلا من التّفكير يهدينا إلى أنّ هذا التّنافر لازمٌ لزوما فنيّا مؤكّدا، لأنّه ينطبق على الصّورة التي يريد الشّاعرُ أن يرسُمها لهذه الخصلات الكثيرة الكثيفة الثّقيلة التي تتزاحم على رأس محبوبته وترتفع إلى أعلى، ويغيب باقي الشّعر الكثيف تحتها من مفتول

انطلق من هنا وهناك»[20]، فالشّاعر استطاع ترجمة الموقف المُشاهَد أمامه من صفة الشّعر وجماله وكثافته وانسيابه، وفق «إيقاع هذه الكلمة من اضطرابٍ، وفي جرسها من ثقلٍ يحكي كثافة الصّورة المؤدّاة وتموّجُها»[21]، عن طريق الأصوات المتنافرة المستثقَلة وجرس الحروف.

وممّن كان له قدم صدق في الفصاحة والبيان أيضا (النّابغة الذّبياني) الذي اشتهر بحسن التّصرّف في الكلام وانتقاء الألفاظ وجودتها، فقد وُصف الشّاعر بأنّه« كان أحسنهم ديباجة شعر، وأكثرهم رونق كلام، وأجزلهم بيتا، كأنّ شعره كلام ليس فيه تكلّف»[22].

وممّا يُحسب لهذا الشّاعر أنّه كان الملاذ الذي يحتكم إليه الشّعراء ويعرضون عليه شِعرهم، فيجيز جيّده ويردّ قبيحه، على غرار ما وقع (لحسّان بن ثابت) في حضرته ومردّ هذا الرّجوع والاحتكام إليه نابع من بلاغة شعره وجودته، فقد كان تأليفه للكلام يمتاز «ببلوغه غاية الحسن والجودة ونقاوته من العيوب، وجودة مطالع قصائده وأواخرها»[23]، ممّا جعل شعره يبقى مسبارا ومعيارا في الفصاحة والبيان.

ومن معالم فصاحة (النّابغة) ما أورده (أبو هلال العسكري) وأشاد بحسن نظمه وجودة تأليفه ورصفه في قوله: [24]

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لاَ تَلُمُّهُ عَلَى شَعَثٍ أَيُّ الرِّجَالِ المُهَذَّبُ

حيث بيّن (أبو هلال) بأنّ هذا البيت الشّعري «ليس له نظير في كلام العرب»[25] لما اشتمل عليه من معايير الفصاحة وحسن التّأليف الجامعة بين «العذوبة والجزالة والسّهولة والرّصانة، مع السّلاسة والنّصاعة، واشتمل على الرّونق والطّلاوة، وسلِم من حيف التّأليف، وبعُد عن سماجة التّركيب»[26].

لقد كان من معالم الفصاحة في شعر (النّابغة) حضور المستوى الصّوتي في نظمه فقد كان يوظّف الأبيات الشّعريّة وفق ما يقتضيه مقام الحديث من اعتذار أو مدحٍ أو هجاء وغيرها من أغراض الشّعر؛ ولو تأمّلنا ما قاله **بسبب الحرب التي نشبت بين**

(الغساسنة ملوك الشام) (وبني عمومته ذبيان) التي ينتسب لها، والتي مُنيت فيها بهزيمة نكراء، قُتل فيها الرجال وسُبيت النساء فانبرى (النّابغة) لمدح (الغساسنة) على حساب عشيرته بقصيدة نكتفي بالوقوف على مطلعها:[27]

كِلِيني لِهَمٍّ يا أُمَيمَةَ ناصِبِ   وَلَيلٍ أُقاسيهِ بَطيءِ الكَواكِبِ

تَطاوَلَ حَتّى قُلتُ لَيسَ بِمُنقَضٍ   وَلَيسَ الَّذي يَرعى النُجومَ بِآئِبِ

وَصَدرٍ أَراحَ اللَيلُ عازِبُ هَمِّهِ   تضاعَفَ فيهِ الحُزنُ مِن كُلِّ جانِبِ

حيث نرى الشّاعر بفصاحته وقوّة مراسه حشد من الألفاظ أرصنها وأبلغها ممّا يقتضيه مقام المدح، على غرار (ناصب، النّجوم، الكواكب، عازب) حيث اتسمت هذه الألفاظ بكمال الفصاحة وحسن التّوظيف والاستعمال، ممّا يعكس جودة السّبك من قِبل النّابغة، وحسن رصفه للألفاظ وترتيبها.

ومثلما كان (للنّابغة) حسن الانتقاء للألفاظ، فقد كان ذا دراية بحسن الانتقاء للأصوات مع حسن الإيقاع، حيث عدل إلى الحروف اللّينة في قصيدته هذه، للوقوف على مدى الحالة النّفسية التي يعانيها جرّاء معاناته النّفسيّة، ولا ريب أنّ «الشّاعر يستغلّ الطاقة الكامنة في أصوات اللّين، فيوظّفها بكثافة في المطالع الطّلليـة، ليجعل المدّة التي يستغرقها البيت أطول من المدّة التي يستغرقها نظيره، الذي تقلّ فيه أصوات اللّين، إنّها وسيلة لغويّة تمكّنه من إطالة مدّة استحضار ذكرياته في هاتيك الدّيار البوالي»[28]، عن طريق المدود المتوالية التي تعكس تلك الآلام والأحاسيس الرّهيبة التي تجوس بداخله؛ فالعرب الجاهليّون فضلا عن تملّكهم أدوات التّأثير البلاغية من انتقاء الألفاظ، وحسن التّركيب والاستئناس بالكلمات الدّالة المعبّرة المُفضية إلى الأذهان، فإنّهم كانوا على دراية بفاعليّة التّأثير الصّوتي في أشعارهم من التّصريع والأوزان والقافية والرّوي، وغيرها من مكوّنات الكلام، ولذلك كانوا يعمدون إلى تجزيء «الألحان الموزونة على الأشعار الموزونة، فتضع موزوناً على موزونٍ»[29].

وممّن أحكم قبضته من شعراء العصر الجاهلي على عمود الفصاحة وتميّز بجزالة أسلوبه وتصرّفه في استخدام الحروف والألفاظ ميمون بن قيس الذي عُرف **بلقب (الأعشى الكبير)** لضعف بصره، ولُقّب أيضا بصنّاجة العرب لجودة شعره، وقد عُرف عنه بأنّه «من أرقّ الشّعراء وأحلاهم موسيقية»[30]، وقد عدّه صاحب طبقات فحول الشّعراء في الطّبقة الأولى، بل ذكر بأنّه نازع حتى (امرئ القيس) في إمامة الشّعر[31]، ولقد كانت القبائل العربيّة تخشى صرامة لسانه لتسلّطه، فقد عمدت قريش جاهدة لصرفه عن لُقيا النّبي صلّى الله عليه وسلّم مخافة أن يؤمن به، فيكون سوط عذابٍ بلسانه وفصاحته عليهم[32]، وبطبيعة الحال هذا يدل على مدى تمكّن الشاعر من نظم الكلام وإتقانه صياغته للشعر.

وممّا أجاد فيه (الأعشى) وكان متميّزا بنظمه وصفُه للطّبيعة واخضرارها، حتّى عَد "ابن قتيبة" ما قاله "الأعشى" في هذا الوصف أجود تصوير للطّبيعة ورونقها وجمالها إذ يقولُ: [33]

ما رَوْضَةٌ مِنْ رِياضِ الحَزْمِ مُعْشِبةٌ خَضْرَاءُ جَادَ عَلَيهَا مُسْبِلٌ هَطِلُ

يُضَاحِكُ الشّمسَ مِنهَا كَوكَبٌ شَرِقٌ مُؤزّرٌ بِعَمِيمِ النّبْتِ مُكْتَهِلُ

يَوْماً بِأَطْيَبَ مِنْهَا نَشْرَ رَائِحَةٍ وَلاَ بِأَحسَنَ مِنهَا إِذْ دَنَا الأُصُلُ

ومن أجود شعر الأعشى الذي جعله ينام ملء جفونه والخلق جرّاء قوله مختصمون، وصفه لنفسه وأصحابه أثناء وحين نشوتهم وسُكرهم بقوله:[34]

وَقَدْ أَقُودُ الصَّبَا يَوْمًا فَيَتْبَعُنِي وَقَدْ يُصَاحِبُنِي ذُو الشِّرَّةِ الغَزِلُ

وَقَدْ غَدَوْتُ إِلَى الحَانُوتِ يَتْبَعُنِي شَاوٍ مِشَلٌّ شَلُولٌ شُلْشُلٌ شَوِلُ

فِي فِتْيَةٍ كَسُيُوفِ الْهِنْدِ قَدْ عَلِمُوا أَنْ لَيْسَ يَدْفَعُ عَنْ ذِي الحِيلَةِ الحِيَلُ

نَازَعْتُهُمْ قُضُبَ الرَّيْحَانِ مُتَّكِئًا وَقَهْوَةً مُزَّةً رَاوُوقُهَا خَضِلُ

لاَ يَسْتَفِيقُونَ مِنْهَا وَهْيَ رَاهِنَةٌ إلاَّ بِهَاتِ وَإِن عَلَّوْا وَإِنْ نَهِلُوا

يَسْعَى بِهَا ذُو زُجَاجَاتٍ لَهُ نُطَفٌ مُقَلَّصٌ أَسْفَلَ السِّرْبَالِ مُعْتَمِلُ

فمن المؤاخذات التي أُخذت على الأعشى الجو اللغوي المشحون بصوت الشّين في قوله: شَاوٍ مِشَلٌّ شَلُولٌ شُلْشُلٌ شَوِلُ، حيث عدّ بعض النّقاد هذه الشّنشنة عبَثاً من الشّاعر، لأنّها تصبّ كلّها في شئ واحدٍ وهو وصف تلك النّشوة التي كان عليها الأعشى برفقة هؤلاء الشّباب المغمورين.

ولكن المتأمّل في شعر (الأعشى) وبالوقوف على الجوّ العام للقصيدة، يُدرك تلك الحالة النّفسيّة التي كان عليها الشّاعر من المرح اللاّ متناهي الذي جعله في حالة نفسيّة تستجدي تكرارا يحمل في ثناياه دلالات شعورية مميّزة تفرضها طبيعة السّياق والموقف المُعيش من الشّاعر ورفقته المنتشين بالخمرة، إنّه مقام لا يترجمه إلا طبيعة الألفاظ وجرس الحروف وقوّة الإيقاع، والأعشى من خلال شنشنته هذه يصبو إلى ترجمة الأفعال إلى أقوال، والشّاعر بفصاحته يتجاوز قوانين الكلام بخلاف غيره، وما من«شئ يُضطرّون إليه إلا وهم يُحاولون به وجها»[35] من وجوه التّعبير عن مُرادهم.

فمن معالم فصاحة الأعشى أنّه استطاع رصّ الكلمات الخمس المتجانسة وشَحَنها بالشّينات، وقَرنها بحسن الإيقاع وتجانُس الأصوات، حتّى كأن السّامع يرى شخصهم ويسمع مُنادمتهم، فالشّاعر كأنّ الألفاظ استوسقت له للدّلالة على المعنى، عن طريق توظيف صوت الشّين المتّسم بالتّفشّي وانتشاره في الشطر الثاني، حتّى كأنّ الشّاعر يُحاكي انتشار المرح وتفشّيه بين الثّلّة المتنادمين بصفة الحرف المهيمن على الشّطر الثّاني من البيت؛ فميزة هذا الصّوت القوّة والتفشّي والصفير التي تُحاكي خفّتهم ونشوتهم، إذ إنّ«ترتيب الحروف على هذه الصّورة في الشّطر الثّاني لم يأت مصادفة كما هو واضح، إذ إنّ الصّنعة بادية ظاهرة، وما كان ذلك إلا لأنّ الشّاعر يطلب الأثر ويتوخّاه عبر إنتاجه للبيت، شعوريا أو لا شعوريا»[36]، وهذا من أعظم أبواب الفصاحة والبلاغة وهي مقابلة الألفاظ بما يُشاكِل أصواتها من الأحداث.

وبناءً على هذا الطّرح فقد اتّسم شعره بمعايير الجمال لحسن ترتيبه وجودة نسجه من «رونق الحسن وطلاوة الأسلوب والبراعة في وصف الخمر والإجادة مع الطّول ولقوّة طبعه وجودة شعره سُمّي صنّاجة العرب، حتّى ليُخيّل إليك إذا أنشدت شعره أنّ

آخر ينشدُه معك، ولجلالة شعر الأعشى وأثره بين العرب كان يرفع الوضيع الخامل ويضع الخامل الشّريف» [37]

وعوداً على بدءٍ، فإنّنا لن نستطيع سبر أغوار الفصاحة وتتبّعها لدى العرب القدماء برمّتهم، فقد كان بعضهم يموج في بعضٍ بقوّة الفصاحة وجودة البيان، وما هؤلاء النّوابغ الذين أشرنا إليهم ووقفنا عند رِكابهم إلا نزر قليل من أمّة تملّكت ناصية البلاغة والبيان، على غرار (زهير بن أبي سلمى)، و(تأبّط شرا)، (طرفة بن العبد)، (عمرو بن كلثوم)، و(المهلهل بن ربيعة)، و(الشّنفرى) الذي عدّ (أبو هلال العسكري) (ت395هـ) بعضا من شعره في أعلى مقامات الفصاحة والبلاغة والبيان بقوله: [38]

أُطِيلُ مِطالَ الجوعِ حتّى أُميتهُ وأضربُ عنه القَلْبَ صَفْحاً، فيذهَلُ

ولولا اجتناب العار لم يُلْفَ مَشْربٌ يُعاش به، إلا لديّ، ومأكلُ

ولكنّ نفساً مُرةً ما تقيمُني على الضّيْمِ، إلاّ رَيْثَمَا أَتَحَوّلُ

وإنّما وقفنا عند ركاب هؤلاء لجلالة شعرهم وعظيم قدرهم لدى النّقاد، حتّى صُنّف شعرهم في أعلى الطّبقات، وصُنّف قائلوه في الطّبقة الأولى والدّرجة الأسمى، حتّى قال فيهم (أبو هلال العسكري) (ت395هـ): «كان (امرؤالقيس) أشعر النّاس إذا ركب، (والنّابغة) إذا رهب، وحسّان إذا رغب، والأعشى إذا طرب»[39]

ولا ريب أنّ الشّموليّة التي اتّصف بها اللسان العربي حيّر الكثير من الدّارسين والنّقاد وأرّق مضاجعهم، وذلك لأنّه شمخ دون سابق إنذار ولا مقدّمات تُذكر، بخلاف لغات الأمم المهيمنة آنذاك وما كانت ترتهن إليه من تعليم وتأسيس وتأصيل، ولذلك عُدّ اللسان العربي« من أغرب ما وقع في تاريخ البشر وصعب حل سره انتشار اللغة العربية، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادئ ذي بدء، فنشأت فجأة في غاية الكمال سلسة أي سلاسة، غنيّة أيّ غنى، كاملة بحيث لم يدخل عليها إلى يومنا هذا أيّ تعديل مهم، فليس لها أي طفولة ولا شيخوخة، فظهرت لأول أمرها مستحكمة، ...ومن أغرب المدهشات أن تثبت تلك اللغة القومية وتصل إلى درجة الكمال وسط الصّحاري

عند أمة من الرّحل، تلك اللغة فاقت أخواتها لكثرة مفرداتها ودقّة معانيها وحسن نظـــام معانيها»[40]

ولم يزل هذا العرف اللغوي بإواليته الأجناسية –الشعر– خصوصا سائدا ومهيمنـــا لا يشوبه تغيير أو تحريف إلى غاية بزوغ فجر الإسلام ونزول القرآن الكريم بلســـانه فتعضّد هذا السّند واشتد عوده واستوى على سوقه وبلغ أوُجّ نبوغه واتلئبّ أمره، حتّـــى غدا أطول معمّر لغوي على وجه البسيطة لمدة تحاكى سبعة عشر قرنا، فصار اللســـان العربي كالمتضمّن للقران، وصار القرآن كالمُحلّي لهذا اللسان.

خاتمة: من خلال هذا العرض المتواضع نخلص لعدّة نتائج أهمّها:

- أصالة اللسان العربي التي تؤهّله بأن تكون لغته لسانا عتيدا على غرار الألســـنة الأخرى؛
- بلوغ الوعي اللغوي ونضجه لدى العرب حيث تمثّل ذلك في الاقتصاد اللغـــوي والخفّة والسّرعة، واجتناب وحشي الكلام وغريبه؛
- إمكانيّة القول بتملّك اللغة العربيّة لنظام لغـــوي شـــامل عـــن طريـــق تحقّـــق المستويات اللغوية في كيانها صوتيا وصرفيا وتركيبيا؛
- ما تملّكه اللسان العربي من ثراء لغوي في الألفاظ والحـــروف كفيـــل بتفعيـــل القوانين والتشريعات بضرورة استخدام اللغة العربية كلغة عالمية؛
- اشتمال اللسان العربي على مزايا النّظام الصّوتي من إيقاع وموسيقى تجلّت فـــي الشّعر والنّثر العربي من أعظم الدلالات على أنّه من أعرق الألسنة الضّاربة في عمـــق التّاريخ؛
- اتّسام العربيّة بالتّميّز في حسن التّأليف بالاتّكاء على مبدأ عدم التّشكيل المتقارب في مخارج الحروف.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم برواية ورش.

[1] – ينظر: الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)، البيان والتّبيين، ج01، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط07–1998م، ص308–309.

[2] – ابن سنان الخفّاجي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01–1982، ص57.

[3] –ابن سنان الخفّاجي، المصدر نفسه، ص57.

[4] – عنترة بن شدّاد العبسي، ديوان عنترة، مطبعة الآداب، بيروت– لبنان، ط04، ص80.

[5] – عنترة بن شدّاد العبسي، المرجع السّابق، ص68.

[6] – الأعلم الشّنتمري، يوسف بن سليمان بن عيسى، أشعار الشّعراء السّتة الجاهليين، ج02، شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفّاجي، مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي، مصر، ط03–1963 ص109.

[7] – عنترة بن شدّاد العبسي، المرجع السّابق، ص 84.

[8] –الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، الحيوان، ج02، تحقيق عبد السّلام هارون، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة–1965، ط02، ص74.

[9] –سمك، محمد صالح، أمير الشعراء في العصر القديم، امرؤ القيس، دت، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، دط، ص 11.

[10] – ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، دراسة وتحقيق طه أحمد إبراهيم، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط2001، ص42.

[11] امرؤ القيس، خندُج بن حُجر، ديوان امرئ القيس، ضبط وتصحيح مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط05، ص129.

[12] – المرجع النفسه، ص 118.

[13] – سر الفصاحة، المصدر السّابق، ص119

[14] – امرؤ القيس، المرجع نفسه، ص119.

[15] –أحمد زرقة، أسرار الحروف، دار الحصاد للنّشر والتّوزيع، ط01–1993، ص127.

[16] – الزّوزني أبو عبد الله الحسين بن أحمد، شرح المعلّقات السّبع، تحقيق الدّار العالميّة بيروت، لبنان، دط، ص 32–33.

[17] – ابن جني، الخصائص، ج02 ،تح محمد علي النجار، المكتبة العلمية ، مصر، ص 157.

[18] – امرؤ القيس، المرجع السّلق، ص115.

[19] – السيوطي، عبد الرحمان جلال الدين، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج01، تصحيح وتعليق: جاد المولى بك، محمد أبو الفضل إبراهيم، علي البجاوي، مكتبة دار التراث، القاهرة ط03، ص185

[20] – محمّد النّويهي، الشّعر الجاهلي، منهج في دراسته وتقويمه، ج01، الدّار القوميّة للطّباعة والنّشر، القاهرة، مصر، ص44-45.

[21] – المرجع نفسه، ص45.

[22] – ابن سلام الجمحي، المصدر السّابق، ص42

[23] – الأعلم الشّنتمري، المرجع السّابق، ص177.

[24] – النّابغة الذّبياني، ديوان النّابغة الذّبياني، شرح وتقديم عبّاس عبد السّاتر، دار الكتب العلميّة بيروت –لبنان، ط03-1996، ص28.

[25] – أبوهلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل، الصّناعتين، تح علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العلميّة، ط01-1952، ص57.

[26] – المصدر نفسه، ص57.

[27] –النّابغة الذّبياني، المرجع السّابق، ص29.

[28] – محمّد بن يحي، خصائص الأسلوب في شعر النّابغة الذّبياني، رسالة دكتوراه، 2015 ص122-123.

[29] – الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتّبيين، ج01، تح عبد السّلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط07-1998، ص385.

[30] – محمّد النّويهي، المرجع السّابق، ص48.

[31] – ابن سلام الجمحي، المصدر السّابق، ص42.

[32] – ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي "العصر الجاهلي"، دار المعارف، القاهرة، مصر ط11، ص337

[33] –ابن قتيبة، الشّعر والشّعراء، ج01، تح وشرح أحمد محمّد شاكر، مطبعة دار المعارف القاهرة، مصر، ص266.

[34] –الأعشى، ميمون بن قيس، ديوان الأعشى، دتح، دط، ص59.

[35] –سيبويه، الكتاب، ج01، تح عبد السلام هـــارون، دار الرفـــاعي، الريـــاض، ط02، 1982 ص32.

[36] – منذر العيّاشي، الأسلوبيّة وتحليل الخطاب، طبعة مركز الإنماء الحضاري، حلب – ســـورية ط01–2002، ص46.

[37] – الأعلم الشّنتمري، المرجع السّابق، ج02، ص258.

[38] – أبو هلال العسكري، المصدر السّابق، ص 56.

[39] – أبو هلال العسكري، المصدر نفسه، ص23.

[40] –أنور الجندي بتصرّف، اللغة العربية بين حماتها وخصومها، مطبعة الرّسالة، بيروت– لبنان ص03.

النحو العربي في الدراسات القرآنية
(علم التفسير أنموذجا)

داه. حورية درني
جامعة مصطفى اسطنبولي، معسكر

ملخص المداخلة: ارتبط النحو العربي بالقرآن الكريم، فلقد ولد من رحمه وترعرع في ظل علومه التي كانت تسعى للحفاظ على القرآن الكريم من التحريف والتبديل، فكان لزاما على المشتغلين بالقرآن الكريم والحريصين على فهمه فهما صحيحا دون تغيير في معدنه أو إخلال في فهم مقصده، أن يحترموا قوانين النحو التي وضعت، وقواعده التي بنيت، حفاظا على مقاصد التشريع الإسلامي، فإدراك معاني النصوص القرآنية، ووعي المقاصد الربانية كفيل بتأصيل القواعد واستنباط الأحكام وبالتالي معرفة مسائل الحلال والحرام، وقد كان للمفسرين باع كبير في هذا الشأن مدركين مدى أهمية النحو في فهم النصوص القرآنية وتفسيرها، وقد كرّسوا مبدأ التبعية للقرآن بالوعي والفهم، قصد تطويره وجعله منارا يبعث شعاعه لكشف فلسفة هذا العلم وحلّ عقده، وسلكوا الاتجاه العلمي للإفهام والإقناع في تحليل مسائله فاستثمروا التراكيب النحوية الواردة في القرآن لاستخلاص الأصول، فكانت قياسا يثبتون به القواعد للتعليل والإلزام. وقد ركزوا على التأويل بإعمال المنطق والاجتهاد في فهم النصوص والوصول إلى التخريجات ومن بينهم هؤلاء الأجلاء: ابن عطية وأبو حيان الأندلسي والطاهر ابن عاشور وعبد الحميد بن باديس، الذين كانوا على وعي تام بأثر النحو في فهم دلالة النص، وقادهم ذلك للرجوع إليه كمستوى لغوي في التفسير.

تقديم: بلغت عناية المسلمين –بفهم القرآن الكريم– مبلغًا عظيمًا، فهو كتابهم المقدس، وكلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من عزيز حميد، واجتهادهم في فهمه جعلهم يبذلون الغالي والنّفيس لأجل تحقيق غاية معرفة معانيه وبيان مقاصده ومراميه، ولإجلاء تراكيبه ومبانيه، فظهرت الدّراسات والأبحاث، وتعددت العلوم والمعارف، وكلّها تدور حول غاية نبيلة، وهي الحفاظ على النّص القرآني من التّحريف والتّصحيف والتّبديل، ولقد كان لعلم التّفسير والمختصين فيه الدّور الكبير في الوصول إلى كنه القرآن الكريم، وبلوغ أبعاده الخفية لفهم النّص القرآني وفقه الكلام الرّباني، ولذلك كان لزامًا على المشتغلين بهذا العلم أن يبحثوا عن السّبل الميسّرة التي تحكمه، وتوجّه من يسلكه، وقد عُلم أنّ التّبحر في محيط التّفسير لا يؤتى إلاّ لمن مُلئ قلبه وعقله بالعلم والإحاطة بعلوم جمّة ومعارف شتّى، وقد انطلقوا في هذا كلّه من لغة القرآن التي نزل بها، وأعجز أهلها بنظمها وهي اللّغة العربية وبما أنّ القرآن العظيم اعتبر أنموذجًا لغويًا بامتياز، فقد كان للمستوى النحوي أثرًا واسعًا وملحوظًا في تفسيره.

يقول نعمان بوقرة: "فقد كان القرآن الكريم حدثًا خطيرًا في حياة اللّغة، إذ قام بتوجيهها إلى أن تكون لغة فكر، وواقع ومستقبل، وأداة تعبيرية عن منجزات الحضارة الإسلامية، لقد ضمن لها البقاء حتّى غدا هذه البقاء مظهرًا مميّزًا للمعجزة البيانية."[1]

ومن هذا يتبيّن لنا أنّ القرآن الكريم قد حلّق بالعربية عاليًا وسبح بها في فضاء رحب، وجعلها تمتطي سلم الرّقي والحضارة، فبعدما كانت لغة قومٍ بعينهم صارت لغة عقيدةٍ وفكرٍ، ودين ومنهج لغة أقوام يتعبّدون اللّه بتعلّمها، ويتقربون إليه بفقه أسرارها والكشف عن دلائل إعجازها، وإذا تبيّن لنا هذا فإنّه من الواضح لنا أنّ الاهتمام باللّغة العربية لم يقتصر على فئة الشّعراء والأدباء، أو اللّغويين والنّحويين، أو البلاغيين والنّاقدين وغيرهم من ذوي الاختصاص فحسب، وإنّما كانت ثمة إسهامات أخرى من لدن المشتغلين بعلوم القرآن ومباحثه، ونذكر منهم: الفقهاء، والأصوليين، المحدّثين

ومنهم المفسّرين الذين كان انشغالهم بعلوم اللّغة لا يخفى على أحد ممّن يـدرس كتـب التّفسير ويتبحّر في أبوابها ويجول بين صفحاتها.

كما أنّ علم التّفسير قد استفاد كثيرًا من فروع التحليل اللّغوي على اختلافها، بـل إنّ النّص القرآني هو رسالة لسانية في حدّ ذاته، كما ذكر ذلك عبد السّلام المسّـدي حـين قال: "ولنا في الحضارة العربية الإسلامية مثال صارخ يصدح بصدق هـذه الظّـاهرة وهي قضية التّفسير فالنّص القرآني رسالة لسانية في حدّ ذاته ولكنّه أيضًا شـهادة عـن رسالة عقائدية، فلعلّه كان من المفروض أن يتحدّد نمط قراءته منذ نزوله أي منذ حلوله محل الموجود اللّساني... وإذا بالتّفسير علم شرعيٌّ لا يتجدّد بالاحتمال والإمكـان بـل بالاقتضاء والوجوب، حتّى خشي بعض علماء الدّين على مرّ الزمان عذاب الآخرة إن هم لم يتوّجوا حياتهم بتفسير للقرآن ..."[2]

فالمفسر في تحليله للنّصوص القرآنية، والكشف عن مضامينها، وبيان مقاصـدها لا يبتعد عن فروع اللغة التي نزل بها، ولذلك نجد الكثير من المفسرين ينتهجون المـنهج اللغوي في تفاسيرهم، بل قد عرفوا به وهو ما يسمى التفسير اللّغوي، وإن كان الأمـر كذلك فأنه من الضروري التذكير ببعض العلوم التي يحتاجها المفسر.

العلوم التي يحتاجها المفسّر: ذكر محمد حسـين الـذّهبي فـي كتابـه (التفسـير والمفسرون) جملة من العلوم التي اشترط العلماء معرفة المفسّر لها، والتـي يسـتطيع بواسطتها أن يفسّر القرآن تفسيرًا عقليًا مقبولاً، وجعلوا هذه العلوم بمثابة أدوات تعصـم المفسّر من الوقوع في الخطأ، وتحميه من القول على بدون علم، وهذه العلوم هي:

- **علم اللّغة:** لأنّ به يمكن شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع، قـال مجاهد: "لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالمًـا بلغات العرب"، ثم إنّه لابدّ من التّبحر والتّوسع في ذلك، لأنّ اليسير لا يكفـي إذ ربّمـا كان اللّفظ مشتركًا، والمفسّر يعلم أحد المعنيين، ويخفى عليه الآخر، وقـد يكـون هـو المراد.

- **علم النّحو:** لأنّ المعنى يتغيّر ويختلف باختلاف الإعراب، فلابدّ من اعتباره.
- **علم الصرّف:** وبواسطته تعرف الأبنية والصيّغ.
- **الاشتقاق:** لأنّ الاسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين اختلف باختلافهما.

علم البلاغة (المعاني، البيان والبديع): فعلم المعاني يعرف به خواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعنى، وعلم البيان يُعرف به خواص التراكيب من حيث اختلافها، بحسب وضوح الدلالة وخفائها، وعلم البديع يعرف به وجوه تحسين الكلام.[3]

بالإضافة إلى بعض العلوم الأخرى التي لا غنى للمفسّر كعلم القراءات، علم أصول الدّين، علم أصول الفقه، علم القصص، علم النّاسخ والمنسوخ، الأحاديث المبيّنة لتفسير المجمل والمتشابه، وقد ركزنا على الجوانب اللّغوية التي يحتاجها المفسّر لأنّها مفتاح كلام الله الذي نزل باللّغة العربية، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ (يوسف:02).

وإذا كنّا بصدد الكلام عن مدى أهمية اللّغة في تفسير كتاب الله تعالى، فلابدّ من الإشارة إلى نوع من أنواع التفسير المأثورة عن المفسّرين، وهي تفسير القرآن باللّغة. وقد أدرج بعض العلماء هذا النّوع تحت ما يسمّى: التفسير بالرّأي المحمود.

تفسير القرآن باللّغة: المقصود به تفسير القرآن بلغة العرب، وسبب اعتبار هذا طريقًا من طرق التّفسير هو نزول القرآن بلغتها، واعتماده أساليبها في الخطاب، وممّا يدل على اعتبار اللّغة طريقًا من طرق التّفسير: الحديث في التّفسير النّبوي عن استشكال الصّحابة للظّلم، في قوله تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ (الأنعام:82) ووجه دلالة هذا الأثر أنّ الصّحابة قد فسّروا الظّلم بما يعرفونه من لغتهم، ولم ينكر عليهم الرّسول (ﷺ) هذا، بل أرشدهم إلى المراد بالظّلم في الآية، وممّا يدل عليه كذلك اعتماد الصّحابة والتّابعين على اللّغة في تفاسيرهم واستشهادهم بأشعار العرب وأساليبها لبيان المعاني اللّغوية في القرآن"[4]فهذا منهج واضح بيّن من الصّحابة رضوان الله عليهم، في الرّجوع إلى اللّغة الصّافية

لتفسير القرآن الكريم، ونصٌ صريحٌ فصيحٌ من النّبي (صلى الله عليه وسلم)، إقرارًا لهم بذلك.

تعريف التفسير اللّغوي: ورد في تعريفه: "هو بيان معاني القرآن بما ورد في لغة العرب"، فالشّق الأول من التّعريف وهو (بيان معاني القرآن)، فإنّه عامٌّ، يشمل كلَّ مصادر البيان في التّفسير، كالقرآن والسّنّة، وأسباب النّزول وغيرها، وأمّا الشّق الثاني من التعريف: (وهو بما ورد في لغة العرب)، فإنّه قيدٌ واصفٌ لنوع البيان الذي وقع لتفسير القرآن وهو ما كان طريقُ بيانه عن لغة العرب، وبهذا النّوع من البيان، يخرج ما عداه من أنواع البيان، كالبيان الكائن بأسباب النّزول وقصص الآي، أو غيرها ممّا ليس طريق معرفته اللّغة..."[5]

وقد حرص أهل الاختصاص على وضع ضوابط محدّدة للتفسير اللّغوي.

ضوابط التّفسير اللّغوي: للتفسير باللّغة ضوابط يجب على المفسّر التزامها، حتّى لا يحيد عن جادة الصّواب وقد حدّدها أهل العلم في النقاط التالية:

1. أن تكون اللّفظة المفسّرة صحيحة في اللّغة، فلا يجوز تفسير القرآن بما لا يعرف في لغة العرب، ومثاله تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ (البلد:02) بأنّه حالٌّ ومقيمٌ به، وقال ابن عاشور أنّه حالٌ، أي ساكن بهذا البلد؛

2. أنّ تفسير القرآن يكون على الأغلب المعروف من لغة العرب دون الشاذ أو القليل، ومثاله تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ (النبأ:24)، قيل: البرد: النوم، وهذا تفسير بالأقل، إذْ الأغلب المعروف من البرد، هو ما يبرد حر الجسم من الهواء؛

3. أن يراعي المفسّر عند تفسيره للفظة السياق، فلا يختار إلاّ ما يتناسب معه، ولذا كان من أوجه رد أقوال بعض المفسرين، عدم مناسبتها للسياق؛

4. أن تُعرف ملابسات النّزول إذا احتاجها عند تفسير لفظة ما، لكي يعرف المراد بها في الآية؛[6]

5. أن يُقدّم المعنى الشرعي على المعنى اللّغوي إذا تعارضا، إلاّ إذا دلّ الدّليل على إرادة المعنى اللّغوي، لأنّ القرآن نزل لبيان الشّرع لا لبيان اللّغة، فالصّلاة في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ (التوبة:84)، تحتمل الدّعاء، وتحتمل صلاة الجنازة، وهذا هو المقدّم لأنّه المعنى الشرعي، وفي: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(التوبة:103)، فالصّلاة هنا الدّعاء، وهو المعنى اللّغوي.[7]

وانطلاقا من هذه الضوابط التي سطّرها العلماء، يتبيّن لنا أنّ التّفسير على المعنى اللّغوي الظّاهر والمتداول من لغة العرب لا يكون ولا يرجّح إذا ثبت دليل من الأثر على خلاف معناه، كما أنّه لا يعتدّ بالمعنى اللّغوي إذا خالف المعنى الشرعي، ولا يتأتّى ذلك إلا بمعرفة سياق الآية وسبب نزولها، فالعلاقة بين اللّغة وعلوم القرآن متلازمة، كما أنّ عملية التّفسير تتفاعل فيها عدّة جوانب وخلفيات معرفية تسهم في فهم البنية العميقة للنّص القرآني.

وبناءً على ما أسلفنا ذكره تبين لنا ما لأثر الفهم اللغوي في تفسير القرآن الكريم زمن ذلك علاقة النحو بعلم التفسير.

المستوى النّحوي في الدّراسات اللّغوية وعلاقته بالقرآن الكريم: شغل المستوى النّحوي (التركيبي) حيّزا واسعا في الدراسات اللغوية قديما وحديثا، وقد نال حظا وافرا من اهتمام المفسرين بل هناك من يرجع البدايات الأولى للنّحو إلى ظهور اللّحن في القرآن الكريم، وسنأتي إلى بيان ذلك في نشأة النحو.

مفهوم النّحو: أ/ لغة: لقد عرّف النّحو في لسان العرب عند ابن منظور: "أنّه القصد والطريق، نحاه ينحوه ينحاه نحوا وانتحاه، ونحو العربية منه إنما هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه، من الإعراب وغيره."[8]

أي هو الطريق والجهة والجانب، وعلم النحو علم إعراب كلام العرب، وسمي هكذا لأن المتكلم ينحو به منهاج كلامهم إفرادا وتركيبا.

ب/ اصطلاحًا: ذكر السيوطي فقال: «حدّ النحو في الاصطلاح: عبارة عن العلم بالأحكام المستنبطة من استقراء كلام العرب، أعني أحكام الكلم في ذواتها وما يعرض لها بالتركيب فأحكام الكلم في ذواتها: هو المبحوث عنه في التصريف، وما يعرض لها بالتركيب: هو المبحوث عنه في الإعراب، ويطلق النحو إطلاقا آخر على: ما يرادف الإعراب المقابل للتصريف».[9]

وعرفه أبو عثمان ابن جني أنه: «انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره، كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير والإضافة والنسب، والتركيب وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة، فينطق بها وإن لم يكن منهم».[10]

إذن فالنحو في عمومه هو الطريق المتبع والمنهج الذي يسلك لمعرفة القواعد التي تحكم كلام العرب وتضبط استعمال لغتهم، وقد علم بأن العرب منذ الجاهلية كانوا يتكلمون على السليقة أي أنّ لغتهم كانت سليمة من دون اللجوء إلى علم يقيد استخدامها، إلى أن ظهرت بوادر ودواعي استدعت وضع النحو.

النّحو في الدراسات اللسانية الحديثة: عرف المستوى النحوي مصطلحات عديدة في الدراسات اللسانية الحديثة، غير أنها في مجملها تتفق في دراسة التركيب أو الجملة ولذلك ذكر محمود فهمي حجازي فقال: «بناء الجملة أو النحو أو تركيب الجملة مصطلحات مألوفة في الكتابات المعاصرة للدلالة على مفهوم واحد، يتصل بالقواعد التي تحدد نظام الجملة في اللغة، وتجعلها قادرة على أداء المعنى الذي يريده المتحدث أو الكاتب، فيصل إلى المستمع أو القارئ...».[11]

والمستوى النحوي (Syntax) كما ذكر ماريوباي: «يختص بتنظيم الكلمات في جمل أو مجموعات كلامية مثل نظام الجملة: ضرب موسى عيسى، التي تقيد عن طريق وضع الكلمات في نظام معين: أنّ موسى هو الضارب وعيسى هو المضروب».[12]

ويقول محمد يونس علي: «علم النحو أو علم التراكيب (Syntax): يتناول بنية الجمل اللغوية وأنماطها والعلاقات بين الكلمات وآثارها، والقواعد التي تحكم تلك العلاقات، ونظرا لكون التصريف يتناول قواعد بنية الكلمة، والنحو يتناول قواعد بنية الجملة، فقد يطلق على المجال الذي يجمع بين مباحث العلمين: علم القواعد Grammaire».[13]

فالنحو عند المحدثين لا يختلف عمّا هو عند القدامى إلا في بعض المصطلحات ومناهج البحث والنظريات، وخاصة فيما يتعلق بالنّحو عند الغرب والذي حاول العرب إسقاطه على النّحو العربي للإفادة منه.

نشأة علم النحو العربي: اجتمعت أقوال جميع العلماء قديما وحديثا على أن نشأة علم النحو كانت مرتبطة ارتباطا وثيقا بالقرآن الكريم، وأنّ الدراسات النّحوية قد ترعرعت أساسا في أحضان القرآن ودارت حوله، حيث ذكر محمد أحمد مومن ذلك بقوله: «ترجع نشأة النحو العربي حسب الروايات المتواترة إلى خشية المسلمين على القرآن الكريم من مخاطر اللحن والتحريف، فلمّا سمع الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه بأنّ هناك أناسا يفاضلون بين القراءات سارع إلى جمع كل السور القرآنية في دار حفصة بنت عمر ...واستكتبهم مصحفا جمع بين شمل المسلمين أصبح يعرف فيما بعد مصحف عثمان، إلاّ أن هذا المصحف كان يعوزه الشكل والتنقيط مما أدى إلى انتشار اللحن بين أقوام غير العرب قد دخلت في الإسلام وكان على المسلمين أن يضعوا حلا لهذه المعضلة.[14]

وذكر عبد الله بن يوسف الجديع ما نصّه: «إنّ العجمة حين شاعت في الناس أوجب ذلك أن يسير العلماء إلى تقنين الضوابط لتستقيم الألسنة بتلاوة القرآن، وهذا أصل ما قصدوه، لكنّها صارت قوانين عامة للغة العرب مطلوبة في كل كلام عربي إذ قُبْح اللحن في كل كلام قد يترتب عليه ضرر كبير، فإن الناس إنما يظهرون مرادهم باللغات فإذا اختلت اللغة فسد الكلام ولم يدرك المراد ومن هنا تأتي أهمية معرفة علوم العربية لتقرأ القرآن كما أنزله الله على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم».[15]

وكلامه هذا يؤيد ما ذكرناه سابقا في أن الدّافع القوي لوضع النحو هو الحفاظ على اللغة عموما من الفساد، وعلى وجه الخصوص الحفاظ على النص القرآني من الخطأ واللحن، ففساد اللفظ يستلزم فساد المعنى، وبالتالي سوء الفهم واختلال الدّلالة المقصودة في النّص، وإذا كان الأمر كذلك فالمستوى النحوي هو من الفروع اللغوية التي لا غنى لمفسر القرآن عنها، فالعلاقة بين النحو والتفسير وطيدة، وقد أكد عبد الله بن يوسف الجديع ذلك حين قال: «يبدو من السياق التاريخي لنشأة النحو العربي أن نزول القرآن الكريم بلسان عربي هو الذي وجّه الدراسات النحوية وجهة خاصة، فقد انتشر الإسلام في بقاع كثيرة ودخلت فيه أجناس مختلفة من غير العرب، فخلق ذلك أوضاعا اجتماعية وأخرى لغوية دفعت إلى دراسة اللغة وتحليلها، وتكوين تصور واضح لبنيتها وتراكيبها واستعمالاتها وصولا إلى فهم النص القرآني، ولاستعمالها كما نزل بها الوحي، لئلا ينقطع الاتصال بين المسلمين والقرآن الكريم».[16]

وقد ذكر فيما قاله عبد الحميد السيد عن محمد بن سلام الجمحي حين قال: «كان أول من أسس العربية وفتح بابها وأنهج سبيلها ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلي... وإنما قال ذلك حين اضطرب كلام العرب فغلبت السليقة، ولم تكن نحوية فكان الناس يلحنون، فوضع باب الفاعل والمفعول به والمضاف وحروف الرفع والنصب والجر والجزم، ثم صار هذا العلم إلى من بعد أبي الأسود، فزادوا فيه وبينوه ثم جاء زمن التصنيف فصنّفوا فيه وحرّروا، وتعدّدت فيه المدارس وعظُم في معرفته التنافس وصار هذا العلم لكل أصحاب الفنون آلة لا بد من حوزها».[17]

وهذا دليل آخر على الظروف التي أحاطت بالبدايات الأولى لنشأة النحو العربي على يد أبي الأسود الدؤلي ثم تطور بعده، فكثرت فيه المصنفات وتعددت مدارسه، وقد كان يشمل علوم العربية إلى أن اكتسب صفة العلمية وأصبح مستقلا بذاته.

وظيفة النحو وغايته: يعدّ المستوى النحوي العمود الفقري للّغة وهو هيكلها الذي تبنى عليه وأساسها الذي ترتكز على أعمدته، وقد جاء في الأثر أن سيدنا علي ابن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «تعلموا النّحو فإن بني إسرائيل كفروا بحرف واحد كان

في الإنجيل الكريم مسطورا، وهو: أنا ولّدت عيسى بتشديد اللام فخففوه فكفروا ولـذلك قال العلماء بضرورة تعلم النحو: «إذ بمعرفته يُعقل عن الله عز وجـل كتابـه، ومـا استوعاه من حكمته واستودعه في آياته المبينة، وحججـه المنيـرة وقرآنـه الواضـح ومواعظه الشافية، وبه يفهم عن النبي صلى الله عليه وسلم آثاره المؤيدة لأمره ونهيـه وشرائعه وسننه وبه يفهم في منطقه».[18]

وقد ذكرت نادية رمضان النجار بعض وظائف النحو وغاياته ومن أهمها ما يلي:

- يمكّن العلم بالقواعد من توخي الصّواب اللّغوي، فالقواعد تفسر الملكـة اللّغويـة ولا تكونها؛

- حدّد القدماء غاية النّحو وفائدته بأنّها: الاستعانة على فهم الكلام والاحتراز مـن الخطأ فيه ومعرفة صوابه من خطئه؛

- يساعد النّحو على تفسير لغة المتكلم التي يحصلّها بوسائل أخرى؛

- يساعد النحو على كشف العلاقات بين الكلمات وترابطها داخل التركيب؛

- يميّز النحو بين التراكيب المتشابهة، مثل: ما أحسنَ زيدٌ، ما أحسَن زيـدًا!، مـا أحسنُ زيدٍ؟ وكذلك الحال مع (نحن العربُ)، (نحن العربَ) فـالأولى خبـر والثانيـة مفعول منصوب على الاختصاص؛

- يبيّن النّحو أيضـا نـوع الأداة كمـا فـي قولـه تعـالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ (الانشقاق:01) فهناك إذا الظرفية وإذا الفجائية؛

- حرص القدماء على دراسة النحو للإحاطة بالنص القرآني وفهمـه، وامـتلاك ناصيته لاستنباط الحكم الشرعي منه؛

- استعان القدماء بالمعاني النحوية العامة لفهم المعنى الدلالي دون الاقتصار علـى المعاني النحوية الخاصة؛

- أهمية الإعراب في استنباط الحكم الشرعي.[19]

وهذه تمثل أهم الوظائف التي يمكن أن تستخلص من الدراسات النحوية قديما وحديثا، فهي تمزج بين ما كان وما هو كائن أي بين التراث والمعاصرة.

مكونات النظام النحوي في اللغة العربية: للنّحو نظام خاص به يتكون منه، وهو ما أوضحه تمام حسان بقوله: «إن النّظام النحوي للغة العربية الفصحى يبنى على الأسس التالية:

1. طائفة من المعاني النحوية العامة التي يسمونها معاني الجمل أو الأساليب؛

2. مجموعة من المعاني النحوية الخاصة أو معاني الأبواب المفردة كالفاعلية والمفعولية والإضافة ...إلخ.

3. مجموعة من العلاقات التي تربط بين المعاني الخاصة حتى تكون صالحة عند تركيبها لبيان المراد منها، وذلك كعلاقة الإسناد والتخصيص، والنسبة، والتبعية.

4. ما يقدمه علماء الصوتيات والصّرف لعلم النحو من قرائن صوتية أو صرفية كالحركات والحروف ومباني التقسيم ومباني التصريف.

5. القيم الخلافية أو المقابلات بين أحد أفراد كل عنصر مما سبق وبين بقية أفراده.»[20].

فتّمام حسّان يرى أنّ النّظام النّحوي يُبنى أساسًا على معاني نحوية تربط بينها علاقات، كما يتأثر بالمستويات اللغوية الأخرى كالصّوتي والصّرفي بالإضافة إلى القيم الخلافية بين العناصر.

العلاقات والقرائن النحوية: يعتبر النظام النّحوي غاية في التعقيد والتشابك، فهو لا يمكن دراسته بمنأى عن باقي المستويات الأخرى كالصّرف مثلا الذي يعتبر جزءا لا يتجزأ من النحو والعلاقة بينهما هي بمثابة احتواء أحدهما للآخر، ولذلك يقول علي زوين: «إنّ التركيب غاية من أهم الغايات التي يسعى إليها الباحث في اللّغة، ولما كانت الجملة تمثل العنصر التركيبي في اللّغات، فإن تحليلها إلى عناصرها الصّرفية ثم إلى عناصرها الصّوتية يقتضي فك هذا التركيب لتصل إلى السّمات العامّة والميزات الخاصة بكلّ لغة من اللّغات، فالتحليل إذن هو تجزئة، والتركيب هو جمع هذه

الأجزاء، التحليل هو تبسيط للعناصر الأولية والتركيب هو تجميع لهذه العناصر تحت أنماط معينة».[21]

ظاهرة الإعراب في اللغة العربية: نظرا لأهمية الظاهرة الإعرابية جعلها بعض العلماء من أسرار جمال العربية ومصدر تطورها، حيث يقول صبحي الصالح: «ولما أصابت العربية حظا من التطور أضحى الإعراب أقوى عناصرها، وأبرز خصائصها، بل سر جمالها، وأمست قوانينه وضوابطه هي العاصمة من الزلل المعوضة عن السليقة، لأن الناس أدركوا حين بدأ اختلاطهم بالأعاجم أنهم لولا خلاطهم لهم لما لحنوا في نطق، ولا شذّوا في تعبير...».[22]

فبالإعراب تميز المعاني، ويوضح الكلام، وهو من أبرز خصائص اللغة العربية ولذلك ذكر ابن فارس بقوله: «فأما الإعراب فيه تميز المعاني ويوقف على أغراض المتكلمين»، وزاد أيضا: «من العلوم الجليلة التي خصت بها الإعراب الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ...، وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام، ولولاه لما مُيّز فاعل من مفعول ولا مضاف من منعوت، ولا تعجب من استفهام، ولا صدر من مصدر، ولا نعت من تأكيد».[23]

وتكمن أهمية الإعراب وتأثيره على المعنى، كما ساقها عبد السلام السيد حامد فيما يلي:

1. أنّ العلامة الإعرابية قرينة مهمة من القرائن التي تُعين على تحديد المعنى الوظيفي للكلمة في الجملة، وهذا غاية التحليل النّحوي؛

2. كون هذه القرينة اللفظية –رغم تضافر القرائن كلّها واستوائها لفظية ومعنوية– يجعل دلالتها أكثر وضوحا، أو على الأقل أكثر جذبا للانتباه إليها عن غيرها في كثير من الأحيان؛

3. مبالغة النّحاة الشديدة في الاحتفاء بهذه العلامة ووظيفتها حتىّ جعلوا الإعراب في كثير من نصوصهم مُرادفاً لعلم النحو.[24]

وحديثنا عن الإعراب وأهميته يجعلنا نستحضر العلاقة الوثيقة بينه وبين فهم معنى النص القرآني، ولذلك اهتم المفسرون بهذا المبحث النحوي وجعلوه مُعينا لهم على استنباط الأحكام واستلهام المعاني الصحيحة للقرآن الكريم.

المستوى النحوي (التركيبي) وعلاقته بالدراسات القرآنية:

الإعجاز التركيبي في القرآن الكريم: إن دراسة المستوى التركيبي في القرآن الكريم يقتضي بالضرورة بيان وجوه الإعجاز التركيبي في النص القرآني، وهو مستوى أعلى من المستوى الصرفي، فإذا كان هذا الأخير يمثل بنية المفردة، فإن المستوى النّحوي يهتم بهذه المفردة في حالة تركيبها وضمّها مع غيرها، وليس في حالة إفرادها ومن هنا يتبين لنا أنه كما وجدنا إعجازا على مستوى اختيار اللفظة، فإن ضمّها إلى غيرها دون تنافر أو تصادم يمثل مظهرا آخر من مظاهر الإعجاز القرآني ولذلك يقول محمد السيد شيخوان: «إن دراسة الجملة القرآنية يتّصل اتصالا مباشرا بدراسة المفردة القرآنية لأن هذا هو أساس الجملة، ومنها تركيبها، وإذا كان علماء البلاغة يجعلون البلاغة درجات، فإنهم مقرّون دون جدال أن صياغة العبارة القرآنية في الطرف الأعلى من البلاغة هو الإعجاز ذاته، وللإعجاز فيها وجوه كثيرة، فمنها ما تجده من التلاؤم والاتّساق الكاملين من كلماتها وبين تلاحق حركاتها وسكناتها، فالجملة في القرآن تجدها دائما مؤلفة من كلمات وحروف وأصوات يستريح لتآلفها السمع والصوت والمنطق».[25]

ويرى مصطفى صادق الرافعي أن كل لفظة في القرآن العظيم تتناسب مع موقعها الذي وضعت فيه في التركيب والذي لا يمكن أن يستبدل بغيره من المواقع، وقد قال مصطفى صادق الرّافعي في هذا الصدد: «كان القرآن في نظمه وتركيبه على الأصل نمطا واحدا في القوة والإبداع، ولا تقع منه على لفظ واحد يُخل بطريقته، ما دامت تتعطف على جوانب هذا الكلام الإلهي، وما دام في موضعه من النظم والسياق، فإذا أنت حرفت ألفاظه من مواضعها أو أخرجتها من أماكنها، وأزلتها عن روابطها حصلت معك ألفاظ كغيرها، كما يدور في الألسنة ويجري في الاستعمال... ورأيت

لكلّ لفظة روحا في تركيبها من الكلام... فعلى كل لفظة معنى في الجملة كما أعطتها اللغة معنى في الإفراد، حتى إذا أبنتها وميّزتها من هذه الجملة ضعفت ونقصت وتبيّنت فيها الوحشة والقلة، شبيه الذي يعرض للغريب إذا نزح عن موطنه وبان من أهله، وكان كلّ ذلك فيها طبيعيا، لأن حقيقة التركيب إنما هي صفة الوحي في هذا الكلام». [26]

والجملة القرآنية لها أثر عظيم في النفس السّوية التي لا تملك بعد تأمل تراكيبها واستشعار معانيها إلا الإذعان والاستسلام، وهذا الوقع العظيم في النفوس البشرية إنما يتأتى لشدة تلاؤمها وتناسقها في نظم فريد لا يُقدر على مضاهاته، فتصوِّر المعنى بأسمى عبارة وأوجزها، فتقع في القلب وقع الماء البارد الذي يثلج الصدر، وهذه المعاني النفسية هي التي تحدث عنها محمد محمد داوود حين قال: «والجملة القرآنية تتبع المعنى النفسي، فتصوره بألفاظها لتلقيه في النفس، حتى إذا استكملت الجملة أركانها، برز المعنى ظاهرا، فيه المهم والأهم، فليس تقديم كلمة على أخرى صناعة لفظية فحسب، ولكن المعنى هو الذي جعل ترتيب الجملة ضرورة لا معدى عنها، وإلاّ اختل البناء وانهار، خذ مثلا قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ (الفاتحة:05) فترى تقديم المفعول هنا «إياك»، لأنه موضع عناية العابد ورجاء المستعين، فلا جرم _وهو مناط الاهتمام_ أن يتقدم كما يتقدم كل ما يُهتم به ويُعنى». [27]

وليس هذا الأمر بغريب على لغة القرآن المحكمة والمنزهة التي تعلو ولا يُعلى عليها مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ﴾،(النّجم،3.)، وهذه خاصية من خصائص كلام رب البرية: دقة في التصوير في أوجز عبارة للحصول على ألطف معنى، ومن هنا وبعد هذا التأمل في النص القرآني تتوضح لنا المكانة التي يشغلها الجانب التركيبي (النحوي) في القرآن الكريم، وأنه لا يمكن أن يُفهم القرآن العظيم فهماً لا يجانب الصّواب إلا بالتّزود برصيد وباع كبيرين من معرفة لعلوم العربية وبخاصة نحوها، يقول علي أبو المكارم: «إن الحقيقة البارزة في حياة العربية الفصحى، والتي

يجب وضعها في الاعتبار في أي بحث فيها وعلى أي مستوى من مستوياتها وبخاصة مستوى التركيب هو التحامها التحاما، يكاد يكون عضويا بالنص القرآني وقيمة القرآن مطلقة وليست تاريخية تقتصر به عند مراحل بعينها فكريا واجتماعيا ومن ثَمّ فإنه يتصف بالبقاء والدّوام، ولذلك فإنّ لغته التي صيغ بها يتحتم أن تكون لها صفة الامتداد».[28]

وهذا من حسن صنيع القرآن الكريم، وقدر جميله على اللغة العربية، فقد منحها صفة الديمومة والاستمرار والبقاء التي يتصف بها، فصار متلُوًّا بها، وأصبحت خالدة به، وكل ذلك لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى.

والملاحظ أنه حينما نتحدث عن أثر هذا المستوى النحوي في تفسير القرآن الكريم نجده أكثر ما يتجلى بوضوح في الإعراب أو الحركات الإعرابية، ولذلك ارتأينا أن نركز على تلك الصلة بين فهم النص القرآني والإعراب الذي يعد أهم القرائن النّحوية عند النحويين فضلا عن المفسّرين.

أثر القرينة الإعرابية في تفسير النصوص القرآنية: لقد اهتم المفسرون –عند تفسيرهم للقرآن الكريم– بجميع العلاقات النحوية الكامنة في التركيب للبحث عن المعاني الخفية والدلالات للوصول إلى التأويل الصحيح والفهم السليم للنص القرآني ولا يخفى ما للحركات الإعرابية من أثر في تغيير المعنى برُمته، ولذلك حاول المفسرون استقصاء هذه الظاهرة النحوية، وأولوها اهتماما زائدا نظرا لعلاقتها المباشرة بنشأة النحو، فقد ذكر إبراهيم عبد الله رفيدة سببا مباشرا لوضع النّحو، فقال: «النحو وضع لعلاج حالة عامة وداء استشرى، حُفظت لنا منه بعض النماذج التي كانت لها صلة بواضع النّحو أو الدّاعي إلى وضعه، أو ما تعلق منها بموضوع له دلالته ووضعه الخاص، وهذا الأخير أكثرها دورانا مع قصة نشأة النحو باعتباره سببا مباشرا لها. وذلك هو قراءة قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ (التوبة: 08) بكسر اللام من رسوله، وما يؤدي إليه هذا اللحن من فساد في المعنى».[29]

فكان التغيير في الحركة سببًا في تغيير المعنى كليا، وبالتالي إفساد دلالة النص القرآني يقول صبحي الصالح: «أما ترتيلهم القرآن مُعرَباً، فلا نحسب عاقلا في الدنيا يرتاب فيه، ولم يزعم أحدٌ من العلماء في الشرق والغرب قديما وحديثا، عامية الأسلوب القرآني، أو تجرده من ظاهرة الإعراب لأن ما في القرآن من الألفاظ الصالحة لأن تقرأ رسماً بأكثر من وجه، كان السياق فيه غالبا يُعين قراءاته المثلى ويُفرض وجهه الأفضل، ولا يُعين قراءة ما إلا تحريك الأواخر بالحركة الإعرابية المناسبة، ومن أوضح الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ (فاطر:28) فالمعنى نفسه يفرض رفع العلماء فاعلا، ونصب اسم الجلالة مفعولا، لأن المراد حصر الخوف من الله في العلماء، لا حصر الخوف من العلماء في الله، فإنما يخشى الله حق خشيته العلماء العارفون بجلاله».[30]

وقد ساق علي كاظم أسد بعض أقوال العلماء في أهمية الإعراب حيث قال: «ذكر ابن عطية أنّ إعراب القرآن أصل في الشريعة لأن بذلك تقوم معانيه التي هي للشرع" وجعل الشيخ الطوسي الإعراب أجل علوم القرآن، قال: "وأقول إن الإعراب أجل علوم القرآن، فإن إليه يفتقر كل بيان، وهو الذي يفتح من الألفاظ الأغلاق إذ الأغراض كامنة فيها، فيكون هو المشير إليها والباحث، وهو معيار الكلام الذي لا يبين نقصانه ورجحانه، حتى يعرض عليه، ومقياسه الذي لا يميز بين سقيمه ومستقيمه حتى يرجع إليه"».[31]

فللمستوى النّحوي –عمومًا– وللإعراب على وجه الخصوص دور بالغٌ في توجيه المعنى، وتفسير نصوص الذّكر الحكيم، ونظرًا لهذه الأهمية البالغة لم يهمل المفسّرون –الرّاغبون في فهم معاني القرآن الكريم– هذا الفرع اللّغوي، واعتمدوه اعتمادًا واسعًا في دراساتهم القرآنية، وقد كان للنّحو حظٌ وافرٌ من الدّراسة في تفاسيرهم.

شواهد نحوية من تفسير المحرر الوجيز لابن عطية: إن المحرر الوجيز زيادة على كونه كتابا في التفسير فهو أيضا كتاب نحو ولغة، غزيرة معارفه، متنوعة أبوابه وهذه نماذج للمناقشات النحوية التي وردت فيه.

- قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة:5)، قال ابن عطية: «واختلف النحويون في (إياك)، قال الخليل (إيّا) اسم مضمر أضيف إلى ما بعده للبيان لا للتعريف، وحكي عن العرب: "إذا بلغ الرجل الستين فإيّاه وإيّا الشّواب"، وقال المبرّد: (إيّا) اسم مبهم، أضيف للتخصيص لا للتعريف، وحكي عن بعضهم أنه قال: الكاف والهاء والياء هي الاسم المضمر، لكنّها لا تقوم بأنفسها، ولا تكون إلا متصلات، فإذا تقدمت الأفعال جعل (إيا) عمادا لها، فيقال (إياك، وإياه، وإياي)، وإذا تأخرت اتصلت بالأفعال واستغني عن (إيا)، وحكي عن بعضهم أنّ (إيا) اسم مبهم يكنى به عن المنصوب، وزيدت الكاف والهاء تفرقة بين المخاطب والغائب والمتكلم، ولا موضع لها من الإعراب، فهي كالكاف في ذلك، وفي أرأيتك زيدا ما فعل»[32]

وهذه النماذج من المناقشات النحوية لا يخلو منها تفسير المحرر الوجيز لابن عطية، إذ يسوق أقوال النحاة واللّغويين في مختلف المسائل ويرجح ما يراه مناسبًا لسياق الآية.

- وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾، قال ابن عطية: «نصب العجل باتّخذتم، والمفعول الثاني محذوف: اتخذتم العجل إلها، واتخذ قد يتعدى إلى مفعول واحد، كقوله تعالى: يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا، وقد يتعدى إلى مفعولين أحدهما هو الآخر في المعنى، كقوله تعالى:﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾، وكهذه الآيات وغيرها، والضمير في (بعده)يعود على موسى، وقيل على انطلاقه للتكليم، إذ المواعدة تقتضيه، وقيل على الوعد».[33]

يشير ابن عطية إلى مواضع الحذف التي تسهم في توضيح دلالة النص، والتي تعكس مظهرًا من مظاهر البلاغة القرآنية، كما تعين المفسر على فهم النص القرآني.

شواهد نحوية من تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي: قوله تعالى:﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ ﴾ (الأنعام:143)، قال أبو حيان «وانتصب (ثمانية أزواج) على البدل في قول الأكثرين من قوله (حمولة وفرشا) وهو الظاهر، وأجازوا نصبه ب(كلوا مما رزقكم الله) وهو قول بن سليمان، وقدّره «كلوا لحم ثمانية»، ب(أنشأ) مضمرة، قاله الكسائي وعلى البدل من موضع (ما) من قوله (مما رزقناكم)، وب(كلوا) مضمرة، وعلى أنها حال، أي مختلفة متعددة».[34]

يرى أبو حيان أنّ الحركة الإعرابية تتحكم في تحديد المعنى، ويظهر ذلك في حركة النصب في (ثمانية)، والتي تعبّر عن محذوف قدّره بحسب السياق الذي وردت فيه الآية الكريمة.

- قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ ﴾ (الأنعام:137)، قال أبو حيان: « ... قرأ الجمهور (زَيّنَ) مبنيا للفاعل ونصب (قتلَ) مضافا إلى (أولادهم)، ورفع (شركاؤُهم)، فاعلا ب(زيّن) وإعراب هذه القراءة واضحٌ، وقرأت فرقة منهم... (زُينَ) مبني للمفعول، و(قتلُ) مرفوعا مضافاً إلى (أولادهم)، (شركاؤهم) مرفوعا على إضمار فعل، أي: «زينة شركاؤهم، هكذا خرجه سيبويه، أو فاعلا بالمصدر، أي: قتل أولادهم شركاؤهم، كما تقول «حبّب إلي ركوب الفرس زيدٌ» هكذا خرجّه قطرب، فعلى توجيه سيبويه «الشركاء مزينون لا قاتلون»، كما ذلك في القراءة الأولى، وعلى توجيه قطرب «الشركاء قاتلون». ومجازه أنهم لمّا كانوا مزينين القتل جعلوا هم القاتلين، وإن لم يكونوا مباشري القتل»[35]

ساق أبو حيان قراءتين مختلفتين، الأولى بحكم أنّ الفعل مبني للمعلوم، والثانية بحكم بنائه للمجهول، وكلتا القراءتين صحيحتين ولهما توجيه نحوي لا يبتعد عن المعنى المراد.

لم يبتعد أبو حيان عن لغة القرآن الكريم التي نزل بها، في تفسيره للآيات الكريمة فهو بفهمه للتركيب وما يحيل إليه من دلالة يفسر النصوص القرآنية، فالرجوع إلى المستوى النحوي له أولوية في كبرى في تفسيره.

شواهد نحوية من تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور: في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ (المائدة: 06)، يقول ابن عاشور في تفسيره للآية:" قوله (أرجلَكم)، قرأ نافع وابن عامر والكسائي وحفص بن عاصم، وأبو جعفر ويعقوب بالنّصب، عطفاً على (أيديكم)، وتكون جملة (وامسحوا برؤوسكم) معترضة بين المتعاطفين...وقرأه البعض بالخفض (أرجلِكم)، وللعلماء في هذه القراءة تأويلات منهم من أخذ بظاهرها، فجعل حكم الرّجلين المسح دون الغسل..."[36]

يرى ابن عاشور أنّ للحركة الإعرابية أثرًا بالغاً في تحديد الدّلالة أو تغييرها الجذري، ولا يقف الأمر عند مجرّد الاتّساع في المعنى، وإنّما يتوقف عليه الحكم الشرعي، وهذا ظاهر بيّن في هذه الآية القرآنية، فالقول بالنّصب (أرجلَكم)، يقتضي غسل الرّجلين، والقول بالخفض (أرجلِكم)، يقتضي مسح الرّجلين، وهنا يقع الخلاف بين الفقهاء في إطلاق الأحكام، نظرًا لتعدّد القراءات، غير أنّ كلّ فريق يرتكز على دلالة الحركة في استنباط الحكم من غسل، أو مسح، ويبقى السّبيل- للخروج من الخلاف- مردّه إلى السّنة النبوية التي تفصّل ما جاء في القرآن وتبيّنه.

- قوله تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ (البقرة:18)، يقول ابن عاشور: "هي أخبار لمبتدأ محذوف، هو ضمير يعود إلى ما عاد إليه ضمير (مثلهم)، ولا يصحّ أن يكون عائدا على الذي استوقد نارا ...وحذف المسند إليه في هذا المقام استعمال شائع عند العرب، إذ ذكروا موصوفاً بأوصاف أو أخبار جعلوه كأنّه قد عُرف للسّامع فيقولون: فلانٌ، أو فتى، أو رجلٌ، أو نحو ذلك، على تقدير هو: فلان..."[37]

بالرّجوع إلى التّركيب الطّبيعي للجملة، يرى ابن عاشور أنّ هذه الجملة وقع فيها حذف، أي أنّه ثمة أوصاف (صمٌ، بكمٌ، عميٌ)، لموصوف محذوف، قدّره بالنّظر إلى ما قبله بالضّمير (هم)، أي: هم صمٌ بكمٌ عميٌ، وهذا الحذف جيء به من قبيل الإيجاز ولِما كان للسّامع من معرفة مسبقة بأصحاب هذه الأوصاف، فابن عاشور بعودته إلى المستوى النّحوي استطاع تفسير هذه الآية، ومعرفة على من تصدق هذه الأوصاف.

شواهد نحوية من تفسير عبد الحميد بن باديس: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾(الإسراء37)، قال ابن باديس: «نصب مرحا ب (تمش)، لأنّه متضمن له تضمن الكلي لجزئيه، إذ المرح جزئي من جزئيات المشي، فكأنه قال: لا تمرح مرحا، ونظيره قول الشاعر:

يعجبه السخون والبرودُ والتمر حبًا ما له مزيدُ فنصب حبًا ب (يعجب)، لأن الإعجاب متضمن للحب، أو نصب على أنه حال ك (جاءني زيد ركضاً)، ونصب طولاً على أنّه تمييز، أي من جهة الطول، والتقدير: ولن يبلغ طول الجبال»[38]

فالمفسر إنما استنبط مفهوم الآية الكريمة برجوعه لتركيبها وموضع اللّفظ من التركيب، مستدلا بأقوال العرب من شعر ونثر، فأثر الفهم اللّغوي ظاهر في تفسيره وبالأخص المستوى النحوي باعتباره فرعا من فروع اللّغة، ونظير ذلك:

- قوله تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾(الإسراء:20)، قال ابن باديس: «وتركيب الآية يفيد أن عطاء الرب لا يمنع، ولا يجوز أن يمنع، لأن من مقتضى ربوبيته دوام عطائه ومدده لعموم خلقه بعلمه وحكمته، وقدم المفعول، وهو (كلاّ) ردًّا على من يعتقد أن الله تعالى يمد بعضا دون بعض، وفيه إيجاز بالحذف والأصل كلا الفريقين: يعني فريق مريدي العاجلة، ومريدي الآخرة»[39]
- قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾(الإسراء:57)

قال ابن باديس: «(أولئك) إشارة إلى المعبودين الذين وصفهم، (يــدعون) ضـــميره للداعي، وأصله يدعونهم يبتغون خير أولئك، (أيهم) اسم موصول مضاف إلى ضـــمير المبتغين، وهو بدل بعض من كل من الواو في يبتغون، (أقرب) خبر مبتــدأ محـــذوف تقديره (هو)، والجملة صلة الموصول، ويحتمل أن يكون أيهم استفهاما مبتــدأ وأقــرب خبر، وتقدير الكلام: ينظرون أيهم أقرب»[40]

ساق ابن باديس وجهين من الوجوه الإعرابية التي يحتملها هذا التركيــب القرآنـــي وكلاها مقبولة وجائزة ومحتملة بما أنها لا تخرج عن اللغة العربية، والشـــاهد أنّ أثـــر فهمه للمستوى النحوي واضح وملموس وظاهر في تفسيره.

خلاصة: حاول المفسرون الاستفادة ممّا يقدّمه الـــدّرس النّحـــوي لتفســـير القـــرآن العظيم، بصورة منطقية ومعقولة لا تتنافى مع دلالة التّركيب والسياق الـــذي ورد فيـــه وقد أدركواما لفهم النحو من أهمية في فهم النص القرآني، فأولوا عناية فائقة بهذا الفرع اللّغوي، بغية الوصول إلى دلالة النصوص القرآنية، وفهم المقاصد الربانية.

قائمة المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم. إبراهيم عبد الله رفيدة، النحو وكتب التفسير، الدار الجماهيرية، الجماهيرية الليبية، ج1، ط3، 1990م.أحمد بن فارس، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، مكتبة المعارف، بيروت، ط1، 1414ه، 1993م. أحمد مومن، اللسانيات (النشأة والتطور)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 2005.أبو الفتح عثمان ابن جني، الخصائص، تحقيق: علي النجار، دار الكتب المصرية، المكتبة العلمية، مصر، دط، دت. تمام حسان، اللغة العربية: معناها ومبناها، دار الثقافة، المغرب، د. ط، 1994م.
2. جمال الدين ابن منظور جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3 1414ه.
3. خالد عبد الرحمان العك، من أصول التفسير وقواعده، دار النفاس، بيروت، ط2 1406ه/1986م.
4. صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط3، 2009.
5. عبد الحق ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار ابن حزم. مصر، دط، دت.
6. عبد الحميد السيد، دراسات اللغة في اللسانيات العربية، دار الحامد، عمان، الأردن، ط1 1424ه/2004م.
7. عبد الحميد بن باديس الصنهاجي، في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، تعليق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، لبنان، ط2، 1424ه، 2003م.
8. عبد السلام السيد حامد، الشكل والدلالة (دراسة نحوية للفظ والمعنى)، دار العلوم، القاهرة د ط، 2002م.
9. عبد السّلام المسدّي، مباحث تأسيسية في اللّسانيات، دار الكتاب الجديد المتّحدة، لبنان،ط 1،2010م.
10. عبد الله بن يوسف الجديع، المنهاج المختصر في علم النحو والصرف، مؤسسة الريان لبنان، ط3، 1428ه/2007م.
11. علي أبو المكارم، تقويم الفكر النحوي، دار غريب، القاهرة، دط، 2005م.

12. علي الزوين، منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، دار الشـؤون الثقافيـة العامة، بغداد، ط1، 1986.

13. علي كاظم أسد، المفسر ومستويات الاستعمال اللغوي، الدار البيضاء، النجـف (العـراق) ط1، 1428ه،2007م.

14. ماريوباي، أسس علم اللغة، تر: أحمد عمر مختار، عالم الكتب، القاهرة، ط8.

15. محمد أبو حيان الاندلسي، البحر المحيط، دار الكتب العلمية، لبنـان، ط1،1413ه، 1993م ج4.

16. محمد السيد شيخوان، الإعجاز في نظم القرآن، مكتبة الكليات الأزهريـة، القـاهرة، ط1 1398ه، 1978م.

17. محمد الطّاهر ابن عاشور، تفسير التّحرير والتّنوير، الدّار التّونسية، تونس، دط، 1984م.

18. محمد حسين الذهبي، التّفسير والمفسّرون، مكتبة وهبة، القاهرة، ج01، ط07، 2000م.

19. محمد محمد داوود، كمال اللغة القرآنية بين حقائق الاعجاز وأوهام الخصوم، دار المنار، د ط، د ت.

20. محمد يونس علي، مدخل إلى اللسانيات، دار الكتب الجديدة المتحدة، لبنان، ط1، 2004.

21. محمود فهمي الحجازي، مدخل إلى علم اللّغة، دار قباء، القاهرة، د. ط، د.ت.

22. مساعد بن سليمان الطّيار، التّفسير اللّغوي للقرآن الكريم، دار ابن الجوزي، د. ط، د.ت.

23. مساعد بن سليمان الطّيار، فصول في أصول التّفسير، دار النّشر الـدّولي، الرّيـاض، ط1 1413هـ، 1993م.

24. مصطفى الصادق الرافعي، إعجاز القرآن الكريم والبلاغة النبوية، دار الكتـاب العربـي بيروت، لبنان، ط9، 1393ه ،1973م

25. نادية رمضان النجار، اللغة وأنظمتها بين القدماء والمحدثين، دار الوفاء، الاسـكندرية، دت دط.

26. نعمان بوقرة، المدارس اللسانية المعاصرة، مكتبة الآداب، القاهرة، دط، دت.

الاحالات:

---

[1] نعمان بوقرة، المدارس اللسانية المعاصرة، مكتبة الآداب، القاهرة، دط، دت. ص07.

[2]عبد السّلام المسّدي، مباحث تأسيسية في اللّسانيات، دار الكتاب الجديد المتّحدة، لبنان، ط1 2010م، ص25

[3]يُنظر: محمد حسين الذهبي، التّفسير والمفسّرون، مكتبة وهبة، القاهرة، ج01، ط07، 2000م ص191.

[4]مساعد بن سليمان الطّيار، فصول في أصول التّفسير، دار النّشر الدّولي، الرّياض، ط1 1413هـ، 1993م، ص41.

[5]مساعد بن سليمان الطّيار، التّفسير اللّغوي للقرآن الكريم، دار ابن الجوزي، د. ط، د.ت ص38.

[6] يُنظر: مساعد بن سليمان الطيار، فصول في أصول التّفسير، ص42، 43.

[7] مساعد الطّيار، المرجع السابق، ص44.

[8] جمال الدين ابن منظور جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3ج15 ص309، 1414،310

[9] تصريف جلال الدين السيوطي، الحاوي للفتاوي، ص 269-270.

[10] أبو عثمان ابن جني، الخصائص، ج1، تحقيق: علي النجار، دار الكتب المصرية، المكتبة العلمية، مصر، دط، دت، ص34.

[11] مفهوم فهمي الحجازي، مدخل إلى علم اللغة، ص 108.

[12]ماريوباي، أسس علم اللغة، ص 44.

[13] محمد يونس علي، مدخل إلى اللسانيات، دار الكتب الجديدة المتحدة، لبنان، ط1، 2004 ص16.

[14] أحمد مومن، اللسانيات (النشأة والتطور)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 2005 ص 36.

[15] عبد الله بن يوسف الجديع، المنهاج المختصر في علم النحو والصرف، مؤسسة الريان، لبنان ط3، 1428ه/2007م، ص 06.

[16] عبد الحميد السيد، دراسات اللغة في اللسانيات العربية، دار الحامد، عمان، الأردن، ط1 1424ه/2004م، ص 164.

[17] عبد الله بن يوسف الجديع، المرجع السابق، ص 08-09.

[18]خالد عبد الرحمان العك، من أصول التفسير وقواعده، دار النفاس، بيروت، ط2 1406ه/1986م، ص 157.

[19] نادية رمضان النجار، اللغة وأنظمتها بين القدماء والمحدثين، دار الوفاء، الاسكندرية، دت دط، ص 152.

[20] يُنظر: تمّام حسّان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص178.

[21] علي الزوين، منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد، ط1، 1986، ص 72.

[22] صبحي الصالح: دراسات في فقه اللغة، ص117.

[23] أحمد بن فارس، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، مكتبة المعارف، بيروت، ط1، 1414ه/1993م، ص 161.

[24] عبد السلام السيد حامد، الشكل والدلالة (دراسة نحوية للفظ والمعنى)، دار العلوم، القاهرة، د ط، 2002م، ص61.

[25] محمد السيد شيخوان، الإعجاز في نظم القرآن، ص86.

[26] مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص244، 245.

[27] محمد محمد داوود، كمال اللغة القرآنية بين حقائق الاعجاز وأوهام الخصوم، دار المنار، د ط د ت، ص215.

[28] علي أبو المكارم، تقويم الفكر النحوي، دار غريب، القاهرة، دط، 2005م، ص169.

[29] إبراهيم عبد الله رفيدة، النحو وكتب التفسير، الدار الجماهيرية، الجماهيرية الليبية، ج1، ط3 1990م، ص 36.

[30] صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، ص119.

[31] علي كاظم أسد، المفسر ومستويات الاستعمال اللغوي، الدار البيضاء، النجف (العراق)، ط1 1428ه،2007م، ص59،60.

[32]أبو محمد عبد الحق ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار ابن حزم، ص43

[33] المرجع نفسه، ص87.

[34]محمد أبو حيان الاندلسي، البحر المحيط، دار الكتـــب العلميـــة، لبنـــان، ط1413،1ه، 1993م ص241

[35]المرجع نفسه، ج4، ص231.

[36] الطّاهر ابن عاشور، تفسير التّحرير والتّنوير، الدّار التّونســية، تــونس، ج05، دط، 1984م ص130.

[37] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج01، ص 313.

[38]عبد الحميد بن باديس الصنهاجي، في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، تعليــق: أحمــد شمس الدين، دار الكتب العلمية، لبنان، ط2، 1424ه، 2003م، ص108

[39]المرجع نفسه، ص58.

[40]عبد الحميد بن باديس، المرجع السابق، ص120.

دور المدارس القرآنية في تعليم اللغة العربية ولاية غليزان أنموذجا

داه. ربيحة عداد

جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف

الملخص:

القرآن الكريم كتاب العربية، عجزت عقول البشر عن محاكاته، وعلى امتداد تاريخ البشرية ومنذ نزول كتاب الله المحكم لم نر أمة عربية استغنت عن تعليمه وتحفيظه لأبنائها، ولم نر خلو منظوماتنا التربوية والتعليمية منه، وذلك للفائدة القصوى له، فقد استطاع ابتكار أساليب تواصلية تنوعت بحسب المقام والسياق مما جعله يتجاوب مع النفس البشرية في أبعادها المختلفة، ففيه خطاب للعقل وخطاب للروح وفق أسلوبي الترهيب والترغيب، وبالتالي فهو منظومة تواصلية بالغة التأثير.

ففي الجزائر مثلا وإبان الفترة الاستعمارية، كان للقرآن الكريم أهمية بالغة في تعليم علوم اللغة وأصول الفقه، وجل العلوم العربية، وذلك من خلال المدارس القرآنية وتصدّيا لنوايا الاحتلال وأعماله الشرسة قام الجزائريون بإنشاء الكتاتيب الزوايا المساجد والجمعيات التي كانت رسالة نبيلة ومهمة في المحافظة على الإسلام واللغة العربية، وأصبحت شريكا فعالا في الحياة العلمية والثقافية والسياسية لأبناء الوطن حيث كانت جمعية العلماء المسلمين منعطفا هاما في إقرار برامج ومناهج التدريس في هذه الأماكن التعليمية، إذ كان التركيز فيها على تحفيظ القرآن الكريم وتعليم السنة وبعدها قواعد اللغة العربية ونحوها.

ولكن يبقى الإشكال المطروح ما واقع التعليم في تلك المرحلة وفي تلك المدارس؟ وما هي استراتيجيات تدريس اللغة العربية فيها؟ وسنسعى للإجابة عن ذلك في مداخلة سنوسمها بـ: "**دور المدارس القرآنية في تعليم اللغة العربية ولاية غليزان أنموذجا**".

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم، التعليم، اللغة العربية، مناهج التدريس المدارس القرآنية.

حرص الاستعمار الفرنسي طيلة 130 سنة على طمس الهوية الوطنية وتجهيل المجتمع الجزائري، وقمع كل مظاهر الحياة فيه، بعد أن كانت الجزائر حضارة من حواضر العلم في بلاد الحضارة العربية قديما.

ونظرا للمكانة التي يحتلها قطاع التعليم، نجد الاختصاصيين في بحث دائم ومستمر عن الجديد في هذا المجال، وذلك من خلال المناهج التعليمية والدلائل البيداغوجية المعتمدة في المؤسسات التعليمية بغية تحصيل نتاج علمي ناجح، ولا ننسى أن لكل مجال أو موضوع مرجعيات وأصولا، فالتعليم في الجزائر مرّ بمراحل ثلاث أوّلها مرحلة ما قبل الاستعمار، ثانيها مرحلة الاحتلال الفرنسي ثم مرحلة ما بعد الإستقلال ولكل مرحلة مناهجها وطرقها في التدريس، وما يهمنا في هذه الورقة البحثية التعليم في عهد الإستعمار، هذا الأخير الذي اتسم بالعنف والطغيان رافقه حرمان الشعب الجزائري من المؤسسات الثقافية والتعليمية، والتعليم عموما بشتى أنواعه، وكان ذلك في الفترة الممتدة ما بين 1830م إلى غاية 1962م .

1. **أهمية العملية التعليمية التعلمية:** لكل من التعلم والتعليم أهمية كبيرة في حياة الفرد، فبهما يستطيع التغلب على المشاكل والصعوبات التي تواجهه ويتجاوز الأخطاء فالمتعلم المثالي هو الذي يقف أمام أخطائه قصد تصحيحها ويتخذ منها حافزا لتقويمها.

فالتعليم من حيث مهمته التربوية والبيداغوجية، يعتبر القاعدة الأساسية التي تتولى مهام أحداث تحولات عميقة في عقول الأفراد، وكذا في سلوكهم من أجل إعدادهم للمساهمة في خدمة وبناء المجتمع من خلال الأعمال القيمة التي ينجزونها في مختلف التخصصات، ويتولى التعليم تكوين الأفراد وذلك ليس بجعلهم قادرين على فهم الواقع الاجتماعي فحسب، بل يجب قبل كل شيء أن يكونوا متمكنين من تغيير ذلك تغييرا جذريا، فـ"التعليم البناء هو الذي يقوم على أسس سليمة ومتينة ومن أجل تجنيب التلميذ

أو الطالب الوقوع في الأخطاء واكتساب المعارف والمعلومات غير الصحيحة وذلك أثناء العملية التعليمية"[1].

وهناك علاقة طردية ووطيدة بين التعليم والتربية حيث "أن العلاقة بين التربية والتعليم من جهة والنمو النفسي من جهة ثانية تشكل المحور الأساسي لنشاط العديد من علماء النفس، والمصدر الرئيسي لخلافاتهم الحادة ... ففي الوقت الذي ترى فيه الفئة الأولى أن التعليم اقتفاء أثر النمو النفسي لدى الدارسين والسير خلفه، نجد الفئة الثانية ترى أن النمو النفسي ما هو إلا نتيجة ومحصلة للتعليم بكل ما تحمله هذه العملية من أشكال ومضامين وأساليب" [2].

فانطلاقا من هذه العلاقة بين التعليم والتربية، نجد أن هذه الأخيرة تقوم على مناهج تعليمية سنتعرف على محتوياتها من خلال المدرسة الجزائرية في عهد الاستعمار الفرنسي وكيف كان التعليم في ولاية غليزان آنذاك.

2. **التعليم في الجزائر من 1830 إلى 1962**: لو نظرنا في النظم التعليمية في الجزائر في حقبة الاستعمار الفرنسي لوجدنا أن هناك مشاكل عويصة اعترت المدرسة بشتى أشكالها، بما في ذلك المعلم والمتعلم في آن واحد، وهي تنحصر فيما يلي:

- هدم المؤسسات التعليمية.
- تحويل المؤسسات التعليمية إلى كنائس، مخازن، معسكرات وسجون.
- الاستحواذ على الموارد المالية الموجهة لقطاع التعليم والتي تمثلت في الأوقاف الأحباس والأملاك التابعة لها.

وهذا ما كان بشهادة المسؤول الفرنسي عن شؤون التربية في الجزائر" أوغسطس لوبيشو Auguste Le peucheux " الذي أقر بانتشار التعليم قبل الاحتلال وتوفر وسائله من مدارس وأساتذة وأوقاف كثيرة ومخطوطات عديدة، لكنها وفي أمد قصير لم يعد أي شيء موجود بفعل الهدم والحجر والحجز[3].

2. **سياسة الاستعمار الفرنسي التعليمية:** منذ أن وطأت أقدام المستعمر بلد الجزائر وهي تمارس كل السياسات والطرق التي ترمي إلى طمس الهوية الوطنية والدينية وذلك وفق خطط ممنهجة وضعها مفكرون ومنظرون يساعدهم فيها أعوان الجيش الفرنسي بدافع تضليلهم بالتنوير والحضارة، حيث قال في ذلك الكاردينال لافيجري في تصريح له سنة 1869: "علينا أن نخلص هذا الشعب من قرآنه، وعلينا أن نعتني على الأقل بالأطفال لتنشئتهم على مبادئ غير التي شب عليها أجدادهم، فإن من واجب فرنسا تعليمهم الانجيل أو طردهم إلى أقاصي الصحراء بعيدين عن العالم المتحضر"[4]، وهكذا كانت نوايا المحتل الفرنسي في تنصير الشعب الجزائري، ولم تكن المدرسة أنذاك موجودة بالشكل الموجود حاليا، وإنما كانت متمثلة في الكتاتيب الزوايا، المساجد، المدارس الفرنسية.

1.2. **أهداف السياسة التعليمية للمحتل في الجزائر:** تمثلت سياسة المحتل الفرنسي التعليمية في القضاء على الشخصية الوطنية الجزائرية بكل أبعادها ومقوماتها الأساسية، وذلك لدمجها في المجتمع الفرنسي من خلال تسميته للجزائر بالفرنسية، إذ وضع آلية لتحقيق ذلك تجسدت في:

- **الفرنسة:** وهي تعليم الفرد الجزائري اللغة الفرنسية باعتبارها لغة رسمية بدل العربية التي اعتبرها لغة ثانوية.
- **التنصير:** والذي من خلاله قام المحتل بالحركات التبشيرية لإبعاد المواطن الجزائري عن الدين الإسلامي وحثه على اعتناق المسيحية، وكان ذلك بتأسيس مدارس دينية مسيحية ابتداء من 1878م، يسيرها مسيحيون، والتي كانت منتشرة بكثرة في مناطق القبائل الجزائرية حوالي 21 مدرسة بها حوالي 1039 تلميذا، كما تم فتح مدارس في كل من البيض وورقلة[5].

3. **المؤسسات التعليمية في الفترة ما بين 1830م إلى 1962م:** شمل التعليم في عهد الاستعمار الفرنسي نوعين من التعليم: التعليم الرسمي والتعليم الحر.

1.3. التعليم الرسمي: كان يُدرَّس هذا النوع من التعليم في المدارس، وهذه الأخيرة تحت رقابة المستعمر.

1.1.3. المدرسة: ما يُشهد له أن التعليم في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي كان مزدهرا، لكن نظرة المستعمر كانت غير ذلك بهدف الحضارة لهذا الشعب الأمي إقرارا بتدهور التعليم أنذاك، رغم وجوده بجميع المستويات من ابتدائي، ثانوي، ولكل مؤسساته التعليمية وعلمائه أو مدرِّسيه، وهذا ما شهد له الفرنسيون أمثال الجنرال Dumas في قوله: "كان التعليم الابتدائي أكثر انتشارا في الجزائر وذلك عكس الاعتقاد السائد أنذاك، ولقد أثبتت معرفتنا للسكان الأصليين في المقاطعات الثلاث أن نسبة الذكور يحسنون القراءة والكتابة كانت على الأقل مساوية لتلك التي تذكرها الاحصائيات عن نسبة المتعلمين في أرياف فرنسا 40%"[(6)]، كما نجد إلى جانبه تصريح روزيت Roset في قوله:" الجزائريون كانوا أكثر تعلما من الشعب الفرنسي حيث أن كل الرجال تقريبا يعرفون القراءة والكتابة والحساب"[(7)].

هذه الشهادات توضح وتثمن أن الشعب الجزائري كان شعبا متعلما لا أميا، بحكم انتشار المدارس في جميع القطر الجزائري كتلمسان، معسكر، بجاية، قسنطينة، غرداية ومازونة، وكانت محاولات الفرنسيين أنذاك إعادة صياغة النظام التعليمي الذي يساير سياسة التمكين للاستعمار في الجزائر، والتعليم في هذه المرحلة كان بلغة مزدوجة وبأهداف استعمارية وذلك سنة 1907م[(8)]، فكان الهدف الأساسي من تعليم الجزائريين هو تأهيلهم إلى العمل اليدوي والوظائف والمهن التي يحتاجها المستعمر في مدارس منفصلة ودون التي كان يتعلم فيها أبناء المعمرين، وهكذا كانت سياسة التمييز

العنصري التي لازمت سياسة التعليم، حيث كان يركز فيه المدرّس على إخراج إنسان جزائري مسلوب من تاريخه ولغته ودينه، ونجد هذه المدارس تــدرَّس فيها العلوم الشرعية لتكوين الإطارات التي تحتاجها فرنسا في إدارتها لتسهيل الاتصال بالأهالي مثل معلمي اللغة العربية والترجمة على يد أساتذة يتقنون اللغة العربية، لإبعاد الجزائريين عن تأثيرات علماء الدين والزوايا والمساجد، وقد وضح ذلك الوزير روندوف الفرنسي في قوله:" فمن هذه المدارس يتخرج الموظفون الإداريون والقضاة وبكلمة أعم الشخصيات والعناصر التي لها تأثير على السكان حتى لا يفلتوا من قبضتنا"[9]. أما المناهج التعليمية والتربوية التي كانت مطبقة أيضا في هذه المدارس هي برامج فرنسية محظى، إذ أثرت على مردودية التعليم والتحصيل المعرفي الذي تدهور بصفة كبيرة نظرا لتباين هذه البرامج، وكذا بعد المسافة بين المدارس التي كانت في المدن المتحضرة والأرياف مما أرّق التلاميذ، فالطفل يبدأ التمدرس وينتهي في مرحلة أولى من تعليمه، فبإجبارية التعليم تم إعتماد برامج تعليمية على حسب طبيعة البلاد، وتجنب النقل الحرفي للبرامج الموجودة في فرنسا[10]، وقد ضمت هذه البرامج والمحتوى الدراسي مادة "الجغرافيا، الحساب، الرسم، وتمارين اللغة مثل التعريف بالفعلين المساعدين (Etre / Avoir) والتصريف ومادة الأخلاق، بالتركيز على الجوانب الإيجابية في السلوك مثل الجد، الوفاء، الإخلاص في العمل، ونبذ السلوك السلبي كالكسل"[11]، تم التركيز في هذه المناهج على نشر وتعميم اللغة الفرنسية، كما كانت المدارس تخضع للتفتيش، و"المفتش يشترط فيه السن لا يقل عن 25 سنة، وأن يكون ملمّا باللغة العربية والقبائلية، وخبرة لمدة عامين كمندوب للتفتيش، ومنها يحصل على شهادة الكفاءة"[12]، وبهذا نجد سياسة التعليم الفرنسية في الجزائر باءت بالفشل بسبب العجز في وضع مخطط عام لها يتم تطبيقه بجدية على أرض الواقع، والتعليم كان موجها لمناطق معينة ولفئة اجتماعية محدودة، ومن المدارس التي أشرفت عليها السلطات الفرنسية بمدينة غليزان مدرسة البنات بشارع (صوف)، مدرسة الحضانة

بنهج فيكتور هيجو (نهج محمد خميستي حاليا) ومدرسة نهج فورتان (مدرسة مصطفى بن نعمة حاليا).

ضف إلى ذلك هناك مؤسسات تعليمية أخرى تتدرج ضمن التعليم الحر والتي سنفصل فيها كالآتي:

2.3. **التعليم الحر:** يعرف بالتعليم التقليدي أو التعليم الأصلي، وهذا النوع من التعليم كان مورده الأوقاف التي كانت تجمع من طرف الشعب الجزائري والصدقات الممولة من الزكاة، وفي ظل هذه الهجمة الشرسة على العلم وعلى الثقافة من قِبل المستعمر صودرت كل الأموال وجفت الحياة العلمية واضمحلت، ولكن الجزائريين قاوموا الاحتلال بالعلم مثلما قاوموه بالسلاح وتكفلوا مرة أخرى بالزوايا والكتاتيب والمساجد واستحدثوا المدارس الجزائرية بالموازاة مع المدارس الفرنسية، سنحصر فيما يلي أهم هذه المؤسسات التعليمية العربية ونأخذ ولاية غليزان كعينة تطبيقية لذلك.

1.2.3. المدرسة القرآنية: المدرسة القرآنية كان يصطلح عليها الكتّاب، وهي مكان أو حجرة بجانب المسجد تعتمد لتعليم القرآن، والكتابة والقراءة من قبل إمام المسجد أو مدرّس قرآن آخر، يعتبر التعليم الديني تعليما قاعديا يستمد منه الشعب الجزائري دينه وإيمانه وهويته، ولكن كان تحت الرقابة الفرنسية الاستعمارية، ففرض مناهج التدريس فيها والتي اقتصرت على تحفيظ القرآن الكريم والتفسير فقط أي مجال العبادة لا غير ومن بين هذه المدارس التي كانت موجودة في غليزان نذكر:

– **مدْرسَة مازونة الشهيرة:** من أهم المراكز التعليمية التي عرفتها المنطقة أسسها الشيخ امحمد بن الشارف البولداوي في القرن الثاني عشر للهجرة(12هـ)، إذ كانت مركز إشعاع ثقافي وعلمي وديني، وازدهرت على يد الشيخ أبي طالب محمد بن علي في بداية القرن الثالث عشر(13هـ)، كان يقصدها كل طلبة جهات الوطن إلى غاية (1939م)، وتخرج منها العديد من العلماء والفقهاء[13]، حيث كان لهذه المدرسة

دورا كبيرا في تعليم القرآن الكريم واللغة العربية، إذ كان يأتي إليها الطلبة من تـونس المغرب، الغزوات، ندرومة، واحتوت هذه المدرسة على حوالي(25) ألف كتاب بقيـت منها مخطوطات تتحدث عن الفقه والأجرومية، ومن أشهر مشايخها سيدي هني، أبـو طالب، وقد تخرج منها الشيخ محمد بن علي السنوسي، الشيخ الرماسي فـي التفسـير والفقه، وزكريا يحي المغيلي الذي ألف كتاب الدرر المكنونة في نوازل مازونة، حتـى سميت بـ (أم الأحكام المكنونة)[14]، حتى وصلت الفترة الاسـتعمارية، ففـي (1836) دخل الأمير عبد القادر إلى جسر الشلف المحاذي لمدينة مازونة، فطلب مـن سـكانها الانضمام إليه، ولكنهم رفضوا لأن فرنسا لمتلكت تلك المدينة، ولكن أيدوه بعد ذلك سنة 1845م.

– **مدرسة سيدي عبد القادر بن يسعد:** تأسست سنة 1625م بمنطقـة بنـي راشـد درس فيها العديد من العلماء والفقهاء.[15]

.2.2.3 **الزوايا والمساجد:** ظهرت في ولاية غليزان منذ الثمانينات من القرن التاسع عشر ميلادي، وفي بداية الثلاثينات من القرن العشرين ميلادي، هذه الزوايـا أسـهمت بفعالية في تحفيظ القرآن الكريم وتدريس الفقه المالكي، معتمدة علـى النقـل والحفـظ، حيث كان منهجها التعليمي على شكل تنظيم حلقة ويلتف الطلبة حول الشيخ الذي يلقـي عليهم الدروس من الكتاب، أما تحفيظ القرآن للأطفال يتم باستعمال اللوحـة والـدواة، والمساجد كانت تسمى الجوامع، وهي بدورها تنقسم إلى أصناف ثلاث:

– **الصنف الأول:** كانت الزوايا والجوامع تستقبل التلاميذ (الطُلبة) المسافرين، وهـي تحتوي على مرقد، وقاعة للتعليم، ويعتمد الطُلبة أو التلاميذ في عيشهم على المحسـنين ومساعدات السكان وكانت تعرف بالرتبة، وهذا الصنف هو الآخر ينقسم إلى:

أ/ الزوايا والجوامع التي تعلم القرآن فقط.

ب/ الزوايا والجوامع التي تدرس الفقه وعلوم اللغة العربية.

- **الصنف الثاني:** الزوايا والجوامع التي لا تتكفل بالطلبة المسافرين وتنقسم إلى قسمين:

أ/ الزوايا والجوامع التي كانت تعلم القرآن فقط، وكانت مخصصة في أغلب الأوقات لتعليم أبناء الحي وللصلاة أيضا.

ب/ الزوايا والجوامع التي اهتمت بتدريس الفقه وعلوم اللغة.

- **الصنف الثالث:** مدارس كانت تدرس المواد العلمية وعلوم اللغة العربية، نذكر منها:

- مدرسة الاصلاح المزابية التي أسست سنة 1929م.
- مدرسة الارشاد، كان يشرف عليها الشيخ الطولقي.
- مدرسة الفتح، أسست سنة 1943م، شعبة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

ومن الزوايا والجوامع الموجودة في ولاية غليزان آنذاك نذكر:

- **زاوية المكايك الرحمانية (مكي):** وهي من منارات الطريقة الرحمانية التي قامت بدور كبير في نشر التعليم العربي الحر، تأسست عام 1918م في عهد الشيخ بلمكي، المولود بعرش دار بن عبد الله. ومن المشايخ الذين درّسوا بهذه الزاوية الشيخ المهدي برحال، لزرق بن مهرة، ولزرق بلخير، محمد بوزيان، والعديد من الشيوخ القادمين من المغرب، أما من المشايخ الذين تعلموا فيها نجد الشيخ يحي محمد بن عبد الله (الحاج المكي)، محمد بن علي (لزرق محمد) وغيرهم.

- **الزاوية العلاوية:** تعد الطريقة العلاوية من بين المنارات الصوفية المعروفة في الجزائر، وقامت بدور تحفيظ القرآن الكريم، وتعليم اللغة العربية بمدينة غليزان تأسست على يد الشيخ سيدي أحمد بن مصطفى العلاوي سنة 1870م الذي زار عدة دول من المشرق العربي، وأسس زوايا في دول إسلامية وأروبية، وأنشأ مطبعة لنشر مؤلفات الزاوية، كما أنه أصدر جريدة أسبوعية (لسان الدين)، ومن المشايخ الذين

درّسوا فيها الشيخ الحسن الطولقي الذي كان يدرس النحو والصرف ومن المتمدرسين بهذه الزاوية الشيخ بن يطو مصطفى، خديم الجيلالي[16].

أما فيما يخص الجوامع أو المساجد التي كانت موجودة بنطقة غليزان آنذاك نذكر ما يلي:

– **جامع سي محمد بلقاسم (بلكيلالي):** أسّس بشارع بوشناق سنة 1957م، وقد درّس بهذا الجامع كل من الشيخ درقاوي عبد القادر الهاشمي الذي انضم إلى الثورة التحريرية سنة 1956م، حيث كان يدفع الاشتراكات المالية للجمعية الدينية التي أسهمت في جمع التبرعات، ودرس بهذا الجامع لخضر مفلاح، سعيد بن يحي.

– **جامع سي بوزيان بلعالية (بن الحاج جلول):** افتتح سنة 1958م بحي عبد القادر بن رزقة، وقد درّس فيه كل من الشيخ بوكراع محمد من بلدية سيدي امحمد بن عودة والشيخ عبد القادر بعطوش الذي درس فيه النحو والصرف[17].

4. **الوسائل والمناهج المعتمدة في التعليم الحر بالكتاتيب والزوايا والمساجد:**

كان التعليم الحر في الجزائر في هذه المراكز التعليمية يعتمد على التعليم الشفوي في قراءة القرآن، أولا من طرف المدرّس وبعدها التكرار من طرف التلميذ بداية بالحروف، حيث يجلس التلاميذ في حلقات أو دوائر نصفية، فيملي عليهم المعلّم أجزاء أو آيات من القرآن ليكتبها التلاميذ في لوحات خشبية مطلية بطين الصلصال، وأقلام خشبية وضمغ مصنوع من الصوف المحروقة وهذا ما يعرف بالدواة، وبعد الكتابة والتصحيح في الفترة الصباحية، يحفظ التلميذ ما كتب ويلقيه جهرا في الفترة المسائية وفي اليوم الموالي يمحي التلميذ ما كتب، وهكذا دواليك حتى يختم كتاب الله، فتقام له حفلة من قِبل والده، وهذا ما يطلق عليه بأساليب التلقين، العرض والمراجعة، تكمن في طريقتين إحداهما جماعية والأخرى فردية.

هذه الطرق المعتمدة من طرف المدرس تساعد على معرفة درجة ذكاء التلاميذ ومدى قدرة كل واحد على الحفظ والاسترجاع، ومن يكون ضعيف الحفظ يستدرك بعد

ذلك بالتمرن أكثر بمساعدة المدرس، في حين الطريقة الفردية أحسن من الجماعية لأنها تخلق جوا من التنافس بين التلاميذ، ويستطيع المدرس معرفة موهبة كل تلميذ على حدى.

5- **دور القرآن الكريم في اكساب المهارات اللغوية:** تعمل المدرسة القرآنية على تدريس القرآن الكريم وأحكام التجويد، وعلم الأصول، وكذا تلقن المتعلم مختلف المهارات اللغوية من قراءة وكتابة، واستماع وفهم، وأداء فصيح للغة العربية.

ومن المهارات اللغوية البارزة كثيرا في المدرس القرآنية هو تلقين الأداء اللغوي للمتمدرس، الذي يعتمد على الجانب الصوتي لمعرفة سلامة النطق ومخارج الحروف وسماتها من همس وجهر، وذلك من خلال الترتيل والتجويد لكتاب الله الحكيم فالمتدرس الذي يتقن التجويد يحكم عليه بحسن الآداء والفصاحة، ويظهر ذلك جليا في الدراسات الصوتية للقرآن الكريم من طرف علماء الصوت، وهذه المهارات تساعد على حفظ اللغة العربية وقواعدها وفصاحتها. وتثمينا لأهمية ودور التعليم الحر وبالأخص المدرسة القرآنية يقول أحمد توفيق المدني: "فيمكننا أن نقول بأنه لولا التعليم الحر العربي لانعدمت العربية وانعدم تعليم الإسلام بهذه الديار"(18). فبالتجويد مثلا يتعلم المتتلمذ مخارج الحروف وصفاتها.

ومن الأهداف المرجوة والمستقصاة من التعليم في هذه المدارس هو المحافظة على كتاب الله العزيز، وتربية النشء تربية حسنة ومستقيمة وفقا لأخلاق الرسول عليه الصلاة والسلام التي حثنا علي اتباعها، وإكساب المتتلمذ معجما لغويا سليما مستمدة ألفاظه من القرآن الكريم والسنة النبوية.

وختاما فإن للقرآن الكريم فضل كبير في حفظ اللغة العربية من الزوال وترسيخ قواعدها ونحوها وأسسها، وذلك من خلال المؤسسات القرآنية التي تلقنه وتعلم أحكام تجويده وترتيله.

- فهذا الكتاب العزيز يخلد اللغة العربية، مادام الإنسان المسلم حافظا لكتاب الله فهو لا يزال حافظا للغة العربية، أي تُحفظ من الضياع بفضله.

- بالقرآن الكريم تستقيم أخلاق الأمة العربية وتتوطد العلاقات بين الأمم المسلمة وبالدفاع عن القرآن حتما أننا ندافع عن لغتنا.

الثراء اللغوي للغة العربية الذي مرده المعاني الدقيقة، والألفاظ الموحية والدالة والتراكيب الصحيحة الرفيعة، المستوحاة من القرآن الكريم، فمنها ظهر شعراء وأدباء يبدعون بهذه اللغة العريقة والراقية، فكثيرا ما نجد مثلا التناص في أشعار العرب قديما وحديثا ليستنير شعرهم ويشع في العلو.

- ظهور دراسات بلاغية ونحوية وأدبية لكتاب الله الحكيم مثل الإعجاز العلمي دراسة الظواهر الصوتية فيه.

وهذا كله من فضل الله تعالى على عبده أن جعل لنا القرآن الكريم منارة نستنير بها في جميع العلوم وخاصة العربية منها.

المصادر والمراجع:

- رمضان القذافي" نظريات للتعلم والتعليم"، ليبيا، دار العربية للكتاب، 1998م.
- عبد الحميد زوزو، الثقافة والتعليمان الحر والرسمي في العهد الفرنسي، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر،2017م.
- محمد مفلاح، مراكز التعليم العربي الحر في مدينة غليزان من الاحتلال الفرنسي إلى غاية الاستقلال 1962م، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2011م.

المجلات:

- عبد الحميد عومري، التعليم الابتدائي في الجزائر بين المدرسة الفرنسية والكتاتيب القرآنية 1880– 1914م، جامعة سيدي بلعباس، ع8.
- سعيد بوشينة،" قضايا تربوية"، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة، الجزائر، ع 84، (نوفمبر/ ديسمبر 1984م).

المذكرات:

- ابراهيم هياق، اتجاهات أساتذة التعليم المتوسط نحو الاصلاح التربوي في الجزائر، أساتذة أولاد جلال وسيدي خالد نموذجا، مذكرة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، 2011/2010م.
- أحمد بن داود، المقاومة الثقافية للاستعمار الفرنسي في كل من الجزائر و المغرب من خلال التعليم (1920–1954)، جامعة أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2017/2016م .
- جمال تالي، محاضرات في مقياس تاريخ التربية والتعليم في الجزائر للسنة ثانية ماستر تخصص علم اجتماع التربية، مذكرة ماجستير، جامعة محمد الصديق بن يحي، جيجل 2015م/2016 م.

الهوامش:

[1] رمضان القذافي" نظريات للتعلم والتعليم"، ليبيا، دار العربية للكتاب، 1998م، ص16.

[2] سعيد بوشينة، "قضايا تربوية"، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة، الجزائر، ع 84، (نوفمبر/ ديسمبر 1984م)، ص 224.

[3] عبد الحميد زوزو، الثقافة والتعليمان الحر والرسمي في العهد الفرنسي، دار هومـــة للطباعـــة والنشر والتوزيع، الجزائر،2017م، ص 13.

[4] ابراهيم هياق، اتجاهات أساتذة التعليم المتوسط نحو الاصلاح التربوي في الجزائـــر، أســـاتذة أولاد جلال وسيدي خالد نموذجا، مذكرة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، 2010/2011م، ص 119.

[5] ينظر: المرجع نفسه، ص 120.

[6] أحمد بن داود، المقاومة الثقافية للاستعمار الفرنسي في كل من الجزائر والمغرب من خـــلال التعليم (1920–1954)، جامعة أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2016/2017، ص2.

[7] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[8] جمال تالي، محاضرات في مقياس تاريخ التربية والتعليم في الجزائر للســـنة ثانيـــة ماســـتر تخصص علم اجتماع التربية، مذكرة ماجستير، جامعـــة محمـــد الصـــديق بـــن يحـــي، جيجـــل 2015م/2016 م، ص 40.

[9] المرجع نفسه، ص 41.

[10] عبد الحميد عومري، التعليم الابتدائي في الجزائر بين المدرسة الفرنسية والكتاتيب القرآنيـــة 1880– 1914م، جامعة سيدي بلعباس، ع8، ص 248.

[11] المرجع نفسه، ص 255.

[12] المرجع نفسه، ص 256.

[13] ينظر، محمد مفلاح، مراكز التعليم العربي الحر في مدينة غليزان من الاحتلال الفرنسي إلـــى غاية الاستقلال 1962م، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2011م، ص11.

(14) جنان الطاهر، مازونة عاصمة الظهرة، ثغر حربي ومركز إشعاع حضاري، مكتبة الرشـــاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2005م، ص9.

(15) ينظر: المرجع نفسه، ص 12.

(16) ينظر: المرجع نفسه، ص 43،37.

(17) ينظر: المرجع نفسه، ص 58/63.

(18) المرجع نفسه، ص 13.

القرآن الكريم وحياة اللغة العربية

داه. رقية رقاز
جامعة يوسف بن خدة الجزائر 1

مقدمة: بسم الله الموفق للرشاد الباعث أفصح الناطقين بالضاد، والحمد لله الفاعل المختار لكل مفعول من الكائنات والآثار والصلاة والسلام على محمد مصدر الفضائل وصحبه الأخيار، صلوات ربي وسلامه عليه وعلى رسله الأعلام وأنبيائه هداة الأنام بأقوى الحجج وأفصح الكلام، وبعد،

اللغة في الإسلام لا تتوقف عند كونها وسيلة تواصل إنساني وترابط اجتماعي بل تتعدى ذلك لتكون نعمة إلهية تيسر للإنسان حياته وتسهم في تلبية متطلباته وتحقق التعايش في المجتمع. وارتقت أهميتها في نفوس متحدثيها الذين اشتهروا بالفصاحة والبلاغة فكانت العربية معجزتهم ومحور عبادتهم.

اللغة العربية في ظل الاسلام لم تبق مجرد كلمات بل صارت عماد الدين وأحد أهم ركائز الثقافة الاسلامية، فلا يمكن لأي عالم يريد الخوض في القرآن أن يخطو خطوة في مجاله دون أن يعود إليها فينطلق منها.

إشكالية البحث: تكمن مشكلة البحث في ما نراه من تراجع إقبال العرب على العربية ومع ذلك نشهد استمراريتها ودوامها ولمعرفة سبب حفاظها على مكانتها وجب علينا الإجابة على السؤال الرئيسي: ما سر علاقة القرآن الكريم باستمرارية اللغة العربية على مدار خمسة عشر قرنا؟

ولتتسنى لنا الاجابة على الاشكالية نمر أولا بالإجابة عن بعض الفرضيات:

- هل اللغة العربية قبل الاسلام هي ذاتها بعده؟
- هل اللغة العربية قوية بذاتها أم اتكأت على القرآن الكريم؟
- هل الهجوم الشرس على اللغة العربية راجع لكيانها كلغة؟

- هل يعقل أن تفشل اللغة العربية في حرب البقاء يوما؟

يبقى مستقبل اللغة العربية يشغل بال جمهرة علماء اللغة، ويأخذ قسط الأسد في أعمال وأبحاث المفكرين والأدباء والكتاب والباحثين، وهذا من بين ما استوقفني للتفكير في موضوع هذه الدراسة وفي هذه الأسطر يطيب لي أن أعرض عليكم أهم الأسباب التي دفعتني لتقديم هذا العمل تحت عنوان: القرآن الكريم وحياة اللغة العربية.

أسباب اختيار الموضوع:

- الموضوع منبثق من عمق تخصصي في الليسانس "اللغة العربية والدراسات القرآنية" ويمتد إلى تخصص الماستر "إعجاز القرآن والدراسات البيانية"، فهو بمثابة حوصلة لإثبات استفادتي من تخصصي.
- استصغار طلاب العلم الشرعي اليوم لتخصص اللغة العربية وتصنيفه في آخر قائمة التخصصات.
- الهجمات القوية التي تعرض لها القرآن الكريم فتعرضت لها اللغة العربية بالضرورة.
- التدهور الملحوظ في المستوى العلمي والفكري للأجيال الأخيرة في الدول العربية وغياب اللسان العربي الفصيح في المحافل العربية والعالمية.

استنادا إلى هذه الأسباب وغيرها قدمت هذه الدراسة ليس عبثا وإنما رغبة مني في تصحيح الوضع الذي آل إليه مجتمعنا العربي الاسلامي، فكان هدفي من اختيار هذا الموضوع ملخصا في النقاط الآتية:

- إبراز أهمية اللغة العربية في الشريعة الاسلامية.
- استرجاع اللغة العربية مكانتها بين التخصصات الاسلامية أولا واللغات الأخرى ثانيا.
- إثبات أحقية لغة القرآن بأن تكون لغة العلوم.
- الارتقاء بالعالم العربي.

إن الحديث عن القرآن الكريم وأثره في اللغة العربية حديث شيق يبعث في النفس الاعتزاز، لذلك وجب الاهتمام بتعليم اللغة العربية في البلاد الإسلامية باعتبارها المنبع الأصيل لفهم العلوم الإسلامية ومن هذا المنطلق تتضح لنا أهمية البحث المتمثلة في:

- إبراز أهمية تخصص اللغة العربية والدراسات القرآنية في الكليات الاسلامية.

- التعرف على أعداء الاسلام من أبناء جلدتنا وغيرهم والتفطن لمؤامراتهم والتسلح لمواجهتها والسلامة من تبنيها عن جهل.

استنادا إلى هذه الأهمية ازدادت رغبتي في البحث في هذا الموضوع خاصة بعد اطلاعي على مجموعة من الدراسات السابقات وبعض المراجع التي تناولت عناصر مما تناولته في بحثي لكن انفردت كل منها بشق منه وأفاضت الحديث فيه، فجاء بحثي ليجمع ما تفرق بينها ويجمله بين دفتين، مركزة على مدى إسهام القرآن الكريم في تحقيق استمرارية حياة اللغة العربية ومواجهتهما لكل الهجومات واتضحت في ذهني المنهجية التي وظفتها في الخطة مركزة على المحاور التالية:

- نشأة اللغة العربية؛
- قواعد اللغة العربية ومميزاتها؛
- مكانة اللغة العربية واهميتها؛
- أثر القرآن الكريم في اللغة العربية؛
- المعارك التي خاضتها اللغة العربية؛
- عناصر القوة والضعف في اللغة العربية؛

وقد التزمت في بحثي المنهج التاريخي في تتبع نشأة وتطور اللغة العربية والمنهج الوصفي التحليلي في تناول خصائصها وتأثير القرآن الكريم فيها.

وفي الأخير أتمنى أن يكون طرحي قد نال اهتمامكم وأتوجه بالشكر والامتنـــان للدكتورة سهام داوي التي قطعت لي من وقتها نصيبا لتوجهني في دراستي، آخـــر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.

نشأة اللغة العربية: اليوم ليس في مقدور الباحث الوقوف على الأطوار الأولى لنشأة اللغة العربية، لقد تعرفنا عليها بعد مرحلة الطفولة، فلن يتجاوز حديثنا عنهـــا العصر الجاهلي الذي يؤرخ له بنحو مئة وخسين (150) سنة قبل ظهور الإســـلام وما هو متوفر لدينا من نصوص ونقوش يسير لا يكاد يروي غليل البـــاحثين عـــن أصولها ولا يكشف بجلاء عن أطوارها. لذلك ظلت نشأة اللغة العربية قضية تشغل بال المفكرين عبر العصور وأجمعوا على القول بأن اللغـــة الإنســـانية أولا هـــي أصوات أوحى بها الله لبني البشر ومكنهم منها بواسطة جهـــاز النطـــق وغريـــزة التعلم، كما أن اللغة تراكمية نشأت وتطورت على مراحل متفاوتة.

تنتمي اللغة العربية إلى أسرة اللغات السامية من مجموعـــة اللغـــات الآفروـــــ آسيوية. «والثابت أن بين اللغات السامية قرابة واضحة»[1] فهي وليدة لغة ســـامية عامة قد بادت. يرى الباحثون أن صفات الساميين العنصرية، ومنها الإيمان الشديد والتعصب والتصور تدل على أصل صحراوي يجعلونه بـــلاد العـــرب. إلا أنهـــم يعتبرونها أقرب أخواتها إلى الأصل السامي وإن كانت الآرامية أقدم منهـــا عهـــدا لكن العربية أرقاها وأشدها فصاحة واتساعا.

يرى المحققون «أن اللغة العربية الفصيحة نشأت في شمالي الجزيـــرة العربيـــة ويرجع أصلها إلى العربية الشمالية القديمة التي يتكلم بها العدنانيون، وهـــي لغـــة تختلف في كثير من مكوناتها وأساليبها وأصواتها عن العربية الجنوبية القديمة التي نشأت في جنوبي الجزيرة وعرفت قـــديما باللغـــة الحميريـــة وكـــان يـــتكلم بهـــا القحطانيون»[2].

ذهب (الفاخوري)[3] إلى أن أقدم النصوص العربية الفصيحة التي عثـــر عليهـــا ترجع إلى الفترة التي تمتد من القرن الثالث بعد الميلاد إلى القرن الخامس، وهـــذه

النصوص هي الشعر الجاهلي والحكم الجاهلية واستدرك بقوله :«لكن من يدقق في هذه النصوص يجدها كاملة مهذبة، ذات نحو متسق وصرف منظم، وقواعد عروضية وشعرية راقية، ولا شك في أن اللغة العربية قد مرت بأطوار بعيدة العهد تطورت فيها وتدرجت إلى هذا الكمال الذي وجدناه في الشعر الجاهلي ثم في القرآن»[4].

وذهب بعضهم إلى أن «يُعرب بن كنعان هو أول من أعرب في كلامه وتكلم بهذا اللسان العربي فسميت العربية باسمه. وورد في حديث ذكره (الشيرازي)[5] وصححه (الألباني)[6] في صحيح الجامع أن نبي الله إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام كان اول من فتق لسانه بالعربية المبينة وهو ابن 14 سنة ومن ثم نسي لسان قومه من جرهم. ويذهب المؤمنون بنظرية المصدر الإلهي للغة والمنادون بنظرية الإلهام إلى أن اللغة العربية كانت لغة آدم عليه السلام في الجنة»[7].

وذهب المعتمدون على ما توصلت إليه علوم اللسانيات والآثار والتاريخ إلى أن اللغة العربية بجميع لهجاتها انبثقت من مجموعة من اللهجات التي تسمى بلهجات شمال الجزيرة العربية القديمة وهو الأغلب وبعضها من جنوب البلاد امتزجوا مع بعضهم البعض حتى صاروا لغة واحدة.[8]

سبق وقلنا أن اللغة العربية عرفت فتية لذلك اخترنا أن نجمع لكم ما وقفنا عليه من أقوال الباحثين والمحققين حول نشأتها لكن يبقى الأمر المجمع عليه أن الله هيأها لتحتوي كتابه الكريم وقد ازهرت بلاغتها بنزوله.

قواعد اللغة العربية: كان العرب قديما أهل سليقة، امتازت عربيتهم بالطلاقة والفصاحة دون الحاجة إلى قواعد تضبط ألسنتهم، ونزل فيهم القرآن الكريم وبه علت كلمتهم وانتشرت راية الاسلام في بلاد العجم فاختلطت الألسن، حينها بدأ العرب بوضع القواعد خوفا على لغتهم من الضياع خاصة لارتباط صحة العبادات بسلامة نطقها وتلاوة القرآن بها وحدها وقد تفشى اللحن فيه.

القاعدة هي الشكل الذي تنتظم فيه المفاهيم وقد عد (السيد أحمد الهاشمي)[9]اثني عشر علما من علوم العربية مجموعة في قوله:

نحو، وصرف، عروض، ثم قافية　　　وبعدها لغة، قرض، وانشاء

خط، بيان، معان، مع محاضرة　　　والاشتقاق لها الآداب أسماء[10]

وتسمى العلوم الأدبية وهي:

1- النحو.　　　2- الصرف.

3- المعاني.　　　4- البيان.

وأمّا علم البديع فقد جعلوه ذيلًا لعلمي المعاني والبيان، لا علمًا مُستقلًا .

5- علم اللغة (ويسمى علم متن اللغة، وعلم مفردات اللغة).

6- العَرُوض.　　　7- القوافي.　　　8- قَرْضُ الشعر.

9- إنشاء النثر 10- علم المحاضرات 11- علم الاشتقاق.

12-علم الخط (ويسمى علم الكتابة، وعلم قوانين الكتابة، وعلم الهجاء، وعلم تقويم اليد)[11]

مميزات اللغة العربية: اللغة لسان الأمة ومرآة تقدمها، هي محرك الهمم وكاشف ستار الجهل، بنهوضها تنهض الأمم وتتعثر بتعثرها.

«إن مميزات اللغة العربية هي خصائص انفردت بها دون غيرها من اللغات سواء أكانت في مفرداتها من حيث الغزارة وحسن التأليف، أم في معانيها من حيث دقة التعبير وعلاقة التناسب بين الألفاظ والمعاني، أم في الاساليب من وجود المعاني ودرجاتها»[12].

وقد افردت دراسات معمقة خاصة لبيان مميزات اللغة العربية لذلك سنكتفي بجولة موجزة في بحثنا هذا وهي كالتالي:

1-لغة العبادة: اللغة العربية لغة القرآن الكريم نزل بها الوحي من السماء على قلب النبي صلى الله عليه وسلم، فامتازت بوجوب تعلمها ليسهل فهم وحفظ القرآن الكريم ومنه هي شرط في قبول العبادات؛ إذ لا تقبل الشهادتان إن لم تلفظا بها، ولا

يقبل الله صلاة أحدنا إن لم يقرا القرآن في ركعاتها باللفظ العربي، وبهـــا تســـتنبط الاحكام الشرعية.

2- الاشتقاق: أحد وسائل نمو اللغة وتكاثر مفرداتها، يتم باستخراج لفظ من لفظ آخر او صيغة من صيغة اخرى، ويقوم على أبواب الفعل الثلاثي.

3- الإعراب 4- المناسبة بين الحروف والمعاني

5- العروض 6- البيان والإيجاز

7- دقة التعبير 8- الترادف والتضاد والاشتراك اللفظي

9- النحت: النحت أن تؤخذ كلمتان أو اكثر وتنحت منهم كلمة واحدة آخذة منهم وهو جنس من الاختصار، نحو: بسم الله الرحمن الرحيم تنحت في لفظ "البسملة".

10- الأصوات: احتفظت العربية بكافة مقوماتها الصوتية ودليل اهتمام العـــرب بالأصوات حرصهم على تعلم مخارج الحروف وصفاتها فكان لكل حرف مخـــرج وصوت خاص به.

11- التعريب: عملية تهذيب الكلمة التي تخـــرج وفقـــا لأوزان وابنيـــة اللغـــة العربية، فامتازت بقبول ما لا يناقض خصوص اشتقاقها وتصاريفها وهـــذه عـــادة العرب في كلامهم وجاء القرآن على نهجها فعرَّب بعض الكلمات الأعجمية لتصير من قبيل العربية.

امتازت اللغة العربية عن سائر لغات العالم بخصـــائص فريـــدة تفســـر قوتهـــا ومتانتها، وأهلتها لاكتساح عرش اللغات، ومكنتها من الاســـتجابة لســـائر دواعـــي البيان فلبت بجدارة حاجة النفس والفكر فيما يستجد من المشاعر والمعاني فتعطـــي اللغة حياة جديدة جيلا بعد جيل؛ إذ أنها لم تجمد بعد ظهور الاسلام وما تـــلاه مـــن العصور القريبة حيث كانت لغة العقيدة ولغة الدولة ولغة الحياة. في المرحلة التالية أصبحت لغة العلم والمعرفة حيث استوعبت جل علوم السابقين وذلك مـــن خـــلال حركة الترجمة والنقل والتعريب. إلى مرحلة التأليف والابداع فـــي كافـــة منـــاحي العلوم والمعارف الانسانية، فشمر علماء الأمة الاسلامية عن سواعد الجد لجمعهـــا

وحفظها، وبذل أعداؤها الجهد العظيم للقضاء عليها، فطوبى لكل من جاهد في سبيل تعلمها واتقانها وأسهم في حفظها.

مكانة اللغة العربية: حسب اللغة العربية مكانة ورفعة وتشريفا أن يصطفيها الله تعالى لتكون لغة القرآن الكريم مشتملة على تعاليم وشرائع الإسلام الرسالة الخاتمة الشاملة الخالدة. حسب اللغة العربية مكانة أن خصها الله بالبيان والوضوح؛ حيث أنها قادرة على الافصاح عما في نفس المتحدث ومقبولة مفهومة عند السامع، فهي من أعذب اللغات مذاقا عند أهلها.

«وقد عزز هذه المكانة اهتمام اولي الأمر بها وإعلاؤهم لشأنها بدءا من الخلفاء في مجالسهم ومحافلهم وانتهاء بالعاملين في مجالات الدولة المختلفة من وزراء وحجاب وأمراء وكتاب»[13]، وقيلت في حقها شهادات قديما وحديثا، اخترنا منها على سبيل المثال لا الحصر:

- كتاب أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) –رضي الله عنه إلى (أبي موسى الأشعري) قال فيه: «خذ الناس بالعربية، فإنها تزيد في العقل وتثبت المروءة»[14]
- (الثعالبي)[15]. «إن من احب الله أحب رسوله المصطفى ومن احب النبي أحب العرب، ومن احب العرب أحب العربية التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب، ومن أحب العربية عُني بها وثابر عليها وصرف همته إليها»[16]
- شيخ (الاسلام ابن تيمية)[17]: «ومعلوم أن تعلم العربية وتعليم العربية فرض على الكفاية، وكان السلف يؤدبون اولادهم على اجتناب اللحن، فنحن مأمورون أمر إيجاب او أمر استحباب أن نحفظ القانون العربي، ونصلح الألسنة المائلة عنه فيحفظ لنا طريقة فهم الكتاب والسنة والاقتداء بالعرب في الخطابة»[18]

أهمية اللغة العربية: حظيت اللغة العربية بما لم تحظ به أي لغة من الاهتمام والعناية وهذا أمر الله نافذ فيها، ولا يكون هذا الاعجاز إلا لكونها تحمل ثقل الكلام الإلهي وقوة الخطاب الرباني.

تكمن أهمية اللغة العربية في كونها لغة الـدين الإسـلامي؛ فالكتـاب والسـنة عربيان. وقد بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم القرآن العربي وفسره بقوله وعملـه وبينه بسيرته في أصل العرب، وهو ذو لسان عربي فصيح في عصر كـان فيـه معظم الناس يتباهون ببلاغة لغتهم وإلمامهم بقواعدها سليقة.

ثم إن معاني القرآن الكريم موافقة لمعاني كلام العرب، وظاهره ملائم لظـاهر كلامهم. فنجد في القرآن الإيجاز والاختصار وغيرهما كما هو موجود فـي كـلام العرب. وعليه فإن فهم مراد الله ورسوله متوقف على فهم لغة العـرب ومعرفـة علومها، ولا يمكن لكل من اراد أن يفهم هذا الدين حق فهمه أن يتبحر فيها، وهـي لازمة على كل من اعتنق الاسلام ولو في القدر الذي يحسن به عبادته.

ومما يبين أهمية اللغة العربية كذلك مكانتها في التفسير؛ حيث نجـد الصـحابة رضي الله عنهم اكثر من أتقن التفسير. تعد تفسيراتهم اجود ما جاء فـي التفسـير بالمأثور، ذلك انهم شهدوا التنزيل وكانوا اهل العربية.

كما أن اللغة العربية تمثل النشاط الفكري ومداه الذي يتردد في آفاق المجتمـع ورحاب النفس، وهي المشترك من الحياة والنفسية من أبناء الأمـة الواحـدة، فـي إطارها يتم التعبير عن التنظيم الكامل لحياة الحضارات وأنماط تفكيرها. إن اللغـة ذات صلة وطيدة بالمجتمع الذي تمارس فيه ادوارها ووظائفها، تزدهر بازدهـاره وتتغير بتغير مناخه، وتتأثر بحياته الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، وتـؤثر فـي سلوك أبنائه وطرائق تفكيره.

أثر القرآن الكريم في اللغة العربية(19)

تروج الدراسات الغربية في بعض التقارير العلمية ان اللغة العربية لغة قاصرة مهددة بالاندثار قريبا في ظل اكتساح اللغة الانجليزية للساحة العلمية وتنصيبها لغة العلم والحضارة. الا اننا نحن المسلمون نسلم بخلودها وهي مدينـة بـذلك للقـران الكريم وذلك من خلال الاثر البارز الذي يظهر في استقرارها ورقيهـا. سـنحاول تفصيل هذا الاثر في العناصر الاتية:

1- ديمومة اللغة العربية: عرف التاريخ حضارات عظيمة لكل منها لغة تمثل مرآتها، انتشرت بانتشار الحضارة وماتت بموتها لتبقى جزءا من التاريخ يدرس عنها ولا يتكلم بها، كالفينيقية والآشورية والسومرية.

اللغة العربية لم تلق نفس المصير وكتب لها ان تدوم والسر الكامن وراء خلودها رغم ضعف الدولة الإسلامية هو القرآن، إذ حول القبيلة العربية إلى أمة عزيزة قوية وصقل نفوس العرب وهذب طبائعهم وجمعهم على كلمة واحدة. وسقطت الدولة لكن ظلت العربية لسان المسلمين من عرب وعجم في مختلف بقاع الأرض. والذي يمعن النظر في العربية المعاصرة يكتشف أن هناك العديد من الألفاظ التي اقتصر بقاؤها على الاستعمال الديني بعد أن انعدمت الحاجة إليها إلا للاستخدام المرتبط بالقرآن والسنة النبوية وضمنت بذلك بقاءها في المعجم العربي وسيبقى القرآن الدرع الحامي لها والمتصدي لكل المؤامرات التي تحاك ضدها ويذود عنها.

2- استقرار اللغة العربية: سنة اللغات التطور سواء بالرقي ام بالانحطاط الدلالي، ما قد يؤدي الى موت المصطلحات نهائيا. هذه السّنة لم تجر على اللغة العربية على القدر الذي عرفته اللغات الاخرى؛ حيث استطاعت المحافظة على مستوياتها اللغوية الاربعة (صوتية، صرفية، نحوية، دلالية) اذ انها حافظت على الاصل الدلالي لمصطلحاتها على مر الزمن، مما سهل علينا فهم النصوص العربية القديمة وهذا حال الاجيال القادمة مع تراثنا الاسلامي. فبعد مرور اربعة عشر (14) قرنا مازال المسلم يحسن قراءة ستين (60) حزبا من القرآن، وتكوين فكرة عامة حول معنى السورة لفهمه كلماتها، ولا يحس معها بالغرابة وان وجدت فإنها فستتبدد بالاستعانة بأبسط المعاجم التي الفت لحفظ القرآن ولغته.

3- تهذيب اللغة العربية: المتأمل للنثر والشعر الجاهلي يزداد يقينا بأن العرب عاشوا الحضارة في كنف الاسلام لما طرأ على لغتهم من تغير إيجابي؛ حيث امتاز الادب الجاهلي بالألفاظ الحوشية نحو لفظ "مستشزرات" و"الهعخع". ولعل لغة

قريش كانت الأسهل بينهم للحضر الذي كانت تحياه، فكانت بذلك الشائعة بيـــنهم إذ لا نكاد نجد ذكرا في أشعار القريشيين.

نزل جبريل عليه السلام بالقرآن على قلب النبي ﷺ الذي بلغه لقومـــه بأســـاليبه البديعة وألفاظه الكريمة وجمله الجميلة مما دعا أبناء الضاد إلـــى التزامهـــا كتابـــة وخطابة، كما أضفى عليها لونا من الطلاوة مع وضوح القصـــد والوصـــول إلـــى الغرض، فاللفظ القرآني يأتي على قدر المعنى واي زيادة في المبنى هي زيادة في المعنى. حينها صارت لغة الأمة العربية صورة صادقة لذوقها العام فقـــد خلصـــها القرآن الكريم من التقعير في الكلام وذهب منها الغريب وأدبـــر غيـــر مأنوســـها والالفاظ الحوشية، وكذلك الالفاظ التي يتنافى معناها مع مبادئ الاسلام ومن ذلـــك لفظ «المرباع: وهو ربع الغنيمة إلى الذي كان يأخذه الرئيس فـــي الجاهليـــة»[20] واستبدلت بمعجم قرآني ألفاظه تعبر عن عقائد الدين والتوحيد. وقد اخرج القـــرآن بعض المصطلحات العربية من معناها اللغوي إلى المعنى الشرعي لتعبر عن تعاليم الاسلام التي لم يعرفها العرب من قبل فمن البديهي ان لا يكون في لغـــتهم الفـــاظ تعبر عليها لكن هناك الفاظ تشابهها دلاليا وقريبة من معناها العام نحو:

- «الايمان: كان بمعنى التصديق، ثم صار له المعنى الشرعي ان تؤمن بـــالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره.
- الكفر: كان بمعنى الستر مطلقا، ثم صار له المعنى الشرعي تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم في شيء مما جاء به»[21]

تعدى اثر القرآن الجديد على تقويم اخلاق العرب وتصـــحيح بعـــض طبـــاعهم وعاداتهم، واغترف الأدباء من فيض معانيه وسطع بيانه في خطـــبهم واشـــعارهم على مدى العصور.

بعد مرحلة التنقيح سطع نجم البلاغة العربية في ظل القـــرآن الكـــريم، وفهـــم البلغاء العرب انها شيء خلف التعقيب وتخير ما يكد الالسن ويرهقها من الالفـــاظ

فعكفوا عليه يتدبرونه. وعليه صارت كلمات القرآن بالمقارنة مع باقي كلمات العربية كاللباب والقشور.

ان اللغة العربية وسعت القرآن الكريم والسنة النبوية والعلوم الاسلامية بتشعبها هي لغة خلقت لتكون صالحة لكل الازمان فلا ياتينا مدع يزعم انها قاصرة على استوعاب معطيات العصر الجديد.

4- ترقيتها إلى لغة عالمية: انعزال العرب في جزيرتهم كان دون بروزهم أمام الأمم الأخرى فلم تجد هذه الأخيرة محفزا لتعلم اللغة العربية ولا التعاون معهم خاصة أنهم قوم أميون، لا علم يستفاد منهم فلم يستطيعوا بناء حضارة؛ إذ اكتفوا بالتجارة وتركوا الصناعة لأهل المعرفة. كل هذا جعل اللغة العربية حبيسة الصحراء رغم قوتها إلى أن نزل القرآن الكريم، ونقل العرب من جفاء البداوة وخشونتها إلى لين الحضارة ونعومتها. وانطلقت الدعوة بخروج الموجات البشرية المؤمنة من شبه الجزيرة العربية نحو البلاد المجاورة داعية إلى دين الحق، حاملة القرآن في الصدور، متشبعة بعقيدتها ومكارم أخلاقها، ناطقة لغتها غير مغترة بلغة أهل البلاد المفتوحة. مما دعا السكان الأصليين إلى اعتناق الاسلام ومفتاح ذلك الشهادتان ولا تنطق إلا بالعربية، فصار تعلمها والتحدث بها عند العجم امرا واجبا بإقامة الدين. فضلا على حرص المسلمين من غير العرب على الوصول الى مناصب سياسية وادارية في هذه الدولة الفتية ولا يمكنهم ذلك دون التمكن من اللسان العربي.

نجحت اللغة العربية بعد اتساع رقعة الدولة الاسلامية في التغلغل الى الهند والصين وافغانستان وحسبنا شاهدا ان اعظم علماء الاسلام الذين خدموا القرآن والسنة ليسوا عربا وعلى راسهم الشيخ: (البخاري)[22] و(مسلم)[23]. وظلت اللغة القريشية تنتشر الى ان اكتسحت ما يقابلها من لغات اعجمية واصبح اللسان العربي سائدا من اواسط اسيا حتى المحيط الاطلسي. ثم ان هؤلاء لم يتعلموا العربية فقط بل اتقنوها فالفوا كتبا ظلت الى يومنا امهات المصادر العربية.

5- تقوية اللغة العربية والرقي بها الى الكمال: خص الله تعالى اللغة العربيـــة بألفاظ متطورة ومعان راقية لأنها الوعاء الذي يحمل وحيه، وامتازت منـــذ نـــزول القرآن بالجدة في التراكيب فصارت محط انظار معجبيها بغية الاقتباس منها ومحط اهتمام اعدائها للقضاء عليها وفي كلتا الحالتين تغدو العربية عبر الازمنـــة تتـــألق وتتباها. ولنا في أقوال العلماء من المسلمين وغيرهم شهادات اخترت منهـــا قـــول إمام العربية الرافعي رحمه الله وقولا من أقوال المستشرقين الذي ظاهره الانصاف ليس رغبة في الرفع من شأنها اعجابا بالغرب لكن تأكيدا على اعجابهم بها.

- يقول (الرافعي)[24] «نزل القرآن الكريم بهذه اللغة على نمط يعجـــز قليلـــه وكثيره معاً، فكان أشبه شيء بالنور في جملة نسقه إذ النور جملة واحـــدة، وإنمـــا يتجزأ باعتبار لا يخرجه من طبيعته ... صفى اللغة من أكدارها، وأجراهـــا فـــي ظاهره على بواطن أسرارها ... ثم هو بما تناول بها من المعـــاني الدقيقـــة التـــي أبرزها في جلال الإعجاز، وصورها بالحقيقة وأنطقها بالمجاز، وما ركبها به مـــن المطاوعة في تقلب الأساليب، وتحويل التركيب إلى التراكيب، قد أظهرها مظهـــراً لا يقضى العجب منه لأنه جلاها على التاريخ كله لا على جيل العـــرب بخاصـــته ولهذا بهتوا لها حتى لم يتبينوا أكانوا يسمعون بهـــا صـــوت الحاضـــر أم صـــوت المستقبل أم صوت الخلود لأنها هي لغتهم التي يعرفونها ولكن في جزالة لم يمضغ لها شيح ولا قيصوم»[25].

- يقول (آرنست رينان)[26] «من أغرب ما وقع في تاريخ البشر، وصعب حل سره، انتشار اللغة العربية، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادئ بدء، فبدأت فجأة في غاية الكمال، سلسة اي سلاسة، غنية أي غنى ... ظهرت لأول أمرهـــا تامـــة مستحكمة، من أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القومية وتصـــل إلـــى درجـــة الكمال وسط الصحارى عند أمة من الرحل، تلك اللغة التي فاقت أخواتهـــا بكثـــرة مفرداتها ودقة معانيها، وحسن نظام مبانيها، وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمـــم

ومن يوم علمت ظهرت لنافي حلل الكمال إلى درجة أنهـا لـم تتغيـر أي تغيـر يذكر...»[27]

6- توحيد اللهجات العربية: عرف العرب قبل الاسلام بالحيـاة القبليـة التـي تمتاز بالعصبية وتعدد اللهجات المتباينة في الفصاحة والبلاغـة، فمنهـا الفصـيح والافصح والرديء والمستكره. وقد نزل القرآن الكريم بلهجة قريش علـى سـبعة أحرف تيسيرا على العرب فتناسوا بفضله ما كان بينهم من اختلافات لهجيـة كمـا أنساهم الاسلام من قبل اختلافاتهم القبلية.

كان الجنوبيون مثلا يتحدثون بلغة حمير ثم صاروا يتكلمون لغة القرآن فتوحدت بذلك الجزيرة العربية على لسان واحد. وعليه عندما شكل عثمان بن عفان رضـي الله عنه اللجنة الرباعية عند الجمع الثاني للقرآن الكريم أوصاهم قائلا: "إذا اختلفـتم أنتم فاكتبوه بلسان قريش فإنه إنما نزل بلغتهم" وما ذلك إلا أن لغة قـريش أسـهل اللغات وأهذبها وأوضحها وأبينها، وكانت تحتوي على أكثر لغات العرب باعتبـار التجارة والحج.

7- تحويل اللغة العربية لغة تعليمية: العرب أهل سليقة لا يستندون في كلامهم على قواعد لعدم حاجتهم إليها، واستمر الوضع على هذا الحـال إلـى أن اتسـعت الفتوحات الاسلامية ودخل العجم في دين الله أفواجا وصاروا بحاجـة إلـى تعلـم العربية واكتسابها يحتاج إلى قواعد. كما أن احتكاك صـغار العـرب المسـلمين باللسان الأعجمي أفسد عليهم لغتهم، مما استدعى أمير المؤمنين عثمان رضـي الله عنه إلى جمع القرآن على لسان واحد كما أسلفنا الذكر فصار القرآن جامعا للغـات العرب بالقراءات الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم وإلغاء ما ليس منه خشـية دخول اللحن عليه. كانت هذه بداية ضعف اللغة العربية حين احتاجت إلى قواعـد تضبطها اجتنابا للخطأ فيها وفساد معانيها، الامر الذي شجع أبا الأسود الدؤلي على وضع قواعد النحو بطلب من أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بضبط حركـات المصحف.

إن القرآن الكريم كان منبع الحركة العلمية الإسلامية والدافع لهـا منـذ القـرن الأول هــ، لصيانة العربية إعرابا وقراءة حيث صاروا ينظرون إليها نظرة علم لا مجرد سليقة على أنها لغة مقدسة، تمثل جهدهم في وضع المعاجم فجمعـوا فيهـا مفرداتها وبحث القواعد وتأليف الكتب. برز علماء أجلاء خدموا اللغة العربية مـن العرب والعجم ولي شهادة منصفة بحق العلماء العجم بوصفهم أفضـل مـن خـدم الاسلام والقرآن والسنة.

انطلقت العلوم العربية خدمة للقرآن الكريم فكان سر انفجارها. لحفـظ معانيـه نشأت علوم النحو، لفهم مضامينه ظهرت علوم التفسير وأسباب النـزول والناسـخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه، ولفهم إعجازه البيـاني وضـعت علـوم البلاغـة ولمعرفة أحكامه تفرع عنه علم الفقه وأصوله.

وقفت اللغة العربية بوجه هذا الابتلاء الذي أصابها فحُسب لها. بفضـل جمـع القرآن بين دفتين ثم ضبطه بالشكل والنقط حفظ رسم كلمات اللغة العربية وكيفيـة إملائها وعدد حروفها وتعدد دلالاتها، الأمر الذي لا نجده مع باقي اللغات.

جاء القرآن يحث المسلمين على العلم وتفضيل منزلة العلمـاء ويشـجع علـى المعرفة في مختلف حقولها لذلك كان لهما الفضل في كل ما دوّن بلغة القرآن مـن علوم الفلك والطب والكيمياء والرياضيات، وصارت كتب المسلمين باللغة العربيـة محط انظار الغرب فترجمت مؤلفاتهم لتصبح قاعدة حضارتهم المبنية على السرقة العلمية ولاخفاء معالم الجريمة رموا العربية بالقصور والعجز عن مواكبة العلـوم المعاصرة.

8- **تنمية ملكة النقد الأدبي:** أبدع الجاهليون فـي نظـم المعلقـات الشـعرية وضربوا الأسواق للتباري على جودتها. كانت القبيلة العربية تتفاخر بشاعرها فلـم يكن اقل شأنا من الفارس. بعد نزول القرآن الكريم عزز شغفهم بـالأدب ونقلهـم بإعجازه من الجيد إلى الأجود ومن الفصيح إلى الافصح. وأقوى دليل على قولنـا هو المقارنة بين الشعرين الجاهلي والاسلامي أو الخطابة في العصرين مع أعمـال

المبدع المخضرم نفسه لنجد البون شاسعا بينهما؛ حيث ازدهر الأدب العربي بتأثير القرآن خلال معركة الاسلام مع الكفر والشرك والردة، فنلاحظ ذلك البون العظيم عند تتبعنا لأعمال المخضرمين الذين صار شعرهم يصدر عن قيم الاسلام الروحية التي بذلوا ارواحهم رخيصة للدفاع عنها وفي مقدمتهم شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، وكانوا يستلهمون من القرآن ما يهجون به أعداءهم بمعجم اسلامي جديد.

المعارك التي خاضتها اللغة العربية: ان الواقع المرير الذي تعيشه لغتنا اليوم هو انعكاس لواقع الأمة المتخاذل لذلك كان الاهتمام بمعالجة مشكلاتها وبحث قضاياها جزءا من الاهتمام بقضايا البناء الحضاري للعالم الإسلامي. وقد تفنن أعداء الفصحى في محاربتها بعدة وسائل حاولت جمع أبرزها في هذا المحور في النقاط التالية[28]:

- سعي المستعمرون للدول العربية والاسلامية إلى تدمير اللغة العربية بمحاولة حصرها في بعض الزوايا وحرق الكتب والمدارس ونشر سياسة التجهيل ثم ألزموا شعوب مستعمراتهم على تعلم لغة الغالب في مختلف مراحل التعليم ولجميع المواد التعليمية؛

- المبالغة في حرص الأولياء على تعليم صغارهم من طور الحضانة التكلم باللغات الأجنبية إيمانا بأنها لغة الحضارة والتطور حسب زعمهم؛

- الدعوة إلى اللهجات العامية والسوقية والمطالبة بإحلال العامية مكان الفصحى في التعليم والتخاطب. وقد انتقل الحال اليوم من مجرد الدعوة إلى التطبيق على ساحة الواقع الاجتماعي؛ حيث بدأت الأقلام والآراء العربية بإعطاء مساحة للعامية ومشاركة الفصحى حقها؛

- استعمال "العبريزية" وهي استبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية في الكتابة. انتشرت هذه الوسيلة بين شباب العرب انتشارا رهيبا خاصة على مواقع التواصل الاجتماعي وتعود بداية ظهورها إلى التسعينات حيث كانت الأجهزة غير

متوفرة على اللغة العربية فيجد المستخدم نفسه مجبرا على الاستعانة بالحروف اللاتينية للتعبير على أفكاره العربية، وتغيرت الحاجة مع الوقت إلى عادة؛

- الثنائية اللغوية التي عرّفها صالح بالعيد بأنها نظام استعمال لغتين في آن واحد للتعبير او الشرح وهو نوع من الانتقال السريع من لغة إلى أخرى. وهذا شائع في الجزائر حيث نخلط عربيتنا بكثير من المصطلحات الفرنسية؛

- إنكار الاعراب وهو أبرز خصائص وقواعد اللغة العربية واهم مصادر قوتها، وهي اللغة الوحيدة التي ينادى دائما بتيسيرها مع أنها ليست اللغة الوحيدة التي تقوم على قواعد. ولقد مر بنا أن النحاة أجمعوا على أن الحركات الاعرابية تحمل معاني الكلمات وتغيرها يغير المعني من الفاعلية إلى المفعولية أو الاضافة وغيرها، ولم يشذ عن هذا القول إلا أبو علي محمد بن المستنير المعروف بقطرب وبهذا كان أول من قال بهذه الظاهرة، معتبرا الحركات الاعرابية الثلاث جيئ بها لتسريع الكلام والتخلص من التقاء الساكنين انه ينكر دورها في تغيير المعنى. فكان له الفضل ليعثر المستشرقون واعداء الإسلام على منفذ للتمادي في الطعن في لغتنا. وكان للعربية اعداء من أبنائها فلم تعرف نقدا الذع مما تعرضت له من ابراهيم أنيس في كتابه "من أسرار اللغة" وكان الهجوم الشرس منحصرا في فصل "قصة الاعراب" داعيا ان اللغة مصنوعة والاعراب صنعة أهل الكلام وليس سليقة

- الدعوة إلى إصلاح اللغة العربية بإحياء النحو وتيسيره بتبسيط قواعده وطال الأمر قواعد الصرف كذلك. اول من دعا إلى ذلك هو ابن مضاء القرطبي (596 هـ) من خلال كتابه "الرد على النحاة"؛

- الدعوة إلى الاستغناء عن التقدير والتأويل وحذف أبواب الاشتغال والتنازع؛
- الدعوة غلى تخصيص لقب واحد للحركة الاعرابية الواحدة اعرابا وبناء؛
- الدعوة إلى إلغاء الضمير المستتر جوازا أو وجوبا؛
- الدعوة إلى تيسير الخط العربي.

مصادر القوة والضعف:

تشهد اللغة العربية اليوم صراعا عنيفا مـــع اللغـــات العالميـــة، ولأن أبناءهـــا الغيورين عليها يحرصون على دوام تفوقها درسوها من كل الزوايا ووقفوا امام كل شائبة. حاولنا مواكبتهم بالسير على نهجهم لكشف مصادر قوة اللغة العربية بغيـــة تعزيزها وضمان استمرارها وتحديد مصادر الضعف فيهـــا لتطويقهـــا والقضـــاء عليها.

1- مصادر القوة: يُعرف الشعر الجاهلي بديوان العرب، كان ســـجل أخلاقهـــم وعاداتهم ودياناتهم وعقليتهم. سجل فيه العرب حياتهم ودونوا فيه أيامهم وحروبهم. بموازاة الشعر هناك الأدب عموما والتاريخ والمعارف الآخرى ما يشكل لنا تراثـــا ضخما عنهم.

بنزول القرآن أعطى اللغة العربية ذلك الرباط المقدس كونه الدســـتور الجـــامع لكل المسلمين على اختلاف مذاهبهم وتلون مشاربهم. «فعمل على لفت الأنظار إلى إمكانات اللغة العربية والطاقات التعبيرية التي تكمن في أسلوب نظم الكلمات فـــي الجمل والنصوص وما ينتج عنها من معان تستطيع أن تعبر عن كـــل الأغـــراض والمفاهيم بدقة عالية»[29].

القرآن الكريم والتراث العربي القديم يمثلان أهم عناصر قـــوة اللغـــة العربيـــة بالإضافة إلى خصائصها التي أسلفنا ذكرها كالإعراب والاشتقاق والمجاز وغيرها حفظت اللغة وزادت من متانتها وانتشارها.

2- مصادر الضعف: مع مرور العصور تراجع الحرص الشديد علـــى ســـلامة اللغة العربية والتنافس على العالمية وبسبب تخاذل العرب في العناية بهـــا شـــهدت تراجعا ملحوظا وذلك لعدة أسباب لعلي لخصت أهمها في النقاط الآتية:

- ظهور اللهجات العامية الابن غير الشرعي للغة الفصيحة الأم، فاقتصـــرت سيادتها على أهل الاختصاص فقط، بعد أن كان الأمي في العصور الغابرة شاعرا وأديبا بليغا. هذا النمو المطرد للعامية يوحي باستبدال خصائص اللغة العربية التـــي

تعتبر من مصادر قوتها بخصائص أخرى. ما أدى إلى ضياع الذوق الرفيع الـــذي تشكله خصيصة الإعراب وعمق الاشتقاقات. الأمر الذي يحد من عـــدد النـــاطقين بالفصحى ما يهدد حياتها، فحياة اللغة بحياة الناطقين بها وكثرتهم؛

- عدم الاهتمام بتطوير المعاجم العربية التي خدمت اللغة بشكل كبير إلا أنهـــا مازالت إلى يومنا هذا محتفظة بأسلوبها القديم، ما يجعلها غيـــر مناســـبة لوســـائل التعليم الحديثة ما يصعب على الطالب الاستعانة بها ويدفعه للعزوف عنها؛
- تساهل المعلمين مع التلاميذ أثناء حديثهم بالعامية وعدم ضبط الأمـــر ظنـــا منهم أن ذلك يكسر الحواجز بين المعلم والتلميذ والمادة المعرفية؛
- انعدام رغبة التلاميذ والطلبة في تعلمهـــا وتحصـــيل المهـــارات الاساســـية اللازمة لذلك. هذا لولعهم الشديد باللغات الأجنبيـــة باعتبارهـــا لغـــات الحضـــارة والتطور، خاصة في ظل الصراع الفكري للمجتمع العربي فـــي ظـــل التغيـــرات الحضارية التي يشهدها؛

الخاتمة: الحمد لله الذي وفقنا إلى هذا العمل، ومهما بذلنا من جهد نجد أنفســـنا مقصرين اتجاه كتاب الله تعالى. وفي الختام يطيب لي ان أعـــرض علـــيكم نتـــائج البحث في النقاط الآتية؛

- اللغة العربية التي جاء بها الخطاب القرآني هي لب العربية الجاهلية؛
- هيأ الله تعالى للقرآن البيئة المناسبة لاحتوائه ومن بينها عزل اللغة العربيـــة في الصحراء لذلك حافظت على نقائها وقوتها ثم زادها القرآن متانة؛
- الهجوم الشرس الذي تعاني منه العربية سببه الرئيسي أنها وعـــاء القـــرآن والسبيل الأول لضربه فضلا عن الغيرة من استقرارها وديمومتها؛
- المسلمون مؤمنون ان ارتباط العربية بالقرآن يحول دون هزيمتها في معركة اللغات؛

ولضيق الحيز الذي أتيح لنا لم نستطع الالمام بكل جوانب الموضوع لذلك اتقدم بالنصيحة للباحثين ملخصة في النقاط التالية:

- الاهتمام بإظهار أثر القرآن الكريم على العربية سعيا لإعادتها إلى الســـاحة العلمية العالمية؛

- الحذر من سموم الجهوية التي تسعى للقضاء على لغة القرآن؛

- حرص الأساتذة على ترسيخ مقومات أمتنا الاسلامية وتطبيقها في الواقع؛

- إثراء مكتبات الكليات بمراجع تخدم اللغة العربيـــة ويمضـــي الطلبـــة فـــي تحضير دراسات في نفس المجال.

الاحالات:

[1] د. انتصار ميلود بن زايد، دور اللغة العربية في تطوير المجتمع، كلية الآداب–زوارة، جامعة الزاوية– (ليبيا) ص: 05

[2] عبد المجيد الطيب عمر، منزلة اللغة العربية بين اللغات المعاصرة (دراسة تقابليـــة)ن بحـــث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية، جامعة أم درمان الاسلامية، قسم الدراسات النحويـــة واللغوية، ص: 34.

[3] الفاخوري (1914–2011)، أديب ولغوي عربي ومؤرخ لبناني، اشتهر بكتابه "تـــاريخ الأدب العربي". وضع سلاسل مدرسية عديدة حول الأدب واللغة، كما حقق في الكثير من مؤلفات التراث شارحا معلقا.

[4] د. انتصار ميلود زايد، المصدر نفسه.

[5] الشيرازي، محمد بن المهدي الحسيني الشيرازي (1928 – 2001) أحد مراجع الدين الشيعة المعروفين في العراق وإيران لقب بسلطان المؤلفين.

[6] الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني (1914 – 1999) إمام معاصر محـــدث من أشهر مؤلفاته السلسلة الصحيحة والسلسلة الضعيفة وصفة صلاة النبي صلى الله عليه وســـلم سلفي من أهل السنة والجماعة

[7] ينظر: منزلة اللغة العربية بين اللغات ص: 35

[8] ينظر: حياة اللغة العربية، حفني ناصف، مكتبة الثقافة الدينية، ط: الاولى، 2002

[9] أحمد الهاشمي، أحمد بن ابراهيم بن مصطفى الهاشمي القرشـــي، (1878 – 1943) أديـــب ومعلم مصري، من مؤلفاته: ميزان الذهب في صناعة شعر العـــرب، القواعـــد الأساســـية للغـــة العربية.

[10] السيد أحمد الهاشمي، القواعد الأساسية للغة العربية، الدار العالميـــة للنشـــر والتوزيـــع، ط: الأولى، ص: 07

[11] ينظر: السيد أحمد الهاشمي، المصدر نفسه/ عبد المجيد الطيب عمر، المصدر نفسه

[12] د. انتصار ميلود بن زايد' المصدر نفسه ص: 03

[13] نور الله كورت وميران أحمد أبو الهيجاء ومحمد سالم العتوم، اللغة العربية (نشأتها ومكانتهـــا في الاسلام وأسباب بقائها) ص: 149

[14] المصدرنفسه

[15] الثعالبي، عبد الرحمن الثعالبي، (1350 – 1468) مفسر وفقيه مالكي صوفي ومتكلم على طريقة أهل السنة والجماعة، جزائري من الأشاعرة. من أشهر مؤلفاته: الجواهر الحسان في تفسير القرآن.

[16] عبد الرحمن الثعالبي، فقه اللغة وسر العربية، مكتبة الحياة، بيروت، ص:02

[17] ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد ابن عبد الحليم بن عبد السلام النميري الحراني، (728 –1328) فقيه ومحدث ومفسر وعالم مسلم مجتهد من أهل السنة والجماعة، حنبلي المذهب

[18] نور الله كورت وميران أحمد أبو الهيجاء ومحمد سالم العتوم، المصدر نفسه، ص: 150

[19] ينظر: علي عبد الله علان، دور القرآن الكريم في حفظ معاني ألفاظ اللغة العربية في أصالتها وتطورها/ رانا أمان الله، دور القرآن الكريم في نشر اللغة العربية وبقاءها/ د. خير الدين خوجة فضل القرآن الكريم وأثره في حفظ اللغة العربية وإثرائها

[20] د. أوريل بحر الدين، دراسة تاريخية عن أثر القران الكريم في اللغة العربية، ص: 19

[21] المصدر نفسه ص: 20

[22] البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري(810–870)، فقيه محدث عالم في ارجال والجرح والتعديل، من أهل السنة والجماعة، من اشهر مؤلفاته: الجامع الصحيح المعروف بصحيح البخاري

[23] مسلم، مسلم بن حجاج (822 – 875)، محدث من أهل السنة والجماعة، صاحب صحيح مسلم

[24] الرافعي، مصطفى صادق الرافعي، (1880 – 1937)، أديب وكاتب مصري، يلقب بمعجزة الأدب العربي، من أشهر مؤلفاته: تاريخ آداب العرب، إعجاز القرآن وبلاغة السنة النبوية

[26] أرنست رينان "Ernest Renan" (1823–1892) مؤرخ وكاتب فرنسي

[27] د. أوريل بحر الدين، المصدر نفسه، ص:13

[28] ينظر: خمخام نورة، أثر استعمال العامية في تعليمية اللغة العربية في طور الابتدائي، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في الأدب واللغة العربية / نور الله كورت وميران أحمد أبو الهيجاء ومحمد سالم العتوم، اللغة العربية (نشأتها ومكانتها في الاسلام وأسباب بقائها)

[29] د. ميثم مهدي الحمامي ود. عباس علي الفحام، مصادر القوة والضعف في حياة اللغة العربية جامعة الكوفة، كلية التربية الاساسية، ص:09.

التأويل والقراءة في البنى النصية في الدرس الحديث

داه. سهام سراوي

المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف، ميلة

الملخص: يهدف هذا البحث الذي جاء بعنوان "**التأويل والقراءة في البنى النصية في الدرس الحديث**" إلى مناقشة قضية دور التأويل في استنطاق النصوص وأهميته في الكشف عن المعاني في ظل النظريات النقدية الحديثة (نظرية التلقي) هذه الأخيرة أسهمت بشكل كبير في عملية التأويل.

مقدمة: عرف العرب التأويل منذ القدم واهتموا به كباقي الأمم الأخرى، فارتبط بالنصوص الدينية إذ انشغل أول الأمر بمسألة قراءة النص القرآني وتفسيره، كما ارتبط أيضا بعلوم اللغة العربية ينتقل فيما بعد إلى قراءة النص الأدبي مسلطا الضوء عليه وفاتحا المجال له لتوليد معانٍ جديدة، ليعطي للقارئ الدور الرئيس في استنطاق النص ليتحول التأويل من النص الديني إلى النص الأدبي. إذ أولته الدراسات العربية القديمة والحديثة أيّما اهتمام وربطته بنظرية التلقي وقراءة النصوص وفهم معانيها.

وفي هذا الإطار حاولنا أن نجيب عن الإشكالات الآتية:

- ما هو التأويل؟ وما العلاقة بينه وبين التفسير؟
- وما هي مكانة التأويل في الثقافة العربية؟
- وهل استطاع الفكر العربي المعاصر أن يتجاوب مع النظريات النقدية الحديثة (التأويل)؟

ومن خلال هذه الإشكالات سنتطرق إلى النقاط الآتية:

- مفهوم التأويل وعلاقته بالتفسير؛
- أهم الجهود العربية الحديثة في الممارسة التأويلية؛
- دور التأويل وآلياته في قراءة البنى النصية.

1- مفهوم التأويل:

أ_ تعريف التأويل:

***لغة:** ورد في لسان العرب: «الأَوْلُ: الرُّجُوعُ. آلَ الشَّيءُ يَؤُولُ أَوْلاً وَمَآلاً: رَجَع. وأَوَّلَ إِلَيهِ الشَّيءَ: رَجَعَهُ.[1] فالتأويل يدور معناه حول الردّ إلى الأصل والرجوع إليه.

وقال (الجوهري) «التأويل: تفسير ما يَؤُولُ إليه الشيء وقد أَوَّلْتُهُ تأويلاً وتأَوَّلْتُه تَأَوُّلاً بمعنىً»[2] فهو إذن عبارة عن التدبر والتقدير لإرجاع الشيء إلى حقيقته ف: «آل إليه أَوْلاً ومَآلاً: رَجَعَ..وأَوَّلَهُ إليه: رَجَعَهُ... وأَوَّلَ الكلام تَأْوِيلاً، وتَأَوَّلَهُ: دَبَّرَهُ وقَدَّرَهُ وفَسَّرَهُ. والتَّأويل: عبَارَةُ الرُّؤْيا»[3]

وعموما فإنّ التأويل في اللغة: إرجاع الأمر إلى أصله وحقيقته والغاية المرادة منه. وقد ورد لفظ التأويل في القرآن الكريم بمعانٍ مختلفة منها:

- الردّ والإرجاع والعاقبة، في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء59]
- الحقيقة، في قوله تعالى: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا﴾[الكهف78]

***اصطلاحا:** يرتبط مفهوم التأويل في الاصطلاح بمفهومه اللغوي (الردّ والإرجاع)، فقد قال (الزّركشي) عنه إنّه: «كشف ما انغلق من المعنى»[4] فهو إذن يرتبط بالمعنى إذ يسعى إلى الإعراب عنه وإظهاره عن طريق «صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى مرجوحٍ لقرينةٍ تدلّ عليه»[5]، أي لابدّ من توفر قرينة توحي بالدلالة الخفية للنص المؤوّل وهو ما قال بهِ (ابن حزم الأندلسي)« التأويل: نقل اللفظ عمّا اقتضاه ظاهره وعمّا وضع له في اللغة إلى معنى آخر، فإن كان نقله قد صحّ ببرهان وكان ناقله واجب الطاعة فهو حق، وإن كان نقله بخلاف ذلك اطرح ولم يلتفت إليه وحكم لذلك أنّه باطل»[6]. (فابن حزم) من خلال قوله هذا يضع للتأويل شروطا ضرورية يجب توفرها للأخذ به وأهمها: القرينة (**البرهان**). فنقل اللفظ والعدول به من معنى ظاهر إلى معنى لآخر لا يكون إلّا بوجود «دليل دلّ عليه»[7].

أمّا (الغزالي) فهو الآخر يرى أنّ التأويل «احتمال يعضده دليل يصير به أغلب على الظن من المعنى الذي يدل عليه الظاهر»[8].

ونجد (الآمدي) أيضا يعرفه بقوله: «وأمّا التأويل المقبول الصحيح، فهو حمل اللفظ على غير مدلوله الظاهر منه مع احتماله له بدليل يعضّده»[9]. فهو يرى أن التأويل لابد له من دليل، وقد سمّاه بالتأويل الصحيح.

ومن كل هذه التعريفات للتأويل أنّها تشترك جميعها في أنّ التأويل هو صرف المعنى الظاهر من اللفظ إلى معنى آخر يحتمله هذا اللفظ مع دليل يعضده.

وهو ما يؤّكده قول شيخ الإسلام (ابن تيمية): «فإنّ (التأويل) في عرف المتأخرين من المتفقهة والمتكلمة والمحدثة والمتصوفة ونحوهم هو: صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى معنى المرجوح لدليل يقترن به»[10].

***ضوابط التأويل (التأويل الصحيح):** لا بدّ من الإشارة إلى مجموعة من الشروط والضوابط التي يجب تحققها حتى يقبل التأويل وهي:

✓ أن يكون اللفظ قابلا للتأويل، وإلّا «فاللفظ نص لا احتمال فيه، فلا يقبل التأويل»[11]؛

✓ أن يكون اللفظ المؤوّل محتملا المعنى الذي أُوِّل إليه ولو ترجيحا[12]؛

✓ أن يقوم التأويل على دليل يدل على أنّ المتكلم أراد هذا المعنى الذي صرف إليه اللفظ، وأن يكون هذا الدليل أقوى من الظاهر ويسوِّغ تخريج الكلام وتأويله[13]؛

✓ أن يوافق المعنى: إمّا الوضع اللغوي، أو الحقيقة الشرعية، أو الحقيقة العرفية وإن خالفها جميعها فهذا التأويل فاسد ولا يؤخذ به[14].

ب- التفسير:

***لغة:** جاء في لسان العرب: «الفَسْرُ: البيان. فَسَرَ الشيء يَفْسِرُهُ، بالكسر، ويَفْسُرُهُ بالضم، فَسْرًا وفَسَّرَهُ: أبانه، والتفسير مثْلُه»[15]. هو مصدر فسّر بتشديد السين، الذي هو مضعف فَسَرَ بالتخفيف الذي مصدره الفَسْر وكلاهما فعل متعد، وهما بمعنى الاستبانة والكشف.[16] فالتفسير يعني البيان والكشف والإظهار.

أما ابن فارس فتعريفه فسر «الفـاء والسين والراء كلمة واحدة تدل على بيان شيء وإيضاحه»[17]، وذكر (السيوطي) بأن التفسير على وزن "تفعيل" من الفسر وهو البيـان والكشف، ويُقال هو مقلوب السفر، تقول أسفر الصبح إذا أضاء، وقيـل مـأخوذ مـن التفسرة وهي اسمٌ لما يعرِفُ به الطبيبُ المرض.[18]

وأما (الراغب الأصفهاني) فقد جعل التفسير أعم من التأويل بقوله: «والتفسـيرُ قـد يُقال فيما يختصُ بمفرداتِ الألفاظِ وغرِيبها وفيما يختصُ بالتأويل، ولهذا يُقـال تفسـيرُ الرؤيا وتأويلُها»[19]. قـال تعـالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ والمراد: أي أحسن توضيحاً وبياناً للمطلوب.

ويوضح (أبو البقاء) المعنى اللغوي بما يقربُه من معناه الاصطلاحي وذلـك حيـث يقول: «التفسيرُ هو الاستبانةُ والكشف والعبارة عن الشيء بلفـظٍ أسهلٍ وأيسرٍ من لفظ الأصل وقال أهل البيان: التفسيرُ هو أن يكون في الكلام لبسٌ وخفاءٌ فيُؤتى بما يزيلـه ويفسره»[20]

***اصطلاحاً:** فقد عرفه (أبو حيان) «هو علمٌ يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القـرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تُحملُ عليها حالة التركيب.»[21]

وعرفه (الزركشي) «هو علمٌ يُعْرَفُ به فهم كتاب الله المنزّل على نبيه محمد وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه»[22].

وعرفه (ابن عاشور) «هو اسمٌ للعلْمِ الباحث عن بيان معاني ألفـاظ القـرآن ومـا يُستفاد منها باختصار أو توسع»[23].

ب/2_ اختلاف التأويل عن التفسير: يقرّ بعض العلماء أن هناك فرقا بين التأويـل والتفسير ومنهم: الإمام (الزركشي) الذي يقول: «ثمّ قيل: التفسير والتأويل واحد بحسب عرف الاستعمال: والصحيح تغايرهما»[24].

وعلى هذا فإنّ التأويل يرتبط بالمعاني، بينما التفسير يرتبط بالألفاظ «وكأنّي به قـائم على الثنائية المركبة للنص والمتن ألا وهي ثنائية (اللفظ والمعنى) وهي حاضرة بقـوة في هذا البيان.»[25]

ومن أهم الفروق بين التفسير والتأويل أنّ: التأويل يرتبط بالدراية بينما يـرتبط التفسير بالرواية[26]. كما أنّ التأويل هو صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر بـدليل في حين أنّ التفسير فهم اللفظ على ظاهره دون صرف له ويبحث التفسير فـي بيـان الألفاظ التي لا تحتمل إلا وجها واحدا والتأويل يوجه الألفاظ ذات المعاني المختلفة إلـى معنى واحد بدليل.

2- أهم الجهود العربية الحديثة في الممارسة التأويلية: ولقد اهتم الباحثون العرب المعاصرون بالتأويل وكثرت مؤلفاتهم فيه تنظيرا ومحاولة للتطبيق، رغم هذا يقـرّون بأن الممارسة التأويلية لم تعرف تطورا في ثقافتنا العربية المعاصرة، إذ يقول (محمـد أركون) في هذا الصدد «من الصعب أن نزعم أن تطورا مثل هذا قد حدث في مفـاهيم التأويل والتفسير في ثقافتنا الحديثة والمعاصرة»[27]، هؤلاء الباحثون نذكر منهم: (نصـر حامد أبو زيد)، (مطاع صفدي)، (علي حرب)، (محمد أركون)... وغيرهم. كان لهـم اطلاع واسع على الفلسفة الغربية ومباحث النقد والممارسات التأويلية، وهذا من خـلال مجهوداتهم القيمة التي تبرز جليا في مؤلفاتهم، نذكر بعضها: إشكاليات القراءة وآليـات التأويل، الخطاب والتأويل (لنصر حامد أبي زيد)، التأويل والحقيقة قراءة تأويليـة فـي الثقافة العربية (لعلي حرب)، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل (لمحمـد أركـون)،... وغيرها. فالتأويل عند (حامد أبو زيد) «جوهر ولب نظرية المعرفـة فـي محاولتهـا وصف فغل القراءة –أي قراءة لأي ظاهرة تاريخية أو فلسفية أو أدبية أو سياسية أو اقتصادية– بوصفها بناءً معقدا من العلامات التي تتضمن عناصر الـذات والموضـوع والسياق ونسق العلامات والرسالة وهي عناصر تتفاعل مع بعضـها علـى حسـاب البعض، دون أن يفضي إخفائها إخفاء كاملا»[28]، ونضيف إلى جانب إسهاماتهم (علـي حرب) في مجال التأويلية الذي يربطه بالتعدد والاختلاف كما يوضح أيضـا الفـروق

الموجودة بين التفسير والتفكيك والتأويل فيعرف هذا الأخير «هو صـــرف اللفــظ إلـــى معنى يحتمله إنّه انتهاك للنص وخروج بالدلالة ولهذا فهـــو يشـــكل إســـتراتجية أهـــل الاختلاف والمغايرة، وبه يكون الابتداع والتجديـــد أو الاســـتئناف وإعـــادة التأســـيس ومأزق التأويل أنه يوسع للنص بصورة تجعل القارئ يقرأ فيه كل ما يريد أن يقرأه»[29] وهنا يمكن القول بأنّ إستراتجية (علي حرب) في قراءة النصوص هـــي جمـــع بـــين نظرية التفسير والتأويل والتفكيك. أمّا (محمد شوقي الزين) كانت له نظرة في التأويليـــة ملّمًا بالاتجاهات الغربية وهو ما جعل تأويليته ذات اتجاه غربي، فنجده يحدد مفهومـــه «التأويل في الحقيقة تأويلات على سبيل التتابع والتساوق والتي تؤول إلى حالة عدميـــة المعنى الذي يستحيل فيه القبض على المعنى أو الحديث بمنطق النعت لأن الإشـــارة لا تقع سوى على واقع متقلب أو حدث متألب».[30]

وفي الأخير يخلص التأويليون المعاصرون أنّ النص الديني والنصوص التأسيســـية في التراث بحاجة للتأويل وهذا من خلال تعـــريفهم بالنظريـــة أولا واقتـــراح تقنيـــات القراءة، وأدوات فهم النصوص ثانيًا.

3- دور الـــتأويل وآلياته في قراءة البنى النصية: ذهبت الذات العربية تبحث فـــي قراءة مورثها وفق معطيات الحضارة الحديثة والمعاصرة والتـــي يتصـــدرها مـــنهج القراءة والتلقي وبتسمية أخرى "**نظرية التلقي**" التي تقوم أساسا على آلية التأويـــل التـــي تفضي إلى إنتاج الدلالات بفك شفرات النص «ودمغه بطابع حي يستوعب آفاقا غيـــر نهائية من التقويل والتأويل.»[31]

والنص أو الخطاب يعد بديلا عن الإنسان ولا يحيل إلى شيء إلاّ لذاته التي ينطلـــق منها فيصل إلى تأويلاته المفتوحة، لتصبح العلاقة بين القارئ والنص علاقـــة معايشـــة «فإن فهم النص يستدعي قبليا الانحناء إليها والتسرّب إلـــى بواطنهـــا والتكيـــف مـــع هواجسها، ولا يأتي ذلك إلاّ بواسطة التجريب والمعاناة مع المقروء»"[32]

أسهم الانفتاح الفكري على الثقافة الغربية بشكل كبير في تفعيل الممارسة التأويليـــة للناقدين العرب في النص الأدبي، محاولين استنطاقه بظهور نظرية التلقي مع الاتجـــاه

النسقي (النصي) الذي سلط الضوء على النص كنظام منفتح فعملية القـــراءة بـــالمفهوم الحديث «كل قراءة هي أفق للقراءة التالية ومجرد حصر القراءة فـــي البنيـــة النصـــية وحدها يؤدي إلى إغلاق النص ومنه تكون القراءة الصحيحة المفتوحـــة التـــي تســـمح بتدفق ملاحظات المتلقي الموجهة للنص وذلك عكس القراءة المغلقة التي تغلـــق أفـــاق المتلقي»[33]. فالتلقي يعتمد على قدرات المتلقي التأويلية ومنه فالتأويل فـــي النصـــوص الأدبية "في أدق معانيه تحديد المعاني اللغوية في العمل الأدبي من خلال التحليل وإعادة صياغة المفردات والتركيب ومن خلال التعليق على النص"[34].أمّا آليات التأويـــل كمـــا قسمها (محمد بازي) إلى قسمين: آليات داخلّية نصية وأخرى خارجّية وسنستحضـــرها كالآتي[35]:

أ–الآليات التأويلية النصية: وهي كّل المؤشرات النصية الدالّة التي ينطلـــق منهـــا الفعل التّأويلي، بل هي مداخل النّص ومفاتيح المعاني، وأبرزها:

– **المدخل اللّغوي:** الاهتمام باللّغة من ثوابت التّأويل، لأنّ النص بمفرداتـــه نســـيج لغوّي، ولا بّد للمؤِول من امتلاك ذخيرة لغوّية تمكّنه من تمييـــز اســـتعمال المفـــردات تواضعياً أو مجازاً غريباً أو مألوفاً، وتعّد هذه الآلية عمود القراءة التأويلية ونواتها.

– **المدخل الاشتقاق:** يتوسع نظام التّأويل إلى توليد الدلالات مـــن الجـــدر اللغـــوي بالاشتقاق.

– **المدخل النحـــوي:** يعد هذا المدخل من أهّم العناصر التّأويليّة خاصة في الحضارة العربّية الإسلامّية، فالحالات الإعرابيّة هي الموّجه الأساس لعملية الفهم.

– **المدخل البلاغي:** ويتمثّل في الظواهر البلاغيّة المختلفة التي لا يمكن لأي نـــص الخلّو منها، وكثير من هذه الظّواهر تمتاز بانفتاح النّص على الاحتمالات التي لا ينبغي للمؤول أن يسرف فيها وعلى هذا الأساس فإنّ التأويل مشروط ومضبوط بقيود لغوّيـــة متناسبة منسجمة لو تعداها ضعفت حجته، هذه القيود اللغوية هي التي تسهم في الّـــدفاع عن الفهم، وتحقيق أعلى الدراجات المقولية.

ب- الآليات الخارجيّة: وهي المعطيات التي لا تتدخل في بنية النص، ولكّنها تؤدي دوارً بارزا في عملّية الفهم ومساندتها، وأهم هذه الآليات:

- **المناسبات ومقام الخطاب:** هي الظّروف المشّكلة للنص، والإحاطة بها تنير النّص وتساعد على تمثّله، إذ لا يمكن عزل النّص عن مقاماته؛

- **النّصوص الموازية:** وهي كل الأشكال النصية التي تُستدعى لتكّمل فعل الفهم وتعضده وتدل عليه ومن هنا تعتبر هذه النصوص بمثابة الاستدلال على خطوات التأويل المختلفة (الاستدلال على مسألة لغوّية أو نحوّية أو بلاغّية)؛

- **المادّة الخبرّية:** تتمثل في المادة الخبرّية التي يوردها المؤِّول لملئ البياض وتوسيع المحتوى وتعضيده، لأّن استحضار هذه النّصوص يؤّدي إلى توجيه القراءة إلى بعض مقاصد الخطاب التي لم تدرك بالآليات السابقة.

إنّ هذه الآليات التي ذكرناها تمثل الأساس لعملّية التّأويل، ولو اختلت واحدة منها لا نفرط عقد التأويل وفقد شرعّيته، ففي كل نص قرينة لا تدرك إّلا بواحدة من هاته الآليات.

خاتمة: وبعد هذه النظرة الموجزة في التأويل في الثقافة العربية، وفي ختام هذه الورقة البحثية يمكننا الوقوف على أهم النتائج التي توصلنا إليه، وهي:

- يطابق بعض العلماء بين التأويل والتفسير لكن الصحيح تغايرهما؛
- تأسس التأويل في الثقافة العربية الإسلامية منذ نزول القرآن الكريم، وارتبط به فكان مداره على الخطاب الديني؛
- التأويل في حقيقته نظرية فلسفية ارتدت أثوابا مختلفة مكّنته من الدخول إلى العلوم الأخرى؛
- انتقال نظرة التأويل في العصر الحديث والمعاصر لدى العرب من المجال الديني إلى المجال الأدبي؛
- تأثر النقاد العرب بالثقافة الغربية في قضية التأويل وتفعيلهم لها بما يسمى بنظرية التلقي؛

- التأويل في النصوص الأدبية العربية الحديثة استطاع أن يتخطى النظرة القديمة للتأويل فاتحا أفاق القراءة من خلال التلقي والتفكيك؛
- كانت للعرب المحدثين والمعاصرين لمسة في التلقي والتأويل في النصوص والاعتماد على آليات داخلية وخارجية التي من خلالها المؤول ينطلق بالفعل التأويلي والغوص في البنى النصية للكشف عن معانيها.

الهوامش والإحالات:

[1]–ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف المجلد1، القاهرة، طبعة جديدة، ج3، ص171.

[2]– إسماعيل بن حمّاد الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق محمد تامر، دار الحديث، القاهرة، مصر 2009، ص 64.

[3]– مجد الدين الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد دار الحديث، القاهرة مصر، 2008، ص83.

[4] – بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2 تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، مصر ط3، 1984، ص150.

[5]– مساعد بن سليمان بن ناصر الطيّار، مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر، دار ابن الجوزي الرياض، ط2، 1427ه، ص103.

[6]– علي بن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، ج1 تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الآفاق الجديدة بيروت، لبنان ص42.

[7]– عبد الرحمن بن الجوزي، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، تحقيق محمد عبد الكريم كاظم الراضي مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط3، 1987، ص216.

[8] – محمد الغزالي، المستصفى من علم الأصول، ج3

تحقيق حمزة بن زهير حافظ، شركة المدينة للطباعة والنشر جدة، ص88.

[9]– الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، تعليق عبد الرزاق عفيفي، دار الصميعي، الرياض، ج3 ط1، 2003 ص66.

[10]– تقي الدين أحمد بن تيمية، لإكليل في المتشابه والتأويل تعليق محمد الشيمى شحاته، دار الإيمان الإسكندرية، مصر ص27.

[11]– الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، شرح عبد الله دراز، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط1، 2004 ص526.

[12]– ينظر، يحيى رضا جاد، ضوابط التأويل لنصوص القرآن والسنة، مقال منشور في مجلة المسلم المعاصر، عدد150 لبنان،1 ديسمبر2013.

[13]– ينظر، محبوبة سنوسي، تأويل النص الإبداعي العربي المعاصر، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الآداب واللغة العربية، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2015، 2016 ص18.

[14]– المرجع نفسه، ص ن.

[15]– ابن منظور، لسان العرب، المجلد5، ج38، ص3412.

[16]– ينظر، أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط تحقيق مجموعة من العلماء، منشورات دار الكتاب العلمية، بيروت ط1، 2001، ج1، ص 121.

[17]– معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس تحقيق عبد السلام هارون، طبعة دار الجيل بيروت، ط1 1991، ج4، ص 504.

[18]– ينظر الإمام جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار الفكر للطباعة والنشر بيروت، ج 2، ص173.

[19]– أبو القاسم الحسين بن محمد المعرف بالراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان ص380.

[20]– أبو البقاء الكفوي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت، ط2، ،1993 ص 260.

[21]– أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، مصدر سابق، ص 121.

[22]– الزركشي، البرهان في علوم القرآن، المصدر السابق، ص 13.

[23] – محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1997 ج 1، ص 11.

[24] الزركشي، البرهان في علوم القرآن، المصدر السابق ص149.

[25]– دكار محمد أمين، التأويل الديني المعاصر وحوار الحضارات، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة، جامعة السانيا، وهران 2011، 2012، ص34

[26]–ينظر، محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، ج1، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، ص17.

[27]– نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل المركز الثقافي العربي، بيروت المغرب، ط6، 2001 ص177.

[28] –المرجع نفسه، ص 177.

[29]– علي حرب، الممنوع والممتنع، نقد الذات المفكرة، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 1995، ص22.

[30]– محمد شوقي الزين، تأويلات وتفكيكات، فصول في الفكر العربي المعاصر، منشورات ضفاف، لبنان، ط1، 2015، ص13.

[31]– بشرى موسى صالح، نظرية التلقي أصول وتطبيقات، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان ط1، 2001، ص7.

[32]– مصطفى شميعة، القراءة التأويلية للنص الشعري القديم بين أفق التوقع وأفق الانــدماج،عالم الكتب الحديث، الأردن ط1، 2003، ص91.

[33]– محمد عبد المطلب، النص المفتوح والنص المغلق، مجلة الموقف الأبي، اتحاد الكتاب العرب دمشق، ع398، جوان 2004.

[34]– لرويلي ميجان والبازعي سعد، دليل الناقد الأدبي المركز الثقافي، الدار البيضــاء، بيــروت ط3، 2002، ص88.

[35]– ينظر، محمد بازي، التّأويلّية العربّية، نحو نموذج تسانديّ في فهم الّنصــوص والخطابــات منشورات الاختلاف الجزائر، ط1 ،2010، ص159، 160.

ترجمة القرآن الكريم
بين التفاعل اللغوي والنشر الدعوي

د. نعيمة عيوش
جامعة خميس مليانة

مقدمة: لقد لقت عملية ترجمة النصوص الدينية انتشارا واسعا واهتماما خاصا لدى شعوب العالم وذلك لقداستها، لذا تحتاج عملية ترجمتها تدقيقا وتمحيصا من قبل متخصصين لهم خبرة واسعة وإلمام شامل خاصة فيما يتعلق بالقرآن الكريم، لان عملية ترجمته تحتاج إلى ربطه بمجموعة من السياقات من بينها السياق اللغوي، لذا هذه العملية تتسم بنوع من الصعوبة وذلك لإعجازه اللغوي حرفا وصوتا.

إن عملية ترجمة القرآن الكريم تزامنت مع انتشار الدين الإسلامي إلى الشعوب الناطقين بغير العربية، وقد بدأت منذ زمن ليس بالقريب تراوحت بين جهود فردية وجماعية إلا أنها في وقتنا الحالي حاولت مواكبة عصر العولمة واستثمار ما تتيحه التكنولوجيات، الحديثة ما تمخض عنه ظهور العديد من البرامج الحاسوبية نذكر منها: تطبيق القرآن العظيم الذي يتيح واجهة متعددة اللغات وهي بالعربية والانجليزية والفرنسية كما نجد المصحف الالكتروني وهو عبارة عن ترجمة لمعاني القرآن الكريم باللغة الانجليزية.

تعريف الترجمة: تعتبر الترجمة جسرا تواصليا بين الشعوب طالما دأبت على تعزيز التبادل المعرفي بين اللغات، لذا احتلت مكانة عظيمة قديما ولازالت ليومنا هذا شغل الدارسين والباحثين في هذا المجال، حيث استطاعت أن تجتاح مختلف الحقول المعرفية سواء منها العلمية أم الأدبية، نظرا إلى التواصل الحاصل بين مختلف شعوب العالم ولغات المعمورة، لتبادل المعارف والابتكارات والاختراعات والمعتقدات، لذا أصبحت اقل ما يقال عنها أنها أداة للتواصل البشري، كما وأنها إحدى الأساليب المهمة في عملية وضع المصطلحات العلمية في شتى اللغات

وبالتالي هي ذلك الفن الجميل الذي يعنى بنقل الفاظ ومعان وأساليب من لغة إلى أخرى بحيث أن المتكلم باللغة المنقول إليها يتبين النصوص بوضوح ويشعر بها بقوة كما يتبينها ويشعر بها المتكلم باللغة الأصلية[1].

لو عدنا إلى التاريخ العربي القديم لوجدنا لها تلك المكانة العظيمة، إثر التزاوج الحضاري بين العربية والفارسية واليونانية حين ترجمت العديد من الكتب القيمة في هذه الحضارات إلى اللغة العربية، إذ تعد واحدة من أقدم النشاطات الإنسانية التي مارستها المجتمعات البشرية عبر حدودها اللغوية والثقافية، فهي وسيلتها في إقامة جسور التفاهم وتبادل المعلومات والمشاركة في عملية التفاعل الفكري والحضاري.

وتنقسم الترجمة إلى نوعين:

الترجمة الحرفية: هي نقل الكلام من لغة إلى أخرى مع مراعاة التوافق في الترتيب والنظم والحفاظ على جميع معاني النص الاصلي المترجم؛

الترجمة التفسيرية: هي شرح الكلام وتوضيحه والسعي وراء معناه بلغة أخرى دون مراعاة التركيب والترتيب للنظم الاصلي.

حكم الترجمة في الدين الاسلامي: لا بد أن نعرج على حكم ترجمة القرآن الكريم في هذا البحث، لأنه لا يزال هناك العديد من الخلافات حول هذه المسألة إذ يتمحور الإشكال حول إمكانية ترجمة القرآن الكريم إلى لغة اخرى، أو بمعنى آخر هل يمكن للترجمة ان تستوعب معاني القرآن الكريم، مع العلم ان القرآن الكريم معجز بلغته بتراكيبه، ومفرداته، بنظمه ومعانيه، وكل ما يحتويه من دلالات تحمل معان عدة وأحكام، وتشريعات، وحقائق عن الماضي والمستقبل، هذا ما تحتويه لغة القرآن الكريم والتي لا يدرك كنهها سوى من كان ملما إلماما واسعا بكل ما يمت بصلة إلى هذه اللغة، وكذا إلماما بكل ما يمت بصلة الى العقيدة الاسلامية، ناهيك عن أمور لا يدركها أحد سوى الله تعالى، فهل يمكن للغة اخرى أن تستوعب كل هذا الاعجاز؟ هل يمكن لأي لغة أن تنقل كل معاني القرآن الكريم؟ لا يختلف هنا اثنان حول ادراك حقيقة استحالة لأي لغة من لغات العالم أن تحاكي القرآن الكريم، وأن تأتي بالمثل له

وهذا متفق عليه ولا نقاش فيه، إذ لا يمكن أن يترجم القرآن ترجمة حرفية، أي نظم القرآن بلغة أخرى تحاكيه حذوا بحذو، بحيث تحل مفردات الترجمة محل مفرداته وأسلوبها محل أسلوبه، حتى تتحمل ترجمة ما تحمله نظم الأصل من المعاني المقيدة بكيفياتها البلاغية وأحكامها التشريعية[2].

إلا أن فريقا من العلماء لا يرفض ترجمة معاني القرآن ترجمة تفسيرية، فهي تعنى بشرح نظم القرآن الكريم وتوضيحه وبيان معناه بلغة أخرى، بحيث يؤدي الغرض الذي سيق له نظم القرآن ولا تراعى فيه المحاكاة المطلوبة في الترجمة الحرفية، وهذا النوع من الترجمة لا خلاف في جوازه بين العلماء والباحثين وحجتهم في ذلك أن الترجمة هي واجب شرعي، من أجل نشر وتبليغ الرسالة إلى الأقوام غير الناطقة بالعربية.

وبالتالي فإن كان القصد من ترجمة القرآن الكريم الإتيان بالمثل، ونقله إلى لغة أخرى، ومحاكاته في المفردات والتراكيب والنسق والأسلوب، لتقوم الترجمة مقام الأصل العربي وتحمل الترجمة ما يحمله النص القرآني من المعاني محكمها ومتشابهها، وتأثير بلاغتها المعجز في القلوب، فهذا النوع من الترجمة مستحيل عقلا وشرعا، أما إذا كان القصد هو ترجمة معاني القرآن الكريم، والعمل على تقديم تفسير موجز لمختلف المعاني الواردة في الآيات، من أجل توضيحها وتقريبها للقارئ بكل موضوعية وأمانة علمية، ولا يتأتى ذلك إلا بعد الاطلاع على علوم القرآن وكذا الثقافة الاسلامية والعربية، وكذا أن يكون المترجم متمكنا من اللغة العربية بكل علومها، وليس الاكتفاء بمعرفة قواعدها، إذ ليس باستطاعة أي شخص كان العمل على ترجمة القرآن الكريم وإنما لابد أن تتوفر في المترجم العديد من الشروط هي:

– أن يكون المترجم عربي اللسان نشأة وتكوينا متذوقا للأساليب العربية مطلعا على مختلف تقنيات النظم النحوية والتراكيب البلاغية؛

– أن يكون المترجم متمكنا من علوم القرآن عالما بأصول الشريعة ومبادئها العامة، كأسباب النزول ومطلعا على مختلف التفاسير وكتب الحديث والسنة وعارفا

بكل المصطلحات اللغوية الواردة في القرآن متمكنا من دلالاتها الشرعية وعلى الأحكام المراد منها؛

- أن يكون المترجم متمكنا كل التمكن من اللغة التي يريد الترجمة إليها مطلعا على كل أساليبها ومعرفة نظمها واستعمالاتها وذلك لكي يكون قادرا على اختيار اللفظ الملائم والمعبر منها.

أصدر جامع الأزهر بموافقة وزارة الأوقاف المصرية، إفتاء يُجوِّز ترجمة معاني القرآن الكريم سنة 1936م فترة رئاسة محمد مصطفى المراغي مشيخة الأزهر، مع الإشارة إلى أن هذه الترجمة ليست قرآنا ولا تتضمن خصائصه كما أنها ليست ترجمة لكل المعاني التي يتضمنها القرآن، أو التي فهمها العلماء، كما تكفَّل مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بترجمة القرآن الكريم إلى مختلف لغات العالم.[3]

تاريخ بداية ترجمة القرآن الكريم: احتلت ترجمة الكتب المقدسة مكانة هامة في الانتاج الترجمي العالمي، ويعتبر القرآن الكريم آخر الكتب السماوية المنزلة على آخر الانبياء محمد صلى الله عليه وسلم موجهة لجميع الشعوب حيث قال تعالى: "**وَمَا أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً للعالَمِين**" الانبياء 107، ولم تعرف الفترة الأولى لنزول القرآن أي ترجمة، وذلك أن الأقوام التي اعتنقت الاسلام ألزموا أنفسهم تعلم اللغة العربية لغة القرآن الكريم، حتى يستطيعوا قراءته وفهمه وقد برز منهم علماء أجلاء في علوم القرآن واللغة العربية.

إذا أردنا التأريخ لترجمة القرآن الكريم، فإننا نجزم أنها كانت قديمة جدا مع بدئ انتشار صدى الدين الاسلامي للشعوب غير العربية كالفرس واليونان وبلاد الهند، إذ وجدت ترجمة للقرآن الكريم باللغة السريانية والهندية والفارسية واليونانية بعضها كاملا، وأخرى ترجمة لمقتطفات من سور القرآن الكريم.

قام الفيلسوف اليوناني نقيطانس في القرن 9م/ 3هـ بنقل القرآن الكريم إلى اللغة اليونانية، إلا أن ترجمته إلى اللغة اللاتينية جاء متأخرا جدا، ويعود ذلك إلى

خوف الديانات الاخرى على مكانتها خشية تأثر شعوبها بالدين الاسلامي، فلا تقـوم لها قائمة بعدها، إلا أننا نرى ظهور العديد من الترجمات مع بداية القرن17م، ولعـل السبب في ذلك هو تأثر الصليبيين بالحضارة الأندلسية، إذ يمكننا القـول أن حركـة ترجمة القرآن الكريم كانت منذ بداية الحركة الاستشراقية، وكانت بادرتها من مدرسة طليطلة للترجمة بالأندلس برعاية رايموند (Raymond) رئيس الاساقفة، تم في هذه المدرسة ترجمة مختلف الكتب العربية وكذا القرآن الكريم[4].

توالت حركة ترجمة معاني القرآن الكريم إلى مختلف اللغات الأوروبية اعتمـادا على نسخة روبرتالكلوني باللغة اللاتينية، وهذا ما جعل هذه الترجمات تبتعد كل البعد عن الترجمة الحقيقية للقرآن الكريم، مع بداية القرن السابع عشر عمل أندري دورييير (André de Ryer) قنصل ملك فرنسا بمصر على ترجمة معـاني القـرآن الكـريم باللغة الفرنسية، إلا انها كانت مليئة بالأخطاء والافتراء والإضافات التي تحمل حقـدا على الاسلام، وقد صارت هذه الترجمة كمصدر للعديد من الترجمات للغات الأخرى حيث ترجمها الكسندر روس(Alexander Ross) إلـى الانجليزيـة سـنة 1649م وكانت أسوأ من الأولى كون أن المترجم كان جاهلا بالعربية وبالعقيدة الاسلامية.

ازدهرت ترجمة معاني القرآن الكريم أكثر في القرن العشرين حيث نجد العديـد منها نذكر بعضها:

- ترجمة مونتيه (Montet) باللغة الفرنسية طبعت بباريس سنة 1929م.
- ترجمة ريتشارد بل (Richard Bell) باللغة الانجليزية سنة 1937م.
- ترجمة جاك بيرك (Jacque Berque) باللغة الفرنسية سنة 1991م.

بعض الأمثلة عن ترجمات المستشرقين:

- ترجمة النبي الأمي في الآية" **الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونـه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر**"الاعراف 157.

ترجمها بلاشير بـ" Prophéte des gentils وتعني نبي غير اليهود.

وترتجها دنيس ماسون" بـــ" Prophéte des gentils وتعني نبي الكفرة.

وترجمها آربري بـــ" The prophet of the common folk وتعني نبي العوام.

– مثال آخر: ترجمة جورج سايل العبارة القرآنية "**يا أيها الناس**" الواردة في العديد من المواضع في القرآن الكريم بـــ"Opeople of mecca أي" يا أهـــل مكـــة" وهذا مناف تماما لما ورد في القرآن الكريم لان الخطاب لكافة الناس وليس فقط أهل مكة.

– كما ترجم جورج سايل العبارة القرآنية "**وكذلك جعلناكم أمـــة وســـطا**" بقولـــه (Wemakeyou O Arabians) بمعنى جعلناكم أيها العرب أمة وسطا مع أن القصـــد هو الناس جميعا.

– أيضا ترجم جاك بيرك كلمة مساجد في قوله تعالى: "**إنما يعمر مســـاجد الله** " التوبة 18 بـــ" **Ne met en honneur les oratoires de dieu** وفـــي مواضـــع أخرى ترجمت بـــ Sanctuaire فالأولى تعني المصلى في كنيسة صغيرة أما الثانية تعني المعبد الكنسي مع أنّه توجد كلمة تتوافق مع كلمة مسجد هي :mosquées.

– ترجمة أخرى لجاك بيرك قام فيها بقلب الحقائق القرآنية من خـــلال ترجمتـــه لقوله تعالى" **فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه** " البقرة 213 اذا ترجمها بقوله:

Mais dieu avait guidé les croyants à diverger avec sans autorisation sur tels points de la vérité

وهذا يعني: لكن الله هدى المؤمنين إلى الاختلاف بموافقته حول نقاط معينة مـــن الحقيقة" حيث قلب المترجم المعنى الأصلي للآية الكريمة.

الملاحظ في الترجمات الغربية هو أنها كانت تحيد كثيرا عـــن المعنـــى الحقيقـــي الوارد في القرآن الكريم، وذلك حسب طبيعة المنهج المتبع أثنـــاء الترجمـــة، فجـــل الأخطاء إما تعود إلى جهل المستشرقين باللغة العربية وهي بحر واسع، وهـــذا مـــا

يؤدي إلى سوء فهمهم وبالتالي وضع المصطلحات في غير موضعها وإما تعود إلى العداء الذي يكنه المستشرقون للإسلام.

كما أن معظم المستشرقين الذين ترجموا القرآن الكريم اعتمدوا على الترجمات التي سبقتهم دون اللجوء إلى النص الأصلي للقرآن الكريم، وبالتالي هذا لا يرقى إلى مستوى الترجمة الحقيقية لأن الاساس في عملية الترجمة هي النقل من النص الأصلي ومن لغته الأصلية، ومن هنا يمكننا القول أن تعاملهم مع الظاهرة القرآنية لم يكن بالمستوى المطلوب ولم تتحقق فيه العلمية أو الموضوعية، إذ كما لاحظنا هناك خلطا كبيرا سواء على مستوى الألفاظ المعجمية أو التراكيب النحوية والبلاغية.

كما نشير أن الفكر الاستشراقي ينظر إلى القرآن على أنه عمل بشري حتى أن بعضهم أطلق عليه بالقرآن المحمدي وهي ترجمة سولومون شفانغر (Sefweigger) سنة 1616م.

أما بعضهم الآخر يذهب الى القول بتأثر القرآن باليهودية والنصرانية خاصة في مجال القصص التي بظنهم استعيرت مما ورد في الكتب المقدسة الأخرى، لذا نجد بعضهم يطلق عليه بالإنجيل التركي وهي ترجمة فريد رشماجرلاين عام 1770م.

بعد أن انفرد المستشرقون بالعديد من الترجمات المحرفة قصدا والتي أساءت كثيرا لهذا الدين، قصد تشويهه لدى الشعوب الأوروبية سخّر العلماء المسلمون جهودهم في الترجمة الحقيقية لمعاني القرآن الكريم، وإيصالها دون إضافة أو حذف الى شعوب العالم وبجميع اللغات، ونذكر هنا بعض الترجمات العربية المقبولة والتي تشرف عليها مؤسسات وهيئات كمجمع الملك فهد بالمملكة العربية السعودية الجمعية العلمية السعودية للسنة وعلومها، المجلس الاسلامي العالمي.

نعطي بعض الامثلة عن الترجمة العربية: فيما يخص كلمة حج في قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ آل عمران/97، يترجمها تقي الدين الهلالي إلى الانجليزية بقوله:

And Hajj (pilgrimage to makkah) to the House (ka'bah)is a dutythatmankindowes to .Allâh

فبينما نجده في العديد من الترجمات الغربية كلمة حج تترجم بـــــ visit بمعنـــى زيارة.

وكذا أيضا في ترجمة كلمة (**الله**) التي وردت في العديد من المواضع في القـــرآن حيث يترجمها تقي الدين الهلالي" **Allâh**" بينمـــا تتـــرجم فـــي ترجمـــات الغـــربيين بـــ**God**.

صعوبات ترجمة معاني القرآن الكريم: إن محاولة ترجمة القرآن الكريم تعد مـــن أصعب المحاولات على الاطلاق، فالنص القرآني يمثل عدة تفاسير وبالتـــالي عـــدة معان، حتى أنه لا يمكن للمترجم أن يحصر كل المعاني فكل ترجمـــة للقـــرآن هـــي تفسيرا فقط لبعض معانيه، وشرحا من مجموعة من الشروح لا غير، يمكـــن لنـــا أن نحصر هنا العديد من الصعوبات هي:

– وجود المتشابه في القرآن الكريم حيث هناك اختلاف حاصل بين العلماء فـــي معرفة المراد منه فكيف لاحد أن ينقله إلى غير لغته التي نزل بها وهو لا يعلم حقيقة معانيه كلها أو بعضها؛

– كما أن لغة القرآن الكريم تتميز عن جميع لغات العالم بالعديد مـــن الميـــزات مثلا مسألة المترادفات، نأخذ مثالا عن المترادفات الموضوعة ليوم القيامة (الواقعة – القارعة – الطامة – الصاخة – الحاقة – الغاشية) كل هذه المترادفات هي مشـــحونة بمعاني تختلف نسبيا فيما بينها مما يجعل نقل المعنى المقصود منها إلى لغة اخرى[5]

– اختلاف نظام التراكيب بين اللغة العربية واللغات الأخرى مثلا قضية التقـــديم والتأخير في قوله تعالى: "**إياك نعبد وإياك نستعين**"الفاتحة 5، يترجمها مارجليوث؛

"Iworshipsthee and seek assistance of thine."

– عدم وجود مقابلات انجليزية لبعض معاني الكلمات العربية مثال ذلك يميـــت ترجمت بـــ causes death.

ترجمة معاني القرآن والتقانات الحديثة: إن الانفتاح الحضاري الحاصل بين شعوب العالم، ألح على ضرورة إيجاد وسائل ناجعة ومتطورة للتواصل وإلغاء إشكالية فهم الأخر، وقد ساعدت التقانات والتكنولوجيات المستحدثة على ظهور العديد من البرامج والأنظمة الحاسوبية، التي سعت إلى إيجاد حلول للاختلافات اللغوية الحاصلة من خلال الاهتمام بحقل الترجمة الآلية، ولطالما ثمنت جهود المترجمين بالعديد من المعاجم والقواميس التي تحدد المقابلات الأجنبية في العديد من اللغات مع تحديد المفاهيم والمترادفات والاستعانة بالصور والرسومات التوضيحية، وذلك قصد الاستعانة بها في عملية الترجمة الشخصية إلى أن هذا النوع التقليدي ما فتئ تراجع مع ظهور الحاسوب الذي دعم شبكات الانترنيت ببرامج للترجمة، فتولد بذلك فرع جديد وهو الترجمة بمساعدة الحاسوب التي سهلت عملية الترجمة واختزلت الوقت والجهد واللجوء إلى تصفح أوراق القواميس.

إن كانت الترجمة الآلية اليوم حققت نجاحا متقدما جدا، إلا أننا لا يمكن ان نلجأ اليها كحل مثالي لترجمة معاني القرآن الكريم، اذ لا بد من اللجوء الى الترجمة البشرية، لأن القرآن الكريم هو كلام معجز وفيه من المعاني ما تعجز اللغات الأخرى عن الإحاطة بمعانيه بدقة، كما أن ترجمته تحتاج إلى عملية تحليل دقيق لكل ما يحتويه من سور وآيات وكلمات وتعابير وأساليب التي هي مترابطة فيما بينها، وحتى نصل الى مرحلة المعالجة الآلية لمعاني القرآن الكريم أمر لا يزال بعيد المنال ويحتاج إلى الكثير من البحث الدقيق في المعاني القرآنية.

هذا لا يعني أن الدراسات القرآنية لم تواكب التقانات الحديثة، بل إنها استثمرت كل ما جاد به عصر الرقمنة، إذ عملت على استغلال شبكة الانترنيت، فهناك العديد من الترجمات القرآنية بكل اللغات على شبكة الانترنيت على شكل برامج أو مصاحف إلكترونية، تسهل للمستخدم عملية التصفح كما أنها مزودة بالتفسير كما تتيح سماع التلاوات الصوتية بمختلف اللغات، كل هذا يقدمه البرنامج بشكل جميل من خلال الخط العثماني والألوان والزخارف، هناك العديد من المصاحف الالكترونية

التي يمكن تحميلها عبر الانترنيت مجانا تلائم مختلف أنظمة التشغيل للحواسب والأندرويد نعطي مثالا عنها:



الشكل(1): صورة توضيحية لواجهة المصحف الالكتروني

كما يظهر من خلال الشكل (1) المصحف الالكتروني "القرآن الكريم" يتيح العديد من النوافذ (أسباب النزول – التفاسير – تعريفات بالسور– احصاءات قرآنية – ترجمات)، يتيح هذا المصحف ترجمة معاني القرآن لمعظم لغات العالم كما يوضحه الشكل التالي:



الشكل (2): واجهة ترجمة معاني القرآن لمختلف لغات العالم

في الأخير لابد من الإقرار بضرورة ترجمة القرآن الكريم وتبليغه للشعوب، لأن الهدف من الترجمة هو إيصال معاني القرآن وتعاليم الاسلام إلى كافة شعوب العــالم مع الأخذ بعين الاعتبار التركيز على ترجمة المعــاني ولــيس الترجمــة الحرفيــة للمفردات، والعمل على توحيد جهود القائمين على أمر الترجمة، إلى جانب ذلك لابد من تفعيل ترجمة السنة والسيرة النبوية من خلال استخدام معطيات التقنية الحديثة.

الاحالات:

---

[1] رشيد سعيد كساب، ترجمة معاني القرآن الكريم، شركة كيلاني، عمان،1949.

[2] شاكر شوق، ترجمة معاني القرآن ودور المستشرقين فيها، مجلة دراسات الجامعة الإسلامية العالمية، شيتاتونغ، ديسمبر 2007، المجلد4، ص 61.

[3] ينظر، موقع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف: www.qurancomplex.gov.sa

[4] شاكر عارف شوق، ترجمة معاني القرآن ودور المستشرقين فيها، مجلة دراسات، المجلد الرابع، الجامعة الاسلامية بنغلادش، 2007، ص 65.

[5]تاشفين أكرم، ترجمة معاني القرآن الكريم (تعريفها وحكمها)، مجلة القسم العربي، جامعة باكستان، 2018م، العدد25، ص20.

رؤية الأستاذ محمّد الصّالح الصّدّيق لقضيّة الإعجاز في القرآن الكريم وعلاقته باللّغة العربيّة ـ قراءة تحليليّة في كتاب "من روائع الإعجاز"ـ

داه. سفيان مطروش

داه. عبد الكريم رابح

جامعة غرداية

* **مقدّمة:** الحمد **لله** ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّد المرسلين، أفصح المتكلّمين، وأبلغ النّاطقين، خاتم الأنبياء والمرسلين، محمّد بن عبد **الله**، وعلى آله وصحبه الطّاهرين وبعد،

يُعَدُّ الأستاذ (محمّد الصّالح الصّدّيق)[*]، من أبرز الأعلام الجزائريّة التي لها بصمتها الخاصّة في خدمة القرآن الكريم وعلومه.

فعلى غرار الشّهرة التي نالها كتابه "مقاصد القرآن" –منتصف القرن الماضي– إلا أنّه لم يَأْلُ جهدًا في تقديم المزيد من الأعمال، كـ: "القرآن الكريم في محيط العقيدة والإيمان، والبيان في علوم القرآن، ومن روائع الإعجاز، ...إلخ".

ولا شكّ أنّ الأستاذ، قد سَلَكَ في كل مؤلَّف منها، منهجًا خاصًّا في ظلّ منهج عام، تأسَّس من فهمٍ شامل للنّص القرآني وعلاقته بعلومه المختلفة، ثمّ وجوه إعجازه وعلاقته باللّغة العربيّة، في ظلّ رؤية خاصّة.

وعليه تروم ورقتنا البحثيّة، اكتشاف خصوصيّة هذه الرّؤيّة، من خلال كتاب "من روائع الإعجاز"، منطلَقة في ذلك من إشكال مفاده:

– ما هي رؤية الأستاذ محمّد الصّالح الصّدِّيق لقضيّة الإعجاز في القرآن الكريم، وعلاقته باللّغة العربيّة؟،

1– في الخطاب المقدّماتي للكتاب: في بداية المقدّمة، تحدّث المؤلّف عن فكرة تأليف كتابه؛ حيث أقرّ بأنّ أصلها مقال، نشره في إحدى المجلات.

ثمّ تحدّث عن ظروف إنجاز الكتاب؛ إذ كانت خلال شهر رمضان من عام (1423هـ)، وما قاله في هذا الصّدد:

«فعكفت طوال هذا الشّهر بين كتبي: أقرأ ما كتبه عن الإعجاز علماء البلاغة ورجال التّفسير، وأعلام الفكر الإسلامي، وكنت أراجع يوميًّا عشرات الكتب والأبحاث قبل الكتابة».[1]

وعلى الرّغم من المشاق والأتعاب التي يعاني منها كل باحث ومؤلّف خلال عمليّة إنجاز كتابه، من مرحلة تسويده إلى غاية تبييضه، إلا أنّ الأستاذ (محمّد الصّالح الصدّيق)، لم يكن يشعر بذلك كلّه؛ بل كان يشعر بالسّعادة والسّرور جرّاء هذا العمل، وفي ذلك قال:

«كنت خلال هذا الشّهر العظيم أشعر بسعادة لا تعادلها سعادة، فبالرّغم من العمل المتواصل بياض النّهار في البحث والقراءة والكتابة فإنّي أشعر بطمأنينة النّفس وراحة الضّمير».[2]

ليقدّم بعدها، نصيحته إلى طلبة العلم النّاشئة، قائلا لهم:

«ونلاحظ هذا بالخصوص لطلبة العلم الذين نزلوا أو يفكّرون في النّزول إلى ميدان التّأليف والإبداع، ليعلموا أنّ العمل في هذا الميدان شاق مرهق ولكنّه حلو لذيذ، لأنّ فيه التقاء العقل والقلب، والقلم لإبراز الخصائص النّفسيّة والمواهب الفطريّة، وفي ذلك تفاعل –وأيّ تفاعل– مع الحياة المتميّزة التي لا يحياها إلا الذين حباهم **الله** بعقول مبصرة، وأقلام مبدعة ...».[3]

وبعدها كشف عن واقع علاقة مسلمي هذا العصر، بكتاب ربّهم، قائلا عنهم:

«لم أفتأ أفكّر في مسلمي هذا العصر، أكرمهم **الله** بهذا الكتاب المعجز وأنعم به عليهم، ولكنّهم جاهلون لقيمته، غافلون عن أسراره وحقائقه، معرضون عمّا فيه من أسباب الرقي والسّعادة!».[4] .

ثمّ ضاعف من تشخيص هذه العلاقة إلى حدّ التّحسّر، الذي قال فيه:

«لقد عظمت حسرتي على المسلمين لإعراضهم عن القرآن، حينما كنت أعدّ هذا الكتاب، وأتفاعل مع آياته العلميّة المثيرة التي تفتح أمامهم آفاق العلم والمعرفة وتحرضّهم على أن يأخذوا بأسباب القوّة والرّفعة والكمال وتستحثّهم على المزيد من العلم، ولكنّ أكثرهم لا يسمعون ولا يبصرون ولا يفقهون!».[5]

2- مضمون الكتاب: بعد المقدّمة، ناقش المؤلّف، عدّة محاور لها علاقة بالإعجاز القرآني، سردها بشكل موجز، وهي:[6]

- ذكره لحديث نبوي شريف، يشير إلى الإعجاز، عند قوله (ﷺ):

«مَا مِنَ الأَنبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إلا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ وإِنَّمَا كَانَ الذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ **اللهُ** إِليَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ»؛[7]

- معجزات الأنبياء ومدارك النّوع البشري؛
- تهيّؤ العرب لمعجزة القرآن؛
- إجماع أهل الكفر والشّرك على محاربة الرّسول وما نزل عليه؛
- أعدى أعداء القرآن يعترفون بفصاحته الفذّة؛
- القرآن يتحدّى ويدعو إلى معارضته؛
- وقائع مثيرة عن بعض المغرورين؛
- حيرة العلماء في سبب إعجاز القرآن.

إلى أن وصل إلى مناقشة قضيّة مهمّة، وهي أنّ القرآن معجز بأسلوبه ومضمونه معًا، ليركّز نقاشه على تساؤل مفاده:

«أيّ النّاحيتين هي الرئيسيّة في الإعجاز: الأسلوب أم المضمون؟».[8]

وبعد عرضه لآراء مجموعة من العلماء، ممّن تبنّوا أحد الاتّجاهين، مال الأستاذ إلى رأي الباحث (مصطفى أحمد الزّرقاء)؛ حيث لخّص رأيه في نقطتين رئيسيتّين:

«**أوّلا:** أنّ هناك حلقة مفقودة هي جسر الاتّصال والتّوفيق بين الرّأيين، وهي: وجوب التّمييز بين غرض الهداية إلى **الله** في القرآن الكريم، وغرض إثبات

مصدريّة القرآن الإلهيّة بلفظه ونصّه عن طريق التّحدّي بإعجازه لا من جهة كونه في الواقع معجزًا، فالكَون كلّه معجز لا القرآن فقط.

ذلك أنّ إثبات المصدريّة الإلهيّة لابدّ فيه من التّحدّي ولا يكفي فيه كون القرآن معجزًا في ذاته، فقد يكون معجزًا ولا يطلب الله تعالى فيه التّحدّي كما لم يطلب سبحانه من النّاس متحدّيًا لهم أن يخلقوا كَونًا كالكَون الذي هو خالقه.

ثانيًا: أنّ إكمال الدِّين شيء، وإعجاز القرآن لإثبات نزوله بلفظه ونظمه من عند الله تعالى شيء آخر، فحقائق المضمون تثبت صحّة ذلك المضمون بأيّ لفظ وتعبير صيغت ممّا يعبّر عنها ويصوّرها، فهذه الحقائق في المضمون متى عرفت بأيّ طريق من طرق المعرفة ولو بالاكتشاف العلمي اللاحق دون أن يعجل القرآن بالإشارات الإجماليّة إليها تكفي لإثبات وجود الخالق ولكنّها لا تثبت مصدريّة اللّفظ من حيث أنّه نصّ لفظي منظوم بهذا السّبك لا يمكن صدوره كلفظ منظوم إلا من عند الخالق، وإنّما الذي يثبت هذه المصدريّة للنّص اللّفظي هو الإعجاز البياني بطريقة التّعبير والنّظم».[9]

ثمّ صرّح الأستاذ (محمّد الصّالح الصّدّيق)، بأنّه يتبنّى الطّرح ذاته، بقوله:

«وما ارتآه الدكتور مصطفى الزّرقاء هو ما يميل إليه العقل، وترتاح إليه النّفس ونراه الجدير بالتّرجيح والاعتماد في هذا الموضوع؛ لأنّ القرآن الكريم مُسَلَّمٌ أنّه معجز بمحتواه ومضمونه، ولكنّ إعجازه البياني في الدّرجة الأولى».[10]

ويفهم من هذا الكلام، أنّ الأستاذ (محمّد الصّالح الصّدّيق)، ممّن يتبنّون الجمع بين الاتّجاهين؛ أي أنّ إعجاز القرآن الكريم، يكمن في أسلوبه البياني ومضامينه معًا؛ مع شرط الأسبقيّة للإعجاز البياني.

ثمّ لخّص المؤلّف أوجه الإعجاز بالإيجاز، اقتضى ذكرها بالنّسق، وهي: «**أوّلا:** الإخبار بالغيب في العصور الماضية كقصص الأنبياء والرّسل مع أقوامهم، وبالمغيبات في الحاضر والمستقبل، كقوله تعالى﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى

ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴾[الرّوم:02]، وفي الآية خبران عن الغيب ظهر صدقهما بعد سنين من نزول الآية، وكقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ ﴾ [الفتح:27]، وكان الأمر كما أخبرت الآية، وكقوله تعالى:﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[الحجر:09].

وقد مضت أربعة عشر قرنًا وأكثر والقرآن محفوظ بعناية **الله** تعالى من التّحريف والتّبديل، وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة في هذا المضمار.

ثانيًا: سلامته من التّعارض والتّناقض والاختلاف مع طوله، وهو ما قدّمناه وقرّرناه في ظلّ قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النّساء:82]، في حين أنّنا نجد عمالقة الفكر وجبابرة الفلسفة في كل عصر يراجعون أعمالهم الفكريّة ومحاصيل أقلامهم فيظهر لهم فيها ما يجب تنقيحه وتصويبه من أخطاء لفظيّة أو معنويّة فليس كذلك القرآن الذي يصدّق بعضه بعضًا ويتناسق كلّه في عرض قوي موثّق.

ثالثًا: اشتماله على العلوم الإلهيّة والعقائد الدّينيّة وقوانين الفضائل والأخلاق وقواعد التّشريع المدَني والسّياسي والاجتماعي.

وكانت كلّها مسايرة للتطوّر البشري، وستظل ما بقيت الحياة، أو في الشّرائع وأوفقها وأليقها، وقد سجّل التّاريخ عبر العصور الخالية أنّ كل ما وضعه الإنسان من القوانين والدّساتير كان نصيبها الفشل المُخزي.

رابعًا: ما فيه من المسائل العلميّة والتّاريخيّة التي كانت مجهولة في عصر نزوله ثمّ كشفها العلم بعد قرون، وهي كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذّاريات:49]، وقوله تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ ﴾

[الرّعد:03]، وقوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ [الحِجر:22]، وقولـــه: ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ﴾ [الزّمر:05]، وقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ﴾ [الأنبياء:30]، وقوله: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ [فصّلت:11].

خامسًا: تأثيره في مسيرة العالم الإنساني من الظّلمات إلى النّور: من الظّلم إلـــى العدل، ومن الجهل إلى العلم، ومن الفوضى إلى النّظام، ومن العبوديّة إلـــى الحريّـــة ومن الفساد في الأخلاق والطّبائع والغرائز والعـــادات إلـــى الصّـــلاح والاســـتقامة والرّشد، فكان الانقلاب الذي أحدثه القرآن الكريم أغرب ما في تاريخ البشـــريّة مـــن حيث سرعته، ومن حيث عمقه، ومن حيث وضوحه وقربـــه إلـــى الفهـــم وفطـــرة الإنسان!![...].

سادسًا: معانيه الكريمة النّبيلة التي بلغت أعلى ذروة وأسمى مكانة فـــي الشّـــرف والكمال، والصّدق والجمال، فليس في معاني القرآن معنًى تافه أو مبتذل، أو وضـــيع بل إذا تصدّى لمعنى وضيع رفعه حتّى يكون في مصاف المعاني الكبيـــرة المثيـــرة كذِكر الذّباب، وقصّة النّمل، وبيت العنكبوت، والعرجون القديم...».(11)

وبعدها انتقل الأستاذ (محمّد الصّالح الصدّيق)، إلى مناقشة عدّة قضايا فرعيّة، لها علاقة مباشرة بالإعجاز القرآني، وهي:(12)

- غلاة المشركين يقفون تحت تأثير القرآن؛
- إنّما يدرك فصاحة القرآن من سلمت فطرته وسَمَا أدبه وذوقه!؛
- من المبشّرين من ينكر إعجاز القرآن؛
- القرآن معجز رغم ما فيه من أسباب تقتضي نقصان فصاحته؛
- ما من فصيح بليغ إلا له سقطات؛
- عقلاء فصحاء في الجاهليّة أدركوا إعجاز القرآن؛
- شهادة الأجانب والنّصارى بإعجاز القرآن.

ومن المسائل الجوهريّة التي تطرّق إليها المؤلّف في كتابه، هي علاقة اللّغة العربيّة بالقرآن الكريم؛ إذ بدأها بعنوان فرعي، سمّاه بـ "تطاول سخيف" تحدّث فيه عن حوار دار بينه وبين طالب جامعي، كان قد زاره في منزله وطعن هذا الأخير في جانب مهم من جوانب لغة القرآن الكريم، وممّا قاله الأستاذ (محمّد الصّالح الصدّيق) عن هذا الازدراء:

«والذي يثير الأسى في النّفوس، وقد يدعو أحيانًا إلى الضّحك، أنّ هناك من المنتَسبين إلى الإسلام خطأ، من لا يكاد يأخذ دروسًا في اللّغة العربيّة حتّى يبدأ في الحطّ من قيمة العربيّة، والطّعن في القرآن الكريم، ومنذ أيّام قليلة زارني في البيت طالب جامعي، فأثار قضيّة إعجاز القرآن، وحدّثته عن بعض وجوهه، فقال بجراءة كادت تكون وقاحة: "إنّ الذي يؤاخذ عليه القرآن كثرة التّكرار فيه"، فذكرت له قول المستشرق الألماني الفيلسوف "يوحان يعقوب رايس"، المتوفَّى سنة 1774: "ما إن يتعلّم بعض النّاس قليلا من اللّغة العربيّة حتّى يقوموا بمحاولة الاستهزاء بالقرآن ولو استمعوا إلى قدرة القرآن المثيرة الفصيحة المؤثّرة، وأحسّوا باللّسان المحيّر للألباب، الذي استخدمه الرّسول حين أفهم القرآن أصحابه، لوقعوا في الحضرة الإلهيّة ساجدين صائحين: يا رسول **الله** أغثنا ولا تحرمنا من الدّخول في شرف أمّتك".

ونظرًا لوضعه من الجهل والقصور بيّنت له سببًا من أسباب التّكرار في بعض سور القرآن الكريم فخجل وخسئ!!».[13]

نستنتج من هذا الحوار، أنّ نظرة الأستاذ (محمّد الصّالح الصدّيق)، إلى العلاقة القائمة بين القرآن الكريم واللّغة العربيّة، ليست محصورة في كونها لغة هذا الكتاب المقدّس وفقط؛ بل في كونها أهم مصدر من مصادر إعجازه البياني، كوجود التّكرار في بعض الآيات، على سبيل المثال.

وتحت عنوان "حملات مسمومة ضدّ اللّغة العربيّة"، ناقش المؤلّف تلك الحملات المناوئة للّغة العربيّة، من قبل بعض العلمانييّن المغرضين، الذين طالما دعوا إلى

استبدال الفصحى بالعاميّة، فهم –عنده– بهذه السّياسة، عبارة عن معاول تحرّكها السّياسات الاستعماريّة، من أجل ضرب مقوّمات وحدة الشّعوب العربيّة، ليس إلا.

كما ناقش أيضًا، جهود بعض المصلحين، من أمثال: (جمال الدّين الأفغاني) و(محمّد عبده)...إلخ، في التّصدّي لحملات بعض المستشرقين المغرضين، من أمثال: (أرنست رنان)، و(جبريل هاخاتو)...وغيرهما.

إلى أن وصل إلى نقطة مهمّة، وهي أهمّية علاقة اللّغة العربيّة بالقرآن الكريم وممّا قاله في هذا الشّأن:

«إنّ العربيّة بكلمة وجيزة مختصرة، هي كل مقوّماتنا الحضاريّة، هي كياننا هي وجودنا، بغيرها لا وجود لنا، هي قرآننا وبغيرها لا وجود للقرآن، إذن فكل معركة نقوم بها ضدّ الذين يفتحون ثغرات في صفوفنا، أو يدعون إلى العاميّة أو يهوّنون من شأنها، أو ينتقصون من قواعدها، هي معركة من أجل حياتنا أو موتنا، من أجل وجودنا أو عدمنا، فليفهم كلّ واحد منّا هذا جيّدا!».[14]

نلاحظ من هذه الفقرة، أنّ المؤلّف، وهو يتصدّى لدعاة العاميّة، من المناوئين للّغة العربيّة، بأن ربط وجود المقوّمات الحضاريّة للشّعوب العربيّة، بوجود اللّغة العربيّة بل تعدّى الأمر عنده، إلى القرآن الكريم في حدّ ذاته، حيث عدّ وجوده من وجود اللّغة العربيّة في حدّ ذاتها، عند قوله:

"هي قرآننا وبغيرها لا وجود للقرآن".

ونحن لا نوافقه في هذا الرّأي على إطلاقه، صحيح أنّ الله (□)، اختار هذه اللّغة لتكون لغة آخر كتبه السّماويّة المنزّلة على أنبيائه، ولكن في المقابل كان هو أيضًا سببًا لحفاظها وحمايتها من الزّوال.

وهذا ما يقودنا إلى طرح تساؤل مفتوح لنقاش: **هل اللّغة العربيّة هي سبب لوجود القرآن الكريم، أم هو سبب لوجودها؟.**

وفي محور آخر، عنونه بـ"العربيّة في مستوى الوحي الإلهي"، دافع الأستاذ عن العربيّة، لغة الوحي الإلهي، بأنّها ظلّت في مستوى هذا الوحي، في جميع المستويات اللغويّة، قائلا في ذلك:

«وننتهي بعد هذا إلى القول بكل ارتياح وطمأنينة من الثّقة واليقين، أنّ اللّغة العربيّة التي اختارها الخالق جلّ وعلا وعاءً لوحيه كانت في المستوى دلالة وتعبيرًا وتصويرًا، لم تضق عن فكرة أو إشارة، ولم تعجز عن مجاز أو حقيقة ولم تقصر عن قصّة أو صورة، وكانت بالغة ما بلغ وحي **الله** في الإحاطة والشّمول مستجمعة لكل معانيه وحقائقه وأسراره، فما من مُجِيد لهذه اللّغة ومتقن لأساليبها، وضروب بلاغتها، وقرأ القرآن الكريم بتدبّر، ولم يكن كدر الحس، ولا مريض الذّوق، إلا جذبه إعجاز القرآن، وخرّ ساجدًا لبلاغته، وأعلن أنّه كلام **الله** ربّ العالمين، كما وقع لكثير من العرب المسيحييّن أمثال: مارون عبود، ورشيد أيّوب، وحسني غراب ونقولا حنا، ورياض المعلوف، وجورد عياد، والشرتوني وغيرهم».[15]

ثمّ أضاف إلى فكرته الأولى، فكرة ثانية، عند قوله:

«فلو فرضنا أنّ صورة من صور الوحي الإلهي أفرغت في وعاء غير عربي فإنّه ينتفي هذا الإعجاز، لأنّ الإعجاز إنّما يتحقّق باللّفظ والأسلوب العربي، كما لا يصح أن يطلق على ذلك أنّه قرآن، فعربيّة القرآن ضرورة حتميّة، ومن هنا كان العرب الفصحاء إذا سمعوا القرآن، أقبلوا عليه مأخوذين بسحر بلاغته...».[16]

يفهم من هذه الفقرة، أنّ عربيّة القرآن الكريم، هي مناط إعجازه، وأنّ مقوّمات إعجازه البياني، قد اكتسبها من مقوّمات اللّغة العربيّة، وما تكتسبه من خصائص ولهذا كانت مسلكًا مهمًّا لهداية بعض فصحاء العرب لاعتناق الدِّين الإسلامي.

وفي محور آخر، صاغه الأستاذ (محمّد الصّالح الصدّيق)، في شكل تساؤل مفاده: «لِمَ لا يتأثّر النّاس اليوم بالقرآن الكريم، فيقرأونه ويسمعونه صباح مساء دون أن يحرّك فيهم شعرة، أو يثير فيهم همّة؟».[17]

ثمّ أوجز الإجابة في عدّة أسباب:

«**أولّها:** الجهل الفاضح باللّغة العربيّة، ومناهج نثرها، وضروب بلاغتها، وطرق أدائها، فليست اللّغة العربيّة مجرّد ألفاظ أو قواعد في النّحو والصّرف، وحتّى هذه فمعظم قرّاء القرآن لا يعرفونها، بل يجهلونها كل الجهل!؛

ثانيها: عدم التدبّر في القرآن الكريم، فالذين يتلونه لا يتجاوز ألسنتهم وحناجرهم إلى عقولهم، وقلوبهم ومشاعرهم، قال **الله** تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمّد:24]، ولكنّهم لا يتدبّرونه ولا يحسنون الإصغاء إليه، والاتّصال به والأخذ عنه!؛

ثالثها: اعتقاد معظمهم أنّ القرآن كتاب يُقرَأ للتّبرك والتّعّبد والتماس الأجر والثّواب، وليس كتاب حياة، ومدرسة عظمى لتخريج بحّاثة الحياة، وصنّاع التاريخ وأبطال الحروب، وساسة الأُمَم والشّعوب!».(18)

وبعدها تطرّق المؤلّف، إلى محور آخر وسمه بـ"موقف أعلام الفكر الغربي من إعجاز القرآن".(19)

ناقش من خلاله أقوالا اعترف بها مفكّرون وفلاسفة غربيّون، بمكانة القرآن الكريم الرّفيعة، ودرجته المتميّزة في الفصاحة والبلاغة، وأثره العميق في العقول وعالم الفكر، وبما يمكن أن يقدّمه للحضارة الإنسانيّة جمعاء.

وبعد أن قدّم أوجه الإعجاز بشكل مجمل وموجز، خصّص محورًا هامًّا تطرّق من خلاله، إلى أوجه الإعجاز، بشيء من التّفصيل، عنونه بـ"أوجه الإعجاز بالتّفصيل".

وقبل بدئه في دراستها، أشار إلى نقطة مهمّة، قائلا:

«وقبل ذلك نلاحظ أنّ القرآن الكريم سيظلّ مدى الحياة معجزًا لقوى البشريّة جمعاء تنقضي أجيال وأجيال وتمضي، ويبقى هذا الكتاب المبين يتحدّى ويعلن أنّه كتاب **الله**، وإذا كان أعلام الفكر الإسلامي قد درسوا القرآن بعمق، ووقفوا على إعجازه وحصروا أوجهه، فإنّ ذلك لا يمنع –في نظرنا– أن يظهر في مستقبل الأيّام

أوجه أخرى سوف يهتدي إليها مفكّرون آخرون، ويقفوا على ما لم يقف عليه علماء الأمس الدّابر ومفكّروه، لأنّ العلم في تقدّم مدهش، والحياة في تطوّر هائل، فما نراه اليوم نهاية التفكير في قضيّة ما قد يراه علماء الغد ومفكّروه بدايته، وما نعتقد اليوم أنّه لا يرضخ للبحث والمناقشة لبداهته أو ظهوره، قد يكاشفنا المستقبل بأنّ فيه جوانب لم تطرق بعد، فمادام القرآن يفتح أمام البشريّة آفاق العلم، ويسوقها إلى المزيد من المعرفة، ويعلّمها أنّ ما بيدها من العلم والمعرفة قليل: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء:85] ويحرّضها دائمًا أن تأخذ بأسباب الرّفعة والكمال، فإنّ أهل العلم والمعرفة الذين سيفدون إلى هذا الوجود، ويغوصون في أعماق هذا الكتاب المعجز سيعثرون على جوانب أخرى من الإعجاز لم يعثر عليها من قبلهم!».(20)

وبعد هذا التّمهيد، ذكر الأستاذ (محمّد الصّالح الصدّيق)، أنّه للعلماء الذين خاضوا غمار الإعجاز، آراء في بيان وجوهه، والسّر الكامن وراءه، بين من ذهب إلى أنّ القرآن الكريم فوق الطّاقة البشريّة وفوق مقدورها، وهو أنّ فصحاء البشر عاجزون عن مباراته بالقوّة والفعل، وهذا المذهب هو الذي تبنّاه (الباقلاني) في كتابه "إعجاز القرآن".

ثم أقرّ الأستاذ، بأنّه من الذين يتبنّون هذا الموقف، عند قوله:

«وهو الذي نرتضيه وتطمئنّ إليه نفوسنا وضمائرنا، ومعنى ذلك أنّ إعجاز القرآن كامن فيه، ومنبعث من ذاته، وقائم به، لا ينفك عنه، فمن أراد أن يعرف إعجازه فلابدّ أن يبحث عنه فيه».(21)

ونفهم من هذا الرّأي، أنّ إعجاز القرآن الكريم، يكمن في البحث عن أسراره والتّدبّر في آياته، ومحال أن يجاريه فصحاء البشر، عبر العصور كلّها، وليس فترة التّحدّي والمعارضة فقط.

ويقابل هذا المذهب–حسب رأي المؤلّف– المذهب الذي تبنّاه إبراهيم النظّام وهو أنّ «القرآن تحت طاقة البشر ومقدورهم، وهم عاجزون عن مجاراته بالفعل لا

بالقوّة، وهؤلاء هم أصحاب القول بـ (الصَّرفَة) (*) إلى أنّ **الله** تعالى هو الذي صرفهم وأعجزهم عن مجاراته».[22]

ثم انتقل المؤلّف، إلى عرض مجموعة من وجوه الإعجاز القرآني، مهّد لها بقوله:

«وإليك -قارئي الكريم- بعد هذا التّمهيد والملاحظات طائفة من وجوه الإعجاز نذكرها بشيء من التّفصيل، وإن كان العلماء المعنيّون بالإعجاز قد أسهبوا فيها وأطنبوا، ومنهم من أفردها بالتّأليف، وليس ما نذكره نحن إلا غرفة من بحر، وذرّة من رمل!».[23]

ولأنّ المقال لا يتّسع لعرض كل التّفصيلات التي درسها المؤلّف، حول وجوه الإعجاز القرآني، من حيث الشّواهد القرآنيّة التي اعتمدها، أو المقارنة بين آراء العديد من العلماء والباحثين.

لخصّناها - بدورنا- في النّقاط التالية:[24]

- **الوجه الأوّل:** الأسلوب البياني؛

ركّز من خلاله على خصائص الأسلوب البياني للقرآن الكريم، ومن أهمّها:

1- مسحة القرآن اللفظيّة؛

2- جودة السّبك؛

3- ائتلاف أسلوب القرآن مع معانيه؛

4- سمو الأسلوب القرآني في الأغراض العلميّة؛

5- جاذبيّة النّغم القرآني؛

6- إرضاؤه العام؛

7- إرضاؤه العقل والعاطفة؛

8- البراعة في تصوير وتحدّي المعاني، وتعميق المشاعر؛

9- ضرب الأمثال؛

10- التكرار.

- **الوجه الثاني:** الإخبار عن الغيب؛

ومن أنواع الأخبار الغيبيّة الكثيرة الموجودة في القرآن الكريم، تطرّق الأستاذ (محمّد الصّالح الصدّيق)، إلى ثلاثة أنواع، هي:

1- الإخبار عن غيب الماضي؛

2- الإخبار عن غيب الحاضر؛

3- الإخبار عن غيب المستقبل.

- **الوجه الثالث:** الإعجاز التّشريعي؛

- **الوجه الرّابع:** شمول التّشريع القرآني وعمومه؛

- **الوجه الخامس:** الإعجاز الخُلُقِي؛

- **الوجه السّادس:** اتّساق نظريّات القرآن وأحكامه؛

- **الوجه السّابع:** الإعجاز الحسابي؛

- **الوجه الثّامن:** الإعجاز العلمي.

ومن المحاور المهمّة التي تطرّق لها المؤلّف، في هذا النّوع من الإعجاز القرآني، هي:

1- تساؤله عن كيفيّة ظهور الحياة على الأرض؛

2- الإعجاز في خَلق الإنسان؛

3- قصّة التّشريح؛

4- نزول المطر؛

5- أهمّية الماء؛

6- الرّعد والبرق والسّحاب؛

7- مواقع النّجوم؛

8- الفضاء اللامتناهي؛

9- هل في الكواكب مخلوقات حيّة؟؛

10- الضّغط الجوّي ...إلخ.

- **الوجه التّاسع:** الإعجاز النّفسي؛
- **الوجه العاشر:** القرآن منبع علوم وفنون شتّى؛
- **الوجه الحادي عشر:** القرآن من كل لسان؛

وفي محور خاص، تطرّق الأستاذ (محمّد الصّالح الصدّيق)، إلى رأيه الشّخصي في قضيّة الإعجاز بشكل عام؛ حيث عنونه بـ"رأينا في الإعجاز".

وممّا قاله في هذا الصّدد:

«لله تعالى كتابان عظيمان تجلّت فيهما قدرته وحكمته: أحدهما مقروء والآخر مرئي مشاهد، فالمقروء هو القرآن الكريم الذي أنزله على عبده المصطفى محمّد ﷺ هدًى ونورًا، يهدي للتي هي أقوم، ويحيط بكل شيء، ولا تحيط عقول البشر بما فيه من أسرار التّنزيل، وحقائق الوجود، إذ هو كتاب الدّهر كلّه وكتاب الإنسانيّة جميعها وكتاب الدّنيا والآخرة معًا، تحدّى الله به العرب مع أنّهم ملكوا زمام الفصاحة والبلاغة، فأمرهم مرّة أن يأتوا بعشر سور مثله ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هود:13]، وأمرهم مرّة أخرى أن يأتوا بسورة من مثله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة:23]، ولكنّهم عجزوا عجزًا ذريعًا فاضحًا، وسجّل الله عليهم هذا العجز، فقال:

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾

[البقرة:24]، وقال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:88] والعرب كانوا في غاية العداوة للرّسول ﷺ الذي نزل عليه القرآن، وفي غاية من الحرص على إبطال ما جاء به فلو كان في وسعهم وإمكانهم أن يأتوا بسورة من القرآن لما تردّدوا في ذلك ولتظاهروا عليه ولكنّهم لم يفعلوا!...».[25]

يفهم من هذا الكلام، أنّه لله (ﷻ)؛ كتابان، تجلّت فيهما قدرته وعظمته:

- أحدهما: مرئي مشاهد، وهي الآيات التي تحثّ على التّدبّر في قدرته (ﷻ) المتجلّية في خلقه للكون؛

- وأمّا الكتاب الآخر، فهو الكتاب المقروء؛ أي القرآن الكريم.

فيما ركّز الأستاذ، على الكتاب الثاني وما يحمله من إعجاز بياني، تحدّى به **الله** (ﷻ) العرب، وهم أهل البيان، في الفترة التي شهدها تنزيل القرآن الكريم على قلب النّبي (محمّد ﷺ).

وقد تدرّج المؤلّف في عرض أدلّة من القرآن الكريم، فيها تصريح بالتّحدّي والمعارضة:

- أوّلا: أن يأتوا بعشر سور مثله؛

- ثانيًا: أن يأتوا بسورة من مثله؛

- ثالثًا: إثبات عجزهم عن الإتيان بمثله؛

- رابعًا: تأكيد هذا العجز، بأنّه لو اجتمعت الإنس والجن على الإتيان بمثله، لما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

ثمّ تحدّث المؤلّف، عن تجربة كان قد خاضها، منذ أن كان طالبًا بالجامعة الزيتونيّة، وعن هذه التّجربة، قال:

«قمت ذات يوم بالتّجربة التالية وأنا طالب بالجامعة الزيتونيّة، أعددت أربعة نصوص، واحدًا نصًّا قرآنيًّا من سورة ق، والثلاثة لجهابذة الفصاحة والبلاغة وهم الجاحظ، وعبد الحميد الكاتب، والزيّات، فقرأتها على شخص أمِّي لا يقرأ ولا يكتب فقلت له من بين هذه النّصوص نصّ من كتاب **الله** فما هو؟ ولمّا فرغت من قراءتها عليه ميّز القرآن عن غيره، بأنّه حينما كان يسمع إليه اعتراه تهيّب، وخشوع، رغم أنّني تلوته بغير صوت حسن!.

تلك هي -قارئي الكريم- روحانيّة القرآن التي تظهر للعالم العارف بما لا يحتاج إلى بيان، وتظهر للجاهل الأمّي بالتّأثير كما ذكرنا!».[26]

وقبل وجوه الإعجاز القرآني، التي سبق له ذكرها، تكمن النّقطة المحوريّة التي يرتكز عليها الإعجاز القرآني -بحسب رأي المؤلّف- في روحانيّة هذا الكتاب المقدّس، وعن هذه الرّوحانيّة، قال: «إنّ (الرّوحانيّة) التي نعنيها تنفذ إلى أعماق الإنسان وسويداء ضميره وتستولي على مشاعره وأحاسيسه، وتفعّل فيه العجاب وتخلقه خلقًا جديدًا!».[27]

وتكمن هذه الرّوحانيّة، في أنّ القرآن الكريم ينقسم من حيث إعجازه إلى كتابين اثنين، الأوّل منهما، هو الكتاب الحرفي، الذي يعتمد على البيان والفصاحة؛ أي هو كتاب مقروء، وأمّا الكتاب الثاني، فهو الكتاب المرئي المشاهد، الذي تعبّر عنه آيات خلق السّماوات والأرض، والكواكب...إلخ.

ومن حيث خصوصيّة كل كتاب منهما، من جهة وجوب تدبّره، قال الأستاذ (محمّد الصّالح الصّدّيق):

«فإذا كان الكتاب المقروء قد عرضه **الله** على الإنسان ليقرأه، ويتأمّله ويتمعّن فيه، ويتدبّره، ليستنبط، ويكتشف، ويستجلي، ويرى ويصل، فإنّ الكتاب المرئي المشاهد، قد عرضه **الله** على الإنسان أيضًا لينظر فيه نظر تأمّل، وتفكّر ودراسة ليرى ما وراء ذلك من حقائق، وأسرار، وعجائب وغرائب!».[28]

ثمّ عرض بعض الأدلّة من القرآن الكريم، التي تقرّر بوجوب تدبّر هذين الكتابين، وهي قوله تعالى «في شأن القرآن المقروء ووجوب تدبّره: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمّد:24]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر:17، 22، 32، 40]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الزّمر:27]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾ [الإسراء:41].

وقال تعالى في شأن القرآن المرئي ووجوب النّظـر فيـه: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [يونس:101]، وقال: ﴿ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الأعراف:185]، وقال: ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ ﴾ [يوسف:109]».[29]

وبعدها ناقش المؤلّف، مدى استجابة المسلمين الأوائل، لأمر ربّهم بالنّظر في الكتاب المقروء، عندما عكفوا على تلاوته، وفهمه، واستجلاء أسراره، وفتح مغلقاته وحلّ غوامضه، كما استجابوا أيضًا لربّهم، في النّظر إلى الكتاب المرئي، فأخذوا على عاتقهم دراسة آياته، وفهم حِكَمِهَا وأسرارها.

ولهذا كانت نتيجة ذلك، هي ظهور حضارة إنسانيّة لم يعرف التّاريخ في ماضيه وحاضره، ولا حتّى في مستقبله، نظيرًا لها، فبحسب رأي المؤلّف –دائمًا– تلك الحضارة «قوامها الرّوح بالكتاب المقروء، والمادّة بالكتاب المرئي المشاهد.. تلك الحضارة التي كانت أرضيّتها الكتاب المقروء، ثمّ علا صرحها بالكتاب المرئي، وإن شئت قلت، ثمّ نمت وترعرعت دوحتها وامتدّ ظلّها بالكتاب المقروء، ثمّ كانت المعجزة الخالدة أن انبسط ظلّها على الكون!».[30]

ثمّ دعّم المؤلّف رأيه، بأن قال:

«ولا إخال الإنسانيّة قد جريت رشدًا في سعي، واستقامة في بر، وائتلافًا في سلام، وتآخيًا في حب، وتكافلا في عدل، وأمنًا من خوف إلا في هذه الحضارة التي أسّسها القرآن الكريم المقروء، وشيّدها كتاب الله المرئي، وهذا إعجاز مدهش للغاية!.

وتتجلّى عظمة الخالق سبحانه وتعالى في هذين الكتابين، وفي هذا التّكامل المثير المدهش بين الرّوح الذي يمثّله الكتاب المقروء، والمادّة التي يمثّلها الكتاب المرئي أمّا النّظام البديع في كِلا الكتابين فشيء من وراء العقول لا يملك الإنسان إزّاءه إلا أن يكبّر ويقول من أعماقه: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ ﴾[آل عمران:191]».[31]

ولهذا تظهر قيمة الإنسان المفكّر «في مدى تعامله مع هـذين الكتـابين: الكتـاب النّظري، والكتاب التّطبيقي، والمؤمن المفكّر هو الذي يتفاعل بالكتابين وينتفـع بهمـا وينفع، ويحاول جهد طاقته أن يسهم بمحصوله العلمي منهما في بناء الحياة وصـنع التّاريخ!».[32]

وكذلك يرى المؤلّف، أنّ العبادة ليست مقصورة على التعبّد بالصّلاة على سـبيل المثال؛ بل من التّعبّد التّفكير في الكون والنّظر فيه، فحديث «القرآن عن الكون يُتعَبَّـد به لفظًا، ويجعل المتعبِّد يخشع لإعجازه البياني أو اللّفظي، ويتعبّد به في واقعه معنًى في هذا الكون الفسيح، فيجعل المتعبِّد يخشع لإعجازه العلمي!».[33]

وعن طريق الإخاء بين الأجيال الصّاعدة «الذي يمتدّ مع الـزّمن بـلا حـدّ ولا انقطاع: إخاء برّ ورحمة، إخاء علم ومعرفة، هو إعجاز باهر للقرآن أيضًا!.

وهكذا فأين اتّجهت في الكتاب المقروء، أو الكتاب المرئي، رأيت صورًا بـاهرة من الإعجاز، فسـبحان العزيـز الحكـيم الـذي قـال:﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام:38]».[34]

وبعد أن أتمّ الأستاذ (محمّد الصّالح الصّدّيق)، هذا المحور المهم من كتابه تطـرّق إلى عرض المشاهير الذين كتبوا في الإعجاز القرآني، علـى اخـتلاف توجّهـاتهم الفكريّة والعقديّة، وعلى اختلاف رؤية كلّ واحد منهم حول قضيّة الإعجاز القرآنـي حيث بدأ المؤلّف من (أبي إسحاق إبراهيم النظّـام)؛ أي بـدءًا مـن القـرن الثالـث الهجري، وصولا إلى الباحث (شكري فيصل)؛ أي إلى غاية القـرن الرّابـع عشـر للهجرة.[35]

ثمّ وظّف مجموعة من المقالات لعدّة باحثين كتبوا في الإعجاز القرآني، في شكل ملاحق، وضعها قبل خاتمة كتابه، وهي:[36]

– **الملحق الأوّل:** نظرة في الإعجاز البياني القرآني لـ (محمّد الغزالي)؛

- **الملحق الثّاني:** نحو وجهة جديدة في إيضاح إعجاز القرآن لـ (شكري فيصل)؛

- **الملحق الثّالث:** إعجاز القرآن المجيد وشواهد إلهيّة مصدره لـ (مصطفى أحمد الزرقاء)؛

- **الملحق الرّابع:** الإعجاز اللّفظي والعددي والحسابي لـ (محمّد رشاد خليفة)

- **الملحق الخامس:** مفردات القرآن لـ (مصطفى صادق الرّافعي).

3- في الخطاب الختامي للكتاب: ممّا تحدّث عنه المؤلّف في خاتمة كتابه، هو وجود قصور يعتري الإنسان الباحث عند محاولته لتقصّي العديد من الحقائق المحيطة بقضيّة الإعجاز القرآني، وهذا ما عبَّر عنه بقوله:

«إذا كان إعجاز القرآن بحرًا واسعًا لا ساحل له، وطريقًا ممدودًا لا نهاية له فلابدّ أن يتوقّف الفكر والقلم عند هذا الحد، لأنّ الطّمع في التّقصّي والإحاطة طمع في المحال، ولأنّهما قد وفّيا ببعض المطلوب، وحصل لهما شرف الإسهام في خدمة القرآن».(37)

* **خاتمة:** بعد هذه الإطلالة الموجزة، في كتاب "من روائع الإعجاز" للأستاذ (محمد الصّالح الصّدّيق)، تجلّت لنا رؤيته الخاصّة لقضيّة الإعجاز في القرآن الكريم وعلاقته باللّغة العربيّة، لخّصناها في عدّة نقاط رئيسيّة أجابتنا على الإشكال الذي طرحناه في المقدّمة، وهي:

1- يعدّ الأستاذ (محمّد الصّالح الصّدّيق)، ممّن يتبنّون الجمع بين نوعين من الإعجاز القرآني؛ إذ يكمن النّوع الأوّل في بيانه، ويكمن الثاني في ما جاء به من مضامين، مع شرط الأسبقيّة للإعجاز البياني؛

2- إنّ نظرة الأستاذ (محمّد الصّالح الصّدّيق)، إلى العلاقة القائمة بين القرآن الكريم واللّغة العربيّة، ليست محصورة في كونها لغة هذا الكتاب المقدّس وفقط؛ بل في كونها أهم مصدر من مصادر إعجازه البياني؛

3- يصنّف الأستاذ (محمّد الصّالح الصّدّيق)، الحملات المناوئة للّغة العربيّة، في أنّها جزء من سياسات استعماريّة تغريبيّة، هدفها طمس مقوّمات الوحدة الوطنيّة وتلاحم الشّعوب العربيّة فيما بينها؛

4- تكمن رؤية الأستاذ (محمّد الصّالح الصّدّيق)، إلى علاقة القرآن الكريم باللّغة العربيّة، في أنّها علاقة وجود وغياب؛ أي أنّ وجود القرآن الكريم متعلّق بوجود اللّغة العربيّة، وبأنّها ظلّت في مستوى هذا الوحي، في جميع المستويات اللغويّة؛

5- إنّ عربيّة القرآن الكريم، هي مناط إعجازه، وإنّ مقوّمات إعجازه البياني، قد اكتسبها من مقوّمات اللّغة العربيّة، وما تكتسبه من خصائص، ولهذا كانت مسلكًا مهمًّا لهداية بعض فصحاء العرب لاعتناق الدِّين الإسلامي؛

6- من أسباب عدم تأثّر النّاس في هذا الزّمان بالقرآن الكريم، هو الجهل الفاضح باللّغة العربيّة، ومناهج نثرها، وضروب بلاغتها، وطرق أدائها...إلخ؛

7- إنّ إعجاز القرآن الكريم، يكمن في البحث عن أسراره والتّدبّر في آياته ومحال أن يجاريه فصحاء البشر، عبر العصور كلّها، وليس فترة التّحدّي والمعارضة فقط؛

8- عدّ الأستاذ (محمّد الصّالح الصّدّيق)، إحدى عشر وجهًا من وجوه الإعجاز القرآني؛

9- تكمن النّقطة المحوريّة التي يرتكز عليها الإعجاز القرآني -بحسب رأيه- في روحانيّة هذا الكتاب المقدّس، وهي أنّ القرآن الكريم، ينقسم من حيث إعجازه إلى كتابين اثنين: أحدهما مقروء، ويجسّده الإعجاز البياني، وأمّا الآخر، فهو كتاب مرئي مشاهد، وتجسّده الآيات التي تحثّ على تدبّر خَلق الكون؛

10- خَلُصَ الأستاذ (محمّد الصّالح الصّدّيق)، إلى وجود قصور يعتري الإنسان الباحث عند محاولته لتقصّي العديد من الحقائق المحيطة بقضيّة الإعجاز القرآني.

وفي الأخير: هذا ما تيسّر لنا إعداده، وتهيّأ لنا إيراده، والصّلاة والسّلام على محمّد وعلى آله وأصحابه، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

*** الهوامش:**

(*) ينظر سيرة مختصرة عن حياته: ويكيبيديا، الموسوعة الحرّة، على الرّابط التالي: https://ar.wikipedia.org/wiki، شوهد بتاريخ:29 يوليو 2019م، على السّاعة:22:07.

(1) محمّد الصّالح الصّدّيق، من روائع الإعجاز، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر؛ ط02: 2017م، ص.ص11-12.

(2) المصدر نفسه، ص12.

(3) المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.

(4) المصدر نفسه، ص13.

(5) المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.

(6) ينظر: المصدر نفسه، ص.ص15-23.

(7) المصدر نفسه، ص15. وينظر: أبو الحسين مسلم بن الحَجَّاج، صحيح مسلم، دار السّلام الرّياض-السّعوديّة؛ ط02:1421هـ/2000م، ص77.رقم الحديث [152]. ولفظ الحديث في صحيح البخاري، قوله ﷺ:«مَا مِنَ الأَنبِيَاءِ نَبِيٌّ إلا أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلَهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ وإنَّمَا كَانَ الذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ **الله** إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ»، أبو عبد **الله** محمّد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق-سورية؛ ط01:1463هـ/2002م، ص1273.رقم الحديث [4981].

(8) محمّد الصّالح الصّدّيق، من روائع الإعجاز، مصدر سبق ذكره، ص23.

(9) المصدر نفسه، ص25.

(10) المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.

(11) المصدر نفسه، ص.ص26-28.

(12) ينظر: المصدر نفسه، ص.ص29-43.

(13) المصدر نفسه، ص.ص43-44.

(14) المصدر نفسه، ص.ص45-46.

(15) المصدر نفسه، ص46.

(16) المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.

(17) المصدر نفسه، ص47.

[18] المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.

[19] ينظر: المصدر نفسه، ص.ص48-50.

[20] المصدر نفسه، ص51.

[21] المصدر نفسه، ص52.

[*] يُقصَدُ بــ"الصَّرْفَة"، هي «أنّ الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها فكــان هذا الصَّرف خارقًا للمادّة»، مصطفى صادق الرّافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان؛ط03:1425هــ/2005م، ص101.

[22] محمّد الصّالح الصّدّيق، من روائع الإعجاز، مصدر سبق ذكره، ص52.

[23] المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.

[24] ينظر: المصدر نفسه، ص.ص52-113.

[25] المصدر نفسه، ص114.

[26] المصدر نفسه، ص.ص115-116.

[27] المصدر نفسه، ص116.

[28] المصدر نفسه، ص117.

[29] المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.

[30] المصدر نفسه، ص118.

[31] المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.

[32] المصدر نفسه، ص119.

[33] المصدر نفسه، الصّفحة نفسها.

[34] المصدر نفسه، ص.ص119-120.

[35] ينظر: المصدر نفسه، ص.ص120-138.

[36] ينظر: المصدر نفسه، ص.ص141-211.

[37] المصدر نفسه، ص213.

أثر القرآن في نشأة النحو، ودلالة المقولات النحوية في تفسير النص القرآني

أ. سليمان بوراس
جامعة المسيلة

الملخص: لا أحد ينكر أن النحو العربي إنما نشأ لحاجة ماسة إلى خدمة النص القرآني، إذ لما دخل الأعاجم الإسلام وحدث منهم اللحن في الأصوات واللحن في الأبنية النحوية، وهو ما صار يهدد النص، هرع المخلصون من الحكام والعلماء إلى البحث عن الترياق الشافي والعلاجي الواقي لما حدث، فكان أن هداهم صفاء الفطرة ونقاء السريرة إلى استنباط الأحكام النحوية التي تضبط كلام المتحدث العربي، ثم تطور هذا العلم وصار أهله من المفسرين يستخدمون مقولاته للاستدلال على معاني خفية في النص القرآني المقدس، ولسنا نقصد ههنا الجانب الأعرابي من فاعلية ومفعولية وإضافة، ولكن المقصود هو أن الأبواب النحوية لما تستعمل في التركيب القرآني تكون لها دلالات عجيبة ومواطن جمال تدعونا فعلا إلى أن نقرأ القرآن وفق ذلك، فمن ذلك قوله تعالى في سورة يوسف: قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنْ الْهَالِكِينَ، فالمستعمل في الآية من المقولات النحوية كالقسم بالتاء بدل الواو، واستعمال الفعل الناقص فتئ، واستعماله دون النفي بما، واستعمال خبره جملة، كلها مما ندر في الاستعمال النحوي العربي، ومنه كأن الآية تقول لنا جميعا إن يعقوب نادر في البشر كما هي ندرة الاستعمالات في الآية.

المداخلة: يطلق لفظ النحو لغة على معان عديدة منها: القصد: يقال: نحوت نحوك، أي قصدت قصدك، ويطلق على الجانب أو الجهة: تقول: سرت نحو المسجد أي جهة المسجد، ويطلق على المقدار تقول: له عندي نحو عشرة كتب، أي مقدارها ويطلق على المثل: تقول لقيت شخصا نحوك أي مثلك، ويطلق على النوع أو القسم: ومنه قولهم: البلاغة ثلاثة أنحاء، أي ثلاثة أنواع، ويطلق على البعض تقول: أكلت

نحو سمكة أي بعض السمكة، وقد سبق هذا المفهوم بمصطلحات منها الكلام والإعراب والعربية[1]، ولعل المصطلح الأول يتجلى في قصة أبي الأسود الدؤلي حينما فشا اللحن في العربية وسمع منهم ذلك فقال: **هؤلاء الموالي قد رغبوا في الإسلام فدخلوا فيه فصاروا لنا إخوة فلو علمناهم الكلام**، أما مصطلح الإعراب فقد جاء في مقولة عمر بن الخطاب لما أمر أبا الأسود الدؤلي أن يعلم أهل البصرة فقال: **وليعلم أبو الأسود أهل البصرة الإعراب**، وأما المصطلح الثالث وهو العربية، وقد ورد في مقولة ابن سلام الجمحي متحدثا عن أبي الأسود الدؤلي: **أول من أسس العربية وفتح بابها وأنهج سبيلها ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلي.**

أما اصطلاحا فحده: علمٌ بأصولٍ يعرف بها أحوالُ الكلم إعرابا و بناءً ، ونود هنا أن نورد بعضا من تعريفات العلماء لعلم النحو من أجل الإفادة، فابن السراج (ت 316 هـ) يعرف النحو في كتابه أصول النحو بقوله: النحو أريد أن ينحو المتكلم إذا استعمله كلام العرب، وهو علم استخرجه المتقدمون من استقراء كلام العرب "[2]، **وابن جني:** يعرف النحو بقوله "هو انتحاء سمتِ كلامِ العربِ في تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية، والجمع، والتحقير، والتكسير، والإضافة، والنسب، والتركيب، وغير ذلك، ليلحق من ليس من أهل العربية بأهلها في الفصاحة، فينطق بها وإن لم يكن منهم، وإن شذ بعضهم عنها رد به إليها[3] والملاحظ أنه من خلال هذا التعريف يبدو ابن جني مميزا بين النحو الذي سماه الإعراب والذي يعنى بالكلمة داخل المنظومة الكلامية والتراكيب وبين الصرف الذي يعنى بالكلمة المفردة بعيدا عن التركيب من حيث التثنية والجمع والتصرف والمنع وصيغ التصغير والتحقير، و**ابن عصفور** (ت 669 ه) يقول: علم مستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب الموصلة إلى معرفة أحكام أجزائه التي يأتلف منها، و**ابن حيان** (ت 745 ه) يقول: النحو علم بأحكام الكلمة إفرادا وتركيبا، أما **الفاكهي** (ت 971 ه) فيعرفه في كتابه الحدود النحوية بقوله: علم بأصول يعرف بها أحوال أواخر الكلم إعرابا وبناء.

للنحو أهمية كبيرة في حياة المرء خاصة إذا كان من المتعلمين[4]، وقد قال فيه أبو إسحاق النهرواني:

النحو يبسط من لسان الألكن والمرء تكرمه إذا لم يلحن

وإذا طلبت من العلوم أجلها فأجلها منها مقيم الألسن

وقال آخر:

النحو صعب وطويل سلمه إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه

زلت به إلى الحضيض قدمه يريد أن يعربه فيعجمه

قال الشاعر:[5]

يا حبذا النحو من مطلب تعالى به قد طلابه

كأن العلوم له عسكر وقوف خضوع على بابه

وقال آخر في أن النحو والعلم عموما إنما يؤخذ عن شيخ معلم

من يأخذ العلم عن شيخ مشافهة يكن من الزيف والتصحيف في حرم

ومن يكن آخذا للعلم من صحف فعلمه عند أهل العلم كالعدم

فهو كما قال الشاعر ذو قيمه جليلة، وتعلمه من الأمور الواجبة حتى يرفع المتكلم مقامه بين السامعين؛ ذلك أنه قد تخطيء المتحدث فينحرف المعنى انحرافا كبيرا عن المقصود، يحكى أن رجلا سأل أعرابيا قال: كيف أهلِك (بكسر اللام) فقال الأعرابي صلبا، ومقصد الأول كيف أقاربك، لكن الجواب جاء على قدر ما كان السؤال فقد كان معناه بأية طريقة يكون هلاكي.

إن القارئ لكثير من الروايات التي وردت حول بداية الجهود العربية النحوية ليدرك أن النحو العربي فعلا إنما كان سببه الإعراب والمحافظة عليه، إذ تربط كثير من الروايات أن النشأة إنما كانت حينما اختلط العرب بغيرهم من الأمم الأخرى

وكانت رغبة غير العرب أن يتعلموا العربية لأنها لغة دينهم، ومن غير الممكن أن يتعلموها بين عشية وضحاها، فكانت مرحلة انتشر فيها اللحن، وكان ذلك داعيا كبيرا للعلماء ليتحركوا وينتجوا علم النحو.

وإذا كان جَمْعُ القرآن يمثل الخطوة الأولى في سبيل العناية به، فإنَّ وَضْعَ علم النحو يمثل الخطوة الثانية في سبل المحافظة على سلامة أداء النص القرآني، بعد أن أخذ اللحن يشيع على ألسنة الناس، ولم يكن نزول الوحي قلبًا للجوانب العَقَدية في حياة الناس فحسب، بل كان أيضًا قلبًا للعادات اللغوية التي تربوا عليها، إذ واجه العرب في قراءة القرآن ظواهر منها تعدُّد اللهجات، واختلافها في القرب مِنْ لغة القرآن أو البعد عنها، ولهذه اللغة من قواعد النطق ما لا يسهل إتقانُه على جميع المتلقِّين يومئذ، ولابد لهم من المران حتى يألفوا النص الجديد.

وقد أجمع الذين تصدَّوا للحديث عن نشأة علوم العربية على أنَّ القرآن الكريم كان الدافع الرئيس لعلماء السلف لوَضْع علم النحو والإعراب؛ وذلك لأنَّ ظهور اللحن وتَفَشِّيه في الكلام، وزحفه إلى لسان مَنْ يتلو القرآن هو الباعث على تدوين اللغة واستنباط قواعد النحو منها، وعلم العربية شأنه شأن كلِّ العلوم تتطلبه الحوادث والحاجات، وليس ثمة من علم يظهر فجأة من غير سابقةِ تفكير وتأمُّل في ما يتعلق به وهذا قد يستدعي غموض نشأة بعض العلوم ومعرفة واضعها.

ويعود التفكير في علم النحو كما ذكرنا إلى ظاهرة شيوع اللحن والخشية على القرآن منها؛ وذلك لأنَّ رغبة العرب المسلمين في نشر دينهم إلى الأقوام المختلفة أنشأ أحوالاً جديدة في واقع اللغة، ما كان العربُ قد عهدوها من قبل، إذ كانت الفطرة اللغوية قبل الإسلام سليمةً صافية، واستمر الحال على هذا في عصر نزول القرآن غير أن الرواة يذكرون أنَّ بوادر اللحن قد بدأت في الظهور في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ومن تلك الروايات أنَّه سمع رجلاً يلحن في كلامه فقال: أَرْشِدوا أخاكم فقد ضل، ويورد الدارسون بعض الروايات على تَسَرُّب اللحن إلى ألسنة الناس في عهد

الخلفاء الراشدين، وذلك أثر من آثار اختلاط العرب الفصحاء بغيرهم من الشعوب غير العربية، ممَّا أضعف السليقةَ اللغوية لديهم، وقد كان اللحن في شكلين:

لحن في الأصوات: وهو ما كان متعلقا بتغيير نطق حرف أو تغيير صفة من صفاته، ومن اللحن في الأصوات والأبنية والصيغ الذي تداولته كتب الأدب والتاريخ والنحو الأمثلة الآتية[6]:

1- النطق بالعين همزة نحو قول زياد النبطي لغلام له: منذ أن دأوتك ماذا كنت تصنأ، وقولهم أربي بدل عربي[7]؛

2- النطق بالحاء هاء نحو قول فيل مولى زياد بن أبيه وقد رجع من البادية: أهدوا إلينا همار وهش؛

3- نطق القاف كافا نحو نطق أبي مسلم الخراساني إذ أنه كان قال: قلت يقول: كلت؛

4- نطق الظاء ضادا فقد كان لرجل بالبصرة جارية تسمى ظمياء، وكان إذا ناداها قال يا ضمياء وكان معه ابن المقفع مرة فنبهه فلما أكثر عليه قال له الرجل: دعني جاريتي أم جاريتك؛

5- نطق الطاء تاء بدل طرق يقولون ترك[8].

غير أن هذا اللحن لم يكن يقلق العلماء لأنه لا يغير قاعدة ولا أصلا كما أنه كان في المسلمين قبل هذه الفترة مسلمون ينطقون العربية برطانة ومنهم سلمان وصهيب وبلال ولم يكن ذلك يقلق المسلمين العرب الأقحاح.

لحن في الأبنية: وهو اللحن الذي حرك الأمة وعلماءها لأنه كان يتعلق بتغيير يمس المعنى، ومنه أنه دخل أعرابي المدينة وطلب إلى الناس أن يعلموه القرآن فانبرى أحد الناس يعلمه سورة براءة فقرأ الآية التي منها " أن الله بري من المشركين ورسوله"، (بكسر اللام في رسوله) وفي ذلك انحراف كبير عن النطق السليم، وقد أورد الرواية ابن الانبارى في نزهة الألباء أنه لما قدم رجل أعرابي في خلافة عمر بن الخطاب فقال من يقرئني شيئا من القرآن فقرأ له أحدهم الآية السابقة بكسر كلمة

رسوله، فقال الأعرابي: إن كان الله قد بريء من الرسول فانا أبرأ منه أيضـــا، فرفـــع الخبر إلى عمر، فدعاه عمر إليه وقال له: يا أعرابي أأنت قلت هذا ؟ قـــال: يـــا أميـــر المومنين أنا رجل لا علم لي بالدين، وقد أقرأنيها الناس كما فهمتها، فكيف هي يا أميـــر المومنين؟ قال: أن الله بريء من المشركين ورسوله (أي بضم اللام في رسوله)، فقال الأعرابي: أنا أيضا أبرأ ممن بريء الله منه وبرئ منه رسوله، فقال عمـــر: لا يقـــرأ القران إلا عالم باللغة[9]، وقيل إن هذه القصة حدثت أيام علي، والروايات متعـــددة فـــي ذلك، وقالوا كان أول لحن سمع بالبادية: هذه عصاتي، وأول لحن سمع بـــالعراق حـــيٍّ على الفلاح[10].

ومن اللحن أن أبا الأسود الدؤلي دخل بيته فقالت إحدى بناتـــه: أبـــت مـــا أحســـنُ السماءِ، قال نجومُها، قالت: لم أرد ذاك، ولكنني أعجبتني السماء، قـــال: فقـــولي: مـــا أحسنَ السماءَ، وقيل إنها قالت له: ما أشدُ الحرِ، فقال: إذا كانت الرمضاء مـــن تحتـــك والصقعاء من فوقك، ومما يذكر أيضا من اللحن أن عمر بن الخطاب وصـــله كتـــاب واليه أبي موسى الأشعري يقول فيه: من أبو موسى الأشعري إلى أمير المومنين عمر .... ، فأرسل إليه عمر أن يجلد كاتبه سوطا ويؤخر له في عطائه، وكان الكاتب يومها هو أبو الحسين ابن أبي الحر العنبري الذي استكتبه أبو موسى بعد زياد، وقيل إنه مـــن اللحن أيضا أنه دخل رجل على زياد بن أبيه فقال: إن أبينا قد هلك، وإن أخينا غصـــبنا ميراثنا، فقال لهم زياد: ما ضيعتم من أمركم أكثر مما أُخِذَ منكم، ومنه أن رجلا دخـــل على الحسن يسأله بعض المال فقال: يا أبو سعيد... ، فقال له الحسن: أَكَسبُ الـــدوانيق شغلك عن أن تقول يا أبا سعيد[11]، ومنه أن أبا حنيفة النعمان بن ثابت –وكـــان لحانـــا– سئل ما تقول في رجل ضربه آخر بحجر فقتله أتقيده به قال: لا، ولو ضـــربه بـــأبو قبيس، و في كلامه كما ترى لحن كبير في قوله بأبو قبيس، إذ كـــان يجـــب أن يقـــول بأبي قبيس.

وكان العرب شديدي العناية بالإعراب وكان حسهم به دقيقا يقظا، يعدونـــه الثقافـــة التامة، والأدب الرفيع، والخلق المهذب، قالوا: اللحن هجنة على الشـــريف، فقـــد كـــان

أيوب السختياني يقول تعلموا النحو، فإنه جمال للوضـــيع وتركـــه هجنـــة للشـــريف[12] ويروون عن عبد الملك بن مروان أنه قال: شيبني ارتقاء المنابر وخوف اللحن، وغلط الحسن في حرفين من القرآن مثل قوله: ص والقرآنُ، والحرف الثاني وما تنزلت بـــه الشياطون[13]، ويروون أن أبا الحسن سمع سابقا الأعمى يقرأ: الخالق الباريء المصوَّر فكان ابن جابان إذا لقيه يقول له يا سابق كيف حال الحرف الذي تشرك بالله فيه، وقـــرأ ولا تَنكحوا المشركين حتى يومنوا، فقال ابن جابان وإن آمنوا أيضا لم ننكحهم[14]، ارتفع إلى زياد رجل وأخوه في الميراث، فقال: إن أبونا مات، وإن أخينا وثب على مال أبانـــا فأكله، فقال زياد الذي أضعت من لسانك أضر عليك مما أضعت من مالك.[15]

ولهذا قال عمر رضي الله عنه: تعلموا النحو كما تعلمون السنن والفرائض، فكـــان العرب ينفرون من اللحن فهذا أبو بكر الصديق يقول: لأن أقرأ فاسقط أحب إلي مـــن أقرا فألحن، وهذا عمر بن الخطاب يمر على قوم يرمون فيستقبح رميهم، فلما حـــدثهم في ذلك قالوا: إنما نحن قوم متعلمين (بنصب كلمة متعلمين وحقها أن تكون مرفوعـــة بالواو والنون) فقال لهم لحنكم أشد علي من سوء رمـــيكم[16]، ومـــن اللحـــن أيضـــا أن أعرابيا سمع مناديا ينادي للصلاة ويقول: أشهد أن محمدا رسولَ الله ،فقال له الأعرابي ويحك يفعل ماذا ؟، ومنه أن أعرابيا دخل السوق فسمع الناس يلحنـــون فقـــال متعجبـــا سبحان الله يلحنون ويربحون ونحن لا نلحن ولا نربح، ومنه أن الحسن البصري قيـــل له: إن لنا إماما يلحن ، قال: أميطوه ، والعرب أمة تمقت اللحن ولـــذلك قـــال قـــائلهم (بسيط):

وألحـــن النـــاس كـــل النـــاس قاطبـــة وكـــان يولـــع بالتشـــديق والخطـــب

وقد فخر السيد الحميري على خصومه فقال(طويل):

وإنـــي لســـاني مقـــول لا يخـــونني وإنـــي لمـــا آتـــي مـــن الأمـــر مـــتقن

أحـــوك ولا أقـــوي ولســـت بلاحـــن وكـــم قائـــل للشـــعر يقـــوي ويلحـــن

ويمكن أن نضيف إلى هذه العوامل ما شاع في الوسط الاجتماعي الذي تعيش فيه الأمة الإسلامية، إذ كان فيه مجموعة من اللغات المتداولة إلى جانب العربية، منها الفارسية والسريانية، وهذا الوسط الاجتماعي سوف يشهد تزاوجًا طبيعيًا بين عناصره من اللغات المختلفة، ممَّا أدى إلى اتساع الفوارق بين اللغة الفصيحة واللغة المحكيَّة ومثل هذه الفوارق تُقلق أصحاب الغَيْرة على لغة القرآن، وبذلك تـرتبط نشـأة النحو بجذور الحياة الإسلامية في ذلك الزمن.

. لقد تحدى القرآن العرب الأولين وهم أرباب الفصاحة صراحة في مواضع عدة منها قوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء 88)، ثم خُفف الأمر عليهم فحاججهم في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ (هود:13)، ولما عجزوا أنقص لهم من سقف التحدي ليظهر لهم عجزهم فقال متحديا بالإتيان بسورة واحدة: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ (البقرة:23)، ولم تعجز عقول العرب وهم أرباب الفصاحة والبلاغة عن رد التحدي فقط، بل لقد انبهرت عقولهم منذ بداية نزول الوحي حتى إنهم كانوا يسترقون السمع، ويتسمَّعون من وراء الجدار إلى القرآن الكريم رافعين رايات العجز مقرين بأن هذا الذي جاء به محمد ليس شعرا، ولا هو بقول الكهان، ولا هو بسجعهم وإنما هو قرآن؛ فهذا الوليد بن المغيرة أحد سادة قريش، وأحد المعروفين فيها بفصاحة لسانهم وهو المعروف أيضا بمعرفته بالشعر وضروبه، يقول بعد أن عاتبه أبو جهل يقول كلاما جميلا يبين انبهاره بالقرآن، فـ"عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال له يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه فإنك أتيت محمدا لتتعرض لما قِبَلَه، قال لقد علمت قريش أني من أكثرها مالا قال فقل فيه قولا يبلغ

قريش أنك منكر له وكاره، قال وماذا أقول؟ فو الله ما منكم أحد أعلم بالشعر مني لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقوله شيئا من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يعلى عليه وإنه ليحطم ما تحته، قال والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه، قال فدعني أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يوثر"[17]، وروى مسلم في صحيحه أن أُنَيساً أخا أبي ذر قال لأبي ذر: لقيتُ رجلاً بمكة على دينك، يزعُمُ أن الله أرسله، قلتُ: فما يقول الناس، قال: يقولون شاعر، كاهن، ساحر، وكان أنيس أحد الشعراء قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر فلم يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون.

وقصة إسلام عمر معروفة مشهورة، فبعد أن كان عمر خارجا ليقتل النبي يحول الوجهة ليقتل صهره، ويقتل أخته، وفي طريقه إلى بيت صهره مستثار الغضب، يريد أن يقتله ويقتل زوجته فاطمة. فما كاد يدنو من الباب حتى سمع تلاوة خافتة لآيات من سورة طه، فدخل يلح في طلب الصحيفة التي لمح أخته تخفيها عند دخوله، ولما وقع ما وقع منه من ضرب لفاطمة وزوجها، بعد أن هدأ روعه وتحركت فيه عاطفة الرحمة، طلب أن يعرف مكان محمد فانطلق من فوره إلى البيت الذي اجتمع فيه المصطفى بأصحابه، فبايعه، وأعز الله الإسلام بعمر، وقد كان من أشد قريش عداوة للإسلام وحرباً للرسول[18].

هذه القصص جئنا بها لندلل على أن أرباب البلاغة تُحُدوا فما ردوا التحدي، ولما نقول هذا الكلام فلكي نُقِرَّ أن بلاغة القرآن فاقت كل بلاغة، وجماله فاق كل جمال وهذا ما نود التعريج عليه على عجل، فإعجاز القرآن أمر متعدّد النّواحي متشعّب الاتّجاهات، ومن المعتذر أن ينهض لبيان الإعجاز القرآنيّ شخص واحد، ولا حتّى جماعة في زمن ما مهما كانت سعة علمهم واطّلاعهم وتعدّد اختصاصهم، إنّما هم يستطيعون بيان شيء من أسرار القرآن في نواح متعدّدة حتّى زمانهم هم، ويبقى

القرآن مفتوحا للنّظر، لمن يأتي بعدنا في المستقبل ولما يجدّ من جديد، وسيجد فيه أجيال المستقبل من ملامح الإعجاز وإشاراته ما لم يخطر لنا على بال"[19].

إن مجالات الإعجاز متنوعة تبدأ من الرسم، فكثير من العلماء يرى أن القرآن معجز بدءا من رسمه، ويعد أول من صرح بذلك عبد العزيز الدباغ[20] من خلال ما نقله عنه تلميذه أحمد بن المبارك السلجماني من جوابه حين سأله عن رسم المصاحف حيث قال: "وكما أن نظم القرآن معجز فرسمه أيضا معجز، وكيف تهتدي العقول إلى سر زيادة الألف في (مائة) دون (فئة) وإلى سر زيادة الياء في (بأييد) في قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ ﴾ (الذاريات47)، أم كيف نتوصل إلى سر زيادة الألف في (سعوا) من قوله تعالى في الحج: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ (الحج51)، وعدم زيادتها في سبأ من قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ﴾ومن مجالات البحث التي تناولها المسلمون أيضا بحثهم في فواتح السور، إذ المعروف أن القران الكريم قد افتتحت سوره الأربع عشرة والمائة بعشرة أنواع من الفنون البلاغية وهي: البدء بحروف التهَجّي في تسع وعشرين سورة (29) نحو: ﴿ق﴾ و﴿طه﴾ و﴿الم﴾، والبدء بالجمل الخبرية في ثلاث وعشرين (23) نحو: ﴿أتى أمرُ الله﴾ و﴿الرحمن علّمَ القرآن﴾، والبدء بالقَسَم في خمس عشرة سورة (15) نحو: ﴿والصَّافات﴾ و﴿الطّور﴾ وغيرها، والبدء بالثناء على الله في أربع عشرة (14) سورة نحو: ﴿الحمد لله﴾ و﴿تبارك﴾ و﴿سبحان﴾، والبدء بالنداء في عشر سور (10) نحو: ﴿يا أيُّها النبيّ﴾ و﴿يا أيُّها الذين آمنوا﴾، والبدء بالشرط في سبع سور (07) نحو: ﴿إذا وقعت الواقعة﴾ و﴿إذا جاءك المنافقون﴾، والبدء بالأمر في ست سور (6) نحو: ﴿إقرأ باسم ربِّك﴾ و﴿قُل هو اللهُ أحَد﴾، والبدء بالاستفهام في ست سور (06) نحو: ﴿عَمَّ يتساءلون﴾ و﴿هل أتاك﴾، والبدء بالدعاء في ثلاث سور (03) ﴿ويلٌ للمطففين﴾ و﴿ويلٌ لكلِّ همزة﴾ و﴿تبّت يَدا أبي لَهب﴾، والبدء بالتعليل في سورة واحدة (01) ﴿لإيلاف قريش﴾.

ومن دقائق بحثهم أن الملاحظ في النوع الأول وهو تسع وعشرون سورة لم يستعمل كل الحروف الهجائية بل يستعمل النصف في كل نوع، فإذا كانت الحروف **المهموسة** عشرة، وهي ما جمع في قولهم: فحثه شخص سكت، فقد استعمل القرآن نصفها، وعددها 5 وهي (ص ك هـ س ح)، وذلك في فواتح سور، مريم، يس فصلت، وإذا كانت الحروف **المجهورة، وهي غير المهموسة** 18 فقد استعمل القرآن نصفها، أي 9 حروف وهي (أ، ل، م، ر، ع، ط، ق، ي، ن) في فواتح الرعد، طه يس، الشورى، القلم، وإذا كانت الحروف الرخوة عشرين حرفا، وهي ما سوى حروف الشدة فقد استعمل القرآن نصفها، وعددها 10 وهي (ح، ر، س، ص، ع، ل م، ن، هـ، ي) وذلك في فواتح سور الحجر، مريم، النمل، الزخرف، القلم، وإذا كانت حروف الشدة ثمانية هي ما جمع في قولهم: "أجد قط بكت" فقد استعمل القرآن نصفها وعددها 4 وهي (أ، ك، ط، ق) وذلك في فواتح العنكبوت، الشعراء، مريم، طه، ق وإذا كانت الحروف المنفتحة أربعة وعشرين حرفا وهي ما سوى المطبقة فقد استعمل القرآن نصفها، 12 حرفا أ، ح، ر، س، ع، ق، ك، ل، م، ن، هـ، ي) في فواتح البقرة، مريم، الشورى، الدخان، القلم، وإذا كانت الحروف المطبقة 4 وهي: (ص ض، ط، ظ) فقد ورد منها في الحروف المقطعة نصفها كذلك، أي حرفان: (ص ط) وذكرت في فواتح ص وطه، وإذا كانت حروف الاستعلاء سبعة جمعت في قولهم "خص ضغط قظ" فقد ورد منها في الحروف المقطعة ثلاثة أحرف هي (ص، ط ق) وذكرت في فواتح السور التالية: ص، النمل، ق، وإذا كانت الحروف المستفلة هي ما سوى المستعلية واحدا وعشرين حرفا فإن القرآن الكريم استعمل نصفها تقريبا في الحروف المقطعة أي أحد عشر حرفا هي (أ، ل، م، ر، ك، ه، ي، ع، س، ح، ن) في فواتح: الرعد، ومريم، وغافر، والقلم، وإذا كانت حروف القلقلة خمسة هي التي جمعت في قولهم: "قطب جد" فقد استعمل منها النصف كذلك تقريبا وهما: ق، ط. اللتان نجدهما في فواتح سورتي طه، ق.

إن العرب وهم أرباب البلاغة وأساطين البيان لم يقدروا على مجاراته ولا تحديه لأنهم عرفوا أنه ليس شعرا ولا سجع كهان، أيقنوا انه ليس سجع كهان فاعترفوا له بذلك ونظروا فيه فوجدوا فيه مواضع التقاطع مع الشعر فأرادوا أن يتهموه بذلك، ولكنه لم يكن شعرا بل هو قرآن، إن القرآن قرآن وليس شعرا، ومع ذلك فإننا نقرأ القرآن فنجد أن الشعر يتقاطع مع القرآن ولكن ذلك لن يجعل القرآن شعرا لأنه لم يقصد به ذلك والشعر هو الكلام الموزون المقفى بالقصد(21)، فإذا لم يكن القصد والنية لم يكن ذلك المقول شعرا(22)، ولذلك قال ابن رشيق: (كل ما كان من هذا النحو إنما يقال فيه متّزن لا موزون) والمعنى: أنه عُرض على الوزن فاتَّـزَن، ونود أن نتدرج في مجالات الإعجاز لنصل إلى الإعجاز في النظم بان نتناول الإعجاز الصوتي ثم الصرفي ثم التركيبي مبينين في كل مستوى ما للقرآن الكريم من تميز وتفرد، دعت الأولين والآخرين إلى الاعتراف له بالسبق.

وفي آية الكرسي وفي غيرها من الايات نجد دلالة على المقولات النحوية ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥ ﴾

فآية الكرسي هي سيّدة آي القرآن الكريم وقد رسمت هندسيا برسم عجيب فهي مبنية على الثنائيات فانظر

1. **الْحَيُّ الْقَيُّومُ**
2. **سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ**
3. **السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**
4. **مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ**
5. **السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ**
6. **حِفْظُهُمَا**

7. **الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**

وقد بدأت بالتوحيد ونفي الشرك وهو المطلب الأول للعقيدة عن طريق الإخبار عن الله، بدأ الإخبار عن الذات الإلهية ونلاحظ أن كل جملة في هذه الآية تصح أن تكون خبراً للمبتدأ (الله) لآن كل جملة فيها ضمير يعود إلى الله سبحانه وتعالى: **الله** لا تأخذه سنة ولا نوم، **الله** له ما في السموات وما في الأرض، **الله** من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه، **الله** يعلم مابين أيديهم وما خلفهم، **الله** لا يحيطون بعلمه إلا بما شاء، **الله** وسع كرسيّه السموات والأرض، **الله** لا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم، فالخلاصة أن الله مبتدأ هذا الكون.

ولننتقل إلى آية أخرى وسورة أخرى وهي سورة يوسف في قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴾ (يوسف 85) حينما نقرأ هذه الآية نحويا نجد أن الآية تتشكل من مقولات نحوية تدل على معنى من المعاني المقصودة، فسياق الآية النحوي يدلنا على ذلك، يقول محمد دراز صاحب كتاب "النبأ العظيم" عن تعالق آيات السورة الواحدة وترابط معانيها: "إعمد إلى سورة من تلك السور التي تتناول أكثر من معنى... وتنقل بفكرتك معها مرحلة مرحلة، ثم ارجع البصر كرتين: كيف بدئت؟ وكيف ختمت، وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت؟ وكيف تلاقت أركانها وتعانقت؟ وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها ووطَّأت أُولاها لأخراها؟[23]، ثم يقول: "إنَّك لتقرأ السورة الطويلة المنجّمة يحسبها الجاهل أضغانا من المعاني حُشيت حَشْوًا، وأوزاعًا من المباني جُمعت عفوًا، فإذا هي لو تَدَبَّرْتَ بنيةٌ متماسكةٌ"[24]، فمثلا انظر في هذه الاية ففيها من ذلك الكثير:

- تَالله هذا أسلوب قسم، والقسم إنما يكون بواحد من الأحرف الثلاثة الجارة الباء والتاء والواو، والواو أكثر الحروف استعمالا وأكثرها دورانا في كلام العرب، ثم تأتي الباء من حيث كثرة الدوران والاستعمال، ثم تأتي التاء وهي الأقل والأندر، ولنركز هنا على معنى الندرة فهو سيتكرر في نقاط عدة.

- تَفْتَأُ ثم تذكر الآية الفعل تفتأ وهو من أخوات كان، وهذه الأفعال تتقسم من حيث كثرة استعمالها إلى عدة أنواع، فأم هذا الباب هي الفعل كان وهو أكثر الأفعال دورانا واستعمالا، ثم تأتي بعده الأفعال (أمسى، أصبح أضحى، ظل، بات، صار، ليس)[25] وهذه الأفعال سابقة الذكر أندر وأقل في الاستعمال مما ذكرنا سابقا، ومنها ما تشترط لعملها أن يتقدمها النفي لفظا أو تقديرا أو الدعاء أو النهي وي: (ما زال، ما برح، ما فتئ، ما انفك)[26]، أو يسبقها حرف مصدري وهي فعل واحد (دام)[27]، فمن النفي الحقيقي قولك: ما زال الجو ممطرا، ومثال النفي المقدر قوله تعالى: قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف، ومن شبه النفي المراد به النهي قول علي بن أبي طالب[28] :

صاح شمر ولا تزل ذاكرَ المو تِ فنسيانه ضلال مبين

وهذه الأفعال أقل في الاستعمال في كلام العرب والملاحظ فيها إنها تستعمل مسبوقة بالنفي وندر أن تستعمل غير منفية، وفي هذه الآية استعملت غير منفية تفتا وانظر كم من المواقع تردد لفظ ندر ونادر

- تَذْكُرُ يُوسُفَ في كلام العرب يغلب أن يكون خبر ما فتيء غير جملة لكننا وجدناه ههنا جملة فعلية وهذا مما ندر في كلام العرب فالمعهود أن يقال تفتا ذاكرا

- حَرَضاً وتعرب خبرا لكان وهذا من النادر في كلام العرب أن يكون خبر كان مصدرا

ومن كل ما سبق نلاحظ أن هناك أمرا ما نادر جدا بالنظر الى تكرار وصف الندرة في مواضع متعددة من الآية الكريمة، ذلك هو يعقوب وصبره إذ ندر أن يوجد مثله في صبره فانظر كيف هو جمال القرآن وعجيب نظمه.

نموذج آخر من نماذج النظم القرآني العجيب قول الله تعالى في سورة هود ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (هود44) هذه الآية تعد أفصح آيات القرآن وأبلغها، فقد روى أن أعرابيا سمع هذه الآية فقال: هذا كلام القادرين في هذه الآية صور بلاغية في قمة

الروعة والجمال فقد احتوت على أكثر من خمسة وعشرين فنا بلاغيا، وقد ذكر ابن أبي الإصبع أن فيها عشرين ضربا من البديع، منها ما نذكره من باب التمثيل لذلك النظم العجيب

1. "وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي" فيه إشارة موجزة إلى اشتراك السماء والأرض في عملية إطغاء الماء بأمر الله سبحانه وتعالى؛

2. قيل: كلمة تحتوي داخلها الشيء الكثير، أُريد منها التعبير على سبيل المجاز عن الإرادة؛

3. يا أرض ... يا سماء ... الخطاب موجه إلى الجماد، مسبوقا بياء النداء، وهذا من التعابير الجميلة الجليلة؛

4. الترتيب في الجمل: يا أرض ابلعي، ويا سماء اقلعي تم تقديم أمر الأرض على أمر السماء، لأنها كانت ابتداء الطوفان؛

5. الاستعارة في (ابلعي) و(اقلعي)؛

6. الطباق بين السماء الأرض؛

7. المجاز في (يا سماء) فالتقدير: يا مطر السماء؛

8. هذه المقاطع من الآيات (قيل) (قضي الأمر) (قيل بعدا) لم يُصرح باسم الفاعل في هذه المقاطع الثلاثة، بل جاءت الأفعال في صيغة المبني للمجهول، وذلك من باب التعظيم، حيث إن هذه الأحداث التي تمت إنما فاعلها واحد لا يشاركه في أفعاله أحد وأنه فاعل قادر مكون قاهر سبحانه وتعالى؛

9. وَغِيضَ المَاءُ (حذف الفاعل وهو الأرض)؛

10. وَاسْتَوَتْ عَلَى الجُودِيِّ – (حذف الفاعل وهو السفينة)؛

11. التجانس اللغوي في الكلمتين (اقلعي) و(ابلعي)؛

12. المقطع القرآني مرة أخرى: (يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ المَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ) أمر إلهي يصدر إلى الجمادات فتستجيب لأمره؛

13. إفراد الماء، وفي ذلك إشارة إلى أن الماء لـم يحصـل مـن تكـاثر الميـاه واجتماعها، بل هو نوع واحد حصل بأمر الله سبحانه وتعالى؛

14. إفراد أرض، وفي ذلك إشارة إلى شمولية هذا الماء كل الأرض؛

15. يا سماء اقلعي "في هذا المقطع القرآني مجاز مرسل، علاقته السببية، وتقديره يا مطر السماء اقلع؛

16. يا أرض ابلعي ماءك "في إضافة الماء إلى الأرض مجاز، تشبيها لاتصاله بها اتصال الملك بالمالك، كما أن فيه تنبيه على أن الأرض مصدر حدوث هذا الماء أيضا.

نموذج أخر من النظم العجيب في القرآن الكـريم قولـه تعـالى: ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾(الأنبيـاء46)، نلاحـظ أن مكوناتها اللغوية تدلنا على المعنى المقصود، فالمقولات النحويـة والمعجميـة تعطينـا معاني وهي رحمة الله بعباده وهي معاني خفية دقيقة جليلة منها:

إن: أداة شرط والمعروف أنها يشترط بها حينما يكون جواب الشرط غيـر مؤكـد الحدوث وفي هذا يقول القائل من النحويين:

أنـا إن شـككت وجـدتموني جازمـا وإذا جزمـت فغننـي لـم أجـزم

هذه واحدة ثم استعمل الفعل مستهم ولم يقل أصابتهم ولا ضربتهم ولا مثيلهما مـن الأفعال التي فيها الشدة والعنف، ثم قال نفحة ولم يقل عاصفة ولا قاصفة ولا طامة ولا صاخة ولا مثيلاتها من الألفاظ على كثرتها ثم استعمل لفظ نفحة وانظر كم فيهـا مـن الرقة والسهولة ولم يستعمل مثيلاتها من الألفاظ في العربية ثم تبع ذلك باستعمال حرف الجر من الذي يفيد التبعيض ولا يفيد الكلية أي جزء بسيط فقط من المذكور ثم استعمل كلمة العذاب مضافة إلى كلمة الرب التي تفيد الرعاية والشفقة والمحبة فكل رب لشـيء فهو به رفيق وانظر كيف تضاف كلمة الرب إلى الحبيب محمد صلى الله عليه وسـلم كل ذلك ليعرف الناس وليعرف الكافر والمومن أن الله لا يريد تعذيبنا بل يريد رحمتنا وهو معنى سيق بدلالة الألفاظ و المقولات النحويـة و المعجميـة، فالمعـاني النحـو

وأصوله ليست كما يتوهم كثير من الناس قوالب جامدة أو مقاييس محددة صما، بل أنها مع كونها تقوم على أسس عقلية ومنطقية، فإنها ترعى الجوانب الفنية والأحوال النفسية لدى من ينشئ الكلام تعتد بتقدير المنشئ لحال من يتلقى عنه ويأخذ منه"[29].

الاحالات:

1 أحمد جميل شامي النحو العربي قضاياه ومراحل تطوره، دار الحضارة للتوزيع والنشر 1997 ص 12.

2 ــ ابن السراج أصول النحو، ج 1، تحقيق عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى بيروت لبنان 1985، ص 35.

3 ابن جني الخصائص ج 1، تحقيق محمد علي النجار، عالم الكتب، الطبعة الأولى، بيروت لبنان 2006، ص 35.

4 أحمد جميل شامي النحو العربي قضاياه ومراحل تطوره، ص 12.

([5]) ابن خلدون، المقدمة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت لبنان 2004. 545.

6 ينظر الجاحظ، البيان والتبيين تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي الطبعة السابعة 1997 مصر، ج 2 ص 219.

7 أحمد جميل شامي النحو العربي قضاياه ومراحل تطوره، ص 18.

8 أحمد جميل شامي النحو العربي قضاياه ومراحل تطوره، ص 18.

9 أحمد جميل شامي النحو العربي قضاياه ومراحل تطوره، ص 25.

10 ينظر الجاحظ، البيان والتبيين تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي الطبعة السابعة 1997 مصر، ج 2 ص 219، أحمد جميل شامي النحو العربي قضاياه ومراحل تطوره، ص 19

11 ينظر الجاحظ، البيان والتبيين تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي الطبعة السابعة 1997 مصر، ج 2 ص 219، أحمد جميل شامي النحو العربي قضاياه ومراحل تطوره، ص 20.

12 الجاحظ، البيان والتبيين تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي الطبعة السابعة 1997 مصر، ج 2 ص 219، أحمد جميل شامي النحو العربي قضاياه ومراحل تطوره، ص 19.

13 الجاحظ، البيان والتبيين ج 2 ص 219.

14 الجاحظ، البيان والتبيين ج 2 ص 219.

15 ينظر الجاحظ، البيان والتبيين ج 2 ص 222.

16 أحمد جميل شامي النحو العربي قضاياه ومراحل تطوره، ص 20.

[17] – انظر الزرقاني، مناهل العرفان، ج 2 تحقيق فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي الطبعة الأولى بيروت، 1995، ص 254، انظر مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ص 259.

[18]– انظر ابن الأثير، الكامل، ج 1، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1987 بيروت لبنان، ص 603.

[19]– ينظر صالح فاضل السامرائي، لسمات بيانية من نصوص التنزيل، ط3. 2003، عمان: دار عمار، ص5–6.

[20] نمشة بنت عبد الله، إعجاز الرسم القرآني، ص424.

[21] – محمود علي السمان، العروض القديم، ص 10.

22 – ابن رشيق، العمدة، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ج1، دار الجيل، الطبعة الخامسة 1981، بيروت لبنان، ص 119.

[23]– محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، دار القلم، الكويت، ط9 1413– 1993، ص 154.

[24]– ينظر محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن ص 155.

25 ــ ينظر ابن مالك، شرح التسهيل، ج 1، ص 349، محمد أسعد النادري، نحو اللغة العربية المكتبة العصرية، الطبعة الثالثة، بيروت لبنان 2002، ص 381.

26 ــ ينظر ابن مالك، شرح التسهيل، ج 1، ص 349، ابن عقيل، شرح ابن عقيل، ج 1، ص 263 ينظر أحمد قبش الكامل في النحو والصرف والإعراب، دار الجيل، الطبعة الثانية، بيروت لبنان 1974، ص 48، محمد أسعد النادري، نحو اللغة العربية، ص 381.

27 ــ ينظر ابن مالك، شرح التسهيل، ج 1، ص 349، ابن عقيل، شرح ابن عقيل، ج 1، ص 266، ينظر أحمد قبش الكامل في النحو والصرف والإعراب، ص 49، محمد أسعد النادري، نحو اللغة العربية، ص 380.

28 ــ ينظر ابن عقيل، شرح ابن عقيل، ج 1، ص 266، ينظر علي أبو المكارم، الجملة الاسمية، ص 80

[29]– ينظر أحمد عبد الستار الجواري، نحو المعاني، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ط 1987 ص 33.

دور علماء بجاية في خدمة القرآن الكريم

داه. نبيل صابري
جامعة الجزائر1

بسم الله الرحمن الرحيم

لما كان لبلد الجزائر حواضر علمية متميزة في خدمة القرآن، انبرى هـذا المقـال لإبراز أحد أقطابها البارزة، وهي حاضرة بجاية، ومدى إسهامها فـي إنعـاش التعلـيم القرآني والتفسيري ومختلف الأنواع المتصلة به، منذ الفتح الاسلامي حتى مطلع القرن العشرين.

تفتقر هذه القراءة لوفرة المصادر، ونبش أمجاد التراث العتيق، ومع ذلك سـيحاول البحث تقديم إضاءة حول جهود المنطقة، وإظهار واقع المدرسة القرآنية القائمـة فيهـا وتجلية الغطاء عن تراجم منسيّة كان لها المشاركة ذات يـوم فـي إعـلاء الصـرح المعرفي، وإظهار دفاترها، وما خطته أقلامها، لبعث الحياة فيها مرة جديـدة بالبحـث والتفتيش.

وسيتناول التقصي كل علماء بجاية، سواء الذين ولدوا بها، أم اسـتوطنوها، وحتـى الذين نزلوا بها للعبور أو الدعوة، علما أن جمع جهودهم يقتصـر علـى مشـاركاتهم العلمية المتخصصة في علمي القراءات والتفسير وباقي العلوم القرآنيـة، دون التعلـيم القرآني الذي يعرف بالتحفيظ، لأن معلمي القرآن يصعب تتبعهم، ويطول جمعهـم، إذ كل مسجد أو زاوية أو معمرة بجائية كان يسهر عليها معلم أو أكثر.

وقد تم اعتماد الخطة الرئيسية الآتية: تمهيد: وفيه نبذة من التعريف ببجاية وتاريخها

المطلب الأول: جمع جهود العلماء؛

المطلب الثاني: استخلاص النتائج وتقييم الجهود؛

خاتمـــة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

تمهيد: بجاية: بالكسر، وتخفيف الجيم، وألف، وياء، وهاء: مدينة جزائرية على ساحل البحر المتوسط بين إفريقية والمغرب، ويحيط بها البحر من ثلاث جهات، وقد بنيت على هيئة مدرج أسفل منحدرات جبل قوراية، وهي تطل على خليج سُمِّي باسمها، وبه مرفأ، ويعتدل مناخها في الصيف ويغزر المطر شتاء، وقد أنشأها الناصر بن علناس أشهر ملوك الدولة الحمادية سنة (460هـ =1068م) ونقل الناس اليها وأسقط الخراج عن ساكنيها وسماها الناصرية، ولكن غلب عليها اسم بجاية، وإنما اختار مكانها لكونه في سفح جبل يحفظها من غارات الهلاليين، وبنى فيها قصره المعروف بقصر اللؤلؤة، كما بنى دارًا لصناعة السفن، وقناطر معلقة لجلب المياه وأنشأ سورًا حول المدينة، وأمامها خليج مأمون يسع أسطولا ضخما يهيمن به على البحر، وسوادها خصب، وقد بلغت بجاية قمة ازدهارها فى القرن (6هـ=12م)، ثم استولى عليها الموحدون بعد بني حماد سنة (547هـ=1152م)، ثم آلت إلى الحفصيين سنة (629هـ=1231م) ثم المرينيين سنة (748هـ=1347م)، إلى أن استعادها الحفصيون سنة (763هـ=1361م)، وتعرضت بجاية لأطماع الأوربيين فاستولى عليها الإسبان، وخربوا قصر بني حماد، لكن استطاع قائد البحرية العثمانية في البحر المتوسط أن يدك الحصون التي تحصن بها الإسبان، ويهزمهم، ويسترد بجاية من الإسبان، واحتفظ بها العثمانيون قرابة (188) سنة، إلى أن استولى الفرنسيون عليها سنة (1246هـ=1830م) بعد معركة دامت خمسة أيام، وقد شن أهل بجاية ثورات عديدة ضد المستعمر الفرنسي، فكانت مرحلة جهاد الشعب الجزائري ضد المحتل الفرنسي، إلى أن استقلت الجزائر عن فرنسا.

وبجاية غنية بالزراعة؛ لسقوط الأمطار ووجود الأنهار والعيون فيها، كما تكثر فيها البساتين، وهي أيضا مدينة تجارية ارتبطت بعلاقات مع بعض مدن أوربا، واشتهرت بجاية في عصورها المختلفة بحركة علمية طيبة؛ فوفد إليها العلماء والأدباء، واستقر بها العلماء الأندلسيون، وقصدها كثير من العلماء في مصر والشام، وقد ألف أبو العباس الغبريني كتابا عن العلماء الذين زاروا بجاية سَمَّاه عنوان الدراية فيمن عرف

من العلماء في المائة السابعة ببجاية، كما ظهرت في بجاية الطرق الصوفية، وكان أشهرها الطريقة الرحمانية [1].

المطلب الأول: جمع جهود العلماء:

اعتنيت في هذا الطلب بجمع جهود البجائيين في مجال التفسير والقراءات وبقية العلوم القرآنية من رسم وإعراب وأحكام وغيرها، وقد كان ذلك وفق تخصيص ترجمة منقبية يسيرة لكل عالم، حسب الترتيب الأبجدي، ودونكم تفصيلها:

إِبْرَاهِيم بن فائد بن مُوسَى بن عمر بن سعيد بن علال بن سعيد النبروني الزواوي النجار القسنطيني الدَّار الْمَالِكِي (857ه): ولد سنة سِتّ وَتِسْعين وَسَبْعمائة فِي جبل جرجرة ثمَّ انْتقل إِلَى بجاية فَقَرَأَ بهَا الْقُرْآن واشتغل بهَا فِي الْفِقْه على أبي الْحسن عَليّ بن عُثْمَان ثمَّ رَحل إِلَى تونس فَأخذ التَّفْسِير عَن القَاضِي أبي عبد الله القلشاني وغيرها من العلوم، حج مرَارًا وجاور وتلا لنافع على الزين بن عَيَّاش بل حضر مجْلِس ابْن الْجَزرِي فِي سنة ثَمَان وَعشْرين، رَجَعَ إِلَى جبال بجاية فاستمر في التعلم إلى أن صار مبرزا، من مؤلفاته: تفسير القرآن[2].

إبراهيم بن محمد بن إبراهيم القيسي السفاقسي، أبو إسحاق (742ه): فقيه مالكي تفقه في بجاية وحج فأخذ عن علماء مصر والشام، وأفتى ودرّس سنين، له مصنفات منها: المجيد في إعراب القرآن المجيد ويسمى إعراب القرآن[3].

إِبْرَاهِيم بن مُحَمَّد بن سلَمَة بْن مُقيم بْن سيد النّاس المكتب، أبو إسحاق (631ه): من أَهْل مُربيطر، وَسكن بلنسية، أَخذ عَنْ أبي عَبْد اللَّه بن الخباز قِرَاءَة الْحَرَمَيْنِ وَأبي عمر وَابْن الْعَلَاء وَأَجَازَ لَهُ، نزل بجاية ولَقي بها أَبَا مُحَمَّد عبد الْحق الاشبيلي ولم يَأْخُذ عَنهُ شَيْئا، وَيحدث بِالْإِجَازَةِ الْعَامَّة عَنِ السِّلَفيّ والخشوعي وَغَيرهمَا، وأدَّب بِالْقُرْآنِ دهرًا طَويلا ثُمَّ ترك ذَلِكَ وَعَاد إِلَى مربيطر[4].

إِبْرَاهِيم بن مُحَمَّد بن عبد الرَّحْمَن بن يحيى بن أَحْمد بن سُلَيْمَان بن مهيب الصدقاوي الزواوي الأَصْل ثمَّ البجائي الْمَالِكِي (882ه): نزيل مَكَّة، وَيعرف بالمصعصع مِمَّن أَخذ عَن مُحَمَّد بن أبي الْقسم المشدالي، كَانَ ذَا إِلْمَام بالتفسير

يستحضر من ابْن عَطِيَّة ويحضر دروس البرهاني بن ظهيرة، وقطن الْمَدِينَة أَيْضا سِنِين ثمَّ انْقَطع بِمَكَّة نَحْو خمس عشرَة سنة حَتَّى مَاتَ بهَا فِي ضحى يَوْم الِاثْنَيْنِ عَاشر رَمَضَان وَهُوَ ابْن سِتّ وَسِتِّين(5).

أبو علي الضرير البجائي (بعد 610ه): رجل مقرئ، عارف بالقراءات تصدر بجامع حلب لإقراء الناس، وإفادتهم، وكان رجلا صالحا، حسن الأداء، وانتفع به جماعة من الطلبة، قرأ على محي الدين محمد بن علي بن محمد بن العربي الحاتمي في ليلة من ليالي الصيف بحلب ختمة جمع فيها للقراء الثمانية، أي: السبعة ويعقوب وتوفي بحلب(6).

أحمد بن أبي القاسم بن أبي عمار المسيلي، أبو العباس (789ه): وصفه ابن قنفذ بالمحدث المميز المقرئ المدرك قاضي الجماعة، المتوفى ببجاية، ولا يعرف عنه أكثر من هذا(7).

أحمد بن أحمد بن أحمد بن أحمد بن عامر أبو جعفر السلمي الأندلسي (747ه): إمام مقرئ أديب، قرأ بمالقة على أبي بكر بن الفخار وبغرناطة على أبي جعفر الجزيري الكفيف، ونظم أرجوزة سماها زهر الغرر في عدد آيات السور وذكر الأعداد على حرف أبي جاد، نزل بجاية وتوفي بها (8).

أحمد بن أحمد بن أحمد ثلاثاً الغبريني (772ه): مقرئ من أهل بجاية، فقيه تونس وعالمها وإمامها وخطيبها بجامع الزيتونة ووالده مؤلف عنوان الدراية، أخذ عن ابن عبد السلام وغيره وعنه البرزلي وأبو مهدي عيسى الغبريني وأبو عبد الله القلشاني وجماعة(9).

أحمد بن أحمد بن عبد الله، أبو العباس الغبريني (704ه): من بني غبري، مؤرخ وفقيه وله مشاركة في الحديث والتفسير والعربية، نشأ ببجاية وتعلم بها وبتونس، أخذ عن عدة شيوخ، ثم ولي قضاء بجاية، من مؤلفاته: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية، ذكر في آخره أسانيده في مختلف العلوم، ومنها أسانيده لأمات كتب التفسير(10).

أحمد بن ثابت التلمساني البجائي الشريف الحسني (1152هـ)، فاضل، صوفي، من شيوخه محمد بن توزنت، من آثاره: الرسالة الغراء في ترتيب وجوه القرآء، وهو مطبوع متداول(11).

أحمد بن عبد الرحمن بن فهر السلمي، المعروف بقاضي الجماعة (592هـ): ولد بقرطبة، أخذ عن شريح وتلا بقراءة الحرمين عليه وأكثر عن أبي بكر بن العربي وأبي جعفر بن عبد الرحمن البطروجي وروى عنه خلائق منهم: أبو بكر بن الشراط ومحمد بن عبد الله القرطبي، وكان فقيهاً حافظاً مقرئاً مجوداً محدثاً مكثراً قديم السماع واسع الرواية عاليها ضابطاً، من مؤلفاته: تنزيه القرآن عما لا يليق بالبيان، نزل بجاية واستقضي بها، توفي بإشبيلية(12).

أحمد بن عبد الصمد الخزرجي الساعدي، أبو جعفر القرطبي (582هـ): سكَنَ غَرناطةَ مدّةً، ونزل بِجايةَ واستوطنها ثم استَوطَن مدينةَ فاس، كان في شَبيبتِه معروفًا بالذّكاء والنُّبل، مشهورًا بالحفظِ للحديث ذاكرًا للتواريخ والقِصَص مُمتعَ المجالَسة متينَ الأدب، من آثاره: نَفَس الصبّاح وشمس التبيين والإيضاح؛ وهو مختصر بديع مهذب في تفسير غريبِ ألفاظ القرآن وناسخِه ومنسوخِه، وبيان الجمل من مشكله(13).

أحمد بن محمد القرشي الغرناطي، أبو العباس (692هـ): محدث، مفسر، من فقهاء المالكية، انتقل إلى بجاية ودرس بها واجتمع بمشائخها، ومنها إلى المغرب الأقصى فجال فيه ولقي جماعة من العلماء، ثم دخل تونس وتصدر للتدريس فيها واستمر إلى أن مات، قال صاحب عنوان الدراية: "له تآليف، منها على كتاب الله تعالى، طالعت بعضها"، وقال صاحب شجرة النور له تآليف منها: "تفسير القرآن الكريم"(14).

أحمد بن محمد بن حسن بن محمد بن خضر الصدفي الشاطبي، أبو العباس (674هـ): الفقيه المقرئ الضابط المتقن، لقي المشائخ ببجاية، أبا بكر ابن محرز وأبا عثمان ابن زاهر وأبا عبد الله الأبار وأبا المطرف ابن عميرة وأبا بكر ابن سيد الناس وأجاز له أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر بن عصفور العبدري التلمساني والقاضي أبو القاسم أحمد بن محمد بن بقي، قال الغبريني: "ما رأيت أتقن منه في القراءات ولا

أضبط منه في طريق الروايات"، ألف كتابا في "مرسوم الخط" وهو كتاب حسن كثير الفائدة، وألف أيضا جزءا في بيان "تمكين ورش" حروف المد واللين الثلاثة، الألف والواو والياء إذا تقدمتهن الهمزة، وألف أيضا جزءا آخر في بيان مذهب ورش في تفخيم اللام وترقيقها، كان رحمه الله، ناصحا مجدا مجتهدا، يرغب الطالب في الأخذ عنه ويعينه على ذلك، ولم يكن له عمل سوى الاشتغال بالقرآن على حال عفاف ونسك، وتخلى عن الناس إلى أن توفى رحمه الله ببجاية[15].

أحمد بن محمد بن عبد الله المعافري، أبو العباس (القرن السابع): الفقيه المقرئ المتقن، الأستاذ النحوي اللغوي، المحصل المقدم، أبو عمرو وقته في علم القراءات قرأ على أبيه بالقلعة الحمادية بجامعها الأعظم في عشر التسعين وخمسمائة، وارتحل إلى بجاية، فلقي بها أفاضل منهم والده أبو عبد الله ابن عبد الله ومنهم الشيخ أبو زكرياء الزواوي رضي الله عنه كان ملازما له وعاكفا عليه، والقارئ بين يديه، ولقي أبا عبد الله ابن حماد وغيره، وكان أستاذ الأساتيذ في وقته، وكان جلوسه للقراءة والرواية بالجامع الأعظم ببجاية شرفه الله بذكره، وقرأ عليه عالم واستفاد منه خلق كثير وكل من أخذ عنه، فإنه يوصف بالإتقان والدراية، وجودة الرواية، وكان لا يتسامح في إجازة بوجه ولا يمكن منها إلا بعد التحصيل، ومن ظفر من الطلبة بإجازته فقد ظفر بالغاية القصوى، ووصل إلى المرتبة العليا، وما أدركت من الطلبة إلا وهم يفخرون بلقائه والقراءة عليه، واختصر كتاب "التيسير" لأبي عمرو الداني اختصارا بليغا وجيزا يدل على علمه، وجودة فهمه، وتوفي رحمه الله ببجاية[16].

أَحْمَد بن مُحَمَّد بن عبد الله بن عَليّ البجائي التّونسِيّ الْمَالِكِي ويَعرف بِأبي الْعَبَّاس بن كحيل (869ه): ولد فِي ربيع الأول سنة اثْنَتَيْنِ وَثَمَانمِائَة بتونس وَنَشَأ بهَا فَقَرَأَ الْقُرْآن وتلا الْفَاتِحَة على أبي عبد الله مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن مُسَافر العامري وَقَالَ أَنه قَرَأَ عَلَيْهِ المسلسل، وتلا بالسبع ويَعْقُوب على أبي الْقسم بن أَحْمد الْبُرْزُليّ وَأبي مُحَمَّد عبد الله بن مَسْعُود الْقرشِي عرف بِابْن قرشية، له عدة تآليف[17].

أَحْمد بن مُحَمَّد بن عَليّ بن أَحْمد اللياني ثمَّ البسكري الْمَالِكِي وَيعرف بِابْن فَاكِهَة (بعد 890ه): ولد بليانة ثم تحوّل مِنْهَا لبسكرة وَهُوَ طِفْل فَقَرَأَ بهَا الْقُرْآن والرسالة وَإِلَى النِّكَاح من ابْن الْحَاجِب والأجرومية والألفية ثمَّ ارتحل لتونس وَأَقَام بهَا خَمْسَة أَعْوَام وَلَاء وارتحل إِلَيْهَا مرّة بعد أُخْرَى، ثم نزل بجاية وأخذ عَن سُلَيْمَان بن يُوسُف الحسناوي وَعِيسَى بن أَحْمد الحنديسي وَقَرَأَ للسبع جُزْء من أول الْقُرْآن على مُحَمَّد التّونسِيّ الْعَرَبِيّ الْمُؤَدب[18].

أحمد بن محمد بن علي، أبو العباس الزواوي (بعد750ه): شيخ القراء بالمغرب في وقته، محدث، من فقهاء المالكية، رحل في طلب العلم، فقرأ بالمغرب علي مقرىء فاس علي بن سليمان القرطبي، ومالك ابن المرحل إمام وقته بالقراءات، قال ابن خلدون:" كان إماما في القراءات لا يجارى، وله صوت من مزامير داود"، عمل "فهرست" مقروءاته ومروياته في مجلدة سمعها منه شيخنا أبو عبد الله محمد بن محمد السلاوي سنة 750 هـ [19].

أرزقي بن محند أوقازو الشرفاوي (1364ه): ولد بقرية الشرفاء، أدخله والده لمعمرة سيدي بهلول لحفظ القرآن ثم انتقل ليلولة حيث أتقن حفظه ورسمه وتجويده رحل لمصر وقضى أكثر من عشرين سنة بين التعلم والتعليم، ثم رجع للجزائر واستقر بها مفيدا ومربيا وكاتبا إلى وفاته، فسّر القرآن كاملا إقرائيا، من مؤلفاته: إرشاد الطلاب إلى ما في الآيات من الإعراب [20].

جعفر بن عبد الرحمن بن جعفر بن عثمان بن عبد الله البجائي الفقيه المقرئ، أبو الفضل (644ه): ولد ببجاية سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، روى عن القاضي أبي نصر محمد بن هبة الله بن مميل الشيرازي، وحدث عنه بالمدرسة المنصورية بمكة سمع منه بها الحافظ شرف الدين الدمياطي، توفي بمكة وله معجم[21].

جعفر بن عبد الله بن محمد بن سيد بونة الخزاعي، أبو أحمد (624ه): الفقيه المقرئ، من أهل شرق الأندلس، من نظر دانية، أحد أعلام المشاهير فضلا وصلاحا قرأ ببلنسية وكان يحفظ نصف المدوّنة وأقرأها، ويؤثر الحديث والتفسير والفقه، على

غير ذلك من العلوم، أخذ القراءات السبع عن المقرئ أبي الحسن بن هذيل، وأبي الحسن بن النّعمة، ورحل إلى المشرق، فنزل بجاية ولقي بها أبو مدين شعيب وأخذ عنه، توفي بالموضع المعروف بزناتة[22].

حسن بن علي بن محمد المسيلي، أبو علي (نحو 580ه): فقيه، من أهل بجاية درس بها ولي قضاءها مدة، وتوفي بها، كان ينعت بأبي حامد الصغير، تشبيها له بأبي حامد الغزالي، لتأليفه كتاب (التفكر فيما تشتمل عليه السور والآيات من المبادئ والغايات) على نسق إحياء علوم الدين[23].

الْحَسَن بْن مُحَمَّد بْن الْحَسَن الْأَنْصَارِيّ أَبو عَلِيّ وَيعرف بِابْن الرهيبل (585): سَمِعَ من أبي الْحَسَن بْن النِّعْمَة كثيرا واختص بِهِ وَعنهُ أَخذ الْقرَاءَات وَسمع من ابْن هُذَيْل أَيْضا جاوَرَ بِمَكَّة وَأَخذ عن علمائها، نزل بجاية وَأَجَازَ لَهُ أَبُو المفاخر سَعِيد بن الْحُسَيْن الهاشميّ وَأَبُو مُحَمَّد عَبْد الْحق بْن عَبْد الرَّحْمَن الإشبيلي سنة سبْعٍ وَسبعين وقفل إِلَى بَلَده فَلَزِمَ الانقباض عَنِ النّاس والإقبال عَلَى مَا يعنيه، وَحكى التجيبي أنَّ طلبة الْإِسْكَنْدَرِيَّة تزاحموا عَلَيْهِ لسَمَاع التَّيْسِير لأبي عَمْرو الْمُقْرِئ مِنْهُ بروايته عَنِ ابْن هُذَيْل سَمَاعا فِي سنة ثَلَاث وَخمسين[24].

سعد بن علي بن محمد بن عبد الرحمن بن زاهر الانصاري، أبو عثمان البلنسي (654ه): من أهل بلنسية، لقي بالأندلس رجالا، ثم رحل إلى العدوة واستوطن بجاية وأقرأ بها وروى وأسمع وأخذ عنه، واستفيد منه، وكان مُقرئًا مجوِّدًا متحقِّقًا بصَنْعة الإقراء، ولم يكن له عمل ولا حرفة ولا خلطة للناس سوى الاشتغال بإقراء القرآن رواية وتفهيما، وبسطا وتعليما، وتخطط بالعدالة ببجاية وكانت صفته، وتوفي بها ودفن بخارج باب امسيون بمقبرة الفقيه القاضي أبي محمد عبد الله بن حجاج[25].

السعيد بن علي بن أحمد اليجري (1371ه): ولد بقرية آيت سيدي أحمد ببني يجر تلقى تعليمه الأول على يد والده ثم انتقل لزاوية اليلولي حيث حفظ القرآن بالروايات وأتقن الرسم ومختلف علوم الشريعة، من شيوخه الصادق بن زكري والطاهر القيطوسي والشريف الإفليسي وعبد القادر المجاوي، راسل عدة علماء وتفرغ للتدريس

عبر عدة زوايا وتخرج على يديه عدد لا يحصى من الحفظة والشيوخ، لدرجة أن بلـــغ سنده في القراءات مبلغ الشهرة والرواج في القبائل، عرف بنشاطه الدعوي والجهـــادي حتى وفاته[26].

سعيد بن محمد بن محمد العقباني، التلمساني، أبو عثمـــان (811ه): مـــن أكابر فقهاء المالكية، قاض، مفسر، من أهل تلمسان، وكـــان إمامهـــا وعلامتهـــا فـــي عصره، ومولده ووفاته بها، نزل بجاية وولي قضاءها في أيام الســلطان أبـــي عنـــان المريني والعلماء يومئذ متوافرون، كما ولي قضاء بلده تلمســـان ووهـــران ومـــراكش وسلا، ومدة ولايته للقضاء نيف وأربعين سنة، من آثاره "تفسير سورة الأنعام" و"تفسير سورة الفتح"[27].

الصديق بوفليح بن محمد أو جمعة أويحيا (1358ه)، من مواليد قرية أقلقال قـــرب قرية الماين في بني عيدل، حفظ القرآن في مسقط رأسه ثم انتقل بزاوية ســـيدي أحمـــد أويحي بأمالو أين أتم دراسة مختلف علوم الشريعة، كما أخذ القـــراءات الســـبع علـــى الشيخ علي أوقاسي بأورير الجعافرة، وحفظ الشاطبية ومورد الظمآن والدرر اللوامـــع ثم تفرّغ بعدها للتعليم وكان مما فسر البسملة في مدة ثلاثة أشهر كاملة، وظل مشـــتغلا بالتعليم ويقتات بالفلاحة إلى أن توفي[28].

طاهر بن صالح بن أحمد بن موهوب السمعوني الوغليسي الجزائري ثم الدمشـــقي (1338ه): عالم لغوي، أديب، باحث، من عمد الاصلاح اللغوي والديني بسورية، كان له تأثير كبير في نشر العلم، ووضع مناهج التعليم واصلاح أساليبه، كما كـــان محســـنا لأكثر اللغات الشرقية كالعبرية والسريانية والحبشية والزواويـــة والتركيـــة والفارســـية واسع العلم بالمكتبة العربية ومخطوطاتها، هاجر أبوه إلى سورية سنة 1264هـــ فولـــد هو بدمشق، وبها نشأ وتتلمذ على كبار أشياخها، مارس التعليم زمنا، ثم عـــين مفتشـــا للمدارس الجديدة التي أنشئت في عهد مدحت باشا، ســـاعد علـــى انشـــاء "دار الكتـــب الظاهرية" وجمع فيها ما تفرق من مخطوطات في الخزائن العامة، من آثـــاره "التبيـــان

لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن"، حواشي على تفسير البيضاوي، وحاشية على تفسير الطبري، وطبقات المفسرين، وغيرها [29].

عبد الباسط بن خليل بن شاهين الملطي، زين الدين (920هـ): مؤرخ، له اشتغال بالتفسير واللغة وفقه الحنفية، ولد في ملطية، وتعلم في دمشق وطرابلس والقاهرة، قال السخاوي: "ودخل المغرب، فأخذ دروسا في النحو والكلام والطب، بل أتقنه بخصوصه"، والمدن التي دخلها في المغرب هي: تونس، القيروان، قسنطينة، بجاية تلمسان، وهران، وطرابلس الغرب، وتوفي مسلولا، من آثاره "القول الخاص في تفسير سورة الإخلاص" و"النفحة الفائحة في تفسير سورة الفاتحة"[30].

عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الأَزْدي الإشبيلي، أبو محمد، المعروف بابن الخراط (581هـ): من علماء الأندلس، كان فقيها حافظا عالما بالحديث وعلله ورجاله مشاركا في الأدب وقول الشعر، له كتاب كبير في (غريب القرآن والحديث) وغيرها كثير، نزل بجاية وأصابته محنة فتوفي على أثرها بها[31].

عبد الحكم بن إبراهيم، أبو الفضل القروي (بعد 300هـ): مقرئ حاذق، روى رواية ورش عن أبي عبد الله محمد بن سعيد الأنماطي وأحمد بن عيسى المكفوف وأحمد بن هلال وأبي جعفر الخياط وأبي بكر بن سيف ومحمد بن عمر بن خيرون وسمع منه كتابه في الأداء، نزل بجاية – أو بجانة كما جاء في التكملة– وأقرأ الناس بها، روى عنه القراءة عرضًا عبد الله بن محمد القضاعي بعد الثلاثمائة، قال الداني كان إمامًا في رواية ورش ولم تثبت قراءته على ابن سيف[32].

عبد الحميد بن محمد بن مكي بن باديس الصنهاجي (1359هـ): ولد بقسنطينة وتعلم بها مبادئ العلوم، ثم رحل لتونس وأخذ عن علمائها وتخرج بشهادة التطويع، سافر بعدها لأداء مناسك الحج والتقى بعدة علماء، ورجع لوطنه ناصحا ومرشدا ومعلما دخل بجاية وعدة من قراها ومداشرها، من آثاره: تفسير القرآن الكريم إملائيا في ربع قرن، كتب بعضا منه وصدر بعنوان مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير.

عبد الرحمن بن أحمد الوغليسي، أبو زيد (786ه): شـيخ الجماعـة ببجايـة فـي عصره، نعته مخلوف بالفقيه الأصولي المحدث المفسر، وقال: "كان عمدة أهل زمانـه وفريد عصره وأوانه" أشهر مؤلفاته كتاب "الأحكام الفقهية"[(33)].

عبد الرَّحْمَن بن الْبَهَاء مُحَمَّد بن الْمُحب الزرندي الْمـدنِي (808ه): ولـد بتـونس وَحفظ الْقُرْآن والشاطبيتين ومختصر ابْن الْحَاجِب الفرعي والتسهيل فِي النَّحْـو، وَأخـذ الْقرَاءَات السَّبع إفرادا وجمعا بل قَرَأَ ختمة أَيْضا ليعقوب عَن الْمكتـب أبـي عبـد الله مُحَمَّد بن سعد بن نزال الْأنْصَارِيّ وَعرض عَلَيْهِ الشاطبيتين، ثمَّ توجه فِي سـنة سِـتّ وَسِتِّينَ إِلَى بجاية ففوض إِلَيْهِ صَاحبهَا تَدْبِير مَمْلَكَته مُدَّة ثمَّ نزح إِلَى تلمسـان وبسـكرة وفاس، وله ترجمة طويلة في الضوء وقال: وَطول المقريزي فِي عقوده تَرْجَمته جـدا وَهُوَ كَمَا قدمت مِمَّن يُبَالغ فِي اطرائه ومدحه عَفا الله عَنْهُمَا[(34)].

عبد الرحمن بن الحسن بن بلقاسم بوعزيز (1374ه)، تعلم القـرآن علـى والـده وحفظه حفظا جيدا، وأتقن تجويده على الروايات السبع والعشر، وشغف بـتعلم علـوم القواعد العربية كالنحو الصرف، عندما كبر تفرغ لتعليم القرآن بعدة قرى، وكان يذهب إلى قرية أورير الجعافرة لتجويد القرآن على الروايات السبع والعشر علـى العـالمين الشيوخ علي أوقاسمي، والشيخ صالح أوقاسي، درس ابنه يحي بوعزيز عليه الروايات السبع، وحفظ عليه الشاطبية وعددا من المتون المتعلقة بضبط الرسم وغيرها [(35)].

عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، أبو زيد (875ه): مفسـر، مـن كبـار علماء الجزائر وصلحائها الأبرار. ولد ونشأ بناحية "وادي يسر" بالجنوب الشرقي مـن مدينة الجزائر. وانتقل إلى بجاية سنة 802 هـ فأخذ عن علمائها، ثم انتقل إلى تـونس سنة 809 هـ فلقي بها أكابر العلماء وأخذ عنهم، وفي سنة 817 هـ سافر إلى مصر وأخذ عن البساطي وولي الدين العراقي. ثم ارتحل إلى تركية ومنها إلى الحجاز، فحـج وعاد إلى تونس سنة 819 هـ ومنها إلى الجزائر. ولي القضاء على غير رضى منـه ثم خلع نفسه، له نحو 90 كتابا، منها "الجواهر الحسان في تفسير القرآن" فـي أربعـة

مجلدات، مذيلا بمعجم لغوي لشرح غريبه، طبع أكثر من مرة، و"الذهب الإبريز في غريب القرآن العزيز" و "تحفة الإخوان في إعراب بعض آي من القرآن"[36].

عبد الرَّحْمَن بن يحيى بن الْحسن بن مُحَمَّد الْقرشِي، أَبُو القاسم الْأمَوِي (بعد 580ه): من أَهْلَ إشبيلية، روى عَن أَبِي الْقَاسِم الْهَوْزَنِي وَأبي الْحسن بن الْأَخْضَر وَأبي مُحَمَّد بْن عتاب وَأبي الْحَسَن شُرَيْح بْن مُحَمَّد وَعباد بْن سرحان وَغَيرهم، وانتقل من بلَده فَنزل بجاية وتصدر بهَا للأخذ عَنهُ، سمع منه أبو محمد بن الخطيب البجائي مختصره في القراءات، وكَانَ مقرئا مُحدثا زاهدا ورعا[37].

عبد الرحمن بن يسعد المصباحي أو الخردوشي قرابة ونسبا، اليلولي قبيلة ومنشأ ودارا ووفاة ودفنا، الزواوي (1105ه)، كان فريد عصره في الرواية القرآنية بمقارئ السبعة والعشرة، أخذ روايته عن شيخه المشهور محمد السعدي البهلولي عن عبد القادر الفاسي، تتلمذ على يديه عدد كثير منهم: محمد عنتر؛ وهو الذي كتب بخط يده المباركة من مصاحف القرآن تسعة وتسعين كاملة وخلف تمام المئة ناقصا، أنشأ زاوية تهتم بتدريس القراءات وعلومه حتى قيل أن من لم يقرأ فيها لا يعدّ عالما في التخصص، توفي من غير ذرية[38].

عبد السلام بن علي بن عمر بن سيد الناس أبو محمد زين الدين الزواوي (681ه): شيخ المالكية وكبيرهم، وولد ببجاية، وكان إماماً عالماً عاملاً ورعاً متقللاً من الدنيا، قانعاً منها بالكفاف، وكان عارفاً بالقراءات، وإليه علم ذلك بالشام في وقته، صنَّف كتابًا نفيسًا فِي "غريب الوقف والابتداء" وكتاباً في "عدد الآي" وكتاب "التنبيهات على معرفة ما يخفى من الوقوفات"[39].

عبد الله بن محمد القضاعي الأندلسي، أبو محمد المعروف بمقرون المقرئ (378): نزيل بجاية، ثم نزيل وهران، ثم نزيل مالقة، ثم نزيل قرطبة، قدمها باستقدام الحكم أمير المؤمنين بالأندلس في حدود خمسين وثلاثمائة، قال أبو عمرو الداني: فأقرأ الناس بها بحرف ورش، وكان ينحو في قراءته، نحو مذهب القرويين والمصريين وذكر أنه أخذ القراءة عرضا عن أبي الفضل عبد الحكم بن إبراهيم المقرئ نزيل بجاية

أو بجانة، صاحب أبي بكر بن سيف، روى عنه القراءة أبو بكر قاسم بن مسعود توفي بقرطبة[40].

عَبْد اللَّه بْن مُحَمَّد بْن يَحيى بْن فرج الزهيري، أبو محمد الْعَبدَرِي المقرئ (540ه): رَحل إِلَى أَبِي دَاوُد المقرىء فَأخذ عَنْهُ بدانية بجامعها الْقَدِيم فِي سنة اثْنَتَيْنِ وَتِسْعين وَأَرْبَعمِائَة، وَنزل قلعة حَمَّاد من العدوة فأقرأ بهَا نَحوا من عشْرين عَاما، ثُمَّ انْتقل إِلَى بجاية وأقرأ بهَا أَيْضا نَحوا من ذَلِكَ وَأخذ عَنْهُ النَّاس، وَمِمَّنْ حدث عَنْهُ أَبُو الْعَبَّاس بْن عَبْد الْجَلِيل التدميري، وَتُوفِّي بِمَدِينَة بجاية، وَدفن بِغَار العابد مِنْهَا رَحمَه اللَّه[41].

العربي الخداشي الجودي (1263ه): من بني يليلتن من قبائل زواوة، متمكن في القراءات ونسخ المصاحف، اشتغل بزاوية يلولة وانتهى إليه النظر في شؤونها بعد رفضه لوظيف المشيخة فيها وانتقاله إلى داره بعد المرض، توفي في قبيلته[42].

علي بن أحمد بن الحسن الحرالّي التجيبي، أبو الحسن (638ه): مفسر، أصله من "حرالة" من أعمال مرسية. ولد ونشأ في مراكش. ورحل إلى المشرق وتصوف، ثم استوطن بجاية، وعاد إلى المشرق، فأخرج من مصر، وتوفي في حماة، من كتبه "مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل" في التفسير، قال ابن حجر: جعله قوانين كقوانين أصول الفقه، وقال الذهبي: كان فلسفي التصوف، ملأ تفسيره بحقائقه ونتائج فكره وزعم أنه يستخرج من علم الحروف وقت خروج الدجال ووقت طلوع الشمس من مغربها[43].

علي بن أحمد بن عبد الله بن خيرة، أبو الحسن البلنسي (634ه): خطيبها ومقرئها إمام عارف، قرأ برواية ورش على طارق بن موسى ولنافع على أبي جعفر بن طارق وأخذ القراءات عن أبي جعفر أحمد بن عون الله الحصار وابن نوح، وحج سنة ثمان وسبعين وخمسمائة فسمع ببجاية من عبد الحق، وقرأ القراءات بمصر على الشاطبي ورجع فتصدر للإقراء، وأدب به وقتا، قرأ عليه أبو عبد الله الأبار القراءات السبع وأبو العباس بن الغماز وهو آخر أصحابه[44].

عَلِيّ بن حسن بن عَلِيّ بن عبد الله بن فروخ التَّمِيمِي، أبو الحسن (كان حيا في القرن السادس): من أهل بجاية، دَخَلَ الأندلس وَأخذ بإشبيلية عَن أَبِي زَكَرِيَّاء الْهَوْزَنِي تَلا عَلَيْهِ الْقُرْآن بالقراءات الثمان، وتصدر للإقراء بِبَلَدِهِ وَأخذ عَنْهُ [45].

علي بن عبد اللَّه النميري أبو الحسن الشهير بالششتري (668هـ): من أهل ششتر قرية من عمل وادي آش، معروفة، وزقاق الشّشتري معروف بها، وكان مجوّدا للقرآن، قائما عليه، عارفا بمعانيه، من أهل العلم والعمل، نزل بجاية، وتوفي بالشام[46].

علي بن عتيق الأنصاري القرطبي أبو الحسن (598هـ): من ولد سعد بن عبادة رضي الله عنه، الإمام الفقيه المقرئ العالم المحدث الراوية، أخذ القراءات عن أبي القاسم بن الفرس وأبي العباس بن زرقون، حدث ببجاية وفاس، حدث عنه أبو الحسن بن الفضل المقدسي سمع منه بالإسكندرية وأبو عبد الله التجيبي وأبو الربيع بن سالم وأبو الحسن بن خيرة وأبو الحسن الغافقي[47].

علي بن محمد بن علي بن جميل المعافري، أبو الحسن بن جميل (605هـ): مالقي استوطن الشام وعرف هنالك بزين الدين؛ روى بالأندلس عن بعض شيوخها، ورحل مشرقاً فأخذ ببجاية عن أبي محمد عبد الحق بن الخراط، روى عنه ببيت المقدس أخوه أبو زيد عبد الرحمن وأبو الحسن بن محمد بن خروف القرطبي، وكان ورعاً زاهداً فاضلاً، حافظاً الحديث، عارفاً بالقراءات السبع والعشر، والطيبة والنشر، حسن الصوت، اشتغل خطيبا ببيت المقدس إلى حين وفاته[48].

علي بن مؤمن بن محمد بن علي الحضرمي، أبو الحسن ابن عصفور (669هـ): من أهل إشبيلية، قرأ بها على جماعة من أكابر العلماء منهم أبو علي الشلوبين فحصل ما لم يحصل غيره، وارتحل إلى العدوة واستوطن بجاية، وكان بها أستاذا للأمير يحيى برد الله ضريحه، من تآليفه: شرح جزء من كتاب الله العزيز، سلك فيه مسلكا لم يسبق إليه من الإيراد والإصدار والأعذار، بما يتعلق بالألفاظ ثم بالمعاني ثم بإيراد الأسئلة الأدبية على أنحاء مستحسنة، وقال: لو أعانني الوقت وأمدني الله بالمعونة منه وأكمل

هذا الشرح على هذا المنزع، لكان ذخيرة العالم، مات من حمى أصابته في يوم شـــديد بتونس[49].

عَليّ بن هِشَام بن عمر بن حجاج بن الصعب، أبو الحسن اللَّخْمِــيّ (616هـ)، مــن أهل شريش وَدَار سلفه إشبيلية، روى عَن ابْن بشكوال ورحل حَاجا سنة ثمان وســتين وخمسمئة فلقي فِي طَرِيقه ببجاية أَبَا مُحَمَّد عَبْد الْحق بْن عَبْــد الــرَّحْمَن فَســمع مِنْــهُ واختلف إليه نحو خمسة أشهر ورغبه في المقام معه ليقرأ عليه ويؤخــذ عنــه، وَأدى الْفَرِيضَة فلقي أَبَا عبد الله الكركنتي قَرَأَ عَلَيْهِ الْقُرْآن بالسبع، وكان مقرئاً فاضلاً عــدلاً ثقة، إماماً في تجويد القرآن مبرزاً في حفظ الخلاف بين القــراء، وكانــت القــراءات بضاعته التي لا يتقدمه أحد في معرفتها ولا يدانيه، تصدر ببلده بعد قدومه من المشرق للإقراء وإسماع الحديث وغيره، فأخذ عنه أهل بلده وغيرهم من الراحلين إليــه وكثــر الانتفاع به، وولي الصلاة بجامع بلده، ولم يزل مأخوذاً عنه ومســتفاداً منــه إلــى أن توفي[50].

عمر بن مُحَمَّد بن مخلوف يكنى أَبَا علي (626هـ): أَخذ الْقِرَاءَات عَنْ أبي زَكَرِيَّــاء الجعيدي ببلنسية وصحبنا هُنَالك ويروي عَنْ أبي عبد الله بن نوح وَأبي عَليّ بــن زلال وَأبي جَعْفَر الْحصار وَأبي الْخَطَّاب بن وَاجِب وَأبي الْحسن بــن خيــرة وَعبــد الْحــق الزُّهْرِيّ وَأبي بكر عَتيق المربيطري وَأبي مُحَمَّد غلبون وَأبي بكر أُسَامَة وَأبــي عمــر بن عَاتٍ وَانْصَرَف إِلَى العدوة وَسكن بجاية وأقرأ بهَا الْقُرْآن وَأخذ عَنهُ[51].

عمر راسم بن علي بن سعيد بن محمد البجائي (1379هـ): ولــد بمدينــة الجزائــر وتعلم بكتاتيبها، ثم اعتمد على نفسه فتعلم العربية والفرنسية، عرف منذ صباه بأفكــاره الإصلاحية، وكان من أوائل الجزائريين المعتنقين لمذهب الأستاذ الإمام محمــد عبــده الإصلاحي، والداعين إليه، سجنه الفرنسيون في الحرب العالمية الأولى فلاقى المحــن الشديدة في سجنه، قال الأستاذ أحمد توفيق المدني: "وهو ممن نكبوا على يد الاســتعمار القاسي نكبة سوداء أثرت على البقية الباقية من حياته.."، من آثــاره: "تفســير القــرآن الكريم" كتبه في سجنه، مات بمدينة الجزائر[52].

عيسى بن محمد بن محمد بن أحمد الجعفري نسبة إلى جعفر بن أبي طالب الهاشمي الثعالبي المغربي، جار الله، أبو المهدي (1080ه): من أكابر فقهاء المالكية في عصره، أصله من "وطن الثعالبة" من أعمال الجزائر. ولد ونشأ في زواوة ورحل في طلب العلم، واستقر بمكة، وتصدى فيها لتعليم الحديث والفقه والتفسير والتاريخ والتصوف حتى توفي فيها[53].

القاسم بن محمد بن سيد قومه، أبو محمد الأندلسي، المقرئ البجائي –البجاني عند ابن بشكوال– (457ه): حجّ ورحل ولقي أصحاب ابن مجاهد، وأقرأ بجامع المرية توفي وله ست وثمانون سنة[54].

محمد البشير بن محمد الطاهر الشهير بالتواتي البجائي الأصل التونسي الدار (1311ه): ولا علاقة له بتوات، إنما سمي على رجل صالح من أهل توات، أخذ القراءات عن الشيخ محمد بن الرايس التونسي عن الشيخ محمد المشاط التونسي عن الشيخ حمودة بن محمد بن إدريس الحسني عن الشيخ محمد الحرقافي الصفاقصي عن أبي الحسن عليّ النوري الصفاقصي عن أبي عبد الله الافراني المغربي عن الشيخ سلطان المزاحي بأسانيده المعروفة، وبعد تخرجه من جامع الزيتونة تولى تدريس القراءات به والتصحيح بالمطبعة الرسمية، وتخرج عليه غالب علماء القراءات بتونس وكان مقرئا مجودا له مشاركة حسنة في العلوم[55].

محمد بن أحمد بن طاهر الأنصاري، أبو بكر الخِدَبّ (580ه): إشبيلي سكن مدينة فاس طويلاً في بعض خاناتها، روى عن أبي القاسم بن الرماك، وأبي الحسن بن الأخضر، روى عنه أبو بكر بن هود وأبو الحسن: ابن خروف وابن هشام الشريشي وكان رئيس النحويين بالمغرب في زمانه بلا مدافعة، وله تعاليق نبيلة على "معاني القرآن" للإمام أبي زكرياء يحيى بن زياد الفراء، رحل للمشرق، ثم قفل إلى المغرب واستقر ببجاية، يثوب إليه عقله أحياناً فيتكلم في مسائل عويصة من النحو مشكلة مجيباً سائله عنها فيوضحها أحسن إيضاح، ثم يغلب عليه فيتلف، وبقي على تلك الحال مدة ببجاية، ثم زاد عليه خدر، وتوفي بها[56].

محمدُ بن أحمدَ بن عبد الله سيِّد الناس، أبو الفضل اليعمري الإشبيليٌّ (659ه)، أُبَّذيٌّ الأصل، سكَنَ شَرِيشَ مُدّة، وكان حافظًا للقرآنِ العظيم منسُوبًا إلى تجويدِه وإتقانِ أدائــه ذا حَظٍّ من التفسير، انتقل لبجاية وسكنها، وولي صلاة الفريضـــة والخطبـــة بجامعهـــا الأعظم، وروى بها وأقرأ وأسمع، وكثر الآخذون عنه والسامعون منه والمقتــدون بــه منهم: أبو عبد الله بن صالح الكناني الشاطبي نزيل بجاية، ثم اســتقر أخــرة بتــونس وتوفي بها[57].

محمد بن الحسن القلعي (673ه)، نشأ في الجزائر وقرأ على جملـــة مـــن علمائهـــا كأبي عبد الله بن منداس، ثم انتقل إلى بجاية فاجتهد في تحصـــيل العلـــم والأدب بهـــا وتخرج على أساتذتها: أبو الحسن الحرالي، أبو الحسن ابن أبي نصر، أبـــو بكـــر بـــن محرز، برع في التفسير والحديث والأدب، توفي ببجاية، من تلاميذه المشهورين أحمـــد الغبريني، وله ديوان شعر فيه عدة مدائح نبوية[58].

محمد بن بلقاسم، أبو القاسم البوجليلي (1314ه)، ولد بقرية بوجليل ببجايـــة، حفـــظ القرآن على يد والده بمسقط رأسه ثم انتقل لزاوية اليلولي القرآنية بجرجرة، فأخذ عـــن شيوخها مختلف العلوم، ومنها القراءات العشر، وبعدها تفرّغ للتدريس بزاويـــة يلولـــة لينتقل إلى زاويته التي أسسها، ناشرا العلوم القرآنية واللغوية والفقهية، حتى وفاته، مـــن آثاره: كتاب التبصرة في قراءة العشرة، أرجوزة في التجويد، وغيرها[59].

محمَّد بن صالح بن أحمد الكناني الشاطبي، أبو عبـــد الله ويعـــرف بـــابن رحيمـــة (699ه): قرأ على أبي بكر محمَّد بن أبي القاسم بن وضاح والحافظ أبي عبد الله محمَّد بن الأبار وغيرهما، من تلامذته: محمَّد بن عمر بن محمَّد بن رشيد ومحمد بـــن علـــي بن محمَّد بن سلمة الأنصاري وغيرهما، وهو شيخ فقيه خطيب نحوي أســـتاذ مقـــرئ صالح، وزوى ودرى واستجاز وأجاز، وروى وأقرأ وكان عالمًا بعلم القراءات متفننًـــا فيها مجيدا لها، وروايته عالية من جهات كثيرة، قال ابن الجزري: هو خطيـــب بجايـــة وشيخها يعرف بابن رحيمة، وأعلى الناس إسنادًا بالشاطبية هناك[60].

مُحَمَّد بْن عَبْد الرَّحْمَن بْن عَلِيّ بن مُحَمَّد بن سُلَيْمَان، أبو عبد الله التجيبي (610ه): من أهل لقنت عمل مرسية وَسكن أَبوهُ أوريولة، أَخذ الْقرَاءَات بمرسية عَن قَرِيبه أبي أَحْمد بن معط في سنة خمس وستين وخمسمائة وسمع ببجاية من عبد الحق الحافظ انتقل لتمسان فاستوطَنَها، ورَحَلَ النَّاسُ إليه وتنافَسوا في الأخْذِ عنه؛ لعُلوٍّ روايتِه واشتهارِ عَدالتِه، كان مشهورا بالقراءات وقد ترجم له ابن الجزري في غاية النهاية توفي بتلمسان[61].

محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن الأبار، أبو عبد الله القضاعي (658ه): بَلَنْسِيٌّ أُنْدِيُّ أصلِ السَّلَف، رَوى قراءةً وسَماعًا عن أبوَيْ جعفر: ابن عليّ الحَصّار –وتَلا عليه بالسَّبع وبقراءة يعقوب–، ورَوى أيضًا عن أبيه أبي محمد، وتَلا عليه بحَرْف نافع وابن عبد الله بن نُعمان وابن عبد الجَبّار، وسَمِع كلامَه في التفسير وأجاز له، تنقل بين البلدان وأكثر من السماع والتأليف، انتقل لبجاية وأقام بها طويلًا عاكفًا على العلم ونشرِه، درس بها وأقرأ وروى وأسمع وصنف وألف، انتقل لتونس ولم يطل مقامه حتى قتل بها أشنع قتلة[62].

محمد بن عبد الله بن محمد المعافري القلعي، أبو عبد الله بن الخراط المقرئ (القرن السابع): أحد الثقاة الأثبات، الصلحاء الرواة، قرأ بقلعة "بني حماد" ولقي بها مشائخ، منهم الأستاذ أبو الحسن علي بن محمد بن عثمان التميمي، والأستاذ أبو الحسن علي بن شكر بن عمر القلعي، وأخذ عن الخطيب المقرئ النحوي، أبي عبد الله محمد بن عبد العزيز بن محمد، المعروف بابن عفراء، وانتقل إلى بجاية واستوطنها وأقرأ بها، وجلس للأستاذية وانتفع الناس به، وكان معروفا بالصلاح، وكان مرفعا مكرما وكان حسن التلاوة صادق القراءة[63].

محمد بن علي الشريف الشلاطي (1314ه)، ولد بشلاطة عام 1238ه، وتثقف في زواية جده وأبيه محمد وعلي أوموسى، وتصدى للتربية والتعليم وتحفيظ القرآن بالروايات، من أعماله تفسير الغريب للمبتدئ القريب، وغيرها من المصنفات[64].

محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي الطائي الأندلسي، أبـو بكـر المعروف بمحيي الدين بن عربي، الملقب بالشيخ الأكبـر (638ه): صـوفي، عـرف بمذهبه في وحدة الوجود. ولد في مرسية بالأندلس، ودرس الفقـه والحـديث باشـبيلية وسمع بقرطبة، وقام برحلة، فدخل بجاية ومصر والحجاز والشام ومـا بـين النهـرين وبلاد الروم، له نحو ثلاثمائة كتاب ورسالة منها: الجمع والتفصيل في أسـرار معـاني التنزيل؛ وهو تفسير كبير، بلغ فيه إلى تفسير سورة الكهف، وله أيضا كتاب المثلثـات الواردة في القرآن الكريم وكتاب المسبعات الواردة في القرآن الكريم وكتاب الرمز فـي حروف أوائل السور[65].

مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن أبي الْقسم بن مُحَمَّد بن عبد الصَّمد بن حسن بن عبـد المحسـن أَبُو الْفضل المشدالي الزواوي (نحو 865ه)، مفسر، عالم بالحديث، من أشـهر علمـاء المالكية في عصره، وولد ببجاية وتعلم بها، ثم تصدر للإقراء، توجـه للمشـرق وذاع صيته، توفي غريبا في عين تاب بين حلب وأنطاكية[66].

محمد بن محمد بن مسعود الباهلي الجياني ثم البجائي المعروف بابن المفسر يكنـى أبا عبد الله (744ه)، من مشايخه: الناصر المشذالي وغيره، من تلامذته: أبو عبـد الله الزواوي، والخطيب بن مرزوق وغيرهما، جاء في الديباج: "الإمام العلامـة المتفـنن المفسر المصنف الأوحد نادر العصر"[67]، ووصفه ابن قنفذ بالفقيه المحدث المفسر.

مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن وضاح اللَّخْمِيّ، أبو بكر (634ه): مـن أهـل جَزِيـرَة شـقر وَصَاحب الصَّلَاة وَالْخطْبَة بجامعها، روى عَنْ أَبِيه أبي القَاسِم وَأخـذ عَنـهُ الْقـرَاءَات ورحل حَاجا فَأدى الْفَرِيضَة فِي سنة 580، ولَقي بِالْقَاهِرَةِ أَبَا مُحَمَّد قَاسـم بـن فيـرة الضَّرِير الشاطبي فَسمع مِنْهُ قصيدته الطَّوِيلَة فِي الْإِقْرَاء الْمَعْرُوفَة بحرز الْأَمَانِي وَوجه التهاني وَأَجَازَ لَهُ مَا رَوَاهُ وصنفه فِي جُمَادَى الْأُخْرَى سنة إِحْـدَى وَثَمَـانِينَ، وَسـمع ببجاية من أبي مُحَمَّد عبد الْحق بن عبد الرَّحْمَن الأشبيلي وَأَجَازَ لَهُ أَبُو الْحسن بن هُذَيْل وَأَبُو الْقَاسِم بن حُبَيْش وَأَبُو عَبْد اللَّه بْن حُمَيْد وَأَبُو بَكْر بْن أبي جَمْرَة، وتصـدر بِبلَـدِهِ للإقراء فكان هو الذي أدخل الشاطبية إلى بلاد المغرب والأندلس ورواها لهم[68].

منصور بن أحمد بن عبد الحق المشدالي، أبو علي الشيخ ناصـــر الـــدين (731ه): الإمام الفذ الأوحد الحافظ العلامة المجتهد، كان فقيهًا محصلًا متقنًا رحل للشرق ولقـــي أفاضل، وله مشاركة في علم المنطق والعربية وكل هذه الفنون تقرأ عليه، لـــه دروس حسنة منقحة وعبارة جيدة، يتكلم على التفسير والحديث فيجيد، وهو من أهل الشـــورى والفتيا، له شرح على الرسالة لم يكمل وغيرها[69].

منصور بن علي بن عبد اللَّه الزواوي أبو علـــي (بعـــد 770ه)، حـــافظ للحـــديث نحوي، أصولي، من أكابر علماء المالكية في وقته، من أهل زواوة، نشـــأ فـــي بجايـــة وأخذ عن أشياخها، رحل إلى الاندلس سنة 753 هـــ، فاشتغل بالتدريس وتصدر للفتيـــا ثم امتحن بقضية شرعية، فترك الاندلس سنة 765هـــــ واســـتقر بتلمســـان يقـــرىء ويدرس، وحلق للناس متكلمًا على الفروع الفقهية والتفسير وتصدر للفتيا[70].

يحي بن أبي علي المشتهر بالزواوي، أبو زكريا الحسني (611ه)، منســـوب إلـــى بني حسن من أقطار بجاية، ولد في "بني عيسى" من قبائل "زواوة" وقرأ رضي الله عنه أول أمره "بقلعة بني حماد" على الشيخ الصالح أبي عبد الله ابن الخـــراط وغيـــره ثـــم ارتحل إلى المشرق، ولقي الفضلاء والأخيار والمشائخ من الفقهاء والمتصـــوفة وأهـــل طريق الحق. استوطن بجاية رحمه الله بعد رجوعه من المشرق، وجلس بهـــا لنشـــر العلم وبثه حتى وفاته، وقد كانت بعد صلاة العصر من يوم الجمعة، الرابع عشر مـــن شهر رمضان المعظم، حيث توفي فجأة من غير تقدم مرض، وكان قد رتـــب ميعـــادا بالقراءة لسماع تفسير القرآن العظيم، وميعادا بعد صلاة الظهر لسماع حـــديث رســـول الله صلى الله عليه وسلم على جري عادة السلف الصالح في شهر رمضان[71].

يحيى بن عبد الرحمن بن محمد بن صالح بن علي بن عمر بـــن عقيـــل الكنـــدي العقيلي المالكي نزيل القاهرة، المعروف بالعجيســـي شـــرف الـــدين (862ه)، مقـــرئ نحوي، أخباري ولد سنة 777 هـــ أو قبلها بأرض عجيسة ونشأ في بجاية، ورحل إلى المشرق، وتوفي بالقاهرة في 27 شعبان، من آثاره: شرح على ألفية ابن مالك في أربع أو ثلاث مجلدات[72].

يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور الزواوي، أبو الحسين زين الدين (628ه): عالم بالعربية والأدب، واسع الشهرة في المغرب والمشرق، سكن دمشق زمنا، ورغبه الملك الكامل محمد في الانتقال إلى مصر، فسافر إليها ودرّس بها الأدب في الجامع العتيق بالقاهرة، وتوفي فيها، من تآليفه "أرجوزة في القراءات السبع"(73).

يحيى بن موسى بن سعيد بن أحمد أبو زكريا الغماري الميازري المعروف بالميلي (بعد 760ه) مقرئ بجاية، رحل بعد الستين وسبعمائة إلى المشرق، وقرأ على بعض أصحاب الصائغ ورجع إلى بلاده، وقد كان ذهنه جيدا واعتناءه بالقراءات تام وحرصه زائد(74).

يوسف بْن فَتُّوح، أَبُو الحَجّاج الأندلسيّ، المريّيّ، العشّاب (561ه): سَمِعَ أَبَا عَلِي بْن سُكَّرَة، وخَلَف ابن الْإِمَام، وكان ذكيًّا فاضلًا، ولّي الشُّورَى ببلده، ثمّ حجّ، وركب من المرية إلى بجاية، فغرقت كتبه بمرسى بجاية، فأتى فاس، وأخفى نفسه عَنِ الرّواية، ثمّ روى "الموطّأ"، وكان لَهُ حظّ من الفِقْه، والتّفسير، ومعرفة النّبات؛ كَانَ يجلبه ويتَّجر فِيهِ، روى عَنْهُ أَبُو الْحَسَن بن النقرات، وأبو عبد الله بن العقار(75).

المطلب الثاني: استخلاص النتائج وتقييم الجهود: إن الملاحظة الأولية للتراث القرآني والأثر الشاهد لتراجمها المستجمعة لَيُفسّر بكل وضوحٍ المنزلة التي احتلتها بجاية في الحضارة، ويعكس سرّ التقدم والدرجة التي وصلتها في التمكين والنفوذ لمختلف التخصصات الأخرى من صناعة وتجارة وعمران.

وكمحاولة مني لإعطاء حصيلة تقريبية للقراء والمفسرين وما أنتجته قرائحهم من مدوّنات لامعة، يأتي هذين الجدولين المرفقين –استخلاصا مما سبق– لتنظيم الفرز وتسهيل التصوّر.

جدول المتخصصين

الاسم	الوفاة	الاشتغال
إبراهيم بن فائد الزواوي	857	اشتغل بالتفسير، والقراءات
إبراهيم بن محمد المربيطري	631	اشتغل بالقراءات وأدب بالقرآن دهرا طويلا
إبراهيم بن محمد البجائي	882	ذو إِلْمَام بالتفسير يستحضر من ابن عَطِيَّة
أبو علي الضرير البجائي	610	مقرئ
أحمد بن أبي القاسم المسيلي	789	مقرئ
أحمد بن أحمد السلمي	747	مقرئ
أحمد بن أحمد بن أحمد الغبريني	772	مقرئ
أحمد بن أحمد الغبريني	704	له مشاركة في التفسير
أحمد بن عبد الرحمن السلمي	592	مقرئ
أحمد بن محمد القرشي	692	مفسر
أحمد بن محمد الشاطبي	674	مقرئ ضابط متقن، لم يكن له عمل سوى الاشتغال بالقرآن
أحمد بن محمد المعافري	القرن السابع	مقرئ، تصدر للإقراء بالجامع الأعظم ببجاية
أحمد بن محمد البجائي	869	اشتغل بالقراءات
أحمد بن محمد اللياني	بعد 890	اشتغل بالقراءات
أحمد بن محمد الزواوي	بعد 750	شيخ القراء بالمغرب في وقته
أرزقي بن محند الشرفاوي	1364	فسّر القرآن كله إقرائيا
جعفر بن عبد الرحمن البجائي	644	مقرئ
جعفر بن عبد الله الخزاعي	624	مقرئ ويؤثر التفسير
الحسن بن محمد بن الرهبيل	585	مقرئ

سعد بن علي البلنسي	654	كان مُقرئًا مجوِّدًا متحقِّقًا بصَنْعة الإقــراء، ولم يكن له عمل ولا حرفة ولا خلطة للناس سوى الاشتغال بإقراء القرآن رواية وتفهيما، وبسطا وتعليما، أقرأ ببجاية
السعيد بن علي اليجري	1371	مقرئ
سعيد بن محمد العقباني	811	مفسر
الصديق بوفليح أويحيا	1358	مقرئ
طاهر بن صالح السمعوني	1338	مفسر
عبد الباسط بن خليل الملطي	920	له اشتغال بالتفسير
عبد الحكيم بن إبراهيم القروي	بعـــــد 300	مقرئ، وكان إماما في رواية ورش
عبد الحميد بن باديس الصنهاجي	1359	فسّر القرآن كاملا إقرائيا
عبد الرحمن بن أحمد الوغليسي	786	مفسر
عبد الرحمن بن البهاء الزرندي	808	مقرئ
عبد الرحمن بن الحسن بوعزيز	1374	مقرئ، وتفرغ لتعليم القــرآن بعــدة قــرى ومداشر
عبد الرحمن بن محمد الثعالبي	875	مفسر
عبد الرحمن بن يحي القرشي	بعـــــد 580	مقرئ، تصدر للإقراء ببجاية
عبد الرحمن بن يسعد اليلولي	1105	مقرئ، أنشأ مدرسة لتعليم القراءات
عبد السلام بن علي الزواوي	681	مقرئ
عبد الله بن محمد القضاعي	378	مقرئ
عبد الله بن محمد العبدري	540	مقرئ، أقرأ ببجاية نحوا من عشرين سنة
العربي الخداشي الجودي	1263	مقرئ بزاوية يلولة
علي بن أحمد الحرالي	638	مفسر

علي بن أحمد البلنسي	634	مقرئ
علي بن حسن التميمي	كان حيا في القرن السادس	مقرئ، وتصدر للإقراء ببجاية وأخذ عنه
علي بن عبد الله الششتري	668	كان مجوّدا للقرآن، قائما عليه، عارفا بمعانيه
علي بن عتيق الأنصاري	598	مقرئ
علي بن محمد المعافري	605	مقرئ
علي بن عصفور الإشبيلي	669	مفسر
علي بن هشام اللخمي	616	مقرئ، إمام في تجويد القرآن، مبرز في حفظ الخلاف بين القراء
عمر بن محمد بن مخلوف	626	مقرئ، استوطن بجاية وأقرأ بها
عمر راسم البجائي	1379	مفسر
عيسى بن محمد الثعالبي	1080	تصدى لتعليم التفسير
القاسم بن محمد البجائي	457	مقرئ
محمد البشير التواتي	1311	تولى تدريس القراءات بتونس والتصحيح بالمطبعة الرسمية، وتخرج عليه غالب علماء القراءات بتونس
محمد بن أحمد الإشبيلي	659	كان حافظًا للقرآنِ العظيم منسُوبًا إلى تجويدِه وإتقانِ أدائه، ذا حَظٍّ من التفسير، انتقل لبجاية وسكنها، وولي صلاة الفريضة والخطبة بجامعها الأعظم
محمد بن الحسن القلعي	673	برع في التفسير
محمد بن بلقاسم البوجليلي	1314	مقرئ

محمد بن رحيمة الشاطبي	699	كان عالــمًا بعلم القراءات متفننًا فيها مجيــد لها، وروايته عالية من جهات كثيرة، قــال ابن الجزري: هو خطيب بجايــة وشــيخها يعرف بابن رحيمة، وأعلى النــاس إســنادًا بالشاطبية هناك
محمد بن عبد الرحمن التجيبي	610	مقرئ
محمد بن الأبار القضاعي	658	مقرئ
محمد بن الخراط القلعي	القــرن السابع	مقرئ
محمد بن علي الشلاطي	1314	مقرئ
محمد بن عربي الطائي	638	مفسر
محمد بن محمد المشدالي	نحـــو 865	مفسر
محمد بن المفسر الباهلي	744	مفسر
محمد بن وضاح اللخمي	634	مقرئ
منصور بن أحمد المشدالي	731	مفسر
منصور بن علي الزواوي	بعـــد 770	مفسر
يحي بن أبي علي الحسني	611	مفسر
يحي بن عبد الرحمن العجيسي	862	مقرئ
يحي بن موسى الميلي	بعـــد 760	مقرئ
يوسف بن فتوح العشاب	561	كان له حظ من التفسير

جدول المؤلفات

المؤلف	الوفاة	عنوان الكتاب
إبراهيم بن فائد الزواوي	857	تفسير القرآن
إبراهيم بن محمد السفاقسي	742	المجيد في إعراب القرآن المجيد
أحمد بن أحمد السلمي	747	أرجوزة باسم: زهر الغرر في عدد آيات السور وذكر الأعداد على حرف أبي جاد
أحمد بن ثابت التلمساني	1152	الرسالة الغراء في ترتيب وجوه القراء
أحمد بن عبد الرحمن السلمي	592	تنزيه القرآن عما لا يليق بالبيان
أحمد بن عبد الرحمن الخزرجي	582	نفس الصباح وشمس التبيين والإيضاح وهو مختصر في تفسير غريب ألفاظ القرآن وناسخه ومنسوخه وبيان الجمل من مشكله
أحمد بن محمد القرشي	692	تفسير القرآن الكريم
أحمد بن محمد الشاطبي	674	مرسوم الخط، تمكين ورش، مذهب ورش في تفخيم اللام وترقيقها
أحمد بن محمد المعافري	القرن السابع	مختصر كتاب التيسير للداني
أرزقي بن محند الشرفاوي	1364	إرشاد الطلاب إلى ما في الآيات من الإعراب
حسن بن علي المسيلي	نحو 580	التفكر فيما تشتمل عليه السور والآيات من المبادئ والغايات
سعيد بن محمد العقباني	811	تفسير سورة الأنعام، وتفسير سورة الفتح
طاهر بن صالح السمعوني	1338	التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن، حواشي على تفسير البيضاوي، حواشي على تفسير الطبري، طبقات المفسرين
عبد الباسط بن خليل اللمطي	920	القول الخاص في تفسير سورة الإخلاص، النفحة الفائحة في تفسير سورة الفاتحة

عبد الحق بن عبد الرحمن الإشبيلي	581	غريب القرآن والحديث
عبد الحميد بن باديس الصنهاجي	1359	مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير
عبد الرحمن بن محمد الثعالبي	875	الجواهر الحسان في تفسير القرآن، الذهب الإبريز في غريب القرآن العزيز، تحفة الإخوان في إعراب بعض آي من القرآن
عبد الرحمن بن يحي القرشي	بعد 580	مختصر في القراءات
عبد السلام بن علي الزواوي	681	غريب الوقف والابتداء، عدد الآي، التنبيهات على معرفة ما يخفى من الوقوفات
علي بن أحمد الحرالي	638	مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل
علي بن عصفور الإشبيلي	669	شرح جزء من كتاب الله العزيز، سلك فيه مسلكا لم يسبق إليه من الإيراد والإصدار والأعذار، بما يتعلق بالألفاظ ثم بالمعاني ثم بإيراد الأسئلة الأدبية على أنحاء مستحسنة، وقال: لو أعانني الوقت وأمدني الله بالمعونة منه وأكمل هذا الشرح على هذا المنزع، لكان ذخيرة العالم
عمر راسم البجائي	1379	تفسير جزء عم، وقد فسره في السجن
محمد بن أحمد الخدبّ	580	تعاليق على " معاني القرآن " للإمام أبي زكرياء يحيى بن زياد الفراء
محمد بن بلقاسم البوجليلي	1314	التبصرة في قراءة العشرة، أرجوزة في التجويد
محمد بن علي الشلاطي	1314	تفسير الغريب للمبتدئ القريب

محمد بن عربي الطائي	638	الجمع والتفصيل في أسرار معاني التنزيل؛ وهو تفسير كبير، بلغ فيه إلى تفسير سورة الكهف، كتاب المثلثات الواردة في القرآن الكريم، كتاب المسبعات الواردة في القرآن الكريم، كتاب الرمز في حروف أوائل السور
يحي بن عبد المعطي الزواوي	628	أرجوزة في القراءات السبع

بلغ عدد العلماء المترجم لهم خمسة وسبعين عالما، وهم على صنفين: صنف عرفوا بالاشتغال والمشاركة في علمي القراءات أو التفسير أو بهما معا؛ وهم ثمانية وستون عالما، والصنف الباقي عرفوا بمصنفاتهم القرآنية دون قيد توصيفي، وقد انتهى مجموع ما كتبه الصنفان إلى اثنتين وأربعين مصنفا، بعضها مفقود، وبعضها الآخر متداول مطبوع [76].

وقد ابتدأ البجائيون خدمتهم للقرآن منذ القرن الرابع الهجري، ليبلغوا في القرن السابع أوج طاقتهم، ولم يزل حرصهم ونشاطهم في استمرار حتى مطلع القرن العشرين أين عرف بعض الهنة والضعف مع التنكيل الاستدماري، والملاحظ أن تفرغهم للإقراء بالطرق وتحصيل الأسانيد العالية كان أوفر حظا من التفسير، ودونهما مباحث الإعراب والوقوف والعدّ.

ولقد تنوّع عطاؤهم وظل إرثا متناقلا يأخذه اللاحق عن السابق، ومما أسهم فيه المعمّرات والمدارس المتخصصة التي جعلت من بجاية قبلة للطلاب ومقصدا للمعلّمين، وكذا التواصل الثقافي بالرحلات والأسفار، ولعل أهم الروافد القوية له جسر الأخذ والمدّ بينها وبين الأندلس، وبأقل درجة منه مع المشرق العربي.

خاتمة: إن هذه المقالة ما هي إلا مسحة عابرة، وطلة مستعجلة، أردت من خلالها إبراز واقع حاضرة بجاية والدور الريادي لأبنائها ونزلائها في خدمة القرآن الكريم ومع ذلك تجلت صورتها بوجه مشرق، وبدت متهلّلة مشعّة، ولئن جمع باحث نَفَسَه على تنقيب أعمق لخرج لنا بمجلدات ضخام من تاريخها القرآني، كيف لا ولها زوايا

متخصصة في الدراسات القرآنية، كزاوية الشلاطي، والليلولي، ومدرسة الفنون والقرآن[77]، بل إنها أنجبت من كل شبر على أرضها علماء ومجتهدين، نسبوا إليها وظلت أساميهم شاهدة على تفوّق مختلف جهاتهم، فمنهم: اليراتني، والمليكشي والمنقلاتي، والمشدالي، والوغليسي، والبطروني، والجرجري، والعيدلي، والرحموني والبلولي، والشلاطي، والغبريني، والبوجليلي، والشرفاوي، والمتناني، والتقابي والإفليسي، والزكري، والسمعوني، والحسناوي وغيرهم.

هذا وإن أسانيدهم القرآنية لا زالت رطبة بالقراء المغمورين، طافحة بالرجال المسندين[78]، وفي خبايا الكتب نماذج أخرى مضيئة[79]، غير أن البحث اقتصر على من حضرت ترجمته، وكان متخصصا بالقراءات أو التفسير، التزاما بالوقت ودفعا للطول، ولولا البطش الفرنسي وسعيه الحثيث لتخريب وتدمير المنطقة نظرا لخلفيتها العلمية الراقية لكتب تاريخ غير الذي نقرؤه، ومع ذلك بدت متماسكة وحافظت على موروثها إلى آخر رمق ...

ومما أرفعه من وصايا في خاتمة البحث هو استكمال البحث عن مشيخة الإقراء ومدرسة التفسير لعلماء بجاية، والتوسع في التراجم الشحيحة، ومواصلة التفتيش عن مؤلفاتهم في بيوتات العلم كعائلة قرّي وملاك المخطوط خاصة في ضواحي بجاية كبني ورثيلان وبني يعلى، وقد كانت لي جولات تنقيبية هناك، ولم أرجع منها بسوى فتاوي وأقضية وتملكات أراضي ومنثورات في الفلك والعقيدة وقطع تفسيرية مجهولة.

فهرس المصادر والمراجع:

- إبراهيم بن فرحون، الديباج المذهب، تحقيق: محمد الأحمدي، دار التراث، القاهرة.

إبراهيم مقلاتي، الدلالة في تاريخ بعض علماء بجاية وأمشدالة، دار المعرفة، الجزائر ط1، 2015م.

- أبو عبد الله بن عسكر وأبو بكر بن خميس، أعلام مالقة، تحقيق: عبد الله المرابط الترغي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، ط1، 1999م.
- أحمد الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكاتب العربي القاهرة، 1967م.
- أحمد العدوي، مسالك الأبصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط1، 1423ه.
- أحمد الغبريني، عنوان الدراية، تحقيق: عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت، ط2، 1979م.
- أحمد المقري، نفح الطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط2، 1997م.
- أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، تحقيق: عبد الحميد الهرامة، دار الكاتب، ليبيا، ط2 2000م.
- أحمد بن حجر، الدرر الكامنة، تحقيق: محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف الهند، ط2، 1972م.
- أحمد بن قنفذ القسنطيني، الوفيات، تحقيق: عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت ط4، 1983م.
- أحمد ساحي، أعلام من زواوة، طباعة الثورة الإفريقية، الجزائر.
- إسماعيل البغدادي، إيضاح المكنون، تحقيق: محمد شرف الدين ورفعت الكليسي، دار إحياء التراث العربي، لبنان.
- إسماعيل البغدادي، هدية العارفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1951م.
- حاجي خليفة، سلم الوصول، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة إرسيكا، تركيا 2010م.
- حسن وعليلي، العشر النافعية وامتداداتها في الجزائر (مدرسة الشيخ البوجليلي نموذجا)، فعاليات المؤتمر العالمي الأول للقراءات، المغرب، 2013م.

- حمدان خوجة، المرآة، تحقيق: محمد العربي الزبيـــري، المؤسســـة الوطنيـــة لفنـــون المطبعية، الجزائر، 2006م.
- خلف بن بشكوال، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، تحقيـــق: الســـيد عـــزت العطـــار الحسيني، مكتبة الخانجي، مصر، ط2، 1955م.
- خليل الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، 2000م.
- خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، الخامسة عشر، 2002م.
- زوهري وليد، قراءة في مخطوط معالم الاستبصار بتفصيل الأزمان ومنافع البـــوادي والأمصار لمحمد بن علي الشريف الزواوي الشلاطي، مجلة الفضاء المغربي، الجزائر، العدد 2، 2011م.
- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار البصائر، طبعة خاصة، الجزائر.
- سمير جاب الله، الفقيه المقرئ محمد بن بلقاسم البوجليلي وآثاره العلمية، مجلة جامعـــة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية، العدد 27، 2013م.
- صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر، دار البصائر، الجزائر، طبعة خاصة، 2009م.
- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافيـــة للتـــأليف والترجمـــة والنشر، بيروت، ط2، 1980م.
- عادل نويهض، معجم المفسرين، مؤسسة نويهض، بيروت، ط3، 1988م.
- عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2، 1965م.
- عبد الرحمن بن خلدون، رحلة ابن خلدون، تحقيق: محمد بن تاويـــت الطنجـــي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004م.
- علي الرعيني، برنامج شيوخ الرعيني، تحقيق: إبراهيم شـــبوح، المطبعـــة الهاشـــمية دمشق، 1962م.
- علي القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط1، 1982م.
- عمر بن العديم، بغية الطلب، سهيل زكار، دار الفكر.

- مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986م.
- مجموعة من الباحثين، الموسوعة الميسرة، مجلة الحكمة، بريطانيا، ط1، 2003م.
- مفتاح خلفات، قبيلة زواوة ما بين القرنين 6ه و9ه، دار الأمل، الجزائر، ط1 2011م.
- محمد الحميري، الروض المعطار، إحسان عباس، مؤسسة ناصر، بيروت، ط2 1980م.
- محمد الداودي، طبقات المفسرين، دار الكتب العلمية، بيروت.
- محمد الذهبي، تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، تحقيق: بشار عواد معروف دار الغرب، تونس، ط1، 2003م.
- محمد الذهبي، معرفة القراء الكبار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997م.
- محمد السخاوي، الضوء اللامع، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.
- محمد السعيد بن زكري، أوضح الدلائل على وجوب إصلاح الزوايا ببلاد القبائل تحقيق: أرزقي فراد، دار هومة، الجزائر، 2015م.
- محمد الشوكاني، البدر الطالع، دار المعرفة، بيروت.
- محمد الطالبي، نزهة المشتاق، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1409م.
- محمد الكتاني، فهرس الفهارس، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب، بيروت، ط2 1982م.
- محمد المحبي، خلاصة الأثر، دار صادر، بيروت.
- محمد المراكشي، الذيل والتكملة، تحقيق: مجموعة من الباحثين، دار الغرب، بيروت ط1، 2012م.
- محمد المراكشي، السفر الخامس من كتاب الذيل، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، ط1، 1965م.
- محمد المكي، العقد الثمين، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ط1، 1998م.
- محمد بسكر، أعلام الفكر الجزائري، دار كردادة، الجزائر، طبعة خاصة، 2013م.
- محمد بن الأبار، التكملة، تحقيق: عبد السلام الهراس، دار الفكر، لبنان، 1995م.

- محمد بن الجزري، غاية النهاية، تحقيق: ج. برجستراسر، مكتبة ابن تيمية.
- محمد بن الخطيب، الإحاطة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1424ه.
- محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب، بيروت، ط2، 1994م.
- محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، تحقيق: عبد المجيد خيالي دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م.
- مسعود كواتي ومحمد الشريف، أعلام مدينة الجزائر ومتيجة، منشورات الحضارة الجزائر، ط2، 2010م.
- الموسوعة الموجزة في التاريخ الاسلامي، (المكتبة الشاملة).
- موسى اليونيني، ذيل مرآة الزمان، بعناية وزارة التحقيقات الحكمية الهندية، دار الكتاب الاسلامي، القاهرة، ط2، 1992م.
- ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت.
- يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، دار الغرب، بيروت، ط1 1995م.

الاحالات:

[1] لمزيد تفصيل ينظر: محمد الطالبي، نزهة المشتاق، 260/1، ياقوت الحموي، معجم البلدان 339/1، أحمد العدوي، مسالك الأبصار، 146/4، عبد الرحمن بن خلدون، رحلة ابن خلدون ص92، محمد الحميري، الروض المعطار، ص80، حمدان خوجة، المرآة، ص15 وما بعدها مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، 275/2، الموسوعة الموجزة في التاريخ الاسلامي، 203/11 (المكتبة الشاملة).

[2] محمد السخاوي، الضوء اللامع، 116/1، محمد الداودي، طبقات المفسرين، 17/1، أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ص56.

[3] أحمد بن حجر، الدرر الكامنة، 62/1.خير الدين الزركلي، الأعلام، 63/1، عادل نويهض معجم المفسرين، 19/1.

[4] محمد بن الأبار، التكملة، 144/1.

[5] محمد السخاوي، الضوء اللامع، 149/1.

[6] عمر بن العديم، بغية الطلب، 4535/10.

[7] أحمد بن قنفذ، الوفيات، ص377.

[8] محمد بن الجزري، غاية النهاية، 37/1.

[9] محمد مخلوف، شجرة النور، 323/1، عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص332.

[10] عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص331، أحمد الغبريني، عنوان الدراية، ص360.

[11] عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص43، إسماعيل البغدادي، إيضاح المكنون، 312/3 هدية العارفين، 173/1.

[12] إبراهيم بن فرحون، الديباج المذهب، 211/1، حاجي خليفة، سلم الوصول، 165/1.

[13] محمد بن الأبار، التكملة، 76/1، محمد المراكشي، الذيل والتكملة، 421/1، حقق نفس الصباح الأستاذ محمد عز الدين المعيار الإدريسي قديما بالمغرب على نسخة ناقصة وحيدة بخزانة ابن يوسف بمراكش، وتوجد بمصر نسخة أعلى وأكمل لم يقف عليها.

[14] أحمد الغبريني، عنوان الدراية، ص347، عادل نويهض، معجم المفسرين، 67/1، محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، 455/3.

[15] أحمد الغبريني، عنوان الدراية، ص85.

[16] أحمد الغبريني، عنوان الدراية، ص316، خير الدين الزركلي، الأعلام، 124/2.

[17] محمد السخاوي، الضوء اللامع، 136/2.

[18] محمد السخاوي، الضوء اللامع، 145/2.

[19] عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص213.

[20] يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، 313/1، شهادة محمد الصالح الصديق، أعلام الفكر الجزائري، محمد بسكر، ج2، ص75، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر صلاح مؤيد العقبي، ص474.

[21] محمد المكي، العقد الثمين، 278/3.

[22] محمد بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، 258/1.

[23] أحمد الغبريني، عنوان الدراية، ص33، خير الدين الزركلي، الأعلام، 203/2، أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ص156، عادل نويهض، معجم المفسرين، 769/2.

[24] محمد بن الأبار، التكملة، 212/1.

[25] محمد المراكشي، الذيل والتكملة، 16/2، أحمد الغرناطي، صلة الصلة، ص367، محمد بن الجزري، غاية النهاية، 303/1، أحمد بن قنفذ، الوفيات، ص322، أحمد الغبريني، عنوان الدراية، ص289 وسماه ابن قنفذ والغبريني بسعيد وليس سعد.

[26] يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، 307/1.

[27] أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ص189، عادل نويهض، معجم المفسرين، 210/1.

[28] يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، 126/1.

[29] عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص134.

[30] عادل نويهض، معجم المفسرين، 254/1.

[31] خير الدين الزركلي، الأعلام، 281/3، عادل نويهض، معجم المفسرين، 257/1.

[32] محمد بن الجزري، غاية النهاية، 360/1.

[33] محمد مخلوف، شجرة النور، 342/1، عادل نويهض، معجم المفسرين، 780/2.

[34] محمد السخاوي، الضوء اللامع، 145/4.

[35] يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، 57/1.

[36] أحمد بابا التنبكتي، ص257، عادل نويهض، معجم المفسرين، 276/1.

[37] محمد بن الأبار، التكملة، 33/3، أحمد الضبي، بغية الملتمس، ص372، محمد الذهبي، تاريخ الاسلام (بشار)، 923/12.

[38] محمد السعيد بن زكري، أوضح الدلائل، ص116.

[39] موسى اليونيني، ذيل مرآة الزمان، 173/4، محمد الذهبي، تاريخ الاسلام، 451/15، خليل الصفدي، الوافي بالوفيات، 262/18، مواضع بعض كتبه: التنبيهات على معرفة ما يخفى من الوقوفات توجد منه نسخة في مركز الملك فيصل 2694-4-ف، كتاب في الوقوف الغريبة في القرآن الكريم وما اشتهر الخلاف فيه بين مصنفيها توجد منه نسخة دار الكتب القاهرة 202/3 رقم 18802ب، كتاب الوقف توجد منه نسخة برلين 127/1 رقم 570/11.

[40] محمد الذهبي، معرفة القراء الكبار، ص190، محمد بن الجزري، غاية النهاية، 456/1.

[41] محمد بن الأبار، التكملة، 258/2، ذكره مرة ثانية في الغرباء بشيء من التغيير، حيث قال: " من أصل قلعة حَمَّاد وَأَحْسبهُ أندلسيًا يكنى أَبَا مُحَمَّد يروي عنْ أبي دَاوُد المقرىء وَقَدْ حدث وَأخذ عَنْهُ بِجَامِع القلعة الْمَذْكُورَة فِي رَجَب سنة 519 " 303/2، محمد الذهبي، معرفة القراء الكبار ص227، محمد بن الجزري، غاية النهاية، 455/1.

[42] محمد السعيد بن زكري، أوضح الدلائل، ص127، أحمد ساحي، أعلام من زواوة، ص102.

[43] أحمد الغبريني، عنوان الدراية، ص143، خير الدين الزركلي، الأعلام، 256/4، عادل نويهض، معجم المفسرين، 352/1.

[44] محمد بن الجزري، غاية النهاية، 520/1، محمد مخلوف، شجرة النور، 258/1.

[45] محمد بن الأبار، التكملة، 249/3.

[46] أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ص321، محمد بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة 172/4.

[47] محمد مخلوف، شجرة النور، 232/1.

[48] محمد بن الأبار، التكملة، 222/3، محمد المراكشي، السفر الخامس، 314/1، الذيل والتكملة 265/3، أبو عبد الله بن عسكر وأبو بكر بن خميس، أعلام مالقة، ص306.

[49] أحمد الغبريني، عنوان الدراية، ص317، محمد الذهبي، تاريخ الاسلام، 172/15، محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، 391/3.

[50] محمد المراكشي، السفر الخامس من كتاب الذيل، 417/1، الذيل والتكملة، 351/3، محمد بن الأبار، التكملة، 229/3، علي الرعيني، برنامج شيوخ الرعيني، ص24.

(51) محمد بن الأبار، التكملة، 164/3، محمد المراكشي، الذيل والتكملة، 107/5.

(52) عادل نويهض، معجم المفسرين، 789/2، أعلام مدينة الجزائر ومتيجة، ص 137، أعلام الفكر الجزائري، محمد بسكر، ج2، ص33.

(53) يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، 298/1، محمد المحبي، خلاصة الأثر، 240/3، محمد مخلوف، شجرة النور، 450/1.

(54) محمد بن الجزري، غاية النهاية، 24/2، خلف بن بشكوال، الصلة، ص448.

(55) محمد الكتاني، فهرس الفهارس، 231/1، خير الدين الزركلي، الأعلام، 53/6، عمر كحالة معجم المؤلفين، 102/9، محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، 192/1.

(56) محمد بن الأبار، التكملة، 56/2، علي القفطي، إنباه الرواة، 194/4، محمد المراكشي، السفر الخامس، 648/2.

(57) محمد المراكشي، الذيل والتكملة، 557/3، السفر الخامس، 653/2، أحمد الغبريني، عنوان الدراية، ص291.

(58) أحمد الغبريني، عنوان الدراية، ص67، عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، 64/2.

(59) يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، 237/1، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 211/3، سمير جاب الله، الفقيه المقرئ محمد بن بلقاسم البوجليلي وآثاره العلمية ص295.

(60) محمد المراكشي، الذيل والتكملة، 252/4،أحمد الغبريني، عنوان الدراية، ص79، محمد بن الجزري، غاية النهاية، 154/2، مجموعة من الباحثين، الموسوعة الميسرة، 2117/3.

(61) محمد بن الأبار، التكملة، 102/2، محمد المراكشي، الذيل والتكملة، 384/4، محمد بن الجزري، غاية النهاية، 164/2.

(62) محمد المراكشي، الذيل والتكملة، 294/4، أحمد الغبريني، عنوان الدراية، ص309، أحمد المقري، نفح الطيب، 590/2.

(63) أحمد الغبريني، عنوان الدراية، ص133.

(64) يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، 301/1، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 20/2، زوهري وليد، قراءة في مخطوط معالم الاستبصار بتفصيل الأزمان ومنافع البوادي والأمصار لمحمد بن علي الشريف الزواوي الشلاطي، ص153.

(65) أحمد الغبريني، عنوان الدراية، ص163، عادل نويهض، معجم المفسرين، 581/2.

(66) محمد السخاوي، الضوء اللامع، 180/9، محمد الشوكاني، البدر الطالع، 247/2، عادل نويهض، معجم المفسرين، 802/2.

(67) أحمد بن قنفذ، الوفيات، ص349، إبراهيم بن فرحون، الديباج المذهب، 326/2، مجموعة من الباحثين، الموسوعة الميسرة، 2391/3.

(68) محمد بن الأبار، التكملة، 136/2، محمد الذهبي، معرفة القراء، ص347، محمد بن الجزري، غاية النهاية، 257/2.

(69) أحمد الغبريني، عنوان الدراية، ص229، أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ص609.

(70) أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، ص611.

(71) أحمد الغبريني، عنوان الدراية، ص127.

(72) محمد السخاوي، الضوء اللامع، 231/10، عمر كحالة، معجم المؤلفين، 206/13.

(73) خير الدين الزركلي، الأعلام، 155/8.

(74) محمد بن الجزري، غاية النهاية، 379/2.

(75) محمد الذهبي، تاريخ الاسلام (بشار)، 269/12.

(76) ذكر مفتاح خلفات في كتابه قبيلة زواوة ما بين القرنين 6ه و 9ه ص496 أن حصاد إسهامات علماء زواوة في علوم القرآن لم يرق إلى حركة التأليف ما عدا ما صنفه عبد السلام الزواوي، وهو استنتاج خاطئ ترده المحصلات السابقة.

(77) ذكر إبراهيم مقلاتي المدارس القرآنية الجزائرية، وقد بلغت 71 مدرسة قرآنية، الدلالة ص73، 112.

(78) كسند البوجليلي المشهور، ينظر: حسن وعليلي، العشر النافعية وامتداداتها في الجزائر (مدرسة الشيخ البوجليلي نموذجا)، ص144، سمير جاب الله، الفقيه المقرئ محمد بن بلقاسم البوجليلي وآثاره العلمية، ص295، أحمد ساحي، أعلام من زواوة، ص103.

(79) ومن نماذجهم؛ المقرئ محمد بن صولة، حيث كان من القراء، وقرأ عليه العالم التونسي أحمد بن مصطفى برناز القراءات السبع بزواوة، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 21/2، عمر بن محمد المحجوب الشرقاوي البهلول المغربي الزواوي الجزائري له تفسير كامل بخط يده توجد منه نسخة كاملة في أربعة أجزاء بالتيمورية 16/1 رقم 219 وقطع بالظاهرية 157/3- 158، محمد بن سعيد بن طاهر البجائي المغربي له كتاب الكاشف لمعاني القصيدة النيرة في رواية أبي عمرو بن العلاء المشتهرة وهو مطبوع أيضا.

إشكالية التشكيك في الشعر الجاهلي وعلاقته بالإعجاز القرآني.

داه. سفيان شايدة
جامعة الجزائر 1

يعدّ ديوان العرب بلا أدنى شكّ مفتاحا أساسيا تشوّفه علماء الشرع قاطبة، بوصفه المرآة التي تجسّد الّصورة الحقيقة للحياة العربية الجاهلية، الّتي جعلها الله –بكلّ أشكالها وأعرافها وعاداتها وأيامها ولغاتها وأساليبها في ذلك– منفذا للولوج إلى خطابه الذي نزل معيارا لكلّ هذا، وبالتالي فالذي ينأى بنفسه عن هذا المسلك، فقد جانب وانسلخ عن الفهم عنه أي الخطاب الشرعي، وبالتالي أيضا هو ابتعاد عن معرفة خصائص الخطاب ومضامينه، فالشّعر الجاهلي، هو الذي يضمن لنا التعرف عن كثب عن صورة هذه المعيشة العربية عن طريق مدارسته واكتشاف طرائق أساليبه ومعاني ألفاظه وأشكال التعبير عن خوالج النفس العربية الجاهلية، وبما أنّ هذا الخطاب القرآني نزل بهذا اللسان، وبكلّ ما يحمل في طيّاته من تلك البيئة والمعيشة الجاهلية، فتعيّن لدى المتصدي للخطاب القرآني، المرورَ ابتداءً بهذا الديوان ومدارسته ومثاقفته.

ثمّ إن الشّعر الجاهلي الذي هو موضوع هذا التحدي، الذي جاء به القرءان ليثبت أوّلا وجوده وإعجازه، ثمّ ليثبت ثانيا فيما بعد صحة النّبوة وصحّة الرسالة، ومن هنا كانت السهام الطاعنة في هذا الديوان العربي وفي ثبوته، لكونه الدليل على صحة التحدي والشّاهد على ذلك، وهذه الطعون اتّحدت قديما وحديثا في المطعون فيه، ألا وهو القرءان، واختلفت في وسائل الطعن وأشكاله بدءا برأي بعض متكلمي المعتزلة ونظرية الصرفة، وصولا إلى طعون المستشرقين، والتّشكيك في هذا القرءان بأساليب وأشكال مختلفة، ومن بين هذه الأشكال والمظاهر التشكيك في وجود الشعر الجاهلي التي تؤدي إلى الطعن في إعجازية القرءان، ومن ثمّ الطعن في النبوة والرسالة، ومن هنا جاءت هذه المداخلة لتحاول ربط علاقة الشعر الجاهلي بإعجاز القرءان، وما دار

حول هذه القضية من إشكالات، والوقوف على جهود بعض المعاصرين في الدفاع عن مسألة ثبوت الشعر من أمثال محمود شاكر والرافعي وغيرهم ممن تصدوا لطعنات المستشرقين وبعض تلامذتهم من الباحثين العرب.

وهذا ما جعل علماء العربية على مرّ الأعصر يعتنون بهذا الشعر جمعا ورواية وحفظا وشرحا، حتى جعله علماء الشرع من أوليات السالك في طلب علوم الشريعة من حيث إنه منفذ إلى سبر أغوار كلام الحكيم، وأيضا يمثل هذا الحفاظ استلزاما حفاظا على القرءان فهما وتدريسا ودونكم كتب التفسير وأهمية الشواهد الشعرية، التي تصدر فيها الشعر الجاهلي بوصفه نفس الكلام العربي الذي أنزل على أعرافه وأساليبه القرءان الكريم.

ولسنا في هذا المقام ندّعي نفي مسألة الانتحال والوضع التي مسّت الشعر الجاهلي مطلقا " فالوضع والانتحال كلّها ظواهر أدبية عامة لا تقتصر على أمة دون غيرها ...وعرفها العصر الجاهلي كما عرفها العصر الأموي والعصر العباسي ولم يكن الوضع والنحل والانتحال مقصورا على الشعر وحده، بل شمل كل ما يمتّ إلى الأدب"[1] ولقد أُثيرت قضية الوضع في الشعر الجاهلي منذ القديم فيما أصبح يُعرف بانتحال وصنع بعض الرواة كحمّاد وخلف الأحمر وطعن النقاد في موثوقية نقلهم لهذا الشعر، ولازالت هذه الانتقادات طافحة في كتب النقد من مثل كتب الجاحظ وأبو عبيدة وابن قتيبة ومدى شكوكهم في مرات عديدة حول أشعار ذكرها شعراء كالأعشى والفرزدق وغيرهم، إذ ليس المقام يفي بذكر تفاصيل ذلك وقد كفانا ناصر الدين الأسد بذكر أمثلة ذلك فليراجع في محلّه[2]. أما في المحدثين فنجد من أهمّ البارزين الذين نفوا وجود هذا الشعر هو المستشرق مرجليوث في كتابه أصول الشّعر العربي، وكذا المستشرق أ. بريولنش في مقالته الموسومة في صحة سلامة الشعر الجاهلي[3]، ونعود إلى الذي آثار ضجة كان لها تأثير واضح على بعض نقاد العرب ونعني هنا الأديب طه حسين، فنلاحظ أنّه قد اعتمد على أدلة استقاها من بنية الشعر نفسه شكلا ومضمونا، انطلق فيها ابتداء من أنّ القرءان كان يذم الشعر ويصف صاحبه بالأفاك

والكذاب باعتبار أن الذي يطلق عليه أنه شاعر هو سوى عرّاف ومتنبئ للغيب، يقول مرجليوث موضحا ذلك: "وعلى هذا فلربما كانت النتيجة التي يخول لنا القرآن استخلاصها هي أنه قبل نزوله (القرآن) كان هناك عند العرب نوع من العرّافين تجنح أقوالهم إلى الغموض كما هو الحال دائما في النبوات"[4]، ثمّ الدليل الثاني هو عدم ثقة النقلة واختلاف الروايات خاصة المنقول منه كان شفاهيا وجُمع بعد مدة طويلة بعد أن هلك نفر كبير من رواته، حيث يقول: "ومن هنا فإن الروايات التي تصل عن طريقهم لا تتمتع بكبير مصداقية"[5] ثم مضامين هذا الشعر وعلاقته المباينة للحياة الجاهلية والقرءان أيضا، وأيضا علاقة هذا الشعر بالنقوش الحجرية[6] حيث إنّ النقوش الحجرية العربية القديمة لم تترك كلاما موزونا يخضع للصناعة الشعرية كما هو موجود.

وهكذا سار خلفه من العرب طه حسين حيث وصل إلى النتائج نفسها ألا هي الطعن والشكّ في الشعر الجاهلي وتعميم هذا الحكم على جميع رواياته إلا نادرا حيث يقول: "إنّ الكثرة المطلقة مما نسمّيه أدبا جاهليا، ليست من الجاهلية في شيء إنّما هي منحولة بعد ظهور الإسلام فهي تمثل حياة المسلمين وميولَهم وأهواءهم أكثر ممّا تمثل حياة الجاهليين وإنّ هذا الشعر الذي ينسب إلى امرئ القيس أو إلى الأعشى أو إلى غيرهما من الشعراء الجاهليين لا يمكن من الوجهة اللغوية والفنية أن يكون لهؤلاء الشعراء ولا أن يكون قد قيل وأُذيع قبل أن يظهر القرءان[7] مرجعا ذلك كله إلى أسباب وبواعث دينية وسياسية أنّ هذا الشعر لا يمثل لغة القبائل ولا طريقة حياتهم.

وفي هذا القدر الموجز ما يكفي لبيان بعض مشككي صحة الشعر الجاهلي وبقي لنا عرض آثاره التي ينبني عليها هذا التشكيك ومدى علاقتها بالقرءان وإعجازه، وعند تتبع الكتب النقدية التي حاولت الردّ على هؤلاء المستشرقين وأتباعهم من العرب نلفيهم جميعا يدافعون عن صحة وجود الشعر ونقض مقولاتهم كما هو الحال مع ناصر الدين الأسد وخضر حسين على وجه الخصوص، دون عرض وجه تلك العلاقة بين نفي الشعر والطعن في القرءان اللهم ما كتبه الرافعي في تاريخ آداب العربية وما قرره شيخ العربية محمود محمد شاكر في كتابه الماتع مداخل إعجاز القرءان في الفصل

الذي جعله تقدمة لكتاب الظواهر القرءانية لمالك بن نبي، ولذا اقتصر على هذا الأخير لما حرّره بما لا يدع مزيد تفصيل، فأبان عن مشروعهم الذي يتلبس الموضوعية ظاهرا ويتبطّن التشكيك في القرءان والنبوة، حيث اعتبر محمود شاكر أن كلّ ما تعلّق بالشعر جميعه أساليبه وأعرافه ومضامينه ثمّ مقارنته بالقرءان أنّ هذا كله يمسّ مباحث إعجاز القرءان وعلم البلاغة بدرجة أقلّ.

ومن هنا نبّه محمود شاكر أنه علينا لزاما أن نتنبه إلى مسألة إعجاز القرءان مربوط أساسا بثبوت نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، مادام أنّ القرءان هو الدليل على صدق النبوة، وأنّ القرءان لا شيء آخر خارجا عنه يحيل إلى صدقه، وإلاّ لزمنا الدور والتسلسل وهذا يدفعه العقل، إذن القرءان دليل صدقه هو القرءان نفسه، هو إعجازه إذ أثبت صدقه ووجوده بنفسه، وهذه الفكرة التي جعلها محمود شاكر توطئة لبيان العلاقة الموجودة بين الشعر الجاهلي والقرءان، يقول في هذا الصدد :"فالقرءان هو البرهان القاطع على صحة النبوة، وأمّا صحة النبوة فليست برهانا على إعجاز القرءان"[8]، ثم دلّل على هذه العلاقة بأن بعض القرءان قليله أو كثيره أو كله هو لاشكّ مفارق لجنس كلام العرب لا من حيث حروفه وأصوته وكلماته بل هو مفارق لها من جهة واحدة فقط لا غير ألا وهي وجه النظم والبيان يقول في هذا الصدد:" فمن هذا طولب العرب بالإقرار و التسليم ومن هذا الوجه تحيرت العرب فيما تسمع من كلام يتلوه عليهم رجل منهم تجده من جنس كلامها لأنّه نزل بلسانهم لسان عربي مبين ثمّ تجده مباينا لكلامها فما تدري ما تقول فيه من طغيان اللدد والخصومة وإنه لخبر مشهور خبر تحير النفر من قريش على الوليد"[9] ومن هنا يتبيّن لنا أنّ التحير الذي وقعت فيه قريش بما تملك من بيان وفصاحة لم يقع بما أخبر به القرءان بالغيب ودقائق التشريع أصالة، بل كان هذا التحير الذي أفضى بهم إلى العجز عن المحاكاة و المعارضة هو بيانه ونظمه الذي سُمي فيما بعد بإعجاز القرءان.

ثم أبان محمود شاكر عن الصفات اللسانية التي تملّكها اللسان العربي قادرة بطبيعتها أن تحتمل هذا القدر الهائل من المفارقة بين الكلامين، ثمّ إن أهل هذا اللسان

لا شك قادرون على إدراك هذا الفرق من حيثية ما أُوتوا من بيان وتذوق، ثمّ أيضا ما تركه هذا البيان من أثر قوي في نفوسهم حتى لم يستطيعوا إنكاره ومنعه على أنفسهم مهما كان شديدا عليهم بتكذيبهم وتقريبهم وفي الأخير أنهم لا بدّ من كان هذا صفته وصفة لسانه قد بلغت ألسنتهم بيانا لا يضاهى، فكل مما سبق دليل واضح على قيام هذا التحدي الموجه لهم وإلا لم يكن ذا معنى إذا لم يكن لكلامهم من القوة والمكانة ما يطلب منهم من التحدي لصفة الكمال التي بلغتها ألسنتهم. وبالتالي خُلص محمود شاكر بأنّ هذه الصفات المذكورة آنفا "تفضي بنا إلى أمرين:

الأوّل: أن يكون ما بقي من كلامهم شاهدا على بلوغ لغتهم غاية من التمام والكمال والاستواء؛

الثاني: أن تجتمع فيه ضروب مختلفة من البيان لا يجزئ أن تكون دالة على سعة لغتهم وتمامها"[10] فقط إذن يخلص مرة اخرى إلى نتيجة مفادها أنّ الشعر الجاهلي الباقي من آثارهم هو الدليل والشاهد الذي يدلنا على مدى قوة المقابل الذي جاء القرءان ليتحدّاه فهو يستحق أن يرتقيَ شاهدا لهذه المعجزة الخالدة الباقية وفي هذا النص الموالي لمحمود شاكر يعيد لنا تراتبية هذه النتيجة قائلا:" إذن ينبغي أن نعيد تصور المشكلة وتصويرها فإن النظر المجرد والمنطق المتساوق والتمحيص المتتابع كل ذلك أفضى بنا إلى تجريد معنى إعجاز القرءان مما شابه وعلق به حتى خلص لنا أنّه من قبل النظم والبيان ثمّ ساقنا الاستدلال إلى تحديد صفة القوم الذين تحداهم وصفة لغتهم ثمّ خرج بنا إلى طلب نعت كلامهم ثمّ التمسنا الشّاهد والدّليل على الذي أدّانا إليه النظر فإذا هو الشّعر الجاهلي"[11].

في نهاية القول عن هذه القضية نتلمّس هذه العلاقة الموجودة بين الشعر الجاهلي وبين القرءان فاتّضح مما سبق أنّ أساس الإعجاز ومشكلَته هو الشعر الجاهلي، ولذا سُلّطت عليه كل هذه السهام المُشكِكة في صحته وحقيقته وذلك لما لهذا الشعر من منزلة في القرءان وإعجازه وما يترتب عنه من صدق النبوة وصحة القرءان.

المصادر والمراجع

- دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي ترجم نصوصها عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين لبنان ط1 سنة1979ص130.
- مداخل إعجاز القرءان محمود محمد شاكر شركة القدس مصر ط2 سنة 2014.
- أصول الشعر العربي دفيد صمويل مرجليوث، ترجمة وتعليق إبراهيم عوض دار الفردس سنة 2006.
- مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ناصر الدين الأسد دار المعارف مصر ط5.
- في الشعر الجاهلي طه حسين دار المعارف مصر.

الهامش:

---

[1] مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ناصر الدين الأسد دار المعارف مصر ط5 ص321.

[2] مصادر الشعر الجاهلي ص318 وما بعدها

[3] دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي ترجم نصوصها عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين لبنان ط1 سنة1979ص130

[4] أصول الشعر العربي ص16.

[5]أصول الشعر العربي ص26.

[6] ينظر أصول الشعر العربي دفيد صمويل مرجليوث، ترجمة وتعليـق إبـراهيم عـوض دار الفردس سنة 2006ص20،17،14.

[7] ينظر في الشعر الجاهلي طه حسين دار المعارف مصر.

[8] مداخل إعجاز القرءان محمود محمد شاكر شركة القدس مصر ط2 سنة 2014 ص155.

[9]مداخل إعجاز القرءان ص159.

[10] مداخل إعجاز القرءان ص166.

[11] مداخل إعجاز القرءان ص166.

جُهود عُلماء الجزائر في خدمة اللغة العربية وتعليميّتها -مُعالجة تحليليّة لنماذج من جهود موسى الأحمدي نويوات، وعبد الرّحمن الحاج صالح، وخير اللّه عصّار-

د. محمد سيف الإسلام بوفلاقة
جامعة عنابة.

توطئة: ليس يخفى أن جهود ثلة من علماء الجزائر في خدمة اللغة العربية وعلومها، لم تحظ بالعناية الكافية من لدن مختلف الدارسين، والباحثين، ولعل أحداً لا يحتاج إلى كبير عناء لكي يدرك هذا الأمر، فالملاحظة التي يخرج بها جملة من المهتمين بقضايا جهود علماء الجزائر في خدمة اللغة العربية، والعناية بالتراث الأدبي الجزائري، والعربي القديم، هي أن تلك الجهود قد لقيت صدوداً، وإعراضاً من قبل جملة من مؤرخي الأدب، وهذا ما عبر عنه الباحث رابح بونار في مقدمة كتابه: «المغرب العربي:تاريخه وثقافته»، بقوله: «إن الباعث الحقيقي على تأليف هذا الكتاب هو إيفاء الحركة الثقافية، وتاريخها بالقطر الأول(الجزائر)، وقد أغفله مؤرخو الآداب إغفالاً، وجهل كثير من الدارسين نشاط علمائه، وأدبائه في مختلف العصور»[1].

ويؤكد الشيخ العلاّمة عثمان الكعاك هذه الملاحظة في كتاب يكتسي أهمية بالغة وسمه ب: «بلاغة العرب في الجزائر»، حيث يذهب إلى القول: «إن العلماء قد اعتنوا بالتنقيب عن آداب اللغة العربية، وتاريخها، وتطوراتها في مختلف الأصقاع الإسلامية إلا الجزائر، فإنهم أغفلوها، ولو سألت أحدهم أن يسمي لك أديباً جزائرياً لعجز عن ذلك، مع أن الجزائر قد أخرجت من الأدباء، وعشاق البلاغة، ورسل الفصاحة والبيان ما يكون لها به الفخر، وما تسمو به مرتبتها في تاريخ الأدب العربي العام»[2].

وانطلاقاً من هذه الأفكار والرؤى يهدف هذا البحث إلى تقديم إضاءات، ومعالجات تحليليّة لنماذج من مؤلفات ثلاثة علماء من أبناء الجزائر المتميزين، حيث ينقسم البحث إلى ثلاثة أقسام رئيسة:

أولاً: جهود العلاّمة موسى الأحمدي نويوات في خدمة اللغة العربية: جمع العلاّمة الجزائري موسى الأحمدي نويوات عدة صفات جعلته يتبوأ مكانة مرموقة ومتميزة في عالم الأدب، والثقافة، واللغة، حيث إنه كان أحد صناع الثقافة الجزائرية ومن أعيان المثقفين العرب والمسلمين في القرن العشرين، وأحد مؤسسي الحركة العلمية الجزائرية المعاصرة بكفاءة، وجهد، ومثابرة، وصدق. أسهم مساهمة فعالة في خدمة التراث العربي، وقد تناوله الباحثون في مقالاتهم، ورسائلهم الجامعية على أنه أديب، ولغوي، أو أنه شاعر، ومصلح. كان صاحب نشاط علمي دؤوب بلور ما كان يشغل فكره، وهواجسه من اهتمامات معرفية، وقضايا فكرية متنوعة، كان للتراث اللغوي بعامة، والأدبي بخاصة حظه الملحوظ منها، إنه واحد من الوجوه العلمية والشخصيات الأدبية التي تفتخر بها الأمة العربية، ويعتز بها الوسط الثقافي الجزائري فهو العلاّمة الجليل الذي فرض نفسه بعمله الجاد، وإنتاجه المتميز، لقد أغنى المكتبة الجزائرية والعربية بمؤلفاته العلمية الرصينة، وأعماله الأدبية الشائقة، وبحوثه التي تناولت كثيراً من حقول الثقافة، والمعرفة، فقد كان غزير الإنتاج تسنده حماسة متقدة ظهرت في أعماله الأدبية، ودراساته التراثية الرصينة، كما تجلت في المهمات الثقافية والتربوية التي قام بها في غير موقع، حيث اكتسب محبة الآخرين، وتقديرهم، بنظرته المتفحصة والعميقة للواقع الثقافي، وبروحه الحيوية والمرحة، التي تفاعلت مع الحياة وتفهمت المجتمع، وتفاعلت معه، وجسدت آماله وآلامه في أعمال إبداعية رقيقة ومؤثرة، كما تعمقت في فهم التراث، ويتضح لمن يطلع على بعض مؤلفات موسى الأحمدي نويوات أنه في ميدان التأليف العلمي يكون هدفه من وضع جميع كتبه النهوض بأداء مسؤوليته في منحى علمي للإفادة من مختلف فنون المعرفة، وعلومها:

1-المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي: صدر هذا الكتاب المهم في طبعته الأولى سنة: 1947م، بمدينة قسنطينة في الجزائر بمطبعة أحمد بوشمال، ويبدو أن طبعته كانت بكمية محدودة بسبب الظروف السيئة التي تعيشها الجزائر في ظل وجود الاستعمار الفرنسي الغاشم، فقد ذكر المؤلف الأحمدي نويوات عدة مرات ما

تعرض له من مظالم ومعاناة بسبب رغبته في طباعة هذا الكتاب خلال الأربعينيات من القرن المنصرم، وقد أعيد طبعه سنة: 1969م ببيروت في لبنان عن دار العلم للملايين، في طبعة منقحة ومزيدة، وقد أهدى العلاّمة موسى الأحمدي نويوات هذا الكتاب إلى أستاذه العلاّمة محمد البشير الإبراهيمي، فقد دبج هذا الإهداء في مستهل الكتاب: «بعد أن فرغتُ من تسويد هذه الصفحات فكَّرتُ في شخصية إنسانية عظيمة أهديها إليها، وأُسميها باسمها فلم أر أمامي شخصية كشخصية أستاذنا محمد البشير الإبراهيمي (رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) رجاحة عقلٍ، ونباهة ذكرٍ وأصالة رأي، وبعد نظرٍ، وسموَّ ذوقٍ، وسعة اطلاعٍ. فإلى تلكم الشخصية القوية الجذَّابة، والعبقرية الجزائرية الوثابة، التي أعدتها الأقدارُ لتخلف الزعيم الخالد الذكر عبد الحميد بن باديس في الأخذ بزمام الحركة الفكرية الجزائرية إلى الأمام بشجاعةٍ وإخلاصٍ: أرفعُ هذا الكتاب»[3]. يُحدد العلاّمة الأحمدي سبب تأليفه لهذا الكتاب ومنهجيته فيه، في قوله: «...وبعد، فهذا تأليف في علمي العروض والقوافي بعثني على كتابته حب العمل، وشغفي بالأوزان، وإن كنت لستُ من رجال هذا الفن. وقد التزمت فيه الاستشهاد بأبيات جديدة، لا تخلو من فائدة، أو خبر فيه طرافة، متجنباً فيه ما استشهد به الخليل بن أحمد وأصحابه، مما تقادم عهده، واندثرت أسبابه، اللهم إلا إذا لم أجد من غيره شاهداً.

وأتيت بعد أبيات الشاهد بتنبيهات وملاحظات ضرورية، ثم بتطبيقات وأسئلة يُطلب من المعلم حلّها، ثم بتمرينات ليتدرب عليها القارئ، ويتدرج منها إلى تربية الملكة الشعرية. وترجمت لبعض الشعراء المستشهد بنتاجهم أسفل الصفحات مرة بالتصرف في العبارة، وأخرى باللفظ الذي ترجم به بعض الكتاب. ويلي هذا أربعة فهارس تشتمل الأولى على مواضيع الكتاب، وتحتوي الثانية على تراجم الشعراء، والثالثة على أسماء الأعلام، والرابعة على المراجع. فإن كان ما عملته صواباً ومفيداً فبتوفيق من الله، وإن كان غير ذلك فليعذرني القارئ، فقد بذلت كل ما في وسعي...»[4].

لقد أعجب عدد كبير من علماء الجزائر والوطن العربي بجهود العلاّمة نويوات التي تجلت في هذا الكتاب المتميز، والعميق، حيث وضع كمقرر لتدريس علم العروض في جميع الجامعات، والثانويات العربية تقريباً، إذ قرر تدريسه بمعاهد الأزهر الشريف، وجميع المعاهد الدينية في بلاد الشام، وفي الجامعات اللبناني وقررت وزارة التربية الوطنية الجزائرية تدريسه في جميع المعاهد التربوية الجزائرية سنة: 1968م، فقد بنى المؤلف كتابه على منهجية سليمة، حيث قدم في القسم الأول منه المعارف الرئيسة، والضرورية التي يجب أن يتمكن منها دارس علم العروض وتحدث في مستهل الكتاب عن الأحرف، وعرّفها في بداية القسم الأول بأنها: «الأحرفُ التي تتركب منها الأسباب، والأوتاد، والفواصل». ثم انتقل إلى الحديث عن التفاعيل، والزحاف، والعلل، وبعد أن يشرح المؤلف بدقة، يُقدم تلخيصاً لما ذكره، فعلى سبيل المثال يذكر تلخيص ما تقدم من الزحافات والعلل، في قوله: «إن الأجزاء العشرة التي تتركب منها البحور الشعرية –الستة عشر–بواسطة الأسباب والأوتاد: تعتريها أمراضٌ مختلفة. منها ما هو ملازمٌ، ومنها ما هو مفارقٌ، وهي مرة تؤثر في ذات الجزء، وطوراً تؤثر في هيئته، ومرة في كليهما. تلك الأمراض هي الزحافات والعلل. ولكي يسهل عليك معرفة ما يدخل كل جزءٍ منها، وتعرف ما تؤول إليه التفاعيل بعد دخول الزحافات والعلل عليها، وما تنقلُ إليه من الأمثال المستعملة: وضعتُ لك جدولين مفيدين –إن شاء الله– الأول: لخصوص العلل اللازمة، والثاني: للعلل والزحافات معاً...»[5]. وفي إبرازه للبحور الشعرية، جمع العلاّمة الأحمدي بين النظرية والتطبيق، فنلفيه منظراً، ومطبقاً في الآن ذاته، فهو يعرف البحر، ثم يقوم بتقطيعه، ثم يقدم تنبيهات عن التغيرات التي تطرأ عليه، ويطبق، ويختتم بتدريب يأتي على شكل سؤال. لقد ألف العلاّمة الأحمدي هذا السفر الجليل«وناقش فيه القدماء والمحدثين على السواء حتى المؤصلين لهذا العلم، فعل ذلك مع الشريف الغرناطي (ت:1230هـ) شارح (مقصورة حازم)، و(الخزرجية) في العروض، ومع الدسوقي (محمد بن أحمد ت:1230هـ) في حاشيته على شرح التفتازاني لكتاب التلخيص

تعقبه في خمسة مواضع بأدلة مأخوذة من فن العروض، ومن الشعر.وقد نشر الدراسات العروضية النقدية في المجلات الشرقية التي رد فيها على الأزهريين الذين تعقبوا الشيخ الطاهر بن عاشور في شرحه لديوان بشار بن برد، وقد بين في هذه الدراسة ما لشارح الديوان وما عليه، وما أصاب فيه أساتذة الأزهر، وما جانبهم فيه الصواب. والذي يميز كتاب (المتوسط الكافي) يُلاحظ أن المؤلف تجنب فيه الشواهد القديمة التي استشهد بها العروضيون كيف ما كانت تلك الشواهد، والتي تتكرر في كل تأليف، واستشهد بشواهد منتقاة من الشعر الجزائري، والمغربي، والتونسي، والمشرق العربي، وأتى لكل ضرب بقطع شعرية وفق في اختيارها، وبيَّن أصول التفاعيل وفروعها، وأعطى قاعدة لاستخراج الفروع من الأصول، ونص على الزحاف المجتوى (المستكره) الذي ينبغي للشاعر أن يتجنبه، وإن كان جائزاً، غير أنه لا يوجد في شعر فحول الشعراء، وترجم الأحمدي في (المتوسط الكافي) لـ(214) شاعراً زيادة على ما اشتمل عليه الكتاب من طرائف وملح، وفيه تمارين يطلب من الطالب الإجابة عنها...»[6]. ومن بين الذين اهتموا بكتاب «المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي»، العلاّمة مبارك الميلي، الذي قام بتقريظه، ومما جاء في كشفه عن القيمة العلمية لكتاب العلاّمة الأحمدي نويوات، قوله: «ذلكم الكتاب الجامع بين قواعد العلم، وأفانين الأدب، وطابع التجديد في العرض، وهو جمع ينمُ عن جد في البحث، وجودة في اختيار النقل، وعناية بالقارئ. فهو كتاب تعليم، وتأديب، وتربية خلق. اشترط مؤلفنا في ديباجة كتابه شروطاً، وقد أداها أحسن تأدية، ووفى بوعده أي توفية في حين أن كتّاب هذا العصر أغلبهم لا يُراعي في كتابة ما قطعه على نفسه في طالعته... ولكي يكون رأينا في الكتاب خالصاً من الهوى –ولا سبب هنا للهوى– أجدني مضطراً لإبداء عيب فيه لا ينقص رأينا في الإعجاب به...ذلكم العيب هو إغفال الأدب الفاسي، والجزائري، والتونسي في شواهد الكتاب، وما ذُكر فيه من أدب تونسي فهو قليل، وقاصر على أديب واحد، وإلى هذا الإغفال أهمل كتب العروض والأدب الموضوعة بأقلام مغربنا عند ذكر مصادر الكتاب...»[7].

لقد علق العلاّمة موسى الأحمدي نويوات على ملاحظة الشيخ مبارك الميلي، تعليقاً يكشف عن شخصيته العلمية الدقيقة، ويبرز أخلاقه الرفيعة، حيث يقول في هذا الصدد: «إن ملاحظة أستاذنا المؤرخ حق لا ينكر، وإرشاد عليه يُشكر، وكنت حقاً أشعر بهـذا النقص، وهو خلو كتابنا من الأدب القومي الحديث، وكم أجهدت نفسي علني أظفر ببعض المراجع الأدبية الجزائرية، والتونسية، والمراكشية، فلم أحظ بشيء من ذلك ولم أوفق لما هنالك. وفاتني أن أُراسل بعضاً من أدبائنا –ممن أعرف– ليبعثوا إلي ببعض درر أفكارهم، وعيون أشعارهم –وإن كان الطريق وعراً، والمسيرُ خطيراً والوقت وقت حرب– على أنني لا أعرف إلا النزر القليل من عناوينهم، وحتى من أسمائهم أيضاً، وهذا عيبٌ فينا نحن أبناء هذا القطر المحبوب. وكأننا لم نكن أبناء دين واحد، ولغة واحدة، وبلد واحد. والأدب الجزائري القديم أو الحديث، لم يكن مدوناً ومجموعاً حتى يكون كمصدر يرجع إليه عند الحاجة، وهذا عيب ثان، وما جُمع منه – على قلته– لم تسمح لنا الظروف الحالية بالحصول عليه. وإني أعلم وكل أديب جزائري يعلم ما لقيه بعضُ المؤلفين من علمائنا، وأدبائنا حينما حاولوا طبع مؤلفاتهم وإخراج نتائج مجهوداتهم، إلى القراء ليستغلوا ثمارها، ويقتطفوا أزهارها، مما أكل تعليله أو تفسيره إلى القارئ الكريم، أو إلى الأيام وحدها فهي التي في طياتها، وبين أحنائها علم ما يتمخض فيها ويتولد. وأخذاً بإرشاد الأستاذ الجليل فها أنا قد حلّيت كتابي بقطع شعرية لطائفة من شعراء الجزائر، وتونس، ومراكش، وليعذرني إخواني الطلبة الذين لم أورد شعرهم في كتابي، فإن لذلك سبباً، وهو توارد أضرب قصائدهم على أوزان مخصوصة، من أبحر مخصوصة تعذَّر علي بسببه الاستشهاد بجميعها.

وأرجو أن أكون بهذا الاستدراك قد جبرت العيب الذي لا حظه عليَّ الأستاذ، أو أكون قد قللت من شيوعه على الأقل»(8). ويُثني الباحث سعدي الجزائري أيما ثناء على جهود العلاّمة موسى الأحمدي نويوات التي ظهرت في كتاب: «المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي»، حيث يقول متحدثاً عن الكتاب: «هل أتاك حديث (المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي)، إنه الباكورة الأولى لصاحبنا في عالم

النشر...، ولقد أحسن بإخراجه لهذا السفر يعلّم فيه الناس كيف يزنون الكلم، ويزاوجون بين الكلمات لإنشاء النغمة الموسيقية، واللحن المحبب إلى النفوس: فالكتاب إذاً كتاب شعر وموسيقى: والأمة التي لا تتذوق الموسيقى صماء هيهات أن تنفذ إلى أفئدتها هداية، أو تعاليم...وأن كل شيء في هذا الوجود له نغمٌ رتيبٌ تسمعه النفوس المرهفة الهفهافة الشفافة تحدث لها عند سماع النغم نشوةٌ فتحلم فتؤمن، فإذا هي مندفعة إلى العمل في قوة واشتياق. إن عمل صاحبنا لعملٌ جليل، ومهما تكن قيمة ما أورده لشعراء الجزائر من شعر استشهاداً على بحر، أو قافية، أو روي، أو وزن بوجه عام فإنه قد أحسن صنعاً بما فعل...، لذلك فإن الكتاب نفحةٌ من الأوراس الأشم الجبّار ذات طابعين: طابع تعليمي، وطابع وطني....»[9]. ويذكر الأديب والشاعر أحمد سحنون في كلمة له عن هذا الكتاب أن مؤلفه الأديب موسى بن محمد بن الملياني الأحمدي قد بذل فيه جهداً كبيراً، ولاسيما في ترتيبه، وتنسيقه، وضبط مسائله، وتصحيحها وإخراجها في أسلوب سهل جميل، يدل على تطلع إلى السمو، وشوق إلى الكمال. وقد حرص العلاّمة الأحمدي نويوات على إبراز كتابه في حلة شعرية أنيقة تذود عن المطالع السأم، وتغريه بالمضي في الكتاب حتى النهاية، فقد استورد في معرض التمثيل والاستشهاد كثيراً من الأبيات الشعرية الرائعة لطائفة من الشعراء المعاصرين. ويرى الأديب أحمد سحنون أن كتاب: «المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي» لا ينبو عن ذهن التلميذ، ولا يستغني عنه الأديب[10]. ومن جهة أخرى يذهب الباحث سعد الدين الأحمديّ نويوات إلى أن كتاب: «المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي» إلى جانب قيمته الأدبية، فهو يتميز بأنه تعبير عن فترة تاريخية بلغ فيها الصراع أشده من أجل القومية، والحرية، واسترجاع السيادة، وبقدر ما هو كتاب علم لمن يريد دراسة هذا الفن، هو أيضاً مرجع لمن يريد الاستزادة منه، واستقصاء خصائصه، والإلمام بخفاياه ودقائقه، وكتاب أدب لما حوى من نصوص منتخبة من روائع الشعر العربي، وتراجم للشعراء، ومُلح طريفة، لا تخلو من فائدة للمبتدئين وتذكرة للخريجين، وقد فُصل الكتاب في أسلوب بسيط، وعرض جميل، وطريقة شيقة

ودقة متناهية في الاستقصاء، وبراعة في الاستشهاد، وطرافة في الخبر[11]. إن كتاب: «المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي» الذي ألفه العلاّمة الأحمدي، سيظل أحد أهم الكتب التي ألفت عن علمي العروض والقوافي، فقد قدم فيه خدمة جليلة للباحثين المهتمين بعلمي العروض والقوافي، كما خلد به ذكره على مستوى الحركة العلمية.

2- المحادثة العربية للمدارس الجزائرية: صدر هذا الكتاب في طبعات مختلفة في بيروت بلبنان، حيث طبعته مؤسسة دار الكتاب اللبناني لمرتين متتاليتين سنة: 1963م وفي سنة: 1964م أعيد طبعه طبعة أخرى منقحة ومزيدة، عن الدار نفسها في لبنان وقد حظي هذا الكتاب بعناية فائقة من قبل طلاب الجزائر، ولقي أصداء طيبة، وقبولاً واسعاً، نظراً لما احتوى عليه من درر ثمينة، فقد بيع منه في الجزائر ما يزيد عن (17000) نسخة، وقد أعيد طبع هذا الكتاب عدة مرات دون علم المؤلف، ويبدو أن العلاّمة الأحمدي نويوات، ونظراً لخبرته في مجال التربية والتعليم، وطول عهده بالتدريس، وفنونه، أدرك أن المدرسة الجزائرية بعد الاستقلال عن الاستعمار الفرنسي هي في أمس الحاجة إلى كتاب مدرسي عصري يستمد مادته من الواقع، ومن التجارب اليومية، وينطلق من البيئة التي يعيشها التلميذ، وقد بدا للأحمدي نويوات أن التلميذ الجزائري في مرحلة الستينيات بعد الاستقلال بفترة قصيرة، يعجز عن تسمية أبسط الأشياء مما يُمارسه يومياً، ويستعمله صباح مساء في المحادثة، فرغب في أن يرأب الصدع، ويقوم ما اعوج من الألسنة، ويصلح ما فسد من فصيح اللغة العربية في المجتمع الجزائري، ويُقدم من خلال تأليفه لكتاب: «المحادثة العربية للمدارس الجزائرية» خدمة جليلة للمدرسة الجزائرية التي كانت تفتقد لكتب عصرية تواكب تطورات المجتمع، فألف هذا الكتاب المدرسي، ووظف فيه بطرائق عصرية ما يسميه مجمع اللغة العربية بألفاظ الحضارة، مما يحتاج إليه كل عربي في لغته اليومية، ألفه قبل أن تصدر القرارات المتعلقة بتعريب التعليم في الجزائر تعريباً كاملاً، وجعله خاصاً بالصفوف الوسطى من التعليم الابتدائي[12]. كشف العلاّمة الأحمدي نويوات

عما يرمي إليه من وراء تأليف هذا الكتاب الثمين، وأوضح منهجه فيه، وأبرز الكيفية التي انتقى بها نصوصه الجميلة، ومحفوظاته المؤثرة، التي تنسجم كل الانسجام مع عقول المبتدئين والناشئة، في المقدمة التي كتبها في مستهل الكتاب، حيث يقول: «...وبعد، فإلى حضرات الزملاء مدرسي اللغة العربية، ثم إلى أبنائنا تلاميذ الأقسام الابتدائية: أقدِّم هذا العمل المتواضع (كتاب المحادثة العربية) فعساهم أن يجدوا فيه ما يرضيهم، ويوافق ميولهم، ويوفر لهم جزءاً من الوقت –في تهيئة درس المحادثة– هم في أشد الحاجة إليه. ولقد سلكت في إعداد هذا الكتيب طريق التدرج والتبسُّط حتى لا يحس التلميذ بصعوبة في طريقه، أو يشعر بانتقال مفاجئ من سهل إلى حزن، وجعلت الأسئلة الثمانية في التمرين الأول من كل درس من صلب الدرس المحصور بين الخطوط الثلاثة. وما عدا ذلك من التمارين فقد جعلته موزعاً بين المعلم والتلميذ: فما كان فوق مستوى التلميذ وكلت فيه الإجابة إلى المعلم، وما كان في متناول التلميذ أجاب عنه التلميذ. أما ما يرجع إلى المحفوظات، فقد انتقيت ما أمكنني انتقاؤه من المحفوظات المدرسية حسب اجتهادي، وتجربتي الخاصة، وحرصت كل الحرص على أن تكون الأسئلة مناسبة للأجوبة، لكي تكون الإجابة عنها إجابة شعرية من دون أن يحدث إخلال في الوزن. وشرحت مفرداته اللغوية، ولم أغفله من ذكر أمثال عربية ضربت بما جاء فيه من أسماء أناس، وحيوانات، وطيور، ثم بفروق في أصوات الحيوانات، والجمادات، وفي المشي، وغير ذلك.... بهذا العمل المتواضع عسى أن أكون قد شاركت فيما تحتاج إليه المدرسة العربية الجزائرية، وأن يكون العمل حافزاً لحضرات المدرسين لكي يقوموا بسد الفراغ الذي تشكو منه المدرسة الجزائرية، والتي هي في أشد الحاجة إليه...»[13].

فذلكة: إن ما يُلاحظه القارئ لمؤلفات العلاّمة موسى الأحمدي نويوات هو أن ثقافته عميقة جداً، ومتينة، فقد أبدع في مؤلفاته، وأجاد أيما إجادة، لقد درس بعمق الكتب التراثية، وتمثلها، فكان لها أبرز الأثر في مؤلفاته، وكتاباته العلمية، وخير دليل على ذلك كتابه المتميز: «المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي»، فأعمال موسى

الأحمدي نويوات العلمية لم تكن مجرد صدى لما اطلع عليه من كتب التراث، بل فيها ابتكار، وإبداع، وأصالة، وإضافات علمية عميقة، حيث نلاحظ أنها تستوحي من التراث، بيد أنها تعبر عن وجدان صاحبها، وتعكس شخصيته العلمية الفذة، وتبرز ذاته، ويظهر في أسلوبه متانة في العبارة، وقوة في الأداء، ورشاقة في الصناعة. لقد احتل العلاّمة والأديب الأحمدي مكانة علمية، وأدبية بارزة لفتت أنظار عدد كبير من المثقفين، والباحثين في الوطن العربي، فكان بحق في طليعة كوكبة من الكتاب جاد بهم رحم الجزائر، وفرضوا أنفسهم على الساحة الجزائرية والعربية، بما يمتلكون من أسلوب عربي راقٍ، وفي الكثير من الشهادات التي كتبت عن هذا العلاّمة الجليل تتضح أصداء جهوده، فهي تجمع على خدماته الجليلة والعميقة التي قدمها للتراث العربي وأود في ختام هذا البحث، أن أدرج بعض الشهادات التي تبرز مكانته العلمية المرموقة، وتبين جديته، وعمقه. يقول عنه العلاّمة أحمد حماني: «الأستاذ موسى الأحمدي من ألمع شخصياتنا الأدبية المعاصرة، وأوفرهم تحصيلاً، وأوسعهم اطلاعاً وأمتنهم ثقافة، وأكثرهم نشاطاً، وأجرأهم على الإنتاج، وأجدرهم بالتنشيط والتشجيع.لأنه -كما وسمه بذلك فقيدنا الشيخ مبارك الميلي- (ممن جمع بين المواهب الفطرية، والمعارف المكتسبة، له وثبات في ميدان صالح الأعمال، ولم يضعف إيمانه أمام العراقيل، وكان مثالاً صالحاً، وقدوة حسنة، وحجة ناهضة للمتفائلين). ولقد صدرت هذه الشهادة فيه من شيخ كتابنا وألمع مفكرينا، منذ ثلاثين حجة، وصدّقتها الأيام...»[14].

ويشير العلاّمة محمد الصالح الصديق في كلمة له كتبها عن العلاّمة الأحمدي إلى أنه: «إذا كان لكل إنسان في الوجود غايته التي ينزع إليها، ويعمل جاداً لتحقيقها، فإن غاية الأستاذ موسى الأحمدي هي المعرفة، ولاشيء غير المعرفة، طلبها في المدارس والمعاهد، والكتب حتى نال منها حظاً وافراً، ثم طلبها من معابد الكون، ومدارس الحياة فنال منها ما اهتدى به إلى حقيقة كبيرة...، ومن هنا ظل الأستاذ الأحمدي طوال عمره يطلب المعرفة، وينشرها، ويضن بوقته إلا في طلبها، ونشرها، حتى في شيخوخته لا

يعرف الكسل والخمود، بل هو على الدوام يطلب المعرفة، ولا يشبع منهـا، ويسـعى وراءها جاداً محترقاً، ومن تذوق طعم المعرفة كالأستاذ الأحمدي، فإنه يرى العالم كلـه محصوراً في المعرفة، وإن أضيع وقت في يوم الأستاذ الأحمدي هو الوقـت الـذي لا يكسب فيه معرفة جديدة يضيفها إلى معارفه، أو يضيء بهـا الطريـق أمـام طـلاب المعرفة وعشاقها، ومن هنا كان حصاده في حقل المعرفة كتباً قيمة في شـتى العلـوم والمعارف...»[15].

وتصفه تلميذته أم حسام الدين بقولها: «الشيخ موسى الأحمدي نويوات عـالم مـن العلماء الأجلاء، الذين يجب في حقهم التبجيل والإكرام، والذكر الطيب، أفـاض علينـا بعلمه الغزير، وأدبه المتميز، بل كان أيضاً أباً وجداً تفيض روحه الطيبة رقـة وحنانـاً عرفناه عن قرب محدثاً يداعب النفس، ويطرب الأذن، فرأينا فيه الشيخ العابـد الزاهـد الذاكر لله أناء الليل وأطراف النهار. تميزت كتب الشيخ الأحمدي بعظمـة فائقـة فـي الشعر والنثر، فقد حافظ على جمال القصيدة العربية بإصراره على تعلم العروض، كما انفرد أيضاً بقول النكتة، والطرائف، والملح، على نهج كتب التراث في هذا الميـدان.
فهو نموذج للأديب الأصيل المنتمي إلى ثقافته العربية الإسلامية. لم يأت تراث الشـيخ موسى الأحمدي من فراغ، بل هو جهد سنين من الكفاح الأليم، والرحلة الشـاقة عبـر الزمن...»[16]. ويرى الباحث يوسف وغليسي أن العلاّمة موسى الأحمـدي نويـوات هو: «ذاكرة الثقافة العربية الأصيلة في الحاضر والغابر، وموسـوعة ثقافيـة تتحـدى عصر التخصص، وتتمرد على قوالب التصنيف، والتبويب الجاهزة، هـو يـرفض أن يعتقل ضمن هذا الجنس، أو ذاك النوع، ويأبى إلا أن يكون له في كل مكرمة مجال فقد ارتاد الشعر الفصيح، والشعر الملحون، وقصة الأطفال، وألف فـي علـم العـروض وعلم القافية، وعلم اللغة، وأبدع الألغاز، والطرف، والنكت...وقد يجمع بين كـل ذلـك في كتاب واحد..»[17]. ويحدد الباحث عمر امشارة العوامل المكونة لشخصية العلاّمـة الأحمدي في مجموعة من العناصر، نذكر بعضاً منها:

1- الجانب العلمي: مما لا يختلف فيه اثنان أن مكانة الشيخ العلمية كبيرة، فعمق معارفه، وسعة اطلاعه، وطول باعه في العلم أمر لم يعد سراً لا يعرفه إلا خاصة الناس..؛

2- الجانب الخلقي: ويتجلى في سلامة الطوية وطهارة النفس، والوفاء، وحبه لطلبة العلم والمثقفين، والحياء..؛

3- الجانب الروحي: ويتمثل في ظاهرة الإقبال على العبادة، والذكر، وانشغاله به إلى حد فاق حدود التصور[18].

ثانياً: جهود العلاّمة عبد الرحمن الحاج صالح في خدمة اللسانيات وتعليمية اللغة العربية: كان العلاّمة الحاج صالح عالماً كبيراً بارعاً في علم اللسانيات، وأحد كبار الأكاديميين الجزائريين الذين أسسوا هذا التخصص العلمي في الجزائر، وقد حقق في مشواره العلمي والأكاديمي الطويل إنجازات كبيرة، ومتميزة، قدم من خلالها بإخلاص شديد، ودقة متناهية إضافات علمية ثمينة خدم بها علوم اللسان خدمات جمة، فهو عالم جليل، وأستاذ بار بأبنائه جميعاً، وقد كان مصدر عطاء علمي، وإنساني فياض، وعاش حياة حافلة بالجهد، والمعاناة. ولا يختلف اثنان في أن أهم مشروع علمي شغل اهتمام الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح، هو مشروع الإنترنت العربي، أو الذخيرة اللغوية للغة العربية منذ العصور القديمة، إلى أيامنا هذه، فقد ركز الدكتور الحاج الصالح من خلال رغبته في تجسيد هذا المشروع على تكنولوجيات الاتصال الحديثة، ومدى إمكانية توظيفها في خدمة اللغة العربية من خلال حوسبتها، فهو يرى أن الذخيرة العربية يفترض أن تكون تمثيلاً حقيقياً لاستعمالات العربية عبر سلاسل زمنية متتالية من خلال حصر جميع الألفاظ التي وردت في المعاجم العربية، واستعملت في المصادر العربية القديمة، فالمحتوى العربي الإلكتروني هو مدونة حية يتم الانطلاق منها في دراسة الظاهرة الدلالية، حيث إن مشروع «الذخيرة العربية»، يعُرف بأنه عبارة عن «بنك آلي من النصوص العربية القديمة والحديثة مما أنتجه الفكر العربي فهو ديوان العرب في عصرنا فسيكون آلياً أي محسوباً وعلى شبكة الأنترنت، وهو

بنك آلي أي قاعدة معطيات حسب تعبير الاختصاصيين في الحاسوبيات، وهو بنك نصوص لا بنك مفردات، أي ليس مجرد قاموس، بل مجموعة من النصوص مندمجة حاسوبياً ليتمكن الحاسوب من المسح لكل النصوص دفعة واحدة، أو لجزء منها، كبيراً كان أم صغيراً أم نصاً واحداً وغير ذلك، فهذا المسح الآلي للنصوص (العجيب السرعة) هو شبيه بالمسح المؤدي إلى فهرسة الأعلام والمفاهيم، وأسماء الأماكن وغير ذلك من جهة، أي إلى استخراج كل هذا، وحصره وترتيبه مع شيء إضافي جديد، وهو استحضار سياقاته، وذكر المرجع الكامل الدقيق. ويزيد على ذلك الحاسوب الإحصاء، وتحديد تردد العناصر في النص الواحد، أو في أكثر من نص، للذخيرة صفة أخرى تمتاز بها عن غيرها، وهي أنها ذخيرة مفتوحة على المستقبل غير معلّقة مثل أكثر ما هو مكتوب فهي قابلة للزيادة، والتجديد للمعلومات العلمية، والتقنية، وفوق كل شيء قابلة لتصليح الأخطاء في كل وقت. وبالنسبة إلى محتوى الذخيرة، فهي تنقسم إلى جانبين:

– ثقافي (علمي تربوي)، وجانب خاص باللغة العربية، وذلك بحسب توظيفها ونوعية الأسئلة الملقاة عليها، إلا أن محتواها من النصوص يُهم الجانبين معاً. فسيكون فيها في المرحلة الأولى والثانية (وربما تكفي الأولى بالنسبة للتراث):

– النص القرآني بالقراءات السبع وكتب الحديث الستة؛

– أهم المعاجم اللغوية (الوحيدة اللغة والمزدوجة)؛

– الموسوعات الكبرى العامة العربية الأصل والمنقولة عن اللغات الأخرى؛

– عينة من الكتب المدرسية والجامعية القيمة (الرائجة في الوطن العربي أو في بلد واحد)؛

– عينة من الكتب الخاصة بإكساب بعض المهارات (منها تعليم اللغة العربية) على الطريقة الحاسوبية؛

– عينة من الكتب التقانية القيمة؛

– عينة كبيرة من البحوث العلمية، والثقافية القيمة المنشورة في المجلات المتخصصة؛

– عينة كبيرة من المقالات الإعلامية الصحفية والإذاعية والتلفزيونية والحوارات والمداخلات المنطوقة في اللقاءات العلمية وغيرها؛

– أهم ما حُقّق ونُشر من كتب التراث الأدبية (والشعرية خاصة،) والعلمية، والتقنية من الجاهلية إلى عصر النهضة. وحجم هذه النصوص هو

– حتى في المرحلة الأولى– ضخم جداً، ويبرر أصحاب المشروع هذا الحجم الكبير جداً بضرورة التغطية الواسعة للاستعمال الحقيقي للغة العربية قديماً وحديثاً لأنه يمثل أولاً اللغة الحية النابضة بالحياة في كل الوطن العربي، وثانياً أفكار العرب وتصوراتهم، وفنونهم، وعلومهم، وأحوال حياتهم الاجتماعية، والدينية، والسياسية وبالتالي تاريخهم الاجتماعي وتطور كل ذلك عبر الزمن»[19]. وفيما يتعلق بأهداف الذخيرة المحوسبة وفوائدها، فمن الجانب الثقافي «فهدف الذخيرة هو تمكين أي باحث أو طالب، أو تلميذ (وأي مواطن) أن يتحصل في وقت وجيز، وفي أي وقت المعلومات التي يحتاج إليها للقيام ببحث، أو إنجاز مشروع، أو لسد ثغرات في معلوماته، أو تحصيل كل ما جد في ميدان معين، أو استفسار عن معلومات في شتى الميادين في الوقت الحاضر، أو فيما مضى، وغير ذلك، ثم من جهة أخرى ولمن يرغب في ذلك: الحصول على مهارات معينة في ميادين معينة توجد فيها طرائق تعليم يتم بالحاسوب. أما الجانب اللغوي فيمكن للباحث أن يتحصل على معلومات أيضاً في وقت وجيز ولولا الحاسوب لتعذر عليه ذلك تماماً في أغلب الأحوال، أو قضى للعثور على بغيته الأسابيع والشهور، وذلك لحصوله على معرفة وجود كلمة معينة أو عدم وجودها في نص أو عدة نصوص أو في عصر كامل وترددها إن وردت مع حصر جميع سياقاتها، وكذلك هو الأمر بالنسبة للجذور والصيغ، والتراكيب، وأنواع الأساليب، والأمثال وكل ما يخص اللغة، وعناصرها، وبناها، ومجاريها على اختلاف

أنواعها. ويعتقد مجموعة من الخبراء الذين يشرفون على مشروع الذخيرة اللغوية أنـــه سيكون دافعاً قوياً للكثير من الحركات، والأعمال العلمية، وغيرها:

- سيكون حافزاً قوياً لنشر اللغة العربية الســليمة فـــي جميـــع الميـــادين العلميـــة والتكنولوجية؛
- وحافزاً للشباب لاختيار الشعب العلمية، والتكنولوجية؛
- وحافزاً قوياً لحركة تحقيق المخطوطات، وإحياء التراث؛
- ودافعاً لتوحيد المصطلحات العلمية، والتقنية العربية؛
- ودافعاً للتعريف الواسع، والعميق للتراث العربي؛
- ومساعداً عظيماً لتوسيع معلومات النشء الصغير وطلاب الجامعات=، والمثقفين عامة؛
- ومساعداً عظيماً لا مفرّ منه لأعمال المجامع اللغوية العربية كمرجع موثوق به
- ومساعداً في اكتساب المهارات في شتى الميادين؛
- ومصدراً عظيماً لشتى الدراسات اللغوية، والاجتماعية، والتاريخيـــة، والعلميـــة وغير ذلك؛
- ومصدراً آلياً، ومرجعاً لا بد منه في صنع المعاجم علـــى اخـــتلاف أنواعهـــا: المعجم التاريخي للغة العربية، معجم ألفاظ الحياة العامة، معجم المتـــرادف والمشـــترك والمتجانس ومعاجم المعاني وغير ذلك»[20].

إن العلاّمة عبد الرحمن الحاج صالح يعد أحد أبرز البـــاحثين الجزائـــريين الـــذين تناولوا موضوع تدريس اللغات، وأثر التحكم اللغوي في ذلك العلاّمة عبـــد الـــرحمن الحاج صالح؛ رئيس المجمع الجزائري للغة العربية، وذلك من خلال نشره مجموعـــة من الأبحاث، والمقالات، فقد كتب في السبعينيات مقالاً موسوماً ب: «أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية» سلط فيه الأضواء على مختلف أطوار الكـــلام «بتحليل المادة اللغوية، وإظهار البنى النحوية والتحويلية وصولاً بالطالب إلى اكتســـاب ملكة اللغة عن طريق المران، أي القدرة على إنتاج التعبير السليم عن طريق التجريـــب

والدربة، وفي مقالة أخرى تحدث فيها عن (التحليل العلمي للنصوص بين علم الأسلوب وعلم الدلالة والبلاغة العربية)، وهو بحث في مستويات الدلالة، وجماليات الصياغة الأدبية للغة، ويساعد الطالب كثيراً على فهم طبيعة الكلام الأدبي الإيحائية، وبنيته التركيبية البلاغية المعقدة، كما تحدث عن «علم تدريس اللغات» بصفة عامة، وكيف راجت فيه الأبحاث بأوروبا، وما ينبغي له من العتاد المخبري لتمييز الأصوات اللغوية، وما قدمه «معهد العلوم اللسانية» الذي كان يُشرف عليه الحاج صالح من البحوث في هذا المجال. وفي بحث قدمه إلى اتحاد الجامعات العربية في ندوة خاصة بتدريس اللغة العربية، أسماه: «الأسس العلمية لتطوير تدريس اللغة العربية» أكد فيه الحاج صالح على أن انخفاض المستوى في استعمال العربية يعد من المشكلات العويصة في مجتمعاتنا، وتتقاسم المسؤولية في ذلك عدة مؤسسات، فمنها ما يرتبط بكيفية استعمال الناس للعربية في المدارس، وفي الجامعة، وفي الحياة العامة، ثم مدى مشاركة العاميات واللغات الأجنبية إياها في مختلف المستويات والبيئات، ومنها ما يتصل بالمحتوى اللغوي ونوعيته في مناهج التدريس، أي بحجم الذخيرة اللغوية الصالحة للاستعمال، الموجهة للاكتساب في كل مرحلة من مراحل التعليم. وقد لاحظ في هذا الصدد باحث في مكتب التعريب بالمغرب الأقصى نقصاً كبيراً في حجم المعارف التي تقدم إلى التلميذ في العالم العربي قياساً بمثيلتها المقدمة إلى أطفال أوروبا، وذكر إحصاءً يُفيد أن حصيلة المصطلحات والمدركات في جميع الكتب المدرسية (الابتدائية في الوطن العربي) لا تتجاوز ثمانمائة مدرك، بينما يتجمع في ذهن التلميذ في الغرب ألف وخمسمائة مصطلح، أو مدرك. ويمكن أن يُقاس على هذا الفارق ما يُقدم في مراحل التعليم الأخرى، فتتبين بذلك أسباب انخفاض المستوى عندنا كما صرح الكاتب. وأضاف الحاج صالح ملاحظة أخرى على هذا الكم القليل المقدم إلى أطفالنا وشبابنا بناءً على الإحصاء أيضاً، وهي «غزارة المادة اللغوية فيما لا يحتاج إليه المتعلم» كالألفاظ المترادفات الكثيرة، والألفاظ العقيمة التي هجرها الاستعمال. وهذا النقص الفادح في الذخيرة ليست اللغة العربية هي المسؤولة عنه بل

كسل أهلها وضعف اعتناء منهم لضعفهم في أنفسهم بتعبير الحـاج صـالح، فراحـوا يُرددون بألسنتهم مسميات الأشياء الجديدة، والموضات الوافدة بلفظها الأجنبـي رغـم رطانته الأعجمية، قانعين بذلك عوض أن يشتقوا أو ينحتوا من العربية، أو يعربوهـا حسب القواعد اللغوية، ونتج عن ذلك فوضى الاستعمال، وخلط لغوي معيب في تأديـة المجامع اللغوية –إن وجدت– وكذا وسائل الإعلام لرسـالتها فـي تصـحيح الوضـع وصار الناس يخلطون في حديثهم فيجمعون بين لفظ عربي، وآخر فرنسي أو إنجليزي في مركب لغوي واحد، وجملة واحدة ليس فيها بنية نحوية واضحة، فأنى لهذه اللغة أن تصوغ وجداننا، وتعبر عن فكر سديد؟»[21]. ويرى العلاّمة عبد الرحمن الحاج صـالح أنه لابد من مضاعفة مردود البحث الاصطلاحي، وذلك مـن خـلال مجموعـة مـن الطرائق والوسائل من بينها:

1- الرجوع إلى الاستعمال الحقيقي، والتركيز على ما قد وضع من لفـظ عربـي لنفس المفهوم في جهة أخرى، أو بلد آخر؛

2- الحصر الكامل والمستمر لما يضعه العلماء باستمرار من مصطلحات في سائر أقطار الوطن العربي؛

3- الرجوع إلى التراث العلمي العربي، ومحاولة مسحه مسحاً كاملاً؛

4- الاعتماد على مدونة من النصوص العلمية، حتى يتـراءى فيهـا الاسـتعمال الحقيقي القديم والحديث للغة العربية، في كل ميدان من الميادين العلمية، وبذلك تكـون المصدر الرئيس للبحث الاصطلاحي، واللغوي بصـورة عامـة، وتصـبح مرجعـاً موضوعياً؛

5- اللجوء إلى الوسائل التكنولوجية الحديثة، وتطوير التصور للعمل الاصـطلاحي وذلك بما يقتضيه العمل على الحاسوب؛

6- لا يتم الاكتفاء بترويج المصطلحات الجديدة فحسب، بل لابد من التدخل، وذلـك لنشرها على نطاق واسع بطرائق ناجعة، وعلى نطاق واسع؛

7- ضرورة خلق هيئة قومية تهتم بالإشراف على جميع الأعمال الاصطلاحية العربية، وذلك بالتخطيط، والمتابعة، والتقويم العلمي، والتنسيق، وتكون لها صلاحيات مشروعة لتحقيق هذه الأهداف، ويُسمح لها بالتدخل المباشر؛

8- السعي لاستثمار الثروة اللغوية التي تختص بها لغتنا العربية في أبنيتها وجذورها»[22]. ومن الاقتراحات التي قُدمت لترقية اللغة العربية على المستوى التعليمي، والبيداغوجي، والحضاري:

«أولاً: إعادة النظر في المناهج والطرائق المستخدمة في تعليم اللغة العربية للناطقين بها، ولغير الناطقين، والحرص الشديد على تحديثها وعصرنتها بناء على المتغيرات المتسارعة في العلوم والمعارف الإنسانية؛

ثانياً: تنمية التفكير العلمي لدى المتكلم المثالي للسان العربي، لتوطئة كل السبل من أجل الوصول إلى مصادر المعلومات ومعالجتها وتقويمها، وفرز عناصرها الفاعلة في حركة التوالد المعرفي الجديد للإسهام فيه، أو تصحيح معارف سابقة؛

ثالثاً: استثمار التطور الهائل في مجال الاتصال، والشبكات الإعلامية والمعلوماتية العالية، وترقية آليات التواصل بين أفراد المجتمع البشري للوصول إلى المعلومات الصحيحة، وتوظيفها توظيفاً صحيحاً، لتذليل كل الصعوبات والعوائق التي تعترض المستخدم للسان العربي؛

رابعاً: تجنب الجدل العقيم الذي يتبدى في تلك الخلافات النحوية والصرفية التي تعيق العملية التعليمية الصحيحة؛

خامساً: إحياء الشاهد النحوي بربطه بالواقع اللغوي الذي يحيط بالعملية التعليمية لأن اللغة استعمال وممارسة، ومادامت كذلك لا بد من التخلص من الشواهد الميتة المحنطة التي لا صلة لها بالواقع العربي الحديث»[23]. وبالنسبة للبحوث اللغوية المنجزة في أغلب البلدان العربية، فالدكتور عبد الرحمن الحاج صالح يذهب إلى أنها تتسم بطابع تقليدي، كما أنها لم تتطور، وقد لاحظ أن اهتمام الباحثين بما يطرأ من جديد في ميدان تكنولوجيا اللغة العالمي هو قليل جداً، وفي نظره أن النقائص تتحصر

في وضع المصطلحات، وغيرها من الأعمال الخاصة بتكييف اللغة وإثرائها، في أمور ثلاثة:

1- اعتباطية العمل: حيث يرى الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح أن الكثير من اللغويين العرب الذين ينجزون البحوث اللغوية لا يخضعون لضوابط علمية في عملهم ولا يراعون معطيات العلوم اللسانية الحديثة بصفة خاصة، ومنهجية العلوم الاجتماعية بصفة عامة، فالعمل الاعتباطي يقصد به ذلك العمل «الذي لا يعتمد على مجموعة من المبادئ النظرية العلمية وعلى منهجية دقيقة تتبنى هي بدورها على تلك المبادئ ومبادئ عامة غيرها. فالعمل الاعتباطي يتصف قبل كل شيء بخضوعه للتحسس الذاتي المبعثر وتسيير الأمور على الهاجس. فعدم وجود مجموعة من المقاييس العلمية الدقيقة -وأهمها مقاييس المشاهدة والتحليل- قد يؤدي الباحث إلى هذا النوع من السلوك الناقص والحكم على الشيء بدون الرجوع إلى الواقع»[24]؛

2- العمل الشبه حِرفِيّ: يذهب الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح إلى أن البحث اللغوي في العالم العربي يقتصر على البحوث الفردية التي تشبه الصناعات التقليدية المعتمدة على المعالجة اليدوية مثل النظر الجزئي في القواميس، والاقتصار على جرد العديد من المعلومات بالأيدي، أي أن البحث في وضع مصطلحات اللغة العربية ما يزال شبه حرفي «لم يخرج بعد من طور البحث الفردي اليدوي الذي لا يزال يجري على مستوى الأفراد، حتى ولو كان المعنيون به منتسبين إلى هيئة علمية يعملون فيها مع غيرهم، لأن عملهم ليس جماعياً في الحقيقة، إذ العمل الجماعي هو الذي تقوم به جماعة أو أسرة من الباحثين ينتظمون فيها انتظام الخلايا بالنسبة للجسم الحي: كل مجموعة معينة أخرى وهذه بدورها تكفل عمل غيرها. فالعمل الجماعي في البحث العلمي هو أيضاً من هذا النوع إذ تجتمع على العمل الواحد الواسع النطاق الخلايا من الباحثين المختلفي الاختصاصات وكل يعمل لفائدة الآخر ولا يمكن أن ينفرد ويستغني عن غيره...، فالأعمال الفردية -حتى لو كانت في داخل لجان مختصة- لا يمكن أن تساوي كماً وكيفاً ما تؤديه هذه المجموعات المنتظمة من الباحثين. وقد بقي البحث

اللغوي في الوطن العربي على الشكل الذي هو عليه من التفرد وعدم التكافل الشامل بين العاملين المنتمين إلى الهيئة الواحدة. وفيما يخص هندسة اللغة فقد صار علماء اللسان في زماننا يتعاونون مع المهندسين في الحاسوبيات والإلكترونيات ولهذا يحتاج كل واحد من اللسانيين والمهندسين أن يكون حاصلاً على علم الآخرين بقدر كاف دون تخصص فيما يكسبه زميله اللغوي أو المهندس من مبادئ اللسانيات أو مبادئ في الحاسوبيات. هذا وقد يضطر المهندس إلى أن يلم بالكثير من مفاهيم اللسانيات الحديثة إذا تناول ميداناً من البحث يخص اللغة ونظامها وبنيتها»[25]؛

3- عدم الشمولية: ويقصد به عدم الرجوع إلى كل المصادر العربية التي يمكن الاستقاء منها –وخاصة المخطوط منها- وجميع المراجع الأجنبية التي يمكن استغلالها لتحديد المفاهيم الحديثة، فالمتأمل في واقع البحث اللغوي المعاصر يتضح له أن «أكثر اللغويين ممن يهتم بوضع المصطلحات يقتصر في الغالب على البحث في المعاجم المتداولة كالقاموس المحيط ولسان العرب والصحاح وغيرها ويجعلون من هذه المصادر المستقى الوحيد لجميع أعمالهم. وقلما وجدنا من اهتم بالنصوص التي وصلتنا كأمهات الكتب في الأدب والعلوم وغيرها. والحق أن هذا العمل يعجز عن القيام به الأفراد لمشقته العظيمة وقد يعجزون عن التصفح المنتظم المتواصل للمعاجم نفسها»[26].

ثالثاً: جهود المفكر خير الله عصار في خدمة تعليمية اللغة العربية من خلال كتابه: «تدريس اللغة العربية للكبار»:

توطئة: انتقل إلى رحمة الله تعالى بتاريخ: 28 نيسان – أفريل 2015م، الباحث الأكاديمي، والمفكر، والأديب الجزائري، السوري الأصل، الدكتور خير الله عصّار ويمتد التاريخ الأكاديمي له إلى أكثر من نصف قرن، وفي خلال حياته العلمية، خدم المكتبة العربية بعدد كبير من المؤلفات، ومن المساهمات الأدبية، والفكرية. ولد الدكتور خير الله عصّار سنة: 1935م، بمدينة حماة في سوريا، وحصل على شهادة التعليم الثانوي (البكالوريا) سنة: 1952م، بمدينة حماة، ونال شهادة البكالوريوس في

علوم التربية سنة: 1956م، من الجامعة الأمريكية في بيروت، لبنان، وشـــهادة دبلـــوم التربية في السنة نفسها من الجامعة نفسها، وحصل على شهادة الماجستير فـــي علـــوم التربية سنة: 1959م، من الجامعة الأمريكية ببيروت، ونال شهادة الدكتوراه في علـــوم التربية الاجتماعية سنة: 1964م، من جامعة هايدلبرغ بألمانيا. يحتل البروفيسور خيـــر الله عصار مكانة مرموقة في الأوساط الثقافية والأكاديمية في الوطن العربي، فقد وجـــد فيه كل من تعرف عليه، واطلع على إنجازاته العلمية، والأدبية، صفات العـــالم الـــذي كرس حياته للبحث العلمي، والتأليف، والإبداع الأدبي، فأثرى المكتبة العربية بمؤلفـــات نفيسة، فهو أديب روائي، وكاتب مسرحي، ودارس متعمق في علم الاجتمـــاع، وعلـــم النفس، والفلسفة، وله إسهامات علمية باللغتين العربية والإنجليزية، معتمدة ومقررة فـــي مختلف الجامعات العالمية في أوروبا، وأمريكا، كما أن له ترجمات لأعمال أدبية مـــن اللغة الألمانية، وإلى اللغة الإنجليزية، وقد اشتهر في الأوســـاط الأكاديميـــة بإحاطتـــه العميقة بقضايا التعليم، والتربية، التي قل أن تتوافر في كثير من الدارسين، والحـــق أن من يطلع على مؤلفاته الأكاديمية المتميزة، يُدرك أنه يتسم بالتحليل، والنقـــاش العميـــق لمختلف القضايا العلمية التي يطرحها، ويلتزم كذلك بالمنهج العلمي بدقة كبيرة. عمـــل الدكتور خير الله عصار في عدة مؤسسات أكاديمية، ودرّس في جامعات عالمية، حيث عمل مدرساً للغة العربية في جامعة غوتبرغ بالسويد، وذلك في سياق تحضيره لشـــهادة الدكتوراه في هايدلبرغ، وبعد أن عاد إلى وطنه سوريا، عمل مدرساً للتربيـــة، وعلـــم النفس، والفلسفة، بين سنوات: 1965–1972م، في دور المعلمين في حمص، وحمـــاة وثانوياتها، وبعد أن انتقل إلى الجمهورية الجزائريـــة، عمـــل مدرســـاً فـــي المعهـــد التكنولوجي للمعلمين ببوزريعة في الجزائر، بين ســـنوات: 1972–1976م، وعمـــل أستاذاً بمعهد علم الاجتماع في جامعة عنابة، من سنة: 1976م إلـــى أن أحيـــل علـــى التقاعد سنة: 1997م. لقد أصدر الدكتور خيـــر الله عصـــار مجموعـــة مـــن الكتـــب والمؤلفات الثمينة، كما كتب عدداً كبيراً من الأبحـــاث الأكاديميـــة بـــاللغتين العربيـــة والإنجليزية، نُشرت في مختلف المنابر الأكاديمية العالمية، وله ديـــوان شـــعر باللغـــة

الإنكليزية، نُشر في ألمانيا، والجدير بالذكر، أن الدكتور خير الله عصار أسهم مساهمة فعالة في مجال أدب الأطفال، حيث كتب مجموعة متميزة من المسرحيات، والقصص الشائقة للأطفال، وقد نالت عدة جوائز في الأوساط الإعلامية في الجزائر، والوطن العربي، بعد أن تم تمثيلها في الإذاعات العربية، ومن بين هذه المسرحيات، نذكر مسرحية: «**الأرض**»، ومسرحية: «**العم نجران**»، فضلاً عن رواية متميزة للأطفال لقيت أصداء طيبة على مستوى الوطن العربي، موسومة ب: «**يوميات بعوضة كانت فتاة في الجنة**»، والحق أن كل من خامر هذا العالم المتميز، يلمس فيه التطلّع المثالي إلى المعرفة، والعمل الدؤوب لنيلها، ورغبته الشديدة في إفادة القارئ بثمار ما جنى من مطالعاته، وقراءاته المكثفة.

تدريس اللغة العربية للكبار: صدر هذا الكتاب عن منشورات دار طلاس للدراسات، والترجمة، والنشر بدمشق، سورية، سنة: 1996م، ويُرجع الدكتور خير الله عصار المنطلق الأول لتأليفه لهذا الكتاب إلى التركيز على الجوانب العملية في تعليم اللغة العربية، أي تلك التي تُسهم في فهم أصول العربية، وطرائقها، وبعبارة أخرى فمنطلق المؤلف كان منطلقاً براغماتياً (ذرائعياً) قبل كل شيء، ويحصر المنطلق الثاني في تجنب التوكيد على الجوانب النظرية، والخلافية في مضمار تعليم اللغة العربية والإكثار من الشروح، ويذكر في هذا الشأن بأنه حاول أن يكثر من الأمثلة التطبيقية ويربط بين المفاهيم النظرية، ومضمونها التطبيقي(27). ولعل خير ما يمثل الغاية من تأليف هذا الكتاب، قول المؤلف في المدخل، الذي خصصه للحديث عن إشكالية البحث: «تشكل مسألة تدريس اللغة العربية للكبار، مشكلة قائمة بنفسها، وبشكل يكاد ينفصل عن مشكلات تدريس اللغة العربية، وبمختلف مراحلها، يعود السبب لذلك إلى: أولاً: إن برامج تعليم الكبار هي في الغالب مكثفة، ولفترة قصيرة، على النقيض من برامج تعليم الصغار، التي تمتد عبر مراحل التعليم الابتدائي، والمتوسط، والثانوي

ثانياً: إن الكبار يجلبون معهم إلى الدروس خبرات وإمكانات، وقدرات، تختلف جذرياً تقريباً عن تلك التي عند الصغار، مثلاً، معرفتهم بلغة أجنبية، وثراء معارفهم

بلهجاتهم المحلية، إذا كانوا أميين، فضلاً عن سيكولوجيتهم التي ما فتئ المربون يؤكدون على أن سيكولوجية الصغير تختلف عنها. إن هذين العاملين الرئيسين يجعلان من تدريس الكبار إحدى المشكلات الصعبة، خصوصاً إذا علمنا أن أكثر كتب تعليم العربية، قد كتبت للتلاميذ في المدرسة، وأن اهتمام المربين ينصب أولاً، وأخيراً على الصغار، هذا يعني أن معلم العربية للكبار يواجه عوائق وصعوبات جمة...»[28].

يشتمل كتاب الدكتور خير الله عصار: «تدريس اللغة العربية للكبار» على بابين رئيسين: الباب الأول: مادة تدريس اللغة، والباب الثاني: طريقة تدريس اللغة، وقد لخص الدكتور عصار أهم القضايا التي عالجها في خاتمة الكتاب، بالإشارة إلى أن ما سعى إليه هو محاولة بحث أصول تدريس اللغة العربية للكبار، وهذا التدريس له صعوباته، بسبب تغلغل اللغة الأم على شكل اللهجة في بنية الجهاز العصبي والحركي–الصوتي، المتعلق بالقدرات اللغوية، وبناءً على هذا، فالتحدي الذي يواجهه معلم اللغة العربية للكبار، ليس بالتحدي الهين، والصعوبات في تدريس الكبار، هي أكبر من تلك التي نواجهها في تدريس الأطفال، وفيما يتعلق بالمنحى الذي اتبعه في تأليف هذا الكتاب، فله جملة من الأبعاد، منها البعد البنيوي المتعلق بطبيعة اللغة والآخر البعد النفسي –الاجتماعي المتعلق بسيكولوجية المتعلم، والعلاقات مع المعلم والثالث البعد المتصل بالطريقة، وأسسها، وعناصرها المكونة، وتظل فكرة النمط هي الفكرة المركزية[29]. ومن بين القضايا التي شغلت الباحث خير الله عصار في هذا الكتاب قضية تحديد مفهوم دقيق للغة، ينسجم مع الغرض الذي يصبو إليه المتعلم والمعلم، فهو يذهب إلى أننا عندما نبحث عن تعريف للغة نلفي مجموعة من التعريفات المختلفة، ومن يقوم بتعليم اللغة يُفترض فيه أن يكون مُحيطاً بماهيتها، ويُحسن انتقاء التعريف المحدد، الذي يمكنه من النهوض بالعملية التعليمية على وجه سليم، فالتصور يلعب دوراً مهماً في تحديد مسار العملية التعليمية، والمعروف في البحث العلمي أن الباحث قد يحتاج لما يطلق عليه التعريف الإجرائي، والذي يُقصد به التعريف المعتمد في البحث الذي يُزمع القيام به، وفي تعليم اللغة لابد من ضبط تعريف محدد، والفائدة

من هذا الأمر أنه يكشف عن طبيعة اللغة، وعناصرها الأساسية كما يفعل الكيميائي الذي يحلل المادة إلى ذرات في محاولة لتعريفها، وكذلك فالعملية التعليمية -خصوصاً الطريقة- تتأثر بالتعريف، فعلى سبيل المثال المعلم الذي يعتبر اللغة كلمات فحسب يمكن له أن يجعل عملياته التعليمية تقوم على أساس حفظ المفردات، والمعلم الذي يعد الكتابة لغة يمكن أن ينطلق في تعليم الكتابة[30]. ويستشهد الباحث خير الله عصار بقول ش. موريس إن اللغة هي «مجموعة علامات ذات دلالة جمعية مشتركة، ممكنة النطق من كل أفراد المجتمع المتكلم بها، وذات ثبات نسبي في كل موقف تظهر فيه، ويكون لها نظام محدد تتألف بموجبه حسب أصول معينة، وذلك لتركيب علامات أكثر تعقيداً»[31]. ويرى أنه يحلو لبعض الباحثين المشتغلين بتعليمية اللغات اعتماد هذا التعريف نظراً لاشتماله على مجموعة من العناصر الهامة، واهتمامه بالعناصر الجوهرية التي تتشكل منها اللغة، إضافة إلى صلته الوطيدة بتعليم اللغة، ويتساءل الباحث الدكتور خير الله عصار: ماذا يمكن أن نستفيد من هذا التعريف في تعليم اللغة؟ ثم يجيب عن ذلك بقوله:

«أولاً: التركيز على تعليم الأنماط، وليس على المفردات المنفصلة؛

ثانياً: أن يقوم المعلم دائماً بالربط بين المواقف، وبين الجمل، وألا يكتفي بالمعاني المعجمية؛

ثالثاً: أن يؤكد على النطق وبالتالي على الفهم، وباختصار فإن اعتبار اللغة منظومة من الإشارات (الرموز) المنطوقة – المفهومة التي يرتبط بعضها ببعض بشكل منظم حسب أنماط محددة، يوجه انتباه المعلم بعيداً عن الطريقة التقليدية التي تركز على المعاني المنعزلة للكلمات، وحسب ما ورد في المعجم، وعلى حفظ معانٍ مجردة للحالات الإعرابية، والنحوية، والصرفية»[32]. إن السعي إلى النهوض بتعليم اللغة العربية، وترقيتها لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال وضع خطط تدريسية منظمة وتحقيق وسائل ومناهج كفيلة بنشرها وترقيتها، ولضمان اكتساب لغوي سليم للطفل ينبغي تيسير قواعد اللغة العربية، والتركيز على القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة

وذلك من خلال إكثار تسجيلات القرآن الكريم، وتفسيره تفسيراً مُبسطاً، وكذلك الشأن بالنسبة للسنة النبوية الشريفة، بحيث يتم التركيز على الأحاديث النبوية التي تتسم بسهولة معانيها، وتكون مقاصدها مفهومة مع إتباعها بشرح مبسط، إضافة إلى بذل المزيد من الجهود بهدف إعداد مدرسي اللغة العربية، وتطوير الكتب المدرسية، وتقويم أساليب تعليم اللغة العربية تقويماً سليماً...، وقد جرت العادة في تدريس القواعد اللغوية على تقسيمها إلى قسمين: الطرائق التقليدية، والطرائق الحديثة، ومن أهم الطرائق التقليدية الطريقة الإلقائية، والطريقة الاستجوابية من خلال السؤال والجواب والاستنباطية التي يتم فيها الانطلاق من الجزء إلى الكل، وهي الطريقة التي اعتمدها النحاة العرب القُدامى، حينما ينتقلون من أحكام فرعية من خلال الأمثلة، والشواهد، إلى أحكام عامة وشاملة تمثل القاعدة الرئيسة. ومن أهم ما تتسم به الطرائق الحديثة أنها تنظر للمتعلم على أساس أنه محور العملية التعليمية، وترى أن أساس التعلم هو الجهد الذاتي للفرد، ومن بينها طريقة المشكلات لجون ديوي، وطريقة المشروع لصاحبها كليباتريك. والمهم هو ما مدى استثمار هذه الطرائق في تعليم لغتنا العربية؟ إن الطريقة الإلقائية يمكن أن نستثمرها من خلال تقديم نص قصصي، وذلك بغرض تعويد المتلقي على الاستماع، ويمكن أن يكون «النص موجهاً لتحقيق غاية معينة مثلاً أن يشتمل على قواعد معينة سبق أن دُرست، وبذلك يغدو الإلقاء وسيلة للتمرين. وقد يطلق عليه الاستماع الانتقائي بهدف التركيز على عدد من القواعد أو المصطلحات النحوية. وعلى العموم ينبغي أن يتبع ذلك عدد من الأسئلة من نوعين: 1- أسئلة حول الأفكار العامة لما تم الإصغاء إليه. 2- أسئلة حول أفكار خاصة محددة، وردت في النص»[(33)].

كما أسهم الدكتور خير الله عصار في خدمة تعليمية اللغة العربية بالدراسات والمناقشات العلمية، في عشرات الملتقيات العالمية في الوطن العربي، وفي أوروبا وأمريكا، وكان له نشاط واسع في الأوساط الثقافية في الجزائر، حيث كان يُشارك بفعالية في ملتقيات الفكر الإسلامي، التي كانت تنعقد أعمالها في الجزائر، فقد كان يثير انتباه العلماء والأدباء بنقاشاته العلمية الدقيقة، وملاحظاته الثاقبة، ويلفت النظر إلى

الكثير من الأسئلة الفكرية، والفلسفية. إن هذا الكتاب (تدريس اللغة العربية للكبـــار) هو ثمرة جهود جديرة بكلّ تقدير، درس فيه الدكتور خير الله عصار بمنهجيـــة علميـــة لافتة للنظر، قضايا تكتسي أهمية بالغة، تتصل بتعليمية اللغة العربية للكبار، ومن ميـــزة الباحث الجاد خير الله عصّار أنه لا يترك عنصراً من عناصر الموضوع، إلا بعـــد أن يوفيه حقّه من الدراسة، وقد استعان بمصادر، ومراجع كثيرة، ومتنوعة فـــي الصـــنف والمادة.

فذلكـــة: لقد كان الأديب المفكر الدكتور خير الله عصـــار، واحـــداً مـــن الأســـاتذة المتميزين علمياً، ويعد من المفكرين النابهين، ظل طوال حياته ينتج، ويبدع في مختلف ميادين المعرفة، ويتجاوب مع مختلف الأنشطة الثقافية التي تقام فـــي مختلـــف أقطـــار الوطن العربي، وقد كانت له صلة وثيقة، ومناقشات فكرية عميقة، مع عدد مـــن كبـــار الأدباء، والمفكرين في الوطن العربي. أنتج مجموعة من الكتـــب القيمـــة، والبحـــوث الثمينة التي أفادت، وستظل تفيد أجيالاً من الطلاب، والباحثين، والأساتذة، وإنـــه لمـــن الصعب أن نلم بنشاطاته الكثيرة إلمامة وافية، وسيتذكر كل من عرفه إنجازاته الأدبيـــة القيمة، وسيذكرون ذلك الأديب المبدع، والأستاذ الجامعي الأكاديمي المنفتح الذهن على الثقافات، والأفكار العالمية، والذي تميز بإخلاصه لمهنته، وطلابه، فقدم عصارة فكـــره وجهده، وعلمه، بكل أمانة، وصدق، وأسهم بفعالية كبيرة في إثراء المســـيرة العلميـــة والأدبية، والفكرية.

الهوامش والمراجع:

[1] رابح بونار: المغرب العربي: تاريخه وثقافته، منشورات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1981م، ص:05.
[2] عثمان الكعاك: بلاغة العرب في الجزائر، نقلاً عن: رابح بونار: المغرب العربي: تاريخه وثقافته، ص:07.
[3] موسى بن محمد بن الملياني الأحمدي: المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي منشورات دار العلم للملايين، ط:2، بيروت، لبنان، 1969م، ص:2.
[4] موسى بن محمد بن الملياني الأحمدي: المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي ص:20.
[5] المرجع نفسه، ص:45.
[6] نجيب بن خيرة: الأديب موسى الأحمدي نويوات: حياته وآثاره، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، ط:1، 2002م، الجزائر، ص:64.
[7] كلمة العلاّمة مبارك الميلي عن الكتاب في قسم تقاريظ الكتاب: المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي، ص:9-10.
[8] موسى بن محمد بن الملياني الأحمدي: المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي ص:10-11.
[9] تقريظ الباحث سعدي الجزائري: المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي، ص:11.
[10] كلمة الأديب أحمد سحنون في قسم تقاريظ الكتاب: المرجع نفسه، ص:13.
[11] كلمة الأديب سعد الدين الأحمديّ نويوات في قسم تقاريظ الكتاب: المرجع نفسه ص:18.
[12] نجيب بن خيرة: الأديب موسى الأحمدي نويوات: حياته وآثاره، ص:69.
[13] موسى بن محمد بن الملياني الأحمدي نويوات: المحادثة العربية للمدارس الجزائرية منشورات دار الكتاب اللبناني، ط:3، بيروت، لبنان، 1964م، ص:2 وما بعدها.
[14] موسى الأحمدي نويوات: شرح الأسئلة الرمضانية، منشورات الشركة الوطنية الجزائرية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م، ص:5.
[15] جزء من كلمة للعلاّمة محمد الصالح الصديق، وردت في كتاب: نجيب بن خيرة: الأديب موسى الأحمدي نويوات: حياته وآثاره، ص:275.

(16) المرجع نفسه، ص:301.

(17) نفسه، ص:283.

(18) نفسه، ص:290.

(19) يُنظر: من أخبار مشروع الذخيرة العربية (أو الانترنت العربي)، وثيقة رسمية أعدت من طرف مجموعة من الخبراء بطلب من الأمين العام لجامعة الدول العربية لدراسة هذا المشروع وتقديمه للجامعة، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، العدد الثاني، ذو القعدة1426هـ/ديسمبر2005م، ص:263 وما بعدها.

(20) يُنظر: من أخبار مشروع الذخيرة العربية (أو الانترنت العربي)، المرجع نفسه، ص:266 وص: 274.

(21) د. عثمان حشلاف: التمكن اللغوي أساس تحصيل العلوم الإنسانية، وشرط للقيام برسالة المعلم، مجلة المبرز، العدد:13، جويلية-ديسمبر1999م، ص:43.

(22) د. عبد الرحمن الحاج صالح: أدوات البحث العلمي في علم المصطلح الحديث، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، العدد السابع، السنة الثالثة، جمادى الثاني1429هـ-جوان2008م ص:12 وما بعدها.

(23) د. عبد الرحمن الحاج صالح: اللغة العربية والبحث العلمي المعاصر أمام تحديات العصر مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، مجلة لغوية علمية تصدر عن المجمع الجزائري للغة العربية، العدد الثاني، السنة الأولى، ذو القعدة1426هـ-ديسمبر2005م، ص:12.

(24) د. عبد الرحمن الحاج صالح: اللغة العربية والبحث العلمي المعاصر أمام تحديات العصر المرجع نفسه، ص:18 وما بعدها.

(25) د. عبد الرحمن الحاج صالح: اللغة العربية والبحث العلمي المعاصر أمام تحديات العصر المرجع نفسه، ص:18 وما بعدها.

(26) د. عبد الرحمن الحاج صالح: المرجع نفسه، ص:21.

(27) د. خير الله عصار: تدريس اللغة العربية للكبار، منشورات دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط:1، دمشق، سوريا، 1996م، ص:9.

(28) د. خير الله عصار: تدريس اللغة العربية للكبار، ص:11-12.

(29) د. خير الله عصار: المرجع نفسه، ص:157.

(30) د. خير الله عصار: المرجع نفسه، ص:36.

[31] د. خير الله عصار: المرجع نفسه، ص:40.

[32] د. خير الله عصار: المرجع نفسه، ص:43 وما بعدها.

[33] د. خير الله عصار: المرجع نفسه، ص:85 وما بعدها.